

احكام علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

(٤٥٠-٥٠٥ م)

ومعه

المغني عنه عمل الأصفار في الأصفار
في تخرج ما في الإصباح والاهتمام
للإمام زين الدين أبي الفضل العراقي

(٧٢٥-٨٠٦ م)

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

الإحياء المملوك للدين

تصنيف

الإمام ميرزا أبي حامد محمد بن محمد الغفراني

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المعنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلمة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسن العرفي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماما للشفع الحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: ترفيع الأحياء بمقتضى إله الإحياء، للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله
ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني: الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي، وذهب به اعتراضات
أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف: للمعارف بالله تعالى الإمام الشهير وردى

الجزء الثاني

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الباب الأول : فيما لا بد للمنفرد منه

وهو ثلاثة أقسام : قسم قبل الأكل ، وقسم مع الأكل ؛ وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول : في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي

الأول : أن يكون الطعام بعد كونه حلالا في نفسه طيبا في جهة مكسبه موافقا لسنة والورع لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا يحكم هوى ومداينة في دين - على ماسيأتي في معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام - وقد أمر الله تعالى بـ « كل الطيب وهو الحلال » وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل تفخيما لأمر الحرام وتعظيما لبركة الحلال فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) إلى قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) الآية ، فالأصل في الطعام كونه طيبا وهو من الفرائض وأصول الدين .

الثاني : غسل اليد قال صلى الله عليه وسلم « الوضوء قبل الطعام ينقي الفقر ويغسل يدي اللحم » (١) ، وفي رواية « ينقي الفقر قبل الطعام ويغسل يدي » ، ولأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة . ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجرى منه مجرى الطهارة من الصلاة :

الثالث : أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بطعام وضعه على الأرض » (٢) ، فهذا أقرب إلى التواضع فإن لم يكن فعلى السفرة فإنها تذكر السفر ويتذكر من السفر سفر الآخرة وحاجته إلى زاد التقوى . وقال أنس بن مالك رحمه الله « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة » (٣) ، قيل فعلى ماذا كنتم تأكلون ؟ قال على السفرة . وقيل : أربع أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الموائد والمناخل والأشنان والشبع واعلم أنا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على المائدة منهى عنه نهى كراهة أو تحريم إذا لم يثبت فيه نهى . وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس كل ما أبدع منهيا ، بل المنهى بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس في المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه . والأربع التي جمعت في أنها مبدعة ليست متساوية بل الأشنان حسن لما فيه من النظافة فإن الغسل مستحب للنظافة والأشنان أتم في التنظيف ، وكانوا لا يستعملونه لأنه ربما كان لا يعتاد عندهم أو لا يتيسر ، أو كانوا مشغولين بأجور أهم من المبالغة في النظافة فقد كانوا لا يغسلون اليد أيضا ، وكانت مناديلهم أخص أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل

الباب الأول

(١) حديث « الوضوء قبل الطعام ينقي الفقر ويغسل يدي اللحم » وفي رواية « ينقي الفقر قبل الطعام ويغسل يدي » أخرجه القضاة في مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن أبيه متصلا باللفظ الأول ، ولطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « الوضوء قبل الطعام ويغسل يدي » ولأن داود والترمذي من حديث سلمان « ركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » وكلها ضعيفة (٢) حديث « كان إذا أتى بطعام وضعه على الأرض » أخرجه أحمد في كتاب الزهد من رواية الحسن مرسلًا ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه وفيه جملة وجه أحمد وضعه الدارقطني . (٣) حديث أنس « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ... » الحديث رواه البخاري .

مستحبا . وأما المنخل فالمقصود منه تطيب الطعام وذلك مباح ما لم ينته إلى التعم المفرط . وأما المائدة فتيسر للأكل وهو أيضا مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعظيم . وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهيج الشهوات وتحريك الأدواء في البدن فلتدرك التفرقة بين هذه المبدعات .

الرابع : أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ويستديمها كذلك . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى ^(١) وكان يقول « لا آكل متكئا ^(٢) » إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد ^(٣) ، والشرب متكئا مكروه للعدة أيضا ويكره الأكل نائما ومتكئا إلا ما يتقل به من الحبوب . روى عن علي كرم الله وجهه أنه أكل كعكا على ترس وهو مضطجع ويقال منبطح على بطنه والعرب قد تفعله .

الخامس : أن ينوى بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالأكل ولا يقصد التلذذ والتعم بالأكل . قال إبراهيم بن شيان : منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئا لشهوتي . ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل مادون الشبع فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوى عليها فن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإثارة القناعة على الاتساع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس ^(٤) » ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحد ما لا بد من تقديمه على الأكل . ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطيب . وسيأتي فائدة قلة الأكل وكيفية التدرج في التقليل منه في كتاب كسر شهوة الطعام من ربيع المهلكات .

السادس : أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التعم وطلب الزيادة وانتظار الآدم بل من كرامة الخبز أن لا ينتظر به الآدم وقد ورد الأمر بإكرام الخبز ^(٥) فكل ما يديم الرق ويقوى على العبادة فهو خير كثير لا ينبغي أن يستحقر بل لا ينتظر بالخبز الصلاة إن حضر وقتها إذا كان في الوقت متسع . قال صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء والعشاء فابدهوا بالعشاء ^(٦) » وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشاءه . ومهما كانت النفس لا تتوق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة . فأما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان في التأخير ما يريد الطعام أو يشوش أمره فتقديمه أحب عند اتساع الوقت ، تأقت النفس أو لم تتق ، لعموم الخبر ولأن القلب لا يخلو عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالبا .

(١) حديث « ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن بشر في أثناء حديث « أتوا تلك القصصة فالتفتوا عليها فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وله والنسائي من حديث أنس « رأيته يأكل وهو مقنع من الجوع » وروى أبو الحسن بن المقرئ في الشمايل من حديثه « كان إذا تمد على الطعام استوفى على ركبتيه اليسرى وأقام اليمنى ثم قال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفضل كما يفعل العبد » وإسناده ضعيف . (٢) حديث « كان يقول لا آكل متكئا » أخرجه البخاري من حديث أبي جحيفة .

(٣) حديث « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » تقدم قبله من حديث أنس بلفظ « وأفضل » بدل « وأجلس » ورواه البزار من حديث ابن عمر دون قوله « وأجلس » . (٤) حديث « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث المقداد بن معد يكرب . (٥) حديث « أكرموا الخبز » أخرجه البزار والبيهقي وابن قانع من حديث عبد الله بن أم حرام بإسناد ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات .

(٦) حديث « إذا حضر العشاء فابدهوا بالعشاء » تقدم في الصلاة والمعروف « وأقيمت الصلاة » .

السابع : أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده . قال صلى الله عليه وسلم « اجتمعوا على طعامكم بيارك لكم فيه »^(١) ، وقال أنس رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي » .

القسم الثاني : في آداب حالة الأكل

وهو أن يبدأ بـ « بسم الله » في أوله وبـ « الحمد لله » في آخره . ولو قال مع كل لقمة « بسم الله » فهو حسن حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى ، ويقول مع اللقمة الأولى « بسم الله » ومع الثانية « بسم الله الرحمن » ومع الثالثة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويجهر به ليندكر غيره . وبأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجوّد مضغها ومالم يبتلعها لم يمتد اليد إلى الأخرى فإن ذلك عجلة في الأكل وأن لا يذم ما كولا . كان صلى الله عليه وسلم لا يعيب ما كولا كان إذا أعجبه أكله ولا تركه^(٣) ، وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فإن له أن يجمل يده فيها قال صلى الله عليه وسلم « كل مما يليك »^(٤) ، ثم كان صلى الله عليه وسلم يدور على الفاكهة ، فقيل له في ذلك فقال : ليس هو نوعاً واحداً^(٥) ، وأن لا يأكل من دورة القصعة ولا من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكين^(٦) ولا يقطع اللحم أيضاً فقد نهى عنه وقال : انهشوه نهشاً^(٧) ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يأكل به قال صلى الله عليه وسلم « أكرموا الخبز فإن الله تعالى أنزله من بركات السماء » ولا يمسح يده بالخبز . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدرى في أى طعامه البركة »^(٨) ، ولا ينفخ في الطعام الحار^(٩) فهو منهى عنه بل يصبر إلى أن يسهل أكله ويأكل من التمر أو سبعة أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو ما اتفق ولا يجمع بين التمر والتوى في طبق ولا يجمع في كفه بل يضع التواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقبها ، وكذا كل ماله عجم وثقل . وأن لا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله . وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه فقد قيل إن ذلك مستحب في الطب وإنه دباغ المعدة .

وأما الشرب : فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول « بسم الله » ويشربه مصاً لا عباً قال صلى الله عليه وسلم

- (١) حديث « اجتمعوا على طعامكم بيارك لكم فيه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشى بن حرب بإسناد حسن .
- (٢) حديث أنس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .
- (٣) حديث أنس « كان لا يعيب ما كولا إن أعجبه أكله ولا تركه » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « كل مما يليك » متفق عليه من حديث عمر بن أبي سلمة . (٥) حديث « كان يدور على الفاكهة وقال ليس هو نوعاً واحداً » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عكرش بن دويب وفيه « وجاءت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطبق فقال يا عكرش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد » قال الترمذى غريب ورواه ابن حبان في الضعفاء . (٦) حديث « النهى عن قطع الخبز بالسكين » رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة وفيه « توح ابن أبي هريرة وهو كذاب ورواه البيهقي في الشعب من حديث أم سلمة بسند ضعيف . (٧) حديث « النهى عن قطع اللحم بالسكين » أخرجه أبو داود من حديث عائشة وقال « فانهشوه نهشاً » قال النسائي منكر . وأخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث سفوان بن أمية « وانهشوا اللحم نهشاً » وسنده ضعيف .
- (٨) حديث « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدرى في أى طعامه البركة » أخرجه مسلم من حديث أنس وجابر . (٩) حديث « النهى عن النفخ في الطعام والمراب » أخرجه أحمد في مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبي داود والترمذى وصححه ابن ماجه إلا أنهم قالوا « في الإناه » وأخرجه الترمذى وصححه من حديث أبي سعيد « نهى عن النفخ في المراب » .

مصرف الماء مصا ولا تبعوه عبا فإن الكباد من العب (١) ، ولا يشرب قائما ولا مضطجعا فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب قائما (٢) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما (٣) ، ولعله كان لعذر . ويراعى أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه وينظر في الكوز قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز بل ينحيه عن فمه بالحد ويرده بالتسمية . وقد قال صلى الله عليه وسلم بعد الشرب : الحمد لله الذى جعله عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا (٤) ، والكوز وكل ما يدار على القوم يدار بمنة . وقد شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا وأبو بكر رضى الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه وعمر ناحيته فقال عمر رضى الله عنه : أعط أبابكر فناول الأعرابي وقال الأيمن فالأيمن ، ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله في أواخرها ويسمى الله في أوائلها ويقول في آخر النفس الأول : الحمد لله ، وفي الثاني يزيد : رب العالمين ، وفي الثالث يزيد : الرحمن الرحيم ، فهذا قريب من عشرين أدبا في حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار .

القسم الثالث : ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع ويلق أصابعه ثم يمسح بالتمديد ثم يغسلها ويلتقط فتات الطعام قال صلى الله عليه وسلم : « من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفى في ولده » (٥) ، ويتخلل ولا يبتلع كل ما يخرج من بين أسنانه بالخلال إلا ما يجمع من أصول أسنانه بلسانه أما المخرج بالخلال فيرميه وليتمضمض بعد الخلال فيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام . وأن يلحق القصة ويشرب ماءها . ويقال : من لمق القصة وغسلها وشرب ماءها كان له عتق رقبة . وأن التقاط الفتات مهور الحور العين وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله) ومهما أكل حلالا قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم أطعمنا طيبا واستعملنا صالحا . وإن أكل شبة فليقل : الحمد لله على كل حال اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولإيلاف قريش . ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولا فإن أكل طعام الغير فليدع له وليقل : اللهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته ويسر له أن يفعل فيه خيرا وقنعه بما أعطيته واجعلنا وإياه من الشاكرين . وإن أفطر عند قوم فليقل : أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة . وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبة ليطفى بدموعه وحزنه حر النار التى تعرض لها لقوله صلى الله عليه وسلم : كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به (٦) ، وليس من يأكل ويبيكى كمن يأكل ويلهو . وليقل إذا أكل لبنا : اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه (٧) فإن أكل غيره قال : اللهم بارك لنا فيما رزقنا وارزقنا خيرا

(١) حديث « مصرف الماء مصا ولا تبعوه عبا » أخرجه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس بن مالك بالهبط الأول ولأبى داود في المراسيل من رواية عطاء بن أبى رباح « إذا شربتم فاشربوا مصا » . (٢) حديث « النهى عن الشرب قائما » أخرجه مسلم من حديث أنس وأبى سعيد وأبى هريرة . (٣) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما » متفق عليه من حديث ابن عباس ، وذلك من زمزم . (٤) حديث « كان يقول بعد الشرب الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » أخرجه الطبرانى في الدعاء مرسل من رواية أبى جعفر محمد بن على بن الحسين . (٥) حديث « من أكل ما سقط من المائدة عاش في سعة وعوفى في ولده » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر بنلقط « أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحق » وله من حديث الحاج بن علاط « أعطى سعة من الرزق ووقى في ولده » وكلاهما منكر جدا . (٦) حديث « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » هو في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ « سحت » وهو عند الترمذى وحسنه بلفظ « لا يربو اللحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به » (٧) حديث « القول عند أكل اللبن اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عباس « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه » ومن سقاها الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه .

منه ، فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم اللين لعموم نفعه . ويستحب عقيب الطعام أن يقول : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا سيدنا ومولانا يا كافي من كل شيء ولا يكنى منه شيء أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت من عيلة فلك الحمد حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه اللهم أطعمتنا طيباً فاستعملنا صالحاً واجعله عونا لنا عن طاعتك ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك ، وأما غسل اليدين بالأشنان فكيفيته أن يجعل الأشنان في كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليمين أولاً ، ويضرب أصابعه على الأشنان اليايس فيمسح به شفتيه ، ثم ينعم غسل القم بأصبعه ويدلك ظاهر أسنانه وباطنها والحنك واللسان ، ثم يغسل أصابعه من ذلك بالماء ثم يدلك ببقية الأشنان اليايس أصابعه ظهره وبطنه ويستغنى بذلك عن إعادة الأشنان إلى القم وإعادة غسله .

الباب الثانى : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهى سبعة

(الأول) أن لا يبتدئ بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به فحينئذ ينبغى أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له (الثانى) أن لا يسكرتوا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين فى الأطعمة وغيرها .

(الثالث) أن يرفق برفيقه فى القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً . بل ينبغى أن يقصد الإيثار ولا يأكل تمرتين فى دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم . فإن قلل رفيقه نشاطه ورغبه فى الأكل وقال له : « كل ، ولا يزيد فى قوله » كل ، على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإفراط . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خوطب فى شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث ^(١) وكان صلى الله عليه وسلم يكرر الكلام ثلاثاً ^(٢) فليس من الأدب الزيادة عليه . فأما الحلف عليه بالأكل فمنوع قال الحسن بن على رضى الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه (الرابع) أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له : كل . قال بعض الأدباء : أحسن الآكلين أكلاً من لا يحوج صاحبه إلى أن يتفقده فى الأكل وحمل عن أخيه مؤنة القول . ولا ينبغى أن يدع شيئاً مما يشتهي لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع بل يجرى على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئاً فى الوحدة ، ولكن يعزود نفسه حسن الأدب فى الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع . نعم لو قلل من أكله لإيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن ، وإن زاد فى الأكل على نية المساعدة وتحريك نشاط القوم فى الأكل فلا بأس به بل هو حسن . وكان ابن المبارك يقدم فاخر الرطب إلى إخوانه ويقول : من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهما . وكان يعد التوى ويعطى كل من له فضل نوى بعدده دراهم وذلك لدفع الحياء وزيادة النشاط فى الانبساط ، وقال جعفر بن محمد رضى الله عنهما . أحب إخوانى إلى أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمة وأقلهم على من يحوجنى إلى تعهده فى الأكل . وكل هذا إشارة إلى الجرى على المعتاد وترك التصنع . وقال جعفر رحمه الله أيضاً : تبين جودة محبة الرجل لأخيه بجودة أكله فى منزله (الخامس) أن غسل اليد فى الطست لا بأس به وله أن يتختم فيه

الباب الثانى : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل

(١) حديث « كان إذا خوطب فى شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث » أخرجه أحمد من حديث جابر فى حديث طويل ومن حديث أبى حنيفة أيضاً وإسنادهما حسن . (٢) حديث « كان يكرر الكلمة ثلاثاً » أخرجه البخارى من حديث أنس « كان يعيد الكلمة ثلاثاً » .

إن أكل وحده وإن أكل مع غيره فلا ينبغي أن يفعل ذلك . فإذا قدم الطست إليه غيره لإكراما له فليقبله . اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني رضي الله عنهما على طعام فقدم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس : إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردّها فإنما يكرم الله عز وجل . . وروى أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضيرير فصب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : يا أبا معاوية تدري من صب على يدك ؟ فقال لا ، قال : صبه أمير المؤمنين فقال . يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجلته فأجلك الله وأكرمك كما أجلت العلم وأهله . ولا بأس أن يجتمعوا على غسل اليد في الطست في حالة واحدة فهو أقرب إلى التواضع وأبعد عن طول الانتظار . فإن لم يفعلوه فلا ينبغي أن يصب ماء كل واحد بل يجمع الماء في الطست قال صلى الله عليه وسلم « اجتمعوا وضوءكم جمع الله شملكم » (١) ، قيل إن المراد هذا . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار : لا يرفع الطست من بين يدي قوم إلا مملوءة ولا تشبهوا بالعجم . وقال ابن مسعود : اجتمعوا على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الأعاجم . والخادم الذي يصب الماء على اليد كره بعضهم أن يكون قائما وأحب أن يكون جالسا لأنه أقرب إلى التواضع ، وكره بعضهم جلوسه فروى أنه صب الماء على يد واحد خادما جالسا فقام المصوب عليه فقيل له : لم قت ؟ فقال : أحدنا لابد وأن يكون قائما . وهذا أولى لأنه أيسر للصب وللغسل وأقرب إلى تواضع الذي يصب وإذا كان له نية فيه فتمكينه من الخدمة ليس فيه تكبر فإن العادة جارية بذلك : ففي الطست إذا سبعة آداب : أن لا يبرق فيه ، وأن يقدم به المتبوع ، وأن يقبل الإكرام بالتقديم ؛ وأن يدار يمنة ، وأن يجتمع فيه جماعة ، وأن يجمع الماء فيه وأن يكون الخادم قائما وأن يجمع الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه ، وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يده يضيفه ، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أول نزوله عليه وقال : لا يروءك ما رأيت مني بخدمة الضيف فرض . (السادس) أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يغض بصره عنهم ويشغل نفسه ولا يسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يمد اليد وبقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا فإن كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقلل الأكل حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيرا ، فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعا للخجلة عنهم . (السابع) أن لا يفعل ما يستقذره غيره فلا ينفذ يده في القصعة ولا يقدم إياها رأسه عند وضع اللقمة في فيه ، وإن أخرج شيئا من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة فقد يكرهه غيره واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرقة والخل ، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات .

الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير . قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم . وقال الحسن رحمه الله : كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فن دونهم يحاسب عليها ألبة إلا نفقة الرجل على إخوانه في الطعام فإن الله يستحي أن يسأل عن ذلك . هذا مع ما ورد من الأخبار في الإطعام قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم مادامت مأثنته موضوعة

(١) حديث « اجتمعوا وضوءكم جمع الله شملكم » رواه القضاي في مسند الصهاب من حديث أبي هريرة باسناد لا بأس به وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة إبراهيم وقال أنه مضل وفيه نظر .

بين يديه حتى ترفع^(١) ، وروى عن بعض علماء خراسان : أنه كان يقدم إلى إخوانه طعاما كثيرا لا يقدر على أكل جميعه وكان يقول بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يحاسب من أكل فضل ذلك »^(٢) ، فأنا أحب أن أستكثر مما أقدمه إليكم لتأكل فضل ذلك . وفي الخبر : « لا يحاسب العبد على ما يأكله مع إخوانه »^(٣) ، وكان بعضهم يكسر الأكل مع الجماعة لذلك ويقبل إذا أكل وحده . وفي الخبر : « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان »^(٤) ، وقال على رضي الله عنه : لأن أجمع لإخواني على صاع من طعام أحب إلى من أن أعتق رقبة . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه : وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون : الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون إلا عن ذواق . وقيل اجتماع الإخوان على الكفاية مع الانس والالفة ليس هو من الدنيا . وفي الخبر : « يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جمعت فلم تطعمني فيقول كيف أطعمتك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : جاع أخوك المسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتي »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا جاءكم الزائر فأكرموه »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة غرضا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « خيركم من أطعم الطعام »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار بسبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام »^(٩) .

وأما آدابه : فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام . أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوما مرتبصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة وقد نهى عنه قال الله تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ يعني منتظرين حينه ونضجه . وفي الخبر من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما^(١٠) ، ولكن حق الداخل إذا لم يتريص وافترق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له ، فإذا قيل له : كل . نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد ، وإن

الباب الثالث : في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

(١) حديث « لا تزال الملائكة تصل على أحدكم مادامت مأثمة موضوعة بين يديه حتى يرفع » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف . (٢) حديث « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لا يحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام » لم أقف له على أصل . (٣) حديث « لا يحاسب العبد بما يأكله مع إخوانه » هو في الحديث الذي بعده معناه . (٤) حديث « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان » أخرجه الأزدى في الضعفاء من حديث جابر « ثلاثة لا يسألون عن النعم : الصائم والمتسحر والرجل يأكل مع ضيفه » أورده في ترجمه سليمان بن داود الجزري وقال فيه : منكر الحديث ، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس نحوه من حديث أبي هريرة . (٥) حديث « يقول الله للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جمعت فلم تطعمني ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « استطعمتك فلم تطعمني » . (٦) حديث « إذا جاءكم الزائر فأكرموه » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث أنس وهو حديث منكر قاله ابن أبي حاتم في العلل عن أبيه . (٧) حديث « إن في الجنة غرضا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي من حديث علي وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق وقد تكلم فيه من قبل حفظه . (٨) حديث « خيركم من أطعم الطعام » أخرجه أحمد والحاكم من حديث صهيب وقال صحيح الإسناد . (٩) حديث « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقاله ابن حبان ليس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الذهبي غريب منكر . (١٠) حديث « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما » أخرجه البيهقي من حديث عائشة نحوه وضعفه ولأبي داود من حديث ابن عمر « من دخل على فير دعوة دخل سارقا وخرج مفيرا » لمسناده ضعيف .

كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغي أن يأكل ، بل ينبغي أن يتعلل ، أما إذا كان جائعاً فقصده بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به . قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جوعاً^(١) والدخول على مثل هذه الحالة إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السنن . كان عون بن عبد الله المسعودي له ثلاثمائة وستون صديقاً يدور عليهم في السنة . ولاحق ثلاثون يدور عليهم في الشهر . ولاحقة سبعة يدور عليهم في الجمعة . فكان إخوانهم معلومهم بدلا عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادة لهم فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقاً بصداقته عالماً بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذن ، إذ المراد من الإذن الرضا لاسيما في الأطمعة وأمرها على السعة . فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه . ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب . وقد قال تعالى ﴿ أو صدقكم ﴾ ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان الطعام من الصدقة فقال : بلغت الصدقة محلها^(٢) وذلك لعلمه بسرورها بذلك . لذلك يجوز أن يدخل الدار بغير استئذان اكتفاء بعلمه بالإذن ، فإن لم يعلم فلا بد من الاستئذان أولاً ثم الدخول . وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن . وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول : هكذا كنا . وروى عن الحسن رضي الله عنه أنه كان قائماً يأكل من متاع يقال في السوق يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه قسبة فقال له هشام مابدا لك يا أبا سعيد في الورع تأكل متاع الرجل بغير إذن ؟ فقال . يالكع اتل على آية الاكل فتلا إلى قوله تعالى ﴿ أو صدقكم ﴾ فقال . فمن الصديق يا أبا سعيد ؟ قال : من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب . ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثوري وجعل يقول : ذكرتوني أخلاق السلف هكذا كانوا ، وزار قوم بعض التابعين ولم يكن عنده ما يقدمه إليهم فذهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه في المنزل فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبزها وغير ذلك لحمله كله فقدمه إلى أصحابه وقال . كلوا فجاء رب المنزل فلم ير شيئاً فقيل له . قد أخذ فلان ، فقال : قد أحسن ، فلما لقيه قال : يا أخى إن عادوا فعد . فهذه آداب الدخول .

وأما آداب التقديم : فترك التكلف أولاً وتقديم ما حضر فإن لم يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه . وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمع نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم . دخل بعضهم على زاهد وهو يأكل فقال : لولا أني أخذته بدين لأطعمتك منه ، وقال بعض السلف في تفسير التكلف . أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت بل تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة . وكان الفضيل يقول : إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه . وقال بعضهم . ما أبالي بمن أأثاني من إخواني فإني لا أتكلف له إنما أقرب ما عندي ولو تكلفت له لكرهيت مجيئه ومللته ؟ وقال بعضهم : كنت أدخل على أخ لي فيتكلف لي فقلت له إنك لا تأكل وحدك هذا ولا أنا فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه ؟ فلما أن تقطع هذا التكلف أو أقطع الجوع ، فقطع

(١) حديث « قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه » أما قصة أبي الهيثم فرواها الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح والقصة عند مسلم لكن ليس فيها ذكر لأبي الهيثم وإنما قال « رجل من الأنصار » وأما حديث قصد منزل أبي أيوب فرواها الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف . (٢) حديث « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان من الصدقة فقال : بلغت الصدقة مكانها » متفق عليه من حديث عائشة « أهدى لبريرة لحم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو لها صدقة ولنا هدية » وأما قوله « بلغت محلها » فقوله في النسخة التي أعطيتها نسبة من الصدقة وهو متفق عليه أيضاً من حديث أم عطية .

التكاف ودام اجتماعنا بسببه ، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فججف بعياله ويؤذى قلوبهم . روى أن رجلا دعا عليا رضي الله عنه فقال علي : أجيئك على ثلاث شرائط لا تدخل من السوق شيئا ولا تدخل ماني البيت ولا تجحف بعيالك . وكان بعضهم يقدم من كل ماني البيت فلا يترك نوعا إلا ويحضر شيئا منه . وقال بعضهم : دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزا وخلا وقال : لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفتم لكم ^(١) وقال بعضهم : إذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر وإن استزرت فلا تبقي ولا تذر . وقال سلمان أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا ^(٢) وفي حديث يونس النبي صلى الله عليه وسلم : أنه زاره لإخوانه فقدم إليهم كسرا وجزلهم بقللا كان يزرعه ثم قال لهم : كلوا لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفتم لكم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره من الصحابة : أنهم كانوا يقدمون ما حضر من الكسر اليابسة وحشف الترويقولون : لا ندرى أيهما أعظم وزرا الذي يحتقر ما يقدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه ؟ (الأدب الثاني) وهو الزائر أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على الزور إحضاره فإن خيره أخوة بين طعامين فليستخير أيسرهما عليه ؛ كذلك السنة . ففي الخبر أنه ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما ^(٣) وروى الأعمش عن أبي وائل أنه قال : مضيت مع صاحب لي نزور سلمان فقدم إلينا خبز شعير وملح جريشا ؛ فقال صاحبي : لو كان في هذا الملح سمعترا كان أطيب ؛ فخرج . لمكان فرهن مطهرته وأخذ سمعترا ، فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا ؛ فقال سلمان : لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة . هذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه أو كراهته له فإن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح ، فعل الشافعي رضي الله عنه ذلك مع الزعفراني إذ كان نازلا عنده ببغداد وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلها إلى الجارية فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام وألحق بها لونا آخر بخطه ، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر وقال : ما أمرت بهذا ؟ فعرضت عليه الرقعة ملحنا فيها خط الشافعي فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سرورا باقتراح الشافعي عليه . وقال أبو بكر السكتاني : دخلت على السري فجاء بقتيت وأخذ يجعل نصفه في القدح فقلت له : أي شيء تعمل وأنا أشربه كله في مرة واحدة ؟ فضحك وقال : هذا أفضل لك من حجة . وقال بعضهم : الأكل على ثلاثة أنواع ، مع الفقراء بالإيثار ومع الإخوان بالانبساط ومع أبناء الدنيا بالأدب (الأدب الثالث) أن يشق الزور أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن وفيه أجر وفضل جليل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صادف من أخيه شهوة غفر له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله تعالى ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه جابر « من لاذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف حسنة ومحى عنه ألف سيئة

(١) حديث « دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزا وخلا وقال لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفتم لكم » رواه أحمد دون قوله « لولا أنا نهينا » وهو من حديث سلمان الفارسي وسيأتي بيده وكلامها ضعيف وللبخاري عن عمر بن الخطاب « نهينا عن التكلف » . (٢) حديث سلمان « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، ولأحمد « لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا - أولولاً أن نهينا - أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلفنا لك » وللطبراني « نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا » . (٣) حديث « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما » متفق عليه من حديث عائشة وزاد « ما لم يكن أئما » ولم يذكرها مسلم في بعض طرقه . (٤) حديث « من صادف من أخيه شهوة غفر الله له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله عز وجل » أخرجه الطبراني من حديث أبي القرداء « من وافق من أخيه شهوة غفر له » قال ابن الجوزي حديث موضوع وروى ابن حبان والعمري في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق « من سر مؤمنا فإمنا سر الله ... الحديث » قال العمري باطل لأصله .

ورفع له ألف درجة وأطعمه الله من ثلاث جنان جنة الفردوس وجنة عدن وجنة الخلد ^(١) ، (الآداب الرابع) أن لا يقول له : هل أقدم لك طعاما ؟ بل ينبغي أن يقدم إن كان . قال الثوري : إذا زارك أخوك فلا تقل له : أنا أكل ؟ أو أقدم إليك ؟ ولكن قدم فإن أكل وإلا فارفع . وإن كان يريد أن يطعمهم طعاما فلا ينبغي أن يظهرهم عليه أو يصفه لهم . قال الثوري : إذا أردت أن لا تطعم عيالك مما تأكله فلا تحبثهم به ولا يرونه معك . وقال بعض الصوفية : إذا دخل عليكم الفقراء فقدموا إليهم طعاما وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألة فإذا دخل القراء فدلوهم على المحراب .

الباب الرابع في آداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة : الدعوة أولا ثم الإجابة ثم الحضور ثم تقديم الطعام ثم الأكل ثم الانصراف ولتقدم على شرحها إن شاء الله تعالى .

فضيلة الضيافة : قال صلى الله عليه وسلم : لا تسكفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم ، لا خير فيمن لا يضيف ^(٣) ، ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضيفه ومر بامرأة لها شويها فذبحت له . فقال صلى الله عليه وسلم : انظروا إليهما إنما هذه الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه خلقا حسنا فعل ^(٤) . وقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه نزل به صلى الله عليه وسلم ضيف فقال : قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فأسلمني شيئا من الدقيق إلى رجب ، فقال اليهودي : والله ما أسلفه إلا برهن فأخبرته فقال : والله إنني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني لأديته فاذهب بدرعي وارهنه عنده ^(٥) ، وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يتغذى معه وكان يكنى أبا الضيفان ، ولصدق نيته فيه دامت ضيافته في مشهده إلى يومنا هذا ، فلا تنقض ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوام الموضع إنه لن يخل إلى الآن ليلة عن ضيف ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ فقال : إطعام الطعام وبذل السلام ^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم : في الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ^(٧) ،

(١) حديث جابر « من قذف أخاه بما يشتم كتب الله له ألف ألف حسنة ... الحديث » ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر وقال أحمد بن حنبل هذا باطل كذب .

الباب الرابع : في آداب الضيافة

(٢) حديث « لا تسكفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الله الضيف فقد أبغض الله أبغضه الله » أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لا تسكفون أحد لضيفه ، لا يقدر عليه » وفيه محمد بن القرج الأزرق متكلم فيه . (٣) حديث « لا خير فيمن لا يضيف » أخرجه أحمد من حديث عتبة بن عامر وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يصفه ومر بامرأة لها شويها فذبحت له ... الحديث » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية أبي المنهال مرسل .

(٥) حديث أبي رافع « أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فقال قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فأسلمني شيئا من الدقيق إلى رجب ... الحديث » رواه إسحق بن راهويه في مسنده والخرائط في مكارم الأخلاق وابن مردويه في التنبيه باسناد ضعيف . (٦) حديث « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الإيمان ؟ قال : إطعام الطعام وبذل السلام » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن عوف « أي الإسلام خير ؟ قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

(٧) حديث « قال صلى الله عليه وسلم في الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي مصححه والحاكم من حديث معاذ وقد تقدم بعضه في الباب الرابع من الأذكار وهو حديث « اللهم أني أسألك فعل الخيرات » .

وسئل عن الحج المبرور فقال : « إطعام الطعام وطيب الكلام »^(١) ، وقال أنس رضي الله عنه : كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة . والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لاتحصى فلنذكر آدابها .

أما الدعوة : فينبغي للداعي أن يعتمد بدعوته الاتقياء دون الفساق قال صلى الله عليه وسلم : « أكل طعامك الأبرار »^(٢) ، في دعائه لبعض من دعا له وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تأكل إلا طعام نقي ولا يأكل طعامك إلا نقي »^(٣) ، ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص . قال صلى الله عليه وسلم : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء »^(٤) ، وينبغي أن لا يهمل أقرابه في ضيافته فإن إهمالهم إباحش وقطع رحم وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض لإباحشا لقلوب الباقين . وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان والتسني بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين . وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته قال سفيان : من دعا أحدا إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان . لأنه حمله على الأكل مع كراهة ولوعلم ذلك لما كان يأكله . وإطعام التقي إعانة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق . قال رجل خياط لابن المبارك : أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال : لا إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة أما أنت فمن الظلمة أنفسهم . وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة وقد قيل بوجوبها في بعض المواضع . قال صلى الله عليه وسلم : « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت »^(٥) .

والإجابة خمسة آداب (الأول) أن لا يميز الغني بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهي عنه ولاجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة وقال : انتظار المرققة ذل ، وقال آخر : إذا وضعت يدي في قصعة غيري فقد ذلت له رقبتي ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف السنة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين^(٦) ، ومر الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق وقد نشروا كسرا على الأرض في الرمل وهم يأكلون وهو على بغلته فسلم عليهم فقالوا له : « هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم إن الله لا يحب المتكبرين فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ثم سلم عليهم وركب وقال : قد أجبتكم فأجيبي ، قالوا : نعم ، فوعدهم وقتا معلوما فحضروا فقدم إليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم . وأما قول القائل إن من وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي ؛ فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد منه وكان يرى ذلك يدا له على المدعو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعلمه أن الداعي له يتقلد منه ويرى ذلك شرفا وذخرا لنفسه في الدنيا والآخرة فهذا يختلف باختلاف الحال فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا فليس من السنة إجابته^(٧) ، بل الأولى التعلل ، ولذلك قال بعض الصوفية . لا تجيب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه

(١) حديث « سئل عن الحج المبرور فقال إطعام الطعام وطيب الكلام » تقدم في الحج . (٢) حديث « أكل طعامك الأبرار » أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد صحيح . (٣) حديث « لا تأكل إلا طعام نقي ولا يأكل طعامك إلا نقي » تقدم في الزكاة . (٤) حديث « شر الطعام طعام الوليمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٥) حديث « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « كان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس دون ذكر المسكين وضمه الترمذي وصححه الحاكم . (٧) حديث « ليس من السنة إجابة من يطعم مباهاة أو تكلفا » أخرجه أبو داود من حديث =

سلم إليك ودیعة كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه في قول تلك الودیعة منه . وقال سري السقطي رحمه الله :
 آه على لقمة ليس على الله فيها تبعه ولا مخلوق فيها منه . فإذا علم المدعو أنه لائمة في ذلك فلا ينبغي أن يرد . وقال
 أبو تراب النخشي رحمه الله عليه : عرض على طعام فامتعت فابتليت بالجوع أربعة عشر يوما فعدلت أنه عقوبته .
 وقيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه كل من دعاك تمر إليه فقال : أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني . (الثاني) أنه
 لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه ، بل كل مسافة يمكن احتياها في العادة
 لا ينبغي أن يمتنع لأجل ذلك . يقال في التوراة أو بعض الكتب سر ميلا عد مريضا سر ميلين شيع جنازة سر ثلاثة
 أميال أجب دعوة سر أربعة أميال زر أخا في الله . وإنما قدم إجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء حق الحي فهو
 أولى من الميت وقال صلى الله عليه وسلم لو دعيت إلى كراع بالنعيم لأجبت ^(١) ، وهو موضع على أميال من المدينة
 أفطر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان ^(٢) لما بلغه وقصر عنده في سفره ^(٣) (الثالث) أن لا يمتنع لكونه
 صائما بل يحضر فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه
 ما يحتسب في الصوم وأفضل وذلك في صوم التطوع وإن لم يتحقق سرور قلبه فليصدقته بالظاهر وليفطر وإن تحقق
 أنه متكلف فليتعلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم لمن امتنع بمذر الصوم « تكلف لك أخوك » وتقول إني صائم ^(٤) ،
 وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار والإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق
 فتوايه فوق ثواب الصوم . ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب . وقد قيل الكحل والدهن
 أحد القرامين . (الرابع) أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش من غير
 حلال ، أو كان يقام في الموضع منكر من فرش ديباج أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط أو سماع
 شيء من المزامير والملاهي أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والمزل واللعب واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان
 والكذب وشبه ذلك مما يمتنع الإجابة واستجابها ويوجب تحریمها أو كراهيتها ، وكذلك إذا كان الداعي ظالما أو
 مبتدعا أو فاسقا أو شريرا أو متكلفا طلبا للباهة والفخر . (الخامس) أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن
 فيكون عاملا في أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملا للأخرة وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « لو دعيت إلى كراع لأجبت » ، وينوي الحذر من معصية الله تعالى لقوله
 صلى الله عليه وسلم « من لم يحب الداعي فقد عصي الله ورسوله ^(٥) » ، وينوي إكرام أخيه المؤمن أتباعا لقوله
 صلى الله عليه وسلم « من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله ^(٦) » ، وينوي إدخال السرور على قلبه امتثالاً لقوله

ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتبارين « قال أبو داود من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس
 والعقيل في الضعفاء » نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طعام التبايعين « والمتباريان المتمازنان بفعلهما للباهة والرياء قاله أبو موسى
 الديلمي . (١) حديث « لو دعيت إلى كراع بالنعيم لأجبت » ذكر النعم في يعرف والمعروف « لو دعيت إلى كراع » كما
 تقدم قبله بثلاثة أحاديث ويرد هذه الزيادة ما رواه الترمذي من حديث أنس « لو أهدى إلى كراع فقبهات » .

(٢) حديث « إفطاره صلى الله عليه وسلم في رمضان لما بلغ كراع النعيم » رواه مسلم من حديث جابر في عام الفتح .
 (٣) حديث « قصره صلى الله عليه وسلم في سفره عند كراع النعيم » لم أقف له على أصل وللطبراني في الصغير من حديث
 ابن عمر « كان يقصر الصلاة بالعقيق » يريد إذا بانته وهذا يرد الأول لأن بين العقيق وبين المدينة ثلاثة أميال أو أكثر وكراع
 النعيم بين مكة وعسفان والله أعلم . (٤) حديث « وقال لمن امتنع بمذر الصوم تكلف لك أخوك وهول إني صائم » أخرجه
 البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري « صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما وأنا في هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من
 القوم : إني صائم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعاكم أخوك وتكلموا بهكم . الحديث « والدارقطني نحوه من حديث جابر .
 (٥) حديث « من لم يحب الداعي فقد عصي الله ورسوله » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « من أكرم أخاه
 المؤمن فكأنما يكرم الله تعالى » ذكره الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث جابر والعقيل في الضعفاء من حديث أبي بكر ولمسنداه ضعيف

صلى الله عليه وسلم « من سر مؤمنا فقد سر الله » ^(١) وينوى مع ذلك زيارته ليكون من المتحايين فى الله إذ شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التزاور والتبادل لله ^(٢) وقد حصل البذل من أحد الجانبين فتحصل الزيارة من جانبه أيضاً ، وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو اسحتقار أخ مسلم أو مايجرى مجراه . فهذه ست نيات تلحق لإجابته بالقربات آحادها فكيف مجموعها ؟ وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لى فى كل عمل نية حتى فى الطعام والشراب وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ^(٣) ، والنية إنما تؤثر فى المباحات والطاعات أما المنهيات فلا . فإنه لو نوى أن يسر لإخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر لم تنفع النية ولم يحز أن يقال الأعمال بالنيات . بل لو قصد بالغزو الذى هو طاعة المباهاة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة . وكذلك المباح المررد بين وجوه الخيرات وغيرها يلتحق بوجوه الخيرات بالنية فتؤثر النية فى هذين القسمين لا فى القسم الثالث .

وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه ألبتة فإنه قد يكون رتب فى نفسه موضع كل واحد فخالفته تشوش عليه وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما فليتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس » ^(٤) ، ولا ينبغى أن يجلس فى مقابلة باب الحجرة التى للنساء وسترهم . ولا يكتر النظر إلى الموضع الذى يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره . ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس . وإذا دخل ضيف للبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيت المساء وموضع الوضوء ، كذلك فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما . وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم وقال : الفصل قبل الطعام لرب البيت أولى : لأنه يدعو الناس إلى كرمه لحكمه أن يتقدم بالغسل وفى آخر الطعام يتأخر بالغسل لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه . وإذا دخل فرأى منكرا غيره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف . والمنكر فرش الديباج واستعمال أواني النفضة والذهب والتصوير على الحيطان وسماع الملاهى والمزامير وحضور النسوة المتكشفات الوجوه وغير ذلك من المحرمات حتى قال أحمد رحمه الله : إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ينبغى أن يخرج ، ولم يأذن فى الجلوس إلا فى ضبة وقال : إذا رأى كلة فينبغى أن يخرج فإن ذلك تكلف لا فائدة فيه ولا تدفع حزا ولا ردا ولا تستر شيئا ؛ وكذلك قال : يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة . وقال : إذا اكترى بيتا فيه صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغى أن يحكمها فإن لم يقدر خرج . وكل ما ذكره صحيح وإنما النظر فى الكلة وتزيين الحيطان بالديباج فإن ذلك لا ينتهى إلى التحريم إذ الحرير يحرم على الرجال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذان حرام على ذكور أمتى حل لإناثها » ^(٥) ، وما على

(١) حديث « من سر مؤمنا فقد سر الله » تقدم فى الباب قبله . (٢) حديث « وجبت محبة المتزاورين فى والتبادلين فى » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ولم يذكر المصنف هذا الحديث وإنما أشار إليه . (٣) حديث « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب . (٤) حديث « إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس » أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد بنسد جيد . (٥) حديث « هذان حرامان على ذكور أمتى » أخرجه أبو داود والذائق وابن ماجه من حديث على بن وهب أبو أفلح الميمنى جهمه ابن القصاب والذائق والترمذى وصححه من حديث أبى موسى بنحوه . قلت الظاهر انقطاعه بين سعيد بن أبى هند وأبى موسى فأدخل أحمد بينهما رجلا لم يسم .

الحائظ ليس منسوباً إلى الذكور ولو حرم هذا لحرم تزيين الكعبة بل الأولى لإباحته لموجب قوله ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ لاسيما في وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر . وإن تخيل أن الرجال ينتفعون بالنظر إليه ولا يحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباج مهما لبسه الجوارى والنساء . والحيطان في معنى النساء إذ لسن موصوفات بالذكورة .

وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة (الأول) تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »^(١) ، ومهما حضر الآكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود لحق الحاضر في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير ؛ إلا أن يكون المتأخر فقيراً أو ينكسر قلبه بذلك فلا بأس في التأخير وأحد المعتنين في قوله تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ أنهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم دل عليه قوله تعالى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل خنيذ ﴾ وقوله ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ والروغان : الذهاب بسرعة وقيل في خفية وقيل جاء بفخذ من لحم وإنما سمى عجلاً لأنه عجله ولم يلبث . قال حاتم الأصم : العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لإطعام الضيف وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب^(٢) ويستحب التعجيل في الوليمة قبل الوليمة في أول يوم سنة وفي الثاني معروف وفي الثالث رياء . (الثاني) ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً . إن كانت فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استحالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة . وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ ثم قال ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد فقد قال عليه السلام « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات . ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم إذ أحضر العجل الخنيذ - أي المختوذ وهو الذي أجيد نضجه - وهو أحد معنى الإكرام أعنى تقديم اللحم . وقال تعالى في وصف الطيبات ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ المن : العسل ، والسلوى : اللحم ؛ سمي سلوى لأنه يتسلى به عن جميع الإدام ولا يقوم غيره مقامه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سيد الإدام اللحم » ثم قال بعد ذكر المن والسلوى ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ فاللحم والحلاوة من الطيبات . قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : أكل الطيبات يورث الرضا عن الله . وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل . قال المأمون : شرب الماء بثلج يخلص الشكر . وقال بعض الأدباء : إذا دعوت لإخوانك فأطعمتهم حصريمة وبورانية وسقيتهم ماء بارداً فقد أكلت الضيافة . وأنفق بعضهم دراهم في ضيافة فقال بعض الحكماء : لم تكن نحتاج إلى هذا إذا كان خبزك جيداً وماؤك بارداً وخلك حامضاً فهو كفاية . وقال بعضهم : الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان ، والتمسك على المائدة خير من زيادة لونين .

(١) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبي سريج .

(٢) حديث حاتم الأصم « العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لإطعام الطعام وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب » أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد ، الأمانة من الله والعجلة من الشيطان . وسنده ضيف وأما الاستثناء فروى أبو داود من حديث سعد بن أبي وقاص « للتؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة » قال الأعمش لا أعلم إلا أنه رفعه وروى المزني في التهذيب في ترجمة محمد بن موسى بن قيس عن مشيخة من قومه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الأمانة في كل شيء إلا في ثلاث إذا صبح في خيل الله وإذا نودي بالصلاة وإذا كانت الجنائز ... الحديث » مرسل والترمذي من حديث علي « ثلاثة لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت والجنائز إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفواً » وسنده حسن .

ويقال إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل فذلك أيضا مستحب ولما فيه من التزين بالحضرة .
وفي الخبر : إن المائدة التي أنزلت على نبي إسرائيل كان عليها من كل البقول إلا الكراث . وكان عليها سمكة عند رأسها
خل وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان ، فهذا إذا اجتمع حسن للرافقة (الثالث)
أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفى منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف
حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده . وهو خلاف السنة فإنه حيلة في استكثار الأكل . وكان من سنة المتقدمين أن
يقوموا جملة الألوان دفعة واحدة ويصفقون القصاع من الطعام على المائدة ليأكل كل واحد بما يشتهي . وإن لم يكن
عنده إلا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا يفتظروا أطيب منه . ويحكي عن بعض أصحاب المروءات أنه كان
يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ويعرض على الضيفان . وقال بعض الشيوخ : قدم إلى بعض المشايخ
لونا بالشام فقلت عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخر ، فقال : وكذا عندنا بالشام ، ولم يكن
له لون غيره فحججت منه . وقال آخر : كنا جماعة في ضيافة فقدم إليهم ألوان من الروس المشوية طيخا
وقديدا فكنا لا نأكل كل ننظر بعدها لونا أو حملا ، فجاءنا بالطست ولم يقدم غيرها ، فنظر بعضنا إلى بعض
فقال بعض الشيوخ وكان مزاحا : إن الله تعالى يقدر أن يخلق روسا بلا أبدان ، قال : وبتنا تلك الليلة
جوعا نطلب فتيتا إلى السحور . فلهذا يستحب أن يقدم الجميع أو يخبر بما عنده (الرابع) أن لا يبادر إلى رفع
الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها فاعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده
مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتغنص عليه بالمبادرة ، وهي من التمكن على المساعدة التي يقال إنها
خير من لونين فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستعجال ويحتمل أن يكون أراد به سعة المكان . حكى عن السجوري
وكان صوفيا مزاحا لحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدم إليهم حل - وكان في صاحب المائدة بخل -
فلما رأى القوم مزقوا الحل كل ممزق ضاق صدره وقال : يا غلام ارفع إلى الصبيان ، فرفع الحل إلى داخل الدار
فقام السجوري يعدو خلف الحل . فقيل له : إلى أين ؟ فقال : آكل مع الصبيان فاستحيا الرجل وأمر برد الحل . ومن
هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون بل ينبغي أن يكون آخرهم أكلا . كان بعض
الكرام يخبر القوم بجميع الألوان ويتركهم يستوفون فإذا قاربوا الفراغ جثا على ركبتيه ومد يده إلى الطعام وأكل
وقال . بسم الله ساعدوني بارك الله فيكم وعليكم ، وكان السلف يستحسنون ذلك منه (الخامس) أن يقدم من
الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة والزيادة عليه تصنع ومرامة لاسيما إذا كانت نفسه
لا تسمح بأن يأكلوا الكل ، إلا أن يقدم الكثير وهو طيب النفس لو أخذوا الجميع ونوى أن يتبرك بفضلة طعامهم ،
إذ في الحديث لا يحاسب عليه . أحضر إبراهيم بن آدم رحمه الله طعاما كثيرا على مائدته فقال له سفيان : يا أبا إسحق
أما تخاف أن يكون هذا سرفا ؟ فقال إبراهيم : ليس في الطعام سرف . فإن لم تكن هذه التبة فالتكثير تكلف . قال
ابن مسعود رضي الله عنه : نهينا أن نجيب دعوة من يباهي بطعامه وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة . ومن
ذلك كان لا يرفع من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلة طعام قط لأنهم كانوا لا يقدمون إلا قدر الحاجة
ولا يأكلون تمام الشبع . وينبغي أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه
فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتتطلق في الضيفان ألسنتهم ويكون قد أطعم الضيفان ما يتبعه كراهية قوم
وذلك خيانة في حقهم . وما بقي من الأطلعمة فليس للضيفان أخذه وهو الذي تسميه الصوفية الزلة إلا إذا صرح

صاحب الطعام بالإذن فيه عن قلب راض أو علم ذلك بقرينة حاله وأنه يفرح به ، فإن كان يظن كراهيته فلا ينبغي أن يؤخذ وإذا علم رضاه فينبغي مراعاة العدل والتصفة مع الرفقاء ؛ فلا ينبغي أن يأخذ الواحد إلا ما يخصه أو ما يرضى به رفيقه عن طوع لا عن حياء .

فأما الانصراف : فله ثلاثة آداب (الأول) أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف وقد أمر بإكرامه قال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » وقال عليه السلام « إن من سنة الضيف أن يشيع إلى باب الدار » قال أبو قتادة « قدم وفد النجاشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله فقال : كلا إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم » وتام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة . قيل للأوزاعي رضي الله عنه ما كرامة الضيف ؟ قال طلاقة الوجه وطيب الحديث . وقال يزيد بن أبي زياد ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى إلا حدثنا حديثا حسنا وأطعنا طعاما حسنا (الثاني) أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » ودعى بعض السلف برسول فلم يصادفه الرسول فلما سمع حضر وكانوا قد تفرقوا وفرغوا وخرجوا فخرج إليه صاحب المنزل وقال : قد خرج القوم ، فقال : هل بقي بقية ؟ قال : لا ، قال فكسرة إن بقيت ؟ قال : لم تبق ، قال : فالتقدر أمسحها ؟ قال : قد غسلتها ؟ فانصرف يحمد الله تعالى فقيل له في ذلك فقال : قد أحسن الرجل دعانا بنية وردنا بنية ، فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق . وحكى أن أستاذ أبي القاسم الجنيد دعاه صبي إلى دعوة أبيه أربع مرات فردده الأب في المرات الأربع وهو يرجع في كل مرة تطيبا لقلب الصبي بالحضور ولقلب الأب بالانصراف ، فهذه نفوس قد ذلت بالتواضع لله تعالى واطمأنت بالتوحيد وصارت تشاهد في كل رد وقبول عبرة فيا بينها وبين ربه ، فلا تنكسر بما يجرى من العباد من الإذلال كالا تستبشر بما يجرى منهم من الإكرام بل يرون الكل من الواحد القهار . ولذلك قال بعضهم : أنا لأجيب الدعوة إلا لاني أتذكر بها طعام الجنة أي هو طعام طيب يحمل عنا كده ومؤنته وحسابه . (الثالث) أن لا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه ويراعى قلبه في قدر الإقامة ، وإذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه قال صلى الله عليه وسلم « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة ^(١) » ، نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف النازل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان ^(٢) » .

فصل يجمع آدابا ومناهي طيبة وشرعية متفرقة

(الأول) حكى عن إبراهيم النخعي أنه قال ، الأكل في السوق دناءة ^(٣) وأسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناده قريب . وقد نقل ضده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : كنا تأكل عهد رسول الله صلى الله

(١) حديث « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة » متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي . (٢) حديث « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان » أخرجه مسلم من حديث جابر . (٣) حديث « الأكل في السوق دناءة » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة وهو ضعيف ورواه ابن عدى في الكامل من حديثه وحديث أبي هريرة

عليه وسلم ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام^(١) . وروى بعض المشايخ من المتصوفة المعروفين يأكل في السوق فقيل له في ذلك فقال : ويحك أجوع في السوق وأكل في البيت ؛ فقيل تدخل المسجد ؛ قال : أستحي أن أدخل بيته للأكل فيه . ووجه الجمع أن الأكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه ، وهو مختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص فمن لا يليق ذلك بسائر أعماله حمل ذلك على قلة المروءة وفرط الشره ويقدر ذلك في الشهادة ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعا (الثاني) قال علي رضي الله عنه : من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعا من البلاء ، ومن أكل في يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه ، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبينة حرام لم ير في جسده شيئا يكرهه واللحم ينبت اللحم والثريد طعام العرب والبسقارجات تعظم البطن وترخي الاليتين ، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمها دواء والشحم يخرج مثله من الداء ، وإن تستشفى النفساء بشيء أفضل من الرطب ، والسمك يذيب الجسد ، وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم ، ومن أراد البقاء ولا بقاء فليأكل بالغذاء وليكرر العشاء ويلبس الحذاء ، ولن يتداوى الناس بشيء مثل السمن وليقل غشيان النساء وليخف الرداء وهو الدين (الثالث) قال الحجاج لبعض الأطباء : صف لي صفة آخذ بها ولا أعدوها قال . لا تتكسح من النساء إلا فتاة ولا تأكل من اللحم إلا فتية ولا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه ولا تشرب دواء إلا من علة ولا تأكل من الفسائكة إلا لنضيجها ، ولا تأكل طعاما إلا أجدت مضغه ، وكل ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه فإذا شربت فلاتأكل عليه شيئا ، ولا تحبس الغائط والبول ، وإذا أكلت بالنهار فم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تمام ولو مائة خطوة . وفي معناه قول العرب : تعد تمد تعش تمش يعني تمدد كما قال الله تعالى - ثم ذهب إلى أهله يتمطى - أي يتمطط . ويقال إن حبس البول يفسد الجسد كما يفسد النهر ما حوله إذا سد مجراه (الرابع) في الخبر : قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرة^(٢) ، والعرب تقول ترك الغذاء يذهب بشحم الكاذبة - يعني الآلية - وقال بعض الحكماء لابنه : يا بني لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حليك أي تتعذى ، إذ به يبقى الحلم ويذول الطيش وهو أيضا أقل لشهوته لما يرى في السوق . وقال حكيم لسمين : أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فم هي ؟ قال من أكل لباب البروصغار المعروأدهن بحام بنفسج وألبس الكتان . (الخامس) الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها للمريض ، هكذا قيل . وقال بعضهم : من احتفى فهو على يقين من المكروه وعلى شك من العوائف ، وهذا حسن في حال الصحة ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمر أو إحدى عينيه رمدا فقال . أأأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : يا رسول الله إنما أأكل بالشق الآخر^(٣) ، يعني جانب السليمة فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . (السادس) أنه يستحب أن يحمل طعام إلى أهل الميت ، ولما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال عليه السلام ، إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون^(٤) ، فذلك سنة . وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه ما يهيا للتوائخ والمعينات عليه بالبكاء والجزع

(١) حديث ابن عمر « كنا نأكل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام » أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه وابن حبان . (٢) حديث « قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرة » أخرجه ابن عدى في الكامل من حديث عبد الله بن جراد بالشرط الأول والترمذي من حديث أنس بالشرط الثاني وكلاما ضعيف وروى ابن ماجه بالشرط الثاني من حديث جابر . (٣) حديث « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمرأ واحدى عينيه رمدة فقال له أنا أأكل التمر وأنت رمد فقال إنما أمضغ بالشق الآخر فضحك صلى الله عليه وسلم » أخرجه ابن ماجه من حديث صهيب بإسناد جيد . (٤) حديث « لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال صلى الله عليه وسلم إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن جعفر نحوه بسند حسن وابن ماجه نحوه من حديث أسماء بنت ميمون .

فلا ينبغي أن يؤكل معهم (السابع) لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم فإن أكره فليقل الأكل ولا يقصد الطعام الطيب رد بعض المزيكين شهادة من حضر طعام سلطان فقال : كنت مكرها ، فقال : رأيتك تقصد الطيب وتكبر اللقمة وما كنت مكرها عليه ؟ وأجبر السلطان هذا المزيكى على الأكل فقال : إما أن آكل وأخلى التزكية أو أركى ولا آكل فلم يجدوا بدا من تزكيتهم فتركوه . وحكى أن ذا النون المصري حبس ولم يأكل أياما في السجن فكانت له أخت في الله فبعثت إليه طعاما من مغزها على يد السجن فامتنع فلم يأكل ، فعاتبته المرأة بعد ذلك فقال : كان حلالا ولكن جاءني على طبق ظالم وأشار به إلى يد السجن وهذا غاية الورع . (الثامن) حكى عن فتح الموصلى رحمه الله أنه دخل على بشر الحافى زائرا فأخرج بشر درهما فدفعه لأحمد الجلاء خادمه وقال : اشتر به طعاما جيدا وأدما طيبا ، قال : فاشتريت خبزا نطيفا وقلت : لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيء اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ^(١) سوى اللبن فاشتريت اللبن واشتريت تمرا جيدا فقدمت إليه فأكل وأخذ الباقي . فقال بشر : أتدرون لم قلت اشتري طعاما طيبا ؟ لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر ، أتدرون لم لم يقل لي كل ؟ لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كل ، أتدرون لم حل مابق ؟ لأنه إذا صح التوكل لم يضرب الحل . وحكى أبو على الروذبارى رحمه الله تعالى أنه اتخذ ضيافة فأوقد فيها ألف سراج فقال له رجل : قد أسرفت ، فقال له : ادخل فكل ما أوقدته لغير الله فأطفئه فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحد منها فانقطع . واشترى أبو على الروذبارى أحمالا من السكر وأمر الخلاويين حتى بنوا جدارا من السكر عليه شرف ومحاريب على أعمدة منقرشة كلها من سكر ثم دعا الصوفية حتى هدموها واتهبوها . (التاسع) قال الشافعى رضى الله عنه : الأكل على أربعة أنحاء : الأكل بأصبع من المقت ، وبأصبعين من الكبر ، وبثلاث أصابع من السنة ^(٢) وبأربع وخمس من الشره وأربعة أشياء تقوى البدن : أكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان . وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع وكثرة اللحم وكثرة شرب الماء على الريق وكثرة أكل الحموضة . وأربعة تقوى البصر : الجلوس تجاه القبلة والكحل عند النوم والنظر إلى الخضرة وتنظيف الملابس . وأربعة توهن البصر : النظر إلى القدر والنظر إلى المصلوب والنظر إلى فرج المرأة والعود في استدبار القبلة . وأربعة تزيد في الجماع : أكل العصافير وأكل الإطريفل الأكبر وأكل الفستق وأكل الجرجير . والنوم على أربعة أنحاء . فنوم على القفا وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون في خلق السموات والأرض ، ونوم على اليمن وهو نوم العلماء والعباد ، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليهضمهم طعامهم ، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين . وأربعة تزيد في العقل : ترك الفضول من الكلام والسواك ومجالسة الصالحين والعلماء . وأربعة من العبادة : لا يخطو خطوة إلا على وضوء وكثرة السجود ولزوم المساجد وكثرة قراءة القرآن ، وقال أيضا : عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت ؟ وعجبت لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموت ؟ وقال : لم أر شيئا أنفع في الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب . والله أعلم بالصواب .

(١) حديث « اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » قاله عند شرب اللبن تقدم في آخر الباب الأول من آداب الأكل .

(٢) حديث « الأكل بثلاث أصابع من السنة » أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك « كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع » وروى ابن الجوزى في العلل من حديث ابن عباس موقوفا « كل بثلاث أصابع فإنه من السنة » .

كتاب آداب النكاح

وهو الكتاب الثاني من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تصادف سهام الأوهام في عجائب صنعه مجرى ولا ترجع العقول عن أوائل بدائعها إلا والهة حيرى ولا تزال لطائف نعمه على العالمين تترى فهي تتوالى عليهم اختياراً وقهراً . ومن بدائع أطلانه أن خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها الحرائة جبها واستبقى به نسلهم لإقهارها وقسرها . ثم عظم أمر الانساب وجعل لها قدراً لغرم بسببها السفاح وبالغ في تقييده ردعاً وزجراً وجعل اقتحامه جريمة فاحشة وأمر إمرأاً وندب إلى النكاح وحث عليه استجاباً وأمرأاً فسبحان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدماً وكسراً ثم بث بذور النطف في أراضى الأرحام وأنشأ منها خلقاً وجعله لكسر الموت جبهاً تذيبها على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعا وضرا وخيرا وشرا وعسرا ويسرا وطيا ونشرا والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالإنذار والبشرى وعلى آله وأصحابه صلاة لا يستطيع لها الحساب عدا ولا حصرا وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد : فإن النكاح معين على الدين ومهين للشياطين وحسن دون عدو الله حصين وسبب للتكثير الذى به مباحة سيد المرسلين لسائر النبيين فما أحراه بأن تتحرى أسبابه وتحفظ سننه وآدابه وتشرح مقاصده وآرايه وتفصل فصوله وأبوابه . والقدر المهم من أحكامه ينكشف في ثلاثة أبواب (الباب الأول) في الترغيب فيه وعنه . (الباب الثانى) في الآداب المرعية في العقد والعاقدين . (الباب الثالث) في آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق .

الباب الأول : في الترغيب في النكاح والترغيب عنه

اعلم أن العلماء قد اختلفوا في فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلي لعبادة الله واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلي لعبادة الله ، مهما لم تتق النفس إلى النكاح توقاناً يشوش الحال ويدعو إلى الوقاع . وقال آخرون : الأفضل تركه في زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة . ولا ينكشف الحق فيه إلا بأن تقدم أولاً ما ورد من الأخبار والآثار في الترغيب فيه والترغيب عنه ثم نشرح فوائد النكاح وغوائله حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه في حق كل من سلم من غوائله أو لم يسلم منها .

الترغيب في النكاح

أما من الآيات : فقد قال الله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ وهذا أمر وقال تعالى ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ وهذا منع من العضل ونهى عنه . وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل . ومدح أوليائه بسؤال ذلك في الدعاء فقال ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ الآية ويقال إن الله تعالى لم يذكر

في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين فقالوا إن يحيى صلى الله عليه وسلم قد تزوج ولم يجمع قيل إنما فعل ذلك لتبيل الفضل وإقامة السنة ، وقيل لغرض البصر ، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له .

وأما الأخبار فقولہ صلى الله عليه وسلم « النكاح سنّي فمن رغب عن سنّي فقد رغب عني » ، وقال صلى الله عليه وسلم « النكاح سنّي فمن أحب فطرق فليستن بسنّي ^(١) » ، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم (تناكحوا تكثرُوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط ^(٢)) وقال أيضا عليه السلام (من رغب عن سنّي فليس مني وإن من سنّي النكاح فمن أحبني فليستن بسنّي ^(٣)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا ^(٤)) وهذا ذم لعلة الامتناع لا لأصل الترك وقال صلى الله عليه وسلم (من كان ذا طول فليتزوج ^(٥)) وقال (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء ^(٦)) وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج . والوجاء هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول طهرته ؛ فهو مستعار للضعف عن الوقاع في الصوم . وقال صلى الله عليه وسلم (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ^(٧)) وهذا أيضا لتبيل الترغيب لخوف الفساد . وقال صلى الله عليه وسلم (من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله ^(٨)) وقال صلى الله عليه وسلم (من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني ^(٩)) وهذا أيضا إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة تحضنا من الفساد فكان المفسد لدين المرء في الأغلب فرجه وبطنه وقد كفي بالتزويج أحدهما . وقال صلى الله عليه وسلم (كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاث ولد صالح يدعو له ... ^(١٠)) الحديث . ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح .

كتاب آداب النكاح

الباب الأول في الترغيب في النكاح

- (١) حديث « النكاح سنّي فمن أحب فطرق فليستن بسنّي » أخرجه أبو يعلى في مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن . (٢) حديث « تناكحوا تكثرُوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط » أخرجه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر قوله « حتى بالسقط » وإسناده ضعيف وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المرفوعة عن الشافعي أنه بانه (٣) حديث « من رغب عن سنّي فليس مني وإن من سنّي النكاح فمن أحبني فليستن بسنّي » متفق على أوله من حديث أنس « من رغب عن سنّي فليس مني » وباقيه تقدم قبله بحديث . (٤) حديث « من ترك التزويج خوف العيلة فليس منا » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف ولقد روى في مسنده والبخاري في معجمه وأبو داود في المراسيل من حديث أبي نعيم « من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس منا » وأبو نعيم اختلف في صحته . (٥) حديث « من كان ذا طول فليتزوج » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة بسند ضعيف . (٦) حديث « من استطاع منكم الباءة فليتزوج الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٧) حديث « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ونقل عن البخاري أنه لم يمهده محفوظا وقال أبو داود إنه خطأ ورواه الترمذي أيضا من حديث أبي حاتم المزني وحسنه ورواه أبو داود في المراسيل وأعله ابن القطان بإرساله وضمف رواه . (٨) حديث « من نكح لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه » أخرجه أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس « من أعطى لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه » . (٩) حديث « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الآخر » أخرجه ابن الجوزي في الملل من حديث أنس بسند ضعيف وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ « قد استكمل نصف الإيمان » وفي المستدرک وصحح إسناده بلفظ « من رزقه الله امرأة سالمة فقد أعانه على شطر دينه ... الحديث » . (١٠) حديث « كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثة » فذكر فيه « وولد صالح يدعو له » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بنحوه .

وأما الآثار : فقال عمر رضى الله عنه لا يمنع من النكاح إلا عجز أو مجور . فبين أن الدين غير مانع منه وحصر المانع في أمرين مذمومين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يتم نسكك الناسك حتى يتزوج . يحتمل أن جعله من النسك وتمتة له . ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب ، ولذلك كان يجمع غلمانه لما أدركوا عكرمة وكرييا وغيرهما ويقول : إن أردتم النكاح أنكحتم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه . وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا ومات امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله عنه في الطاعون وكان هو أيضا مطمونا فقال : زوجوني فإنى أكره أن ألقى الله عزبا . وهذا منهما يدل على أنهما رأيا في النكاح فضلا لامن حيث التحرز عن غائلة الشهوة . وكان عمر رضى الله عنه يكثر النكاح ويقول : ما أتزوج إلا لأجل الولد . وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخدمه ويبعث عنده حاجة إن طرقت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تتزوج ؟ فقال يا رسول الله إني فقير لأشئ لى وأقطع عن خدمتك فسكت . ثم عادنا فإنا أعاد الجواب . ثم تفكر الصحابي وقال : والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقربني إلى الله منى ولئن قال لى الثالثة لأفعلن . فقال له الثالثة : ألا تتزوج ؟ قال : فقلت يا رسول الله زوجنى ، قال . اذهب إلى بنى فلان فقل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تزوجوني فتأتكم قال : فقلت يا رسول الله لأشئ لى ، فقال لأصحابه : اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب فجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له : أولم اجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة ^(١) ، وهذا التكرير يدل على فضل في نفس النكاح ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح . وحكى أن بعض العباد في الأمم السالفة فاق أهل زمانه في العبادة فذكر لنبي زمانه حسن عبادته فقال : نعم الرجل هو لولا أنه تارك لأشئ من السنة فاغتم العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك فقال : أنت تارك للتزويج ، فقال : لست أحرمه ولكنى فقير وأنا عيال على الناس ، قال : أنا أزوجه ابنتى فزوجه النبي عليه السلام ابنته . وقال بشر بن الحرث : فضل على أحمد بن حنبل ثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسى فقط ولا تساعه في النكاح وصيق عنه ولأنه نصب إماما للعامة . ويقال إن أحمد رحمه الله تزوج في اليوم الثانى لوفاة أم ولده عبد الله وقال : أكره أن أبيت عزبا . وأما بشر فإنه لما قيل له . إن الناس يتكلمون فيك لتركا النكاح ويقولون هو تارك للسنة ، فقال : قولوا لهم هو مشغول بالفرض عن السنة . وعوتب مرة أخرى فقال : ما يمنعني من التزويج إلا قوله تعالى ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ فذكر ذلك لأحمد فقال : وأين مثل بشر ؟ إنه قعد على مثل حد السنان . ومع ذلك فقد روى أنه روى في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رفعت منازل فى الجنة وأشرف بى على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منازل المتأهلين . وفى رواية قال لى : ما كنت أحب أن تلقانى عزبا قال : فقلنا له ، ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : رفع فوق بسبعين درجة ، قلنا : بماذا فقد كنا نراك فوقه ؟ قال : بصبره على بذياته والعيال . وقال سفيان بن عيينة : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية . فالنكاح سنة ماضيه وخلق من أخلاق الأنبياء . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالمعزوبة ! فقال : لروعة منك بسبب العيال : أفضل من جميع ما أنا فيه ، قال : فالذى

(١) حديث « كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبعث عنده حاجة إن طرقت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تتزوج ؟ ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث ربيعة الأسلمى في حديث طويل - وهو صاحب القصة - بإسناد حسن .

ينعك من النكاح ، فقال : مالى حاجة فى امرأة وما أريد أن أغر امرأة بنفسى . وقد قيل : فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد . وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب .

وأما ماجاء فى الترهيب عن النكاح : فقد قال صلى الله عليه وسلم « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لأهل له ولا ولد »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعبرونه بالفقر ويكفونه مالا يطيق ، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيها »^(٢) ، وفى الخبر « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقيرين »^(٣) ، وسئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقال أيضا : الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل . وقال مرة : مارأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى . وقال أيضا : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث . وقال الحسن رحمه الله : إذا أراد الله بعبد خيرا لم يشغله بأهل ولا مال ، وقال ابن أبي الحواري : تناظر جماعة فى هذا الحديث فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لا يكون له بل أن يكون له ولا يشغلانه وهو إشارة إلى قول أبي سليمان الداراني : ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشوم وبالجمل لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقا إلا مقرونا بشرط . وأما الترغيب فى النكاح فقد ورد مطلقا ومقرونا بشرط فلتكشف الغطاء عنه بمصر آفات النكاح وفوائده .

آفات النكاح وفوائده ، وفيه فوائد خمسة : الولد وكسر الشهوة ، وتديير المنزل . وكثرة العشرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

الفائدة الأولى : الولد ؛ وهو الأصل وله وضع النكاح . والمقصود لإبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس . وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالموكل بالفحل فى إخراج البذر وبالأنتى فى التمكن من الحرث تطفلا بهما فى السياة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع ، كالتلطف بالطير فى بث الحب الذى يشبهه ليساق إلى الشبكة وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج ، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها لإظهارا للقدرة وإثاما لعجائب الصنعة وتحقيقا لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وجرى به القلم . وفى التوصل إلى الولد قرينة من أربعة أوجه هى الأصل فى الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لم يجب أحدهم أن يلقي الله عزبا . (الأول) موافقة حجة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان (والثانى) طلب حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكثير من مباهاته . (والثالث) طلب التبرك بسلام الولد الصالح بعده (والرابع) طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

أما الوجه الأول : فهو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الجماهير وهو أحقها وأقواها عند ذوى البصائر النافذة فى عجائب صنع الله تعالى ومجارى حكمه . وبيانه أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهيا له أرضا مهيأة للحراثة وكان العبد قادرا على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها فإن تكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعا

(١) حديث « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لأهل له ولا ولد » أخرجه أبو يعلى من حديث حذيفة ورواه الخطابى فى النزلة من حديثه وحديث أبي أمامة وكلاهما ضعيف . (٢) حديث يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعبرونه بالفقر ويكفونه مالا يطيق فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيها » أخرجه الخطابى فى النزلة من حديث ابن مسعود نحوه ولبيهق فى الزهد نحوه فى حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف .

(٣) حديث « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقيرين » أخرجه القضاعى فى مسند العنبر من حديث على وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عبد الله بن عمر وابن هلال المزنى كلاهما بالشرط الأول بسندين ضعيفين .

حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقا للعتاب من سيده . والله تعالى خلق الزوجين وخلق الذكر والأنثيين وخلق النطفة في الفقاير وهياً لها في الأنثيين عروفاً ومجارى وخلق الرحم قراراً ومستودعاً للنطفة وسلط متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثى ، فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلق في الإعراب عن مراد خالقها وتنادى أرباب الأبواب بتعريف ما أعدت له . هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان ربه صلى الله عليه وسلم بالمراد حيث قال « تناكحوا وتأسلوا ، فكيف وقد صرح بالأمر وباح بالسر ؟ فكل ممتنع عن النكاح معرض عن الحرائة مضيق للبذر معطل لما خلق الله من الآلات المعدة وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الحلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي ليس برقم حروف وأصوات يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية ، ولذلك عظم الشرع الأمر في القتل للأولاد وفي الوأد لأنه منع لتمام الوجود ، وإليه أشار من قال : العزل أحد الوأدين فالتناكح ساع في إتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمعرض معطل ومضيق لما كرهه الله ضياعه ، ولأجل محبة الله تعالى لبقاء النفوس أمر بالإطعام وحث عليه وعبر عنه بعبادة القرض فقال ﴿ من ذا الذي يقرض له قرضاً حسناً ﴾ . فإن قلت : إن بقاء النفس والنفس محبوب يوم أن فناءها مكروه عند الله ، وهو فرق بين الموت والحياة بالإضافة إلى إرادة الله تعالى ، ومعلوم أن الكل بمشيئة الله وأن الله غني عن العالمين فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم أربقاؤهم عن فنائهم ؟ فاعلم أن هذه الكلمة حق أريد بها باطل فإن ما ذكرناه لا ينافي إضافة الكائنات كلها إلى إرادة الله خيرها وشرها ونفعها وضرها ، ولكن المحبة والكراهية يتضادان وكلاهما لا يضادان الإرادة ، فرب مراد مكروه ، ورب مراد محبوب ، فالمعاصي مكروهة وهي مع الكراهية مرادة ، والطاعات مرادة ومن مع كونها مرادة محبوبة ومرضية أما الكفر والشر فلا نقول إنه مرضى ومحجوب بل هو مراد . وقد قال الله تعالى ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ فكيف يكون الفناء بالإضافة إلى محبة الله وكراهته كالبقاء ، فإنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء كترددى في قبض روح عبدى المسلم هو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له من الموت ^(١) » فقله « لا بد له من الموت » إشارة إلى سبق الإرادة والتقدير المذكور في قوله تعالى ﴿ نحن قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ المَوْتَ ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ ولا مناقضة بين قوله تعالى ﴿ نحن قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ المَوْتَ ﴾ وبين قوله « وأنا أكره مساءته » ، ولكن إيضاح الحق في هذا يستدعى تحقيق معنى الإرادة والمحبة والكراهية وبيان حقائقها ، فإن السابق إلى الأفهام منها أمور تناسب إرادة الخلق ومحبتهم وكراهتهم ، وهيئات في صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد ما بين ذاته العزيز وذاتهم وكما أن ذوات الخلق جوهر وعرض وذات الله مقدس عنه ، ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض ، فكذا صفاته لا تناسب صفات الخلق ، وهذه الحقائق داخلة في علم المكاشفة ، ووراء سر القدر الذى منع من إفشائه ، فلنقتصر عن ذكره ، ولنقتصر على ما نبهنا عليه من الفرق بين الإقدام على النكاح والإحجام عنه ، فإن أحدهما مضيق نسلأ أدام الله وجوده من آدم صلى الله عليه وسلم عقبا بعد عقب إلى أن انتهى إليه ؛ فالممتنع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فبات أبتز لا عقب له ، ولو كان الباعث على النكاح مجرد دفع الشهوة لما قال معاذ في الطاعون : زوجونى لا ألقى الله عزياً . فإن قلت : فما كان معاذ يتوقع ولدا في ذلك الوقت فما وجه رغبته فيه ؟ فأقول : الولد يحصل بالواقع

(١) حديث أنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء كترددى في قبض روح عبدى المسلم يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ، انفرد به محمد القطوانى وهو متكلم فيه .

بياعث الشهوة ، وذلك أمر لا يدخل في الاختيار ؛ وإنما المعلق باختيار العبد لإحضار المحرك للشهوة ، وذلك متوقع في كل حال ؛ فن عقد فقد أدى ما عليه وفعل ما إليه ، والباقي خارج عن اختياره ، ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضاً ، فإن نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها حتى إن الممسوح الذي لا يتوقع له ولد لا ينقطع الاستحباب أيضاً في حقه على الوجه الذي يستحب للأصلع لمرار موسى على رأسه اقتداء بغيره وتشبها بالسلف الصالحين ، وكما يستحب الرمل والاضطباع في الحج الآن وقد كان المراد منه أولاً إظهار الجلد للكفار . فصار الاقتداء والتشبه بالذين أظهروا الجلد سنة في حق من بعدهم ، ويضعف هذا الاستحباب بالإضافة إلى الاستحباب في حق القادر على الحرث وربما يزداد ضعفاً بما يقابله من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر ، فإن ذلك لا يخلو عن نوع من الخطر ؛ فهذا المعنى هو الذي ينبه على شدة إنكارهم لترك النكاح مع فتور الشهوة .

الوجه الثاني : السعي في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاء بتكثير ماله مباحاته ، إذ قد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجه كلها ما روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان ينكح كثيراً ويقول : إنما أنكح الولد . وما روى من الأخبار في مذمة المرأة العقيم ، إذ قال عليه السلام « المحصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد »^(١) ، وقال خير نسائك الولود الودود^(٢) ، وقال « سوداء ولود ، خير من حسناء لاتلد »^(٣) ، وهذا يدل على أن طلب الولد أدخل في اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع غائلة الشهوة ، لأن الحسنة أصلح للتحصين وغض البصر وقطع الشهوة .

الوجه الثالث : أن يبقى بعده ولدا صالحا يدعو له ، كما ورد في الخبر أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثاً فذكر الولد الصالح . وفي الخبر « إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور »^(٤) ، وقول القائل : إن الولد ربما لم يكن صالحاً : لا يؤثر فإنه مؤمن ، والصالح هو الغالب على أولاد ذوى الدين لاسيما إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح ، وبالجمل دعاء المؤمن لأبويه مفيد برا كان أو فاجرا ، فهو مثاب على دعواته وحسناته فإنه من كسبه وغير مواخذ بسيئاته ، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولذلك قال تعالى ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ أى ما نقصناهم من أعمالهم ، وجعلنا أولادهم مزيدا في إحسانهم .

الوجه الرابع : أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعا ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الطفل يموت بأبويه إلى الجنة »^(٥) ، وفي بعض الأخبار « يأخذ بشوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك »^(٦) ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « إن المولود يقال أدخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبباً ، أى ممتلئاً غيظاً وغضباً » ويقول لا أدخل الجنة إلا وأبواى معى ، فيقال : أدخلوا أبويه معه الجنة^(٧) ، وفي خبر آخر « إن الأطفال

(١) حديث « لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد » أخرجه أبو عمر النوفلى في كتاب معاشر الأهلين موقفاً على عمر بن الخطاب ، ولم أجده مرفوعاً .

(٢) حديث « خير نسائك الولود الودود » أخرجه البيهقى من حديث ابن أبي أديّة الصدى ، وقال البيهقى : وروى بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلاً . (٣) حديث « سوداء ولود خير من حسناء لاتلد » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح . (٤) حديث « إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور » رويها في الأربعين المشهورة من رواية أبي هدية عن أنس في الصدقة عن الميت ، وأبو هدية كذاب . (٥) حديث « إن الطفل يموت بأبويه إلى الجنة » أخرجه ابن ماجه من حديث علي وقال « سقط » بدل « الطفل » وله من حديث مما « إن الطفل ليبر أمه بسرره إلى الجنة إذا هو احتسبته » وكلاهما ضعيف . (٦) حديث « إنه يأخذ بشوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « إن المولود يقال له أدخل الجنة » فيقف على باب الجنة فيظل محبباً أى ممتلئاً غيظاً وغضباً ، ويقول لا أدخل إلا وأبواى معى ... الحديث « أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح ، والنسائي من حديث أبي هريرة » يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل أكابؤنا فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم » وإسناده جيد .

يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال لللائكة : اذهبوا هؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم : مرحبا بذرارى المسلمين ادخلوا لاحساب عليكم ، فيقولون : فأين آباؤنا وأمهاتنا ؟ فيقول الخزنة : إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم ، إنه كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطالبون . قال : فيتضاغون ويضجون على أبواب الجنة ضجة واحدة ، فيقول الله سبحانه وهو أعلم بهم : ماهذه الضجة ؟ فيقولون : ربنا أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آباءنا ؛ فيقول الله تعالى : تتخللوا الجمع تخذوا بأيدي آباءهم فأدخلوهم الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من مات له اثنان من الولد فقد احتظر بحظار من النار ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، قيل : يارسول الله واثنان ؟ قال دواثنان ^(٣) ، وحكى أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبى برهة من دهره ، قال فأنته من نومه ذات يوم وقال : زوجوني زوجوني ، فزوجوه ، فسئل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقني ولدا ويقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة ، ثم قال : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة الخلائق في الموقف ، وبني من العطش ما كاد أن يقطع عني ، وكذا الخلائق في شدة العطش والكرب ، فنحن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع ، عليهم مناديل من نور ، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب ، وهم يسقون الواحد بعد الواحد ، يتخللون الجمع ويتجاوزون أكثر الناس ، فددت يدي إلى أحدهم وقلت : اسقني فقد أجهدتني العطش ، فقال : لبس لك فينا ولد ، إنما نسقي آباءنا ، فقلت : ومن أنتم ؟ فقالوا : نحن من مات من أطفال المسلمين . وأحد المعاني المذكورة في قوله تعالى ﴿ فأتوا حريمكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم ﴾ تقديم الأطفال إلى الآخرة ؛ فقد ظهر بهذه الوجوه الأربعة أن أكثر فضل النكاح لأجل كونه سبباً للولد .

الفائدة الثانية : التحصن من الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « من نكح فقد حصن نصف دينه فليتق الله في الشطر الآخر » ، وإليه الإشارة بقوله « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء » ، وأكثر ما يقتله من الآثار والأخبار إشارة إلى هذا المعنى ، وهذا المعنى دون الأول ؛ لأن الشهوة موكلة بتقاضى تحصيل الولد ؛ فالنكاح كاف لشغله دافع لجعله وصارف لشر سطوته ، وليس من يجيب مولاه رغبة في تحصيل رضاه ، كمن يجيب لطلب الخلاص عن غائلة التوكيل ؛ فالشهوة والولد مقدران بينهما ارتباط ، وليس يجوز أن يقال : المقصود اللذة ، والولد لازم منها كما يلزم مثلاً قضاء الحاجة من الأكل وليس مقصوداً في ذاته ، بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة ، والشهوة باعثة عليه ؛ ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الإرهاق إلى الإيلاد ، وهو مافي قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لودامت ، فهي منه على اللذات الموعودة في الجنان ، إذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقاً لا ينفع ، فلورغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة

(١) حديث « إن الأطفال يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال لللائكة اذهبوا هؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم مرحبا بذرارى المسلمين ادخلوا لاحساب عليكم فيقولون أين آباؤنا وأمهاتنا ... » الحديث بطوله لم أجده أصلاً يعتمد عليه . (٢) حديث « من مات له اثنان من الولد احتظر بحظار من النار » أخرجه البزار والطبراني من حديث زهير بن أبي عقبة « جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إنه مات لي اثنان سوى هذا فقال : لقد احتظرت من دون النار بحظار شديد ، ولمسلم من حديث أبي هريرة المرأة التي قالت : دفنت ثلاثة « لقد احتظرت بحظار شديد من النار » (٣) حديث « من مات له ثلاثة لم ينفوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، قيل : يارسول الله واثنان ، قال : واثنان » أخرجه البيهقي من حديث أنس دون ذكر الاثنين ، وهو عند أحمد بهذه الزيادة من حديث معاذ ، وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد بل فقط « أيما امرأة » بنحو منه .

الملك والسلطنة لم ينفع التريغيب ، وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ، ليكون باعنا على عبادة الله . فانظر إلى الحكمة ، ثم إلى الرحمة ، ثم إلى التعبية الإلهية كيف عبت تحت شهوة واحدة حياتان حياة ظاهرة وحياة باطنة ، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله فإنه نوع من دوام الوجود ، والحياة الباطنة هي الحياة الآخروية ، فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحترك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام ، فيستحث على العبادة الموصلة إليها ، فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها تيسر المواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان ، وما من ذرة من ذرات بدن الإنسان باطنا وظاهرا ، بل ذرات ملكوت السموات والأرض ، إلا وتحتها من لطائف الحكمة وعجائبها ماتحار العقول فيها ، ولكن إنما ينكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفاتها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها ، فالتكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل من لا يؤتى عن عجز وعنه وهم غالب الخلق ، فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى جرت إلى اقتحام الفواحش ، وإليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ وإن كان ملجما بلجام التقوى فغايتها أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة ، فيغض البصر ويحفظ الفرج ، فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تحت اختياره ، بل لا تزال النفس تجاذبه وتحده بأمر الوقاع ولا يفرغه الشيطان الموسوس إليه في أكثر الأوقات ، وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجرى على خاطره من أمور الوقاع ما لو صرح به بين يدي أحسن الخلق لاستحي منه ، والله مطلع على قلبه ، والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق ، ورأس الأمور للمريد في سلوك طريق الآخرة قلبه ، والمواظبة على الصوم لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن يتضاف إليه ضعف في البدن وفساد في المزاج ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يتم نسلك الناسك إلا بالنكاح . وهذه منة عامة قل من يتخلص منها . قال قتادة في معنى قوله تعالى ﴿ ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ هو الغلة . وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالاً في معنى قوله تعالى ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ أنه لا يصبر عن النساء وقال فياض بن نجيح . إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله . وبعضهم يقول : ذهب ثلث دينه . وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال قيام الذكر ، وهذه بلية غالبية إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين ، وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين كما سبق فهي أقوى آلة الشيطان على بني آدم ، وإليه أشار عليه السلام بقوله « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب منكن »^(١) ، وإنما ذلك لهيجان الشهوة . وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وشر مني »^(٢) ، وقال « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي »^(٣) ، فاستميد منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجوز التساهل فيه لغيره ، وكان بعض الصالحين يكثر النكاح حتى لا يكاد يخلو من اثنتين وثلاث ، فأنكر عليه بعض الصوفية فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف بين يديه موقفا في معاملة لخطر على قلبه خاطر شهوة ، فقالوا : يصيبنا من ذلك كثير ، فقال : لورضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوجت ، لكنني ما خطر على قلبي خاطر يشغلني عن حالي إلا نفذته فاستريح وأرجع إلى شغلي ، ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبي معصية . وأنكر بعض الناس حال الصوفية فقال له

(١) حديث « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب منكن » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر ، وانفقا عليه من حديث أبي سعيد ولم يسن مسلم لفظه . (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر مني » تقدم في الدعوات . (٣) حديث « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي » أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أم سلمة بإسناد فيه لين .

بعض ذوى الدين : ما الذى تنكر منهم ؟ قال : يا كلون كثيرا . قال : وأنت أيضا لو جمعت كما يجوعون لأكلت كما يأكلون ، قال : ينكحون كثيرا . قال : وأنت أيضا لو حفظت عينيك وفرجك كما يحفظون لنكحت كما ينكحون . وكان الجنيد يقول : أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت ، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع نظره على امرأة فتأقت إليها نفسه أن يجمع أهله ^(١) ؛ لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس . وروى جابر رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج . وقال صلى الله عليه وسلم : إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله معها مثل الذى معها ^(٢) ، وقال عليه السلام ، لا تدخلوا على المغنيات - وهى التى غاب زوجها عنها - فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم ، قلنا : ومنك ؟ قال : ومنى ، ولكن الله أعاننى عليه فأسلم ^(٣) ، قال سفيان بن عيينة : فأسلم معناه فأسلم أنا منه ، هذا معناه ، فإن الشيطان لا يسلم ، وكذلك حكى على ابن عمر رضى الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلماهم أنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل ، وربما أنه جامع ثلاثا من جواريه فى شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة . وقال ابن عباس خير هذه الأمة أكثرها نساء ^(٤) ولما كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشد ولأجل فراغ القلب أبيض نكاح الأمة عند خوف العنت مع أن فيه إرفاق الولد وهو نوع إهلاك ، وهو محرم على كل من قدر على حرة ، ولكن إرفاق الولد أهون من إهلاك الدين ، وليس فيه إلا تنقيص الحياة على الولد مدة ، وفى اقتحام الفاحشة تفويت الحياة الآخوية التى تستحق الأعمار الطويلة بالإضافة إلى يوم من أيامها . وروى أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس وبقى شاب لم يبرح ، فقال له ابن عباس : هل لك من حاجة ؟ قال : نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس ، وأنا الآن أهابك وأجلك ، فقال ابن عباس : إن العالم بمنزلة الوالد ، فاكنت أفضيت به إلى أبيك فأفض إلى به ، فقال : إني شاب لازوجة لى ، وربما خشيت العنت على نفسى ، فربما استمنيت بيدي ، فهل فى ذلك معصية ؟ فأعرض عنه ابن عباس ثم قال : أف وتنف نكاح الأمة خير منه ، وهو خير من الزنا ، فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور أدناها نكاح الأمة ، وفيه إرفاق الولد ، وأشد منه الاستمنا باليد ، وأخفها الزنا ، ولم يطلق ابن عباس الإباحة فى شيء منه لأنهما محذوران يفرغ إليهما حذرا من الوقوع فى محذور أشد منه ، كما يفرغ إلى تناول الميتة حذرا من هلاك النفس ، فليس ترجيح أهون الشرين فى معنى الإباحة المطلقة ولا فى معنى الخير المطلق ، وليس قطع اليد المتأكلة من الخيرات وإن كان يؤذن فيه عند إشراف النفس على الهلاك ، فإذا فى النكاح فضل من هذا الوجه ، ولكن هذا لا يعم الكل بل الأكثر ، فرب شخص فترت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره فينعدم هذا الباعث فى حقه ، ويبقى ماسبق من أمر الولد . فإن ذلك عام لإلزام المسح

(١) حديث « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع بصره على امرأة فتأقت نفسها إليها أن يجمع أهله » أخرجه أحمد من حديث أبي كعبشة الأنصارى ، حين مر به امرأة فوقع فى قلبه شهوة النساء فدخل فأتى بطن زوجها وقال : فكذلك فافعلوا ، فانه من أمثال أقوالكم إتيان الحلال ، وإسناده جيد . (٢) حديث جابر « رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته » الحديث رواه مسلم والترمذى وألفظ له وقال : حسن صحيح . (٣) حديث « لا تدخلوا على المغنيات فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث جابر وقال غريب ، وإسلم من حديث عبد الله بن عمر « ولا يدخل بعد يومى هذا على منية إلا ومعه رجل أو اثنان » . (٤) حديث ابن عباس « خير هذه الأمة أكثرها نساء » يعنى الهى صلى الله عليه وسلم رواه البخارى .

وهو نادر ، ومن الطباع ما تغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع ، فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن وإلا فيستحب له الاستبدال ، فقد نكح على رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال ، ويقال : إن الحسن بن علي كان منكاحا حتى نكح زيادة على مائتي امرأة وكان ربما عقد على أربع في وقت واحد ، وربما طلق أربعاً في وقت واحد واستبدل بهن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن : أشبهت خلقي وخلقى ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : حسن منى وحسين من علي ^(٢) ، فقال إن كثرة نكاحه أحد ما أشبه به خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتزوج المغيرة بن شعبه بثمانين امرأة ، وكان في الصحابة من له الثلاث والأربع ، ومن كان له اثنتان لا يحصى ، ومهما كان الباعث معلوما فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة فالمراد تسكين النفس فليُنظر إليه في الكثرة والقلة .

الفائدة الثالثة : ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة لإراحة القلب وتقوية له على العبادة فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها ، فلوكأفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت ، وإذا رُوحت باللذات في بعض الأوقات قوية ونشطت ، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويرقح القلب ، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ ليسكن إليها ﴾ وقال على رضى الله عنه : رَوَّحُوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عييت . وفي الخبر : على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه . فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات ^(٣) ، ومثله بلفظ آخر : لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أولذة في غير محرم ^(٤) ، وقال عليه الصلاة والسلام : اسكل عامل شرة ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى ^(٥) ، والشرة الجدة والمكابدة بحدّة وقوة ، وذلك في ابتداء الإرادة ، والفترة . الوقوف للاستراحة ، وكان أبو الدرداء يقول إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو لأتقوى بذلك فيما بعد على الحق . وفي بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : شكوت إلى جبريل عليه السلام ضعفي عن الوقاع فدلىني على الهريسة ^(٦) ، وهذا إن صح لا يحمل له إلا الاستعداد للاستراحة ، ولا يمكن تعليله بدفع الشهوة فإنه استثارة للشهوة ، ومن عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الانس . وقال عليه الصلاة والسلام حبيب إلى من دنيا كم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة ^(٧) ، فهذه أيضاً فائدة لا ينكرها من جرب إلتعاب نفسه في الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال ، وهى خارجة عن

(١) حديث أنه قال للحسن بن علي « أشبهت خلقي وخلقى » قلت المعروف أنه قال هذا الاقظ لجعفر بن أبي طالب ، كما هو متفق عليه من حديث البراء ، ولكن الحسن أيضاً كان يعبه النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو متفق عليه من حديث أبي جحيفة ، ولترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس « لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن » . (٢) حديث « حسن منى وحسين من علي » رواه أحمد من حديث المقداد بن معديكرب بسند جيد . (٣) حديث « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه » رواه ابن حبان من حديث أبي ذر في حديث طويل : أن ذلك في صحف إبراهيم . (٤) حديث « لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أولذة في غير محرم » رواه ابن حبان من حديث أبي ذر الطويل : أن ذلك في صحف إبراهيم . (٥) حديث « لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى » رواه أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو . ولترمذى نحو من هذا من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح . (٦) حديث « شكوت إلى جبريل ضعفي عن الوقاع فدلىني على الهريسة » أخرجه ابن عدى من حديث حذيفة ؛ وابن عباس ، والقبلى من حديث معاذ وجابر بن سمرة ، وابن حبان في الضعفاء من حديث حذيفة ، والأزدي في الضعفاء من حديث أبي هريرة بطرق كلها ضعيفة . قال ابن عدى : موضوع ، وقال القبلى : باطل . (٧) حديث « حبيب إلى من دنيا كم الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة » رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد ، وضعفه القبلى .

الفائدتين السابقتين ، حتى إنها تطرد في حق المسحوق ومن لا شهوة له ، إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالإضافة إلى هذه النية ، وقل من يقصد بالنكاح ذلك . وأما قصد الولد وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو مما يكثر ثم رب شخص يستأنس بالنظر إلى الماء الجاري والحضرة وأمثالها ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن . فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليقتبه له .

الفائدة الرابعة : تفرغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكفس والفرش وتطهير الأواني وتهئية أسباب المعيشة ، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده ، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل ، فالمرأة الصالحة المصلحة للنزل عون على الدين بهذه الطريق ، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للأخرة ، وإنما تفرغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً . وقال محمد بن كعب القرظي في معنى قوله تعالى ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ قال : المرأة الصالحة . وقال عليه الصلاة والسلام « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته ^(١) » ، فانظر كيف جمع بينها وبين الذكر والشكر . وفي بعض التفاسير في قوله تعالى ﴿ فلتحيينه حياة طيبة ﴾ قال الزوجة الصالحة ؛ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أعطى العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة ، وإن منهن غنياً لا يحذى منه ، ومنهن غللاً يفدى منه . وقوله : لا يحذى أن يعتاض عنه بعبادة . وقال عليه الصلاة والسلام « فضلت على آدم بمخلصتين : كانت زوجته عوناً له على المعصية ، وأزواجي أعوان لي على الطاعة ، وكان شيطانه كافراً وشيطانى مسلم لا يأمر إلا بخير ^(٢) » ، فقد معاوتها على الطاعة فضيلة : فهذه أيضاً من الفوائد التي يقصدها الصالحون إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كافل لهم ولا مدبر ، ولا تدعو إلى أمرأتين بل الجمع ربما ينقص المعيشة ويضطرب به أمور المنزل ؛ ويدخل في هذه الفائدة قصد الاستكثار بعشيرتها وما يحصل من القوة بسبب تداخل العشائر ، فإن ذلك مما يحتاج إليه في دفع الشرور وطلب السلامة ولذلك قيل : ذل من لا ناصر له ، ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله وفرغ قلبه للعبادة ، فإن الذل مشوش للقلب والعز بالكثرة دافع بالذل .

الفائدة الخامسة : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهم واحتمال الأذى منهن والسعى في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيتهن لأولاده ، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم ، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقوقها ، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام « يوم من وال ، عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ^(٣) » ، وليس من اشتغل

(١) حديث « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته » أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث ، وفيه انقطاع . (٢) حديث « فضلت على آدم صلى الله عليه وسلم بمخلصتين : كانت أزوجه عوناً له على المعصية وأزواجي أعوان لي على الطاعة ، وكان شيطانه كافراً وشيطانى مسلم لا يأمر إلا بخير » رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عمر ، وفيه محمد بن وليد بن أبان بن القلاسي قال ابن عدي كان يضع الحديث ، وسلم من حديث ابن مسعود « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن » قالوا : وإليك يا رسول الله ؟ قال « وأنا » ، لا أن الله أعانني عليه فأسلم ولا يأمرني إلا بخير . (٣) حديث « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس ، وقد تهمد بلفظ « ستين سنة » دون ما بعده فإنه متفق عليه من حديث ابن عمر .

بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها ، فقاساة الأهل والوالد بمنزلة الجهاد في سبيل الله ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل ثلاث : إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى في امرأته ^(١) » ، وقال بعضهم لبعض العلماء : من كل عمل أعطاني الله نصيباً حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما فقال له : أين أنت من عمل الأبدان ؟ قال : وما هو ؟ قال كسب الحلال ، والنفقة على العيال . وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو : تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا : فما هو ؟ قال رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صديانه نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه . وقال صلى الله عليه وسلم من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغترب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين ^(٢) ، وفي حديث آخر « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ^(٣) » ، وفي الحديث « إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها عنه ^(٤) » ، وقال بعض السلف . من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الغم بالعيال ، وفيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الأهم بطلب المعيشة ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبنة ألبنة ، إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له ^(٦) » ، وكان ابن عباس إذا حدث بهذا قال . والله هو من غرائب الحديث وغرره . وروى أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت . فعرض عليه التزويج فامتنع وقال : الوحدة أروح لقلبي وأجمع لهمي ، ثم قال : رأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت وكان رجالاً ينزلون ويسIRON في الهواء يتبع بعضهم بعضاً ، فكلمنا نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه : هذا هو المشوم ، فيقول الآخر نعم ، ويقول الثالث كذلك ، ويقول الرابع نعم ، تخفت أن أسألهم هبة من ذلك إلى أن مر بي آخرهم وكان غلاماً ، فقلت له : يا هذا من هذا المشوم الذي تومنون إليه ؟ فقال : أنت . فقلت : ولم ذاك ؟ قال : كنت أرفع عملي في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، ففقد جمعة أمرنا أن نضع عملي مع الخالفين ، فإندري ما أحدثت ؟ فقال لإخوانه : زوجوني زوجوني فلم يكن تفارقه زوجتان أو ثلاث . وفي أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوماً دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأضافهم ، فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فتمجبوا من ذلك فقال : لا تعجبوا فإني سألت الله تعالى وقلت : ما أنت معاقب لي به في الآخرة فمجله لي في الدنيا ، فقال : إن عقوبتك بفت فلان ، تتزوج بها ، فتزوج بها وأنا صابر على ما ترون منها ، وفي الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الغضب

(١) حديث « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في امرأته » متفق عليه من حديث ابن مسعود « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو محتسبها كانت له صدقة » ولها من حديث سعد بن أبي وقاص « ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك » . (٢) حديث « من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغترب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بسند ضعيف . (٣) حديث « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف . (٤) حديث « إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها » رواه أحمد من حديث عائشة إلا أنه قال « بالحرز » وفيه ليث بن أبي سلمة يختلف فيه . (٥) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الأهم بطلب المعيشة » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص المتشابه من حديث أبي هريرة بأسناد ضعيف . (٦) حديث « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبنة ألبنة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، وهو عنده بلفظ آخر : ولأبي داود واللفظ له والترمذي من حديث أبي سعيد « من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة » ورجاله همام ، وفي سنده اختلافه .

وتحسين الخلق ؛ فإن المنفرد بنفسه أو المشارك لمن حسن خلقه لا ترشح منه خبائث النفس الباطنة ولا تكشف بواطن عيوبه ، فحق على سالك طريق الآخرة أن يجزّب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المحرّكات واعتياد الصبر عليها ، لتعتدل أخلاقه وترتاض نفسه ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه والصبر على العيال مع أنه رياضة ومجاهدة تكفل لهم وقيام بهم وعبادة في نفسها ، فهذه أيضاً من الفوائد ، ولكنه لا ينتفع بها إلا أحد رجلين : إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأخلاق لكونه في بداية الطريق ، فلا يبعد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة وترتاض به نفسه ، وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب ، وإنما عمله عمل الجوارح بصلاة أو حج أو غيره ، فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم والقيام بتربيتهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه التي لا يتعدى خيرها إلى غيره ، فأما الرجل المهذب الأخلاق إما بكفاية في أصل الخلقة أو بمجاهدة سابقة إذا كان له سير في الباطن وحركة بفكر القلب في العلوم والمكاشفات ، فلا ينبغي أن يتزوج لهذا الغرض ، فإن الرياضة هو مكنتها فيها . وأما العبادة في العمل بالكسب لهم فالعلم أفضل من ذلك ، لأنه أيضاً عمل ، وفائده أكثر من ذلك وأعم وأشمل لسائر الخلق من فائدة الكسب على العيال ، فهذه فوائد النكاح في الدين التي بها يحكم له بالفضيلة .

أما آفات النكاح فثلاث : (الأولى) وهي أقواها العجز عن طلب الحلال فإن ذلك لا يتيسر لكل أحد ، لاسيما في هذه الأوقات مع اضطراب المعاش فيكون النكاح سبباً في التوسع للطلب والإطعام من الحرام ، وفيه هلاك أهله والمتعزّب في أمن من ذلك ، وأما الزوج في الأكثر يدخل في مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه . وفي الخبر : إنّ العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عائلته والقيام بهم ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيه أنفقه ، حتى يستغرق بتلك المطالبات كل أعماله ، فلا تبقى له حسنة ، فتتأدى الملائكة : هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا وارتهن اليوم بأعماله ^(١) ، ويقال : إنّ أول ما يتعلق بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون : ياربنا خذ لنا بحقنا منه فإنه ماعلنا مانجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، فيقتصص لهم منه . وقال بعض السلف : إذا أراد الله بعبده شراً سلط عليه في الدنيا أنياباً تنشه يعنى العيال . وقال عليه الصلاة والسلام : لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله ^(٢) ، فهذه آفة عامة قل من يتخلص منها إلا من له مال موروث أو مكتسب من حلال يني به وبأهله وكان له من القناعة ما يمنعه من الزيادة ، فإنّ ذاك يتخلص من هذه الآفة ، أو من هو محترف ومقتد على كسب حلال من المباحات باحتطاب أو اصطيد ، أو كان في صناعة لا تتعلق بالسلطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير ، ومن ظاهره السلامة وغالب ماله الحلال وقال ابن سالم رحمه الله - وقد سئل عن التزويج - فقال : هو أفضل في زماننا هذا لمن أدركه شبق غالب ، مثل الحمار يرى الأتان فلا يقتهى عنها بالضرب ولا يملك نفسه ، فإن ملك نفسه فتركه أولى .

الآفة الثانية : القصور عن القيام بحقهن والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن وهذه دون الأولى في العموم فإنّ القدرة على هذا أيسر من القدرة على الأولى ، وتحسين الخلق مع النساء والقيام بمظوظهن أهون من طلب الحلال وفي هذا أيضاً خطر ، لأنه راع ومسئول عن رعيته . وقال عليه الصلاة والسلام : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول ^(٣)

(١) حديث « ان العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ويسأل عن رعاية عياله والقيام بهن ... الحديث » لم أقف له على أصل . (٢) حديث « لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله » ذكره صاحب الفروسي من حديث أبي سعيد ، ولم يجده ولده أبو منصور في مسنده . (٣) حديث « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول » رواه أبو داود والنسائي بلفظ « من يقوت » وهو عند مسلم بلفظ آخر .

وروى أن الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم ، ومن يقصر عن القيام بحقوقهم وإن كان حاضرا فهو بمنزلة هارب ، فقد قال تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ أمرنا أن نقيم النار كما نقي أنفسنا ، والإنسان قد يعجز عن القيام بحقوق نفسه ، وإذا تزوج تضاعف عليه الحق وانضافت إلى نفسه نفس أخرى والنفس أمارة بالسوء ، إن كثرت عليها الحقوق كثرت الأمور بالسوء غالبا ، ولذلك اعتذر بعضهم من التزوج وقال : أنا مبتلى بنفسي وكيف أضيف إليها نفسا أخرى ؟ كما قيل :

لن يسع الفأرة جحرها علق المكنس في دبرها

وكذلك اعتذر إبراهيم بن أدهم رحمه الله وقال : لا أغر امرأة بنفسي ولا حاجة لي فيهن : أى من القيام بحقوقهم وتخصيصهن وإمتاعهن وأنا عاجز عنه ، وكذلك اعتذر بشر وقال : يمنعني من النكاح قوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذي عليهن ﴾ وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة لحفت أن أصير جلادا على الجسر . ورؤى سفيان ابن عيينة رحمه الله على باب السلطان فقيل له : ما هذا موقفك ؟ فقال : وهل رأيت ذا عيال أفلح ؟ وكان سفيان يقول :

ياحبذا العزة والمفتاح * ومسكن تخرقه الرياح * لاصخب فيه ولا صباح

فهذه آفة عامة أيضا وإن كانت دون عموم الأولى ، لا يسلم منها إلا حكيم عاقل ، حسن الاخلاق ، بصير بعبادات النساء ، صبور على لسانهن ، وقاف عن اتباع شهواتهن ، حريص على الوفاء بحقوقهن يتغافل عن زللهن ، ويدارى بعقله أخلاقهن ، والأغلب على الناس السفه والفظاظة والحدة والطيش وسوء الخلق وعدم الإنصاف مع طلب تمام الإنصاف ومثل هذا يزداد بالنكاح فسادا من هذا الوجه لا محالة ، فالوحدة أسلم له .

الآفة الثالثة - وهى دون الأولى والثانية - : أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشغوم على صاحبه ، ولست أعنى بهذا أن يدعو إلى محذور ، فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية ، بل أن يدعو إلى التعمم بالمباح بل إلى الإغراق في ملاعبة النساء وموانستن والإيمان في التمتع بهن ، ويشور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس تستغرق القلب ، فينقض الليل والنهار ولا يتفرغ المرء فيهما للتفكير في الآخرة والاستعداد لها ، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : من تعود أنخد النساء لم ينجى منه شيء . وقال أبو سليمان رحمه الله . من تزوج فقد ركن إلى الدنيا : أى يدعو ذلك إلى الركون إلى الدنيا ، فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكم على شخص واحد بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقا قصور عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبرا ومحكما ويعرض المرء عليه نفسه ، فإن انتفعت في حق الآفات واجتمعت الفوائد بأن كان له مال حلال وخلق حسن وجد في الدين تام لا يشغله النكاح عن الله ، وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يمارى في أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعى في تحصيل الولد ، فإن انتفعت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له ، وإن تقابل الأمران وهو الغالب فينبغى أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات في نقصان منه ، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به ، وأظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله ، فلنفرض تقابل هذه الأمور فنقول : من لم يكن في أذية من الشهوة وكانت فائدة نكاحه في السعى لتحصيل

الولد وكانت الآفة الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فالعزوبة له أولى ، فلا خير فيما يشغل عن الله ، ولا خير في كسب الحرام ، ولا يفي بنقصان هذين الأمرين أمر الولد ، فإن النكاح للولد سعى في طلب حياة للولد موهومة ، وهذا نقصان في الدين ناجز ، لحفظه لحياة نفسه وصونها عن الهلاك أهم من السعى في الولد وذلك ربح والدين رأس مال . وفي فساد الدين بطلان الحياة الآخوية وذهاب رأس المال ، ولا تقاوم هذه الفائدة إحدى هاتين الآفتين . وأما إذا انضاف إلى أمر الولد حاجة كسر الشهوة لتوقان النفس إلى النكاح نظر : فإن لم يقو لجام التقوى في رأسه وخاف على نفسه الزنا فالنكاح له أولى ، لأنه متردد بين أن يقتحم الزنا أو يأكل الحرام ، والكسب الحرام أهون الشرين ، وإن كان يثق بنفسه أنه لا يزني ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام فترك النكاح أولى ، لأن النظر حرام والكسب من غير وجهه حرام ، والكسب يقع دائماً وفيه عصيانه وعصيان أهله ، والنظر يقع أحياناً وهو يخصه وينصرم على قرب ، والنظر زنا العين ولكن إذا لم يصدقه الفرج فهو إلى العفو أقرب من أكل الحرام ، إلا أن يخاف إفضاء النظر إلى معصية الفرج فيرجع ذلك إلى خوف العنت ؛ وإذا ثبت هذا فالحالة الثالثة : وهو أن يقوى على غض البصر ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب فذلك أولى بترك النكاح ، لأنَّ عمل القلب إلى العفو أقرب ، إنما يراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام وأكله وإطعامه ، فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ويحكم بحسبها ، ومن أحاط بهذا لم يشكك عليه شيء مما نقلنا عن السلف من ترغيب في النكاح مرة ورغبة عنه أخرى ، إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح .

• فإن قلت : فمن أمن الآفات فما الأفضل له . التخلي لعبادة الله ، أو النكاح ؟ • فأقول : يجمع بينهما ، لأنَّ النكاح ليس مانعاً من التخلي لعبادة الله من حيث إنه عقد ، ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب ، فإن قدر على الكسب الحلال فالنكاح أيضاً أفضل ، لأنَّ الليل وسائر أوقات النهار يمكن التخلي فيه للعبادة ، والمواظبة على العبادة من غير استراحة غير ممكن ، فإن فرض كونه مستغرقاً بالكسب حتى لا يبقى له وقت سوى أوقات المكتوبة والنوم والأكل وقضاء الحاجة ، فإن كان الرجل ممن لا يسلك سبيل الآخرة إلا بالصلاة النافلة أو الحج وما يجري مجراه من الأعمال البدنية فالنكاح له أفضل ، لأنَّ في كسب الحلال والقيام بالأهل والسعى في تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعاً من العبادات لا يقصر فضلها عن نوافل العبادات وإن كان عبادته بالعلم والفكر وسير الباطن ، والكسب يشوش عليه ذلك ، فترك النكاح أفضل .

• فإن قلت : فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله ؟ وإن كان الأفضل التخلي لعبادة الله فلم استكثر رسولنا صلى الله عليه وسلم من الأزواج ؟ فاعلم أنَّ الأفضل الجمع بينهما في حق من قدر ومن قوت منته وعلت همته فلا يشغله عن الله شاغل ، ورسولنا عليه السلام أخذ بالقوة ، وجمع بين فضل العبادة والنكاح ، ولقد كان مع تسع من النسوة ^(١) متخلياً لعبادة الله ، وكان قضاء الوطر بالنكاح في حقه غير مانع ، كما لا يكون قضاء الحاجة في حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعاً لهم عن التدبير ، حتى يشتغلون في الظاهر بقضاء الحاجة وقلوبهم مشغوفة بهمهم غير غافلة عن مهماتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلز درجته لا يمنحه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى ، فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته ^(٢) ، ومتى سلم مثل هذا المنصب لغيره فلا يبعد أن يغير السواقي

(١) حديث « جمعه » صلى الله عليه وسلم بين تسع نسوة » أخرجه البخاري من حديث أنس ، وله من حديثه أيضاً « ومن إحدى عشرة » . (٢) حديث « كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته » أخرجه البخاري من حديث أنس « يأمسكها » لا تؤذي في طائفة فانه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها » .

مالا يغير البحر الحضم ، فلا ينبغي أن يقاس عليه غيره . وأما عيسى صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ بالحزم لا بالقوة ، واحتاط لنفسه ، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أو يتعذر معها طلب الحلال ، أو لا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة فأثر التخلي للعبادة ، وهم أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم في طيب المكاسب وأخلاق النساء ، وما على الناكح من غوائل النكاح وماله فيه ، ومهما كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل ؛ فحقتنا أن نزل أفعال الأنبياء على الأفضل في كل حال والله أعلم .

الباب الثاني : فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

أما العقد فأركاناه وشروطه لينعقد ويفيد الحل أربعة : (الأول) إذن الولي ؛ فإن لم يكن فالسلطان (الثاني) رضا المرأة إن كانت ثيباً باناً أو كانت بكراً بالغاً ، ولكن يزوجه غير الأب والجد (الثالث) حضور شاهدين ظاهري العدالة ، فإن كانا مستورين حكماً بالانعقاد للحاجة (الرابع) إيجاب وقبول متصل به بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة ، سواء كان هو الزوج أو الولي أو وكيلهما .

وأما آدابه . فتقديم الخطبة مع الولي لافي حال عدة المرأة ، بل بعد انقضائها إن كانت معتدة ، ولا في حال سبق غيره بالخطبة ، إذ نهى عن الخطبة على الخطبة ^(١) . ومن آدابه . الخطبة قبل النكاح ، ومنزج التحميد بالإيجاب والقبول فيقول المزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله زوجتك ابنتي فلانة . ويقول الزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله قبلت نكاحها على هذا الصداق . وليكن الصداق معلوماً خفيفاً ، والتحميد قبل الخطبة أيضاً مستحب . ومن آدابه . أن يلقى أمر الزوج إلى سمع الزوجة وإن كانت بكراً فذلك أخرى وأولى بالآلفة ؛ ولذلك يستحب النظر إليها قبل النكاح فإنه أخرى أن يؤدم بينهما . ومن الآداب : إحضار جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة ، ومنها : أن ينوى بالنكاح إقامة السنة وغض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد التي ذكرناها ، ولا يكون قصده مجرد الهوى والتمتع ، فيصير عمله من أعمال الدنيا ، ولا يمنع ذلك هذه النيات ، فرب حق يوافق الهوى . قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إذا وافق الحق الهوى فهو الزبد بالنرسيان ، ولا يستحيل أن يكون كل واحد من حظ النفس وحق الدين باعثاً معاً ، ويستحب أن يعقد في المسجد وفي شهر شوال . قالت عائشة رضي الله عنها : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال ، وبني بي في شوال ^(٢) .

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نوعان : أحدهما الحل . والثاني لطيب المعيشة وحصول المقاصد :

النوع الأول ما يعتبر فيها للحل : وهو أن تكون خلية عن موانع النكاح والموانع تسعة عشر : (الأول) أن تكون منكوحة للغير (الثاني) أن تكون معتدة للغير سواء كانت عدة وفاة أو طلاق أو وطء شبهة أو كانت في استبراء وطء عن ملك يمين (الثالث) أن تكون مرتدة عن الدين لجريان كلمة على لسانها من كلمات الكفر (الرابع) أن تكون مجوسية (الخامس) أن تكون وثنية أو زندية لا تنسب إلى نبي وكتاب ومنهن المعتقدات لمذهب الإباحة فلا يحل نكاحهن وكذلك كل معتدة مذهباً فاسداً يحكم بكفر معتقده (السادس) أن تكون كتائية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فليست من نسب بني إسرائيل ، فإذا عدمت كلتا الخصلتين

الباب الثاني : فيما يراعى حالة العقد

(١) حديث النهي عن الخطبة على الخطبة : متفق عليه من حديث ابن عمر ، ولا يخضب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله ويأذن له . (٢) حديث عائشة : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني أبي في شوال . رواه مسلم .

لم يحل نكاحها ، وإن عدمت النسب فقط ففيه خلاف (السابع) أن تكون رقيقة والنكاح حزا قادرا على طول الحرة أو غير خائف من العنت ، (الثامن) أن تكون كلها أو بعضها مملوكا للنكاح ملك يمين (التاسع) أن تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله أو فصوله ، أو فصول أول أصوله ، أو من أول فصل من كل أصل بعده أصل ، وأغنى بالأصول : الأمهات والجدات ، وبفصوله : الأولاد والأحفاد ، وبفصول أول أصوله : الإخوة وأولادهم ، وأول فصل من كل أصل بعده أصل : العمات والخالات دون أولادهن (العاشر) أن تكون محترمة بالرضاع ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب من الأصول والفصول كما سبق ، ولكن المحترم خمس رضعات وما دون ذلك لا يحرم (الحادى عشر) المحرم بالمصاهرة : وهو أن يكون النكاح قد نكح ابنتها أو جدتها أو ملك بعقد أو شبهة عقد من قبل ، أو وطئن بالشبهة فى عقد أو وطئ أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبهة عقد ؛ فجرد العقد على المرأة يحرم أمهاتها ، ولا يحرم فروعها إلا بالوطء ، أو يكون قد نكحها أبوه أو ابنه قبل (الثانى عشر) أن تكون المنكوحة خامسة أى يكون تحت النكاح أربع سواها إما فى نفس النكاح أو فى عدة الرجعة ، فإن كانت فى عدة بينونة لم تمنع الخامسة . (الثالث عشر) أن يكون تحت النكاح أختها أو عمتها أو خالتها ، فيكون بالنكاح جامعا بينهما ، وكل شخصين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى لم يحز بينهما النكاح ، فلا يجوز أن يجمع بينهما (الرابع عشر) أن يكون هذا النكاح قد طلقها ثلاثا فهي لا تحل له مالم يطأها زوج غيره فى نكاح صحيح (الخامس عشر) أن يكون النكاح قد لاعنها فإنها تحرم عليه أبدا بعد اللعان (السادس عشر) أن تكون محرمة بحج أو عمرة أو كان الزوج كذلك فلا ينعقد النكاح إلا بعد تمام التحلل (السابع عشر) أن تكون ثيبا صغيرة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ . (الثامن عشر) أن تكون يتيمة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ (التاسع عشر) أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن توفى عنها أو دخل بها فإنهن أمهات المؤمنين وذئب لا يوجد فى زماننا ؛ فهذه هى الموانع المحترمة .

أما الخصال المطيبة للعيش التى لابد من مراعاتها فى المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية : الدين ، والخلق ، والحسن ، وخفة المهر ، والولادة ، والبكارة ، والنسب ، وأن لا تكون قرابة قريبة (الأولى) أن تكون صالحة ذات دين ، فهذا هو الأصل وبه ينبغى أن يقع الاعتناء ، فإنها إن كانت ضعيفة الدين فى صيانة نفسها وفرجها أزلت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنقص بذلك عيشه ، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل فى بلاء ومحنة ؛ وإن سلك سبيل التساهل كان متهاونا بدينه وعرضه ومنسوبا إلى قلة الحمية والآنفة ، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد ، إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، ويكون كالأذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إن لى امرأة لا ترد يد لامس . قال : طلقها . فقال : لى أحبها . قال : أمسكها^(١) وإنما أمره بأمساكها خوفاً عليه بأنه إذا طلقها أتبعها نفسه وفسد هو أيضاً معها ؛ فرأى ما فى دوام نكاحه من دفع الفساد عنه من ضيق قلبه أولى ، وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشاً معه . فإن سكت ولم ينكره كان شريكاً فى المعصية بخالف لقوله تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ وإن أنكره وخاصم تنقص العمر ، ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التحريض على ذات الدين فقال « تنكح المرأة لما لها وجمالها وحسبها

(١) حديث « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى امرأة لا ترد يد لامس ، قال : طلقها ... الحديث » رواه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس ؛ قال النسائي : ليس بثابت ، والمرسل أول الصواب . وقال أحمد : حديث منكر ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك ^(١) ، وفي حديث آخر « من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم جمالها ومالها ، ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يريدها ، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها » وانكح المرأة لدينها ^(٣) . وإنما بالغ في الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عوناً على الدين ؛ فأما إذا لم تكن متدينة كانت شاغلة عن الدين ومشوشة له . (الثانية) حسن الخلق ، وذلك أصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين : فإنها إذا كانت سليطة بذية اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم ، كان الضرر منها أكثر من النفع ، والصبر على لسان النساء بما يتجن به الأولياء . قال بعض العرب . لا تنكحوا من النساء ستة : لا أمانة . ولا منانة ، ولا حنافة ؛ ولا تنكحوا حنافة : ولا براءة ، ولا شداقة . أما الأمانة فهي التي تكثر الأئین والتشكي وتغضب رأسها كل ساعة ؛ فنكاح المعراضة أو نكاح المتمازضة لا خير فيه ، والمنانة : التي تمن على زوجها فتقول : فعلت لأجلك كذا وكذا ، والحنافة : التي تمن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر ، وهذا أيضاً بما يجب اجتنابه ، والحنافة : التي ترمى إلى كل شيء بجدقتها فتشبهه وتكلف الزوج شراءه ، والبراقة تحتل معنيين : أحدهما أن تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق يحصل بالضع ، والثاني أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء ، وهذه لغة يمانية يقولون : برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا غضب عنده ، والشداقة : المتشدة الكسيرة الكلام ، ومنه قوله عليه السلام « إن الله تعالى يخض الثرائين المتشدقين ^(٤) » ، وحكى أن السائح الأزدي لقي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره بالتزوج ونهاه عن التبتل ، ثم قال لا تنكح أربعاً : المختلعة ، والمبارية ، والعاهرة ، والناشر ، فأما المختلعة : فهي التي تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب ، والمبارية : المباحية بغيرها المفخرة بأسباب الدنيا ، والعاهرة : الفاسقة التي تعرف بخليل وخن وهي التي قال الله تعالى ﴿ ولا متخذات أخدان ﴾ والناشر : التي تلو على زوجها بالفعال والمقال . والنشر : العالی من الأرض ، وكان على رضى الله عنه يقول : شر خصال الرجال خير خصال النساء . البخل ، والزهو والجبن ؛ فإن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها ، وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مريب وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها ؛ فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الأخلاق المطلوبة في النكاح . (الثالثة) حسن الوجه ؛ فذلك أيضاً مطلوب ، إذ به يحصل التحصن والطبع لا يكتفى بالدئمة غالباً ، كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان . وما نقلناه من الحث على الدين وأن المرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجر عن رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين ؛ فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال أن الألفة والمودة تحصل به غالباً وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحباب النظر فقال « إذا أوقع الله في نفس

(١) حديث « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فعليك بذات الدين » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها . . الحديث » رواه الطبرانی في الأوسط من حديث أنس « من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزد الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يفض بصره ويعصن فرجه أو يصل رحمه بآرك الله له فيها وباركها فيه » ورواه ابن حبان في الضعفاء . (٣) حديث « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يريدها » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف . (٤) حديث « إن الله يفض الثرائين المتشدقين » رواه الترمذی وحسنه من حديث جابر « وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني يوم القيامة الثرائون والمتفهمون » ولأبي داود والترمذی وحسنه من حديث عبد الله بن عمرو « إن الله يفض البليغ من الرجال الذي يتخال بلسانه ثمخل الباقرة بلسانها » .

أحدكم من امرأة فليُنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما^(١) ، أى يؤلف بينهما ، من وقوع الأدمة على الأدمة : وهى الجلدة الباطنة . والبشرة ، الجلدة الظاهرة . وإنما ذكر ذلك للبالغة فى الائتلاف . وقال عليه الصلاة والسلام : إن فى أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فليُنظر إليهن^(٢) ، قيل كان فى أعينهن عشم . وقيل : صغر ، وكان بعض الورعين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور . قال الأعمش . كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم . ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال ، وإنما يعرف الجمال من القبح . وروى أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضى الله عنه وكان قد خضب فحصل خضابه ، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا : حسبناه شباباً : فأوجعه عمر ضرباً وقال : غررت القوم : وروى أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقبل لهما ، من أتيا فقال بلال : أنا بلال وهذا أخى صهيب ، كنا ضالين فهدانا الله وكنا ملوكين فأعتقنا الله ، وكنا عائلين فأغنانا الله ؛ فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسيحان الله ، فقالوا بل تزوجان والحمد لله . فقال صهيب : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اسكت فقد صدقت فأنكحك الصدق . والغرور يقع فى الجمال والخلق جميعاً فيستحب إزالة الغرور فى الجمال بالنظر ، وفى الخلق بالوصف والاستيصال فينبغى أن يقدم ذلك على النكاح ، ولا يستوصف فى أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيفرط فى الثناء ، ولا يحسدها فيقصر ، فالطباع مائلة فى مبادئ النكاح ووصف المنكوحات إلى الإفراط والتفريط ، وقل من يصدق فيه ويقتصد ، بل الخداع والإغراء أغلب ، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوق إلى غير زوجته . فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة أو الولد أو تدبير المنزل ، فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب لأنه على الجملة باب من الدنيا وإن كان قد يعين على الدين فى حق بعض الأشخاص . قال أبو سليمان الداراني : الزهد فى كل شيء حتى فى المرأة يتزوج الرجل العجوز ليشارك فى الزهد فى الدنيا . وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول . يترك أحدكم أن يتزوج بقيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير ويتزوج بنت فلان وفلان يعنى أبناء الدنيا فلتشتبه عليه الشهوات وتقول اكسى كذا وكذا واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعقلهما ؟ فقيل : العوراء ، فقال : زوجوني إياها ، فهذا دأب من لم يقصد التمتع ، فأما من لا يأمن على دينه مالم يكن له مستمتع فليطلب الجمال ، فالتلذذ بالمباح حصن للدين . وقد قيل : إذا كانت المرأة حسنة خيرة الأخلاق سوداء الخدقة والشعر كبيرة العين بيضاء اللون محبة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهي على صورة الحور العين ؛ فإن الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة فى قوله ﴿ خيرات حسان ﴾ أراد بالخيرات حسنات الأخلاق ، وفى قوله ﴿ قاصرات الطرف ﴾ وفى قوله ﴿ عرباً أتراباً ﴾ العروب : هى العاشقة لزوجها المشتبهة للوقوع به تتم اللذة والحور : البياض والحوراء : شديدة بياض العين شديدة سوادها فى سواد الشعر والعيناء الواسعة العين . وقال عليه الصلاة والسلام « خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله^(٣) » وإنما يسر بالنظر إليها إذا كانت محبة للزوج (الرابعة) أن تكون خفيفة المهر .

(١) حديث « إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فليُنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما » أخرجه ابن ماجه بسند ضيف من حديث أحمد بن مسleme دون قوله « فإنه أحرى » وللترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث المنيرة بن شعبة : أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما » (٢) حديث « إن فى أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فليُنظر إليهن » رواه مسلم من حديث أبى هريرة نحوه . (٣) حديث « خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة نحوه بسند صحيح وقال « ولا تخافنه فى نفسها ولا مالها » وعند أحمد « فى نفسها وماله » ولأبى داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا ^(١) « وقد نهى عن المغالاة في المهر ^(٢) تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحي يدوجرة ووسادة من آدم حشوها ليف ^(٣) وعلى ، وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير ^(٤) وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق ^(٥) ، وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول : ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعائة درهم ^(٦) ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على نواة من ذهب قيمتها خمسة دراهم ^(٧) وزوج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة رضى الله عنه على درهمين ، ثم حملها هو إليه ليلا فأدخلها هو من الباب ثم انصرف ، ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج من خلاف العلماء فلا بأس به . وفي الخبر « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحما ، أى الولادة » ويسر مهرها ^(٨) ، وقال أيضا « أبركهن أقلهن مهرا ^(٩) وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل . ولا ينبغي أن ينكح طمعا في المال . قال الثوري : إذا تزوج وقال : أى شيء للمرأة ، فاعلم أنه لص ، وإذا أهدى إليهم فلا ينبغي أن يهدى ليضطروهم إلى المقابلة بأكثر منه ، وكذلك إذا أهدوا إليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة ؛ فأما التهادى فمستحب وهو سبب المودة . قال عليه السلام « تهادوا تحابوا » ^(١٠) ، وأما طلب الزيادة فداخل في قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أى تعطى لتطلب أكثر ، وتحت قوله تعالى (وما آتيتهم من ربا ليربوأ في أموال الناس) فإن الربا هو الزيادة ، وهذا طلب زيادة على الجملة ، وإن لم يكن في الأموال الربوية فكل ذلك مكروه وبدعة في النكاح يشبه التجارة والقمار ويفسد مقاصد النكاح . (الخامسة) أن تكون المرأة ولودا ؛ فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزويجها . قال عليه السلام « عليكم

(١) حديث « خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عباس « خيرهن أسيرهن صداقا » وله من حديث عائشة « من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها » وروى أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرته الأهلين « لمن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهرا » وصححه .

(٢) حديث « النهى عن المغالاة في المهر » رواه أصحاب السنن الأربعة موقوفا على عمر وصححه الترمذى . (٣) حديث « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحي يدوجرة ووسادة من آدم حشوها ليف » رواه أبو داود الطيالسي والبخاري من حديث أنس : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم . قال البخاري : ورأيت في موضع آخر تزويجها على متاع بيت ورعى قيمته أربعون درهما . ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد وكلاهما ضعيف . ولاحمد من حديث علي لما تزوجه فاطمة بنت مها بخيلة ووسادة آدم حشوها ليف ورحلين وسقاء وجريين » ورواه الحاكم وصححه إسناده ، وابن حبان مختصرا . (٤) حديث « أولم على بعض نسائه بمدين من شعير » أخرجه البخاري من حديث عائشة . (٥) حديث « وأولم على أخرى بمدى تمر ومدى سويق » رواه الأربعة من حديث أنس : أولم على صفية بسويق وتمر . ولمسلم : فجعل الرجل يحىء بفضل التمر وبفضل السويق . وفي الصحيحين : التمر والأقط والسمن ، وليس في شيء من الأصول تعييد التمر والسويق بمدين . (٦) حديث : كان عمر ينهى عن المغالاة ويقول : ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعائة درهم . رواه الأربعة من حديث عمر . قال الترمذى : حسن صحيح .

(٧) حديث . تزوج بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم . متفق عليه من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك وتقوعها بخمسة دراهم . رواه البيهقي . (٨) حديث « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحما » أى الولادة وتيسر مهرها . رواه أحمد والبيهقي من حديث عائشة « من يمن المرأة أن تيسر خطبتها وأن يتيسر صداقها وأن يتيسر رحما » قال عروة : معنى الولادة ، وإسناده جيد . (٩) حديث « أبركهن أقلهن مهرا » رواه أبو عمر التوفاني في معاشرته الأهلين من حديث عائشة « لمن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهرا » وقد تقدم ، ولاحمد والبيهقي « لمن أعظم النساء بركة أسيرهن صداقا » وإسناده جيد .

(١٠) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد ، والبيهقي من حديث أبي هريرة بسند جيد .

بالولود الودود^(١) فإن لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعى صحتها وشبابها ، فإنها تكون ولودا في الغالب مع هذين الوصفين (السادسة) أن تكون بكرأ قال عليه السلام لجابر : وقد نكح ثيبا « هلا بكرأ تلاعبها وتلاعبك^(٢) » ، في البكارة ثلاث فوائد ، إحداها : أن تحب الزوج وتأنفه فيؤثر في معنى الود ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالودود » ، والطباع مجبولة على الانس بأول مألوف . وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف التي تخالف ما ألفته فتقتل الزوج : الثانية : أن ذلك أكمل في مودته لها فإن الطبع ينفر عن التي مسها غير الزوج نفرة ما ، وذلك يثقل على الطبع مهما يذكر وبعض الطباع في هذا أشد نفورا . الثالثة : أنها لا تمنح إلى الزوج الأول وآكد الحب ما يقع مع الحبيب الأول غالبا . (السابعة) أن تكون نسيبة أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها ستربى بناتها وبنيها ، فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية ، ولذلك قال عليه السلام « إياكم وخضراء الدمن » ، فليل : ما خضراء الدمن : قال « المرأة الحسناء في المنبت السوء^(٣) » ، وقال عليه السلام تخيروا لنطفكم فإن العرق نزاع^(٤) » ، الثامنة : أن لا تكون من القرابة القريبة ؛ فإن ذلك يقلل الشهوة : قال صلى الله عليه وسلم « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا^(٥) » ، أى نحيفا ، وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة ، فإن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللمس وإنما يقوى الإحساس بالامر الغريب الجديد ، فأما المعهود الذي دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة ، فهذه هي الخصال المرغوبة في النساء ، ويجب على الولي أيضا أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكريمته فلا يزوجهما عن ساء خلقه أو خلقه ، أو ضعف دينه ، أو قصر عن القيام بحقوقها أو كان لا يكافئها في نسبها ، قال عليه السلام « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته^(٦) » ، والاحتياط في حقها أهم لأنها رقيقة بالنكاح لا يخلص لها ، والزوج قادر على الطلاق بكل حال ، ومهما زوج ابنته ظلما أو فاسقا أو مبتدعا أو شاربا خمر فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . وقال رجل للحسن : قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجهما ؟ قال ، من يتقى الله ، فإن أحبا أكرمها ، وإن أبغضا لم يظلمها . وقال عليه السلام « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها^(٧) » .

(١) حديث « عليكم بالودود الولود » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار « تزوجوا الودود الولود » وإسناده صحيح . (٢) حديث قال لجابر وقد نكح ثيبا « هلا بكرأ تلاعبها وتلاعبك » متفق عليه من حديث جابر . (٣) حديث « إياكم وخضراء الدمن ؛ فليل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » رواه الدارقطني في الأفراد ، والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري ، قال الدارقطني : تفرد به الوالدى وهو ضعيف . (٤) حديث « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصرا دون قوله « فإن العرق » وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس « تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس » وروى أبو موسى المديني في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر « وانظر في أى نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس » وكلاما ضعيفا . (٥) حديث « لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاويا » قال ابن الصلاح : لم أجده أصلا معتمدا . قلت : لأنما يعرف من قوله عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم فانكحوا في النوايح » رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث . وقال : متناه تزوجوا الفرائب قال : ويقال : اغربوا لاتضووا .

(٦) حديث « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » رواه أبو عمر التوفاني في مباشرة الأهلين موقفا على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر . قال البيهقي . وروى ذلك سرفوطا والموقوف أصح . (٧) حديث « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها » رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ، ورواه في الثقات من قول النبي بإسناده صحيح .

الباب الثالث : في آداب المعاشرة وما يجرى في دوام النكاح

والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة . أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والآداب في اثني عشر أمرا : في الوليمة ، والمعاشرة ، والنسابة ، والسياسة ، والغيرة . والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب في الذشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق .

الآداب الأول : الوليمة ، وهي مستحبة ، قال أنس رضي الله عنه : « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال « ما هذا » فقال « تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب . فقال « بارك الله لك ، أولم ولو بشاة »^(١) « وأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق »^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم « طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به »^(٣) . ولم يرفعه إلا زياد بن عبد الله وهو غريب . وتستحب تهنيئة فيقول من دخل على الزوج : بارك الله لك وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير »^(٤) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك ، ويستحب إظهار النكاح . قال عليه السلام ، فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت »^(٥) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف »^(٦) « وعن الربيع بنت معوذ قالت « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل غداة بني في مجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفهن ويندن من قتل من آبائي إلى أن قالت لإحداهن « وفينا نبي يعلم ما في غد » فقال لها : اسكتي عن هذه وقولي الذي كنت تقولين قبلها »^(٧) .

الآداب الثاني . حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترحما عليهن لقصور عقولهن . وقال الله تعالى ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ وقال في تعظيم حقهن ﴿ وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ وقال ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ قيل هي المرأة وآخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه : جعل يقول : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهن مالا يطيقون . الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم - يعني أسراء - أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »^(٨) ، وقال عليه السلام « من صبر على سوء خلق امرأته

الباب الثالث : في آداب المعاشرة

(١) حديث أنس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال : « هذا ؟ » قال : تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب ، فقال « بارك الله لك ، أولم ولو بشاة » متفق عليه (٢) حديث « أولم على صفية بسويق وتمر » رواه الأربعة من حديث أنس ، ولمسلم نحوه وفيه تقدم (٣) حديث « طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به » قال المصنف : لم يرفعه إلا زياد بن عبد الله . قلت . هكذا قال الترمذي بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه (٤) حديث أبي هريرة في تهنيئة الزوج « بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير » رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وتقدم في الدعوات (٥) حديث « فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت » رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب (٦) حديث « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف » رواه الترمذي من حديث عائشة وحسنه وضعفه البيهقي (٧) حديث الربيع بنت معوذ : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على غداة بني في مجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفوفهن ... الحديث ، رواه البخاري وقال . يوم بدروقع في بعض لسخ الإحياء : يوم بعات ، وهو وهم .

(٨) حديث « آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث : كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه ، جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهن مالا يطيقون ، الله الله في النساء فإنهن عوان عندهن ... الحديث » أخرجه النسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الموت جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » فما زال يقولها وما يقبض بها لسانه ، وأما الرخصة بالنساء فالمعروف أن ذلك كان في حجة الوداع . رواه مسلم من حديث جابر العلويل ، وفيه . « فاهوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ... » الحديث

أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ، ومن ضبرت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون ^(١) . وأعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت أزواجه تراجعته الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل ^(٢) . وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال أتراجعيني بالكلام ؟ فقالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك ^(٣) ؛ فقال عمر : خابت حفصة وخسرت إن راجعته ؛ ثم قال لحفصة . لا تغتري بآبنة ابن أبي قحافة فإنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة . وروى أنه دفعت إحداهن في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها ، فقال عليه السلام : دعها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك ^(٤) . وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلها بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكما واستشده ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمين أو أتكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقا ، فطمعها أبو بكر حتى دعى فوها وقال : يا عديّة نفسها ، أويقول غير الحق ! فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا ^(٥) . وقالت له مرة في كلام غضبت عنده : أنت الذي تزعم أنك نبي الله ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكرما ^(٦) . وكان يقول لها « إني لأعرف غضبك من رضاك » ، قالت : وكيف تعرفه ؟ قال « إذا رضيت قلت لا وإله محمد ، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم » ، قالت : صدقت إنما أجهز اسمك ^(٧) ، ويقال إن أول حب وقع في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها ^(٨) . وكان يقول لها : كنت لك كأبي زرع لأم زرع ، غير أني لا أطلقك ^(٩) ، وكان يقول لنسائه « لا تؤذوني في عائشة ، فإنه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها ^(١٠) » ، وقال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان ^(١١) .

(١) حديث « من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ... الحديث » لم أقف له على أصل (٢) حديث : كان أزواجه صلى الله عليه وسلم يراجعنه الحديث وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل . متفق عليه من حديث عمر في الحديث الطويل في قوله تعالى (فان تطاهرا عليه)

(٣) حديث : وراجعت امرأة عمر عمر في الكلام فقال : أتراجعيني بالكلام ؟ قالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك . الحديث ، هو الحديث الذي قبله وليس فيه قوله : بالكلام ، ولا قولها : هو خير منك .

(٤) حديث : دفعت إحداهن في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها ، فقال صلى الله عليه وسلم « دعها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك » لم أقف له على أصل (٥) حديث : جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكما ... الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والخطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف (٦) حديث : قالت لعائشة مرة غضبت عنده : وأنت الذي تزعم أنك نبي ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة ، وفيه ابن اسحق وقد عنقنه .

(٧) حديث : كان يقول لعائشة « إني لأعرف غضبك من رضاك ... الحديث » متفق عليه من حديثها . (٨) حديث « أول حب وقع في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم عائشة » رواه الفيضان من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أي الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال « عائشة ... الحديث » وأما كونه أول فرواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أنس ، ولعله أراد بالمدينة كما في الحديث الآخر أن ابن الزبير أول مولود ولد في الإسلام يريد بالمدينة ، ولا فجة النبي صلى الله عليه وسلم لحديجة أمر معروف تشهد له الأحاديث الصحيحة (٩) حديث : كان يقول لعائشة « كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لا أطلقك » متفق عليه من حديث عائشة دون الاستثناء ، ورواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والخطيب . (١٠) حديث « لا تؤذوني في عائشة فإنه والله ما أنزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها » رواه البخاري من حديث عائشة . (١١) حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان . رواه مسلم بلفظ . مارأيت أحدا كان أرحم بالعباد من رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد على بن عبد العزيز والبزوي : والصبيان .

الثالث : أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة ؛ فهي التي تطيب قلوب النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق ، حتى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة في العدو فسبقتة يوما ، وسبقها في بعض الأيام ، فقال عليه السلام : « هذه بتلك » (١) . وفي الخبر : أنه كان صلى الله عليه وسلم من أفكك الناس مع نسائه (٢) . وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء ؛ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتجبن أن ترى لعبهم قالت قلت نعم ، فأرسل إليهم فجاءوا ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ، فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حسبك » وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ، ثم قال « يا عائشة حسبك » ، فقلت نعم ، فأشار إليهم فأنصرفوا (٣) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكل المؤمنين إيماننا أحسنهم خلقا وأطفهم بأهله » (٤) ، وقال عليه السلام : « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم للنسائي » (٥) ، وقال عمر رضي الله عنه مع خشوته : يلغى للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي ؛ فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلا . وقال لقمان رحمه الله : ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي ، وإذا كان في القوم وجد رجلا . وفي تفسير الخبر المروي : إن الله ينفذ الجعظري الجواظ (٦) ، قيل هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه ؛ وهو أحد ما قيل في معنى قوله تعالى ﴿ عتَل ﴾ قيل العتل : هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله . وقال عليه السلام لجابر : « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » (٧) ، ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله لقد كان ضحوكا إذا وبل سكتا إذا خرج ، آكلا ما وجد . غير مسائل عما فقد .

الرابع : أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق والمواقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيئته عندها ، بل يراعى الاعتدال فيه فلا يدع الهية والانتقاض مهما رأى منكرا ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة ، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تتمر وامتنع . قال الحسن : والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار . وقال عمر رضي الله عنه : خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة . وقد قيل : شاوروهن وغالغوهن . وقد قال عليه السلام : « تعس عبد الزوجة » (٨) ، وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها

(١) حديث مسابقتها صلى الله عليه وسلم لعائشة فسبقتة ثم سبقها وقال « هذه بتلك » رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة بسند صحيح .

(٢) حديث : كان من أفكك الناس مع نسائه . رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس دون قوله : مع نسائه . ورواه الزبيري والطبراني في الصغير والأوسط فقالا : مع صبي . وفي إسناده ابن لهيعة . (٣) حديث عائشة : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتجبن أن ترى لعبهم » الحديث ، متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء ، وإنما قال : يوم عيد ، ودون قولها : اسكت . وفي رواية للنسائي في الكبرى : قلت : لا تعجل ، صهين . وفيه فقال : يا حبيب ، وسند صحيح . (٤) حديث « أكل المؤمنين إيماننا أحسنهم خلقا وأطفهم بأهله » رواه الترمذي والنسائي واللفظ له ، والحاكم وقال : رواه ثقات على شرط الشيخين . (٥) حديث « خياركم خيركم للنساء وأنا خيركم للنسائي » أخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله « وأنا خيركم للنسائي » وله من حديث عائشة وصححه « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

(٦) حديث « لن الله ينفذ الجعظري الجواظ » رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ، وهو في الصحيحين من حديث جارية بن وهب الخزاعي بلفظ « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » ولأبي داود « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري » (٧) حديث قال لجابر « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » متفق عليه من حديثه ، وقد تقدم (٨) حديث « تعس عبد الزوجة » لم أقب له على أصل ، والمعروف « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم ... الحديث » رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

وقد نعتس فإن الله ملكه المرأة فملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال ﴿ ولا أمرهم فليغيرن خلق الله ﴾ إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً ، وقد سمي الله الرجال قوامين على النساء وسمى الزوج سيداً ، فقال تعالى ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ فإذا انقلب السيد مستخراً فقد بدل نعمة الله بكفراً ، ونفس المرأة على مثال نفسك : إن أرسلت عنانها قليلاً جمحت بك طويلاً ، وإن أرخيت عذارها فتراها جذبتك ذراعاً ، وإن كبحتنا وشدت يدك عليها في محل الشدة ملكتها . قال الشافعي رضي الله عنه : ثلاثة إن أكرمهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك : المرأة ، والخادم . والنبطي : أراد به إن محضت الإكرام ولم تخرج غاظك بليتك وفظاظتك برفقك . وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج ، وكانت المرأة تقول لابنتها : اختبري زوجك قبل الإقدام والجرازة عليه انزعى زج رحه ، فإن سكت فقطعى اللحم على ترسه ، فإن سكت فكسرى العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلى الإكاف على ظهره وامتنطيه فإنما هو حمارك . وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ، فكل ما جاوز حده انعكس على ضده ، فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن ، فإن كيدهن عظيم وشرهن فاش ، والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل ، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف بمزوج بسياسة . وقال عليه السلام « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب »^(١) ، والأعصم يعنى الأبيض البطن . وفي وصية لقمان لابنه : يا بني اتق المرأة السوء فإنها تشيك قبل الشيب ، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير ، وكن من خيارهن على حذر . وقال عليه السلام « استعينوا من الفواقر الثلاث »^(٢) ، وعدمهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب . وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها سبتك ، وإن غبت عنها خانتك » وقد قال عليه السلام في خيرات النساء « إنكن صواحب يوسف »^(٣) ، يعنى إن صرفكن أبا بكر عن التقدم في الصلاة ميل منكن عن الحق إلى الهوى . قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ أى مالت وقال ذلك في خير أزواجه^(٤) ، وقال عليه السلام « لا يفلح قوم تملكتهم امرأة »^(٥) ، وقد زبر عمر رضي الله عنه امرأته لما راجعته وقال : ما أنت إلا لعبة في جانب البيت إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت ، فإذا فيهن شر وفيهن ضعف ؛ فالسياسة والحشونة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف ، فالطيبيب الحاذق هو الذى يقدر العلاج بقدر الداء ، فلينظر الرجل أولاً إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها .

الخامس : الاعتدال في الغيرة : وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التى تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في إسائة الظن والتعننت وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء^(٦) وفي لفظ آخر :

(٦) حديث « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ولا أحد من حديث عمرو بن العاص : كسنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر الظهران ، فإذا برهان كثيرة فيها غراب أعصم آخر المتار فقال « لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغراب » وإسناده صحيح ، وهو في السنن الكبرى للنسائي .
(٢) حديث « استعينوا من الفواقر الثلاث وعدمهن المرأة السوء ، فإنها المشيبة قبل الشيب » وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها لسبتك ، وإن غبت عنها خانتك » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . واللفظ الآخر رواه الطبراني من حديث فضالة بن عبيد « ثلاث من الفواقر : وذكر منها واحداً لمن حضرت آذنتك وإن غبت عنها خانتك » وسنده حسن .
(٣) حديث « إنكن صواحب يوسف » متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث نزول قوله تعالى ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ في خير أزواجه متفق عليه من حديث عمر ، والمرآة عائشة وحفصة (٥) حديث « لا يفلح قوم تملكتهم امرأة » رواه البخاري من حديث أبي بكر بن عمرو (٦) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء رواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر : نهى أن تتطلب عورات النساء ، والحديث عند مسلم بلفظ : نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً =

أن تبغ النساء . ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال قبل دخول المدينة « لا تطرقوا النساء ليلاً » ، فخالفه رجلان فسبعا ، فرأى كل واحد في منزله ما يكره ^(١) وفي الخير المشهور « المرأة كالضلع إن قومته كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج ^(٢) » ، وهذا في تهذيب أخلاقها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير رية ^(٣) » ، لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه ، فإن بعض الظن لائم . وقال على رضي الله عنه : لا تكثر الغيرة على أهلك فتري بالسوء من أجلك . وأما الغيرة في محلها فلا بد منها وهي محمودة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يغار والمؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه ^(٤) » ، وقال عليه السلام « أتعجبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير مني ^(٥) » ، ولأجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ولذلك بعث المندرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولأجل ذلك وعد الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسري بي في الجنة قصراً وبفتائه جارية ؛ فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر ؛ فأردت أن أنظر إليها فذكرت غيرتك يا عمر : فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ^(٦) » ، وكان الحسن يقول : أتدعون نساءكم ليزاحن العلوج في الأسواق قبح الله من لا يغار ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ، ومن الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريبة ، والغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير رية ، والاختيال الذي يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدمة ، والاختيال الذي يبغضه الله الاختيال في الباطل ^(٧) » ، وقال عليه الصلاة والسلام « إني لغيور ، وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب ^(٨) » ، والطريق المغنى عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج إلى الأسواق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بنته فاطمة عليها السلام « أى شيء خير للمرأة ؟ » قالت : أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل ، فضعها إليه وقال « ذرية بعضها من بعض ^(٩) » فاستحسن قولها . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدون الكوى والثقب في الحيطان لئلا تطلع النسوان إلى الرجال . ورأى معاذ امرأته تطلع في الكوة فضرها ، ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه فتفاحه قد أكلت منها فضرها . وقال عمر رضي الله عنه : أعروا النساء يلزمن الحجال ، وإنما قال ذلك لأنهن لا يرغبن في

= يخونهم أو يطلب عثراتهم واقتصر البخاري منه على ذكر النبي عن الطروق ليلاً (١) حديث أنه قال قبل دخول المدينة « لا تطرقوا أهلكم ليلاً » فخالفه رجلان فسبعا إلى منازلها فرأى كل واحد في بيته ما يكره . رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند جيد .

(٢) حديث « المرأة كالضلع إن أردت تحبه كسرته ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « غيرة يبغضها الله وهي غيرة الرجل على أهله من غير رية » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك .

(٤) حديث « الله يغار والمؤمن يغار ، وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه » متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري : والمؤمن يغار (٥) حديث « أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه والله أغير مني ... الحديث » متفق عليه من حديث المنيرة بن شعبة .

(٦) حديث « رأيت ليلة أسري بي في الجنة قصراً وبفتائه جارية ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل لعمر ... الحديث » متفق عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أسري بي ولم يذكر الجارية ، وذكر الجارية في آخر متفق عليه من حديث أبي هريرة « بينما أنا نائم رأيتني في الجنة ... الحديث » (٧) حديث « إن من الغيرة ما يحبه الله تعالى ومنها ما يبغضه الله تعالى ... الحديث » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك ، وهو الذي تقدم قبله بأربعة أحاديث . (٨) حديث « إني لغيور وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب » تقدم أوله . وأما آخره فرواه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرة الأهلين من رواية عبد الله بن محمد مرسلاً . والظاهر أنه عبد الله بن الحنفية (٩) حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بنته فاطمة « أى شيء خير للمرأة ؟ » فقالت : أن لا ترى رجلاً . رواه البزار والدارقطني في الأفراد من حديث علي بسند ضعيف .

الخروج في الهيئة الرثة . وقال عقودوا نسائك ، لا ، وكان قد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء في حضور المسجد ^(١) والصواب الآن المنع إلا العجائز ، بل استصوب ذلك في زمان الصحابة حتى قالت عائشة رضي الله عنها ، لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج ^(٢) . ولما قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمتنعوا إمام الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله لمنعهن ، فضربه وغضب عليه وقال تسمعي أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمتنعوا » فتقول : بلى ^(٣) ، ولما استجراً على المخالفة لعلمه بتغير الزمان ، ولما غضب عليه لإطلاقه اللفظ بالمخالفة ظاهراً من غير إظهار العذر ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لمن في الأعياد خاصة أن يخرجن ^(٤) ولكن لا يخرجن إلا برضا أزواجهن ، والخروج الآن مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها ولكن التعود أسلم وينبغي أن لا يخرج إلا للمهم ، فإن الخروج للنظارات والأموال التي ليست مهمة تقدر في المروءة وربما تفضي إلى الفساد ، فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال ، ولنا نقول إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقها ، بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط ، فإن لم تكن فتنة فلا : إذ لم يزل الرجال على عمر الزمان مكشوفى الوجوه والنساء يخرجن منتقبات ولو كان وجوه الرجال عورة في حق النساء لأمروا بالتقرب أو منعن من الخروج إلا لضرورة .

السادس : الاعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتصر عليهن في الإنفاق ، ولا ينبغي أن يسرف ، بل يقتصد . قال تعالى ﴿ وكأوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « دينار أنفقت في سبيل الله ، ودينار أنفقت في ربة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقت على أهلك : أعظمها أجراً الذي أنفقت على أهلك » ^(٦) ، وقيل : كان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة ، فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم ، وقال الحسن رضي الله عنه : كانوا في الرجال مخاصيب ، والإناث والثياب مجاديب . وقال ابن سيرين : يستحب : للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة فانودجة ، وكان الخلاوة وإن لم تكن من المهمات ولكن تركها بالكلية تقتير في العادة ، وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لتركها فهذا أقل درجات الخير ، وللرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج ، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بما كوله طيب فلا يطعمهم منه ، فإن ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، فإن كان مزماً على ذلك فليأكله بحفية بحيث لا يعرف أهله ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه ، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته ، فقد قال سفيان رضي الله عنه : بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة ، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها ، فإن ذلك جناية عليها لامرأته لها وقد أوردنا الأخبار الواردة في ذلك عند ذكر آفات النكاح .

(١) حديث الإذن للنساء في حضور المساجد . متفق عليه من حديث ابن عمر « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » .

(٢) حديث قالت عائشة : لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج . متفق عليه . قال البخاري :

لمنعهن من المساجد (٣) حديث ابن عمر « لا تمتنعوا إمام الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله ... الحديث متفق عليه .

(٤) حديث « الإذن لمن في الأعياد » متفق عليه من حديث أم عطية . (٥) حديث « خيركم خيركم لأهله »

أخرجه الترمذي من حديث عائشة وصححه ، وقد تقدم . (٦) حديث « دينار أنفقت في سبيل الله ، ودينار أنفقت في ربة ،

ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقت على أهلك : أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقت على أهلك » أخرجه مسلم من

حديث أبي هريرة .

السابع : أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحتترز به الاحتراز الواجب ، ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى ، فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ فعليه أن يلقيها اعتقاد أهل السنة ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها ، ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين ، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه وعلم الاستحاضة يطول ؛ فأما الذي لا بد من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض بيان الصلوات التي تقضيها ، فإنها مهما انقطع دمها فبيل المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر ، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء ، وهذا أقل ما يراعيه النساء ، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بحجاب المفتي فليس لها خروج ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل لإبرضاه ومهما أهملت المرأة حكماً من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل خرج الرجل معها وشاركها في الإثم .

الثامن : إذا كان له نوسة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن ، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أفرع بينهن ^(١) ، كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظلم امرأة بليتها قضى لها ، فإن القضاء واجب عليه ، وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام القسم وذلك يطول ذكره ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له امرأتان فمال إلى إحداها دون الأخرى - وفي لفظ - ولم يعدل بينهما ؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل ^(٢) » ، وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت ، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار . قال الله تعالى ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أى أن تعدلوا في شهوة القلب وميل النفس ، ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بينهن في العطاء والبيتوتة في الليالي ويقول « اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك ^(٣) » ، يعنى الحب . وقد كانت عائشة رضى الله عنها أحب نسائه إليه ^(٤) وسائر نسائه يعرفن ذلك . وكان يطاف به محمولا في مرضه في كل يوم وكل ليلة ، فبيت عند كل واحدة منهن ويقول : أين أنا غدا ، ففطنت لذلك امرأة منهن فقالت : إنما يسأل عن يوم عائشة ؛ فقلن يا رسول الله قد أذن لك أن تكون في بيت عائشة فإنه يشق عليك أن تحمل في كل ليلة ؛ فقال « وقد رضىين بذلك ؟ فقلن : نعم . قال : فحولوني إلى بيت عائشة ^(٥) » ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ورضى الزوج بذلك ثبت الحق لها . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ، فقصد أن يطلق سودة بفت زمعة لما كبرت

(١) حديث القرعة بين أزواجه إذا أراد سفرأ : متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « من كان له امرأتان فمال إلى إحداها دون الأخرى » وفي لفظ آخر « لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة : قال أبو داود وابن حبان « قال مع إحداها » وقال الترمذي « فلم يعدل بينهما » . (٣) حديث : كان يعدل بينهن ويقول « اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة نحوه . (٤) حديث : كانت عائشة أحب نسائه إليه : متفق عليه من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أى الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال « عائشة » وقد تقدم . (٥) حديث : كان يطاف به محمولا في مرضه كل يوم وليلة فبيت عند كل واحدة ويقول « أين أنا غدا ... الحديث » رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن علي بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحمل في ثوب يطاف به على نسائه وهو مريض يقسم بينهن . وفي مرسل آخر له : لما قل قال « أين أنا غدا ؟ » قالوا : عند فلانة . قال « فأين أنا بعد غدا ؟ » قالوا عند فلانة ، فعرف أزواجه أنه يريد عائشة .. الحديث . وللبخاري من حديث عائشة : كان يسأل في مرضه الذى مات فيه : « أين أنا غدا ؟ » يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء . وفي الصحيحين : لما قل استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له .

فوهبت ليلتها لعائشة وسألته أن يقرأها على الزوجية حتى تحشر في زمرة نساؤه ، فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين واسائر أزواجه ليلة ليلة ^(١) ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لحسن عدله وقوته كان إذا تأقت نفسه إلى واحدة من النساء في غير نوبتها لجامعها طاف في يومه أوليلته على سائر نساؤه ؛ فمن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف على نساؤه في ليلة واحدة ^(٢) . وعن أنس أنه عليه السلام طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار ^(٣) .

التاسع : في النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما : فإن كان من جانبها جميعا أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على إصلاحها فلا بد من حكيم : أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما (إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما) وقد بعث عمر رضي الله عنه حكا إلى زوجين ، فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال : إن الله تعالى يقول (إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما) فعاد الرجل وأحسن النية وتلطف بهما فأصلح بينهما . وإما إذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء ، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ، وكذا إذا كانت تاركة للصلاة فله حملها على الصلاة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها : وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف ، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفرش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال . فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظام ولا يديها جسم . ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه . وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حق المرأة على الرجل ؟ » قال : يطعمها إذا طعم . ويكسوها إذا اكتسى . ولا يقيح الوجه . ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح . ولا يهجرها إلا في المبيت ^(٤) ، وله أن يغضب عليها ويهجرها في أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر . فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إلى زينب بهدية فردتها عليه . فقالت له التي هو في بيتها : لقد أقاتك إذ ردت عليك هديتك ^(٥) . أي أذلتك واستصغرتك . فقال صلى الله عليه وسلم : أنتن أهون على الله أن تقمثنى ، ثم غضب عليهن كلهن شهراً إلى أن عاد إليهن .

العاشر : في آداب الجماع . ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى ويقرأ قل هو الله أحد أولاً ويكبر ويهمل ويقول : بسم الله العلي العظيم . اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت أن تخرج ذلك من صلبى . وقال عليه الصلاة والسلام : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا . » فإن كان بينهما ولد لم يضرب

(١) حديث : كان يقسم بين نسائه ، فقصده أن يطأ بسودة بنت زمرة لما كبرت ، فوهبت ليلتها لعائشة ... الحديث رواه أبو داود من حديث عائشة : قالت سودة حين أسئت وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله يومى لعائشة ... الحديث ، والطبراني : فأراد أن يفارقها . وهو عند البخارى باللفظ : لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها بيوم سودة ، والبيهقي مرسل : طلق سودة فقالت : أريد أن أحضر في أزواجك ... الحديث . (٢) حديث عائشة : طاف على نساؤه في ليلة واحدة . متفق عليه باللفظ : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيطوف على نسائه ثم يصبح بمريم بنص طيباً (٣) حديث أنس : أنه طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار ، رواه ابن عدى في الكامل ، والبخارى : كان يطوف على نسائه في ليلة واحدة وله تسع نسوة . (٤) حديث : قيل له : ما حق المرأة على الرجل ؟ فقال : يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يقيح الوجه ، ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح ، ولا يهجرها إلا في البيت ، رواه أبو داود والنسائي في الكبرى ، وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد ، وقال : ولا يضرب الوجه ولا يقيح . وفي رواية لأبي داود : ولا يقيح الوجه ولا تضرب . (٥) حديث هجرة صلى الله عليه وسلم لساء شهراً لما أرسل بهدية إلى زينب فردتها فقالت له التي في بيتها : لقد أقاتك ... الحديث ، ذكره ابن الجوزي في الوفاء بنير إسناد . وفي الصحيحين من حديث عمر : كان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن . وفي رواية من حديث جابر : ثم اعتزلن شهراً (٧ - لمحياء علوم الدين - ٢)

الشیطان ^(١) ، وإذا قربت من الإنزال فقل في نفسك ولا تحرك شفتيك : الحمد لله الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً . وكان بعض أصحاب الحديث يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته ، ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالواقع إكراماً للقبلة ، وليخط نفسه وأهله بثوب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغطى رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة « عليك بالسكينة » ^(٢) ، وفى الخبر « إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجردان تجرد العيرين » ^(٣) ، أى الحمارين ، وليقدم التلطف بالكلام والتقيل قال صلى الله عليه وسلم « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ، وليكن بينهما رسول » قيل وما الرسول يا رسول الله ؟ قال « القبلة والكلام » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاث من العجز فى الرجل : أن يلتقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه ، والثانى : أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته ، والثالث : أن يقارب الرجل جاريته أو زوجته فيضيها قبل أن يحدثها ويؤانسها ، ويضاجعها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه) ^(٥) ويكره له الجماع فى ثلاث ليال من الشهر : الأول ، والآخر ، والنصف . يقال : إن الشيطان يحضر الجماع فى هذه الليالى ، ويقال : إن الشياطين يجامعون فيها ، وروى كراهة ذلك عن على ومعاوية وأبي هريرة رضى الله عنهم . ومن العلماء من استحسب الجماع يوم الجمعة وليلته تحقيقاً لأحد التائبين من قوله صلى الله عليه وسلم (رحم الله من غسل واغتسل) ^(٦) الحديث . ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضى هى أيضاً نهمتها ، فإن إنزالها ربما يتأخر فيبيح شهوتها ، ثم القعود عنها لإيذاء لها ، والاختلاف فى طبع الإنزال يوجب التناثر مهما كان الزوج سابقاً إلى الإنزال ، والتوافق فى وقت الإنزال ألدعنها ليشغل الرجل نفسه عنها ، فإنها ربما تستحى . وينبغي أن يأتيها فى كل أربع ليال مرة فهو أعدل ، إذ عدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد ، نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها فى التحصين ، فإن تحصينها واجب عليه ، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها ، ولا يأتيها فى الحيض ، ولا بعد انقضائه وقبل الغسل ، فهو محرم بنص الكتاب ، وقيل : إن ذلك يورث الجذام فى الولد ، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها فى غير المأتى ، إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى ، والأذى غير المأتى دائم فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض . وقوله تعالى ﴿ فأتوا حرائكم انى شئتم ﴾ أى أى وقت شئتم ، وله أن يستمنى بيديها ، وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهى سوى الواقع . وينبغي أن تذر المرأة يازار من حقوها إلى فوق الركبة فى حال الحيض ، فهذا من الأدب ، وله أن يؤاكل الحائض ، ويخالطها فى المضاجعة وغيرها ، وليس عليه اجتنابها ، وإن أراد أن يجامع ثانياً بعد أخرى فليغسل فرجه أولاً ، وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول ، ويكره له الجماع فى أول الليل حتى لا ينام على غير طهارة ، فإن أراد النوم أو الأكل فليتوضأ أولاً وضوء الصلاة فذلك سنة . قال ابن عمر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توضأ » ^(٧) ، ولكن قد وردت فيه رخصة قالت عائشة رضى الله

(١) حديث « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس .
 (٢) حديث . كان يغطى رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة « عليك بالسكينة » رواه الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف .
 (٣) حديث « إذا جامع أحدكم امرأته فلا يتجردان تجرد العيرين » أخرجه ابن ماجه من حديث ثبته بن عبد بسند ضعيف .
 (٤) حديث « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر .
 (٥) حديث « ثلاث من العجز فى الرجل . أن يلتقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمى من حديث أخضر منه وهو بعض الحديث الذى قبله . (٦) حديث « رحم الله من غسل واغتسل » تقدم فى الباب الخامس من الصلاة . (٧) حديث ابن عمر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توضأ » متفق عليه من حديثه أن عمر سأل ، لأن عبد الله هو السائل .

عنها . كان النبي صلى الله عليه وسلم ينام جنباً لم يمس ماء ^(١) ، ومهما عاد إلى فراشه فليمسح وجهه فراشه أولينفضه ، فإنه لا يدري ما حدث عليه بعده ، ولا ينبغي أن يخلق أو يقلم أو يستحد أو يخرج الدم أو يبين من نفسه جزءاً وهو جنب ؛ إذ ترد إليه سائر أجزائه في الآخرة فيعود جنباً ، ويقال : إن كل شعرة تطالبه بجنباتها ومن الآداب أن لا يعزل ، بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث وهو الرحم ، فإمن نسمة قدر الله كونها لإلاهي كائنة ^(٢) هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن عزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربع مذاهب ، فمن مبيح مطلقاً بكل حال ، ومن محرم بكل حال ، ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها ، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل ، ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة . والصحيح عندنا أن ذلك مباح ، وأما الكراهية فإنها تطلق لئلا يهتدى التحريم ولنهي التنزيه ولترك الفضيلة ، فهو مكروه بالمعنى الثالث أى فيه ترك فضيلة ، كما يقال : يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة ، ويكره للحاضر في مكة مقبليها أن لا يمسح كل سنة ، والمراد بهذه الكراهية ترك الأولى والفضيلة فقط ، وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة في الولد ، ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له بجماعه أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله فقتل ^(٣) ، وإنما قال ذلك لأنه لو ولد له مثل هذا الولد لكان له أجر التسبب إليه ، مع أن الله تعالى عاقبه ومحبيه ومقويه على الجهاد ، والذي إليه من التسبب فقد فعله وهو الوقاع ، وذلك عند الإماء في الرحم . وإنما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه ، لأن إثبات النهي إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه ، بل ههنا أصل يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلاً أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الإنزال بعد الإيلاج ، فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهى ولا فرق ، إذ الولد يتكون بوقوع النطفة في الرحم ، ولها أربعة أسباب : النكاح ، ثم الوقاع ، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع ، ثم الوقوف لينصب المنى في الرحم ، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض ، فالاستناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث ، وكذا الثالث كالثاني ، والثاني كالأول ، وليس هذا كالإجهاض والوآد ، لأن ذلك جناية على موجود حاصل ، وله أيضاً مراتب وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم وتختلط بماء المرأة وتستمد لقبول الحياة وإفساد ذلك جناية ، فإن صارت مضغة وعلقه كانت الجناية ألحش ، وإن نفخ فيه الروح واستوت الحلقة ازدادت الجناية تفاحشاً ، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حياً . وإنما قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المنى في الرحم لا من حيث الخروج من الإحليل ، لأن الولد لا يخلق من منى الرجل وحده بل من الزوجين جميعاً إما من مائه ومائها أو من مائه ودم الحيض ، قال بعض أهل التشريح : إن المضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض ، وإن الدم منها كاللبن من الرائب ، وإن النطفة من الرجل شرط في خور دم الحيض والعقاد كالأنفحة اللبن ، إذ بها ينعد الرائب ، وكيفيا كان فإما المرأة ركن في الانعقاد فيجرى المامان مجرى الإيجاب والقبول في الوجود الحكمي في العقود ، فمن أوجب ثم رجع قبل القبول لا يكون جانياً على العقد بالنقض والفسخ ، ومهما اجتمع الإيجاب والقبول كان الرجوع بعده رفعا وفسخا وقطعا ، وكما أن النطفة في الفقار لا يتخلق منها الولد فكذلك بعد الخروج من الإحليل ما لم يمزج بماء المرأة ودمها ، فهذا هو القياس الجلي .

(١) حديث عائشة : كان ينام جنباً لم يمس ماء رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه . وقال يزيد بن هارون : إنه وهم ، ونقل البيهقي عن الحافظ الطعن فيه ، قال : وهو صحيح من جهة الرواية .

(٢) حديث « فإمن نسمة قدر الله كونها لإلاهي كائنة » متفق عليه من حديث أبي سعيد .

(٣) حديث « إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر يقاتل في سبيل الله » لم أجده أصلاً .

* فإن قلت : فإن لم يكن العزل مكروها من حيث إنه دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه ، إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الخفى . فأقول : النيات الباعثة على العزل خمس : الأولى في السرارى وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الإعتاق ودفع أسبابه ليس بمنهى عنه . الثانية : استبقاء جمال المرأة ومنمها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق ، وهذا أيضا ليس منها عنه . الثالثة : الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء ، وهذا أيضا غير منهى عنه ، فإن قلة الحرج معين على الدين ، فعم السكال والفضل في التوكل والثقة بضم الله حيث قال ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ولا جرم فيه سقوط عن ذروة السكال وترك الأفضل ، ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وإدخاره مع كونه مناقضا للتوكل لا نقول لأنه منهى عنه . الرابعة : الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد في تزويجهم من المعرفة كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث ، فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أثم بها لا بترك النكاح والوطء ، فكذا في العزل ، والفساد في اعتقاد المعرفة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد ، وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافا من أن يعلوها رجل فكانت تلشبه بالرجال ، ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح . الخامسة : أن تمتنع المرأة لتعززها ومباغتتها في النظافة والتحرز من الطلق والتنفاس والرضاع ، وكان ذلك عادة نساء الخوارج لمباغتتهن في استعمال المياه ، حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ولا يدخلن الخلاء إلا عراة ، فهذه بدعة تخالف السنة ، فهي نية فاسدة ؛ واستأذنت واحدة منهن على عائشة رضی الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لها ، فيكون القصد هو الفساد دون منع الولادة .

* فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا ثلاثا ^(١) » . قلت : فالعزل كترك النكاح . وقوله « ليس منا » أى ليس موافقا لنا على سنتنا وطريقتنا وسنتنا فعل الأفضل .
* فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذاك الرأد الخفى » وقرأ : وإذا الموءودة سئلت ^(٢) ، وهذا في الصحيح . قلنا : وفي الصحيح أيضا أخبار صحيحة ^(٣) في الإباحة ، وقوله ، الرأد الخفى ، كقوله (الشرك الخفى) وذلك يوجب كراهة لا تحريما .

* فإن قلت : فقد قال ابن عباس : العزل هو الرأد الأصغر ، فإن المنوع وجوده به هو الموءودة الصغرى . قلنا : هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف ، ولذلك أنكره عليه على رضی الله عنه ، لماسمعه قال : ولاتكون موءودة إلا بعد سبع ، أى بعد الأخرى سبعة أطوار ، وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة وهي قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ أى نفخنا فيه الروح ، ثم تلا قوله تعالى في الآية ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ وإذا نظرت إلى ما قدمناه في طريق القياس والاعتبار ، ظهر لك تفاوت منصب على وابن عباس رضی الله عنهما في الغوص على المعاني ودرك

(١) حديث « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » تقدم في أوائل النكاح . (٢) حديث قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذاك الرأد الخفى » أخرجه مسلم من حديث جذاعة بنت وهب . (٣) أحاديث لإباحة العزل ، رواها مسلم من حديث أبي سعيد : أنهم سألوه عن العزل فقال « لا عليكم أن لا تنكحوه » ورواه النسائي من حديث أبي هريرة ، وللشيعين من حديث جابر : كنا نزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زاد مسلم : فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . وللنسائي من حديث أبي هريرة سئل عن العزل فقيل : اليهود تزعم أنها الموءودة الصغرى ؛ فقال : كذبت يهود . قال البيهقي : رواه الإباحة أكثر وأحفظ .

العلوم ، كيف وفي المتفق عليه في الصحيحين على جابر أنه قال (كنا نزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل) وفي لفظ آخر (كنا نزل فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ^(١)) وفيه أيضا عن جابر أنه قال (إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ، فقال عليه الصلاة والسلام (اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها) فلبث الرجل ماشاء الله ثم أماته فقال : إن الجارية قد حملت ، فقال (قد قلت سيأتيها ما قدر لها ^(٢)) كل ذلك في الصحيحين .

الحادى عشر : في آداب الولادة وهي خمسة : (الأول) أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى ، فإنه لا يدرى الخيرة له في أيهما ، فكمن صاحب ابن يتعنى أن لا يكون له ، أو يتعنى أن يكون بنتا ، بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل قال صلى الله عليه وسلم (من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاها وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة ^(٣)) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما يحبهما إلا أدخلناه الجنة ^(٤)) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما يحبهما كنت أنا وهو في الجنة كهاتين ^(٥)) وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئا لحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه ^(٦)) وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فزع أنثى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشية حرم الله بدنه على النار ^(٧)) وقال أبو هريرة : قال صلى الله عليه وسلم (من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصب على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن ، فقال رجل : ومثنتان يا رسول الله ؟ قال : ومثنتان . فقال رجل : أو واحدة ؟ فقال (واحدة ^(٨)) (الآداب الثاني) . أن يؤذن في أذن الولد : روى رافع عن أبيه قال (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة رضي الله عنها ^(٩)) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان ^(١٠)) ويستحب أن يلتقوه أول انطلاق لسانه

- (١) حديث جابر المتفق عليه في الصحيحين : كنا نزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ، هو كما ذكر متفق عليه ، إلا أن قوله « فلم ينهنا » انفرد بها مسلم . (٢) حديث جابر : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية وهي خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ؟ فقال : اعزل عنها إن شئت . الحديث ، ذكر المصنف أنه في الصحيحين وليس كذلك ، وإنما انفرد به مسلم .
- (٣) حديث « من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها وغذاها فأحسن غذاها . الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير ، والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس « ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما يحبهما إلا أدخلناه الجنة » أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٥) حديث أنس « من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما يحبهما كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » رواه الخراطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف . ورواه الترمذي بنلفظ « من عال جاريتين » وقال حسن غريب . (٦) حديث أنس « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئا فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه » أخرجه الخراطي بسند ضعيف .
- (٧) حديث أنس « من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة » أخرجه الخراطي بسند ضعيف جدا ، وأخرجه ابن عدى في الكامل . وقال ابن الجوزي : حديث موضوع . (٨) حديث أبي هريرة « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصب على لأوائهن وضرائهن » رواه الخراطي واللفظ له والحاكم ولم يقل : أو أخوات وقال . صحيح الإسناد .
- (٩) حديث أبي رافع : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة . أخرجه أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذي وصححه ، إلا أنها قال « الحسن » مكبرا ، وضحه ابن القطان . (١٠) حديث « من ولد له مولود وأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان » أبو يعلى الموصلي وابن السني في اليوم واليلة ، والبيهقي في شعب الإيمان =

لا إله إلا الله ، ليكون أول حديثه ، والختان في اليوم السابع ورد به خبر ^(١) (الآداب الثالث) : أن تسميه اسماً حسناً ؛ فذلك من حق الولد . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا سميتُم فعبدوا » ^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ^(٣) ، وقال : « سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي » ^(٤) ، قال العلماء : كان ذلك في عصره صلى الله عليه وسلم إذ كان ينادى يا أبا القاسم والآل فلا بأس ، نعم لا يجمع بين اسمه وكنيته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي » ^(٥) ، وقيل : إن هذا أيضاً كان في حياته ، وتسمى رجل أبا عيسى فقال عليه السلام : « إن عيسى لأب له » ^(٦) ، فيكره ذلك ، والسقط ينبغي أن يسمى . قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية : بلغني أن السقط يصرخ يوم القيامة وراء أبيه فيقول : أنت ضيعتني وتركنتي لا اسم لي ؛ فقال عمر بن عبد العزيز : كيف وقد لا يدري أنه غلام أو جارية فقال عبد الرحمن : من الأسماء ما يجمعها كحزمة وعمارة وطلحة وعتبة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » ^(٧) ، ومن كان له اسم يكره يستحب تبديله ، أبدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبد الله ^(٨) . وكان اسم زينب برة ، فقال عليه السلام : « تركي نفسها ، فسمها زينب » ^(٩) ، وكذلك ورد النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة ^(١٠) لأنه يقال : أثم بركة ؟ فيقال : لا (الرابع) العقيقة هن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة ذكر كان أو أنثى . وروت عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر في الغلام أن يعق بشاتين مكافئتين ، وفي الجارية بشاة ^(١١) . وروى : أنه علق عن الحسن بشاة ^(١٢) وهذا رخصة في الاقتصار على واحدة وقال صلى الله عليه وسلم : « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى » ^(١٣) ، ومن السنة أن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة ؛ فقد ورد فيه خبر : « أنه عليه السلام أمر فاطمة رضي الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة » ^(١٤) ،

= من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف . (١) حديث : الختان في اليوم السابع ، رواه الطبراني في الصغير من حديث جابر بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام وإسناده ضعيف . واختلف في إسناده فقيل : عبد الملك بن إبراهيم بن زهير عن أبيه عن جده . (٢) حديث : « إذا سميتُم فعبدوا » رواه الطبراني من حديث عبد الملك بن أبي زهير عن أبيه معاذ ، وصحح إسناده والبيهقي من حديث عائشة . (٣) حديث : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٤) حديث : « سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي » متفق عليه من حديث جابر . وفي لفظ : « سموا » . (٥) حديث : « لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي » رواه أحمد وابن حبان من حديث أبي هريرة ، ولأبي داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث جابر . من سمى باسمي فلا تكني بكنيتي ، ومن تكني بكنيتي فلا يتسمى باسمي . (٦) حديث : « أن عيسى لأب له » أخرجه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرته الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، ولأبي داود أن عمر ضرب ابنه تكني أبا عيسى ، وأنكر على المنيرة بن شعبة تكني بأبي عيسى ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم كناني ، وإسناده صحيح . (٧) حديث : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء . قال النووي : بإسناد جيد ، وقال البيهقي لأنه مرسل . (٨) حديث : « أبدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبد الله » رواه البيهقي من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبدي بسند صحيح . (٩) حديث قال صلى الله عليه وسلم لزَيْنَب وكان اسمها برة تركي نفسها فدعاها زينب ، متفق عليه من حديث أبي هريرة . (١٠) حديث النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة ، أخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب إلا أنه جعل مكان بركة رباعاً ، وله من حديث جابر : أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمي بعلل وبركة .. الحديث (١١) حديث عائشة : أمر في الغلام بشاتين مكافئتين ، وفي الجارية بشاة ، أخرجه الترمذي وصححه (١٢) حديث : علق عن الحسن بشاة ، أخرجه الترمذي من حديث علي وقال : ليس إسناده بمقتل ، ووصفه الحاكم ، لا أنه قال حسين . ورواه أبو داود من حديث ابن عباس إلا أنه قال « كسبنا » . (١٣) حديث : « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى » أخرجه البخاري من حديث سلمان بن عامر الضبي . (١٤) حديث : « أمر فاطمة يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة » أخرجه الحاكم وصححه من حديث علي ، وهو عند الترمذي منقطع بلفظ « حسن » وقال : ليس إسناده بمقتل ، ورواه أحمد من حديث أبي رافع .

قالت عائشة رضی الله عنهما : لا يكسر للعقيقة عظم . (الخامس) أن يحنكه بتمرّة أو حلالة . وروى عن أسماء بنت أبي بكر رضی الله عنهما قالت « ولدت عبد الله بن الزبير بقاء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت في حجره ثم دعا بتمرّة ففضعها ثم تفل في فيه ^(١) ، فكان أول شيء دخل جوفه ربق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حنكه بتمرّة ثم دعاه وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد في الإسلام ، ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم : إن اليهود قد سحرتم فلا يولد لكم .

الثاني عشر : في الطلاق ، وليعلم أنه مباح ، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى ، وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبها ، قال الله تعالى ﴿ فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ أي لا تطلبوا حيلة للفراق وإن كرهها أبوه فليطلقها . قال ابن عمر رضی الله عنهما ، كان تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها ويأمرني بطلاقها ، فراجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا ابن عمر طلق امرأتك ^(٢) ، فهذا يدل على أن حق الوالد مقدّم ، ولكن والد يكرهها - لا لغرض فاسد - مثل عمر ، ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهي جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . قال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة ، وهذا أريد به في العدة ولكنه تنبيه على المقصود . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدي ببذل مال ، يكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن ذلك لإجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . قال تعالى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) فرد ما أخذته فإدونه لا تقبض بالعداء . فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة ، قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة ^(٣) » ، وفي لفظ آخر ، فالجنة عليها حرام ، وفي لفظ آخر : أنه عليه السلام قال « المختلعات من المناققات ^(٤) » ، ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور (الأول) أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ، فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه يدعى حرام وإن كان واقعاً ، لما فيه من تطويل العدة عليها ؛ فإن فعل ذلك فليراجعها : طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال صلى الله عليه وسلم لعمر : مره فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ^(٥) ، وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط (الثاني) أن يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث ، لأن الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم في العدة وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة ، وإذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل وإلى الصبر مدة ، وعقد المحلل منهي عنه ، ويكون هو الساعي فيه ثم يكون قلبه معلقاً بزوجة الغير وتطليقه - أعني زوجة المحلل بعد أن زوج منه - ثم يورث ذلك تنقيهاً من الزوجة ، وكل ذلك ثمرة الجمع ، وفي الواحدة

(١) حديث أسماء : ولدت عبد الله بن الزبير بقاء ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في حجره ثم دعا بتمرّة فضعها ثم تفل في فيه ... الحديث : متفق عليه . (٢) حديث ابن عمر : كانت تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها ، فأمرني بطلاقها ... الحديث . رواه أصحاب الدين ، وقال الترمذي : حسن صحيح . (٣) حديث « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة » وفي لفظ « فالجنة عليها حرام » رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث ثوبان . (٤) حديث « المختلعات من المناققات » رواه النسائي من حديث أبي هريرة وقال : لم يسمع الحسن من أبي هريرة . قال : ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبي هريرة . قلت : رواه الطبراني من حديث عتبة بن عامر بسند ضعيف .

(٥) حديث : طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر « مره فليراجعها » ... الحديث « متفق عليه من حديث ابن عمر .

كفاية في المقصود من غير محذور ، ولست أقول الجمع حرام ، ولكنه مكروه بهذه المعاني ، وأعني بالكراهة تركه النظر لنفسه . (الثالث) أن يتلطف في التعامل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطليب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما لجعها به من أذى الفراق . قال تعالى (ومتعوهن) وذلك واجب مهما لم يسم لها مهر في أصل النكاح . كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مطلقا ومنكاحا ، ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال : قل لها اعتدا ، وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم ، ففعل ، فلما رجع إليه قال : ماذا فعلتا ؟ قال أما أحدهما فكسكت رأسها وتكسكت ، وأما الأخرى فبككت وانتجت وسمعتها تقول : متاع قليل من حبيب مفارق فأطرق الحسن وترحم لها وقال : لو كنت مراجعا امرأة بعد ما فارقتها لراجعتها ، ودخل الحسن ذات يوم على عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير وبه ضربت المثل عائشة رضي الله عنها حيث قالت لولم أسر مسيرى ذلك لكان أحب إلى من أن يكون لي ستة عشر ذكرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : فدخل عليه الحسن في بيته ، فعظمه عبد الرحمن وأجلسه في مجلسه وقال : ألا أرسلت إلى فكنت أجيبك ، فقال : الحاجة لنا . قال : وما هي ؟ قال جئتكم خاطبا ابنتك ، فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال : والله ما على وجه الأرض أحد يمشی عليها أعز على منك ، ولكنك تعلم أن ابنتي بضعة مني يسوءني ماساءها ويسرنى ماسرها ، وأنت مطلق ، فأخاف أن تطلقها ، وإن فعلت خشيت أن يتغير قلبي في محبتك وأكره أن يتغير قلبي عليك ، فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن شرطت أن لا تطلقها زوجتك ، فسكت الحسن وقام وخرج وقال بعض أهل بيته . سمعته وهو يمشی ويقول : ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقا في عنقي . وكان على رضي الله عنه يصجر من كثرة تطليقه ، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته ، إن حسنا مطلقا فلا تنكحوه ، حتى قام رجل من همدان فقال : والله يا أمير المؤمنين لتنكحنه ما شاء ، فإن أحب أمسك وإن شاء ترك ، فسر ذلك عليا وقال :

لو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وهذا تنبيه على أن من طعن في حبيبه من أهل وولد بنوع حياء فلا ينبغي أن يوافق عليه ، فهذه الموافقة قبيحة ، بل الأدب المخالفة ما أمكن ، فإن ذلك أسر لقلبه وأوفق لباطن ذاته ، والقصد من هذا بيان أن الطلاق مباح ، وقد وعد الله الغنى في الفراق والنكاح جميعا فقال (وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وقال سبحانه وتعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) . (الرابع) أن لا يشقى سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح ، فقد ورد في إفشاء سر النساء في الخبر الصحيح وعيد عظيم ^(١) . ويرى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة ، فقيل له : ما الذي يرييك فيها ؟ فقال : العاقل : لا يهتك ستر امرأته ، فلما طلقها قيل له : لم طلقتها ؟ فقال : مالي ولا امرأة غیری ، فهذا بيان ما على الزوج .

القسم الثاني من هذا الباب : النظر في حقوق الزوج عليها

والقول الشافي فيه أن النكاح نوع رق ، فهي رقيقة له ، فعليها طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه ، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة

(١) حديث الوعيد في إفشاء سر المرأة . رواه مسلم من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعظم الخيانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم يفضي سرها » .

ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة ^(١) . . . وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل وكان أبوها في الأسفل ، فرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذن في النزول إلى أبيها ، فقال صلى الله عليه وسلم « أطيعي زوجك » ، فأتته فاستأمرته فقال « أطيعي زوجك » ، فدفن أبوها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها يخبرها أن الله قد غفر لآبيها بطاعتها لزوجها ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها » ^(٣) ، وأضاف طاعة الزوج إلى مبادئ الإسلام ؟ وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء فقال « حاملات والذات مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ، فقلن : لم يا رسول الله ؟ قال يكثرن اللعن ويكفرن العشير » ^(٥) ، يعني الزوج المعاصر . وفي خبر آخر « اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلن الأحران الذهب والزعفران » ^(٦) ، يعني الحلى ومصبغات الثياب : وقالت عائشة رضى الله عنها : أتت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إني فتاة أخطب فأكره التزويج ، فما حق الزوج على المرأة ؟ قال « لو كان من فرقه إلى قدمه صديد فلحسته ما أدت شكره » ، قالت : أهلا أتزوج ؟ قال « بلى تزوجي فإنه خير » ^(٧) ، قال ابن عباس : « أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة أيم وأريد أن تزوج ، فما حق الزوج ؟ قال : إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بغير لا تمنعه ، ومن حقه أن لا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له ، ومن حقه أن لا تصوم قطوعاً إلا بإذنه ، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يتقبل منها ، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب » ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ^(٩) . . . وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت في قعر بيتها ، وإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في صحن دارها ، وصلاتها

(١) حديث « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم سلمة .

(٢) حديث : كان رجل خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل وكان أبوها في السفلى قرض . . . الحديث ، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف ، لا أنه قال : غفر لآبيها . (٣) حديث « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها . . . الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة . (٤) حديث : ذكر النساء فقال « حاملات والذات مرضعات . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أمية دون قوله « مرضعات » وهي عند الطبراني في الصغير . (٥) حديث « اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء . . . الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٦) حديث « اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلن الأحران الذهب والزعفران » أخرجه أحمد من حديث أبي أمية بسند ضعيف ، وقال « الحرير » بدل « الزعفران » ، ولمسلم من حديث عزة الأشجعية « ويل للنساء من الأحرار : الذهب والزعفران » وسنده ضعيف . (٧) حديث عائشة : أتت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا نبي الله ، إني فتاة أخطب ولني أكره التزويج فما حق الزوج على المرأة ؟ الحديث ، أخرجه الحاكم وصححه واستاده من حديث أبي هريرة دون قوله « بلى تزوجي فإنه خير » ولم أره من حديث عائشة . (٨) حديث ابن عباس : أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج ؟ الحديث ، أخرجه البيهقي مقتصراً على شطر الحديث ، ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف . (٩) حديث « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والولد لآبيه من عظم حقه عليهما » أخرجه الترمذى وابن حبان من حديث أبي هريرة دون قوله « والولد لآبيه » فلم أرهما وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد ، وابن ماجه من حديث عائشة ، وابن حبان من حديث ابن أبي أوفى .

في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ^(١) ، والمخدع : بيت في بيت ، وذلك للستر ، ولذلك قال عليه السلام « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان » ^(٢) ، وقال أيضا « للمرأة عشر عورات ، فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة ؛ فإذا ماتت ستر القبر العشر عورات » ^(٣) ، لحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وأهمها أمران ، أحدهما : الصيانة والستر . والآخر : ترك المطالبة بما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراما ، وهكذا كانت عادة النساء في السلف : كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له امرأته أو ابنته : إياك وكسب الحرام فإننا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار . وهم رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره ، فقالوا لزوجته : لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقه ؟ فقالت : زوجي منذ عرفته عرفته أكالا وما عرفته رزاقا ، ولي رب رزاق : يذهب الأكال ويبقى الرزاق . وخطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري ، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها : والله مالي همة في النساء لشغلي بحالي ، فقالت : إني لأشغل بحالي منك ومالي شهوة ، ولكن ورثت مالا جزيلا من زوجي فأردت أن تنفقه على إخوانك ، وأعرف بك الصالحين فيكون لي طريقا إلى الله عز وجل ، فقال : حتى استأذن أستاذي ، فرجع إلى أبي سليمان الداراني ، قال : وكان ينهاني عن التزويج ويقول : ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير ؛ فلما سمع كلامها قال : تزوج بها فإنها ولية الله ، هذا كلام الصديقين ، قال : فتزوجتها فكان في منزلنا كن من حص ففني من غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل فضلا عن غسل بالاشنان . قال : وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات وتطيبني وتقول : اذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك ، وكانت رابعة هذه تشبه في أهل الشام برابعة العدوية بالبصرة . ومن الواجبات عليها : أن لا تفرط في ماله بل تحفظه عليه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فساده ، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر ^(٤) ، ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة ، وآداب العشرة مع الزوج كما روى أن أسماء بنت خارجة الفزارى قالت لابنتها عند التزويج إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أرضا يكن لك سماء وكوني له مهادا يكن لك عمادا وكوني له أمة يكن لك عبدا ، لا تلحن به فيقلاك ولا تباعدى عنه فينساك إن دنا منك فأقرب منه ، وإن نأى فأبعدى عنه ، واحفظي أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشمن منك إلا طيبا ، ولا يسمع إلا حسنا ، ولا ينظر إلا جميلا . وقال رجل لزوجته :

خذى العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب

(١) حديث « أقرب ما تكون المرأة من ربها إذا كانت في قعر بيتها فإن صلاتها في محن دارها أفضل من صلاتها في المسجد ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره ، وآخره رواه أبو داود مختصراً من حديثه دون ذكر صحن النار . ورواه البيهقي من حديث عائشة بلفظ « ولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلي في المسجد » وإسناده حسن ؛ ولا بن حبان من حديث أم حميد نحوه . (٢) حديث « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان » رواه الترمذي وقال حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « للمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة ... الحديث » أخرجه الحافظ أبو بكر محمد بن عمر الجواليقي في تاريخ الطالبيين من حديث علي بن عبد الصميف والمطبراني في الصغير من حديث ابن عباس « للمرأة ستران . قيل : وماهما ؟ قال : الزوج والقبر » . (٤) حديث « لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام ... الحديث » أخرجه أبو داود الطيالسي والبيهقي من حديث ابن عمر في حديث فيه « ولا تطعم من بيته شيئاً إلا بإذنه ؛ فإن فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر » ولأبي داود من حديث سعد : قالت امرأة يارسول الله ، إننا ناكل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا ، فما يحل لنا من أموالهم ؟ قال « الرطب تأكله وتهديته » وصحح الدارقطني في اللئال أن سعداً هذا رجل من الأنصار ليس ابن أبي وقاص ، واختاره ابن القطان ، ولمسلم من حديث عائشة « إذا أغتقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أغتقت ، ولزوجها أجره بما كسب » .

ولا تنقري نفرك الدف مرة فإنك لا تدري كيف المغيب
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى ويأياك قلبي والقلوب تقلب
فإني رأيت الحب في القلب والاذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة في قدر بيتها لازمة لمفرها ، لا يكثر صعودها وإطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول ، تحفظ بعلمها في غيبته ، وتطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه في نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بإذنه فخفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، محتزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرف إلى صديق بعلمها في حاجاتها ، بل تنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه ، مهما صلاح شأنها وتدير بيتها مقبلة على صلاتها وصيامها ، وإذا استأذن صديق لبعلمها على الباب وليس البعل حاضرا لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلمها ، وتكون قاذرة من زوجها بما رزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها ، متظفة في نفسها مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء ، مشفقة على أولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج . وقد قال صلى الله عليه وسلم « أنا وامرأة سفهاء الخدين كهاتين في الجنة : امرأة آمت من زوجها وحبست نفسها على بناتها حتى ثابوا أو ماتوا ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « حرم الله على كل آدمي الجنة يدخلها قبلي ، غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة فأقول : ما لهذه تبادرنى ؟ فيقال لى : يا محمد ، هذه امرأة كانت حسناء جميلة وكان عندها يتامى لها ، فصبرت عليهن حتى بلغ أمرهن الذى بلغ فشكر الله لها ذلك ^(٢) » ، ومن آدابها : أن لا تتغافل عن الزوج بحالها ولا تزدري زوجها لقبه ، فقد روى أن الأصمعي قال : دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجها تحت رجل من أقبح الناس وجها ، فقلت لها : يا هذه أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله ؟ فقالت : يا هذا اسكت فقد أسأت في قولك ، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه ، أو لعل أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي ، أفلا أَرْضَى بما رضى الله لى فأسكتني . وقال الأصمعي : رأيت في البادية امرأة عليها قميص أحمر وهي محتضبة ويدها سبعة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا ؟ فقالت :

ولله منى جانب لا أضيعه ولله منى البطالة جانب

فعلت أنها امرأة سالمة لها زوج تزين له . ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانتباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها ، ولا ينبغي أن تؤذى زوجها بحال . روى عن معاذ ابن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تؤذى امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله ، وإنما هو عندك دخیل يوشك أن يفارقك إلينا ^(٣) » ، وما يجب عليها من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تحمد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة ، قالت زينب بنت أبي سلمة : دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب ،

(١) حديث « أنا وامرأة سفهاء الخدين كهاتين .. الحديث » رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشجعي بسند ضعيف .

(٢) حديث « حرم الله على كل آدمي الجنة أن يدخل قبلي غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة » رواه الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٣) حديث معاذ « لا تؤذى امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه .. الحديث » رواه الترمذي وقال حسن غريب ، وابن ماجه .

فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره ، فدهنت به جارية ، ثم مست بعارضها ، ثم قالت : والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يجل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً ^(١) ، ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة ، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة . ومن آدابها : أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها ، فقد روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : تزوجنى الزبير وماله فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأعلفه وأستقى الماء وأخرز غربه وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية فكفتنى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى ^(٢) . ونقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ومعه أصحابه والنوى على رأسى فقال صلى الله عليه وسلم : أخ ، لينىخ ناقته ويحملنى خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته وكان أغير الناس ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى قد استحييت ، فحث الزبير فحكيت له ما جرى ، فقال : والله لملكت النوى على رأسك أشد على من ركوبك معه .

تم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومنه وصلى الله على كل عبد مصطفى

كتاب آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد موحد انمحق في توحيد ما سوى الواحد الحق وتلاشر . ونمجده تمجيد من يصرح بأن كل شيء ما سوى الله باطل ولا يتحاشى . وأن كل من في السموات والأرض ان يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ولا فراشا . ونشكره إذ رفع السماء لعباده سقفا مبنيًا ، ومهد الأرض بساطاً لهم وفراشا . وكور الليل على النهار فجعل الليل لباساً والنهار معاشاً . لينتثروا في ابتغاء فضله ولينتعضوا به عن ضراعة الحاجات انتعاشاً ، ونصلى على رسوله الذى يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشاً . وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا في نصرة دينه تشمراً وانكماشاً . وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن رب الأرباب ومسبب الأسباب . جعل الآخرة دار الثواب والعقاب ، والدنيا دار التمثل والاضطراب . والتشمير والاكتساب . وليس التشمير في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش ، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزروعة الآخرة ومدرجة إليها . والناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الفائزين ، والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذى شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدین . ولن ينال رتبة

(١) حديث أم حبيبة : لا يجل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً ، متفق عليه . (٢) حديث أسماء : تزوجنى الزبير وماله فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرس وناضح ، فكنت أعلف فرسه ... الحديث ، متفق عليه .

الاقتصاد من لم يلزم في طلب المعيشة منهج السداد ، وإن ينتهز من طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة ، مالم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة وهما نحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ونشرحها في خمسة أبواب (الباب الأول) فضل الكسب والحث عليه (الباب الثاني) في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات (الباب الثالث) في بيان العدل في المعاملة (الباب الرابع) في بيان الإحسان فيها (الباب الخامس) في شفقة التاجر على نفسه ودينه .

الباب الأول : في فضل الكسب والحث عليه

أما من الكتاب فقوله تعالى ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ فذكره في معرض الامتنان . وقال تعالى ﴿ وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون ﴾ فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها . وقال تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ وأما الأخبار ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة »^(١) ، وقال عليه الصلاة والسلام « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسئلة وسعيًا على عياله وتعطفًا على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر »^(٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ؛ فقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ! وإن كان يسعى على أبيين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس ، ويغض العمد يتعلم العلم يتخذ مهنة »^(٥) ، وفي الخبر « إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم (أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور »^(٧)

كتاب آداب الكسب : الباب الأول في فضل الكسب والحث عليه

(١) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة » تقدم في النسكاح . (٢) حديث « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي سعيد . قال الترمذي : حسن ، وقال الحاكم : لأنه من مراسيل الحسن ، وابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر . (٣) حديث « من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسئلة وسعيًا على عياله » الحديث . أخرجه أبو الشيخ في كتاب التواب ، وأبو نعيم في الحلية . والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٤) حديث : كان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان جلده في سبيل الله ... الحديث « أخرجه الطبراني في معاجزه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف . (٥) حديث « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغني بها عن الناس » الحديث . لم أجده هكذا ، وروى أبو منصور الديلمي في مستند القردوس من حديث علي « إن الله يحب أن يرى عبده تباراً في طلب الحلال » وفيه محمد بن سهل الطاطار قاله الدارقطني : يضع الحديث . (٦) حديث « إن الله يحب المؤمن المحترف » أخرجه الطبراني وابن عدى وضعفه من حديث ابن عمر . (٧) حديث « أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور » أخرجه أحمد من حديث رافع بن خديج ، قيل : يارسول الله أي الكسب أطيب ؟ قال : عمل الرجل بيده وكل عمل مبرور . ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمر . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، قال : وذكر يحيى بن معين أن عم سعيد : البراء بن عازب . ورواه البيهقي من رواية سعيد بن عمير مرسلًا ، وقال : هذا هو المحفوظ ، وخطأ قوله من قال عن عمه ، وحكام عن البخاري ، ورواه أحمد والحاكم من رواية جميع ابن عمير عن خاله أبي بردة ، وجميع ضعيف والله أعلم .

وفي خبر آخر (أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح ^(١)) وقال عليه الصلاة والسلام (عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق ^(٢)) وروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : من يعولك ؟ قال أخى . قال : أخوك أعبد منك . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (إني لا أعلم شيئاً يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا أمرتكم به ، وإني لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه ، وإن الروح الأمين نفث في روعي : إن نمتسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) أمر بالإجمال في الطلب ولم يقل اتركوا الطلب ، ثم قال في آخره (ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى ، فإن الله لا ينال ما عنده بمعصيته ^(٣)) وقال صلى الله عليه وسلم (الأسواق موائد الله تعالى ، فمن أتاها أصاب منها ^(٤)) وقال عليه السلام (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه ^(٥)) وقال (من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر ^(٦)) . وأما الآثار ، فقد قال لقمان الحكيم لابنه : يا بني ، استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث : استخفاف الناس به . وقال عمر رضي الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني ، فقد علمت أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وكان زيد بن مسلفة يغرس في أرضه فقال له عمر رضي الله عنه : أصبت ، استغن عن الناس يكن أصولك دينك وأكرم لك عليهم ، كما قال صاحبكم أحبحة :

فلن أزال على الزوراء أغمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لافي أمر دنياه ولا في أمر آخرته . وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق ، أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة ؟ قال التاجر الصدوق أحب إلي لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء فيجابهده ، وخالفه الحسن البصري في هذا . وقال عمر رضي الله عنه : ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إلي من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري . وقال الهيثم : ربما يبلغني عن الرجل يقع في فأذكر استغنائى عنه فيهن ذلك على . وقال أيوب : كسب فيه شيء أحب إلي من سؤال الناس . وجاءت ريح عاصفة في البحر ، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله وكان معهم فيها : أما ترى هذه الشدة ؟ فقال : ماهذه الشدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . وقال أيوب قال لي أبو قلابة : الزم السوق فإن الغنى من العافية ، يعنى الغنى عن الناس . وقيل لأحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته

(١) حديث « أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح » رواه أحمد من حديث أبي هريرة « خير الكسب كسب العامل إذا نصح » وإسناده حسن . (٢) حديث « عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق » رواه إبراهيم الحرفي في غريب الحديث من حديث نعم بن عبد الرحمن « تسعة أعشار الرزق في التجارة » ورجاله ثقات ، ولعمري هذا قال فيه ابن مده : ذكر في الصحابة ولا يصح . وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان : أنه تابعي فالحديث مرسل . (٣) حديث « إني لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه فإن الروح الأمين نفث في روعي أن نمتسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ... الحديث » رواه ابن أبي الدنيا في الفتاة ، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شافعي الحديث أبي حميد وجابر وصحبهما على شرط الشيخين ، وهما مختصران ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال : لأنه منقطع . (٤) حديث « الأسواق موائد الله فمن أتاها أصاب منها » رواه في الطيوريات من قول الحسن البصري ، ولم أجده مرفوعاً . (٥) حديث « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » رواه الترمذي من حديث أبي كبشة الأعمري « ولا تفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » أو كلمة نحوها ، وقال : حسن صحيح .

أو مسجده وقال لأعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي»^(١)، وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: «تغذون خاصاً وتروح بطناً»^(٢)، فذكر أنها تغدو في طلب الرزق، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم والقذوة بهم. وقال أبو قلابة لرجل: لأن أراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسجد. وروى أن الأوزاعي لقي إبراهيم بن أدهم رحمه الله وعلى عنقه حزمة حطب؛ فقال له: يا أبا أسحق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك؛ فقال: دعني عن هذا يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة. وقال أبو سليمان الندائني: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك بقوتك؛ ولكن أبدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ينادى مناد يوم القيامة: أين بغضاء الله في أرضه؛ فيقوم سؤال المساجد، فهذه مذمة الشرع للسؤال والاتكال على كفاية الأغيار. ومن ليس له مال موروث فلا ينجي من ذلك إلا الكسب والتجارة.

فإن قلت: فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما أوحى إلى أن اجمع المال وكن من التاجرين»، ولكن أوحى إلى أن سبج بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»^(٣)، وقيل لسلمان الفارسي: أوصنا؛ فقال: من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو غانياً أو عامراً لمسجد ربه فليفعل، ولا يوتن تاجراً ولا خائناً. فالجواب: أن وجه الجمع بين هذه الأخبار تفصيل الأحوال؛ فنقول: لستنا نقول التجارة أفضل مطلقاً من كل شيء، ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية أو الثروة أو الزيادة على الكفاية؛ فإن طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره ليلصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مذمومة، لأنه إقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة، فإن كان مع ذلك ظالمًا خائناً فهو ظلم وفسق، وهذا ما أراد سلمان بقوله: لا تمت تاجراً ولا خائناً، وأراد بالتاجر: طالب الزيادة، فأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعفوا عن السؤال أفضل، وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يعطى عن غير سؤال فالكسب أفضل، لأنه إنما يعطى لأنه سائل بلسان حاله ومناد بين الناس بفقره، فالتعفف والتستر أوفى من البطالة، بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب أفضل لأربعة: عابد بالعبادات البدنية؛ أو رجل له سير بالباطن وعمل بالقلب في علوم الأحوال والمكاشفات، أو عالم مشغول بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي والمفسر والمحدث وأمثالهم، أو رجل مشغول بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمرهم كالسلطان والقاضي والشاهد، فهؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء. فإقبالهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب، ولهذا أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سبج بحمد ربك وكن من الساجدين ولم يوح إلى أن كن من التاجرين لأنه كان جامعاً لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط بها الوصف، ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضي الله عنهم بترك التجارة لمساوئ الخلافة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح: ورأى ذلك أولى ثم لما توفي أوصى برده إلى بيت المال، ولكنه رآه في الابتداء أولى، ول هؤلاء الأربعة حالتان آخرتان: (أحدهما)

(١) حديث «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي» رواه أحمد من حديث ابن عمر «جعل رزقي تحت ظل رمحي» وإسناده صحيح. (٢) حديث: ذكر الطير فقال «تغذون خاصاً وتروح بطناً» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي: حسن صحيح. (٣) حديث «ما أوحى إلى أن اجمع المال وكن من التاجرين»، ولكن أوحى إلى أن سبج بحمد ربك وكن من الساجدين» رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين.

أن تكون كفايتهم عند ترك المكسب من أيدي الناس وما يتصدق به عليهم من زكاة أو صدقة من غير حاجة إلى سؤال ، فترك الكسب والاشتغال بما هم فيه أولى ، إذ فيه إعانة الناس على الخيرات وقبول منهم لما هو حق عليهم وأفضل لهم . (الحالة الثانية) الحاجة إلى السؤال ، وهذا في محل النظر ، والتشديدات التي رويها في السؤال وذمه تدل ظاهرا على أن التعفف عن السؤال أولى وإطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير ، بل هو موكول إلى اجتهاد العبد ونظره لنفسه بأن يقابل ما يلحق في السؤال من المذلة وهتك المروءة والحاجة إلى التثقل والإلحاح بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره ، فرب شخص تكثر فائدة الخلق وفائدته في اشتغاله بالعلم أو العمل ، ويهون عليه بأدنى تعريض في السؤال تحصيل الكفاية ، وربما يكون بالعكس ، وربما يتقابل المطلوب والمحذور ، فينبغي أن يستفتي المريد فيه قلبه وإن أفتاه المفتون ، فإن الفتاوى لا تحيط بتفاصيل الصور ودقائق الأحوال ولقد كان في السلف من له ثلثمائة وستون صديقا ينزل على كل واحد منهم ليلة ومنهم من له ثلاثون ، وكانوا يشتغلون بالعبادة لعلهم بأن المتكفين بهم يتقلدون منه من قبولهم لمبراتهم ، فكان قبولهم لمبراتهم خيرا مضافا لهم إلى عباداتهم ، فينبغي أن يدقق النظر في هذه الأمور فإن أجر الآخذ كأجر المعطى مهما كان الآخذ يستعين به على الدين والمعطى يعطيه عن طيب قلب . ومن اطلع على هذه المعاني أمكنه أن يتعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ما هو الأفضل له بالإضافة إلى حاله ووقته ، فهذه فضيلة الكسب ، وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعا لأربعة أمور : الصحة ، والعدل ، والإحسان ، والشفقة على الدين . ونحن نعقد في كل واحد بابا ، ونبتدئ بذكر أسباب الصحة في الباب الثاني .

الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة

وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكاسب ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه ، والمكاسب يحتاج إلى علم الكسب ، ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات المعاملة فيتيقها ، وما شذ عنه من الفروع المشككة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل ، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جلي فلا يدري متى يجب عليه التوقف والسؤال ، ولو قال لا أقدم العلم ولكنني أصبر إلى أن تقع لي الواقعة فعندها أعلم وأستفتي ، فيقال له : وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جمل مفسدات العقود ، فإنه يستمر في التصرفات ويظنها صحيحة مباحة ، فلا بد له من هذا القدر من علم التجارة ليميز له المباح عن المحظور ، وموضع الإشكال عن موضع الوضوح : ولذلك روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرّة ويقول : لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه ، ولأأكل الربا شاء أم أبى ، وعلم العقود كثير ولكن هذه العقود الستة لا تنفك المكاسب عنها : وهي البيع والربا والسلم والإجارة والشركة والقراض ، فلنشرح شروطها :

العقد الأول : البيع

وقد أحله الله تعالى وله ثلاثة أركان : العاقد . والمعقود عليه ، واللفظ .

الركن الأول : العاقد ، ينبغى للتاجر أن لا يعامل بالبيع أربعة : الصبي ، والمجنون ، والعبد ، والأعمى ، لأن الصبي غير مكلف ، وكذا المجنون ، ويبيعهما باطل ، فلا يصح بيع الصبي وإن أذن له فيه الولي عند الشافعي ، وما أخذه منهما مضمون عليه لهما

وماسله في المعاملة إليهما فضاء في أيديهما فهو المضيح له . وأما العبد العاقل فلا يصح بيعه وشراؤه إلا باذن سيده ففعل البقال والحجاز والقصاب وغيرهم أن لا يعاملوا العبيد مالم تأذن لهم السادة في معاملتهم ، وذلك بأن يسمعه صريحا أو ينتشر في البلد أنه مأذون له في الشراء لسيدته وفي البيع له ، فيقول على الاستفاضة أو على قول عدل يخبره بذلك ، فإن عامله بغير إذن السيد فعقده باطل ، وما أخذه منه مضمون عليه لسيدته ، وماسله إن ضاع في يد العبد لا يتعلق برقبته ولا يضمنه سيده ، بل ليس له إلا المطالبة إذا عتق . وأما الأعمى فإنه يبيع ويشترى مالا يرى فلا يصح ذلك ، فليأمره بأن يوكل وكيلًا بصيرا ليشتري له أو يبيع ، فيصح توكيله ويصح بيعه وكيله ، فإن عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة ، وما أخذه منه مضمون عليه بقيمته . وما سله إليه أيضا مضمون له بقيمته . وأما الكافر فتجوز معاملته لكن لا يباع منه المصحف ولا العبد المسلم ، ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب ، فإن فعل ففي معاملات مردودة وهو عاص بها ربه . وأما الجندي من الأتراك والتركيانية والعرب والأكراد والسراق والخونة وأكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام ، فلا ينبغي أن يتملك مما في أيديهم شيئا لأجل أنها حرام إلا إذا عرف شيئا بعينه أنه حلال ، وسيأتى تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام .

الركن الثاني في المعقود عليه : وهو المال المقصود نقله من أحد العاقلين إلى الآخر ثمنا كان أو مشنا فيعتبر فيه ستة شروط . (الأول) أن لا يكون نجسا في عينه فلا يصح بيع كلب وخنزير ، ولا بيع زبل وعدرة ، ولا بيع العاج والأواني المتخذة منه ، فإن العظم ينجس بالموت ، ولا يطهر الفيل بالدج ، ولا يطهر عظمه بالتذكية ، ولا يجوز بيع الخمر ولا بيع الودك النجس المستخرج من الحيوانات التي لا تؤكل ، وإن كان يصلح للاستصباح أو طلاء السفن ، ولا بأس ببيع الدهن الطاهر في عينه الذي نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فيه ، فإنه يجوز الانتفاع به في غير الأكل ، وهو في عينه ليس بنجس ، وكذلك لا يرى بأسا ببيع بزر القز ، فإنه أصل حيوان ينتفع به ، وتشبيهه بالبيض وهو أصل حيوان أولى من تشبيهه بالروث . ويجوز بيع فأرة المسك ويقضى بطهارتها إذا انفصلت من الظبية في حالة الحياة . (الثاني) أن يكون منتفعا به فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفأرة ولا الحية ، ولا التفات إلى انتفاع المشعبد بالحية ، وكذا لا التفات إلى انتفاع أصحاب الخلق بإخراجها من السلة وعرضها على الناس ، ويجوز بيع الهرة والنحل وبيع الفهد والأسد وما يصلح لصيد أو ينتفع بجلده ، ويجوز بيع الفيل لأجل الحمل ، ويجوز بيع الطوطى وهى البيغاء والطاوس والطيور المليحة الصور وإن كانت لا تؤكل ، فإن التفرج بأصواتها والنظر إليها غرض مقصود مباح ، وإنما الكلب هو الذى لا يجوز أن يقتنى إعجابا بصورته لئى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ^(١) . ولا يجوز بيع العود والصنم والمزامير والملاهي فإنه لا منفعة لها شرعا ، وكذا بيع الصور المصنوعة من العطين كالحيوانات التي تباع في الأعياد للعب الصبيان فإن كسرها واجب شرعا ، وصور الأشجار متسامح بها ، وأما الثياب والأطباق وعليها صور الحيوانات فيصح بيعها وكذا الستور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : اتخذى منها نمارق ^(٢) ، ولا يجوز استعمالها منصوبة ، ويجوز موضوعة ، وإذا جاز الانتفاع من وجه صح البيع لذلك الوجه . (الثالث) أن يكون المتصرف فيه مملوكا للعاقد أو مأذونا من جهة المالك ، ولا يجوز أن يشتري من غير المالك انتظارا للإذن من المالك ، بل لو رضى بعد ذلك وجب استئناف العقد ، ولا ينبغي أن يشتري من الزوجة مال

الباب الثاني : في علم الكسب

(١) حديث : التهى عن اقتناء الكلب : متفق عليه من حديث ابن عمر . من اقتنى كلبا لا لاكل ماشية أو ضاريا قس من عمله كل يوم قيراطان . (٢) حديث : اتخذى منها نمارق . بقوله لعائشة : متفق عليه من حديثها .

الزوج ولا من الزوج مال الزوجة ، ولا من الوالد مال الولد ولا من الولد مال الوالد . اعتيادا على أنه لو عرف لرضى ، فإنه إذا لم يكن الرضا متقدماً لم يصح البيع ، وأمثال ذلك مما يجرى في الأسواق ؛ فواجب على العبد المتدين أن يحترز منه . (الرابع) أن يكون المعقود عليه مقدوراً على تسليمه شرعاً وحساً ؛ فما لا يقدر على تسليمه حساً لا يصح بيعه كالآبق والسماك في الماء والجنين في البطن وعصب الفحل ؛ وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان ، واللبن في الضرع لا يجوز ، فإنه يشترط تسليمه لاختلاط غير المبيع بالمبيع ، والمعجوز عن تسليمه شرعاً كالمرهون والموقوف ، والمستولدة فلا يصح بيعها أيضاً ، وكذا بيع الأم دون الولد إذا كان الولد صغيراً ، وكذا بيع الولد دون الأم ؛ لأن تسليمه تفريق بينهما وحرام ، فلا يصح التفريق بينهما بالمبيع . (الخامس) أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف ، أما العلم بالعين فبأن يشير إليه بعينه ، فلو قال : بعثك شاة من هذا القطيع أى شاة أردت ، أو ثوباً من هذه الثياب التى بين يديك ، أو ذراعاً من هذا الكرباس ، وخذه من أى جانب شئت ، أو عشرة أذرع من هذه الأرض ، وخذه من أى طرف شئت ، فالبيع باطل ، وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون في الدين إلا أن يبيع شائعاً ، مثل أن يبيع نصف الشيء أو عشره ، فإن ذلك جائز . وأما العلم بالقدر فإنما يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر إليه ، فلو قال بعثك هذا الثوب بما باع به فلان ثوبه وهما لا يدرى أن ذلك فهو باطل ، ولو قال : بعثك بزنة هذه الصنجة فهو باطل ، إذا لم تكن الصنجة معلومة ، ولو قال : بعثك هذه الصبرة من الخنطة فهو باطل : أو قال : بعثك بهذه الصرة من الدراهم أو بهذه القطعة من الذهب وهو يراها . صح البيع وكان تخمينه بالنظر كافياً في معرفة المقدار . وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية في الأعيان ، ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته مدة لا يغلب التغيير فيها ، والوصف لا يقوم مقام العيان . هذا أحد المذهبين ، ولا يجوز بيع الثوب في المنسج اعتياداً على الرقوم ، ولا بيع الخنطة في سبيلها ، ويجوز بيع الأرز في قشرته التى يدخر فيها ، وكذا بيع الجوز واللوز في القشرة السفلى ، ولا يجوز في القشرتين ، ويجوز بيع الباقلاء الرطب في قشرته للحاجة ، ويتساح ببيع الفقاع لجريان عادة الأولين به ولكن نجعله لإباحة بعض ، فإن اشتراه لبيعهه فالقياس بطلانه لأنه ليس مستترا ستر خلقة ، ولا يبعد أن يتساح به ، إذ في إخراجهم لإفساده كالرمان وما يستر بستر خلق موه . (السادس) أن يكون المبيع مقبوضاً إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة ، وهذا شرط خاص ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع مالم يقبض ^(١) ويستوى فيه العقار والمنقول ، فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فبيعه باطل ، وقبض المنقول بالنقل ، وقبض العقار بالتخية ، وقبض ما ابتاعه بشرط الكيل لا يتم إلا بأن يكتاله ، وأما بيع الميراث والوصية والوديعة ومالم يكن الملك حاصلًا فيه بمعاوضة ، فهو جائز قبل القبض .

الركن الثالث : لفظ العقد ، فلا بد من جريان إيجاب وقبول متصل به بلفظ دال على المقصود ، مفهوم إما صريح أو كناية ، فلو قال : أعطيتك هذا بذاك ، بدل قوله : بعثك ، فقال : قبلته ، جازمهما قصداً به البيع ، لأنه قد يحتمل الإعارة إذا كان في ثوبين أو دابتين ، والثنية تدفع الاحتمال ، والصريح أقطع للخصومة ، ولكن الكناية تفيد الملك أيضاً والحل فيما يختاره ، ولا ينبغي أن يقرر بالبيع شرطاً على خلاف مقتضى العقدة ، فلو شرط أن يزيد شيئاً آخر ، وأن يحمل المبيع إلى داره ، أو يشتري الحطب بشرط النقل إلى داره : كل ذلك فاسد إلا إذا أفرد استجاره على النقل بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول ، ومهما لم يجر بينهما إلا المعاطة بالفعل دون التلطف باللسان لم ينعقد البيع

(١) حديث النهى عن بيع مالم يقبض : متفق عليه من حديث ابن عباس .

عند الشافعي أصلا ، وانعقد عند أبي حنيفة إن كان في المحقرات ثم ضبط المحقرات عسير ؛ فإن رد الأمر إلى العادات فقد جاوز الناس المحقرات في المعاطاة ، إذ يتقدم الدلال إلى البزاز يأخذ منه ثوبا دياجا قيمته عشرة دنانير مثلا ويحمله إلى المشتري ويعود إليه بأنه ارتضاه ، فيقول له ؛ خذ عشرة ، فيأخذ من صاحبه العشرة ويحملها ويسلها إلى البزاز ، فيأخذها ويتصرف فيها ، ومشتري الثوب يقطعها ولم يجر بينهما إيجاب وقبول أصلا ، وكذلك يجتمع المجهزون على حانوت البيع ، فيعرض متاعا قيمته مائة دينار مثلا فيمن يزيد ، فيقول أحدهم : هذا على تسعين ، ويقول الآخر : هذا على بخمسة وتسعين ، ويقول الآخر : هذا بمائة ، فيقال له زن ، فيزن ويسلم ويأخذ المتاع من غير إيجاب وقبول ؛ فقد استمرت به العادات ، وهذه من المضللات التي ليست تقبل العلاج ، إذ الاحتمالات ثلاثة : إما فتح باب المعاطاة مطلقا في الحقيق والنفيس - وهو محال ، إذ فيه نقل الملك من غير لفظ دال عليه ، وقد أحل الله البيع ، والبيع اسم للإيجاب والقبول ، ولم يجر ولم ينطلق اسم البيع على مجرد فعل بتسليم وتسلم ، فبإذا يحكم بانتقال الملك من الجانيين ، لاسيما في الجوارى والعبيد والعقارات والدواب النفيسة وما يكثر التنازع فيه ؛ إذ للسلم أن يرجع ويقول : قد ندمت وما بعته ، إذ لم يصدر مني إلا مجرد تسليم ، وذلك ليس ببيع . (الاحتمال الثاني) أن نسد الباب بالسكينة كما قال الشافعي رحمه الله من بطلان العقد ، وفيه إشكال من وجهين ، أحدهما : أنه يشبه أن يكون ذلك في المحقرات معتادا في زمن الصحابة : ولو كانوا يتكفون الإيجاب والقبول من البقال والحجاز والقصاب لثقل عليهم فعله ، ولنقل ذلك نقلا منتشرا ، ولكان يشتهر وقت الإعراض بالسكينة عن تلك العادة ؛ فإن الأعصار في مثل هذا تتفاوت . والثاني : أن الناس الآن قد انهمكوا فيه فلا يشتري الإنسان شيئا من الأطعمة وغيرها إلى ويعلم أن البائع قد ملكه بالمعاطاة ، فأى فائدة في تلفظه بالعقد إذا كان الأمر كذلك ، (الاحتمال الثالث) أن يفصل بين المحقرات وغيرها كما قاله أبو حنيفة رحمه الله ، وعند ذلك يتعسر الضبط في المحقرات ، ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه ، وقد ذهب ابن سريج إلى تخريج قول للشافعي رحمه الله على وفقه وهو أقرب الاحتمالات إلا الاعتدال ، فلا بأس لو ملنا إليه لمسيس الحاجات ، ولعموم ذلك بين الخلق ، ولما يغلب على الظن بأن ذلك كان معتادا في الأعصار الأولى . فأما الجواب عن الإشكاليين : فهو أن نقول : أما الضبط في الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير ، فإن ذلك غير ممكن ، بل له طرفان واختمان إذ لا يخفى أن شراء البقل وقليل من الفواكه والخنز واللحم من المحدود من المحقرات التي لا يعتاد فيها إلا المعاطاة ، وطالب الإيجاب والقبول فيه يعد مستقصيا ويستبرد تكليفه لذلك ويستقل وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حقير ووجه له هذا طرف الحقارة ، والطرف الثاني الدواب والعبيد والعقارات والثياب النفيسة فذلك مما لا يستبعد تكلف الإيجاب والقبول فيها ؛ وبينهما أوساط متشابهة يشك فيها في محل الشبهة ؛ لحق ذي الدين أن يميل فيها إلى الاحتياط وجميع ضوابط الشرع فيما يعلم بالعادة كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة وأوساط مشككة . وأما الثاني - وهو طلب سبب لنقل الملك ، فهو أن يجعل الفعل باليد أخذًا وتسليما سببا لعينه بل لدلالته ، وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة في العادة ، وانضم إليه لمسيس الحاجة وعادة الأولين وأطراف جميع العادات بقبول الهدايا من غير إيجاب وقبول مع التصرف فيها ، وأي فرق بين أن يكون فيه عوض أو لا يكون ، إذ الملك لا بد من نقله في الهبة أيضا ، إلا أن العادة السالفة لم تفرق في الهدايا بين الحقيق والنفيس ، بل كان طلب الإيجاب والقبول يستتبع فيه كيف كان ، وفي المبيع لم يستتبع في غير المحقرات هذا ما نراه أعدل الاحتمالات وحق الورع المتدين أن لا يدع الإيجاب والقبول للخروج عن شبهة الخلاف ، فلا ينبغي أن يمتنع من ذلك لأجل

أن البائع قد تملكه بغير إيجاب وقبول ؛ فإنّ ذلك لا يعرف تحقيقاً ؛ فربما اشتراه بقبول وإيجاب ، فإن كان حاضراً عند شرائه أو أقرّ البائع به فيمتنع منه وليشتر من غيره ، فإن كان الشيء محقراً وهو إليه محتاج فليتلطف بالإيجاب والقبول فإنه يستفيد به قطع الخصومة في المستقبل معه ، إذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن ، ومن الفعل ممكن .

فإن قلت : فإن أمكن هذا فيما يشتره ، فكيف يفعل إذا حضر في ضيافة أو على مائدة وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاطاة في البيع والشراء أو سمع منهم ذلك أو رآه ؟ أوجب عليه الامتناع من الأكل ! فأقول : يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذي اشتروه مقداراً نفيساً ولم يكن من المحقرات . وأما الأكل ، فلا يجب الامتناع منه ، فإنّي أقول ؛ إن ترددنا في جعل الفعل دلالة على نقل الملك ، فلا ينبغي أن لانجمله دلالة على الإباحة ، فإن أمر الإباحة أوسع ، وأمر نقل الملك أضيق ، فكل مطعوم جرى فيه بيع معاطاة فتسلم البائع إذن في الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال ، كإذن الحامى في دخول الحمام ، والإذن في الإطعام لمن يريده المشتري فينزل منزلة مالو قال : أبحث لك أن تأكل هذا الطعام ، أو تطعم من أردت ؛ فإنه يحل له ولو صرح وقال : كل هذا الطعام ثم أغرم لي عرضه ، حل الأكل ويلزمه الضمان بعد الأكل ، هذا قياس الفقه عندى ، ولكنه بعد المعاطاة أكل ملكه ومثلما له فعليه الضمان وذلك في ذمته ، والثمن الذى سله إن كان مثل قيمته فقد ظفر المستحق بمثل حقه ، فله أن يملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه ، وإن كان قادراً على مطالبته فإنه لا يملك ما ظفر به من ملكه ، لأنه ربما لا يرضى بتلك العين أن يصرفها إلى دينه فعليه المراجعة . وأما ههنا فقد عرف رضاه بقرينة الحال عند التسليم ، فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضاء بأن يستوفى دينه مما يسلم إليه فيأخذه بحقه ، لكن على كل الأحوال جانب البائع أغرض لأن ما أخذه قد يريد المالك ليتصرف فيه ولا يمكنه التملك إلا إذا أ تلف عين طعامه في يد المشتري ، ثم ربما يفتقر إلى استئاف قصد التملك ، ثم يكون قد تملك بمجرد رضا استفادته من الفعل دون القول . وأما جانب المشتري للطعام وهو لا يريد إلا الأكل فهين ، فإنّ ذلك يباح بالإباحة المفهومة من قرينة الحال ، ولكن ربما يلزم من مشاورته أن الضيف يضمن ما أ تلفه ، وإنما يسقط الضمان عنه إذا تملك البائع ما أخذه من المشتري فيسقط ، فيكون كالقاضي دينه والمتحمل عنه ، فهذا ما نراه في قاعدة المعاطاة على غموضها ، والعلم عند الله وهذه احتمالات وظنون رددناها ، ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون ، وأما الورع فإنه ينبغي أن يستفتى قلبه ويتق مواضع الشبه .

العقد الثانى : عقد الربا

وقد حرّمه الله تعالى وشدّد الأمر فيه ، ويجب الاحتراز منه على الصياقة المتعاملين على النقدين ، وعلى المتعاملين على الأاطعمة ، إذ لا ربا إلا في نقد أو في طعام . وعلى الصيرفى أن يحترز من النسبة والفضل . أما النسبة فإن لا يبيع شيئاً من جواهر النقدين بشيء من جواهر النقدين إلا يداً بيد : وهو أن يجرى التقابض في المجلس ، وهذا احتراز من النسبة ، وتسليم الصيارفة الذهب إلى دار الضرب وشراء الدنانير المضروبة حرام من حيث النساء ، ومن حيث إن الغالب أن يجرى فيه تفاضل ، إذ لا يرد المضروب بمثل وزنه . وأما الفضل ، فيحترز منه في ثلاثة أمور : في بيع المكسر بالصحيح ، فلا تجوز المعاملة فيهما إلا مع المماثلة . وفي بيع الجيد بالردىء ، فلا ينبغي أن يشتري رديئاً بجيد دونه في الوزن ، أو يبيع رديئاً بجيد فوّه في الوزن ، أعنى إذا باع الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، فإن اختلف الجنس ان فلا حرج في الفضل . والثالث في المركبات من الذهب والفضة كاللنانير المخلوطة من الذهب والفضة : إن كان

مقدرا الذهب بجهولا لم تصح المعاملة عليها أصلا إلا إذا كان ذلك نقدا جاريا في البلد فإنما نرخص في المعاملة عليه إذا لم يقابل بالنقد ، وكذا الدراهم المغشوشة بالنحاس إن لم تكن رائجة في البلد لم تصح المعاملة عليها ، لأن المقصود منها النقرة وهي بجهولة ، وإن كان نقدا رائجا في البلد رخصنا في المعاملة لأجل الحاجة وخروج النقرة عن أن يقصد استخراجها ، ولكن لا يقابل بالنقرة أصلا ، وكذلك كل حلي مركب من ذهب وفضة فلا يجوز شراؤه لا بالذهب ولا بالفضة ، بل ينبغي أن يشتري بمتاع آخر إن كان قدر الذهب منه معلوما ، إلا إذا كان نموها بالذهب تمويها لا يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار ، فيجوز بيعها بمثلها من النقرة بما أريد من غير النقرة ، وكذلك لا يجوز للصيرفي أن يشتري قلادة فيها خرز وذهب بذهب ، ولا أن يبيعه ، بل بالفضة يدا بيد إن لم يكن فيها فضة ولا يجوز شراء ثوب منسوج بذهب يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار بذهب ، ويجوز بالفضة غيرها وأما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقابض في المجلس ، يختلف جنس الطعام المبيع والمشتري أو لم يختلف ؛ فإن اتحد الجنس فعليهم التقابض ومراعاة المائلة ، والمعتاد في هذا معاملة القصاب بأن يسلم إليه الغنم ويشتري بها اللحم نقدا أو نسيئة فهو حرام ، ومعاملة الخباز بأن يسلم إليه الخنطة ويشتري بها الخبز نسيئة أو نقدا فهو حرام ، ومعاملة العصار بأن يسلم إليه البزر والسمسم والزيتون ليأخذ منه الأدهان فهو حرام ، وكذا اللبان يعطى اللبني ليؤخذ منه الجبن والسمن والزبد وسائر أجراء اللبني ، فهو أيضا حرام ، ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقدا ، ويجنسه إلا نقدا ومتائلا ، وكل ما يتخذ من الشيء المطعوم فلا يجوز أن يباع به متائلا ولا متفاضلا ، فلا يباع بالخنطة دقيق وخبز وسويق ، ولا بالعنب والتمر دبس وخل وعصير ، ولا باللبن سمن وزبد ومخيض ومصل وجبن ، والمائلة لا تفيد إذا لم يكن الطعام في حال كمال الادخار ، فلا يباع الرطب بالرطب والعنب بالعنب متفاضلا ومتائلا ، فهذه جمل مقنعة في تعريف البيع والتنبية على ما يشعر التاجر بمثارات الفساد حتى يستفتى فيها إذا تشكك والتبس عليه شيء منها ، وإذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال ، واقتحم الربا والحرام وهو لا يدري .

العقد الثالث : السلم

ولبراع التاجر فيه عشرة شروط : (الاول) أن يكون رأس المال معلوما على مثله حتى لو تعذر تسليم المسلم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال : فإن أسلم كفا من الدراهم جزافا في كثر حنطة لم يصح في أحد القولين . (الثاني) أن يسلم رأس المال في مجلس العقد قبل التفرق فلو تفرقا قبل القبض انفسخ السلم . (الثالث) أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه كالحبوب والحيوانات والمعادن والقطن والصوف والإبريسم والألبان واللحوم ومتاع العطارين وأشباهها ، ولا يجوز في المعجنات والمركبات وما تختلف أجزاؤه كالقسي المنوعة والنبل المعمول والخفاف والنعال المختلفة أجزاؤها وصنعتها وجلود الحيوانات . ويجوز السلم في الخبز . وما يتطرق إليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته يعنى عنه ويتسامح فيه . (الرابع) أن يستقصى وصف هذه الأمور القابلة للوصف . حتى لا يبقى وصف تتفاوت به القيمة تفاوتاً لا يتبعان بمثله الناس إلا ذكره . فإن ذلك الوصف هو القائم مقام الرؤية في البيع . (الخامس) أن يجعل الأجل معلوما إن كان مؤجلا فلا يؤجل إلى الحصاد ولا إلى إدراك الثمار بل إلى الأشهر والأيام فإن الإدراك قد يتقدم وقد يتأخر . (السادس) أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه وقت المحل ويؤمن فيه وجوده غالبا . فلا ينبغي أن يسلم في العنب إلى أجل لا يدرك فيه . وكذا سائر الفواكه ، فإن كان الغالب وجوده وجاء المحل وعجز عن التسليم بسبب آفة . فله أن يمهله إن شاء أو يفسخ ويرجع في رأس المال

إن شاء . (السابع) أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الغرض به كي لا يثير ذلك نزاعاً (الثامن) أن لا يعلمه بمعين فيقول : من خطئة هذا الزرع ، أو ثمرة هذا البستان ، فإن ذلك يبطل كونه ديناً . نعم لو أضاف إلى ثمرة بلد أو قرية كبيرة ، لم يضر ذلك . (التاسع) أن لا يسلم في شيء نفيس عزيز الوجود مثل درة موصوفة يحز وجود مثلها ، أو جارية حسناء معها ولدها ، أو غير ذلك مما لا يقدر عليه غالباً . (العاشر) أن لا يسلم في طعام مهما كان رأس المال طعاماً سواء كان من جنسه أو لم يكن ، ولا يسلم في نقد إذا كان رأس المال نقداً ، وقد ذكرنا هذا في الربا .

العقد الرابع : الإجارة

وله ركنان : الأجرة ، والمنفعة . فأما العاقد واللفظ فيعتبر فيه ما ذكرناه في البيع والأجرة كائناً ، فينبغي أن يكون معلوماً وموصوفاً بكل ما شرطناه في المبيع إن كان عيناً ، فإن كان ديناً فينبغي أن يكون معلوم الصفة والقدر ، وليحتز فيه عن أمور جرت العادة بها ، وذلك مثل كراء الدار بعبارتها فذلك باطل ، إذ قدر العمارة مجهول . ولو قدر دراهم وشرط على المكتري أن يصرفها إلى العمارة لم يحز ، لأن عمله في الصرف إلى العمارة مجهول . ومنها استئجار السلاح على أن يأخذ الجلد بعد السلخ ، واستئجار حامل الجيف بجلد الجيفة ، واستئجار الطحان بالنخالة أو بعض الدقيق فهو باطل ، وكذلك كل ما يتوقف حصوله وانفصاله على عمل الأجير ، فلا يجوز أن يجعل أجرة . ومنها : أن يقدر في إجارة الدور والحوانيت مبلغ الأجر ، فلو قال لكل شهر دينار ولم يقدر أشهر الإجارة كانت المدة مجهولة ولم تعقد الإجارة .

الركن الثاني : المنفعة المقصودة بالإجارة وهي العمل وحده إن كان عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير ، فيجوز الاستئجار عليه ؛ وجملة فروع الباب تدرج تحت هذه الرابطة ، ولكننا لا نطول بشرحها فقد طوّلت القول فيها في الفقهيات ، وإنما نشير إلى ما تعم به البلوى ، فليراع في العمل المستأجر عليه خمسة أمور : (الأول) أن يكون متقوماً ، بأن يكون فيه كلفة وتعب . فلو استأجر طعاماً ليزين به الدكان . أو أشجاراً ليحفف عليها الثياب ؛ أو دراهم ليزين بها الدكان . لم يحز ، فإن هذه المنافع تجري مجرى حبة سمسم وحبة بر من الأعيان وذلك لا يجوز بيعه ، وهي كالنظر في مرآة الغير ، والشرب من بئر ، والاستئجار بجداره ، والاقتباس من ناره ولهذا لو استأجر يباعاً على أن يتكلم بكلمة يروج بها سلعته لم يحز . وما يأخذه البياعون عرضاً عن حشمتهم وجاههم وقبول قولهم في ترويج السلع فهو حرام ، إذ ليس يصدر منهم إلا كلمة لا تعب فيها ولا قيمة لها ، وإنما يحل لهم ذلك إذ تعبوا بكثرة التردد أو بكثرة الكلام في تأليف أمر المعاملة . ثم لا يستحقون إلا الأجرة المثل ، فأما ما تواطأ عليه الباعة فهو ظلم وليس مأخوذاً بالحق . (الثاني) أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة فلا يجوز إجارة الكرم لارتفاعه . ولا إجارة المواشى للبها . ولا إجارة البساتين لثمارها . ويجوز استئجار المربعة ويكون اللبن تابعا : لأن أفرادها غير ممكن . وكذا يتسامح بحجر الورق وخيط الخياط . لأنهما لا يقصدان على حيالهما . (الثالث) أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حساً وشرعاً . فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لا يقدر عليه . ولا استئجار الأخرس على التعاليم ونحوه وما يحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه . كالأستئجار على قلع سن سليمة أو قطع عضو لا يرخص الشرع في قطعه ؛ أو استئجار الخائض على كدس المسجد . أو المعلم على تعليم السحر أو الفحش . أو استئجار زوجة الغير على الإرضاع دون إذن زوجها . أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات . أو استئجار الصائغ على صيغة الألوان من الذهب والفضة فكل ذلك باطل . (الرابع) أن لا يكون العمل واجباً على الأجير . أو لا يكون بحيث لا تجري

النيابة فيه عن المستأجر . فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد ولا سائر العبادات التي لا نيابة فيها . إذ لا يقع ذلك عن المستأجر . ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ودفن الموق وحمل الجنازة . وفي أخذ الأجرة على إمامة صلاة التراويح وعلى الأذان وعلى التصدي للتدريس وإقراء القرآن خلاف . أما الاستئجار على تعليم مسألة بعينها أو تعليم سورة بعينها لشخص معين فصحيح . (الخامس) أن يكون العمل والمنفعة معلوما . فالخياط يعرف عمله بالثوب . والمعلم يعرف عمله بتعيين السورة ومقدارها . وحمل الدواب يعرف بمقدار المحمول وبمقدار المسافة . وكل ما يثير خصومة في العادة فلا يجوز إهماله . وتفصيل ذلك يطول . وإنما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الأحكام ويتفطن به لمواقع الإشكال . فيسأل . فإن الاستقصاء شأن المفتي لا شأن العوام .

العقد الخامس : القراض

وليراع فيه ثلاثة أركان :

الركن الأول : رأس المال ، وشرطه أن يكون نقدا معلوما مسلما إلى العامل ؛ فلا يجوز القراض على الفلوس ولا على العروض ؛ فإن التجارة تضيق فيه . ولا يجوز على صرة من الدراهم ، لأن قدر الربح لا يتبين فيه ، ولو شرط مالك اليد لنفسه لم يجوز ، لأن فيه تضيق طريق التجارة .

الركن الثاني : الربح ، وليكن معلوما بالجزئية بأن يشترط له الثلث أو النصف أو ما شاء ، فلو قال : على أن لك من الربح مائة والباقي لي ، لم يجوز إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة فلا يجوز تقديره بمقدار معين بل بمقدار شائع .

الثالث : العمل الذي على العامل ، وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقه عليه بتعيين وتأقيت ، فلو شرط أن يشتري بالمال ماشية ليطالب نسلها فيتقاسمان النسل ، أو حنطة فيخبرها ويتقاسمان الربح ، لم يصح ، لأن القراض مأذون فيه في التجارة وهو البيع والشراء وما يقع من ضرورتهما فقط ، وهذا حرف - أغنى الخبز ورعاية المواشي ، ولو ضيق عليه وشرط أن لا يشتري إلا من فلان أو لا يتجر إلا في الخبز الأحمر ، أو شرط ما يضيق باب التجارة فسد العقد ، ثم مهما انعقد فالعامل وكيل فيتصرف بالغبطة تصرف الوكلاء ، ومهما أراد المالك الفسخ فله ذلك ، فإذا فسخ في حالة والمال كله فيها فقد لم يخف وجه القسمة وإن كان عروضاً ولا ربح فيه رد عليه ولم يكن للمالك تكليفه أن يرده إلى النقد ، لأن العقد قد انفسخ وهو لم يلتزم شيئا ، وإن قال العامل : ابيعه ، وأبى المالك ، فالتبوع رأى المالك ، إلا إذا وجد العامل زبونا يظهر بسببه ربح على رأس المال ، ومهما كان ربح فعلى العامل بيع مقدار رأس المال بجنس رأس المال لا بنقد آخر ، حتى يتميز الفاضل ربحا فيشتركان فيه ، وليس عليهم بيع الفاضل على رأس المال ، ومهما كان رأس السنة فعليهم تعرف قيمة المال لأجل الزكاة : فإذا كان قد ظهر من الربح شيء فالأفيس أن زكاة نصيب العامل على العامل وأنه يملك الربح بالظهور ، وليس للعامل أن يسافر بمال القراض دون إذن المالك ، فإن فعل صححت تصرفاته ، ولكنه إذا فعل ضمن الأعيان والأثمان جميعا ، لأن عدوانه بالنقل يتعدى إلى ثمن المنقول ، وإن سافر بالإذن جاز ونفقة النقل وحفظ المال على مال القراض ، كما أن نفقة الوزن والكيل والحمل الذي لا يعتاد التاجر مثله على رأس المال ، فأما نشر الثوب وطيه والعمل باليسير المعتاد فليس له أن يبذل عليه أجرة . وعلى العامل نفقته وسكناء في البلد ، وليس عليه أجرة الحانوت . ومهما تجرد في السفر لمال القراض فنفقته في السفر على مال القراض ، فإذا رجع فعليه أن يرد بقايا آلات السفر من المطهرة والسفرة وغيرها .

العقد السادس : الشركة

وهي أربعة أنواع : ثلاثة منها باطلة : (الأول) شركة المفاوضة : وهو أن يقولوا : تفاوضنا المشترك في كل مالنا وعلينا ومالاها ممتازان ، فهي باطلة ، (الثاني) شركة الأبدان : وهو أن يتشارطا الاشتراك في أجره العمل فهي باطلة . (الثالث) شركة الوجوه : وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول فيكون من جهته التسهيل ومن جهة غيره العمل ، فهذا أيضا باطل . وإنما الصحيح العقد الرابع المسمى شركة العنان : وهو أن يختلط مالاها بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمه ، ويأذن كل واحد منهما لصاحبه في التصرف ، ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالين ، ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط ، ثم بالعزل يتمتع بالتصرف عن المعزول ، وبالقسمة ينفصل الملك عن الملك ، والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على العروض المشتراة ، ولا يشترط النقد ، بخلاف القراض .

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب ، وإلا اقتحم الحرام من حيث لا يدري . وأمام معاملة القصاب والخباز والبقال فلا يستغنى عنها المكتسب وغير المكتسب ، والخلل فيها من ثلاثة وجوه : من إهمال شروط البيع ، أو إهمال شروط السلم ، أو الاقتصار على المعاوضة ، إذ العادات جارية بكتبه الخطوط على هؤلاء بحاجات كل يوم ، ثم المحاسبة في كل مدة ، ثم التقويم بحسب ما يقع عليه التراضي ، وذلك مما نرى القضاء بإباحته للحاجة ، ويحمل تسليمهم على إباحة تناول مع انتظار العوض فيحل أكله ، ولكن يجب الضمان بأكله وتلزم قيمته يوم الإلتلاف ، فتجتمع في الذمة تلك القيم ، فإذا وقع التراضي على مقدار ما فينبغي أن يلتزم منهم الإبراء المطلق لا تبقى عليه عهدة إن تطرق إليه تفاوت في التقويم ، فهذا ما يجب القناعة به ، فإن تكليف وزن الثمن لكل حاجة من الخواصج في كل يوم وكل ساعة تكليف شطط ، وكذا تكليف الإيجاب والقبول وتقدير ثمن كل قدر يسير منه فيه عسر ، وإذا كثر كل نوع سهل تقويمه ، والله الموفق .

الباب الثالث : في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم أن المعاملة قد تجري على وجه يحكم المفتي بصحتها وانعقادها ولكنها تشتمل على ظلم يتعزز به المعامل لسنخ الله تعالى ، إذ ليس كل شيء يقتضى فساد العقد ، وهذا الظلم يعني به ما استضر به الغير ، وهو منقسم إلى ما يعم ضرره وإلى ما يخص المعامل .

القسم الأول : فيما يعم ضرره . وهو أنواع :

النوع الأول : الاحتكار فبائع الطعام يتدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار ، وهو ظلم عام ، وصاحبه مذموم في الشرع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره »^(١) ، وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه »^(٢) ، وقيل : فكأنما قتل الناس جميعا ، وعن علي رضي الله عنه : من احتكر الطعام أربعين يوما

الباب الثالث : في بيان العدل

(١) حديث « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره » رواه أبو منصور الديلمي في مستند الفردوس من حديث علي ، والخطيب في التاريخ من حديث أنس بن مالك بن عفان . (٢) حديث ابن عمر « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه » رواه أحمد والحاكم بسند جيد ، وقال ابن عدي : ليس بمحفوظ من حديث ابن عمر .

قسا قلبه . وعنه أيضا أنه أحرق طعام محتكر بالنار . وروى في فضل ترك الاحتكار عنه صلى الله عليه وسلم « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » ، وفي لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة »^(١) ، وقيل في قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ إن الاحتكار من الظلم ودخل تحته في الوعيد . وعن بعض السلف أنه كان بواسطة لجهاز سفينة حطمة إلى البصرة وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد ؛ فوافق سعة في السعر فقال له التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك ؛ فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ، إنا كنا نقفنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين فقد جنيت علينا جناية ؛ فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافا لأعلى ولألى . واعلم أن النهي مطلق ويتعلق النظر به في الوقت والجنس ، أما الجنس فيطرد النهي في أجناس الأوقات ، أما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهي إليه وإن كان مطعوما . وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يستد مسدا يغنى عن القوت في بعض الأحوال وإن كان لا يمكن المداومة عليه ، فهذا في محل النظر ؛ فمن العلاء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجري مجراه ؛ وأما الوقت فيحتمل أيضا طرد النهي في جميع الأوقات ، وعليه تدل الحكاية التي ذكرنا في الطعام الذي صادف بالبصرة سعة في السعر ، ويحتمل أن يخص بوقت قلة الأطلعة وحاجة الناس إليه حتى يكون في تأخير بيعه ضرر ما ؛ فأما إذا اتسعت الأطلعة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطا ؛ فليس في هذا إضرار . وإذا كان الزمان زمان قحط كان في ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثاله إضرار ؛ فينبغي أن يقضى بتحريمه ويعمل في نفي التحريم وإثباته على الضرر فإنه مفهوم قطعا من تخصيص الطعام ، وإذا لم يكن ضرر فلا يخلو احتكار الأوقات عن كراهية ، فإنه ينتظر مبادئ الضرر وهوار تفاع الأسعار ، وانتظار مبادئ الضرر محذور كانتظار عين الضرر ولكنه دونه ، وانتظار عين الضرر أيضا هودون الإضرار ، فبقد درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم . وبالجمل التجارية في الأوقات بما لا يستحب لانه طلب ربح ، والأوقات أصول خلقت قواما ، والربح من المزايا ، فينبغي أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التي لا ضرورة للخلق إليها ولذلك أوصى بعض التابعين رجلا وقال : لاتسلم ولدك في بيعتين ولا في صنعتين : بيع الطعام ، وبيع الأكفان فإنه يمتنى الغلاء وموت الناس . والصنعتان . أن يكون جزارا فإنها صنعة تقسى القلب ، أو صواغا فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة .

النوع الثاني : ترويح الزيف من الدراهم في أثناء النقد فهو ظلم ، إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف ، وإن عرف فسيروجه على غيره ، فكذلك الثالث والرابع ، ولا يزال يتردد في الأيدي ويعم الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر السكل ووباله راجعا عليه ، فإنه هو الذي فتح هذا الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا »^(٢) . وقال بعضهم : إنفاق درهم

(١) حديث « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » وفي لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة » أخرجه ابن مردويه في الفهر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف : « ما من جالب يجلب طعاما إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد » وللتاكم من حديث البيع بن المغيرة « إن الجالب إلى سوقا كالمجاهد في سبيل الله » وهو مرسل (٢) حديث « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله .

زيف أشد من سرقة مائة درهم ، لأن السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقطعت ، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها في الدين وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة ، أو مائتي سنة . . إلى أن يفنى ذلك الدرهم ، ويكون عليه مافسد من أموال الناس بسنته ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يعذب بها في قبره ويستل عنها إلى آخر انقراضها ، وقال تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه ، وفي مثله قوله تعالى ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره . وليعلم أن في الزيف خمسة أمور : (الأول) أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بئر بحيث لا يمتد إليه اليد ، وإياه أن يروجه في بئع آخر . وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز . (الثاني) أنه يجب على التاجر تعلم النقد لا يستقصي لنفسه ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفا وهو لا يدري فيكون آثما بتقصيره في تعلم ذلك العلم . فكل علم عمل به يتم نصيح المسلمين . فيجب تحصيله ومثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد نظراً لدينهم لا لدنياهم . (الثالث) أنه إن سلم وعرف المعامل أنه زيف لم يخرج عن الإثم . لأنه ليس يأخذه إلا ليروجه على غيره ولا يخبره ، ولو لم يعزم على ذلك لكان لا يرغب في أخذه أصلا . فإثما يتخلص من إثم الضرر الذى يخص معامله فقط . (الرابع) أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء »^(١) ، فهو داخل في بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه في بئر . وإن كان عازما على أن يروجه في معاملة فهذا شر روجه الشيطان عليه في معرض الخير فلا يدخل تحت من تساهل في الاقتضاء . (الخامس) أن الزيف نغيبه مالا نقرة فيه أصلا بل هو بموه . أو مالا ذهب فيه أعنى في الدناير . أما مافيه نقرة فإن كان مخلوطا بالنحاس وهو نقد البلد فقد اختلف العلماء في المعاملة عليه ، وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد ، سواء علم مقدار النقرة أو لم يعلم . وإن لم يكن هو نقد البلد لم يجز إلا إذا علم قدر النقرة ، فإن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر به معامله ، وأن لا يعامل به إلا من لا يستحل الترويع في جملة النقد بطريق التليس ، فأما من يستحل ذلك فتسليمه إليه تسليط له على الفساد ، فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمرأ ، وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه ، وسلوك طريق الحق بمثال هذا في التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها ، ولذلك قال بعضهم : التاجر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد ، وقد كان السلف يحتاطون في مثل ذلك حتى روى عن بعض الغزاة في سبيل الله أنه قال : حملت على فرسى لأقتل عرجا ، فقصر بي فرسى فرجعت ثم دنا مني العرج فحملت ثانية فقصر فرسى فرجعت ، ثم حملت الثالثة فففر مني فرسى وكنت لا أعتاد ذلك منه ، فرجعت حزينا وجلست منكسر الرأس منكسر القلب لما فاتني من العرج وما ظهر لي من خلق الفرس ، فوضعت رأسي على عمود الفسطاط وفرسى قائم فرأيت في النوم كأن الفرس يخاطبني ويقول لي : بالله عليك أردت أن تأخذ على العرج ثلاث مرات وأنت بالأمس اشتريت لي علفا ودفعت في ثمنه درهما زائفا لا يكون هذا أبدا . قال : فانتبهت فزعا فذهبت إلى العلاف وأبدلت ذلك الدرهم ، فهذا مثال ما يعم ضرره وليقتس عليه أمثاله .

القسم الثاني : ما يخص ضرره المعامل

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم ، وإنما العدل لا يضر بأخيه المسلم ، والضابط السكلى فيه : أن لا يجب

(١) حديث « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء » أخرجه البخارى من حديث جابر .

لأخيه إلا ما يجب لنفسه ؛ فكل مالو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به ؛ بل ينبغي أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره . قال بعضهم : من باع أخاه شيئا بدرهم وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانق فإنه قد ترك النصح المأمور به في المعاملة ولم يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، هذه جملة .

فأما تفصيله ففي أربعة أمور . أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها ، وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا أصلا ، وأن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئا ، وأن لا يكتم من سعرها مالو عرفه المعامل لا تمتنع عنه :

أما الأول ، فهو ترك التناء ؛ فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب ، فإن قبل المشتري ذلك فهو تليس وظلم مع كونه كذبا ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، إذ الكذب الذي لا يروج قد لا يقدح في ظاهر المروءة ، وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه . وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لم تكلم بها . قال الله تعالى ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ إلا أن يثنى على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشتري مالم يذكره ، كما يصفه من خفي أخلاق العبيد والجواري والدواب ؛ فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطناب ، وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه ويتقضى بسببه حاجته ، ولا ينبغي أن يحلف عليه ألبتة ؛ فإنه إن كان كاذبا فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع ، وإن كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضه لإيمانه ، وقد أساء فيه ، إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويحها بذكر اسم الله من غير ضرورة ، وفي الخبر « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد » ^(١) وفي الخبر « اليمين الكاذبة منقفة للسلعة ممحقة للبركة » ^(٢) وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . عتل مستكبر ، ومنان يعطيته ، ومنفق سلعته يمينته » ^(٣) فإذا كان التناء على السلعة مع الصدق مكروها من حيث إنه فضول لا يزيد في الرزق فلا ينبغي التغليظ في أمر اليمين ؛ وقد روى عن يونس بن عبيد وكان خزازا : أنه طلب منه خز للشراء ، فأخرج غلامه سقط الخنز ونشره ونظر إليه وقال : اللهم ارزقنا الجنة ، فقال لغلامه : رده إلى موضعه ولم يبعه ، وخاف أن يكون ذلك تعريضا بالتناء على السلعة ، فثل هؤلاء الذين اتجروا في الدنيا ولم يضيئوا دينهم في تجارتهم ، بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا .

الثاني : أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيا وجليا ولا يكتم منها شيئا ، فذلك واجب ، فإن أخفاه كان ظالما غاشا والغش حرام ، وكان تاركا للنصح في المعاملة والنصح واجب ، ومهما أظهر أحسن وجهي الثوب وأخفى الثاني كان غاشا ، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخلف أو التعل وأمثاله ويدل على تحريم الغش ما روى : أنه مر عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاما فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرأى بللا ، فقال : « ما هذا ؟ » قال : أصابته السماء ، فقال « فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » ^(٤) ، ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريرا على الإسلام ذهب

(١) حديث « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد غد » لم آف له على أمل ، وذكر صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بن مالك أنس بن مالك نحوه . (٢) حديث « اليمين الكاذبة منقفة للسلعة ممحقة للبركة » متفق عليه من حديث أبي هريرة باللفظ « الخلف » وهو عند البيهقي بلفظ المصنف . (٣) حديث أبي هريرة « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : عاتل مستكبر ، ومنان يعطيته . ومنفق سلعته يمينته » أخرجه مسلم من حديثه إلا أنه لم يذكر فيها إلا : عاتل مستكبر ، ولها « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أعطى فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ... الحديث » وسلم من حديث أبي نر : « المنان ، والمسبل لمزاره ، والمنفق سلعته بالخلف الكاذب » . (٤) حديث : مر برجل يبيع طعاما فأعجبه فأدخل يده فرأى بللا فقال « ما هذا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

لينصرف لجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم ^(١) ، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ثم خيره وقال : إن شئت غفد وإن شئت فأترك ، فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم يتفد لك بيع ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وكان وائلة بن الأسقع واقفا فباع رجل ناقة له بثلاثمائة درهم ، فغفل وائلة وقد ذهب الرجل بالناقة ، فسعى وراءه وجعل يصيح به : يا هذا ، اشتريتها للحم أو للظهر ؟ فقال : بل للظهر ، فقال : إن بخفها نقبا قد رأيت ، ولما لا تتابع السير ، فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم وقال لوائلة : رحلك الله أفسدت على بيعي ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل لأحد يبيع بيعا إلا أن يبين آفته ، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبيئنه » ^(٢) ، فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لاختيه إلا ما يرضاه لنفسه ، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات ، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم ، وهذا أمر يشق على أكثر الخلق ، فلذلك يختارون التخلي للعبادة والاعتزال عن الناس ، لأن القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة مجاهدة لا يقوم بها إلا الصديقون ، ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين : (أحدهما) أن تليسه العيوب وتروى وجه السلع لا يزيد في رزقه ، بل يمحقه ويذهب ببركته ، وما يجمعه من مفرقات التليسات يهلكه الله دفعة واحدة ، فقد حكى أن واحدا كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه ، فجاء سيل فغرق البقرة ، فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المتفرقة التي صبينها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة . كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما ، وإذا كتما وكذبا نزع بركة بيعهما » ^(٣) ، وفي الحديث « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع يده عنهما » ^(٤) ، فإذا لا يزيد مال من خيانة ، كما لا ينقص من صدقة ، ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث . ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سببا لسعادة الإنسان في الدنيا والدين ، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها ويراه أصلح له في بعض أحواله ، فيعرف معنى قولنا : إن الخيانة لا تزيد في المال والصدقة لا تنقص منه (والمعنى الثاني) الذي لا بد من اعتقاده ليتم له النصح ويتيسر عليه : أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا ، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، والخير كله في سلامة الدين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال لاله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم » ^(٥) ، وفي لفظ آخر « ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله ، قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين ، وفي حديث آخر « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل . وما إخلاصه ؟ قال . أن يحززه عما حرم الله » ^(٦) ، وقال أيضا « ما آمن بالقرآن من استحله محارمه ، ومن علم

(١) حديث جرير بن عبد الله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . متفق عليه . (٢) حديث وائلة « لا يحل لأحد يبيع بيعا إلا أن يبين آفته ، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبيئنه » أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، والبيهقي . (٣) حديث « البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما » الحديث « متفق عليه من حديث حكيم بن حزام . (٤) حديث « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع يده عنهما » رواه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقاله : صحيح الإسناد . (٥) حديث « لا تزال لاله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم ... الحديث » رواه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أسد بن شداد ضعيف . وفي رواية للترمذي الحكيم في النوادر « حتى إذا نزلوا بالنزل الذي لا يبالون ما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم » . الحديث « ولا عيراني في الأوسط نحوه من حديث عائشة ، وهو ضعيف أيضا . (٦) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » قيل : وما إخلاصها ؟ قال « تحجزه عما حرم الله » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن .

أن هذه الأمور قاذحة في إيمانه ، وأن إيمانه رأس ماله في الآخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياما معدودة . وعن بعض التابعين أنه قال : لودخلت الجامع ومع وهو غاص بأهله وقيل لى : من خير هؤلاء ؟ قلت : من أنصحهم لهم ؟ فإذا قالوا : هذا ، قلت : هو خيرهم . ولو قيل لى : من شرهم ؟ قلت : من أغشهم لهم ؟ فإذا قيل : هذا ، قلت : هو شرهم . والغش حرام في البيع والصنائع جميعا ، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لوعامله به غيره لما ارتضاء لنفسه ، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ، ثم يبين عيوبها إن كان فيها عيب ، فبذلك يتخلص . وسأل رجل حذاء بن سالم فقال : كيف لى أن أسلم في بيع النحال ؟ فقال : اجعل الوجهين سواء ، ولا تفضل اليمنى على الأخرى ، وجود الحشو ، وليكن شيئا واحدا تاما ، وقارب بين الحرز ، ولا تطبق إحدى النعلين على الأخرى . ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين ، قال : لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه ، وإنما يحل للرفا إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع .

* فإن قلت : فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع * فأقول : ليس كذلك ، إذ شرط التاجر أن لا يشتري للبيع إلا الجيد الذى يرتضيه لنفسه لو أمسكه ثم يقنع في بيعه بربح يسير ، فيبارك الله له فيه ، ولا يحتاج إلى تليس ، وإنما تعذر هذا لأنهم لا يقنعون بالربح اليسير ، وليس يسلم الكثير إلا بتليس ، فن تعود هذا لم يشتر المبيع ، فإن وقع في يده معيب نادرا فليذكره وليقنع بقيمته . باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري : أبرأ إليك من عيب فيها إنها تقلب العلف برجلها . وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشتري : إنها تنخمت مرة عندنا دما ، فهكذا كانت سيرة أهل الدين ، فن لا يقدر عليه فليترك المعاملة أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة .

الثالث : ألا يكتم في المقدار شيئا وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل ، فينبغى أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ الذين إذا اكتمالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون ﴿ ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجع إذا أعطى ، وينقص إذا أخذ ، إذ العدل الحقيقى قلما يتصور ، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان ، فإن من استقصى حقه بكاله يوشك أن يتعداه . وكان بعضهم يقول : لا أشتري الويل من الله بحبة ، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة ، وإذا أعطى زاد حبة ، وكان يقول : ويل لمن باع بحبة جنة عرض السموات والأرض ؛ وما أخسر من باع طوبى بويل . وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها ، إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدى حقوقهم ، ولذلك لما اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قال للوزان لما كان يزن ثمنه « زن وأرجع »^(١) ، ونظر فضيل إلى ابنه وهو يغسل دينارا يريد أن يصرفه ويزيل تكحيله وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال : يا بني فعلك هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة . وقال بعض السلف : عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو ، يزن ويحلف بالنهار ، وينام بالليل . وقال سليمان عليه السلام لابنه : يا بني كما تدخل الحبة بين الحجرين ، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين . وصلى بعض الصالحين على محتث ؛ فقيل له : إنه كان فاسقا ، فسكت ، فأعيد عليه فقال : كأنك قلت لى : كان صاحب ميزانين يعطى بأحدهما ويأخذ بالآخر ، أشار به إلى أن فسقه مظلة بينه وبين الله تعالى ، وهذا من مظالم العباد ، والمساحة والعفو فيه أبعد ، والتشديد في أمر الميزان عظيم ، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة . وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ﴿ لا تظفوا في الميزان ﴾ وأقيموا الوزن باللسان ولا تخسروا الميزان ﴿ أى لسان الميزان ، فإن النقصان والرجحان

(١) حديث : قال للوزان « زن وأرجع » رواه أصحاب السنن والحاكم من حديث سويد بن قيس . قال الترمذى : حسن صحيح وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

يظهر بجملة ، وبالجملة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كلمة ولا ينصف بمثل ما ينتصف ، فهو داخل تحت قوله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ الذين إذا ائتمروا على الناس يستوفون ﴿ الآيات ، فإن تحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكيلا ، بل لكونه أمرا مقصودا ترك العدل والتصفة فيه ، فهو جار في جميع الأعمال ، فصاحب الميزان في خطر الويل ، وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة ، ولولا تعذر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة ، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتاً عظيماً ، فلذلك تتفاوت مدة مقامهم في النار إلى أوان الخلاص ، حتى لا يبق بعضهم إلا بقدر تحلة القسم ، ويبقى بعضهم ألفاً وألوف سنين ، فنسأل الله تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل ، فإن الاشتداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه ، غير مطموع فيه ، فإنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار الذي من صفته أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، وبقدر الاستقامة على هذا الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على الصراط ، وكل من خلط بالطعام تراباً أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل ، وكل قصاب وزن مع اللحم عظام لم تجر العادة بمثله ، فهو من المطففين في الوزن ، وقس على هذا سائر التقديرات ، حتى في الذرع الذي يتعاطاه البزاز ، فإنه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمدده مداً ، وإذا باعه مده في الذرع ليظهر تفاوتاً في القدر ، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل .

الرابع : أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفى منه شيئاً ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان^(١) ونهى عن النجش^(٢) ، أما تلقى الركبان ، فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تتلقوا الركبان ، ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق ، وهذا الشراء منعقد ، ولكنه إن ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار ، وإن كان صادقا ففي الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التبايس ، ونهى أيضاً أن يبيع حاضر لباد^(٣) : وهو أن يقدم البدوى البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه ، فيقول لها الحضري أتركه عندي حتى أغلى في ثمنه وانتظر ارتفاع سعره ، وهذا في القوت محرم ، وفي سائر السلع خلاف ، والأظهر تحريمه لعموم النهي ، ولأنه تأخير للتضييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولي المضيق ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجش . وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريد بها ، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها ، فهذا إن لم تجر مواطاة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منعقد ، وإن جرى مواطاة ففي ثبوت الخيار خلاف ، والأولى لإثبات الخيار لأنه تغير بفعل يضاهي التغير في المصراة وتلقى الركبان ، فهذه المناهى تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ويكتم منه أمراً لو علمه لما أقدم على العقد ، ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب ، فقد حكى عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر ، فكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة ، فاشترى السكر ، قال : فاشترى سكراً كثيراً ، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفاً ، فانصرف إلى منزله فأفكر

(١) حديث النهي عن تلقى الركبان : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة : (٢) حديث النهي عن النجش : متفق عليه من حديث ابن عمر وأبي هريرة . (٣) حديث النهي عن بيع الحاضر للبادي : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة وأنس .

ليته وقال : ربحت ثلاثين ألفاً وخسرت نصح رجل من المسلمين ، فلما أصبح غدا إلى بائع السكر فدفع إليه ثلاثين ألفاً وقال : بارك الله لك فيها ، فقال : ومن أين صارت لي ؟ فقال : إني كنتك حقيقة الحال وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت ، فقال : رحمك الله قد أعلمتني الآن وقد طيبتها لك ، قال : فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهرا وقال : مانصحتني ، فلعله استحيا مني فتركها لي فبكر إليهِ من الغد وقال : عافاك الله ، خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبي ، فأخذ منه ثلاثين ألفاً . فهذه الأخبار في المناهي والحكايات تدل على أنه ليس له أن يقتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع وينقضي من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار ، فإن فعل ذلك كان ظالما تاركا للعدل والنصح للمسلمين ، ومهما باع مربحة بأن يقول : بعث بما قام على أو بما اشتريته ، فعليه أن يصدق ، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان ، ولو اشترى إلى أجل وجب ذكره ، ولو اشترى مساحة من صديقه أو ولده يجب ذكره . لأن المعامل يقول على عادته في الاستقصاء أنه لا يترك النظر لنفسه ، فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره ، إذ الاعتداف فيه على أمانته .

الباب الرابع : في الإحسان في المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً ، والعدل سبب النجاة فقط ، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال . والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة ، وهو يجري من التجارة مجرى الربح ، ولا يعد من الغفلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله ، فكذا في معاملات الآخرة ، فلا ينبغي للتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان ، وقد قال الله ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ وقال عز وجل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وقال سبحانه ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ ونعني بالإحسان : فعل ما ينتفع به المعامل ، وهو غير واجب عليه ، ولكنه تفضل منه ، فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه ، وتعال رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور .

الأول : في المغالبة ، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغبن به في العادة ، فأما أصل المغالبة فما ذون فيه : لأن البيع للربح ، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب ، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد إما لشدة رغبته أو لشدة حاجته في الحال إليه ، فينبغي أن يمتنع من قبوله ، فذلك من الإحسان . ومهما لم يكن تلبس لم يكن أخذ الزيادة ظلماً وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار ، ولسنا نرى ذلك ، ولكن من الإحسان أن يحيط ذلك الغبن . يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان : ضرب قيمة كل حلة منها أربع مائة ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان ، فر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربع مائة فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها ففضى بها وهي على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلتها ، فقال للأعرابي : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربع مائة ، فقال : لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها ، فقال : هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها ، فقال له يونس : انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم ، وخاصم ابن أخيه في ذلك وقتله وقال : أما استحييت ، أما اتقيت الله ، تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ، فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ، وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتلبس ، فهو من

باب الظلم وقد سبق ، وفي الحديث « غبن المسترسل حرام »^(١) ، وكان الزبير بن عدى يقول : أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشتري لحما بدرهم ، فغبن مثل هؤلاء المسترسلين ظلم : إن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحسان ، وقلنا يتم هذا إلا بنوع تلبيس وإخفاء سعر الوقت .

ولمّا الإحسان المحض ما نقل عن السرى السقطى أنه اشترى كتر لوز بستين ديناراً وكتب في روزنامه ثلاثة دنابير ربحه ، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار ، فصار اللوز بتسعين ، فأناه الدلال وطلب اللوز فقال : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ، فقال الدلال وكان من الصالحين : فقد صار اللوز بتسعين ، فقال السرى : قد عقدت عقداً لا أحله ، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين ، فقال الدلال : وأنا عقدت بيني وبين الله أن لا أغش مسلماً ، لست آخذ منك إلا بتسعين . قال : فلا الدلال اشترى منه ، ولا السرى باعه ، فهذا محض الإحسان من الجانبين ، فإنه مع العلم بحقيقة الحال .

وروى عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة ، فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة ، فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده ، فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة ، فقال : يا هذا قد رضيت ، فقال : وإن رضيت فإننا لانرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ، فاختر إحدى ثلاث خصال : إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وإما أن نرد شقتنا وتأخذ دراهمك ، فقال : أعطني خمسة ، فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول : من هذا الشيخ ؟ فقيل له : هذا محمد بن المنكدر ، فقال لا إله إلا الله ، هذا الذي نستسقى به في البوادي إذا قحطنا . فهذا إحسان في أن لا يربح على العشرة إلا نصفاً أو واحداً على ما جرت به العادة في مثل ذلك المتاع في ذلك المكان ، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها ربها كثيراً ، وبه تظهر البركة . كان على رضى الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدرة ويقول : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ، لاتردوا قليل الربح فتحرموا كثيراً .

قيل لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث ، مارددت ربها قط ، ولا طلب منى حيوان فأخرت بيعه ، ولا بيعت بنفسية . ويقال : إنه باع ألف ناقة فسا ربح إلا عقلها : باع كل عقل بدرهم فربح فيها ألفاً وربح من نفقته عليها ليومه ألفاً .

الثاني : في احتمال الغبن ، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف أو شيئاً من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله عليه السلام « رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء » ، فأما إذا اشترى من غنى تاجر يطلب الربح زيادة على حاجته ، فاحتمال الغبن منه ليس محموداً ، بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد ، فقد ورد في حديث من طريق أهل البيت « المغبون في الشراء لا محمود ولا مأجور »^(٢) ، وكان إياس ابن معاوية بن قرّة قاضي البصرة وكان من عقلاء التابعين يقول : لست بحب والحب لا يغبنني ولا يغبن ابن سيرين ولكن يغبن الحسن ويغبن أبي - يعنى معاوية بن قرّة ، والكمال في أن لا يغبن ولا يغبن ، كما وصف بعضهم عمر

الباب الرابع : الإحسان في المعاملة

(١) حديث « غبن المسترسل حرام » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ، والبيهقي من حديث جابر بسند جيد ، وقال « ربا » بدل « حرام » . (٢) حديث « المغبون في الشراء لا محمود ولا مأجور » أخرجه الترمذي المحكم في النوادر من رواية عبيد الله بن الحسن عن أبيه عن جده ، ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن علي يرفعه . قال الذهبي : هو منكر .

رضي الله عنه فقال : كان أكرم من أن يخدع ، وأقل من أن يخدع . وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون في الشراء ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال ، فقيل لبعضهم : تستقصي في شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالي ! فقال : إن الواهب يعطي فضله وإن المغبون يغبن عقله . وقال بعضهم : إنما أغبن عقلى وبصرى فلا أمكن الغابن منه ، وإذا وهبت أعطى الله ولا أستكثر منه شيئاً .

الثالث : في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه : مرة بالمساحة وحط البعض ، ومرة بالإمهال والتأخير ، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد ، وكل ذلك مندوب إليه ومحث عليه : قال النبي صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل الاقتضاء »^(١) ، فليقتم دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « اسمح يسمح لك »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً ، وفي لفظ آخر « أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله »^(٣) . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً كان مسرفاً على نفسه : حوسب فلم يوجد له حسنة ، فقيل له : هل عملت خيراً قط ؟ فقال : لا إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتيانى : ساعوا الموسر وأنظروا المعسر »^(٤) . وفي لفظ آخر « وتجاوزوا عن المعسر » فقال الله تعالى : نحن أحق بذلك منه ، فتجاوز الله عنه وغفر له ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله ، فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة »^(٥) ، وقد كان من السلف من لا يحب أن يقضى غريمه الدين لأجل هذا الخبر ، حتى يكون كالتصدق بجميعه في كل يوم . وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بغير أمثالها والقرض بثمان عشرة »^(٦) ، فقيل في معناه : إن الصدقة تقع في يد المحتاج وغير المحتاج ، ولا يحتمل ذل الاستقراض إلا محتاج . ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلزم رجلاً بدين ، فأومأ إلى صاحب الدين بيده أن يضع الشطر ففعل ، فقال للدينون : قم فأعطه »^(٧) ، وكل من باع شيئاً وترك ثمنه في الحال ولم يرهق إلى طلبه فهو في معنى القرض .

وروى أن الحسن البصرى باع بغلة له بأربعمائة درهم ، فلما استوجب المال قال له المشتري : اسمح يا أبا سعيد . قال : قد أسقطت عنك مائة ، قال له : فأحسن يا أبا سعيد ، فقال : قد وهبت لك مائة أخرى ، فقبض من حقه مائتي درهم . فقيل له : يا أبا سعيد ، هذا نصف الثمن ، فقال : هكذا يكون الإحسان وإلا فلا . وفي الخبر « خذ حقاك في كفاف وعفاف واف أو غير واف ، يحاسبك الله حساباً يسيراً »^(٨) .

(١) حديث « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء » تقدم في الباب قبله . (٢) حديث « اسمح يسمح لك » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس ورجاله ثقات .

(٣) حديث « من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً » وفي لفظ آخر « أظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله » رواه مسلم باللفظ الثاني من حديث أبي اليسر كعب بن عمرو . (٤) حديث : ذكر رجلاً كان مسرفاً على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة ، هيل له : هل عملت خيراً قط ، فقال : لا إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتيانى : ساعوا الموسر ... الحديث . رواه مسلم من حديث أبي مسعود الأنصارى ، وهو متفق عليه بنحوه من حديث حذيفة . (٥) حديث « من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله . فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة » أخرجه ابن ماجه من حديث بريدة « من أنظر معسراً كان له كل يوم صدقة ؛ ومن أنظره بعد أجله كان له مثله في كل يوم صدقة » وسنده ضعيف ، ورواه أحمد والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٦) حديث « رأيت على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بغير أمثالها ، والقرض بثمان عشرة » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف . (٧) حديث « أومأ إلى صاحب الدين بيده وضع الشطر » الحديث ، متفق عليه من حديث كعب بن مالك .

(٨) حديث « خذ حقاك في عفاف » الحديث ، أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن دون قوله « يحاسبك الله حساباً يسيراً » وله ولابن حبان والحاكم وصححه نحوه من حديث ابن عمر وعائشة .

الرابع : في توفية الذين . ومن الإحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى إليه يتقاضاه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم ، خيركم أحسنكم قضاء ^(١) ، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته ، وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن ، وإن عجز فلينبؤ قضاءه مهما قدر . قال صلى الله عليه وسلم « من أذان ديناً وهو ينوي قضاءه وكل الله به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه ^(٢) » ، وكان جماعة من السلف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر ، ومهما كلفه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله باللطف ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم : إذ جاءه صاحب الدين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاؤه ، فجعل الرجل يشتد الكلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم به أصحابه فقال : دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً ^(٣) ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض ، فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للتوسطين إلى من عليه الدين ، فإن المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة ، وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر ؛ فإن البائع راغب عن السلعة ينبغي ترويجها ، والمشتري محتاج إليها : هذا هو الأحسن ، إلا أن يتعدى من عليه الدين حده ، فعند ذلك نصرته في منعه عن تعذبه وإعانة صاحبه ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقيل : كيف تنصره ظالماً ؟ فقال : منعك إياه من الظلم نصرة له ^(٤) » .

الخامس : أن يقلل من يستقيله ، فإنه لا يستقيل إلا متتد مستنصر بالبيع ، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه : قال صلى الله عليه وسلم « من أقال نادماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة ^(٥) » . أو كما قال .

السادس : أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة ، فقد كان في صالحى السلف من له دفتران للحساب : أحدهما ترجمته بجهولة ، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء ، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول : أحتاج إلى خمسة أرطال مثلاً من هذا وليس معي ثمنه ، فكان يقول : خذه واقض ثمنه عند الميسرة ولم يكن يعد هذا من الخيار ، بل عد من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلاً ولا يجعله ديناً ، لكن يقول : خذ ما تريد ، فإن يسرك فاقض ، وإلا فأنت في حل منه وسعة : فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست ، والقائم به محي لهذه السنة ، وبالجملة : التجارة محك الرجال ، وبها يمتحن دين الرجل وورعه ، ولذلك قيل :

لا يغرنك من المر * قميص رفته أو لزار فوق كد * ب الساق منه رفعه

أو جبين لاح فيه * أثر قد قلعه ولدى الدرهم فانظر * غيه أو ورعه

ولذلك قيل : إذا أتى على الرجل جيرانه في الحضر وأصحابه في السفر ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في صلاحه .

وشهد عند عمر رضي الله عنه شاهد فقال : اتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً ، فقال عمر : أنت

(١) حديث « خيركم أحسنكم قضاء » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « من أذان ديناً وهو ينوي قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه » أخرجه أحمد من حديث عائشة « مامن عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان معه من الله عون وحافظ » وفي رواية له « لم يزل معه من الله حارس » وفي رواية للطبراني في الأوسط « لا كان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه » . (٣) حديث « دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس . (٥) حديث « من أقال نادماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح على شرط مسلم .

جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ؛ فقال كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهيمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب فليست تعرفه . وقال للرجل . اذهب فالتقى بمن يعرفك .

الباب الخامس : فى شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، فيكون عمره ضائعا وصفقته خاسرة ، وما يفوته من الربح فى الآخرة لا يبنى به ما ينال فى الدنيا ، فيكون اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه ، وشفقته على نفسه يحفظ رأس ماله ، ورأس ماله دينه وتجارته فيه . قال بعض السلف : أولى الأشياء بالعاقل أحوجهم إليه فى العاجل ، وأحوج شيء إليه فى العاجل أحده عاقبة فى الآجل . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصيته : لأنه لا بد لك من نصيبك فى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فابدأ بنصيبك من الآخرة ، فلهذا فإنك ستمت على نصيبك من الدنيا فتتظمه . قال الله تعالى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى لا تنس فى الدنيا نصيبك منها للآخرة ، فإنها مزرعة الآخرة ، وفيها تكتسب الحسنات .

ولأنما تم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور :

الأول : حسن النية والعقيدة فى ابتداء التجارة ، فلينبهها الاستغفار عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس استغناء بالخلال عنهم ، واستعانة بما يكسبه على الدين ، وقيامه بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به ، ولينبه النصيح للمسلمين ، وأن يحب لسائر الخلق ما يحب لنفسه ، ولينبه اتباع طريق العدل والإحسان فى معاملته كإذ كرهناه ، ولينبه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كل ما يراه فى السوق ، فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملا فى طريق الآخرة ، فإن استفاد مالا فهو مزيد ، وإن خسر فى الدنيا ربح فى الآخرة .

الثانى : أن يقصد القيام فى صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعاش وهلك أكثر الخلق . فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل ، ولوأقبل كلهم على صناعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا ، وعلى هذا حمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتى رحمة » (١) أى اختلاف مهمهم فى الصناعات والحرف . ومن الصناعات ما هى مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب النعم والتزين فى الدنيا ، فليشتغل بصناعة مهمة ليكون فى قيامه بها كافيا عن المسلمين مهما فى الدين ، وليجتنب صناعة النقش والصياغة وتشديد البنیان بالجص وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين ، فأما عمل الملاحى والآلات التى يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم ، ومن جملة ذلك خياطة الخياط القباء من الإبريسم للرجال ، وصياغة الصائغ مراكب الذهب أو خواتيم الذهب للرجال فكل ذلك من المعاصى والأجرة المأخوذة عليه حرام ، ولذلك أوجبنا الزكاة فيها وإن كنا لانوجب الزكاة فى الحلى ، لأنها إذا قصدت للرجال فهى محزنة ، وكونها مهياة للنساء لا يلحقها بالحلى المباح ، مالم يقصد ذلك بها فيكتسب حكمها من القصد . وقد ذكرنا أن يبيع الطعام ويبيع الأكفان مكروه لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بفلاء السعر ،

الباب الخامس : فى شفقة التاجر على دينه

(١) حديث « اختلاف أمتى رحمة » تقدم فى العلم .

ويكره أن يكون جواراً ، لما فيه من قساوة القلب ، وأن يكون حجاً أو كناساً لمساقيه من مخامرة النجاسة ، وكذا الدباغ وما في معناه ، وكره ابن سيرين الدلالة ، وكره قتادة أجرة الدلال ، ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال عن الكذب والإفراط في الثناء على السلعة لترويجها ، ولأن العمل فيه لا يتقدر فقد يقل وقد يكثر ، ولا ينظر في مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب ، هذا هو العادة ، وهو ظلم ، بل ينبغي أن ينظر إلى قدر التعب ، وكرهوا شراء الحيوان للتجارة ، لأن المشتري يكره قضاء الله فيه وهو الموت الذي يصدده لاحتماله وحلوله . وقيل : بيع الحيوان واشترى الموتان ، وكرهوا الصرف ، لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير ، ولأنه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها وإنما يقصد رواجها ، وقيل يتم للصيرفي ربح إلا باعتماد جهالة معاملته بدقائق النقد ؛ فقلنا يسلم الصيرفي وإن احتاط ، ويكره للصيرفي وغيره كسر الصحيح والدنانير إلا عند الشك في جودته أو عند ضرورة . قال أحمد بن حنبل رحمه الله : وردني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وعن أصحابه في الصياغة من الصحاح ، وأنا أكره الكسر ، وقال : يشتري بالدنانير دراهم ثم يشتري بالدرهم ذهباً ويصوغه ، واستحبوا تجارة البر . قال سعيد بن المسيب : ما من تجارة أحب إلى من البر ، ما لم يكن فيها أيمان . وقد روى « خير تجارتكم البر وخير صناعتكم الخرز » ^(٢) ، وفي حديث آخر : لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البر ، ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرف ^(٣) ، وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع : الخرز ، والتجارة ، والحل ، والخياطة ، والحذو ، والقصارة ، وعمل الخفاف وعمل الحديد ، وعمل المغازل ، ومعالجة صيد البر والبحر ، والوراقة : قال عبد الوهاب الوراق . قال لي أحمد بن حنبل : ما صنعتك ؟ قلت : الوراقة . قال : كسب طيب ، ولو كنت صانفاً بيدي لصنعت صنعتك ، ثم قال لي : لا تكتب إلا مواسطة ، واستبق الخواشي وظهور الأجزاء . وأربعة من الصنائع موسومون عند الناس بضعف الرأي : الحاك ، والقطانون ، والمغازليون ، والمعلمون . وامل ذلك لأن أكثر مخالطتهم مع النساء والصبيان ، ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل ، كما أن مخالطة العقلاء تزيد في العقل . وعن مجاهد : أن مريم عليها السلام مرت في طلبها لعيسى عليه السلام بحاكة ، فطلبت الطريق فأرشدوها غير الطريق ، فقالت : اللهم انزع البركة من كسبهم ، وأمتهم فقراء ، وحقرهم في أعين الناس ، فاستجيب دعاؤها . وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفريات كفصل الموتى ودفنهم ، وكذا الأذان وصلاة التراويح ، وإن حكم بصحة الاستئجار عليه ، وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع ، فإن هذه أعمال حقها أن يتجر فيها للأخرة ، وأخذ الأجرة عليها استبدالاً بالدنيا عن الآخرة ولا يستحب ذلك .

الثالث ، أن يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وأسواق الآخرة المساجد . قال الله تعالى ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ وقال الله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته فيلزم المسجد ويواظب على الأوراد . كان عمر رضي الله عنه يقول للتجار : اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم وما بعده لديناكم . وكان صالحو السلف يجعلون أول

(١) حديث النهي عن كسر الدينار والدرهم ، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . زاد الحاكم : أن يكسر الدرهم فيجعل فضة ، ويكسر الدينار فيجعل ذهباً . وضعفه ابن حبان . (٢) حديث « خير تجارتكم البر وخير صناعتكم الخرز » لم أقف له على إسناد ، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب . (٣) حديث « لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البر ، ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرف » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف . وروى أبو يعلى والبخاري في الضعفاء الشطر الأول من حديث أبي بكر الصديق .

النهار وأخره للآخرة والوسط للتجارة ، ولم يكن يبيع الهريسة والرموس بكرة إلا الصبيان وأهل الذمة ، لأنهم كانوا في المساجد بعد . وفي الخبر ، إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفيها في أول النهار وفي آخره ذكر الله وخير : كفر الله عنهما ما بينهما من سيئ الأعمال ^(١) ، وفي الخبر ، تلتقي ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وجئناهم وهم يصلون ؛ فيقول الله سبحانه وتعالى : أشهدكم أني قد غفرت لهم ^(٢) ، ثم مهما سمع الأذان في وسط النهار للأولى والعصر ، فينبغي أن لا يعرج على شغل ، وينزعج عن مكانه ، ويدع كل ما كان فيه ، فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام في أول الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها ، ومهما لم يحضر الجماعة عصي عند بعض العلماء . وقد كان السلف يبتدرون عند الأذان ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة ، وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت في أوقات الصلوات ، وكان ذلك معيشة لهم . وقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ أنهم كانوا حدادين وخرازين ؛ فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشني فسمع الأذان لم يخرج الإشني من المغرز ولم يوقع المطرقة ورمى بها وقام إلى الصلاة . الرابع . أن لا يقتصر على هذا بل يلزم ذكر الله سبحانه في السوق ويشغل بالتهليل والتسبيح ، فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل . قال صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل خلف الغارين ، وكالحى بين الأموات » ، وفي لفظ آخر « كالشجرة الخضراء بين الهشيم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ^(٣) » ، وكان ابن عمر وسالم بن عبد الله ومحمد بن واسع وغيرهم يدخلون السوق قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر . وقال الحسن : ذاكر الله في السوق يحى يوم القيامة له ضوء كضوء القمر ، وبرهان كبرهان الشمس . ومن استغفر الله في السوق غفر الله له بعدد أهلها . وكان عمر رضي الله عنه إذا دخل السوق قال : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفسوق ، ومن شر ما أحاطت به السوق ، اللهم إني أعوذ بك من بين فاجرة وصفقة خاسرة . وقال أبو جعفر الفرغاني : كما يوما عند الجنيد ، جرى ذكر ناس يجلسون في المساجد ويتشبهون بالصوفية ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ويعيون من يدخل السوق ؛ فقال الجنيد : كم ممن هو في السوق حكمة أن يدخل المسجد ؟ يأخذ بأذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه ، وإني لأعرف رجلا يدخل السوق ورده كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة . قال : فسبق إلى وهمي أنه يعني نفسه ، فهكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لا للتنعم في الدنيا ؛ فإن من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربح الآخرة ، والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد ، وإنما النجاة بالتقوى . قال صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت ^(٤) » ، فوظيفة التقوى لا تنقطع عن المتجردين للدين كيفما تقلبت بهم الأحوال ، وبه تكون حياتهم وعيشتهم ، إذ فيه يرون تجارتهم وربحهم . وقد قيل : من أحب الآخرة عاش ، ومن أحب الدنيا طاش ، واللاحق يغدو ويروح في لاش ، والعاقل عن عيوب نفسه فتاش .

(١) حديث « إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفي أول النهار وآخره ذكر وخير كفر الله ما بينهما من سيئ الأعمال » أخرجه أبو يعلى من حديث أسى بسند ضعيف بمناه . (٢) حديث « تلتقي ملائكة الليل وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويتمعون في صلاة الفداة وصلاة العصر ... الحديث » . (٣) حديث « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » تقدم في الأذكار .

(٤) حديث « اتق الله حيثما كنت » أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر ومعه .

الخامس : أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج ، وبأن يركب البحر في التجارة ، فهما مكروهان ، يقال إن من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق . وفي الخبر « لا يركب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو »^(١) ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول : لا تكن أول داخل في السوق ولا آخر خارج منها ، فإن بها باض الشيطان وقرخ . روى عن معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر : أن إبليس يقول لولده زئبور : سر بكتائبك فأت أصحاب الأسواق ، زين لهم الكذب والخلف والخديعة والمكر والخيانة ، وكن مع أول داخل وآخر خارج منها . وفي الخبر « شر البقاع الأسواق ، وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجاً »^(٢) ، وتما هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته ، فإذا حصل كفايته وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة هكذا كان صالحو السلف ، فقد كان منهم من إذا ربح دانقاً انصرف قناعة به . وكان حماد بن سبله يبيع الخبز في سبط بين يديه ، فكان إذا ربح حبتين رفع سبطه وانصرف . وقال إبراهيم بن بشار : قلت لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : أمر اليوم أعمل في الطين فقال : يا ابن بشار ، إنك طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته وتطلب ما قد كفيته . أما رأيت حريصاً محروماً وضعيفاً مرزوقاً ؟ فقلت : إن لي دانقاً عند البقال ؛ فقال عز على بك ، تملك دانقاً وتطلب العمل ؟ وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر ، ومنهم بعد العصر ، ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوماً أو يومين وكانوا يكتفون به .

السادس : أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الرب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتي قلبه ، فإذا وجد فيه حوازة اجتنبه ، وإذا حمل إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف ولا أكل الشبهة « وقد حمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبن ، فقال « من أين لكم هذا ؟ » فقالوا : من الشاة ، فقال « ومن أين لكم هذه الشاة ؟ » فقيل : من موضع كذا ، فشرب منه ثم قال « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً »^(٣) ، وقال « إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)^(٤) فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصل الشيء وأصل أصله ولم يزد ، لأن ما وراء ذلك يتعذر . وسنئين في كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال ، فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن كل ما يحمل إليه »^(٥) ، وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله ، وكذا الأجناد والظلة لا يعاملهم ألبتة ولا يعامل أصحابهم وأعاونهم ، لأنه معين بذلك على الظلم . وحكى عن رجل أنه تولى عمارة سور لثغر من الثغور . قال : فوقع في نفسي من ذلك شيء - وإن كان ذلك العمل من الخيرات بل من فرائض الإسلام ، ولكن كان الأمير الذي تولى في محلته من الظلمة . قال : فسألت سفيان رضي الله

- (١) حديث « لا تترك البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزو » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو ، وقيل لأنه منقطع .
 (٢) حديث « شر البقاع الأسواق ، وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجاً » تقدم صدر الحديث في الباب السادس من العلم . وروى أبو نعيم في كتاب حرمة المساجد من حديث ابن عباس « أبش البقاع إلى الله الأسواق وأبش أهلها إلى الله أولهم دخولا وآخرهم خروجاً » .
 (٣) حديث سؤاله عن ابن عباس والشاة ، وقوله « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً » رواه الطبراني من حديث أم عبد الله أخت شداد بن أوس بسند ضعيف .
 (٤) حديث « إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .
 (٥) حديث : كان لا يسأل من كل ما يحمل إليه . رواه أحمد من حديث جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه هموا بامرأة فذبحت لهم شاة ... الحديث ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقمة فلم يستطع أن يسينها ، فقال : هذه شاة ذبحت بنير أذن أهلها ... الحديث ، وله من حديث أبي هريرة : كان إذا أتى بطعام من غير أهله سأل عنه . . الحديث ، واستأذنها جدي . وفي هذا أنه كان لا يسأل عما أتى به من عند أهله ، والله أعلم .

عنه فقال : لا تكن عوناً لهم على قليل ولا كثير ؛ فقلت : هذا سور في سبيل الله للسليين ! فقال نعم ، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحب بقاءهم ليوفوك أجر ك ؛ فتكون قد أحبت بقاء من يعصى الله . وقد جاء في الخبر « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه »^(١) ، وفي الحديث « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق »^(٢) ، وفي حديث آخر « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام »^(٣) ، ودخل سفيان على المهدي وبه درج أبيض ، فقال : ياسفيان أعطني الدواة حتى أكتب ، فقال : أخبرني أي شيء تكتب ، فإن كان حقاً أعطيتك . وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحوسين عنده أن يناوله طيناً ليختم به الكتاب ، فقال : ناولني الكتاب أولاً حتى أنظر ما فيه ، فهكذا كانوا يحترزون عن معاونة الظلمة ومعاملتهم أشد أنواع الإعانة ؛ فينبغي أن يحتذوا ذوو الدين ما وجدوا إليه سبيلاً . وبالجملة فينبغي أن يتقسم الناس عنده إلى من يعامل ومن لا يعامل ، وليكن من يعامله أقل ممن لا يعامله في هذا الزمان . قال بعضهم : أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول : من ترون لي أن أعامل من الناس فيقال له : عامل من شئت . ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون : عامل من شئت إلا فلانا وفلانا ثم أتى زمان آخر فكان يقال : لا تعامل أحداً إلا فلانا وفلانا ، وأخشى أن يأتي زمان يذهب هذا أيضاً . وكأنه قد كان الذي كان يحذر أن يكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

السابع : ينبغي أن يراقب جميع مجارى معاملته مع واحد من معامليه ، فإنه مراقب ومحاسب ، فليعدّ الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة إنه لم أقدم عليها ؟ ولأجل ماذا ؟ فإنه يقال : إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وفتة ، ويحاسب عن كل واحد فهو محاسب على عدد من عامله . قال بعضهم : رأيت بعض التجار في النوم ، فقلت : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : نشر على خمسين ألف صحيفة ، فقلت : هذه كلها ذنوب ، فقال ، هذه معاملات الناس بعدد كل إنسان عاملته في الدنيا ؛ لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته إلى آخرها فهذا ما على المكتسب في عمله من العدل والإحسان والشفقة على الدين ، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين ، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقربين ، وإن راعى مع ذلك وظائف الدين كما ذكر في الباب الخامس كان من الصديقين والله أعلم بالصواب .

تم كتاب الكسب والمعيشة بحمد الله ومنه

(١) حديث « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت من قول الحسن ، وقد ذكره المصنف هكذا على الصواب في آفات السان . (٢) حديث « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت ، وابن عدى في الكامل ، وأبو يعلى والبيهقي في الشعب . من حديث أنس بسند ضعيف . (٣) حديث « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف « من وقر صاحب بدعة ... الحديث » رواه ابن عدى من حديث عائدة ، والضرائق في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزي : كلها موضوعة .

كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان من طين لازب وصلصال ، ثم ركب صورته فى أحسن تقويم وأتم اعتدال ، ثم غذاه فى أول نشوه بلبن استصفاه من بين فرت ودم سائغا كالماء الزلال ، ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعى الضعف والانحلال ، ثم قيد شهوته المعادية له عن السطوة والصيل وقهرها بما افترضه عليه من طلب القوت الحلال ، وهزم بكسرها جند الشيطان المتشمر للإضلال ، ولقد كان يجرى من ابن آدم مجرى الدم السيل ، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والمجال ، إذ كان لا يبذره إلى أعماق العروق إلا الشهوة المائلة إلى الغلبة والاسترسال ؛ فبقى لما زمت بزمام الحلال غائبا خاسرا ماله من ناصر ولا وال . والصلاة على محمد الهادى من الضلال وعلى آله خير آل ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فقد قال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة على كل مسلم »^(١) ، رواه ابن مسعود رضى الله عنه ، وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض : أعصاها على العقول فهما ، وأثقلها على الجوارح فعلا ، ولذلك اندرس بالكلية علما وعملا ، وصار غموض علمه سببا لاندراس عمله ، إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود ، وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود ، وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات ، والحشيش التابت فى الموت ، وما عداه فقد أخبثته الأيدي العادية ، وأفسدته المعاملات الفاسدة ، وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع فى المحرمات ؛ فرفضوا هذا القطب من الدين أصلا ، ولم يدركوا بين الأموال فرقا وفصلا ، وهيهات هيهات ، فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات ؛ ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات . ولما كانت هذه بدعة عم فى الدين ضررها ، واستطار فى الخلق شررها ، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة على وجه التحقيق والبيان ، ولا يخرج منه التضيق عن حيز الإمكان .

ونحن نوضح ذلك فى سبعة أبواب : (الباب الأول) فى فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام . (الباب الثانى) فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام . (الباب الثالث) فى البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها فى الحلال والحرام . (الباب الرابع) فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية (الباب الخامس) فى إدرات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم . (الباب السادس) فى الدخول على السلاطين ومخالطتهم . (الباب السابع) فى مسائل متفرقة .

كتاب الحلال والحرام

(١) حديث ابن مسعود « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » يندم فى الزكاة دون قوله « على كل مسلم » ولطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « واجب على كل مسلم » وأسناده ضعيف .

الباب الأول : في فضيلة الحلال ومذمة الحرام

وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال الله تعالى ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾ أمر بالآكل من الطيبات قبل العمل . وقيل : إن المراد به الحلال . وقال تعالى ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ وقال تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ الآية . وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ ثم قال ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ ثم قال ﴿ولأن تبتم فلکم رهوس أموالکم﴾ ثم قال ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ جعل آكل الربا أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله ، وفي آخره متعرضا للنار ، والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى . وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « طلب الحلال فريضة على كل مسلم ، ولما قال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم »^(١) ، قال بعض العلماء : أراد به طلب علم الحلال والحرام ، وجعل المراد بالحديثين واحدا .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من سعى على عياله من حله فهو كالجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حللا في عفاف كان في درجة الشهداء »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »^(٣) ، وفي رواية « زهده الله في الدنيا » ، وروى : أن سعدا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له : « أظب طعمتك تستجيب دعوتك »^(٤) ، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال « رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام ، يرفع يديه فيقول : يارب يارب ، فأني يستجاب لذلك »^(٥) ، وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل »^(٦) ، فقيل : الصرف النافلة ، والعدل الفريضة . وقال صلى الله عليه وسلم « من اشترى ثوبا

(١) حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » تقدم في العلم . (٢) حديث « من سعى على عياله من حله فهو كالجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا في عفاف كان في درجة الشهداء » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « من سعى على عياله في سبيل الله » ولأبي منصور في مسند الفردوس « من طلب مكسبة من باب حلال يكف بها وجهه عن مشقة الناس ووفده عياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين » ولمسندهما ضعيف . (٣) حديث « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب « من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ولأبي عندي نحوه من حديث أبي موسى ، وقال : حديث منكر . (٤) حديث . أن سعدا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له « أظب طعمتك تستجيب دعوتك » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا يعرفه . (٥) حديث « رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ... الحديث . (٦) حديث ابن عباس « إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل » لم أقف له على أصل ؛ ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود « من أكل أكلة من حرام لم يقبل منه صلاة أربعين ليلة ... الحديث » وهو منكر .

بشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته مادام عليه منه شيء ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في طلب الحلال » ^(٤) ، روى هذا مرفوعاً وموقوفاً على بعض الصحابة أيضاً . وقال صلى الله عليه وسلم « من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض » ^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار » ^(٦) ، وقال عليه السلام « خير دينكم الورع » ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لقي الله ورعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كله » ^(٨) ، ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه : وأما الورعون فأنا أستحي أن أحاسبهم . وقال صلى الله عليه وسلم « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زينة في الإسلام » ^(٩) ، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه « المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا سقمت صدرت بالسقم » ^(١٠) ، ومثل الطعنة من الدين مثل الأساس من البنيان ، فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع ، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع . وقال الله عز وجل « أمن أسس بنيانه على تقوى من الله » الآية . وفي الحديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه ، وإن تركه ورأه كان زاده إلى النار » ^(١١) ، وقد ذكرنا جملة من الأخبار في كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال .

وأما الآثار : فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده ثم سأل عبده فقال : تكهنت لقوم فأعطوني ، فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم قال : اللهم إني أعوذ بك عما حملت العروق وخالط الأمعاء ^(١٢) . وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال : أوعلمتم . أن الصديق

(١) حديث « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شيء » رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٢) حديث « كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به » أخرجه الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه ، وقد تقدم (٣) حديث « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر . قال ابن العربي في طائفة الأحاديث شرح الترمذي : لأنه باطل لم يصح ولا يصح . (٤) حديث « العبادة عشرة أجزاء ، فتسعة منها في طلب الحلال » رواه أبو منصور الديلمي من حديث أسس ، إلا أنه قال « تسعة منها في الصمت والعاشرة كسب اليد من الحلال » وهو منسك . (٥) حديث « من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وفيه ضعف . (٦) حديث « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار » رواه أبو داود في المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة مرسل . (٧) حديث « خير دينكم الورع » تقدم في العلم . (٨) حديث « من لقي الله ورعاً أعطاه ثواب الإسلام كله » لم أفت له على أصل . (٩) حديث « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زينة في الإسلام » رواه أحمد والدارقطني من حديث عبد الله بن حنظلة وقال : « ستة وثلاثين » ورجاله ثقات ، وقيل : عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعاً ، ولطبراني في الصغير من حديث ابن عباس « ثلاثة وثلاثين » وسنده ضعيف . (١٠) حديث أبي هريرة « المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط ، والقبلي في الضعفاء وقال : باطل لا أصل له . (١١) حديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه » وإن تركه ورأه كان زاده إلى النار » رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ؛ ولا بن حبان من حديث أبي هريرة « من جمع مالا من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان لصره عليه » . (١٢) حديث : إن أبابكر شرب لبناً من كسب عبده ثم سأله فقال : تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء . وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك قال : أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه لا طيباً . رواه البخاري من حديث عائشة : كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً يسمى فأكل منه أبو بكر ؛ فقال له اللام : أندري ما هذا؟ فقال : وما هو؟ قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية . فذكره ، دون المرفوع منه ، فلم أجده .

لا يدخل جوفه إلا طيباً ؛ وكذلك شرب عمر رضى الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطاً ، فأدخل أصبعه وتقيأ . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العباد ، هو الورع . وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنه : لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصتمتم حتى تكونوا كالأوتار ، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه . وقال الفضيل : من عرف ما يدخل جوفه كتب الله صديقاً ، فأنظر عند من تفطر يامسكين . وقيل لإبراهيم بن آدم رحمه الله : لم لا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لى دلو شربت منه . وقال سفيان الثوري رضى الله عنه : من أنفق من الحرام فى طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول والثوب النجس لا يطهر إلا بالماء ، والذنب لا يكفر إلا بالحلال . وقال يحيى بن معاذ الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء ، وأسنانها لقم الحلال . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يقبل الله صلاة امرئ فى جوفه حرام ، وقال سهل التستري : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى من الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الموت . وقال : من أحب أن يكشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل إلا فى سنة أو ضرورة . ويقال : من أكل الشبهة أربعين يوماً أعظم قلبه ، وهو تأويل قوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال ابن المبارك : رد درهم من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ، حتى بلغ إلى ستمائة ألف . وقال بعض السلف : إن العبد يأكل أكله فيقلب قلبه ، فينقل كما ينقل الأديم ولا يعود إلى حاله أبداً . وقال سهل رضى الله عنه : من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم . ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات وقال بعض السلف : إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه ، ومن أقام نفسه مقام ذل فى طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر . وروى فى آثار السلف أن الرواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء : تفقدوا منه ثلاثاً ، فإن كان معتقداً لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق ، وإن كان سىء الطعمة فعن الهوى ينطق ، فإن لم يكن مكنى العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه . وفى الأخبار المشهورة عن على عليه السلام وغيره : إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب . وزاد آخرون : وشبهتها عتاب . وروى أن بعض الصالحين دفع طعاماً إلى بعض الأبدال فلم يأكل ؛ فسأله عن ذلك فقال : نحن لأننا كل إلا حلالاً ، فلذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالنا ونكشف الملكوت ونشاهد الآخرة ، ولو أكلنا بما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شىء من علم اليقين ولذهب الخوف والمشاهدة من قلوبنا ؛ فقال له الرجل : فإن أصوم الدهر وأختم القرآن فى كل شهر ثلاثين مرة ، فقال له البدل : هذه الشربة التى رأيتى شربتها من الليل أحب إلى من ثلاثين ختمة فى ثلاثمائة ركعة من أعمالك ، وكانت شربته من لبن ظلية وحشية . وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحة طويلة ، فهجره أحمد إذ سمعه يقول : إني لأسأل أحداً شيئاً ، ولو أعطانى الشيطان شيئاً لأكلته ، حتى اعتذر يحيى وقال : كنت أمرح ، فقال : تمزح بالدين ؛ أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال ﴿ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ وفى الخبر : أنه مكتوب فى التوراة « من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أى أبواب النيران أدخله » وعن على رضى الله عنه أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار طعاماً إلا محتوماً حذراً من الشبهة . واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة ، فذكروا الرطب ، فقال وهيب : هو من أحب الطعام إلى ، إلا أنى لا آكله لاختلاط رطب مكة ببساتين زبيدة وغيرها ، فقال له

ابن المبارك : إن نظرت في مثل هذا ضاق عليك الخبز . قال : وما سببه ؟ قال : إن أصول الضياع قد اختلط بالصوافي ، فغشى على وهيب ؛ فقال سفيان : قتلت الرجل ؛ فقال ابن المبارك : ما أردت إلا أن أمون عليه ؛ فلما أفاق قال : لله على أن لا أكل خبزاً أبداً حتى ألقاه . قال : فكان يشرب اللبن ، قال فأتته أمه بلبن فسألت فقالت : هو من شاة بنى فلان ، فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لحم فذكرت : فلما أدناه من فيه قال : بقي أنها من أين كانت ترعى ؟ فسكتت ، فلم يشرب لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للمسلمين ؛ فقالت أمه : اشرب فإن الله يغفر لك ؛ فقال ، ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنا لم مغفرته بمعصيته . وكان بشر الحافي رحمه الله من الورعين ؛ فقيل له : من أين تأكل ، فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي كن يأكل وهو يضحك . وقال : يد أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة ، وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات .

أصناف الحلال ومداخله

اعلم أن تفصيل الحلال والحرام إنما يتولى بيان كُتب الفقه ، ويستغنى المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها ؛ فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه في كتب الفقه .
ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم : وهو أن المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه أو لخلل في جهة اكتسابه .

القسم الأول : الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرهما

وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام ، فإنها إما أن تكون من المعادن كالمليح والطين وغيرهما ، أو من النبات ، أو من الحيوانات .
أما المعادن : فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها ، فلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالآكل ، وفي بعضها ما يجري مجرى السم ، والخبز لو كان مضراً لحرم أكله ، والطين الذي يعتاد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر . وقائدة قولنا : إنه لا يحرم مع أنه لا يؤكل ، أنه لو وقع شيء منها في مرقة أو طعام مائع لم يصربه محرماً .
وأما النبات : فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة ؛ فزيل العقل : البنج والخمر وسائر المسكرات ، ومزيل الحياة : السموم ؛ ومزيل الصحة : الأدوية في غير وقتها ، وكأن مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والمسكرات ؛ فإن الذي لا يسكر منها أيضاً حرام مع قلته لعينه ولصفته ، وهي الشدة المطربة . وأما السم فإذا خرج عن كونه مضراً لقلته أو لمعجنه بغيره فلا يحرم

وأما الحيوانات : فتقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل ، وتفصيله في كتاب الأطعمة ، والنظر يطول في تفصيله ، لاسيما في الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر ، وما يحل أكله منها فإنما يحل إذا ذبح ذبحاً شرعياً روعى فيه شروط الذابح والآلة والذبح ، وذلك مذكور في كتاب الصيد والذباح ؛ وما لم يذبح ذبحاً شرعياً أو مات فهو حرام ، ولا يحل إلا ميتتان : السمك والجراد ، وفي معنهما ما يستحيل من الأطعمة كدود التفاح والخل والجبن ، فإن الاحتراز منهما غير ممكن ؛ فأما إذا أفردت وأكلت لحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب وكل ما ليس له نفس سائلة : لا سبب في تحريمها إلا الاستقذار ، ولو لم يكن لكان لا يكره ، فإن وجد شخص لا يستقذره لم يلتفت إلى خصوص طبعه فإنه التحق بالخبائث لعموم الاستقذار ، فيكره أكله ، كما لو جمع الخاط وشربه كره

ذلك ، وليست الكراهة لنجاستها فإن الصحيح أنها لا تنجس بالموت ، إذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمتلئ الذباب في الطعام إذا وقع فيه ^(١) ، وربما يكون حارا ويكون ذلك سبب موته ، ولو تهرت نملة أو ذبابة في قدر لم يجب إراقتها ، إذ المستقدر هو جرمه إذا بقي له جرم ، ولم ينجس حتى يحرم بالنجاسة ، وهذا يدل على أن تحريمه للاستقذار ، ولذلك نقول : لو وقع جزء من آدمى ميت في قدر ولو وزن دائق حرم الكل لالنجاسته ، فإن الصحيح أن الآدمي لا ينجس بالموت ، ولكن لأن أكله محرم احتراماً لاستقذاراً . وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تحمل جميع أجزائها بل يحرم منها الدم والفرث وكل ما يقضى بنجاسته منها ، بل تناول النجاسة مطلقاً محرم ، ولكن ليس في الأعيان شيء محرم نجس إلا من الحيوانات . وأما من النبات فالمسكرات فقط دون ما يزيل العقل ولا يسكر كالبنج ، فإن نجاسة المسكر تغليظ للزجر عنه لكونه في مغلة التشؤف ، ومهما وقعت قطرة من النجاسة أو جزء من نجاسة جامدة في مرقة أو طعام أو دهن حرم أكل جميعه ، ولا يحرم الانتفاع به لغير الأكل ، فيجوز الاستصباح بالدهن النجس ، وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها ، فهذه مجامع ما يحرم لصفة في ذاته .

القسم الثاني : ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه

وفية يتسع النظر فنقول : أخذ المال إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره فالذي يكون بغير اختياره كالإرث ، والذي يكون باختياره إما أن لا يكون من مالك كنبيل المعادن ، أو يكون من مالك ، والذي أخذ من مالك فإما أن يؤخذ قهراً أو يؤخذ تراضياً ، والمأخوذ قهراً إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم ، أو لاستحقاق الأخذ كزكاة المعتنعين والنفقات الواجبة عليهم ، والمأخوذ تراضياً إما أن يؤخذ بموضع كالبيع والصدق والاجرة ، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالمهبة والوصية ، فيحصل من هذا السياق ستة أقسام :

الأول : ما يؤخذ من غير مالك : كنبيل المعادن ، وإحياء الموات ، والاصطياد ، والاحتطاب ، والاستقاء من الأنهار ، والاحتشاش ، فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذى حرمة من الآدميين ، فإذا انفك من الاختصاصات ملكها أخذها . وتفصيل ذلك في كتاب إحياء الموات .

الثاني : المأخوذ قهراً من لاحرمة له وهو النقي والغنيمة وسائر أموال الكفار والمحاربين ، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الجنس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد . وتفصيل هذه الشروط في كتاب السير من كتاب النقي والغنيمة وكتاب الجزية .

الثالث : ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، فيؤخذ دون رضاه ، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه واقتصر على القدر المستحق ، واستوفاه من يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق : وتفصيل ذلك في كتاب تفريق الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات ، إذ فيها النظر في صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق ، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالاً .

الرابع : ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة ، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين : أعني الإيجاب والقبول ، مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة . وبيان ذلك في كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضيان والقراض والشركة والمساقاة والشفعة والصلح والخلع والكتابة والصدق

(١) حديث الأمر بأن يمتلئ الذباب في الطعام إذا وقع فيه . رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

وسائر المعاوضات .

الخامس : ما يؤخذ عن رضا من غير عوض ، وهو حلال إذا روعى فيه شرط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر يوارث أو غيره وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات .

السادس . ما يحصل بغير اختيار كالميراث ، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال ، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجبا ، وذلك مذكور في كتاب الوصايا والفرائض : فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام أو مانا إلى جعلها ليطلع المرید أنه إن كانت طعمته متفرقة لا من جهة معينة فلا يستغنى عن علم هذه الأمور ؛ فكل ما يابأ كله من جهة من الجهات ينبغي أن يستغنى فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل ، فإنه كما يقال للعالم : لم خالفت عليك ؟ يقال للجاهل : لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قبل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم ؟

درجات الحلال والحرام

اعلم أن الحرام كله خبيث ، لكن بعضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض وأصنى من بعض ، وكما أن الطيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن يقول : بعضها حار في الدرجة الأولى كالسكر ، وبعضها حار في الثانية كالقانيذ ، وبعضها حار في الثالثة كالذبس ، وبعضها حار في الرابعة كالعسل . كذلك الحرام بعضه خبيث حار في الدرجة الأولى ، وبعضه في الثانية أو الثالثة أو الرابعة : وكذا الحلال تتفاوت درجات صفاته وطيبه ، فلتقتد بأهل الطب في الاصطلاح على أربع درجات تقريبا . وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر ، إذ يتطرق إلى كل درجة من الدرجات أيضا تفاوت لا ينحصر ، فإن من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر ، وكذا غيره ، فلذلك نقول : الورع عن الحرام على أربع درجات :

الأولى : ورع العدول ، وهو الذي يحجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه : وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء .

الثانية : ورع الصالحين ، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتى يرخص في التناول بناء على الظاهر ، فهو من مواقع الشبهة على الجملة ، فلنقسم التحرج عن ذلك ورع الصالحين وهو في الدرجة الثانية .

الثالثة : مالا تحزمه الفتوى ولا شبهة في حله ، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم ، وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس ، وهذا ورع المتقين . قال صلى الله عليه وسلم ، لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس ^(١) .

الرابعة : مالا بأس به أصلا ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس ، ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التقوى به على عبادة الله ، أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية ، والامتناع منه ورع الصديقين ، فهذه درجات الحلال جملة إلى أن نفصلها بالأمثلة والشواهد .

وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى وهو الذي يشترط التورع عنه في العدالة وإطراح سمة الفسق ، فهو أيضا على درجات في الخبث ، فالأخوذ بعقد فاسد كالمعاطاة مثلا فيا لا يجوز فيه المعاطاة حرام ، ولكن ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر ، بل المغصوب أغلظ ، إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب وإيذاء الغير ،

(١) حديث « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس » رواه ابن ماجه ، وقد تقدم .

وليس في المعاطاة إبداء ، وإنما فيه ترك طريق التعبد فقط ، ثم ترك طريق التعبد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا ، وهذا التفاوت يدرك بتشديد الشرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي ، على ما سيأتي في كتاب التوبة عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة ، بل المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو من يتيم أخبث وأعظم من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق ، لأن درجات الإبداء تختلف باختلاف درجات المؤذي ، فهذه دقائق في تفاصيل الخبائث لا ينبغي أن يذهل عنها ، فلولا اختلاف درجات العصاة لما اختلفت درجات النار وإذا عرفت مئارات التغليظ فلا حاجة إلى حصره في ثلاث درجات أو أربعة ، فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشهي ، وهو طلب حصر فيما لا حصر له ، ويدل على اختلاف درجات الحرام في الحبث ما سيأتي في تعارض المخدورات وترجيح بعضها على بعض ، حتى إذا اضطر إلى أكل ميتة أو أكل طعام الغير أو أكل صيد الحرم فإننا نقدم بعض هذا على بعض .

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدهما

أما الدرجة الأولى : وهي ورع العدول ، فكل ما اقتضى الفتوى تحريمه بما يدخل في المداخل الستة التي ذكرناها من مداخل الحرام لفقد شرط من الشروط ، فهو الحرام المطلق الذي ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية ، وهو الذي نريده بالحرام المطلق ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد .

وأما الدرجة الثانية : فأمثلتها : كل شبهة لا توجب اجتنابها ولكن يستجب اجتنابها كما سيأتي في باب الشبهات إذ من الشبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام ، ومنها ما يكره اجتنابها فالورع عنها ورع الموسوسين ، كمن يتمتع من الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه ، وهذا وسواس . ومنها ما يستحب اجتنابها ولا يجب وهو الذي ينزل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريك إلى مالا يريك »^(١) ، ونحمله على نهى التنزيه ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كل ما أصميت ودع ما أنميت »^(٢) ، والإيماء : أن يجرى الصيد فيغيب عنه ثم يدركه ميتاً ، إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، والذي نختاره كما سيأتي : أن هذا ليس بحرام ولكن تركه من ورع الصالحين . وقوله « دع ما يريك » أمر تنزيه ، إذ ورد في بعض الروايات « كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثراً غير سهمك » ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في السكب المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ، على سبيل التنزيه لأجل الخوف . إذ قال لأبي ثعلبة الخشني « كل منه » فقال : وإن أكل منه ؟ فقال « وإن أكل »^(٣) ، وذلك لأن حالة أبي ثعلبة وهو فقير مكتسب لا تحتمل هذا الورع ، وحال عدي كان يحتمله . يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء ، مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به ، فأمثله هذه الدرجة نذكرها في التعرض لدرجات الشبهة فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة

أما الدرجة الثالثة : وهي ورع المتقين ، فيشهد لها قوله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس » وقال عمر رضي الله عنه . كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن تقع في الحرام .

(١) حديث « دع ما يريك إلى مالا يريك » أخرجه النسائي والترمذي والحاكم وصحاحه من حديث الحسن بن علي .
(٢) حديث « كل ما أصميت ودع ما أنميت » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس والبيهقي موقوفاً عليه ، وقال : لن المرفوع ضعيف .
(٣) حديث قال لأبي ثعلبة « كل منه » ؟ فقال : « وإن أكل » ؟ قال : « وإن أكل » . رواه أبو داود من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ومن حديث أبي ثعلبة أيضاً مختصراً وإسنادهما جيد ، والبيهقي موقوفاً عليه وقال : لن المرفوع ضعيف .

وقيل : إن هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال أبو الدرداء : إن من تمام التقوى أن يتقى العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار ، ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان ، فحملها إليه ، فأخذ تسعة وتسعين وتورع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة . وكان بعضهم يتحزرن ، فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة ، ليكون ذلك حاجزا من النار ، ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتساع به الناس ، فإن ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجس إلى غيره وتآلف النفس الاسترسال وترك الورع : فمن ذلك ما روى عن علي بن معبد أنه قال : كنت ساكنا في بيت بكراء ، فكتبت كتابا وأردت أن آخذ من تراب الحائط لأتربه وأجففه ، ثم قلت : الحائط ليس لي ، فقالت لي نفسي : وما قدر تراب من حائط ، فأخذت من التراب حاجتي ، فلما نمت فإذا أنا بشخص واقف يقول : يا علي بن معبد ، سيعلم غدا الذي يقول : وما قدر تراب من حائط ، ولعل معنى ذلك أنه يرى كيف يحط من منزلته ، فإن للتقوى درجة تقوت بفوات ورع المتقين ، وليس المراد به أن يستحق عقوبة على فعله . ومن ذلك ما روى أن عمر رضى الله عنه وصله مسك من البحرين فقال : وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت امرأته عاتكة : أنا أجيد الوزن فسكت عنها ، ثم أعاد القول فأعادت الجواب ، فقال : لا أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين . وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين . فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال : وهل ينتفع منه إلا بريحه لما استبعد ذلك منه . وأخذ الحسن رضى الله عنه تمر من تمر الصدقة وكان صغيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كخ كخ »^(١) ، أى ألقها . ومن ذلك ما روى بعضهم أنه كان عند محتضر ، فأتى ليلا فقال : أطفئوا السراج قد حدث للورثة حق في الدهن . وروى سليمان التيمي عن نعيمة العطاراة قالت : كان عمر رضى الله عنه يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين لتبيعه ، فباعته طيباً فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكسر بأبنائها ، فتعلق بأصبعها شيء منه فقالت به هكذا بأصبعها ، ثم مسحته بخارها فدخل عمر رضى الله عنه فقال : ماهذه الرائحة ؟ فأخبرته فقال : طيب المسلمين تأخذينه ، فانتزع الخمار من رأسها وأخذ حبة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه في التراب ويشمه ، حتى لم يبق له ريح ، قالت : ثم أتيتها مرة أخرى فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها ، فأدخلت أصبعها فيها ثم مسحته به التراب ، فهذا من عمر رضى الله عنه ورع التقوى ، لحوف أداء ذلك إلى غيره ، وإلا ففسل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين ، ولكن أثلغه عليها زجرا وردعا واتقاء من أن يتعدى الأمر إلى غيره . ومن ذلك ما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في المسجد يحمل بحمزة لبعض السلاطين ويبخر المسجد بالعود فقال : ينبغي أن يخرج من المسجد ، فإنه لا ينتفع من العود إلا برائحته ، وهذا قد يقارب الحرام ، فإن القدر الذي يعبق بثوبه من رائحة الطيب قد يقصد وقد ييخل به ، فلا يدري أنه يتساع به أم لا . وسئل أحمد بن حنبل عن سقطت منه ورقة فيها أحاديث ، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردّها ؟ فقال : لا بل يستأذن ثم يكتب ، وهذا أيضا قد يشك في أن صاحبها هل يرضى به أم لا ، فإما هو في محل الشك والأصل تحريره فهو حرام ، وتركه من الدرجة الأولى . ومن ذلك التورع عن الزينة لأنه يخاف أن تدعو إلى غيرها - وإن كانت الزينة مباحة في نفسها . وقد سئل أحمد بن حنبل عن التعمال السبئية فقال : أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو ، وأما من أراد الزينة فلا ، ومن ذلك أن عمر

(١) حديث : أخذ الحسن بن علي تمر من الصدقة وكان صغيراً فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كخ كخ » ألقها ، أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

رضي الله عنه لما ولى الخلافة كانت له زوجة يحبها ، فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعه في باطل فيطيعها ويطلب رضاها ، وهذا من ترك ما لا بأس به مخافة مما به البأس : أى مخافة من أن يفضى إليه ، وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات ، حتى استكثر الأكل واستعمال الطيب للمتعزب فإنه يحرك الشهوة ، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر ، والفكر يدعو إلى النظر ، والنظر يدعو إلى غيره ، وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم ، مباح في نفسه ولكن يبيح الحرص ويدعو إلى طلب مثله ، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل في تحصيله ، وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرز من غوائلها بالمعرفة أولاً ثم بالحذر ثانياً ، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر ، وكذا كل ما أخذ بالشهوة فقلما يخلو عن خطر ، حتى كره أحد بن حنبل تجصيص الحيطان وقال : أما تجصيص الأرض فيمنع التراب ، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه ، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها ، واستدل بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل أن يكحل المسجد ، فقال « لا ، عريش كعريش موسى ^(١) » ، وإنما هو شيء مثل الكحل يطلى به ، فلم يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا : من رق ثوبه رق دينه ، وكل ذلك خوفاً من سريان اتباع الشهوات في المباحات إلى غيرها ، فإن المحذور والمباح تشبيهما النفس بشهوة واحدة ، وإذا تعودت الشهوة المسامحة استرسلت ، فافتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله ، فكل حلال انفك عن مثل هذه المخافة فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة ، وهو كل ما لا يخاف أداؤه إلى معصية ألبته .

أما الدرجة الرابعة : وهو ورع الصديقين ، فالحلال عندهم كل ما لا يتقدم في أسبابه معصية ولا يستعان به على معصية ولا يقصد منه في الحال المال قضاء وطر ، بل يتناول الله تعالى فقط وللتقوى على عبادته واستبقاء الحياة لأجله ، وهؤلاء هم الذين يرون كل ما ليس لله حراماً ، امثالاً لقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وهذه رتبة الموحدين المتجردين عن حظوظ أنفسهم ، المنفردين لله تعالى بالقصد ، ولا شك في أن من يتورع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتورع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية : فمن ذلك ما روى عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء ، فقالت له امرأته : لوتمشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء ، فقال . هذه مشية لا أعرفها ، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة ، فكانه لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين ، فلم يجز الإقدام عليها . وعن سري رحمه الله أنه قال : انتهيت إلى حشيش في جبل وماء يخرج منه ، فتناولت من الحشيش وشربت من الماء ، وقلت في نفسي : إن كنت قد أكلت يوماً حلالاً طيباً فهو هذا اليوم ، فهتف بي هاتف : إن القوة التي أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هي ؟ فرجعت وندمت . ومن هذا ما روى عن ذى النون المصري أنه كان جائعاً مجبوساً ، فبعثت إليه امرأة صالحة طعاماً على يد السجان ، فلم يأكل ، ثم اعتذر وقال : جاءني على طبق ظالم ، يعنى أن القوة التي أوصلت الطعام إلى لم تكن طيبة ، وهذه الغاية القصوى في الورع . ومن ذلك أن بشراً رحمه الله كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء ، فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه وإن كان الماء مباحاً في نفسه فيكون كالمستفيع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء وقد أعطوا الأجرة من الحرام ؛ ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال ، وقال لصاحبه . أفسدته إذ سقيته من الماء الذي يجري في النهر الذي حفرته الظلمة ، وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء ، لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء . وكان بعضهم إذا مر في طريق الحج لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة ، مع أن الماء مباح ، ولكنه بقي محفوظاً

(١) حديث : أنه سئل أن يكحل المسجد فقال « لا ، عريش كعريش موسى » أخرجه المارغلاني في الأفراد من حديث

أبي برداء وقال : غريب .

بالمصنع الذي عمل به بمال حرام ، فكأنه انتفاع به . وامتناع ذى النون من تناول الطعام من يد السجناء أعظم من هذا كله ؛ لأن يد السجناء لا توصف بأنها حرام ، بخلاف الطبق المغصوب إذا حل عليه ، ولكنه وصل إليه بقوة اكتسبت بالغذاء الحرام ، ولذلك تقياً الصديق رضى الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة مع أنه شربه عن جهل ، وكان لا يجب إخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين ، ومن ذلك ؛ التورع من كسب حلال اكتسبه خياط يخطط في المسجد ؛ فإن أحمد رحمه الله كره جلوس الخياط في المسجد . وسئل عن المغازلي يجلس في قبة في المقابر في وقت يخاف من المطر ؛ فقال : إنما هي من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها . وأطفاً بعضهم سراجاً أسرجه غلامه من قوم يكره ما لهم . وامتنع من تسجير تنور للخبز وقد بقى فيه جمر من حطب مكروه . وامتنع بعضهم من أن يحكم شمع نعله في مشعل السلطان ، فهذه دقائق الورع عند سالكى طريق الآخرة

والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرّمته الفتوى وهو ورع العدول وله غاية وهو ورع الصديقين ، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه ، أو اتصل بسببه مكروه وبينهما درجات في الاحتياط ، فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأسرع جوازاً على الصراط ، وأبعد عن أن ترجع كفة سيئاته على كفة حسناته ، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع ، كما تتفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبث ، وإذا علت حقيقة الأمر فالإليك الخيار ، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط ، وإن شئت فرخص فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص ، والسلام .

الباب الثانى : فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالأهوى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ^(١) ، فهذا الحديث نص فى إثبات الأقسام الثلاثة ، والمشكل منها القسم المتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة ، فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها ، فإنّ ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل ، فنقول :

الحلال المطلق : هو الذى خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه ، وانحل عن أسبابه ما تطرق إليه تحريم أو كراهية ، ومثاله الماء الذى يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد يكون هو واقفاً عند جمعه وأخذه من الهواء فى ملك نفسه أو فى أرض مباحة .

والحرام المحض : هو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها ، كالشدة المطربة فى الخمر ، والنجاسة فى البول . أو حصل بسبب منهى عنه قطعاً كالحصل بالظلم والربا ونظائره ؛ فهذان طرفان ظاهران ، ويلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكنه احتمل تغيره ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه ؛ فإنّ صيد البر والبحر حلال ؛ ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم افلتت منه ، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد بعد وقوعه فى يده وخريطته ؛ فثل هذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء ، ولكنه فى معنى ماء المطر ،

الباب الثانى : فى مراتب الشبهات

(١) حديث « الحلال بين والحرام بين ... الحديث » متفق عليه من حديث الثمان بن بشر .

والاحتراز منه وسواس ، ولنفس هذا الفن ورع الموسوسين ، حتى تلتحق به أمثاله وذلك لأن هذا وهم مجرد لادلالة عليه ، نعم لو دل عليه دليل : فإن كان قاطعاً كما لو وجد حلقة في أذن السمكة ، أو كان محتماً كما لو وجد على الظبية جراحة يحتمل أن يكون كيا لا يقدر عليه إلا بعد الضبط . ويحتمل أن يكون جرحاً ، فهذا موضع الورع ، وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتمال المعدوم دلالة كالأحتمال المعدوم في نفسه ، ومن هذا الجنس من يستعير داراً فيغيب عنه المعير فيخرج ويقول : لعله مات وصار الحق للوارث ؛ فهذا وسواس إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك إذ الشبهة المحذورة ما تنشأ من الشك ، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشأ عن سببين ، فما لاسبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوى العقد المقابل له فيصير شكاً ، ولهذا نقول : من شك أنه صلى ثلاثاً أو أربعاً أخذ بالثلاث إذ الأصل عدم الزيادة . ولو سئل إنسان أن صلاة الظهر التي أداها قبل هذا بعشر سنين كانت ثلاثاً أو أربعاً لم يتحقق قطعاً أنها أربعة ، وإذا لم يقطع جواز أن تكون ثلاثة ، وهذا التجويز لا يكون شكاً ، إذ لم يحضره سبب أوجب اعتقاد كونها ثلاثاً ، فلتفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه الوهم والتجويز بغير سبب فهذا يلتحق بالحلال المطلق . ويلتحق بالحرام المحض ما يتحقق تحريمه وإن أمكن طريان محلل ولكن لم يدل عليه سبب ، كمن في يد طعام لمورثه الذي لا وارث له سواء ، فغاب عنه فقال : يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك إلى فأأكله ، فأقدمه عليه لإقدام على حرام محض ، لأنه احتمال لامستند له ، فلا يلغى أن يعد هذا النمط من أقسام الشبهات ، وإنما الشبهة لغنى بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين . ومثارات الشبهة خمسة :

المثارات الأول : الشك في السبب المحلل والمحرم

وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلاً ، أو غلب أحد الاحتمالين ، فإن تعادل الاحتمالين كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك ، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب ، ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد ، فلنقسمه إلى أقسام أربعة :

القسم الأول : أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل ، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الإقدام عليها . مثاله أن يرى إلى صيد فيجرحه ويقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدري أنه مات بالفرق أو بالجرح ، فهذا حرام لأن الأصل التحريم ، إلا إذا مات بطريق معين وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك ، كما في الأحداث والنجاسات وركعات الصلاة وغيرها ، وعلى هذا ينزل قوله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم « لا تأكله فلعله قتله غيرك » (١) ، فلذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هدية سأل عنه حتى يعلم أيهما هو (٢) . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أرق ليلة فقالت له بعض نسائه : أرق يا رسول الله ، فقال : أجل ، وجدت ثمرة غشيت أن تكون من الصدقة » (٣) ، وفي رواية « فأكلتها غشيت أن تكون من الصدقة ، ومن ذلك ما روى عن بعضهم أنه قال : « كنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع ، فزئنا منزلاً

(١) حديث « لا تأكله فلعله قتله غيرك » قال لمدى بن حاتم متفق عليه من حديثه . (٢) حديث « كان إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هبة يسأل عنه » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٣) حديث : « أنه أرق ليلة فقال له بعض نسائه . أرق يا رسول الله ! فقال : « أجل ، وجدت ثمرة غشيت أن تكون من الصدقة » أخرجه أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن .

كثير الضباب فيينا القدور تغلى بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة مسخت من بني إسرائيل أخشى أن تكون هذه ، فأكفأنا القدور ^(١) ، ثم أعله الله بعد ذلك أنه لم يمسح الله خلقا فجعل له نسلا ^(٢) . وكان امتناعه أولا لأن الأصل عدم الحل وشك في كون الذبح محلا .

القسم الثاني أن يعرف الحل ويشك في المحرم ، فالأصل الحل وله الحكم . كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر ، فقال أحدهما : إن كان هذا غرابا فامرأتى طالق ، وقال الآخر : إن لم يكن غرابا فامرأتى طالق . والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم في واحدة منهما ولا يلزمهما اجتنابهما ، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما حتى يحلا لسائر الأزواج ، وقد أمر مكحول بالاجتناب في هذه المسئلة ، وأقوى الشعبي بالاجتناب في رجلين كانا قد تازعا ، فقال أحدهما للآخر : أنت حسود ، فقال الآخر : أحسدنا زوجته طالق ثلاثا ، فقال الآخر : نعم ، وأشكل الأمر ، وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح ، وإن أراد التحريم المحقق فلا وجه له ، إذ ثبت في المياه والنجاسات والأحداث والصلوات أن اليقين لا يجب تركه بالشك ، وهذا في معناه .

• فإن قلت : وأى مناسبة بين هذا وبين ذلك ؟ فاعلم أنه لا يحتاج إلى المناسبة ، فإنه لازم من غير ذلك في بعض الصور ، فإنه مهما تيقن طهارة الماء ثم شك في نجاسته جاز له أن يتوضأ به ، فكيف لا يجوز أن يشربه ؟ وإذا جوز الشرب فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك ، إلا أنه هنا دقيقة : وهو أن وزان الماء أن يشك في أنه طلق زوجته أم لا ؟ فيقال : الأصل أنه مطلق ووزان مسألة الطائر أن يتحقق نجاسة أحد الإنامين ويشكبه عينه ؛ فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد ، لأنه قابل يقين النجاسة ييقين الطهارة فيبطل الاستصحاب ، فكذلك ههنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجين قطعا ، والتبس عين المطلقة بغير المطلقة ، فنقول : اختلف أصحاب الشافعي في الإنامين على ثلاثة أوجه ، فقال قوم : يستصحب بغير اجتهاد ، وقال قوم : بعد حصول يقين النجاسة في مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب ولا يفتى الاجتهاد . وقال المقتصدون : يجتهد وهو الصحيح ، ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول إن كان غرابا فزيت طالق ، وإن لم يكن فعمرة طالق ، فلا جرم لا يجوز له غشيانها بالاستصحاب ولا يجوز الاجتهاد ، إذ لا علامة ، ونحوهما عليه لأنه لو وطئها كان مقتحما للحرام قطعا ، وإن وطئ إحداها وقال : أقصر على هذه ، كان متحكما بتعيينها من غير ترجيح . ففي هذا افتراق حكم شخص واحد أو شخصين ، لأن التحريم على شخص واحد متحقق ، بخلاف الشخصين . إذ كل واحد شك في التحريم في حق نفسه .

فإن قيل : فلو كان الإنامان لشخصين فينبغي أن يستغنى عن الاجتهاد ويتوضأ كل واحد بإيمانه لأنه تيقن طهارته وقد شك الآن فيه ، فنقول . هذا محتمل في الفقه والأرجح في ظني المنع ، وإن تعدد الشخصين ههنا كاتحاده ، لأن صحة الوضوء لا تستدعي ملكا ، بل وضوء الإنسان بماء غيره في رفع الحدث كوضوئه بماء نفسه ، فلا يتبين لاختلاف الملك واتحاده أثر ، بخلاف الوطء لزوجة الغير فإنه لا يحل ، ولأن للعلامات مدخلا في النجاسات ، والاجتهاد فيه ممكن بخلاف الطلاق ، فوجب تقوية الاستصحاب بعلامة ليدفع بها قوة يقين النجاسة المقابلة ليقين الطهارة ، وأبواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه ، وقد استقصيناها في كتب الفقه ، ولنا نقصد الآن إلا التنبيه على قواعدها .

(١) حديث : كما في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بنا الموع ، فقلنا مزالا كثير الضباب ، فبنا القدور تغلى بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة من بني إسرائيل مسخت فأخاف أن تكون هذه » فأكفأنا القدور . أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث عبد الرحمن وحسنه . وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه حديث ثابت بن زيد نحوه مع اختلاف قال البخاري : وحديث ثابت أصح . (٢) حديث : أنه لم يمسح الله خلقا فجعل له نسلا . أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

القسم الثالث : أن يكون الأصل التحريم ، ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب ، فهو مشكوك فيه ، والغالب حله ؛ فهذا ينظر فيه ؛ فإن استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا فالذى نختار فيه أنه يحل ، واجتنابه من الورع . مثاله : أن يرى إلى صيد فيغيب ثم يدركه ميتا وليس عليه أثر سوى سهمه ، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، فإن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالقسم الأول . وقد اختلف قول الشافعى رحمه الله في هذا القسم ، واختار أنه حلال ، لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق ، والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه ، فطريانه مشكوك فيه ، فلا يدع اليقين بالشك .

فإن قيل : فقد قال ابن عباس : كل ما أصميت ودغ ما أنميت . وروى عائشة رضى الله عنها : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتى عرفت فيها سهمى ، فقال « أصميت أو أنميت ؟ » فقال : بل أنميت ، قال « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذى خلقه ، فلعله أعان على قتله شيء ^(١) » ، وكذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم في كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل ، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ^(٢) » ، والغالب أن السكب المعلم لا يسمى خلقه ولا يمسك إلا على صاحبه ، ومع ذلك نهى عنه ، وهذا التحقيق : وهو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب ، وتمام السبب بأن يفضى إلى الموت سليما من طريان غيره عليه ، وقد شك فيه فهو شك في تمام السبب حتى اشتبه أن موته على الحل أو على الحرمة ، فلا يكون هذا في معنى ما تحقق موته على الحل في ساعته ثم شك فيما يطرأ عليه . فالجواب : أن نهى ابن عباس ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمول على الورع والتزيه ، بدليل ما روى في بعض الروايات أنه قال « كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثرا غير سهمك ^(٣) » ، وهذا تنبيه على المعنى الذى ذكرناه : وهو أنه إن وجد أثرا آخر فقد تعارض السببان بتعارض الظن ، وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة الظن فيحكم به على الاستصحاب ، كما يحكم على الاستصحاب بخبر الواحد والقياس المظنون والعمومات المظنونة وغيرها . وأما قول القائل : إنه لم يتحقق موته على الحل في ساعة فيكون شكا في السبب فليس كذلك ، بل السبب قد تحقق ، إذ الجرح سبب الموت ، فطريان الغير شك فيه ، ويدل على صحة هذا : الإجماع ، على أن من جرح وغاب فوجد ميتا فيجب القصاص على جرحه ، بل إن لم يغيب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط في باطنه ، كما يموت الإنسان لجأة ، فينبغى أن لا يجب القصاص إلا بحر الرقبة والجرح المذنف ، لأن العلل القاتلة في الباطن لا تؤمن ، ولأجلها يموت الصحيح لجأة ، ولا قاتل بذلك ، مع أن القصاص مبناه على الشبهة ، وكذلك جنين المذكاة حلال ، ولعله مات قبل ذبح الأصل لا بسبب ذبحه أو لم ينفخ فيه الروح ، وغزة الجنين تجب ، ولعل الروح لم ينفخ فيه ، أو كان قد مات قبل الجنابة بسبب آخر ، ولكن يبنى على الأسباب الظاهرة ، فإن الاحتمال الآخر إذا لم يستند إلى دلالة تدل عليه التحق بالوهم والوسواس كما ذكرناه ، فكذلك هذا . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ، فللشافعى رحمه الله

(١) حديث عائشة أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتى عرفت فيها سهمى ، فقال « أصميت أو أنميت ؟ » قال : بل أنميت . قال « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذى خلقه لعله أعان على قتله شيء » . ليس هذا من حديث عائشة ، وإنما رواه موسى بن أبى عائشة عن أبى رزین قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعيد فقال : لني رميته من الليل فأعياني ، ووجدت سهمى فيه من الند وعرفت سهمى ؟ فقال « الليل خلق من خلق الله عظيم ، لعله أعانك عليها شيء » . رواه أبو داود في المراسيل ، والبيهقى وقال : أبو رزین اسمه مسعود . والحديث مرسل ، قال البخارى . (٢) حديث : قال لعدى في كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه » . متفق عليه من حديثه . (٣) حديث « كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثر سهم غيرك » . متفق عليه من حديث عدى بن حاتم .

في هذه الصورة قولان ، والذي نختاره الحكم بالتحريم : لأن السبب قد تعارض ، إذ السبب المعلم كالألة والوكيل يسلك على صاحبه فيحل ، ولو استرسل المعلم بنفسه فأخذ ، لم يحل ؛ لأنه يتصور منه أن يصطاد لنفسه ، ومهما نبعت بإشارته ثم أكل دل ابتداء انبعاثه على أنه نازل منزلة آله وأنه يسعى في وكالته ونيابته ، ودل أكله آخر على أنه أمسك لنفسه لالصاحبه ، فقد تعارض السبب الدال فيتعارض الاحتمال ، والأصل التحريم فيستصحب ، ولا يزال بالشك ، وهو كالو وكل رجلا بأن يشتري له جارية فأشترى جارية ومات قبل أن يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله يحل للموكل وطؤها ، لأن للوكيل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعا ، ولا دليل مرجح والأصل التحريم ؛ فهذا يلحق بالقسم الأول لا بالقسم الثالث .

القسم الرابع : أن يكون الحل معلوما ولكن يندب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعا ، فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم ، إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن ، ومثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتقاد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما أوجبت منع الوضوء به ، وكذا إذا قال : إن قتل زيد عمرأ أو قتل زيد صيدا منفردا بقتله فامرأى طالق فخرجه وغاب عنه فوجد ميتا : حرمت زوجته ، لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق ، وقد نص الشافعي رحمه الله أن من وجد في الغدران ماء متغيرا احتمل أن يكون تغيره بطول المكث أو بالنجاسة فيستعمله ، ولو رأى ظبية بالت فيه ثم وجده متغيرا واحتمل أن يكون بالبول أو بطول المكث لم يحز استعماله ، إذ صار البول المشاهد دلالة مغلبة لاحتمال النجاسة وهو مثال ما ذكرناه وهذا في غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشيء ، فأما غلبة الظن لامن جهة علامة تتعلق بعين الشيء فقد اختلف قول الشافعي رضي الله عنه في أن أصل الحل هل يزال به إذا اختلف قوله في التوضؤ من أواني المشركين ، ومدمن الخمر والصلاة في المقابر المنبوشة والصلاة مع طين الشوارع ، أعنى المقدار الزائد على ما يتعذر الاحتراز عنه ، وعبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأيهما يعتبر ، وهذا جار في حل الشرب من أواني مدمن الخمر والمشركين ، لأن النجس لا يحل شربه ، فإذا أخذ النجاسة والحل واحد ، فالتردد في أحدهما يوجب التردد في الآخر ، والذي أختاره أن الأصل هو المعتبر ، وأن العلامة إذا لم تتعلق بعين المتناول لم توجب رفع الأصل ، وسيأتى بيان ذلك وبرهانه في المثار الثاني للشبهة وهي شبهة الخلط ، فقد اتضح من هذا حكم حلال شك في طريان محرم عليه أو ظن ، وحكم حرام شك في طريان محال عليه أو ظن ، وبان الفرق بين ظن يستند إلى علامة في عين الشيء وبين ما لا يستند إليه ، وكل ما حكنا في هذه الأقسام الأربعة بحله فهو حلال في الدرجة الأولى والاحتياط تركه ، فالمقدم عليه لا يكون من زمرة المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقضى في فتوى الشرع بنسبهم وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة ، إلا ما ألحقناه برتبة الوسواس فإن الاحتراز عنه ليس من الورع أصلا .

المثار الثاني للشبهة : شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشبه الأمر ولا يتميز ، والخلط لا يخلو : إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانبين أو من أحدهما ، أو بعدد محصور ، فإن اختلط بمحصور فلا يخلو : إما أن يكون اختلاط امتزاج بحيث لا يتميز بالإشارة كاختلاط المائعات . أو يكون اختلاط استبهاام مع التميز للأعيان كاختلاط الأعدب والدور والأفراس ، واندى يختلط بالاستبهاام فلا يخلو : إما أن يكون مما يقصد عينه كالعروض ، أولا يقصد كالنقود ،

فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن تستقيم العين بعدد محصور ، كما لو اختلطت الميتة بمذكاة أو بعشر مذكيات ، أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة ، أو يتزوج إحدى الأختين ثم تلتبس ، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع ، لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا ، وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد ، فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل ، ولا فرق في هذا بين أن يثبت حل فيطراً اختلاطاً بمحرم ، كما لو أوقع الطلاق على إحدى زوجتين في مسألة الطائر ، أو يختلط قبل الاستحلال كما لو اختلطت رضيعة بأجنبية فأراد استحلال واحدة ، وهذا قد يشكل في طريان التحريم كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب . وقد نهينا على وجه الجواب : وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فضعف الاستصحاب وجانب الحظر أغلب في نظر الشرع ، فلذلك ترجع ، وهذا إذا اختلط حلال محصور بحرام محصور . فإن اختلط حلال محصور بحرام غير محصور ، فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى .

القسم الثاني : حرام محصور بحلال غير محصور ، كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح نساء أهل البلد ، بل له أن ينكح من شاء منهن ، وهذا لا يجوز أن يعمل بكثرة الحلال ، إذ يلزم عليه أن يجوز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال ولا قائل به ، بل العله الغلبة والحاجة جميعاً ، إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يستد عليه باب النكاح ، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل ؛ فإن ذلك حرج ، ومافى الدين من حرج . ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بجن (١) وغل واحد في الغنيمة عبادة (٢) ، لم يمتنع أحد من شراء المجان والعباء في الدنيا ، وكذلك كل ماسرق ، وكذلك كان يعرف أن في الناس من يربي في الدراهم والدنانير . وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم والدنانير بالكلية (٣) . وبالجملة إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصي ، وهو محال . وإذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين ، بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين ، إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ، ولا يتصور الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار .

• فإن قلت : فكل عدد محصور في علم الله ، فما حد المحصور ؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضاً إن تمكن منه • فاعلم أن تحديد أمثال هذه الأمور غير ممكن ، وإنما يضبط بالتقريب . فنقول : كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عدم بمجرد النظر ، كالألف والالفين فهو غير محصور ، وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور ، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن ، وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب ، فإن الإثم حراز القلوب . وفي مثل هذا المقام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ابصرت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك (٤) ، وكذا الأقسام الأربعة التي ذكرناها في المثال الأول يقع فيها أطراف متقابلة واضحة في النفي والإثبات وأوساط متشابهة ، فالمتقى يفتى بالظن ، وعلى المستفتى أن يستفتى

(١) حديث سرقه الجن في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقاً في جن قيمته ثلاثة دراهم . (٢) حديث « غل واحد من الغنائم عبادة » رواه البخاري من حديث عبد الله ابن عمر ، واسم النال : كركرة . (٣) حديث : إن في الناس من كان يربي في الدراهم والدنانير ، وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم بالكلية ، هذا معروف ، وسيأتي حديث جابر بعده بحديث . وهو يدل على ذلك . (٤) حديث « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك » قاله لو ابصرت قلبك .

قلبه ، فإن حاك في صدره شيء فهو الإثم بينه وبين الله ، فلا ينجيه في الآخرة فتوى المفتي ، فإنه يفتى بالظاهر والله يتولى السرائر .

القسم الثالث : أن يختلط حرام لا يحصر بجلال لا يحصر ، تحكم الأموال في زماننا هذا ، فالذى يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور ، وقد حكمتنا ثم بالتحريم ، فلنحكم منابه : والذى نختاره خلاف ذلك : وهو أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمال أنه حرام وأنه حلال ، إلا أن يقرن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام ، فإن لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام فتوركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله : ومن العلامات : أن يأخذه من يد سلطان ظالم ، إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتى ذكرها ، ويدل عليه الأثر والقياس ، فأما الأثر . فما علم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده ، إذ كانت أثمان الخور ودرهم الربا من أيدي أهل الذمة مختلطة بالأموال ، وكذا غلول الأموال ، وكذا غلول الغنيمة ، ومن الوقت الذي نهى صلى الله عليه وسلم عن الربا إذ قال « أول ربا أضعه ربا العباس »^(١) ، ماترك الناس الربا بأجمعهم كما لم يتركوا شرب الخور وسائر المعاصي ، حتى روى أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باع الخمر ، فقال عمر رضى الله عنه . لعن الله فلانا هو أول من سن بيع الخمر ، إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لثمنها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يجر في النار عبادة قد غلها »^(٢) ، وقتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خمرات من خمر اليهود لا تساوي درهمين قد غلها^(٣) ، وكذلك أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة ولم يمتنع أحد منهم عن الشراء والبيع في السوق بسبب نهب المدينة وقد نهبها أصحاب يزيد ثلاثة أيام ، وكان من يمتنع من تلك الأموال مشارا إليه في الورع ، والأكثرون لم يمتنعوا مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة في أيام الظلمة . ومن أوجب مالم يوجب السلف الصالح وزعم أنه تفتن من الشر مالم يتفتنوا له فهو موسوس تحتل العقل ولو جاز أن يزداد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم « إن الجدة كالأم في التحريم وابن الابن كالابن وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن ، والربا جار فيما عدا الأشياء الستة . وذلك محال فإنهم أولى بفهم الشرع من غيرهم . وأما القياس فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسدت باب جميع التصرفات وخرب العالم إذ الفسق يغلب على الناس ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود ويؤدى ذلك لاحتالة إلى الاختلاط .

« فإن قيل . فقد نقلتم أنه صلى الله عليه وسلم امتنع من الضب وقال « أخشى أن يكون مما مسخه الله » وهو في اختلاط غير المحصور ؟ قلنا يحمل ذلك على التنزه والورع أو نقول الضب شكل غريب ربما يدل على أنه من المسخ فهي دلالة في عين المتناول .

« فإن قيل هذا معلوم في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة بسبب الربا والمرقة والنهب وغلول الغنيمة وغيرها ولكن كانت هي الأقل بالإضافة إلى الحلال فإذا تقول في زماننا وقد صار الحرام أكثر مافى أيدي الناس لفساد المعاملات وإهمال شروطها وكثرة الربا وأموال السلاطين الظلمة ، فنأخذ مالا لم يشهد

(١) حديث « أول ربا أضعه ربا العباس » أخرجه مسلم من حديث جابر .

(٢) حديث « إن فلانا في النار يجر عبادة قد غلها » رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر ، وتقدم قبله بثلاثة أحاديث .

(٣) حديث : قتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خمرات من خمر اليهود لا تساوي درهمين قد غلها . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهني .

عليه علامة معينة في عينه للتحريم فهل هو حرام أم لا ؟ فأقول ليس ذلك حراما وإنما الورع تركه وهذا الورع أهم من الورع إذا كان قليلا .

ولكن الجواب عن هذا أن قول القائل أكثر الأموال حرام في زماننا غلط محض ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والأكثر فأكثر الناس بل أكثر الفقهاء يظنون أن ماليس بنادر فهو الأكثر ويتوهمون أنهما قسمان متقابلان ليس بينهما ثالث وليس كذلك بل الأقسام ثلاثة قليل وهو النادر وكثير وأكثر ومثاله أن الخنثى فيما بين الخلق نادر وإذا أضيف إليه المريض وجد كثيرا وكذا السفر حتى يقال المرض والسفر من الأعذار العامة والاستحاضة من الأعذار النادرة ، ومعلوم أن المرض ليس بنادر وليس بالأكثر أيضاً بل هو كثير . والفقير إذا تساهل وقال المرض والسفر غالب وهو عذر عام أراد به أنه ليس بنادر فإن لم يرد هذا فهو غلط والصحيح والمقيم هو الأكثر والمسافر والمريض كثير والمستحاضة والخنثى نادر . فإذا فهم هذا فنقول : قول القائل الحرام أكثر باطل لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلة والجندية أو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة أو كثرة الأيدي التي تكررت من أول الإسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم . أما المستند الأول فباطل فإن الظالم كثير وليس هو بالأكثر فإنهم الجندية إذ لا يظلم إلا ذو غلبة وشوكة وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشرين ، فكل سلطان يجتمع عليه من الجنود مائة ألف مثلاً فيملك إقليماً يجمع ألف ألف وزيادة ولعل بلدة واحدة من بلاد مملكته يزيد عددها على جميع عسكره ، ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لهلك الكل إذ كان يجب على كل واحد من الرعية أن يقوم بعشرة منهم مثلاً مع تنعمهم في المعيشة ولا يتصور ذلك بل كفاية الواحد كان منهم تجمع من ألف من الرعية وزيادة ، وكذا القول في السراق فإن البلدة الكبيرة تشتمل منهم على قدر قليل . وأما المستند الثاني وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة فهي أيضاً كثيرة وليست بالأكثر إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع فعدد هؤلاء أكثر والذي يعامل بالربا أو غيره فلو عدت معاملاته وحده لكان عدد الصحيح منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الإنسان بوجهه في البلد مخصوصاً بالمجانة والخبث وقلة الدين حتى يتصور أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر ، ومثل ذلك المخصوص نادر وإن كان كثيراً فليس بالأكثر لو كان كل معاملاته فاسدة كيف ولا يخلو هو أيضاً عن معاملات صحيحة تساوى الفاسدة أو تزيد عليها وهذا مقطوع به لمن تأمله وإنما غلب هذا على النفوس لاستكثار النفوس الفساد واستبعادها إياه واستعظامها له وإن كان نادراً حتى ربما يظن أن الربا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام فيتخيل أنهم الأكثرون وهو خطأ فإنهم الأقلون وإن كان فيهم كثرة . وأما المستند الثالث وهو أخيلها أن يقال الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان ، والنبات والحيوان حاصلان بالتوالد ، فإذا نظرنا إلى شاة مثلاً وهي تلد في كل سنة فيكون عدد أصولها إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً من خمسمائة ولا يخلو هذا أن يتطرق إلى أصل من تلك الأصول غضب أو معاملة فاسدة فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا ؟ وكذا بذور الحبوب والفواكه تحتاج إلى خمسمائة أصل أو ألف أصل مثلاً إلى أول زمان الشرع ولا يكون هذا حالاً ما لم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حالاً وأما المعادن فهي التي يمكن نيلها على سبيل الابتداء وهي أقل الأموال وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدنانير ولا تخرج إلا من دار الضرب وهي في أيدي الظلمة مثل المعادن في أيديهم بمنعون الناس منها ويلزمون الفقراء استخراجها بالأعمال الشاقة ثم يأخذونها منهم غصباً فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لا يتطرق إليه عقد فاسد

ولا ظلم وقت النيل ولا وقت الضرب في دار الضرب ولا بعده في معاملات الصرف والربا بعيد نادر أو محال فلا يبقى إذن حلال إلا الصيد والحشيش في الصحارى الموات والمفاوز والخطب المباح ثم من يحصله لا يقدر على أكله فيفتقر إلى أن يشتري به الحبوب والحيوانات التي لا تحصل إلا بالاستنابات والتوالد فيكون قد بذل حلالا في مقابلة حرام فهذا هو أشد الطرق تخيلا . والجواب أن هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال فخرج عن النقط الذي نحن فيه والتحق بما ذكرناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب إذ الأصل في هذه الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضي عليها وقد عارضه سبب غالب يخرج عن الصلاح له فيصاهى هذا محل القولين للشافعى رضى الله عنه في حكم النجاسات ، والصحيح عندنا أنه تجوز الصلاة في الشوارع إذا لم يجد فيها نجاسة فإن طين الشوارع طاهر وأن الوضوء من أواني المشركين جائز وأن الصلاة في المقابر المنبوشة جائزة فثبت هذا أولا ثم نقيس ما نحن فيه عليه ، ويدل على ذلك توضؤ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشركة ، وتوضؤ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون عما نجسه شرعنا ، فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم ؟ بل نقول نعلم قطعا أنهم كانوا يلبسون الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة ، ومن تأمل أحوال الدباغين والقصارين والصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة ، وأن الطهارة في تلك الثياب محال أو نادر، بل نقول نعلم أنهم كانوا يأكلون خبز البر والشعير ولا يفسلونه مع أنه يداس بالبقر والحيوانات وهي تبول عليه وتروث وقلبا يخلص منها وكانوا يركبون الدواب وهي تعرق وما كانوا يفسلون ظهورها مع كثرة تمزغها في النجاسات بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة قد تزيلها الأمطار وقد لا تزيلها وما كان يحترز عنها ، وكانوا يمشون حفاة في الطرق وبالنعال ويصلون معها ويجلسون على التراب ويمشون في الطين من غير حاجة ، وكانوا لا يمشون في البول والعدرة ولا يجلسون عليهما ويستنزهون منه ، ومتى تسلم الشوارع عن النجاسات مع كثرة السكاب وأوالها وكثرة الدواب وأرواثها ؟ ولا ينبغي أن نظن أن الأعصار أو الأمصار تختلف في مثل هذا حتى يظن أن الشوارع كانت تغسل في عصرهم أو كانت تحرس من الدواب هيئات فذلك معلوم استحالة بالعادة قطعا فدل على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو علامة على النجاسة دالة على العين . فأما الظن الغالب الذي يستثار من رد الدراهم إلى مجارى الأحوال فلم يعتبروه وهذا عند الشافعى رحمه الله وهو يرى أن الماء القليل ينجم من غير تغير واقع إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ويتوضئون من الحياض وفيها المياه القليلة والأيدى المختلفة تنمس فيها على الدوام ، وهذا قاطع في هذا الغرض ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ثبت جواز شربه والتحق حكم الحل بحكم النجاسة .

* فإن قيل : لا يجوز قياس الحل على النجاسة إذ كانوا يتوسعون في أمور الطهارات ويحترزون من شبهات الحرام غاية التحرز فكيف يقاس عليها ؟ قلنا إن أريد به أنهم صلوا معها مع النجاسة والصلاة معصية وهي عماد الدين فبئس الظن بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احترزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها وإنما تسامحوا حيث لم يجب وكان في محل تسامحهم هذه الصورة التي تعارض فيها الأصل والغالب فإن أن الغالب الذي لا يستند إلى علامة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح ، وأما تورعهم في الحلال فكان بطريق التقوى وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس لأن أمر الأموال مخوف والنفس تميل إليها إن لم تضبط عنها ، وأمر الطهارة ليس كذلك فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه . وقد حكى عن واحد منهم أنه احترز من الوضوء بماء البحر وهو الطهور المحض ، فالافتراق في ذلك لا يقدح في الغرض الذي أجمعنا فيه ، على أننا نجري في هذا المستند

على الجواب الذى قدمنا فى المستندين السابقين ولا نسلم ماذكروه من أن الأكثر هو الحرام لأن المال وإن كثرت أصوله فليس بواجب أن يكون فى أصوله حرام بل الأموال الموجودة اليوم مما تطرق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض ، وكما أن الذى يبتدأ غصبه اليوم هو الأقل بالإضافة إلى ما لا يغصب ولا يصرق فهكذا كل مال فى كل عصر وفى كل أصل فالمغصوب من مال الدنيا والمتناول فى كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل ، ولنا ندرى أن هذا الفرع بعينه من أى القسمين ؟ فلا نسلم أن الغالب تحريمه فإنه كما يزيد المغصوب بالتوالد يزيد غير المغصوب بالتوالد فيكون فرع الأكثر لاحالة فى كل عصر وزمان أكثر ، بل الغالب أن الحبوب المغصوبة تغصب للأكل لا للبذر وكذا الحيوانات المغصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتنى للتوالد فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام ؟ وليتفهم المسترشد من هذا طريق معرفة الأكثر فإنه منزلة قدم وأكثر العلماء يغلطون فيه فكيف العوام ؟ هذا فى المتولدات من الحيوانات والحبوب فأما المعادن فإنها مخلقة مسبلة يأخذها فى بلاد الترك وغيرها من شاء ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم أو يأخذون الأقل لا محالة لا الأكثر ، ومن حاز من السلاطين معدنا فظلمه يمنع الناس منه فأما ما يأخذه الآخذ منه فيأخذه من السلطان بأجرة والصحيح أنه يجوز الاستنابة فى إثبات اليد على المباحات والاستئجار عليها ، فالمستأجر على الاستقاء إذا حاز الماء دخل فى ملك المستقى له واستحق الأجرة فكذلك النيل فإذا فرعنا على هذا لم تحرم عين الذهب إلا أن يقدر ظلمه بنقصان أجرة العمل وذلك قليل بالإضافة ثم لا يوجب تحريم عين الذهب بل يكون ظلما ببقاء الأجرة فى ذمته ، وأما دار الضرب فليس الذهب الخارج منها من أعيان ذهب السلطان الذى غصبه وظلم به الناس بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك أو النقد الرديء ويستأجرونهم على السبك والضرب ويأخذون مثل وزن ماسلوه إليهم إلا شيئا قليلا يتركونه أجرة لهم على العمل وذلك جائز ، وإن فرض دنائير مضرورية من دنائير السلطان فهو بالإضافة إلى مال التجار أقل لا محالة ، نعم السلطان يظلم أجراء دار الضرب بأن يأخذ منهم ضريبة لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس حتى توفر عليهم مال بحشمة السلطان فسا يأخذه السلطان عوض من حشمة وذلك من باب الظلم وهو قليل بالإضافة إلى ما يخرج من دار الضرب فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة ما يخرج منه من المائة واحد وهو عشر العشير فكيف يكون هو الأكثر ؟ فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم وتشعر لتزيينها جماعة ممن رقى دينهم حتى قبحوا الورع وسدوا بابه واستبجوا تمييز من يميز بين مال ومال وذلك عين البدعة والضلال .

* فإن قيل : فلو قدر غلبة الحرام وقد اختلط غير محصور بغير محصور فإذا تعلقوا فيه إذا لم يكن فى العين المتناولة علامة خاصة ؟ فنقول الذى نراه أن تركه ورع وأن أخذه ليس بحرام لأن الأصل الحل ولا يرفع إلا بعلامة معينة كما فى طين الشوارع ونظائرهما . بل أزيد وأقول : لو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق فى الدنيا حلال لكننت أقول نستأنف تمهيد الشروط من وقتنا ونعفو عما سلف ونقول ما جاوز حدّه انعكس إلى ضده فهما حرم الكل حل الكل : وبرهانه أنه إذا وقعت هذه الواقعة فالاحتمالات خمسة (أحدها) أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا من عند آخرهم . (الثانى) أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرمي يزجون عليها أياما إلى الموت . (الثالث) أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرقة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة . (الرابع) أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة . (الخامس)

أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة . أما الأول فلا يخفى بطلانه . وأما الثاني فباطل قطعاً لأنه إذا اقتصر الناس على سد الرمق وزجوا أوقاتهم على الضعف فشا فيهم الموتان وبطلت الأعمال والصناعات وخربت الدنيا بالكلية . وفي خراب الدنيا خراب الدين لأنها مزرعة الآخرة . وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات بل أكثر أحكام الفقه مقصودها حفظ مصالح الدنيا ليم بها مصالح الدين . وأما الثالث وهو الاقتصار على قدر الحاجة من غير زيادة عليه مع التسوية بين مال ومال بالنقض والسرقة والتراخي وكيفما اتفق فهو رفع لسد الشرع بين المفسدين وبين أنواع الفساد فتمتد الأيدي بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم منه إذ يقولون ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عنا فإنه حرام عليه وعليها وذواليد له قدر الحاجة فقط فإن كان هو محتاجاً فإننا أيضاً محتاجون وإن كان الذي أخذته في حق زائداً على الحاجة فقد سرقته من هو زائد على حاجته يومه وإذا لم يراع حاجة اليوم والسنة فما الذي نراعى وكيف يضبط ؟ وهذا يؤدي إلى بطلان سياسة الشرع وإغراء أهل الفساد بالفساد ، فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع وهو أن يقال كل ذي يد على ما في يده وهو أولى به لا يجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصبا بل يؤخذ برضاه والتراخي هو طريق الشرع وإذا لم يحز إلا بالتراخي فللتراخي أيضاً مناج في الشرع تتعلق به المصالح ، فإن لم يعتبر فلم يتعين أصل التراخي وتعطل تفصيله ؟ وأما الاحتمال الخامس وهو الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي فهو الذي نراه لا تقا بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة ولكن لا وجه لإيجابه على الكافة ولا لإدخاله في فتوى العامة لأن أيدي الظلمة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة في أيدي الناس وكذا أبدى السراق ، وكل من غلب سلب وكل من وجد فرصة سرق ويقول لا حق له إلا في قدر الحاجة وأنا محتاج ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدي الملاك ويستوعب بها أهل الحاجة ويدر على الكل الأموال - يوماً فيوماً أو سنة فسنة - وفيه تكليف شطط وتضييع أموال ، أما تكليف الشطط فهو أن السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخلق بل لا يتصور ذلك أصلاً وأما التضييع فهو أن ما فضل عن الحاجة من الفواكه واللحوم والحبوب ينبغي أن يلقي في البحر أو يترك حتى يتعفن فإن الذي خلقه الله من الفواكه والحبوب زائد عن قدر توسع الخلق وترفعهم فكيف على قدر حاجتهم ؟ ثم يؤدي ذلك إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية وكل عبادة نيطة بالغنى عن الناس إذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم وهو في غاية القبح ، بل أقول لو ورد نبى في مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر ويمهد تفصيل أسباب الأملاك بالتراخي وسائر الطرق ويفعل ما يفعله لو وجد جميع الأموال حلالاً من غير فرق . وأعني بقولي : يجب عليه ، إذا كان النبي ممن بحث لمصلحة الخلق في دينهم ودنياهم إذ لا يتم الصلاح برد الكافة إلى قدر الضرورة والحاجة إليه فإن لم يبحث للصالح لم يجب هذا . ونحن نحوز أن يقدر الله سبباً يهلك به الخلق عن آخرهم فيفوت دنياهم ويضلون في دينهم فإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ويميت من يشاء ويحيى من يشاء ولكننا نقدر الأمر جارياً على ما ألف من سنة الله تعالى في بعثة الأنبياء لصالح الدين والدنيا . ومالى أقدر هذا وقد كان ما أقدره ، فلقد بعث الله نبينا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستائة سنة والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبداء الأوثان وإلى مصدقين له قدشاع الفسق فيهم كما شاع في زماننا الآن والكفار مخاطبون بفروع الشريعة . والأموال كانت في أيدي المكذبين له والمصدقين ، أما المكذبون فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام وأما المصدقون فكانوا يتساهلون مع أصل التصديق

كما يتساهل الآن المسلمون مع أن العهد بالنبوة أقرب فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراما . وعفا صلى الله عليه وسلم عما سلف ولم يتعزز له وخصص أصحاب الأيدي بالأموال ومهد الشرع وما ثبت تحريمه في شرع لا ينقلب حلالا لبعثة رسول ولا ينقلب حلالا بأن يسلم الذي في يده الحرام ، فإننا لا نأخذ في الجزية من أهل الذمة ما نعرفه بعينه أنه ثمن خمر أو مال ربا فقد كانت أموالهم في ذلك الزمان كأموالنا الآن ، وأمر العرب كان أشد لعموم النهب والغارة فيهم . فبان أن الاحتمال الرابع متعين في الفتوى ، والاحتمال الخامس هو طريق الورع ، بل تمام الورع الاقتصاد في المباح على قدر الحاجة وترك التوسع في الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة . ونحن الآن نتكلم في الفقه المنوط بمصالح الخلق وفتوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح وطريق الدين الذي لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام وخرب العالم فإن ذلك طلب ملك كبير في الآخرة ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا وتركوا الحرف الدنيئة والصناعات الخسيسة لبطل النظام ثم يبطل بطلانه الملك أيضا . فالحثرون إنما سحروا لينتظم الملك للبلوك وكذلك المقبولون على الدنيا سحروا ليسلم طريق الدين لذوى الدين وهو ملك الآخرة ولولاه لما سلم لذوى الدين أيضا دينهم فشرط سلامة الدين لهم أن يعرض الأكثرون عن طريقهم ويشتغلوا بأموال الدنيا وذلك قسمة سبقت بها المشيئة الأزلية وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ .

• فإن قيل : لا حاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لا يبقى حلال فإن ذلك غير واقع وهو معلوم ولا شك في أن البعض حرام وذلك البعض هو الأقل أو الأكثر فيه نظر ، وما ذكرتموه من أنه الأقل بالإضافة إلى الكل جلي ولكن لا بد من دليل محصل على تجويزه ليس من المصالح المرسله وما ذكرتموه من التقييدات كلها مصالح مرسله فلا بد لها من شاهد معين تقاس عليه حتى يكون الدليل مقبولا بالاتفاق فإن بعض العلماء لا يقبل المصالح المرسله ؟ • فأقول : إن سلم أن الحرام هو الأقل فيكفينا برهانا عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة مع وجود الربا والسرقة والغلول والنهب وإن قدر زمان يكون الأكثر الحرام هو فيحل التناول أيضا فبرهانة ثلاثة أمور : (الأول) التقسيم الذي حصرنه وأبطلنا منه أربعة وأثبتنا القسم الخامس فإن ذلك إذا أجرى فيما إذا كان الكل حراما كان أخرى فيما إذا كان الحرام هو الأكثر أو الأقل ، وقول القائل : هو مصلحة مرسله : هوس ، فإن ذلك إنما تخيل من تخيله في أمور مظنونة وهذا مقطوع به فإننا لا نشك في أن مصلحة الدين والدنيا مراد الشرع وهو معلوم بالضرورة ، وليس بمظنون ولا شك في أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة أو إلى الحشيش والصيد مخرب للدنيا أولا وللدين بواسطة الدنيا ثانيا ، فما لا يشك فيه لا يحتاج إلى أصل يشهد له وإنما يستشهد على الخيالات المظنونة المتعلقة بأحاد الأشخاص . (البرهان الثاني) أن يعلل بقياس مخزر مردود إلى أصل يتفق الفقهاء الآنسون بالأفيسة الجزئية عليه وإن كانت الجزئيات مستحقة عند المحصلين بالإضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر الكلى الذى هو ضرورة النبي لوبعث في زمان عم التحريم فيه حتى لو حكم بغيره لحرب العالم ، والقياس المخزر الجزئى هو أنه قد تعارض أصل وغالب فيما انقطعت فيه العلامات المعينة من الأمور التى ليست محصورة فيحكم بالأصل لا بالغالب قياسا على طين الشوارع وجزرة النصرانية وأوانى المشركين ، وذلك قد أثبتناه من قبل بفعل الصحابة ، وقولنا : انقطعت العلامات المعينة ، احتراز عن الأوانى التى يتطرق الاجتهاد إليها . وقولنا : ليست محصورة ، احتراز عن التباس الميتة والرضيعة بالذكية والأجنبية .

* فإن قيل : كون الماء طهورا مستيقن وهو الأصل ومن يسلم أن الأصل في الأموال الحل بل الأصل فيها التحريم ؟
 * فنقول : الأمور لا تحرم لصفة في عينها حرمة الخمر والخنزير خلقت على صفة تستعد لقبول المعاملات بالتراضي كما خلق الماء مستعدا للوضوء وقد وقع الشك في بطلان هذا الاستعداد منهما فلا فرق بين الأمرين فإنها تخرج عن قبول المعاملة بالتراضي بدخول الظلم عليها كما يخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول التجاسة عليه ولا فرق بين الأمرين . والجواب الثاني : أن اليد دلالة ظاهرة دالة على الملك نازلة منزلة الاستصحاب وأقوى منه بدليل أن الشرع ألحقه به إذ من ادعى عليه دين فالقول قوله لأن الأصل براءة ذمته وهذا استصحاب . ومن ادعى عليه ملك في يده فالقول أيضا قوله لإقامة ليد مقام الاستصحاب فكل ما وجد في يد إنسان فالأصل أنه ملكه ما لم يدل على خلافه علامة معينة .

(البرهان الثالث) هو أن كل مادل على جنس لا يحصر ولا يدل على معين لم يعتبر وإن كان قطعاً فبأن لا يعتبر إذا دل بطريق الظن أولى وبيانه أن ما علم أنه ملك زيد لحقه يمنع من التصرف فيه بغير إذنه ولو علم أن له مالكا في العالم ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه فهو مال مرصدا لمصالح المسلمين يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة ولو دل على أن له مالكا محصورا في عشرة مثلا أو عشرين امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة فالذي يشك في أن له مالكا سوى صاحب اليد أم لا ؟ لا يزيد على الذي يتيقن قطعاً أن له مالكا ولكن لا يعرف عينه فليجز التصرف فيه بالمصلحة والمصلحة ما ذكرناه في الأقسام الخمسة ، فيكون هذا الأصل شاهدا له وكيف لا وكل مال ضائع فقد مالكة يصرفه السلطان إلى المصالح ومن المصالح الفقراء وغيرهم ، فلو صرف إلى فقير ملكه ونفذ فيه تصرفه فلو سرقة منه سارق قطعت يده فكيف نفذ تصرفه في ملك الغير ليس ذلك إلالحكنا بأن المصلحة تقتضي أن ينتقل الملك إليه ويحل له فقضينا بموجب المصلحة .

* فإن قيل : ذلك يختص بالتصرف فيه السلطان ؟ فنقول : والسلطان لم يجوز له التصرف في ملك غيره بغير إذنه لاسبب له إلا المصلحة وهو أنه لو ترك لصاحبه فهو مردد بين تضيقه وصرفه إلى مهم والصرف إلى مهم أصلح من التضيق فرجع عليه والمصلحة فيما يشك فيه ولا يعلم تحريره أن يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدي إذ انتزاعها بالشك وتكليفهم الاقتصار على الحاجة يؤدي إلى الضرر الذي ذكرناه ، وجهات المصلحة تختلف فإن السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبني بذلك المال قنطرة وتارة أن يصرفه إلى جند الإسلام وتارة إلى الفقراء ويدور مع المصلحة كيفها دارت ، وكذلك الفتوى في مثل هذا تدور على المصلحة وقد خرج من هذا أن الخلق غير مأخوذون في أعيان الأموال بظنون لا تستند إلى خصوص دلالة في ملك الأعيان كما لم يؤخذ السلطان والفقراء الآخذون منه بعلبهم أن المال له مالك حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه ، ولا فرق بين عين المالك وبين عين الأملاك في هذا المعنى فهذا بيان شبهة الاختلاط ولم يبق إلا النظر في امتزاج المسائعات والدرام والعروض في يد مالك واحد وسيأتي بيانه في باب تفصيل طريق الخروج من المظالم .

المثار الثالث للشبهة : أن يتصل بالسبب المحلل معصية

إما في قرائنه وإما في لواحقه وإما في سوابقه أو في عوضه وكانت من المعاصي التي لا توجب فساد العقد وإبطال السبب المحلل .

مثال المعصية في القرائن : البيع في وقت النداء يوم الجمعة والذبح بالسكين المغصوبة والاحتطاب بالقدوم المنصوب

والبيع على بيع الغير والسوم على سومه فكل نهى ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع ، وإن لم يكن المستفاد بهذه الأساليب محكوماً بتحريمه . وتسمية هذا النمط شبهة فيه تسامح لأن الشبهة في غالب الأمر تطلق لإرادة الاشتباه والجهل ولا اشتباه ههنا بل العصيان بالذبح بسكين الغير معلوم وحل الذبيحة أيضاً معلوم ولكن قد تشتق الشبهة من المشابهة ، وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم فإن أريد بالشبهة هذا قسمية هذا شبهة له وجه وإلا فينبغي أن يسمى هذا كراهة لاشبهة ، وإذا عرف المعنى فلا مشاحة في الأسماء فعادة الفقهاء التسامح في الاطلاقات . ثم اعلم أن هذه الكراهة لها ثلاث درجات : الأولى منها تقرب من الحرام والورع عنه مهم والأخيرة تنتهي إلى نوع من المبالغة تكاد تلتحق بورع الموسوسين وبينهما أوساط نازعة إلى الطرفين ، فالكراهة في صيد كلب مغضوب أشد منها في الذبيحة بسكين مغضوب أو المقتنص بسهم مغضوب إذ الكلب له اختيار وقد اختلف في أن الحاصل به لمالك الكلب أو للصيد ، وبليه شبهة البذر المزروع في الأرض المغصوبة فإن الزرع لمالك البذر ولكن فيه شبهة ولو أثبتنا حق الحبس لمالك الأرض في الزرع لكان كالثمن الحرام ، ولكن الأفيس أن لا يثبت حق حبس كما لو طحن بطاحونة مغصوبة واقتنص بشبكة مغصوبة إذا لا يتعلق حق صاحب الشبكة في منفعتها بالصيد ، وبليه الاحتطاب بالقدم المغضوب ثم ذبحه ملك نفسه بالسكين المغضوب إذ لم يذهب أحد إلى تحريم الذبيحة ، وبليه البيع في وقت النداء فإنه ضعيف التعلق بمقصود العقد وإن ذهب قوم إلى فساد العقد إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه ، ولو أفسد البيع بمثله لأفسد بيع كل من عليه درهم زكاة أو صلاة فائتة وجوبها على الفور أوفى ذمته مظلمة ذائق فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجب فليس للجمعة إلا الوجوب بعد النداء ، وينجز ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلمة وكل من في ذمته درهم لأنه اشتغل بقوله عن الفعل الواجب عليه ؛ إلا من حيث ورد في يوم الجمعة نهى على الخصوص ربما سبق إلى الأفهام خصوصية فيه فتكون الكراهة أشد ولا بأس بالحدز منه ولكن قد ينجر إلى الوسواس حتى يتخرج عن نكاح بنات أرباب المظالم وسائر معاملاتهم . وقد حكى عن بعضهم أنه اشترى شيئاً من رجل فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة ، فردّه خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء وهذا غاية المبالغة أنه رد بالشك . ومثل هذا الوهم في تقدير المناهي أو المفسدات لا ينقطع عن يوم السبت وسائر الأيام والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حذم علوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « هلك المتتبعون »^(١) ، فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه فيترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس في زماننا هذا إذ ضيق عليهم الطريق فأيسوا عن القيام به فاطرحوه ، فكما أن الموسوس في الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها فكذا بعض الموسوسين في الحلال سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسعوا فتركوا التمييز وهو عين الضلال .

وأما مثال الواحق : فهو كل تصرف يفضى في سياقه إلى معصية وأعلاه بيع العنب من الخمار وبيع الغلام من المعروف بالفجور بالغلمان وبيع السيف من قطاع الطريق . وقد اختلف العلماء في صحة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه . والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما يعصى بالذبح بالسكين المغضوب والذبيحة حلال ولكنه يعصى عصيان الإعانة على المعصية إذ لا يتعلق ذلك بعين العقد فالمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم وليس بجرام ، وبليه في الرتبة بيع العنب بمن يشرب الخمر ولم يكن خماراً وبيع السيف بمن

(١) حديث « هلك المتتبعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود ، وتقدم في قواعد الفقهاء .

يغزو ويظلم أيضاً لأن الاحتمال قد تعارض . وقد كره السلف بيع السيف في وقت الفتنة خيفة أن يشتره ظالم فهذا ورع فوق الأول والكرهية فيه أخف ، وبليه ما هو مبالغة ويكاد يلتحق بالوسواس وهو قول جماعة أنه لا تجوز معاملة الفلاحين بآلات الحارث لأنهم يستعينون بها على الحرثة ويبيعون الطعام من الظلمة ولا يبيع منهم البقر والفدان وآلات الحرث وهذا ورع الوسوسة إذ ينتج إلى أن لا يبيع من الفلاح طعام لأنه يتقوى به على الحرثة ولا يسقى من الماء العام لذلك ، وينتهي هذا إلى حد التنطع المنهى عنه . وكل متوجه إلى شيء على قصد خير لا بد وأن يسرف إن لم يذمه العلم المحقق ، وربما يقدم على ما يكون بدعة في الدين ليستضر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » (١) ، والمتنطعون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وبالجمله لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن فإنه إذا جاوز ما رسم وتصرف بذهنه من غير سماع كان ما يفسده أكثر مما يصلحه . وقد روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه أحرق كرمه خوفاً من أن يباع العنب ممن يتخذة خمرًا . وهذا لأعرف له وجهها إن لم يعرف هوسها خاصة يوجب الإحراق ؟ إذ ما أحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدراً منه من الصحابة . ولوجاز هذا لجاز قطع الذكر خيفة من الزنا وقطع اللسان خيفة من الكذب إلى غير ذلك من الإلتفات .

وأما المقدمات : فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات : (الدرجة العليا) التي يشتد الكراهة فيها : ما بقي أثره في المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب أو رعت في مرعى حرام فإن ذلك معصية وقد كان سبباً لبقائها وربما يكون الباقي من دمها ولحمها وأجزائها من ذلك العلف ، وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجبا ، ونقل ذلك عن جماعة من السلف . وكان لأبي عبد الله الطوسي التروغندي شاة يحملها على رقبتها كل يوم إلى الصحراء ويرعها وهو يصلي وكان يأكل من لبنها فغفل عنها ساعة فتناولت من ورق كرم على طرف بستان فتركها في البستان ولم يستحل أخذها .

* فإن قيل : فقد روى عن عبد الله بن عمر وعبيد الله أنهما اشتريا إبلا فبعثاها إلى الحمى فرعته إلهما حتى سمئت ؛ فقال عمر رضي الله عنه : أرعيتها في الحمى ؟ فقالا : نعم ؛ فشاطرهما . فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من العلف لصاحب العلف فليوجب هذا تحريماً ؟ قلنا : ليس كذلك فإن العلف يفسد بالأكل واللحم خلق جديد وليس عين العلف فلا شركة لصاحب العلف شرعاً ولكن عمر غرمهما قيمة الكلا ورأى ذلك مثل شطر الإبل فأخذ الشطر بالاجتهاد ، كما شاطر سعد بن أبي وقاص ماله لما أن قدم من الكوفة ، وكذلك شاطر أبا هريرة رضي الله عنه إذ رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافياً على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهاداً .

(الرتبة الوسطى) ما نقل عن بشر بن الحارث من امتناعه عن الماء المساق في نهر احتفزه الظلمة لأن النهر موصل إليه وقد عصى الله بحفره . وامتنع آخر عن عنب كرم يسقى بماء يجري في نهر حفر ظلماً وهو أرفع منه وأبلغ في الورع . وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين في الطرق . وأعلى من ذلك امتناع ذى النون من طعام حلال أوصل إليه على يد بيجان ، وقوله : إنه جاءني على يد ظالم ، ودرجات هذه الرتبة لا تنحصر . (الرتبة الثالثة) وهي قريب من الوسواس والمبالغة : أن يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزنا أو القذف وليس هو كالوعصى بأكل

الحرام فإن الموصل قوته الحاصلة من الغذاء الحرام والزنا والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحمل بل الامتناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس ، بخلاف أكل الحرام إذ الكفر لا يتعلق بحمل الطعام وينجر هذا إلى أن لا يؤخذ من يد من عصى الله ولو بغية أو كذبة وهو غاية التتبع والإسراف فليضبط ماعرف من ورع ذي النون وبشر بالمعصية في السبب الموصل كالنهر وقوة اليد المستفادة بالغذاء الحرام . ولو امتنع عن الشرب بالكوز لأن صانع الفخار الذى عمل الكوز كان قد عصى الله يوما بضرب لإنسان أو شتمه لكان هذا وسواسا . ولو امتنع من لحم شاة ساقها أكل حرام فهذا أبعد من يد السجان لأن الطعام يسوقه قوة السجان والشاة تمشى بنفسها والسائق يمنعها عن العدول في الطريق فقط فهذا قريب من الوسواس . فأنظر كيف تدرجنا في بيان ما تتداعى إليه هذه الأمور . واعلم أن كل هذا خارج عن فتوى علماء الظاهر فإن فتوى الفقيه تختص بالدرجة الأولى التى يمكن تكليف عامة الخلق بها ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم دون ماعدها من ورع المتقين والصالحين . والفتوى في هذا ما قاله صلى الله عليه وسلم لو ابصه إذ قال « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك » وعرف ذلك إذ قال « الإثم حراز القلوب (١) » وكل ما حاك في صدر المريد من هذه الأسباب فلو أقدم عليه مع حرازة القلب استضر به وأظلم قلبه بقدر الحرازة التى يجدها بل لو أقدم على حرام في علم الله وهو يظن أنه حلال لم يؤثر ذلك في قساوة قلبه ، ولو أقدم على ما هو حلال في فتوى علماء الظاهر ولكنه يجد حرازة في قلبه فذلك يضره . وإنما الذى ذكرناه في التنبه عن المبالغة أردنا به أن القلب الصافي المعتدل هو الذى لا يجد حرازة في مثل تلك الأمور فإن مال قلب موسوس عن الاعتدال ووجد الحرازة فأقدم مع ما يجد في قلبه فذلك يضره لأنه مأخوذ في حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه . وكذلك يشدد على الموسوس في الطهارة ونية الصلاة فإنه إذا غلب على قلبه أن المساء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات لغلبة الوسوسة عليه فيجب عليه أن يستعمل الرابعة وصار ذلك حكما في حقه وإن كان مخطئا في نفسه ، أولئك قوم شددوا فشد الله عليهم ، وإن ذلك شدد على قوم موسى عليه السلام لما استقصوا في السؤال عن البقرة ولو أخذوا أولا بعموم لفظ البقرة وكل ما ينطلق عليه الاسم لأجزأهم ذلك . فلا تغفل عن هذه الدقائق التى رددناها نفيا وإثباتا فإن من لا يطلع على كنه الكلام ولا يحيط بمجماعه يوشك أن يزل في درك مقاصده .

وأما المعصية في العوض فله أيضا درجات (الدرجة العليا) التى تشتد الكراهة فيها أن يشتري شيئا في الذمة ويقضى ثمنه من غضب أو مال حرام فينظر فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع أعنى قبل قضاء الثمن ولا هو أيضا من الورع المؤكد فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن ، ولو لم يقضه أصلا لكان متقلدا للظلمة بترك ذمته مرتبة بالدين ولا ينقلب ذلك حراما . فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه إلا مظلة تصرفه في الدراهم الحرام بصرفها إلى البائع وإن أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة لأنه يبرئه مما أخذه إبراء استيفاء ولا يصلح ذلك للإيفاء . هذا حكم المشتري والأكل منه وحكم الذمة وإن لم يسلم إليه بطيب قلب ولكن أخذه فأكله حرام سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده لأن الذى تومى الفتوى به ثبوت حق الحبس للبائع حتى يتعين ملكه بإقباض النقد كما تعين ملك المشتري ، وإنما يبطل حق حبسه إما بالإبراء

(١) حديث « الإثم حراز القلوب » تقدم في العلم .

أو الاستيفاء ولم يجر شيء منهما ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الزمان للطعام إذا أكله بغير إذن المرتنن ، وبينه وبين أكل طعام الغير فرق ولكن أصل التحريم شامل ، هذا كله إذا قبض قبل توفية الثمن إما بطيبة قلب البائع أو من غير طيبة قلبه . فأما إذا وفي الثمن الحرام أولاً ثم قبض فإن كان البائع عالماً بأن الثمن حرام ومع هذا أقبض المبيع بطل حق حبسه وبقي له الثمن في ذمته إذا ما أخذه ليس بشمن ولا يصير أكل المبيع حراماً بسبب بقاء الثمن فأما إذا لم يعلم أنه حرام وكانت بحيث لو علم لما رضى به ولا أقبض المبيع لحق حبسه لا يبطل بهذا التليس فأكله حرام بتحريم أكله المرهون إلى أن يبرئه أو يوفى من حلال أو يرضى هو بالحرام ويبرئ فيصح لإبرائه ولا يصح رضاه بالحرام فهذا مقتضى الفقه وبيان الحكم في الدرجة الأولى من الحلل والحرمه فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم لأن المعصية إذا تمكنت من السبب الموصل إلى الشيء تشدد الكراهية فيه - كما سبق - وأقوى الأسباب الموصلة للثمن ولولا الثمن الحرام لما رضى الله البائع بتسليمه إليه فرضاه لا يخرج عنه كونه مكرهاً كراهية شديدة ولكن العدالة لا تخرم به وتزول به درجة التقوى والورع . ولو اشترى سلطان مثلاً ثوباً وأرضافاً الذمة وقبضه برضا البائع قبل توفية الثمن وسلمه إلى فقيه أو غيره صلة أو خلعة وهو شاك في أنه سيقضى ثمنه من الحلال أو الحرام فهذا أخف إذ وقع الشك في تطرق المعصية إلى الثمن وتفاوت خفته بتفاوت كثرة الحرام وقلته في مال ذلك السلطان وما يغلب على الظن فيه وبعضه أشد من بعض والرجوع فيه إلى ما يندرج في القلب (الرتبة الوسطى) أن لا يكون العوض غصباً ولا حراماً ولكن يتهيأ لمعصية ، كما لو سلم عوضاً عن الثمن عنياً والآخذ شارب الخمر أو سيفاً وهو قاطع طريق فهذا لا يوجب تحريماً في مبيع اشتراه في الذمة ولكن يقتضي فيه كراهية دون الكراهية التي في الغصب . وتتفاوت درجات هذه الرتبة أيضاً بتفاوت غلبة المعصية على قابض الثمن وندوره ومهما كان العوض حراماً فبذله حرام وإن احتمل تحريمه ولكن أبيع بظن فبذله مكروه وعليه ينزل عندئذ النهي عن كسب الحجام وكراهته ^(١) إذ نهى عنه عليه السلام مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح ^(٢) وما سبق إلى الوهم من أن سببه مباشرة النجاسة والقذر فاسد إذ يجب طرده في الدباغ والكناس ولا قائل به وإن قيل به فلا يمكن طرده في القصاب إذ كيف يكون كسبه مكروهاً وهو بدل عن اللحم واللحم في نفسه غير مكروه ومخامرة القصاب النجاسة أكثر منه للحجام والفصاد فإن الحجام يأخذ الدم بالمحجمة ويمسحه بالقطن ، ولكن السبب أن في الحجامة والفصد تخريب بنية الحيوان وإخراجها لدمه وبه قوام حياته والأصل فيه التحريم وإنما يحل بضرورة وتعلم الحاجة والضرورة بحسد واجتهاد وربما يظن نافعاً ويكون ضاراً فيكون حراماً عند الله تعالى ولكن يحكم بحله بالظن والحدس . ولذلك لا يجوز للفصاد فصد صبي وعبد ومعتوه إلا بإذن وليه وقول طيب ولولا أنه حلال في الظاهر لما أعطى عليه السلام أجرة الحجام ^(٣) ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهى عنه فلا يمكن الجمع بين إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى . وهذا كان ينبغي أن تذكره في القرائن المقرونة بالسبب فإنه أقرب إليه . (الرتبة السفلى) وهي درجة الموسوسين وذلك أن يحلف لإنسان على

(١) حديث النهي عن كسب الحجام وكراهته : رواه ابن ماجه من حديث أبي مسعود الأنصاري ، والذاتى من حديث أبي هريرة بإسنادين صحيحين : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ، وللبخارى من حديث أبي جحيفة : نهى عن ثمن الدم ، وسلم من حديث رافع بن خديج « كسب الحجام خيث » . (٢) حديث : نهى عنه مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح ، رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث صحيح أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في إجارة الحجام ، فنهأ عنها ، فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال : أعلفه ناضحك وأطعمه رقيقك . وفي رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال : ألا أطعمه أيتاماً ؟ قال : لا ؟ قال : أفلا أتصدق به ؟ قال : لا ، فرخص له أن يعلفه ناضحه . (٣) حديث : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجرة الحجام . متفق عليه من حديث ابن عباس .

أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوباً فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة . وروى عن المغيرة أنه قال في هذه الواقعة : لا يجوز ، واستشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله اليهود حرمت عليهم الخمر فباعوها وأكلوا أثمانها »^(١) ، وهذا غلط لأن بيع الخمر باطل إذ لم يبق للخمر منفعة في الشرع وثن البيع الباطل حرام ، وليس هذا من ذلك بل مثال هذا أن يملك الرجل جارية هي أخته من الرضاع فتباع بجمارية أجنبية فليس لأحد أن يتورع منه وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف في هذا الطرف . وقد عرفنا جميع الدرجات وكيفية التدرج فيها وإن كان تفاوت هذه الدرجات لا ينحصر في ثلاث أو أربع ولا في عدد ولكن المقصود من التعديد التقريب والتفهم .

* فإن قيل : فقد قال صلى الله عليه وسلم ومن اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه^(٢) ، ثم أدخل ابن عمر أصبعيه في أذنيه وقال : صمتا إن لم أكن سمعته منه . قلنا ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لا في الذمة وإذا اشترى في الذمة فقد حكمتا بالتحريم في أكثر الصور فليحمل عليها ، ثم كم من ملك يتورع عليه بمنع قبول الصلاة لمعصية تطرقت إلى سببه وإن لم يدل ذلك على فساد العقد كالمشترى في وقت النداء وغيره .

المثار الرابع : الاختلاف في الأدلة

فإن ذلك كالاختلاف في السبب لأن السبب سبب لحكم الحل والحرمة . والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة فهو سبب في حق المعرفة ولم يثبت في معرفة الغير فلا فائدة لثبوته في نفسه وإن جرى سببه في علم الله ، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع أو لتعارض العلامات الدالة أو لتعارض التشابه .

القسم الأول : أن تتعارض أدلة الشرع مثل تعارض عمومين من القرآن أو السنة أو تعارض قياسين أو تعارض قياس وعموم . وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح ، فإن ظهر ترجيح في جانب الحظر وجب الأخذ به وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به ولكن الورع تركه . واتقاء مواضع الخلاف مهم في الورع في حق المفتي والمقلد . وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلده الذي يظن أنه أفضل علماء بلده ويعرف ذلك بالتسامع كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقراءن وإن كان لا يحسن الطب . وليس للمستفتي أن ينتقد من المذاهب أو سمعها عليه ؛ بل عليه أن يبحث حتى يغلب على ظنه الأفضل ثم يتبعه فلا يخالفه أصلاً ، نعم إن أفتى له إمامه بشيء وإمامه فيه مخالف فالفرار من الخلاف إلى الإجماع من الورع المؤكد وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحسب وتخمين وظن فالورع له الاجتناب . فلقد كان المفتون يفتون بحل أشياء لا يقدمون عليها قط تورعاً منها وحذراً من الشبهة فيها فلنقسم هذا أيضاً على ثلاث مراتب (الرتبة الأولى) ما يتأكد الاستحباب في التورع عنه وهو ما يقوى فيه دليل المخالف ويدق وجه ترجيح المذهب الآخر عليه . فن المهمات التورع عن فريسة السكب العلم إذاً كل منها وإن أفتى المفتي بأنه حلال لأن الترجيح فيه غامض ، وقد اخترنا أن ذلك حرام وهو أقيس قول الشافعي رحمه الله . ومهما وجد للشافعي

(١) حديث المنيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن اليهود إذ حرمت عليهم الخمر فباعوها ، لم أجده هكذا ، والمعروف أن ذلك في الشحوم ؛ فني الصحيحين من حديث جابر « قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جلوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » ، (٢) حديث « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم .. الحديث » تقدم في الباب قبله .

قول جديد موافق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله أو غيره من الأئمة كان الورع فيه مهما وإن أفتى المفتي بالقول الآخر . ومن ذلك الورع عن متروك التسمية وإن لم يختلف فيه قول الشافعي رحمه الله لأن الآية ظاهرة في إيجابها والأخبار متواترة فيه فإنه صلى الله عليه وسلم قال لكل من سأله عن الصيد ، إذا أرسلت كلبك المعلم وذكر عليه اسم الله فكل ^(١) ، ونقل ذلك على التكرار وقد شهر الذبح بالبسملة ^(٢) وكل ذلك يقوى دليل الاشتراط ولكن لما صح قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن يذبح على اسم الله تعالى سمي أو لم يسم ^(٣) » ، واحتمل أن يكون هذا عاما موجبا لصرف الآية وسائر الأخبار عن ظواهرها ويحتمل أن يخص هذا بالناسي ويترك الظواهر ولا تأويل ، وكان حمله على الناسي ممكنا تمهيدا لعذره في ترك التسمية بالنسيان وكان تعميمه وتأويل الآية ممكنا إمكانا أقرب رجحنا ذلك ولا تنكر رفع الاحتمال المقابل له فالورع عن مثل هذا مهم واقع في الدرجة الأولى .

(الرتبة الثانية) وهي مزاحة لدرجة الوسواس أن يتووع الإنسان عن أكل الجنين الذي يصادف في بطن الحيوان المذبوح وعن الضب . وقد صح في الصحاح من الأخبار حديث الجنين ؛ لأن ذكاته ذكاة أمه ^(٤) صحة لا يتطرق احتمال إلى منته ولا ضعف إلى سنده وكذلك صح أنه أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) وقد نقل ذلك في الصحيحين . وأظن أن أبا حنيفة لم تبلغه هذه الأحاديث ولو بلغته لقال بها وإن أنصف وإن لم ينصف منصف فيه كان خلافه غلطا لا يعتد به ولا يورث شبهة كما لو لم يخالف وعلم الشيء بخبر الواحد .

(الرتبة الثالثة) أن لا يشتر في المسألة خلاف أصلا ولكن يكون الحل معلوما بخبر الواحد فيقول القائل قد اختلف الناس في خبر الواحد فنه من لا يقبله فأننا أتووع . فإن الثقل وإن كانوا عدولا فالغلط جائز عليهم والكذب لغرض خفي جائز عليهم ، لأن العدل أيضاً قد يكذب والوهم جائز عليه فإنه قد يسبق إلى سمعهم خلاف ما يقوله القائل وكذا إلى فهمهم فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمعون من عدل تسكن نفوسهم إليه . وأما إذا تطرقت شبهة بسبب خاص ودلالة معينة في حق الراوي فالتوقف وجه ظاهر وإن كان عدلا . وخلاف من خالف في أخبار الآحاد غير معتد به وهو خلاف النظام في أصل الإجماع . وقوله إنه ليس بحجة ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يتمتع الإنسان من أن يأخذ ميراث الجد أبي الأب ويقول ليس في كتاب الله ذكر إلا للبنين وإلحاق ابن الابن بالابن بإجماع الصحابة وهم غير معصومين والغلط عليهم جائز إذ خالف النظام فيه ، وهذا هوس ويتداعى إلى أن يترك ما علم بعمومات القرآن إذ من المتكلمين من ذهب إلى أن

- (١) حديث « إذا أرسلت كلبك وذكر اسم الله فكل » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم ، ومن حديث أبي لمبة الحشني
(٢) حديث التسمية على الذبح : متفق عليه من حديث رافع بن خديج « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ، ليس الرن والظفر »
(٣) حديث « المؤمن يذبح على اسم الله سمي أو لم يسم » قال المصنف إنه صح . قلت : لا يعرف بهذا اللفظ فضلا عن صحته ؛ ولأبي داود في المراسيل من رواية الصلت مرفوعا « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر » وللطبراني في الأوسط ، والدارقطني ، وابن عدى ، والبيهقي من حديث أبي هريرة . قال رجل : يا رسول الله ، الرجل منا يذبح وينسي أن يسمي الله ؛ فقال « اسم الله على كل مسلم » قال ابن عدى : منكر ، والدارقطني والبيهقي من حديث ابن عباس « المسلم يكفيه اسمه ؛ فإن نسي أن يسمي حين يذبح فليسم وليذكر اسم الله ثم ليأكل » فيه محمد بن سنان ، ضعفه الجمهور . (٤) حديث « ذكاة الجنين ذكاة أمه » قال المصنف : إنه صح صحة لا يتطرق احتمال إلى منته ولا ضعف إلى سنده ، وأخذ هذا من إمام الحرمين ؛ فإنه كذا قال في الأساليب ، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان من حديث أبي سعيد ، والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح الإسناد ، وليس كذلك . وللطبراني في الصغير من حديث ابن عمر بسند جيد . وقال عبد الحق : لا يحتج بأسانيد أهلها
(٥) حديث أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال المصنف : هو في الصحيحين ، وهو كما ذكره من حديث ابن عمر وابن عباس وخالد بن الوليد .

العمومات لاصيغة لها وإنما يحتاج بما فهمه الصحابة منها بالقرائن والدلالات وكل ذلك وسواس ؛ فإذا ن لأطرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو وإسراف فليفهم ذلك . ومهما أشكل أمر من هذه الأمور فليستفت فيه القلب وليدع الورع ما يريه إلى مالا يريه وليترك حزاز القلوب وحكاكات الصدور وذلك يختلف بالأشخاص والوقائع ولكن ينبغي أن يحفظ قلبه عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم إلا بالحق فلا ينطوى على حزازة في مظان الوسواس ولا يخلو عن الحزازة في مظان الكراهة ؛ وما أعز مثل هذا القلب ولذلك لم يرد عليه السلام كل أحد إلى فتوى القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله (١) .

القسم الثاني : تعارض العلامات الدالة على الحل والحزمة فإنه قد ينهب نوع من المتاع في وقت ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلاً في يد رجل من أهل الصلاح ، فيدل صلاحه على أنه حلال ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على أنه حرام فيتعارض الأمران . وكذلك يخبر عدل أنه حرام وآخر أنه حلال أو تتعارض شهادة فاسقين أو قول صبي وبالغ ، فإن ظهر ترجيح حكمه والورع الاجتناب ، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف وسيأتي تفصيله في باب التعرف والبحث والسؤال .

القسم الثالث : تعارض الأشباه في الصفات التي تناط بها الأحكام . مثاله أن يوصى بمال للفقهاء فيعلم أن الفاضل في الفقه داخل فيه وأن الذي ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لا يدخل فيه وبينهما درجات لا تخصي يقع الشك فيها ، فالفتى يفتى بحسب الظن والورع الاجتناب ، وهذا أغض ماثرات الشبهة فإن فيها صوراً يتحيز المفتي فيها تحيزاً لازماً لاحيلة له فيه إذ يكون المتصف بصفة في درجة متوسطة بين الدرجتين المتقابلتين لا يظهر له ميله إلى أحدهما . وكذلك الصدقات المصروفة إلى المحتاجين فإن من لا شيء له معلوم أنه محتاج ومن له مال كثير معلوم أنه غني ويتصدى بينهما مسائل غامضة كن له دار وأثاث وثياب وكتب فإن قدر الحاجة منه لا يمنع من الصرف إليه والفاضل يمنع والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب ، ويتعدى منه النظر في مقدار سعة الدار وأبنيتها ومقدار قيمتها لكونها في وسط البلد ووقوع الاكتفاء بدار دونها ، وكذلك في نوع أثاث البيت إذا كان من الصفر لامن الخزف وكذلك في عددها وكذلك في قيمتهما وكذلك فيما لا يحتاج إليه كل يوم وما يحتاج إليه كل سنة من آلات الشتاء وما لا يحتاج إليه إلا في سنين ، وشيء من ذلك لا حد له . والوجه في هذا ما قاله عليه السلام « دع ما يريك إلى مالا يريك » (٢) ، كل ذلك في محل الريب إن توقف المفتي فلا وجه إلا التوقف وهو أهم مواقع الورع . وكذلك ما يجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال إذ فيه طرفان يعلم أن أحدهما قاصر وأن الآخر زائد وبينهما أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال . والمطلع على الحاجات هو الله تعالى وليس للبشر وقوف على حدودها ، فما دون الرطل المسكى في اليوم قاصر عن كفاية الرجل الضخم وما فوق ثلاثة أربال زائد على الكفاية وما بينهما لا يتحقق له حد . فليدع الورع ما يريه وهذا جار في كل حكم نيط بسبب يعرف ذلك السبب بلفظ العرب ، إذ العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا متضمنات اللغات بحدود محدودة تقطع أطرافها عن مقابلاتها كلفظ الستة فإنه لا يحتمل مادونها وما فوقها من الأعداد وسائر ألفاظ الحساب والتقدير ، فليست الألفاظ اللغوية كذلك فلا لفظ في كتاب الله وسنة رسول الله

(١) حديث : لم يرد كل أحد إلى فتوى قلبه وإنما قال ذلك لوابصة ، وتقدم حديث وابصة ، وروى الطبراني من حديث وائلة أنه قال ذلك لوائمة أيضاً ، وفيه العلاء بن ثعلبة مجهول . (٢) حديث « دع ما يريك إلى مالا يريك » تقدم في الباب قبله

صلى الله عليه وسلم إلا ويتطرق الشك إلى أوساط في مقتضياتها تدور بين أطراف متقابلة فتعظم الحاجة إلى هذا الفن في الوصايا والأوقاف على الصوفية مثلاً مما يصح ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ هذا من الغوامض فكذلك سائر الألفاظ . وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفي على الخصوص ليعلم به طريق التصرف في الألفاظ وإلا فلا مطمع في استيفائها ، فهذه اشتباهاً تثار من علامات متعارضة تجذب إلى طرفين متقابلين ، وكل ذلك من الشبهات يجب اجتنابها إذا لم يترجح جانب الحل بدلالة تغلب على الظن أو باستصحاب بموجب قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، وبموجب سائر الأدلة التي سبق ذكرها . فهذه مثار الشبهات وبعضها أشد من بعض ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ مثل أن يأخذ طعاماً مختلفاً فيه عوضاً عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة والبائع قد خالط ماله حرام وليس هو أكثر ماله ولكنه صار مشتبهاً به فقد يؤدي ترادف الشبهات إلى أن يشتد الأمر في اقتحامها ، فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها وليس في قوة البشرحصرها فإما التضح من هذا الشرح أخذ به وما التبس فليجذب فإن الإثم حراز القلب . وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتي أما حيث حرّمه فيجب الامتناع . ثم لا يعول على كل قلب فرب موسوس ينفر عن كل شيء ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شيء ولا اعتبار بهذين القلبين وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال وهو المحك الذي يمتحن به خفايا الأمور ، وما أعز هذا القلب في القلوب فن لم يثق بقلب نفسه فليمتس النور من قلب بهذه الصفة وليعرض عليه واقعته ، وجاء في الزبور « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : قل لبي إسماعيل إني لأنظر إلى صلاتكم ولاصيامكم ولكن أنظر إلى من شك في شيء فتركه لأجل فذاك الذي أنظر إليه وأقيد به بنصري وأباهي به ملائكتي .

الباب الثالث : في البحث ، والسؤال ، والهجوم ، والإهمال ومظانها

اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تهب فليس لك أن تفتش عنه وتساؤل وتقول : هذا بما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفقش عنه . وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا يتيقن تحريمه بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله ، والقول الشافي فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة . ومنشأ الريبة ومثارها إما أمر يتعلق بالمال أو يتعلق بصاحب المال .

المثار الأول : أحوال المالك

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال : إما أن يكون مجهولاً أو مشكوكاً فيه أو معلوماً بنوع ظن يستند إلى دلالة . الحالة الأولى : أن يكون مجهولاً والمجهول هو الذي ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه كزى الأجناد ، ولا ما يدل على صلاحه ككتاب أهل التصوف والتجارة والعلم وغيرها من العلامات . فإذا دخلت قرية لا تعرفها فرأيت رجلاً لا تعرف من حاله شيئاً ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول ؛ وإذا دخلت بلدة غريباً ودخلت سوقاً ووجدت رجلاً خبازاً أو قصاباً أو غيره ولا علامة تدل على كونه مريباً أو خائناً ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول ولا يدري حاله ، ولا نقول إنه مشكوك فيه لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهاسيبان متقابلان ، وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدري وبين ما يشك فيه ؛ وقد عرفت بما سبق أن الورع ترك ما لا يدري . قال يوسف بن أسباط : منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته . وتكلم جماعة في أشق الأعمال

فقالوا : هو الورع ؛ فقال لهم حسان بن أبي سنان : ماشيء عندى أسهل من الورع ، إذا حاك في صدرى شيء تركته . فهذا شرط الورع ، وإنما نذكر الآن حكم الظاهر ، فنقول : حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدم إليك طعاما أو حمل إليك هدية أو اردت أن تشتري من دكانه شيئا فلا يلزمك السؤال بل يده وكونه مسلما دلائل كافيتان في الهجوم على أخذه . وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا المسلم بعينه وإن بعض الظن إثم . وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك أن لا تسمي الظن به فإن أسأت الظن به في عينه لأنك رأيت فسادا من غيره فقد جئت عليه وأثمت به في الحال نقدا من غير شك ، ولو أخذت المال لكان كونه حراما مشكوكا فيه . ويدل عليه أنا نعلم أن الصحابة رضی الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم كانوا ينزلون في القرى ولا يردون القرى ويدخلون البلاد ولا يهتزون من الأسواق ، وكان الحرام أيضا موجودا في زمانهم ومناقل عنهم سؤال إلا عن ربة إذ كان صلى الله عليه وسلم لا يسأل عن كل ما يحمل إليه بل سأل في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه : أصدقة أم هدية ^(١) ؟ لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين المدينة وهم فقراء فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة ، ثم لإسلام المعطى ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة . وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل : أصدقة أم لا ^(٢) ؟ إذ العادة ما جرت بالتصدق بالضيافة . ولذلك دعت أم سليم ^(٣) ودعا الخياط ^(٤) كما في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وقدم إليه طعاما فيه قرع ، ودعا الرجل الفارسي فقال عليه الصلاة والسلام أنا وعائشة ؟ فقال : لا ، فقال : فلا . ثم أجابه بعد فذهب هو وعائشة يتساوقان فقرب إليهما إهالة ^(٥) ، ولم ينقل السؤال في شيء من ذلك ، وسأل أبو بكر رضي الله عنه عبده عن كسبه لما رابه من أمره ، وسأل عمر رضي الله عنه الذي سقاه من لبن إبل الصدقة إذ رابه وكان أعجبه طعمه ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة . وهذه أسباب الربة وكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا بإجابته من غير تفتيش ، بل لورأى في داره تجملا ومالا كثيرا فليس له أن يقول الحلال عزيز وهذا كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال ؟ بل هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا أو اكتسبه فهو بعينه يستحق إحسان الظن به ، وازيد على هذا واقل : ليس له أن يسأله بل إن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا ما يدرى من ابن هو فهو حسن فليتلطف في الترك ، وإن كان لا بدله من أكله فليأكل بغير سؤال إذ السؤال إيذاء وهتك ستر وإحشاش وهو حرام بلا شك .

* فإن قلت : لعله لا يتأذى ؟ فأقول . لعله يتأذى فإن تسأل حذرا من « لعل » فإن قمعت فلعل ماله حلال وليس الإثم المحذور في إيذاء مسلم بأقل من الإثم في أكل الشبهة والحرام ، والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدرى هو به لأن الإيذاء في ذلك أكثر ، وإن سأل من حيث لا يدرى هو ففيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه تجسس وفيه تشبث بالغيبة وإن لم يكن ذلك صريحا . وكل ذلك منهي عنه في آية

الباب الثالث : في البحث والسؤال

- (١) حديث سؤاله في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه أصدقة أم هدية : رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام ، فسأله عنه أصدقة أم هدية ... الحديث، تقدم في الباب قبله من حديث أبي هريرة . (٢) حديث كان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا : هذا معروف مشهور ، من ذلك في الصحيحين من حديث أبي مسعود الأنصاري في صنيع أبي شعيب طعاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا مائتين وخمسة (٣) حديث دعت أم سليم : متفق عليه من حديث أنس . (٤) حديث أنس : أن خيطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم إليه طعاما فيه قرع : متفق عليه . (٥) حديث دعا الرجل الفارسي فقال « أنا وعائشة ... الحديث » رواه مسلم عن أنس .

واحدة قال الله تعالى ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ وكما زاهد جاهل يوحش القلوب في التنفيس ويتكلم الكلام الحشن المؤذي وإنما يحسن الشيطان ذلك عنده طلبا للشهرة بأكل الحلال ، ولو كان باعته محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى أشد من خوفه على بطنه أن يدخله ما لا يدرى وهو غير مؤاخذ بما لا يدرى إذ لم يكن ثم علامة توجب الاجتناب فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس ، وإذا لم يكن بدمن الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن ؛ هذا هو المألوف من الصحابة رضى الله عنهم ومن زاد عليهم في الورع فهو ضال مبتدع وليس بمتبع فلن يبلغ أحدهم أحدهم ولا نصيغه ولو انفق ما في الأرض جميعا كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام بريرة فقيل : إنه صدقة ؛ فقال : هو لها صدقة ولنا هدية ^(١) ، ولم يسأل على المتصدق عليها فكان مجهولا عنده ولم يمتنع .

الحالة الثانية : أن يكون مشکوكا فيه بسبب دلالة أورثت ريبة فلنذكر صورة ريبة ثم حكمها .

أما الخلقة : فبأن يكون على خلقة الأتراك والبوادي والمعروفين بالظلم وقطع الطريق ، وأن يكون طويل الشارب ، وأن يكون الشعر مفرقا على رأسه على دأب أهل الفساد . وأما الثياب : فالقباء والقلنسوة وزى أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم . وأما الفعل والقول : فهو أن يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل ؛ فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضا في المال ويأخذ ما لا يحل ؛ فهذه مواضع الريبة . فإذا أراد أن يشتري من مثل هذا شيئا ويأخذ منه هدية أو يجيبه إلى ضيافة وهو غريب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات ؛ فيحتمل أن يقال إن اليد تدل على الملك وهذه الدلالات ضعيفة فالإقدام جائز والترك من الورع . ويحتمل أن يقال إن اليد دلالة ضعيفة وقد قابلها مثل هذه الدلالة فأورثت ريبة فالهجوم غير جائز ، وهو الذي تختاره ونفتى به لقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ^(٢) ، فظاهره أمر وإن كان يحتمل الاستحباب لقوله صلى الله عليه وسلم « الإثم حزاز القلوب » ^(٣) ، وهذا له وقع في القلب لا ينكر ولأن النبي صلى الله عليه وسلم سأل : أصدقة هو أو هدية ؟ وسأل أبو بكر رضى الله عنه غلامه . وسأل عمر رضى الله عنه . وكل ذلك كان في موضع الريبة وحمله على الورع وإن كان ممكنا ولكن لا يحمل عليه إلا بقياس حكيم والقياس ليس يشهد بتحليل هذا فإن دلالة اليد والإسلام وقد عارضتها هذه الدلالات أورثت ريبة فإذا تقابلا فلا استحلال لمستند له . وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة كما إذا وجدنا الماء متغيرا واحتمل أن يكون بطول المكث فإن رأينا ظبية بالث فيه ثم احتمل أن التغير به تركنا الاستصحاب وهذا قريب منه . ولكن بين هذه الدلالات تفاوت فإن طول الشوارب ولبس القباء وهيته الأجناد يدل على الظلم بالمال . أما القول والفعل المخالفان للشرع إن تعلقا بظلم المال فهو أيضا دليل ظاهر كما لو سمعه يأمر بالنصب والظلم أو يعقد عقد الربا . فأما إذا رآه قد شتم غيره في غضبه أو اتبع نظره امرأة مرت به فهذه الدلالة ضعيفة فكم من إنسان يتحرج في طلب المال ولا يكتسب إلا الحلال ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة ؟ فليتبه لهذا التفاوت ولا يمكن أن يضبط هذا بحد فليستفت العبد في مثل ذلك قلبه . وأقول إن هذا إن رآه من مجهول فله حكم وإن رآه من عرفه بالورع في الطهارة والصلاة وقراءة القرآن فله حكم آخر إذ تعارضت

(١) حديث أسكه طعام بريرة فقيل إنها صدقة فقال « هو لها صدقة ولنا هدية » متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث « دع ما يريبك » تقدم في البابين قبله . (٣) حديث « الإثم حزاز القلوب » تقدم في العلم .

الدلالات بالإضافة إلى المال وتساقطنا وعاد الرجل كالمجهول إذ ليست إحدى الدالتين تناسب المال على الخصوص فكم من متحرج في المال لا يتحرج في غيره وكم من محسن للصلاة والوضوء والقراءة ويأكل من حيث يجد فالحكم في هذه المواقع ما يميل إليه القلب فإن هذا أمر بين العبد وبين الله فلا يبعد أن ينط بسبب خفي لا يطلع عليه إلا هو ورب الأرباب وهو حكم حرازة القلب . ثم ليتنبه لدقيقة أخرى وهو أن هذه الدلالة ينبغي أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام بأن يكون جنديا أو عامل سلطان أو نائحه أو مغنية فإن دل على أن في ماله حراما قليلا لم يكن السؤال واجبا بل كان السؤال من الورع .

الحالة الثالثة : أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وعارسة بحيث يوجب ذلك ظنا في حل المال أو تحريمه مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعدالته في الظاهر وجوز أن يكون الباطن بخلافه فهنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما في المجهول ؛ فالأولى الإقدام . والإقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراما . وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعاما تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى »^(١) ، فأما إذا علم بالخبرة أنه جندى أو مغن أو مرب واستغنى عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والثياب ، فههنا السؤال واجب لاحالة كما في موضع الريه بل أولى .

المثار الثاني : ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المالك

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام كما إذا طرح في سوق أحال من طعام غضب واشتراها أهل السوق فليس يجب على من يشتري في تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال ، فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب . والسوق الكبير حكمه حكم بلد . والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام أن الصحابة رضی الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق وفيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرها ، وكانوا لا يسألون في كل عقد ، وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادرا في بعض الأحوال وهي محال الريه في حق ذلك الشخص المعين ، وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين ، وربما أخذوا أموالهم واحتمل أن يكون في تلك الغنائم شيء مما أخذوه من المسلمين وذلك لا يحل أخذه مجانا بالاتفاق بل يرد على صاحبه عند الشافعي رحمه الله ، وصاحبه أولى به بالثمن عند أبي حنيفة رحمه الله ، ولم ينقل قط التفتيش عن هذا . وكتب عمر رضي الله عنه إلى أذريججان : إنكم في بلاد تذبح فيها الميتة فانظروا ذكيه من ميتة . أذن في السؤال وأمر به ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي أثمانها لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود وإن كانت هي أيضا تباع وأكثر الجلود كان كذلك . وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : إنكم في بلاد أكثر قصايها المجوس فانظروا الذكي من الميتة فخص بالأكثر الأمر بالسؤال . ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور وفرض مسائل يكثر وقوعها في العادات فلنفرضها :

مسألة : شخص معين خالط ماله الحرام مثل أن يباع على دكان طعام مغصوب أو مال منتهب ، ومثل أن يكون القاضي أو الرئيس أو العامل أو الفقيه الذي له إدرار على سلطان ظالم له أيضا مال موروث ودمقة أو تجارة أو رجل

(١) حديث : لا تأكل إلا طعاما تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى . تقدم في الزكاة .

تاجر يعامل بمعاملات صحيحة ويرى أيضا . فإن كان الأكثر من ماله حراما لا يجوز الأكل من ضيافته ولا قبول هديته ولا صدقته إلا بعد التفتيش ، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك وإلا ترك ، وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشتبها فهذا في محل النظر لأنه على رتبة بين الرتبين ، إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بعشر ميات مثلا وجب اجتناب الكل وهذا يشبهه من وجه من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور لاسيما إذا لم يكن كثيرا المال مثل السلطان ، ويخالفه من وجه إذ الميته يعلم وجودها في الحال يقينا والحرام الذي غالط ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجودا في الحال وإن كان المال قليلا ، وعلم قطعا أن الحرام موجود في الحال فهو ومسألة اختلاط الميته واحد . وإن كثر المال واحتمل أن يكون الحرام غير موجود في الحال فهذا أخف من ذلك ويشبه من وجه الاختلاط بغير محصور كما في الأسواق والبلاد ولكنه أغلظ منه لاختصاصه بشخص واحد ، ولا يشك في أن الهجوم عليه بعيد من الورع جدا ولكن النظر في كونه فسقا مناقض للعدالة ، وهذا من حيث النقل أيضا غامض لتجاذب الأشياء ، ومن حيث النقل أيضا غامض لأن ما ينقل فيه عن الصحابة من الامتناع في مثل هذا وكذا عن التابعين يمكن حمله على الورع ولا يصادف فيه نص على التحريم . وما ينقل من إقدام على الأكل كأكل أبي هريرة رضي الله عنه طعام معاوية مثلا إن قدر في جملة ما في يده حرام فذلك أيضا يحتمل أن يكون إقدامه بعد التفتيش واستبانة أن عين ما يأكله من وجه مباح . فالأفعال في هذا ضعيفة الدلالة ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة حتى قال بعضهم : لو أعطاني السلطان شيئا لاخذته وطرده الإباحة فيما إذا كان الأكثر أيضا حراما مهما لم يعرف عين المأخوذ واحتمل أن يكون حلالا ، واستدل بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين - كما سيأتي في باب بيان أموال السلاطين فأما إذا كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجودا في الحال لم يكن الأكل حراما ، وإن تحقق وجوده في الحال - كما في مسألة اشتباه الذكية بالميته - فهذا مما لا أدري ما أقول فيه وهو من المتشابهات التي يتحير المفتي فيها لأنها مترددة بين مشابهة المحصور وغير المحصور . والرضيعة إذا اشتهت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب وإن كانت ببلدة فيها عشرة آلاف لم يجب . وبينهما أعداد ، ولو سئلت عنها لكنت لا أدري ما أقول فيها ، ولقد توقف العلماء في مسائل هي أوضح من هذه إذ سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل رعى صيدا فوقع في ملك غيره أيا كان الصيد للرأي أو لملك الأرض ؟ فقال : لا أدري ، فراجع فيه مرات فقال : لا أدري . وكثيرا من ذلك حكيناه عن السلف في كتاب العلم فليقطع المفتي طمعه عن درك الحكم في جميع الصور . وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة عن معاملته قوما يعاملون السلاطين ، فقال : إن لم يعاملوا سوى السلطان فلا تعاملهم وإن عاملوا السلطان وغيره فعاملهم . وهذا يدل على المسامحة في الأقل ويحتمل المسامحة في الأكثر أيضا . وبالجملة فلم ينقل عن الصحابة أنهم كانوا يهجرون بالكلية معاملة القصاب والخباز والتاجر لتعاطيه عقدا واحدا فاسدا أو لمعاملة السلطان مرة ؛ وتقدير ذلك فيه بعد والمسألة مشكلة في نفسها .

* فإن قيل : فقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه رخص فيه وقال : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام . وسئل ابن مسعود رضي الله عنه ذلك فقال له السائل : إن لي جارا لأعلمه إلا خبيثا يدعوننا أو نحتاج فنستسلفه فقال : إذا دعاك فأجبه وإذا احتجت فاستسلفه فإن لك المهنا وعليه المأثم . وأفتى سلسان بمثل ذلك . وقد علل على بالكثرة وعلل ابن مسعود رضي الله عنه بطريق الإشارة بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ولك المهنا أي أنت لا تعرفه . وروى أنه قال رجل لابن مسعود

رضى الله عنه . إن لي جاراً يأكل الربا فيدعوننا إلى طعامه أفأنتيه ؟ فقال : نعم . وروى في ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه روايات كثيرة مختلفة وأخذ الشافعي ومالك رضي الله عنهما جوائز الخلفاء والسلاطين مع العلم بأنه قد خالط ما لهم الحرام ؟ قلنا : أما ما روى عن علي رضي الله عنه فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك فإنه كان يمتنع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له إلا قميص واحد في وقت الغسل لا يجد غيره . ولست أنكر أن رخصته صريح في الجواز وفعله محتمل للورع ولكنه لو صح قال السلطان له حكم آخر فإنه بحكم كثرته يكاد يلتحق بما لا يحصر . وسيأتي بيان ذلك . وكذا فعل الشافعي ومالك رضي الله عنهما متعلق بمال السلطان . وسيأتي حكمه . وإنما كلامنا في آحاد الخلق وأمواهم قريبة من الحصر . وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه فقيل إنه إنما نقله خوات التيمى وإنه ضعيف الحفظ والمشهور عنه ما يدل على توقي الشبهات إذ قال : لا يقولن أحدكم أخاف وأرجو فإن الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتهات فدع ما يريك إلى ما لا يريك . وقال : اجتنبوا الحكايات ففيها الإثم .

• فإن قيل : فلم قلتم إذا كان الأكثر حراماً لم يحز الأخذ مع أن المسأخذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص ، واليد علامة على الملك حتى إن من سرق مال مثل هذا الرجل قطعت يده والكثرة توجب ظناً مرسلات لا تتعلق بالعين فليكن كغالب الظن في طين الشوارع وغالب الظن في الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام ، ولا يجوز أن يستدل على هذا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريك إلى ما لا يريك » ، لأنه مخصوص ببعض المواضع بالاتفاق وهو أن يريه بعلامة في عين الملك بدليل اختلاط القليل بغير المحصور فإن ذلك يوجب رية ومع ذلك قطعتم بأنه لا يحرم ؟ فالجواب أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب وإنما تؤثر إذا سلمت عن معارض قوى . فإذا تحققنا الاختلاط وتحققنا أن الحرام المخالط موجود في الحال ، والمال غير خال عنه ، وتحققنا أن الأكثر هو الحرام وذلك في حق شخص معين يقرب ماله من الحصر ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى اليد وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام « دع ما يريك إلى ما لا يريك » ، لا يبقى له يحمل إذ لا يمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور إذ كان ذلك موجوداً في زمانه وكان لا يدعه . وعلى أي موضع حمل هذا كان هذا في معناه . وحمله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس فإن تحريم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب ، وللكثرة تأثير في تحقيق الظن وكذا للحصر وقد اجتمعاً حتى قال أبو حنيفة رضي الله عنه : لا تجتهد في الألوان إلا إذا كان الطاهر هو الأكثر . فاشترط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوة الكثرة : ومن قال يأخذ أي آنية أراد بلا اجتهاد بناء على مجرد الاستصحاب فيجوز الشرب أيضاً فيلزمه التجوز ههنا بمجرد علامة اليد . ولا يجري ذلك في بول أشبه بهما إذ لا استصحاب فيه ولا نطرده أيضاً في ميتة اشتهت بذكية إذ لا استصحاب في الميتة ، واليد لا تدل على أنه غير ميتة وتدل في الطعام المباح على أنه ملك . فههنا أربع متعلقات . استصحاب ، وقلة في المخلوط أو كثرة ، وانحصار أو اتساع في المخلوط ، وعلامة خاصة في عين الشيء يتعلق بها الاجتهاد . فمن يغفل عن مجموع الأربعة ربما يغلط فيشبه بعض المسائل بما لا يشبهه . فحصل مما ذكرناه أن المختلط في ملك شخص واحد إما أن يكون الحرام أكثره أو أقله وكل واحد إما أن يعلم بيقين أو بظن عن علامة أو توم . فالسؤال يجب في موضعين : وهو أن يكون الحرام أكثر يقيناً أو ظناً كما لو رأى تركياً مجهولاً يحتمل أن يكون كل ماله من غنيمة وإن كان الأقل معلوماً باليقين فهو محل التوقف وتكاد تسير سير أكثر السلف وضرورة الأحوال إلى الميل إلى الرخصة . وأما الأقسام الثلاثة الباقية

فالسؤال واجب فيها أصلاً .

مسألة : إذا حضر طعام إنسان علم أنه دخل في يده حرام من إدراك كان قد أخذه أو وجه آخر ولا يدري أنه بقي إلى الآن أم لا ، قله الأكل ولا يلزمه التفتيش وإنما التفتيش فيه من الورع ، ولو علم أنه قد بقي منه شيء ولكن لم يدرك أنه الأقل أو الأكثر فله أن يأخذ بأنه الأقل . وقد سبق أن أمر الأقل مشكل وهذا يقرب منه .

مسألة : إذا كان يد المتولى للخيرات أو الأوقاف أو الوصايا مالان يستحق هو أحدهما ولا يستحق الثاني لأنه غير موصوف بتلك الصفة فهل له أن يأخذ مايسلمه إليه صاحب الوقف ؟ نظر ، فإن كانت تلك الصفة ظاهرة يعرفها المتولى وكان المتولى ظاهر العدالة فله أن يأخذ بغير بحث لأن الظن بالمتولى أنه لا يصرف إليه ما يصرفه لإلزام المال الذي يستحقه ، وإن كانت الصفة خفية وإن كان المتولى ممن عرف حاله أنه يخط ولا يبالي كيف يفعل فعليه السؤال ، إذ ليس ههنا يد ولا استصحاب يعول عليه ، وهو زان سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقة والهدية عند ترده فيهما لأن اليد لا تخصص الهدية عن الصدقة ولا الاستصحاب فلا ينبغى منه إلا السؤال ، فإن السؤال حيث أسقطناه في المجهول أسقطناه بعلامة اليد والإسلام ، حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لحما من ذبيحته واحتمل أن يكون مجوسياً لم يحرم له ما لم يعرف أنه مسلم إذ اليد لا تدل في الميتة ولا الصورة تدل على الإسلام إلا إذا كان أكثر أهل البلدة مسلمين ، فيجوز أن يظن بالذي ليس عليه علامة الكفر أنه مسلم وإن كان الخطأ بمكنافيه فلا ينبغى أن تلتبس المواضع التي تشهد فيها اليد والحال بالتي لا تشهد .

مسألة : له أن يشتري في البلد داراً وإن علم أنها تشتمل على دور مغصوبة لأن ذلك الاختلاط بغير محصور ولكن السؤال احتياط وورع . وإن كان في سكة عشر دور مثلاً إحداها مغصوب أو وقف لم يحز الشراء ما لم يتميز ويجب البحث عنه . ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب فليس له أن يسكن أيها شاء ويأكل من وقفها بغير سؤال لأن ذلك من باب اختلاط المحصور فلا بد من التمييز ، ولا يجوز الهجوم مع الإبهام لأن الرباطات والمدارس في البلد لا بد أن تكون محصورة .

مسألة : حيث جعلنا السؤال من الورع فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام وعند ذلك لا يبالي بغضب مثله ، إذ يجب إبداء الظالم بأكثر من ذلك . والغالب أن مثل هذا لا يغضب من السؤال . نعم إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله ممن هو تحت رعايته فله أن يسأل مهما استراب لأنهم لا يغيضون من سؤاله ، ولأن عليه أن يسأل ليطلعهم طريق الحلال ولذلك سأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه ، وسأل عمر من سقاء من لبل الصدقة ، وسأل أبا هريرة رضي الله عنه أيضاً لما أن قدم عليه بهال كثير فقال : ويحك أكل هذا طيب ؟ من حيث إنه تعجب من كثرتهم وكان هو من رعيته لاسيما وقد رفق في صيغة السؤال ، وكذلك قال علي رضي الله عنه : ليس شيء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورفقه ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه .

مسألة . قال الحارث المحاسبي رحمه الله : لو كان له صديق أو أخ وهو يأمن غضبه لو سأله فلا ينبغى أن يسأله لأجل الورع ، لأنه ربما يبدو له ما كان مستورا عنه فيكون قد حمل على هتك السترة ثم يؤدي ذلك إلى البغضاء ، وما ذكره حسن لأن السؤال إذا كان من الورع لإلزام الوجوب فالورع في مثل هذه الأمور الاحتراز عن هتك السترة ، وإفارة البغضاء أهم . وزاد على هذا فقال : وإن رآه منه شيء أيضاً لم يسأله ويظن به أنه يطعمه من الطيب

ويجنبه الحديث فإن كان لا يطمئن قلبه إليه فيحترز متلطفا ولا يهتك ستره بالسؤال ، قال : لأنني لم أر أحدا من العلماء فعله ، فهذا منه مع ما اشتهر به من الزهد يدل على مسامحة فيما إذا خالط المال الحرام القليل ولكن ذلك عند التوهم لا عند التحقيق لأن لفظ الرية يدل على التوهم بدلالة تدل عليه ولا يوجب اليقين فليراعى هذه الدقائق بالسؤال .

مسألة : ربما يقول القائل : أى فائدة في السؤال عن بعض ماله حرام ومن يستحل المال الحرام ربما يكذب فإن وثق بأمانته فليثق بديانته في الحلال ؟ فأقول : مهما علم مخالطة الحرام لمال لإنسان وكان له غرض في حضورك ضيافته أو قبولك هديته فلا تحصل الثقة بقوله فلا فائدة للسؤال منه ، فينبغي أن يسأل من غيره ، وكذا إن كان يباعا وهو يرغب في البيع لطلب الربح فلا تحصل الثقة بقوله إنه حلال ولا فائدة في السؤال منه وإنما يسأل من غيره . وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن متهما كما يسأل المتولى على المال الذي يسلمه أنه من أى جهة وكما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهدية والصدقة فإن ذلك لا يؤذى ولا يتهم القائل فيه ، وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدري طريق كسب الحلال ؛ فلا يتهم في قوله إذا أخبر عن طريق صحيح ، وكذلك يسأل عبده وخادمه ليعرف طريق اكتسابه . فههنا يغيد السؤال فإذا كان صاحب المال متهما فليسأل من غيره فإذا أخبره عدل واحد قبله وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه جاز قبوله لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة النفس ، وقد يحصل من الثقة بقول فاسق ما لا يحصل بقول عدل في بعض الأحوال ، وليس كل من فسق يكذب ولا كل من ترى العدالة في ظاهره يصدق . وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم فإن البواطن لا يطلع عليها وقد قبل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق . وكمن شخص تعرفه وتعرف أنه قد يقتحم المعاصي ثم إذا أخبرك بشيء وثقت به . وكذلك إذا أخبر به صبي مميز بمن عرفته بالتثبت فقد تحصل الثقة بقوله فيحل الاعتماد عليه . فأما إذا أخبر به مجهول لا يدري من حاله شيء أصلا فهذا بمن جاوزنا الأكل من يده لأن يده دلالة ظاهرة على ملكه . وربما يقال لإسلامه دلالة ظاهرة على صدقه ؛ وهذا فيه نظر ، ولا يخلو قوله عن أثر ما في النفس حتى لو اجتمع منهم جماعة تفيد ظنا قويا إلا أن أثر الواحد فيه في غاية الضعف فليُنظر إلى حد تأثيره في القلب فإن المفتى هو القلب في مثل هذا الموضع والقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فليأمل فيه . ويدل على وجوب الالتفات إليه ما روى عن عقبة بن الحارث ، أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى تزوجت امرأة لجماء أمة سوداء فرعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة ، فقال : دعها ، فقال : إنها سوداء - يصغر من شأنها - فقال عليه السلام : فكيف وقد زعمت أنها قد أرضعتنا ؟ لا خير لك فيها دعها عنك ^(١) . وفي انقضاء آخر - كيف وقد قيل ، ومهما لم يعلم كذب المجهول ولم تظهر أماره غرض له فيه كان له وقع في القلب لا محالة ؛ فلذلك يتأكد الأمر بالاحتراز فإن اطمأن إليه القلب كان الاحتراز حتما واجبا .

مسألة : حيث يجب السؤال فلو تعارض قول عدلين تساقطا وكذا قول فاسقين ، ويجوز أن يرجح في قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين ، ويجوز أن يرجح أحد الجانبين بالكثرة أو بالأختصاص بالخبرة والمعرفة وذلك بما يتشعب تصويره .

مسألة : لو نهب متاع مخصوص فصادف من ذلك النوع متاعا في يد إنسان وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون

(١) حديث عقبة : إنى تزوجت امرأة لجماء أمة سوداء فرعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة . رواه البخاري من حديث عقبة ابن الحارث .

من المنصوب فإن كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصلاح جاز الشراء وكان تركه من الورع . وإن كان الرجل مجهولاً لا يعرف منه شيئاً فإن كان يكثر نوع ذلك المتاع من غير المنصوب فله أن يشتري . وإن كان لا يوجد ذلك المتاع في تلك البقعة إلا نادراً وإنما كثر بسبب الغصب فليس يدل على الحل إلا الاليد وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع ونوعه ، فالامتناع عن شرائه من الورع المهم ، ولكن الوجوب فيه نظر فإن العلامة متعارضة . ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم إلا أرده إلى قلب المستفتي لينظر ما الأقوى في نفسه فإن كان الأقوى أنه منصوب لزمه تركه وإلا حل له شراؤه . وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها فهي من المتشابهات التي لا يعرفها كثير من الناس فمن توقاها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن اقتحمها فقد حام حول الحمى وخاطر بنفسه .

مسألة : لو قال قائل : قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبن قدم إليه فذكر أنه من شاة فسأل عن الشاة من أين هي فذكر له فسكت عن السؤال ^(١) فيجب السؤال عن أصل المال أم لا ، وإن وجب فعن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة وما الضبط فيه ؟ فأقول : لا ضبط فيه ولا تقدير بل ينظر إلى الرية المقتضية للسؤال إما وجوباً أو ورعاً . ولا غاية للسؤال إلا حيث تنقطع الرية المقتضية له وذلك يختلف باختلاف الأحوال فإن كانت التهمة من حيث لا يدري صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال فإن قال : اشتريت ، انقطع بسؤال واحد ، وإن قال : من شاتي ، وقع الشك في الشاة . فإذا قال : اشتريت ، انقطع وإن كانت الرية من الظلم وذلك عما في أيدي العرب ويتوالد في أيديهم المنصوب فلا تنقطع الرية بقوله : إنه من شاتي ، ولا بقوله : إن الشاة ولدتها شاتي ، فإن أسنده إلى الورثة من أبيه وحالة أبيه مجهولة انقطع السؤال ، وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام فقد ظهر التحريم وإن كان يعلم أن أكثره حرام فبكثر التوالد وطول الزمان وتطرق الإرث إليه لا يغير حكمه فليُنظر في هذه المعاني .

مسألة : سئلت عن جماعة من سكان خانقاه الصوفية وفي يد خادهم الذي يقدم لإيهم الطعام وقف على ذلك المسكن ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء ، وهو يخطط الكل وينفق على هؤلاء وهؤلاء فأكل طعامه حلال أو حرام أو شبهة ؟ فقلت : إن هذا يلتفت إلى سبعة أصول : (الأصل الأول) أن الطعام الذي يقدم لإيهم في الغالب يشتريه بالمعاطاة والذي اخترناه صحة المعاطاة لا سيما في الأطعمة والمستحقرات فليس في هذا إلا شبهة الخلاف . (الأصل الثاني) أن ينظر أن الخادم هل يشتريه بعين المال الحرام أو في الذمة ؟ فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام ، وإن لم يعرف فالغالب أنه يشتري في الذمة ويجوز الأخذ بالغالب ، ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد وهو شراؤه بعين مال حرام . (الأصل الثالث) أنه من أين يشتريه فإن اشتريه ممن أكثر ماله حرام لم يحز وإن كان أقل ماله ففيه نظر قد سبق ؛ وإذا لم يعرف حاز له الأخذ بأنه يشتريه بماله حلال أو ممن لا يدري المشتري حاله يبين كالمجهول ، وقد سبق جواز الشراء من المجهول لأن ذلك هو الغالب فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال . (الأصل الرابع) أن يشتريه لنفسه أو للقوم فإن المتولى والخادم كالنائب وله أن يشتريه لنفسه ولكن يكون ذلك بالنية أو صريح اللفظ وإذا كان الشراء يجري بالمعاطاة فلا يجري اللفظ ، والغالب أنه لا ينوي عند المعاطاة ، والقصاب والخباز ومن يعامله يعول عليه ويقصد البيع منه لا ممن لا يحضرون فيقع عن جبهته ويدخل في ملكه وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة ولكن يثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم .

(١) حديث : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن قدم إليه ... الحديث . تقدم في الباب الخامس من آداب الكسب والمعايش .

(الأصل الخامس) أن الخادم يقدم الطعام إليهم فلا يمكن أن يجعل ضيافة وهدية بغير عوض فإنه لا يرضى بذلك وإنما يقدم اعتياداً على عوضه من الوقت ، فهو معاوضة ولكن ليس ببيع ولا إقراض لأنه لو انتهز لمطالبتهم بالثمن استبعد ذلك وقرينة الحال لا تدل عليه . فأشبه أصل ينزل عليه هذه الحالة الهبة بشرط الثواب - أعنى هدية لالفظ فيها من شخص تقتضى قرينة حاله أنه يطمع في ثواب - وذلك صحيح والثواب لازم وههنا ما طمع الخادم في أن يأخذ ثواباً فيما قدمه إلا حقهم من الوقت ليقضى به دينه من الخبز والقصاب والبقال ، فهذا ليس فيه شبهة إذ لا يشترط لفظ في الهدية ولا في تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب ، ولا مبالاة بقول من لا يصحح هدية في انتظار ثواب . (الأصل السادس) أن الثواب الذى يلزم فيه خلاف ، فقيل إنه أقل متمول وقيل قدر القيمة وقيل ما يرضى به الواهب حتى له أن لا يرضى بأضعاف القيمة ، والصحيح أنه يتبع رضاه فإذا لم يرض يرد عليه وههنا الخادم قد رضى بما يأخذ من حق السكان على الوقت ، فإن كان لهم من الحق بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر وإن كان ناقصاً ورضى به الخادم صح أيضاً ، وإن علم أن الخادم لا يرضى لولا أن في يده الوقت الآخر الذى يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضى في الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام ، والحرام لم يدخل في أيدي السكان ، فهذا كالحلل المتطرق إلى الثمن - وقد ذكرنا حكمه من قبل - وأنه متى يقتضى التحريم ومتى يقتضى الشبهة؟ وهذا لا يقتضى تحريماً على ما فصلناه فلا تنقلب الهدية حراماً يتوصل المهدى بسبب الهدية إلى حرام . (الأصل السابع) أنه يقضى دين الخبز والقصاب والبقال من ريع الواقفين فإن وفى ما أخذ من حقهم بقيمة ما أطعمهم فقد صح الأمر ، وإن قصر عنه فرضى القصاب والخباز بأى ثمن كان حراماً أو حلالاً ، فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضاً فليتنفست إلى ما قدمنا من الشراء في الذمة ثم قضاء الثمن من الحرام ، هذا إذا علم أنه قضاء من حرام ، فإن احتمل ذلك واحتمل غيره فالشبهة أبعد ، وقد خرج من هذا أن أكل هذا ليس بحرام ولكنه أكل شبهة وهو بعيد من الورع ، لأن هذه الأصول إذا كثرت وتطرق إلى كل واحد احتمال صار احتمال الحرام بكثرته أقوى في النفس كما أن الخبر إذا طال إسناده صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناده . فهذا حكم هذه الواقعة وهى من الفتاوى وإنما أوردناها ليعرف كيفية تخريج الوقائع الملتفة الملتبسة وأنها كيف ترد إلى الأصول فإن ذلك مما يعجز عنه أكثر المفتين .

الباب الرابع: في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلم أن من تاب وفى يده محتلط فعليه وظيفة في تمييز الحرام والإخراجه ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فلينظر فيهما .

النظر الأول: في كيفية التمييز والإخراج

اعلم أن كل من تاب وفى يده ما هو حرام معلوم العين من غصب أو ودبة أو غيره فأمره سهل ؛ فعليه تمييز الحرام . وإن كان ملتبساً محتلطاً فلا يخلو إما أن يكون في مال هو من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان وإما أن يكون في أعيان متميزة كالعبيد والدور والثياب . فإن كان في المتماثلات أو كان شائناً في كله كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها في المراجعة وصدق في بعضها ، أو من غصب دهنًا وخلطه بدهن نفسه ، أو فعل ذلك في الحبوب ، أو الدراهم والدنانير فلا يخلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولاً . فإن كان معلوم القدر

مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طريقان أحدهما : الأخذ باليقين والآخر : الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قد قال به العلماء في اشتباه ركعات الصلاة . ونحن لا نجوز في الصلاة إلا الأخذ باليقين فإن الأصل اشتغال الذمة فيستصحب ولا يغير إلا بعلامة قوية وليس في أعداد الركعات علامات يوثق بها ، وأما ههنا فلا يمكن أن يقال : الأصل أن مافي يده حرام ، بل هو مشكل فيجوز له الأخذ بغالب الظن اجتهدا ، ولكن الورع في الأخذ باليقين . فإن أراد الورع فطريق التحري والاجتهاد أن لا يستبقى إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال . وإن أراد الأخذ بالظن فطريقه مثلا أن يكون في يده مال تجارة فسد بعضها فيتيقن أن النصف حلال وأن الثلث مثلا حرام ويبقى سدس يشك فيه فيحكم فيه بغالب الظن . وهكذا طريق التحري في كل مال وهو أن يقطع القدر المتيقن من الجانبين في الحل والحرم . والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه وإن غلب الحل جاز له الإمساك والورع إخراجه . وإن شك فيه جاز الإمساك والورع إخراجه ، وهذا الورع أكد لأنه صار مشكوكا فيه ، وجاز إمساكه اعتباده على أنه في يده فيكون الحل أغلب عليه وقد صار ضعيفا بعد يقين اختلاط الحرام . ويحتمل أن يقال الأصل التحريم ولا يأخذ إلا ما يغلب على ظنه أنه حلال وليس أحد الجانبين بأولى من الآخر وليس يبين لي في الحال ترجيح وهو من المشكلات .

* فإن قيل : هب أنه أخذ باليقين لكن الذي يخرج به ليس يدرى أنه عين الحرام فلعل الحرام ما بقى في يده فكيف يقدم عليه ؟ ولو جاز هذا لجاز أن يقال : إذا اختلطت مائة بتسع مذكاة فهي المشرقة أن يطرح واحدة أى واحدة كانت - ويأخذ الباقي ويستحله ولكن يقال : لعل المية فيما استبقاه بل لو طرح التسع واستبقى واحدة لم تحل لاحتمال أنها الحرام ؟ فنقول : هذه الموازنة كانت تصح لولا أن المال يحل بإخراج البدل لتطرق المعاوضة إليه ، وأما المية فلا تطرق المعاوضة إليها فليكشف الغطاء عن هذا الإشكال بالفرض في درهم معين اشتبه بدرهم آخر فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبه عينه ، وقد سئل أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن مثل هذا فقال : يدع الكل حتى يتبين ، وكان قد رهن آنية فلما قضى الدين حل إليه المرتهن آيتين وقال : لا أدري أيتهما آيتك ؟ فتركهما فقال المرتهن : هذا الذي هو لك وإنما كنت اختبرك ؟ فقضى دينه ولم يأخذ الرهن وهذا ورع ولكننا نقول إنه غير واجب . فلنفرض المسألة في درهم له مالك معين حاضر فنقول : إذا رد أحد الدرهمين عليه ورضى به مع العلم بحقيقة الحال حل له الدرهم الآخر ، لأنه لا يخلو إما أن يكون المردود في علم الله هو المأخوذ فقد حصل المقصود وإن كان غير ذلك فقد حصل لكل واحد درهم في يد صاحبه ، فالاحتياط أن يتبايعا باللفظ فإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاوضة ، وإن كان المغصوب منه قد فات له درهم في يد الغاصب وعسر الوصول إلى عينه واستحق ضمانه فلما أخذه وقع عن الضمان بمجرد القبض وهذا في جانبه واضح ، فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ والإشكال في الجانب الآخر أنه لم يدخل في ملكه . فنقول : لأنه أيضا إن كان قد تسلم درهم نفسه فقد فات له أيضا درهم في يد الآخر فليس يمكن الوصول إليه فهو كالغائب فيقع هذا بدلا عنه في علم الله إن كان الأمر كذلك ، ويقع هذا التبادل في علم الله كما يقع التقاص لو أتلف رجلان كل واحد منهما درهما على صاحبه ، بل في عين مسألتنا لو ألقى كل واحد مافي يده في البحر أو أحرقه كان قد أتلفه ولم يكن عليه عهدة للآخر بطريق التقاص ، فكذا إذا لم يتلف فإن القول بهذا أولى من المصير إلى أن من يأخذ درهما حراما ويطره في ألف ألف درهم لرجل آخر يصير كل المال محجورا عليه لا يجوز التصرف

فيه وهذا المذهب يؤدي إليه ، فانظر ما في هذا من البعد وليس فيها ذكرناه إلا ترك اللفظ . والمعاطاة بيع ومن لا يجعلها بيعا بحيث يتطرق إليها احتمال إذ الفعل يضعف دلالة حيث يمكن التلفظ ، وههنا هذا التسليم والتسلم للبدالة قطعا والبيع غير ممكن لأن المبيع غير مشار إليه ولا معلوم في عينه وقد يكون مما لا يقبل البيع كما لو خلط رطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره وكذا الدبس والرطب وكل مالا يباع البعض منه بالبعض .

* فإن قيل : فأنتم جوزتم تسليم قدر حقه في مثل هذه الصورة وجعلتموه بيعا ؟ قلنا : لا نجعله بيعا بل نقول هو بدل عما فات في يده فيملكه كما يملك المتلف عليه من الرطب إذا أخذ مثله ؛ هذا إذا ساعده صاحب المال فإن لم يساعده وأضر به وقال : لا أخذ درهما أصلا إلا عين ملكي فإن استهم فأتركه ولا أهبه وأعطل عليك مالك . فأقول على القاضي أن ينوب عنه في القبض حتى يطيب للرجل ماله فإن هذا محض التعنت والتضييق والشرع لم يرد به فإن عجز عن القاضي ولم يحده فليحكم رجلا متدينا ليقبض عنه فإن عجز فيتولى هو بنفسه ويفرد على نيه الصرف إليه درهما ويتعين ذلك له ويطيب له الباقي ، وهذا في خلط المائعات أظهر وأزهر .

* فإن قيل فينبغي أن يحل له الأخذ وينتقل الحق إلى ذمته فأى حاجة إلى الإخراج أولا ثم التصرف في الباقي ؟ قلنا : قال قائلون يحل له أن يأخذ مادام يبقى قدر الحرام ولا يجوز أن يأخذ الكل ولو أخذ لم يحز له ذلك . وقال آخرون : ليس له أن يأخذ مالم يخرج قدر الحرام بالتوبة وقصد الإبدال ، وقال آخرون يجوز للأخذ في التصرف أن يأخذ منه وأما هو فلا يعطى فإن أعطى عصي هو دون الأخذ منه ، وما جوز أحد أخذ الكل وذلك لأن المالك لو ظهر فله أن يأخذ حقه من هذه الجملة إذ يقول لعل المصروف إلى يقع عين حقي . وبالتعيين وإخراج حق الغير وتمييزه يندفع هذا الاحتمال فهذا المال يرجح بهذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم كما يقدم المثل على القيمة والعين على المثل فكذلك ما يحتمل فيه رجوع المثل مقدم على ما يحتمل فيه رجوع القيمة وما يحتمل فيه رجوع العين يقدم على ما يحتمل فيه رجوع المثل ولو جاز لهذا أن يقول ذلك لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين ويتصرف فيهما ويقول على قضاء حقتك من موضع آخر ؛ إذ الاختلاط من الجانبين وليس ملك أحدهما بأن يقدر فائتا بأولى من الآخر إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه فائت فيه أو ينظر إلى الذي خلط فيجعل بفعله متلفا لحق غيره وكلاهما بعيدان جدا . وهذا واضح في ذوات الأمثال فإنها تقع عرضا في الإثلاطات من غير عقد فأما إذا اشتبه دار بدور أو عبد بعبيد فلا سبيل إلى المصالحة والتراضي فإن أبي أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه ، فإن كانت متباعدة القيم فالطريق أن يبيع القاضي جميع الدور ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة وإن كانت متفاوتة أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ، ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الإصلاح لأنه مشكل ، وإن لم يوجد القاضي فللذئ يريد الخلاص وفي يده الكل أن يتولى ذلك بنفسه ، هذه هي المصلحة وما عداها من الاحتمالات ضعيفة لا تختارها وفيها سبق تنبيه على العلة ، وهذا في الحنطة ظاهر ، وفي النقود دونه ، وفي العروض أغعض ، إذ لا يقع البعض بدلا عن البعض ، فلذلك احتيج إلى البيع ولترسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل :

مسألة : إذا ورث مع جماعة وكان السلطان قد غصب ضيعة لمورثهم فرد عليه قطعة معينة فهي لجميع الورثة . ولو رد من الضيعة نصفها وهو قدر حقه ساهمه الورثة ، فإن النصف الذي له لا يتميز حتى يقال : هو المردود ، والباقي هو المنصوب ، ولا يصير ميزا بنية السلطان ، وقصده حصر النصب في نصيب الآخرين .

مسألة . إذا وقع في يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب والمال عقار وكان قد حصل منه انتفاع ؛ فينبغي أن يحسب أجر مثله لطول تلك المدة ، وكذلك كل مغصوب له منفعة أو حصل منه زيادة ، فلا تصح توبته ما لم يخرج أجره المغصوب ، وكذلك كل زيادة حصلت منه وتقدير أجره العبيد والثياب والأواني وأمثال ذلك مما لا يعتاد إيجارها بما يعسر ولا يدرك ذلك إلا باجتهاد وتخمين ، وهكذا كل التقويمات تقع بالاجتهاد وطريق الورع الأخذ بالأنصى ، وماربجه على المال المغصوب في عقود عقدها على الذمة وقضى الثمن منه ، فهو ملك له ولكن فيه شبهة ، إذ كان ثمنه حراما كما سبق حكمه ، وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقود كانت فاسدة ، وقد قيل : تنفذ بإجازة المغصوب منه للمصلحة فيكون المغصوب منه أولى به ، والقياس أن تلك العقود تفسخ وتسترد الثمن وترد الأعيان فإن عجز عنه لكثرته فهي أموال حرام حصلت في يده فللمغصوب منه قدر رأس ماله ، والفضل حرام يجب إخراجه لستصدق به ، ولا يحل للغاصب ولا للمغصوب منه ، بل حكمه حكم كل حرام يقع في يده .

مسألة : من ورث مالا ولم يدر أن مورثه من أين اكتسبه أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثم علامة ، فهو حلال باتفاق العلماء ، وإن علم أن فيه حراما وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحري ، فإن لم يعلم ذلك ولكن علم أن مورثه كان يتولى أعمالا للسلطين واحتمل أنه لم يكن يأخذ في عمله شيئا ، أو كان قد أخذ ولم يبق في يده منه شيء لطول المدة ، فهذه شبهة يحسن التورع عنها ولا يجب ، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر بالاجتهاد . وقال بعض العلماء : لا يلزمه والإثم على المورث ، واستدل بما روى أن رجلا من ولى عمل السلطان مات ، فقال صحابي : الآن طاب ماله : أى لوارثه ، وهذا ضعيف ، لأنه لم يذكر اسم الصحابي ولعله صدر من متساهل ، فقد كان في الصحابة من يتساهل ، ولكن لا نذكره لحرمة الصحبة ، وكيف يكون موت الرجل ميسحا للحرام المتيقن المختلط ومن أين يؤخذ هذا ؟ نعم إذا لم يتيقن يجوز أن يقال : هو غير مأخوذ بما لا يدري ، فيطيب لوارث لا يدري أن فيه حراما يقيتنا .

النظر الثاني : في المصرف

فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال :

أما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه ، وإن كان غائبا فينتظر حضوره أو الإيصال إليه ، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره .

وأما أن يكون لمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عييه ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا ، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه ، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك ، كغلول الغنيمة فإنها بعد تفرق الغزاة ، كيف يقدر على جمعهم ، وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً مثلاً على ألف أو ألفين ، فهذا ينبغي أن يتصدق به .

وأما من مال النوى والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات ومصانع طريق مكة ، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها كل من يمر بها من المسلمين ، ليكون عاما للمسلمين ، وحكم القسم الأول لاشبهة فيه . أما التصديق وبناء القناطر فينبغي أن يتولاه القاضي فيسلم لإليه المال إن وجد قاضيا متدينا ، وإن كان القاضي مستحلا فهو بالتسليم إليه ضامن لو ابتدأ به فيما لا يضمنه ، فكيف يسقط عنه به ضمان قد استقر عليه ، بل يحكم من أهل البلد عالما متدينا ، فإن التحكيم أولى من الانفراد ، فإن عجز فليتول

ذلك بنفسه ، فإن المقصود الصرف . وأما عين الصارف فإنما نطلبه لمصارف دقيقة في المصالح ، فلا يترك أصل الصرف بسبب العجز عن صارف هو أولى عند القدرة عليه .

* فإن قيل : ما دليل جواز التصديق بما هو حرام ؟ وكيف يتصدق بما لا يملك ؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام . وحكى عن الفضيل أنه وقع في يده درهمان فلما علم أنهما من غير وجههما رماه بين الحجارة وقال : لا أتصدق إلا بالطيب ولا أرضى لتغيري مالا أرضاه لنفسي . * فقول : نعم ، ذلك له وجه واحتمال . وإنما اخترنا خلافه للخبر والأثر والقياس : أما الخير فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت إليه فكلمته بأنها حرام ، إذ قال صلى الله عليه وسلم أطعموها الأسارى ^(١) ولما نزل قوله تعالى ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ كذبه المشركون وقالوا للصحابه : ألا ترون ما يقول صاحبكم ، يزعم أن الروم ستغلب ، فخطبهم أبو بكر رضى الله عنه بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما حقق الله صدقه وجاء أبو بكر رضى الله عنه بما قامهم به قال عليه الصلاة والسلام : هذا سحت ، فتصدق به وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان قد نزل تحريم القمار بعد إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له في المخاطرة مع الكفار ^(٢) وأما الأثر فإن ابن مسعود رضى الله عنه اشترى جارية فلم يظفر بمالكها لينقده الثمن ، فطلبه كثيرا فلم يجده ، فتصدق بأثنى وقال : اللهم هذا عنه إن رضى وإلا فالأجر لي . وسئل الحسن رضى الله عنه عن توبة الغال وما يؤخذ منه بعد تفرق الجيش ، فقال يتصدق به . وروى أن رجلا سئلت له نفسه فقل مائة دينار من الضيعة ، ثم أتى أميره ليردها عليه فأبى أن يقبضها وقال له : تفرق الناس ، فأتى معاوية فأبى أن يقبض ، فأتى بعض النساك فقال : ادفع خمسها إلى معاوية ، وتصدق بما بقي ، فبلغ معاوية قوله ، فتلهف إذ لم يخطر له ذلك ، وقد ذهب أحمد بن حنبل والحارس المحاسب وجماعة من الورعين إلى ذلك .

وأما القياس فهو أن يقال : إن هذا المال مردد بين أن يضيع وبين أن يصرف إلى خير ، إذ قد وقع اليأس من مالكة ، وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه في البحر ، فإنما إن رميناه في البحر فقد فوتناه على أنفسنا وعلى المالك ولم تحصل منه فائدة : وإذا رميناه في يد فقير يدعو لمالكة حصل للمالك بركة دعائه وحصل للفقير سد حاجته ، وحصول الأجر للمالك بغير اختياره في التصديق لا ينبغي أن ينكر . فإن في الخبر الصحيح « إن للزارع والغارس أجرا في كل ما يصيبه الناس والطيور من ثماره وزرعه » ^(٣) ، وذلك بغير اختياره ، وأما قول القائل : لا تتصدق إلا بالطيب ، فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلة لا الأجر

الباب الرابع : في كيفية خروج التائب عن المظالم

(١) حديث : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت بين يديه وكلته بأنها حرام ، إذ قال « أطعموها الأسارى » رواه أحمد من حديث رجل من الأنصار قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فلما رجنا لقينا راعي امرأة من قرين فقال : إن فلانة تدعوك ومن معك إلى طعام ... الحديث ، وفيه : فقال « أحد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها » وفيه فقال « أطعموها الأسارى » وإسناده جيد (٢) حديث : مخاطرة أبي بكر المشركين بإذنه صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى ﴿ ألم غلبت الروم ﴾ وفيه فقال صلى الله عليه وسلم « هذا سحت » فتصدق به . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن عباس ، وليس فيه أن ذلك كان بإذنه صلى الله عليه وسلم ، والحديث عند الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه دون قوله أيضا « هذا سحت » فتصدق به .

(٣) حديث « أجر الزارع والغارس في كل ما يصيب الناس والطيور » أخرجه البخاري من حديث أنس « ما من مسلم يفرس غرسا أو يزرع زرا فيا كل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له صدقة » .

وتردنا بين التضييع وبين التصدق ورجحنا جانب التصدق على جانب التضييع . وقول القائل : لارضى لغيرنا ما لارضاه لأنفسنا ، فهو كذلك ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه والفقير حلال إذ أحله دليل الشرع ، وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل وإذا حل فقد رضينا له الحلال ونقول إن له أن يتصدق على نفسه . وعياله إذا كان فقيرا . أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لا ينتفى عنهم بكونهم من عياله وأهله بل هم أولى من يتصدق عليهم ، وأما هو فله أن يأخذ منه قدر حاجته لأنه أيضا فقير ولو تصدق به على فقير لجاز وكذا إذا كان هو الفقير ، ولنرسم في بيان هذا الأصل أيضا مسائل

مسألة : إذا وقع في يده مال من يد سلطان قال قوم : يرد إلى السلطان فهو أعلم بما تولاه فيقلده ما تقلده وهو خير من أن يتصدق به ، واختار المحاسبي ذلك وقال : كيف يتصدق به فلعل له مالكا معينا ؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يسرق من السلطان ويتصدق به ، وقال قوم : يتصدق به إذا علم أن السلطان لا يرده إلى المالك لأن ذلك إعانة للظالم وتكثير لأسباب ظله فالرد إليه تضييع لحق المالك ، واختار أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لا يرده إلى مالكة فيتصدق به عن مالكة فهو خير للمالك إن كان له مالكة معين من أن يرد على السلطان لأنه ربما لا يكون له مالكة معين ويكون حق المسلمين فردة على السلطان تضييع فإن كان له مالكة معين فالرد على السلطان تضييع وإعانة للسلطان الظالم وتفويت لبركة دعاء الفقير على المالك وهذا ظاهر ، فإذا وقع في يده من ميراث ولم يتعد هو بالأخذ من السلطان فإنه شبيه باللقطة التي أيس عن معرفة صاحبها إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدق عن المالك ولكن له أن يملكها ثم . وإن كان غنيا من حيث أنه اكتسبه من وجه مباح وهو الالتقاط وههنا لم يحصل المال من وجه مباح فيؤثر في منعه من التملك ولا يؤثر في المنع من التصدق .

مسألة : إذا حصل في يده مال لا مالكة له وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره ففي قدر حاجته نظر ذكرناه في كتاب أسرار الزكاة ، فقد قال قوم : يأخذ كفاية سنة لنفسه وعياله وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتسب بها للعائلة فعل ، وهذا ما اختاره المحاسبي ولكنه قال : الأولى أن يتصدق بالكل إن وجد من نفسه قوة التوكل وينتظر لطف الله تعالى في الحلال ، فإن لم يقدر فله أن يشتري ضيعة أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه وكل يوم وجد فيه حلالا أمسك ذلك اليوم عنه ، فإذا فنى عاد إليه ، فإذا وجد حلالا معينا تصدق بمثل ما أنفق من قبل ويكون ذلك قرضا عنده ، ثم إنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوى عليه وإلا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع ، وما ذكره لأمريد عليه ولكن جعل ما أنفق قرضا عنده فيه نظر ولا شك في أن الورع أن يجعله قرضا ، فإذا وجد حلالا تصدق بمثله . ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذي يتصدق به عليه فلا يبعد أن لا يجب عليه أيضا إذا أخذه لفقره لاسيما إذا وقع في يده من ميراث ولم يكن متعديا بغصبه وكسبه حتى يغلف الأمر عليه فيه .

مسألة : إذا كان في يده حلال وحرام أو شبهة وليس يفضل الكل عن حاجته فإذا كان له عيال فليخص نفسه بالحلال لأن الحاجة عليه أؤكد في نفسه منه في عبده وعياله وأولاده الصغار والكبار من الأولاد يحرسهم من الحرام إن كان لا يفضى بهم إلى ما هو أشد منه فإن أفضى فيطعمهم بقدر الحاجة . وبالجملة كل ما يحذر في غيره فهو محذور في نفسه وزيادة وهو أنه يتناول مع العلم والعيال ربما تعذر إذا لم تعلم إذ لم تتول الأمر بنفسها فليبدأ بالحلال بنفسه ثم بمن يعول ، وإذا تردد في حق نفسه بين ما يخص قوته وكسوته وبين غيره من المؤن كأجرة الحجام والصباغ والقصار والحال والاطلاء بالنورة والذهن وعمارة المنزل وتعمد الدابة وتسجير الثور وثمان الحطب ودهن السراج فليخص

بالحلال قوته ولباسه ، فإن ما يتعلق بيده - ولاغنى به عنه - هو أولى بأن يكون طيبا وإذا دار الأمر بين القوت واللباس فيحتمل أن يقال يخص القوت بالحلال لأنه بمنزلة بلحمه ودمه ، وكل لحم نبت من حرام فالتار أولى به . وأما الكسوة ففائدتها ستر عورته ودفع الحر والبرد والأبصار عن بشرته وهذا هو الأظهر عندي . وقال الحارث المحاسبي يقدم اللباس لأنه يبقى عليه مدة والطعام لا يبقى عليه لما روى أنه « لا يقبل الله صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم فيها درهم حرام »^(١) ، وهذا محتمل ولكن أمثال هذا قد ورد فيمن في بطنه حرام ونبت لحمه من حرام^(٢) فمرعاة اللحم والعظم أن ينبت من الحلال أولى ، ولذلك تقياً الصديق رضى الله عنه ما شربه مع الجهل حتى لا يثبت منه لحم يثبت ويبقى .

* فإن قيل : فإذا كان الكل منصرفا إلى أغراضه فأى فرق بين نفسه وغيره وبين جهة وجهة ومادرك هذا الفرق ؟ قلنا : عرف ذلك بما روى أن رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضحا وعبدًا حجاما فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنهى عن كسب الحجام فروجع مرات فنع منه فقيل : إن له أيتاما فقال : أعلفوه الناضح^(٣) فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو أو دابته فإذا انفتح سبيل الفرق فقس عليه التفصيل الذى ذكرناه .

مسألة : الحرام الذى فى يده لو تصدق به على الفقراء فله أن يوسع عليهم وإذا أنفق على نفسه فليضيّق ما قدر وما أنفق على عياله فليقتصد ، وإيكن وسطا بين التوسيع والتضيّق فيكون الأمر على ثلاث مراتب . فإن أنفق على ضيف قدم عليه وهو فقير فليوسع عليه ، وإن كان غنيا فلا يطعمه إلا إذا كان فى برية أو قدم ليلا ولم يجد شيئا فإنه فى ذلك الوقت فقير ، وإن كان الفقير الذى حضر ضيفا تقيّا لو علم ذلك لتورّع عنه فليعرض الطعام وليخبره جمعا بين حق الضيافة وترك الخداع فلا ينبغى أن يكرم أخاه بما يكره ، ولا ينبغى أن يعول على أنه لا يدري فلا يضربه فإن الحرام إذا حصل فى المعدة أثر فى قساوة القلب وإن لم يعرفه صاحبه ، ولذلك تقيّا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وكانا قد شربا على جهل ، وهذا وإن أفتينا بأنه حلال للفقراء أحلناه بحكم الحاجة إليه فهو كالخنزير والخمر إذا أحلناها بالضرورة فلا ياتحق بالطيبات .

مسألة : إذا كان الحرام أو الشبهة فى يد أبويه فليمتنع عن مؤاكلتهما فإن كانا يسخطان فلا يوافقهما على الحرام المحض بل ينهما فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى ، فإن كان شبهة وكان امتناعه للورع فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاها بل هو واجب فليتلطف فى الامتناع ، فإن لم يقدر فليوافق وليقل الأكل بأن يصغر اللقمة ويعطيل المضغ ولا يتوسع فإن ذلك عدوان والأخ والأخت قريبان من ذلك لأنّ حقهما أيضا مؤكد ، وكذلك إذا ألبسته أمه ثوبا من شبهة وكانت تسخط برده فليقبل وليلبس بين يديها ولا ينزع فى غيبتها وليجتهد أن لا يصلّى فيه إلا عند حضورها فيصلّى فيه صلاة المضطر ، وعند تعارض أسباب الورع ينبغى أن يتفقد هذه الدقائق . وقد حكى عن بشر رحمه الله أنه سلبت إليه أمه رطبة وقالت : بحق عليك أن تأكلها وكان يكرهه فأكل ثم صعد غرفة فصعدت

(١) حديث « لا تقبل صلاة من عليه ثوبه اشتراه بعشرة دراهم وفيها درهم حرام » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٢) حديث الجسد نبت من الحرام تقدم . (٣) حديث : أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحا وعبدًا حجاما ... الحديث . وفيه « أعفوه الناضح » أخرجه أحمد والطبرانى من رواية عباية بن رفاعة بن خديج : أن جده حين مات ترك جارية وناضحا وغلاما حجاما ... الحديث . وليس المراد بجده رافع بن خديج فإنه بقى إلى سنة أربع وسبعين فيحتمل أن المراد جده الأعلى وهو خديج ولم أره ذكرًا فى الصحابة وفى رواية للطبرانى عن عباية بن رفاعة عن أبيه قال « مات أبى » وفى رواية له عن عباية قال « مات رفاعة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وهو مضطرب .

أمه وراه فرأته يتقياً ، وإنما فعل ذلك لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة المعدة . وقد قيل لأحمد بن حنبل : سئل بشر هل للوالدين طاعة في الشبهة ؟ فقال : لا . فقال أحمد : هذا شديد . فقيل له : سئل محمد بن مقاتل العباداني عنها فقال : بَرِّ والدَيْكَ ؛ فإذا تقول ؟ فقال للسائل : أحب أن تعفيني فقد سمعت ماقالاً ثم قال : ما أحسن أن تداريها .

مسألة : من في يده مال حرام محض فلا حج عليه ولا يلزمه كفارة مالية لأنه مفلس ولا تجب عليه الزكاة إذ معنى الزكاة وجوب إخراج ربع العشر مثلاً ، وهذا يجب عليه لإخراج الكل إما رداً على المالك إن عرفه أو صرفاً إلى الفقراء إن لم يعرف المالك ، وأما إذا كان مال شبهة يحتمل أنه حلال فإذا لم يخرج منه من يده لزمه الحج لأن كونه حلالاً يمكن ولا يسقط الحج إلا بالفقر ولم يتحقق فقره وقد قال الله تعالى ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ وإذا وجب عليه التصديق بما يزيد على حاجته حيث يغلب على ظنه تحريره فالزكاة أولى بالرجوب ، وإن لزمته كفارة فليجمع بين الصوم والإعتاق ليتخلص بيقين . وقد قال قوم : يلزمه الصوم دون الإطعام إذ ليس له يسار معلوم . وقال المحاسبي : يكفيه الإطعام . والذي نختاره : أن كل شبهة حكمنا بوجوب اجتنابها والأزمان إخراجها من يده لكون احتمال الحرام أغلب على ما ذكرناه فعليه الجمع بين الصوم والإطعام ، أما الصوم فلأنه مفلس حكماً ، وأما الإطعام فلأنه قد وجب عليه التصديق بالجميع ويحتمل أن يكون له فيكون اللزوم من جهة الكفارة .

مسألة : من في يده مال حرام أمسكه للحاجة فأراد أن يتطوع بالحج فإن كان ماشياً فلا بأس به لأنه سياً كل هذا المال في غير عبادة فأكله في عبادة أولى . وإن كان لا يقدر على أن يمشى ويحتاج إلى زيادة للركوب فلا يجوز الأخذ لمثل هذه الحاجة في الطريق كما لا يجوز شراء المركوب في البلد . وإن كان يتوقع القدرة على حلال لو أقام بحيث يستغنى به عن بقية الحرام فالإقامة في انتظاره أولى من الحج ماشياً بالمال الحرام .

مسألة : من خرج لحج واجب بمال فيه شبهة فليجتهد أن يكون قوته من الطيب ، فإن لم يقدر فمن وقت الإحرام إلى التحلل ، فإن لم يقدر فليجتهد يوم عرفة أن لا يكون قيامه بين يدي الله ودعاؤه في وقت مطعمه حرام وملبسه حرام ؛ فليجتهد أن لا يكون في بطنه حرام ولا على ظهره حرام فإنما وإن جاوزنا هذا بالحاجة فهو نوع ضرورة ، وما ألحقناه بالطيبات ، فإن لم يقدر فليلازم قلبه الخوف والغم لما هو مضطر إليه من تناول ما ليس بطيب فعساه ينظر إليه بعين الرحمة ويتجاوز عنه بسبب حزنه وخوفه وكراهته .

مسألة : سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال له قائل : مات أبي وترك مالا وكان يعامل من تكره معاملته ، فقال : تدع من ماله بقدر ما ربح ، فقال : له دين وعليه دين ، فقال : تقضى وتقضى ، فقال : أفترى ذلك ؟ فقال : أفترده محتسباً بدينه ؟ وما ذكره صحيح وهو يدل على أنه رأى التحريم بإخراج مقدار الحرام إذ قال : يخرج قدر الربح ، وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له بدلاً عما بذله في المعاوزات الفاسدة بطريق التقاص والتقابل مهما كثر التصرف وعسر الرد ، وعزل في قضاء دينه على أنه يقين فلا يترك بسبب الشبهة .

الباب الخامس : في إدرارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم

اعلم أن من أخذ مالا من سلطان فلا بد له من النظر في ثلاثة أمور : في مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو ؟ وفي صفته التي بها يستحق الأخذ . وفي المقدار الذي يأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق ؟ .

النظر الأول : في جهات الدخل للسلطان

وكل ما يحل للسلطان سوى الإحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان : مأخوذ من الكفار - وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر - والنبيء ، وهو الذي حصل من ماله في يده من غير قتال ، والجزية وأموال المصالحة ، وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاهدة . والقسم الثاني : المأخوذ من المسلمين - فلا يحل منه إلا قسمان : الموارد وسائر الأمور الضائعة التي لا يتعين لها مالك ، والأوقاف التي لا متولى لها . أما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان . وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام . فإذا كتب لفقير أو غيره إدرار أو صلة أو خلعة على جهة فلا يغلو من أحوال ثمانية : فإنه إما أن يكتب له ذلك على الجزية ، أو على الموارد ، أو على الأوقاف ، أو على ملك أحياء السلطان ، أو على ملك اشتراء ، أو على عامل خراج المسلمين ، أو على بيع من جملة التجار ، أو على الخزنة .

فالأول : هو الجزية وأربعة أخماسها للبصالح وخمسها لجهات معينة . فما يكتب على الخمس من تلك الجهات أو على الأخماس الأربعة لما فيه مصلحة وروعى فيه الاحتياط في القدر فهو حلال ، بشرط أن لا تكون الجزية لإمضروبة على وجه شرعى ليس فيها زيادة على دينار أو على أربعة دنانير ، فإنه أيضا في محل الاجتهاد والسلطان أن يفعل ما هو في محل الاجتهاد ، وبشرط أن يكون الذي يؤخذ الجزية منه مكتسبا من وجه لا يعلم تحريمه فلا يكون عامل سلطان ظالما ولا يبيع خمر ولا صيبا ولا امرأة ، إذ لاجزية عليهما . فهذه أمور تراعى في كيفية ضرب الجزية ومقدارها وصفة من تصرف إليه ومقدار ما يصرف فيجب النظر في جميع ذلك .

الثاني : الموارد والأموال الضائعة فهي للبصالح والنظر أن الذي خلفه هل كان ماله كله حراما أو أكثره أو أقله وقد سبق حكمه ، فإن لم يكن حراما بقى النظر في صفة من يصرف إليه بأن يكون في الصرف إليه مصلحة ثم في المقدار المصروف .

الثالث : الأوقاف ، وكذا يجرى النظر فيها كما يجرى في الميراث مع زيادة أمر وهو شرط المواقف حتى يكون المأخوذ موافقا له في جميع شرائطه .

الرابع : ما أحياء السلطان ، وهذا لا يعتبر فيه شرط إذ له أن يعطى من ملكه ما شاء لمن شاء أى قدر شاء . وإنما النظر في أن الغالب أنه أحياء يكره الأجراء أو بأداء أجرتهم من حرام . فإن الإحياء يحصل بحفر القناة والأنهار وبناء الجدران وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه . فإن كانوا مكرهين على الفعل لم يملكه السلطان وهو حرام وإن كانوا مستأجرين ثم قضيت أجورهم من الحرام فهذا يورث شبهة قد نهينا عليها في تعلق الكراهة بالأعواض .

الخامس : ما اشتراه السلطان في الذمة من أرض أو ثياب خلعة أو فرس أو غيره فهو ملكه وله أن يتصرف فيه ولكنه سيقضى ثمنه من حرام وذلك يوجب التحريم تارة والشبهة أخرى . وقد سبق تفصيله .

السادس : أن يكتب على عامل خراج المسلمين أو من يجمع أمواله القسمة والمصادرة وهو الحرام السحت الذي لاشبهة فيه ، وهو أكثر الإدارارات في هذا الزمان إلا ما على أراضي العراق فإنها وقف عند الشافعي رحمه الله على مصالح المسلمين .

السابع : ما يكتب على يباع يعامل السلطان فإن كان لا يعامل غيره فاله كمال خزانة السلطان . وإن كان يعامل غير السلاطين أكثر فما يعطيه قرض على السلطان وسيأخذ بدله من الخزانة فالخلل يتطرق إلى العوض . وقد سبق حكم الثمن الحرام .

الثامن : ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام فإن لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام فهو سحت محض . وإن عرف يقينا أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أن يكون ما يسلم إليه بعينه من الحلال احتمالا قريبا له وقع في النفس ، واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب لأن أغلب أموال السلاطين حرام في هذه الأعصار والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز فقد اختلف الناس في هذا فقال قوم : كل ما لا يتيقن أنه حرام فلي أن آخذه ، وقال آخرون : لا يحل أن يؤخذ ما لم يتحقق أنه حلال فلا تحل شبهة أصلا . وكلاهما إسراف ، والاعتدال ما قدمنا ذكره وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراما حرم وإن كان الأغلب حلالا وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا فيه كما سبق .

ولقد احتج من جواز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال - مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام - بما روى عن جماعة من الصحابة أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلة وأخذوا الأموال : منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وجريير بن عبد الله وجابر وأنس بن مالك والمسور بن مخرمة . فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد بن عبد الملك . وأخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج . وأخذ كثير من التابعين منهم كالشعبي وإبراهيم والحسن وابن أبي ليلى . وأخذ الشافعي من هرون الرشيد ألف دينار في دفعة . وأخذ مالك من الخلفاء أموالا لجة وقال على رضي الله عنه : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر . وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعا مخافة على دينه أن يحمل على ما لا يحل . ألا ترى قول أبي ذر للأخنف بن قيس : خذ العطاء ما كان نحلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه ؟ وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إذا أعطينا قبلنا وإذا منعنا لم نسأل . وعن سعيد بن المسيب : أن أبا هريرة رضي الله عنه كان إذا أعطاه معاوية سكت وإن منعه وقع فيه . وعن الشعبي عن مسروق : لا يزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار - أي يحمله ذلك على الحرام لا أنه في نفسه حرام - وروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ثم يقول : لا أسأل أحدا ولا أرد مارزقي الله . وأهدى إليه ناقه فقبلها وكان يقال لها ناقه المختار ، ولكن هذا يعارضه ما روى أن ابن عمر رضي الله عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار ، والإسناد في رده أثبت . وعن نافع أنه قال : بعث ابن معمر إلى ابن عمر يستين ألفا فقسمها على الناس ، ثم جاءه سائل فاستقرض له من بعض من أعطاه وأعطى السائل . ولما قدم الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه فقال : لا أجيزك بجائزة لم أجزمها أحدا قبلك من العرب ولا أجيزها أحدا بعدك من العرب ، قال : فأعطاه أربعمئة ألف درهم فأخذها . وعن حبيب

ابن أبي ثابت قال : لقد رأيت جائزة المختار لابن عمر وابن عباس فقبلاهما فقبل ما بهي ؟ قال : مال وكسوة . وعن الزبير بن عدى أنه قال : قال سلمان إذا كان لك صديق عامل أو تاجر يقارف الربا فدعاك إلى طعام أو نحوه وأعطاك شيئا فاقبل فإن المهنة لك وعليه الوزر . فإن ثبت هذا في المربي فالظالم في معناه . وعن جعفر عن أبيه أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية . وقال حكيم بن جبير : مررنا على سعيد بن جبير وقد جعل عاملا على أسفل الفرات فأرسل إلى العشارين أطعمونا بما عندكم فارسلوا بطعام فأكل وأكلنا معه . وقال العلاء بن زهير الأزدي : أتى إبراهيم أبي - وهو عامل على حلوان - فأجازه فقبل وقال إبراهيم : لا بأس بجائزة العمال إن للعمال مؤنة ورزقا . ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فما أعطاك فهو من طيب ماله . فقد أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم في معصية الله تعالى . وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من السلف لا يدل على التحريم بل على الورع كالخلفاء الراشدين وأبي ذر وغيرهم من الزهاد فإنهم امتنعوا من الحلال المطلق زهدا ومن الحلال الذي يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعا وتقوى . فإقدام هؤلاء يدل على الجواز وامتناع أولئك لا يدل على التحريم . وما نقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه في بيت المال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفا وما نقل عن الحسن من قوله لا أتوضأ من ماء صيرفي ولو ضاق وقت الصلاة لأنى لأدرى أصل ماله : كل ذلك ورع لا ينكر ، واتباعهم عليه أحسن من اتباعهم على الاتساع ولكن لا يحرم اتباعهم على الاتساع أيضا . فهذه هي شبهة من يجوز أخذ مال السلطان الظالم .

والجواب ، أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل بالإضافة إلى ما نقل من ردهم وإنكارهم ، وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع فيستطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاسوتهم في الورع فإن للورع في حق السلاطين أربع درجات .

الدرجة الأولى : أن لا يأخذ من أموالهم شيئا أصلا كما فعله الورعون منهم ، وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون حتى أن أبا بكر رضى الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال ، وحتى إن عمر رضى الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوما فدخلت ابنة له وأخذت درهما من المال فنهض عمر في طلبها حتى سقطت الملعقة من أحد منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكي وجعلت الدرهم في فيها فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطرحه على الخراج وقال : أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للسلتين قريبهم وبعيدهم . وكسح أبو موسى الأشعري بيت المال فوجد درهما فربى لعمر رضى الله عنه فأعطاه إياه فرأى عمر ذلك في يد الغلام فسأله عنه فقال أعطانيه أبو موسى فقال . يا أبا موسى ما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر أردت أن لا يبقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد إلا طلبنا بمظلمة ، ورد الدرهم إلى بيت المال . هذا مع أن المال كان حلالا ولكن خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبرئ لدينه ويقتصر على الأقل امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(١) ، ولقوله « ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه »^(٢) ، ولما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات في الأموال السلطانية حتى قال صلى الله عليه وسلم حين

الباب الخامس : في إدارات السلاطين

(١) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » تقدم في الباب الأول من الحلال والحرام . (٢) حديث « من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه » متفق عليه من حديث الثمان بن بشير وقد تقدم أوله في أول الباب الثاني من الحلال والحرام . (١٨ — لحياء علوم الدين — ٢)

بعث عبادة بن الصامت إلى الصدقة ، اتق الله يا أبا الوليد لا تجيئ يوم القيامة بيعير تحمله على رقبتك له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها تواج فقال يارسول الله أهكذا يكون ؟ قال نعم والذي نفسي بيده إلا من رحم الله . قال فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على شيء أبدا ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إني لأخاف عليكم أن تشركوا بعدى إما أخاف عليكم أن تنافسوا ^(٢) ، وإنما خاف التنافس في المال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه في حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال : إني لم أجد نفسى فيه إلا كالوالى مال اليتيم ؛ إن استغنيت استعفت وإن افتقرت أكلت بالمعروف . وروى أن ابنا لطاوس افتعل كتابا عن لسانه إلى عمر بن عبدالعزيز فأعطاه ثلثمائة دينار ؛ فباع طاوس ضيعة له وبعث من ثمنها إلى عمر بثلثمائة دينار ، هذا مع أن السلطان ليس مثل عمر بن عبد العزيز . فهذه الدرجة العليا في الورع .

الدرجة الثانية : هو أن يأخذ مال السلطان ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال فاشتال يد السلطان على حرام آخر لا يضره ، وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها باكابر الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر فإنه كان من المبالغين في الورع فكيف يتوسع في مال السلطان ، وقد كان من أشدهم إنكارا عليهم وأشداهم ذما لأموالهم ؛ وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر - وهو في مرضه وأشفق على نفسه من ولايته وكونه مأخوذا عند الله تعالى بها - فقالوا له : إنا نلجؤ لك الخير ، حضرت الآبار وسقيت الحاج وصنعت ... وصنعت ... وابن عمر ساكت ، فقال : ماذا تقول يا ابن عمر ؟ فقال : أقول ذلك إذا طاب المكسب وزكت النفقة وسترى قبرى . وفي حديث آخر أنه قال إن الخبيث لا يكفر الخبيث وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شرا . فقال له ابن عامر : ألا تدعولى ، فقال : ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يقبل الله صلاة بغير طهورا ولا صدقة من غلول ^(٣) ، وقد وليت البصرة فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال في أيام الحجاج : ماشبت من الطعام منذ انتهيت الدار إلى يومى هذا وروى عن علي رضى الله عنه أنه كان له سويق في إناء محتوم يشرب منه فقيل : أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه ؟ فقال : أما إني لأختمه بخلاجه ولكن أكره أن يجعل فيه ما ليس منه وأكره أن يدخل بطنى غير طيب ، فهذا هو المألوف منهم وكان ابن عمر لا يعجبه شيء إلا خرج عنه فطلب منه نافع بثلاثين ألفا فقال : إني أخاف أن تقتنى دراهم ابن عامر وكان هو الطالب اذهب فأنت حر . وقال أبو سعيد الخدرى : ما من أحد إلا مالت به الدنيا إلا ابن عمر ؟ فهذا يتضح أنه لا يظن به وبين كان في منصبه أنه أخذ مالا يدرى أنه حلال .

الدرجة الثالثة : أن يأخذ مأخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين ، فإن مالا يتعين ماله هذا حكم الشرع فيه . فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظلم فقد نقول أخذه منه وتفرقة أولى من تركه في يده ، وهذا قد رآه بعض العلماء وسيأتى وجهه . وعلى هذا ينزل مأخذه أكثرهم ولذلك قال ابن المبارك : إن الذين يأخذون الجوائز اليوم ويحتجون بابن عمر وعائشة ما يقتدون بهما ؟ لأن ابن عمر فرق مأخذه حتى استقرض في مجلسه بعد تفرقة ستين ألفا ، وعائشة فعلت مثل ذلك ، وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به وقال : رأيت أن أخذه منهم وأتصدق أحب إلى من أن أدعها في أيديهم ، وهكذا فعل الشافعى رحمه الله بما قبله

(١) حديث « قال عبادة بن الصامت حين بعثه إلى الصدقة اتق الله يا أبا الوليد لا تجيئ يوم القيامة بيعير تحمله على رقبتك . . الحديث » أخرجه الشافعى في المسند من حديث طاوس عن سلا وأبي يعلى في المعجم من حديث ابن عمر مختصراً أنه قاله لسعد بن عبادة ولإسناده صحيح . (٢) حديث « إني لأخاف عليكم أن تشركوا بعدى إنما أخاف عليكم أن تنافسوا » متفق عليه من حديث عتبة بن عامر . (٣) حديث « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

من هرون الرشيد فإنه فرقه على قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة .

الدرجة الرابعة : أن لا يتحقق أنه حلال ولا يفرق بل يستبقى ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال ، وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر ما لهم حراما . ويدل عليه تعليل على رضي الله عنه حيث قال : فإن ما يأخذه من الحلال أكثر . فهذا مما قد جوزته جماعة من العلماء تعويلا على الأكثر . ونحن إنما توقفنا فيه في حق آحاد الناس ، ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر فلا يبعد أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى جواز أخذ ما لم يعلم أنه حرام اعتمادا على الأغلب ، وإنما منعه إذا كان الأكثر حراما فإذا فهمت هذه الدرجات تحققت أن إدارات الظلة في زماننا لا تجرى مجرى ذلك وأنها تفارقه من وجهين قاطعين أحدهما : أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا والحلال هو الصدقات والنيء والغنيمة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ؟ ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به فإنهم يحاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشرين .

والوجه الثاني : أن الظلة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحرصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ولا يطعمون السلاطين في أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ولا يكثررون جمعهم ولا يحبون بقاءهم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم وينكرون المنكرات منهم عليهم ، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن يأخذهم بأس ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثير بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدماء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبيهم . فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا ، وبالتردد في الخدمة ثانيا ، وبالثناء والثناء ثالثا ، بالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعا ، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسا ، وبإظهار الحب والموالة والمناصرة له على أعدائه سادسا ، وبالستر على ظله ومقابحه ومساوى أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلا ؛ فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ فن استجرا على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين . ففي أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم وخدمة عمالهم واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم وكل ذلك معصية - على ما سنبين في الباب الذي يلي هذا - فإذا قد تبين مما تقدم مداخل أموالهم وما يحل منها وما لا يحل . فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس في بيته يساق إليه ذلك - لا يحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم ولا إلى مساعدتهم - فلا يحرم الأخذ ولكن يكره لمعان سنبه عليها في الباب الذي يلي هذا .

النظر الثاني من هذا الباب : في قدر المأخوذ وصفه الأخذ

ولنفرض المال من أموال المصالح كأربعة أخماس النية والموارث فإن ما عداها مما قد تعين مستحقه إن كان من وقف أو صدقة أو خمس في أو خمس غنيمة ، وما كان من ملك السلطان بما أحياء أو اشتراه فله أن يعطى

ما شاء لمن شاء . وإنما النظر في الأموال الضائعة ومال المصالح فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب ، فأما الغنى الذى لا مصلحة فيه فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه ، هذا هو الصحيح وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه . وفى كلام عمر رضى الله عنه ما يدل على أن لكل مسلم حقا فى بيت المال لكونه مسلما مكثرا جمع الإسلام ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة بل على مخصوصين بصفات . فإذا ثبت هذا فكل من يتولى أمرا يقوم به تتعدى مصلحته إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه ، فله فى بيت المال حق الكفاية . ويدخل فيه العلماء كلهم ؛ أعنى العلوم التى تتعلق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه المعلمون والمؤذنون . وطلبة هذه العلوم أيضا يدخلون فيه ، فإنهم إن لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب . ويدخل فيه العمال ، وهم الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم وهم الاجناد المرتقة الذين يحرسون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغى وأعداء الإسلام . ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء وكل من يحتاج إليه فى ترتيب ديوان الخراج ، أعنى العمال على الأموال الحلال لأعلى الحرام ، فإن هذا المال للمصالح . والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا فبالعلماء حراسة الدين وبالاجناد حراسة الدنيا . والدين والملك توأمان فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر ديني ولكن يرتبط به صحة الجسد والدين يتبعه ؛ فيجوز أن يكون له ولبن يجرى مجراه فى العلوم المحتاج إليها فى مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد إدار من هذه الأموال ليتفرغوا لمعالجة المسلمين ، أعنى من يعالج منهم بغير أجر ، وليس يشترط فى هؤلاء الحاجة بل يجوز أن يعطوا مع الغنى . فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا بالحاجة . وليس يتقدر أيضا بمقدار بل هو إلى اجتهاد الامام وله أن يوسع ويغنى وله أن يقتصر على الكفاية على ما يقتضيه الحال وسعة المال . فقد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية فى دفعة واحدة أربعمئة ألف درهم . وقد كان عمر رضى الله عنه يعطى لجماعة اثني عشر ألف درهم نفقة فى السنة . وأثبتت عائشة رضى الله عنها فى هذه الجريدة وجماعة عشرة آلاف وجماعة ستة آلاف وهكذا . فهذا مال هؤلاء فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شيء . فإن خص واحدا منهم بمال كثير فلا بأس . وكذلك للسلطان أن يخص من هذا المال ذوى الخصائص بالخلع والجوائز فقد كان يفعل ذلك فى السلف ولكن ينبغي أن يلتفت فيه إلى المصلحة . ومهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث للناس وتحريض على الاشتغال والتشبه به فهذه فائدة الخلع والصلوات وضروب التخصيصات وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان . وإنما النظر فى السلاطين الظلة فى شيتين (أحدهما) أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته ، وهو إما معزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذ من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان ؟ (والثاني) أنه ليس يعمم بماله جميع المستحقين فكيف يجوز للأحاد أن يأخذوا ؟ أفيجوز لهم الآخذ بقدر حصصهم أم لا يجوز أصلا ؟ أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطى ؟

أما الأول : فالذى نراه أنه لا يمنع أخذ الحق ، لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان فى الاستبدال به فتنة نائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء ، إذ قد ورد فى الأمر بطاعة الأمراء^(١) والمنع من سل اليد عن مساعدتهم^(٢) أوامر وزواجر . فالذى نراه : أن الخلافة منعقدة للتكفل

(١) حديث « الأمر بطاعة الأمراء » أخرجه البخارى من حديث أنس « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عبكم عبد حبشي كأن رأسه زينة » ولمسلم من حديث أبي هريرة « عليك بالطاعة فى منشطك ومكرهك ... الحديث » وله من حديث أبي ذر « أوصاني النبي صلى الله عليه وسلم أن اسمع وأطيع ولولعبد مجدع الأطراف » . (٢) حديث « المنع من سل اليد عن مساعدتهم » =

بها من بنى العباس رضى الله عنه ، وأن الولاية نافذة للسلطين في أقطار البلاد والمبايعين للخليفة - وقد ذكرنا في كتاب المستظهرى المستنبط من كتاب كشف الأسرار وهتك الاستار تأليف القاضي أبى الطيب في الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه المصلحة فيه - والقول الوجيز أنا نراعى الصفات والشروط في السلطين تشوفا إلى مزايا المصالح . ولو قضينا بطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأسا فكيف يفوت رأس المال في طلب الربح ؟ بل الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة . فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة . ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام . وتحقيق هذا قد ذكرناه في أحكام الإمامة من كتاب الاقتصاد في الاعتقاد فلسنا نطول الآن به .

وأما الإشكال الآخر وهو أن السلطان إذا لم يعمم بالعطاء كل مستحق فهل يجوز للواحد أن يأخذ منه ؟ فهذا مما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب فعلا بعضهم وقال : كل ما يأخذه فالمسلمون كلهم فيه شركاء ولا يدرى أن حصته منه ذائق أو حبة فليترك الكل وقال قوم : له أن يأخذ قدر قوت يومه فقط ، فإن هذا القدر يستحقه لحاجته على المسلمين . وقال قوم : له قوت سنة ، فإن أخذ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حق في هذا المال فكيف يتركه ؟ وقال قوم : إنه يأخذ ما يعطى والمظلوم هم الباقون . وهذا هو القياس لأن المال ليس مشتركا بين المسلمين كالنسيئة بين الغانمين ولا كالميراث بين الورثة لأن ذلك صار ملكا لهم . وهذا لو لم يتفق قسمه حتى مات هؤلاء لم يجب التوزيع على ورثتهم بحكم الميراث . بل هذا الحق غير متعين وإنما يتعين بالقبض . بل هو كالصدقات ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكا لهم ولم يمتنع بظلم المالك بقية الأصناف بمنع حقهم ، هذا إذا لم يصرف إليه كل المال بل صرف إليه من المال ما لو صرف إليه بطريق الإيثار والتفضيل مع تعميم الآخرين لجاز له أن يأخذه والتفضيل جائز في العطاء . سوى أبو بكر رضى الله عنه فراجع عمر رضى الله عنه فقال : إنما فضلهم عند الله وإنما الدنيا بلاغ . وفضل عمر رضى الله عنه في زمانه فأعطى عائشة اثني عشر ألفا وزينب عشرة آلاف وجوهرية ستة آلاف وكذا صفية . وأقطع عمر لعلى خاصة رضى الله عنهما . وأقطع عثمان أيضا من السواد خمس جنات ، وآثر عثمان عليا رضى الله عنهما بها فقبل ذلك منه ولم ينكر . وكل ذلك جائز في محل الاجتهاد وهو من المجتهدات التي أقول فيها : إن كل مجتهد مصيب ، وهى كل مسألة لا نص على عينها ولا على مسألة تقرب منها فتكون في معناها بقياس جلى كهذه المسألة ومسألة حد الشرب فإنهم جلدوا أربعين وثمانين والكل سنة وحق وأن كل واحد من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما مصيب باتفاق الصحابة رضى الله عنهم ، إذ المفضل مارد في زمان عمر شيئا إلى الفاضل مما قد كان أخذه في زمان أبى بكر ، ولا الفاضل امتنع من قبول الفضل في زمان عمر ، واشترك في ذلك كل الصحابة واعتقدوا أن كل واحد من الرايين حق . فليؤخذ هذا المجلس دستورا للخلافات التي يصوب فيها كل مجتهد . فأما كل مسألة شذ عن مجتهد فيها نص أو قياس جلى - بغفلة أو سوء رأى وكان في القوة بحيث ينقض حكم المجتهد - فلا نقول فيها إن كل واحد مصيب بل المصيب من أصاب النص أو ما في معنى النص . وقد تحصل من مجموع هذا أن من وجد من أهل الخصوص الموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا وأخذ من السلطان خلعة أو إدراة على التركات أو الجزية لم يصرف فاسقا بمجرد أخذه ، وإنما يفسق بخدمته لهم ومعاذته لإيام ودخوله

= أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية » ولسلم من حديث أبى هريرة « من خرج من الساعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية » وله من حديث ابن عمر « من خلع يدا من طاعة لى الله يوم القيامة ولا حجة له » .

عليهم وثنائه وإطرائه لهم إلى غير ذلك من لوازم المال غالبا إلا بها كما سنبينه .

الباب السادس : فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم

وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والاكرام لهم

اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال (الحالة الأولى) وهي شرها أن تدخل عليهم (والثانية) وهي دونها أن يدخلوا عليك (والثالثة) وهي الأسلم أن تعزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك .

أما الحالة الأولى : وهي الدخول عليهم فهو مذموم جدا في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الاخبار والآثار ، فتتلقاها لتعرف ذم الشرع له ، ثم تتعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم .

أما الاخبار : فإنه لما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة قال : « فن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم »^(١) ، وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إهمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم لتركه المنايذة والمنازعة . وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون من بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الحوض »^(٢) ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « أبغض القراء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء »^(٣) ، وفي الخبر « خير الأمراء الذين يأتون العلماء وشر العلماء الذين يأتون الأمراء » وفي الخبر « العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فأحذروهم واعتزلوهم »^(٤) ، رواه أنس رضي الله عنه .

وأما الآثار : فقد قال حذيفة : « ياكم ومواقف الفتن ! قيل : وما هي قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه . وقال أبو ذر لسبله : يا سبله لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للبلوك . وقال الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا . وقال سمعون : ما أسمع بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال عند الأمير . وكنت أسمع أنه يقال : إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ما أواجههم به من الغلاظة والمخالفة لهواهم . وقال عبادة بن الصامت : حب القارئ الناسك الأمراء نفاق وحب الأغنياء رياء . وقال أبو ذر : من كثر سواد قوم فهو منهم أى من كثر سواد الظلمة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له ، قيل له : ولم ؟ قال لأنه يرضيه بسخط الله . واستعمل عمر بن

الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين

- (١) حديث « فن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال « ومن خالطهم هلك » . (٢) حديث « سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الحوض » أخرجه النسائي والترمذي وصححه الحاكم من حديث كعب ابن عجرة . (٣) حديث أبي هريرة « أبغض القراء إلى الله عز وجل الذين يأتون الأمراء » تقدم في العلم . (٤) حديث أنس « العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان ... الحديث » أخرجه القليل في الضعفاء في ترجمة خمس الأبري وقال حديثه غير محفوظ تقدم في العلم .

عبد العزيز رجلا فقيل : كان عاملا للحجاج ، فعزله ، فقال الرجل : إنما عملت له شيء يسير ، فقال له عمر : حسبك بصحبته يوما أو بعض يوم شؤما وشرا . وقال الفضيل : ما ازداد رجل من ذى سلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا . وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول إن في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين . وقال وهيب : هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمة من المقامرین . وقال محمد بن سلة : الذباب على العذرة أحسن من قارىء على باب هؤلاء . ولما خالط الزهرى السلطان كتب أخ له في الدين إليه : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا قد أقتلتك نعم الله لما فهمك من كتابه وعليك من سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) واعلم أن أيسر ما ارتكبت واخف ما احتملت أنك آنت وحشة الظالم وسهلت سبيل البغى بدتوك بمن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك قطبا تدور عليك رضى ظلمهم وجسرا يعبرون عليك إلى بلادهم وسلا يصعدون فيه إلى ضلالهم ويدخلون بك الشك على العلماء ، ويصادون بك قلوب الجملاء ، فما أيسر ما عمروا في جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ الآية وإنك تعامل من لا يحفظ ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهي رادك فقد حضر سفر بعيد ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ والسلام

فهذه الاخبار والآثار تدل على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد ولكن نفصل ذلك تفصيلا فقهيا تميز فيه المحذور عن المكروه والمباح . فنقول : الداخلة على السلطان متعرض لأن يعصى الله تعالى إما بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور .

أما الفعل : فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام ؛ ولا يغزئك قول القائل : إن ذلك مما يتسامح به الناس كتمرة أو فتات خبز ذلك صحيح في غير المغصوب ، أما المغصوب فلا . لأنه إن قيل : إن كل جلسة خفيفة لا تنقص الملك فهي في محل التسامح ؟ وكذلك الاجتياز فيجوز هذا في كل واحد فيجوز أيضا في المجموع والغصب إنما تم بفعل الجميع ، وإنما يتسامح به إذا انفرد إذ لو علم المالك به ربما لم يكرهه ، فأما إذا كان ذلك طريقا إلى الاستغراق بالاشتراك فحكم التحريم ينسحب على الكل ، فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقا اعتمادا على أن كل واحد من المازين إنما يخطو خطوة لا تنقص الملك ، لأن المجموع مفتوت للملك وهو كضربة خفيفة في التعليم تباح ولكن بشرط الانفراد ، فلو اجتمع جماعة بضربات توجب القتل وجب القصاص على الجميع مع أن كل واحدة من الضربات لو انفردت لكانت لا توجب قصاصا . فإن فرض كون الظالم في موضع غير مغصوب كالموات مثلا وإن كان تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام ، والدخول إليه غير جائز لأنه انتفاع بالحرام واستغلال به . فإن فرض كل ذلك حلالا فلا يعصى بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله : السلام عليكم ، ولكن إن سجد أو ركع أو مثل قاءا في سلامه وخدمته كان مكروما للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه والتواضع للظالم معصية . بل من تواضع لغنى ليس يظلم لأجل غناه - لالمعنى آخر اقتضى التواضع - نقص ثلثا دينه فكيف إذا تواضع للظالم ؟ فلا يباح إلا بمجزة السلام . فأما تقبيل اليد والانحناء في الخدمة فهو معصية إلا عند الخوف ، أو الإمام عادل أو لعالم أو لمن يستحق ذلك بامر ديني . قبل

أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يد على كرم الله وجهه لما أن لقيه بالشام فلم ينكر عليه . وقد بالغ بعض السلف حتى امتنع عن رد جوابهم في السلام والإعراض عنهم استحقاراً لهم وعد ذلك من محاسن القربات . فأما السكوت عن رد الجواب ففيه نظر ، لأن ذلك واجب فلا ينبغي أن يسقط بالظلم . فإن ترك الداخل جميع ذلك واقتصر على السلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم وإذا كان أغلب أموالهم حراماً فلا يجوز الجلوس على فرشهم ؛ هذا من حيث الفعل .

فأما السكوت : فهو أنه سيري في مجلسهم من الفرش الحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ماهو حرام . وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة . بل يسمع من كلامهم ماهو فحش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع لك حرام . بل يراهم لابسين الثياب الحرام واكئين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام والسكوت على ذلك غير جائز . فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله .

« فإن قلت : إنه يخاف على نفسه فهو معذور في السكوت ؟ فهذا حق ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر ، فإنه لو لم يدخل ولم يشاهد لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة حتى يسقط عنه العذر . وعند هذا أقول من علم فساداً في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليجرى ذلك بين يديه وهو يشاهده ويستكت ، بل ينبغي أن يحتزم عن مشاهدته .

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم أو يثنى عليه أو يصدق فيه ما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه ، أو يظهر له الحب والموالة والاشتياق إلى لقائه والحرص على طول عمره وبقائه ، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام .

أما الدعاء له : فلا يحل إلا أن يقول : أصلحك الله أو وفقك الله للخيرات أو طول الله عمرك في طاعته أو ما يجري هذا المجرى . فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما في معناه فغير جائز قال صلى الله عليه وسلم « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » (١) ، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه فيكون به كاذباً ومنافقاً ومكرماً لظالم ، وهذه ثلاث معاص . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق » (٢) ، وفي خبر آخر « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام » (٣) ، فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول ، والتزكية والثناء على ما يعمل : كان عاصياً بالتصديق وبالإعانة ؛ فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية وتحريك للرغبة فيه كما أن التكذيب والمذمة والتقييع زجر عنه وتضعيف لدواعيه . والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة . ولقد سئل سفيان الثوري رضى الله عنه عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه حتى يموت فإن ذلك إعانة له . وقال غيره يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه ثم يعرض عنه . فإن جاوز ذلك إلى إظهار الحب والشوق إلى لقائه وطول بقائه : فإن كان كاذباً عصى معصية الكذب والنفاق ، وإن كان صادقاً عصى بحبه بقاء الظالم وحقه أن يبغضه في الله ويمقتة . فالبغض في الله واجب ، ومحبة المعصية والراضى بها عاص . ومن أحب ظالماً فإن أحبه لظلمه فهو عاص لمحبهته وإن أحبه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يبغضه وكان الواجب عليه أن يبغضه . وإن اجتمع في شخص خير وشر وجب أن يحب لأجل ذلك الخير ويبغض لأجل ذلك الشر . وسياق

(١) حديث « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » تقدم . (٢) حديث « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق » تقدم . (٣) حديث « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام » تقدم أيضاً .

في كتاب الإخوة والمتحابين في الله وجه الجمع بين البغض والحب . فإن سلم من ذلك كله وهيات ! فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر إلى توسعه في النعمة ويردري نعم الله عليه ويكون مقتحماً نبي . رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « يا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق ^(١) » ، وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه وتجميله لإياهم إن كان ممن يتجمل به ، وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات . دعى سعيد بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان فقال : لأبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن بيعتين ^(٢) فقال : ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر ، فقال : لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس ، فجلد مائة وألبس المسوح .

ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذرين (أحدهما) أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام وعلم أنه لو امتنع أودى أو فسد عليهم طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية . (والثاني) أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواء أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم ، فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يئني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً فهذا حكم الدخول . الحالة الثانية : أن يدخل عليك السلطان الظالم زائراً لجواب السلام لا بد منه . وأما القيام والإكرام له فلا يحرم مقابلة له على إكرامه . فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للإحاد كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد . فالإكرام بالإكرام والجواب بالسلام . ولكن الأولى أن لا يقوم إن كان معه في خلوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم ، ويظهر غضبه للدين وإعراضه عن الله فأعرض الله تعالى عنه . وإن كان الداخل عليه في جمع فراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم فلا بأس بالقيام على هذه النية . وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه فترك الإكرام بالقيام أولى . ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه فإن كان يقارف ما لا يعرف تحريمه وهو يتوقع أن يتركه إذا عرف فليعرفه فذلك واجب . وأما ذكر تحريم ما يعلم تحريمه من السرف والظلم فلا فائدة فيه بل عليه أن يخوفه فيما يرتكبه من المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه . وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يعرف طريقاً على وفق الشرع بحيث يحصل بها غرض الظالم من غير معصية ليصده بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم . فإذا يجب عليه التعريف في محل جهله والتخويف فيما هو مستجري عليه والإرشاد إلى ما هو غافل عنه مما يغنيه عن الظلم ، فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيه أثراً ، وذلك أيضاً لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر . وعن محمد بن صالح قال : كنت عند حماد بن سلمة وإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علبة ومطهرة يتوضأ منها ؟ فينتأ أنا عنده إذ دق داق الباب فإذا هو محمد بن سليمان فأذن له فدخل وجلس بين يديه ثم قال له : مالي إذا رأيتك امتلأت منك ربعا ؟ قال حماد : لأنه قال عليه السلام « إن العالم إذا أراد بعلبه وجه الله هابه كل شيء وإن أراد أن يكتزبه الكنوز هاب من كل شيء ^(٣) » ، ثم عرض عليه أربعين ألف درهم وقال : تأخذها وتستعين بها قال : ارددها على من ظلمت بها ،

(١) حديث « يا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن الفضير أفلوا المخول على الأغنياء فإنه أجدر أن لا تردروا نعم الله عز وجل » وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « دعى ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك فقال : لأبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن بيعتين » أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد صحيح من رواية يحيى بن سعيد . (٣) حديث حماد بن سلمة مرفوعاً « إذا أراد بعلبه وجه الله هابه كل شيء وإذا أراد أن يكتزبه الكنوز هاب من كل شيء » هذا معضل وروى أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث واثلة بن الأسقع « من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء » ولما قيل في الضمائم نحوه من حديث أبي هريرة وكلامه منكر (١٩ - إحياء علوم الدين - ٢)

قال : والله ما أعطيتك إلا ما ورثته ، قال : لا حاجة لي بها : فتأخذها فتقسمها ، قال : لعلني إن عدلت في قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل في قسمتها فيأثم فازوها عني .

الحالة الثالثة : أن يعتزلهم فلا يراهم ولا يرونه وهو الواجب إذ لاسلامة إلا فيه ؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يجب بقاءهم ولا يثنى عليهم ولا يستخبر عن أحوالهم ولا يتقرب إلى المتصلين بهم ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم ؛ وذلك إذا خطر بباله أمرهم ، وإن غفل عنهم فهو الأحسن . وإذا خطر بباله تتميمهم فليذكر ما قاله حاتم الأصم : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد فأما أمس فلا يجدون لذته وإني وإلياهم في غد لعلني وجل وإنما هو اليوم وما عسى أن يكون في اليوم ، وما قاله أبو الدرداء : إذ قال : أهل الأموال يأكلون ونأكل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منها براء . وكل من أحاط عليه بظلم ظالم ومعصية عاص فينبغي أن يحيط ذلك من درجته في قلبه . فهذا واجب عليه لأن من صدر منه ما يكره نقص ذلك من رتبته في القلب لا محالة . والمعصية ينبغي أن تتركه فإنه إما أن يغفل عنها أو يرضى بها أو يكره ولا غفلة مع العلم ولا وجه للرضا فلا بد من الكراهة ، فليكن جنابة كل أحد على حق الله بجنابته على حقه .

* فإن قلت : الكراهة لا تدخل تحت الاختيار فكيف تجب ؟ قلنا : ليس كذلك فإن المحب يكره بضرورة الطبع ما هو مكروه عند محبوبه ومخالف له فإن من لا يكره معصية الله لا يجب الله وإنما لا يجب الله من لا يعرفه والمعرفة واجبة والمحبة لله واجبة . وإذا أحبه كره ما كرهه وأحب ما أحبه وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة والرضا .

* فإن قلت : فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين ؟ فأقول : نعم تعلم الدخول منهم ثم ادخل ؛ كما حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى مكة فلما دخلها قال اتوني برجل من الصحابة فقيل : يا أمير المؤمنين قد تفانوا فقال : من التابعين ، فأتى بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه يأمرة المؤمنين ولكن قال : السلام عليك يا هشام ، ولم يكنه وجلس بإزائه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله ؛ فقيل له : أنت في حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك ، فقال : يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فازداد غضبا وغيظا ؛ قال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبل يدي ولم تسلم على يأمرة المؤمنين ولم تكني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت : كيف أنت يا هشام ؟ قال : أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب علي ، وأما قولك لم تقبل يدي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة ، وأما قولك لم تسلم على يأمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكبره أن أكذب ، وأما قولك لم تكني فإني سمعت أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال له هشام : عظمي ، فقال سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول : إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبعال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته . ثم قام وهرب . وعن سفیان الثوري رضي الله عنه قال : أدخلت على أبي جعفر المنصور بنى فقال لي : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا . قال فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع إلينا

حاجتك ، فقلت : إنما أنزلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين والأنصار وأبناءؤهم يموتون جوعاً فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال لحازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهما ، وأرى ههنا أموالاً لا تطيق الجبال حملها ، وأخرج فبهكنا كانوا يدخلون على السلاطين إذا أزموا وكانوا يغزرون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم . ودخل ابن أبي شيملة على عبد الملك بن مروان فقال له : تسكلم ، فقال له : إن الناس لا ينجون في القيامة من غصصها ومراراتها ومعاناة الردى فيها إلا من أَرْضَى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك وقال : لأجعلن هذه الكلمة مثالا نصب عيني ما عشت . ولما استعمل عثمان بن عفان رضى الله عنه عبد الله بن عامر أناه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأ عنه أبو ذر - وكان له صديقا - فمات به ؛ فقال أبو ذر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عنه » (١) ، ودخل مالك بن دينار على أمير البصرة فقال : أيها الأمير قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول ما أحق من سلطان وما أجهل من عصاني ! ومن أعز بمن اعتزى ؟ أيها الراعى السوء دفعت إليك غنما سمانا صحاحا فأكلت اللحم وابست الصوف وتركها عظاما تتقعقع ، فقال له والى البصرة : أندري ما الذى يجرئك علينا ويحببنا عنك ؟ قال لا ، قال : قلة الطمع فينا وترك الإمساك لما في أيدينا . وكان عمر بن عبد العزيز واقفا مع سليمان ابن عبد الملك ؛ فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدمة الرجل ، فقال له عمر : هذا صوت رحمة فكيف إذا سمعت صوت عذابه ؟ ثم نظر سليمان إلى الناس فقال : ما أكثر الناس ، فقال عمر : خصماؤك يا أمير المؤمنين فقال له سليمان : ابتلاك الله بهم . وحكى أن سليمان بن عبد الملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلى أبي حازم فدعاه فلما دخل عليه قال له سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكبرتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب فقال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله ؟ قال يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله وأما المسىء فكالأبق يقدم على مولاه ، فبكى سليمان وقال : لينت شعري ما لي عند الله ؟ قال أبو حازم اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال ﴿ إن الأبرار لنى نعيم وإن الفجار لنى جحيم ﴾ قال : فأين رحمة الله قال : قريباً من المحسنين ثم قال سليمان : يا أبا حازم أى عباد الله أكرم ؟ قال : أهل البر والتقوى قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال : فأى الكلام أسمع ؟ قال قول الحق عند من تخاف وترجوا قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها ، قال : فأى المؤمنين أخسر ؟ قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره ، قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : أو تعفينى ؟ قال : لا بد فإنها نصيحة تلقىها لى ، قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقدارتحلوا ، فلو شعرت مما قالوا وما قيل لهم ؟ فقال له رجل من جلسائه : بئسما قلت : قال أبو حازم : إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتُمونه . قال : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال : أن تأخذه من حله فتضعه فى حقه ، فقال سليمان : ومن يقدر على ذلك ؟ فقال : من يطلب الجنة ويخاف من النار . فقال سليمان : ادع لى . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخبرى الدنيا والآخرة وإن كان عدوك نخذ بناصيته إلى ماتحب وترضى ، فقال سليمان : أوصنى ، فقال : أوصيك وأوجز ، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك . وقال عمر

(١) حديث أبي ذر : « إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عز وجل منه » لم أقف له على أصل .

ابن عبد العزيز لابن حازم : عظمي ، فقال : اضطلع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم أنظر إلى ماتحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن ، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن ، فلعل تلك الساعة قريبة . ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك ، فقال : تكلم يا أعرابي ، فقال : يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ماتحب إن قبلته ، فقال : يا أعرابي إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا تأمن غشه فكيف بمن تأمن غشه ونرجو نصحه ؟ فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين إنه قد تكلفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك ، حرب الآخرة سلم الدنيا فلا تأتمنهم على ما اتهمتك الله تعالى عليه فإنهم لم يألوا في الأمانة تضییعا وفي الأمانة خسفا وغسفا وأنت مسئول عما اجتزحوا وليسوا بمسئولين عما اجتزحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غنا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : يا أعرابي أما إنك قد سلكت لسانك وهو أقطع سيفيك . قال : أجل يا أمير المؤمنين ولكن لك لا عليك . وحكى أن أبا بكر دخل على معاوية فقال : اتق الله يا معاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعدا ومن الآخرة إلا قربا ، وعلى أترك طالب لا تغوته وقد نصب لك علما لا تجوزه فما أسرع ما تبلغ العلم وما أوشك ما يلحق بك الطالب وإنا نحن فيه زائل وفي الذي نحن إليه صائرون باق إن خيرا غير وإن شرا فشر . فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين أعنى علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم فيدلونهم على الرخص ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيوافق أغراضهم . وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح بل اكتساب الجاه والقبول عندهم . وفي هذا غروران يغتر بهما الحق (أحدهما) أن يظهر أن قصدي في الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ . وربما يلبسون على أنفسهم بذلك وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة وتحصيل المعرفة عندهم ، وعلامة الصدق في طلب الإصلاح أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره عن هو من أقرانه في العلم ووقع موقع القبول وظهر به أثر الإصلاح فينبغي أن يفرح به ويشكر الله تعالى على كفايته هذا المهم ، كمن وجب عليه أن يعالج مريضا ضالعا فقام بمعالجته غيره فإنه يعظم به فرحه . فإن كان يصادف في قلبه ترجيحا لكلامه على كلام غيره فهو مغرور (الثاني) أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامه . وهذا أيضا مظنة الغرور . ومعياره ما تقدم ذكره .

ولإذا ظهر طريق الدخول عليهم فلترسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل :

مسألة : إذا بعث إليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء فإن كان له مالك معين فلا يحل أخذه وإن لم يكن بل كان حكا أنه يجب التصديق به على المساكين - كما سبق - فلك أن تأخذه وتتولى التفرقة ولا تعصى بأخذه ولكن من العلماء من امتنع عنه فعند هذا ينظر في الأولى فنقول :

الأولى أن تأخذه إن أمنت ثلاث غوائل .

الغائلة الأولى : أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب ولولا أنه طيب لما كنت تمتد يدك إليه ولا تدخله في ضمانك ؛ فإن كان كذلك فلا تأخذه ، فإن ذلك محذور ولا يفي الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجرامة على كسب الحرام .

الغائلة الثانية : أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجهال فيعتقدون أنه حلال فيقتدون بك في الأخذ ويستدلون به

على جوازه ثم لا يفرقون ، فهذا أعظم من الأول . فإن جماعة يستدلون بأخذ الشافعي رضي الله عنه على جواز الأخذ ويغفلون عن تفرقة وأخذه على نية التفرقة ؛ فالمقتدى والمتشبه به ينبغي أن يحتز عن هذا غاية الاحتراز فإنه يكون فعله سبب ضلال خلق كثير . وقد حكى وهب بن منبه أن رجلا أتى به إلى ملك بمشهد من الناس ليكرمه على أكل خُم الخنزير فلم يأكل ، فقدم إليه لحم غنم وأكره بالسيف فلم يأكل ، فقيل له في ذلك فقال : إن الناس قد اعتقدوا أني طولبت بأكل لحم الخنزير ؛ فإذا خرجت سالما وقد أكلت فلا يعلمون ماذا أكلت فيضلون . ودخل وهب ابن منبه وطاوس على محمد بن يوسف - أخى الحجاج - وكان عاملا وكان في غداة باردة في مجلس بارز فقال لغلामه : هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبي عبد الرحمن - أي طاوس - وكان قد قعد على كرسي فألقى عليه فلم يزل يحرك كتفيه حتى ألقى الطيلسان عنه ، فغضب محمد بن يوسف فقال وهب : كنت غنيا عن أن تغضبه لو أخذت الطيلسان وتصدقت به قال : نعم لولا أن يقول من بعدى إنه أخذه طاوس - ولا يصنع به ما أصنع به - إذن لفعلت .

الغائلة الثانية : أن يتحرك قلبك إلى حبك لتخصيصه إياك وإثارة لك بما أنفذه إليك ، فإن كان كذلك فلا تقبل ذلك هو السم القاتل والداء الدفين أعنى ما يحب الظلمة إليك ، فإن من أحببته لابد أن تحرص عليه وتداهن فيه . قالت عائشة رضي الله عنها : جعلت النفوس على حب من أحسن إليها . وقال عليه السلام : اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا فيحبه قلبي ^(١) بين صلى الله عليه وسلم أن القلب لا يكاد يتمتع من ذلك . وروى أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك بن دينار بعشرة آلاف درهم فأخرجها كلها فأتاه محمد بن واسع فقال : ما صنعت بما أعطاك هذا المخلوق ؟ قال : سل أصحابي ؟ فقالوا . أخرجه كله ، فقال . أنشدك الله أقلبك أشد حباله الآن أم قبل أن أرسل إليك ؟ لا بل الآن ، قال : إنما كنت أخاف هذا . وقد صدق فإنه إذا أحبه أحب بقاءه وكره وعزله ونكبته وموته وأحب اتساع ولايته وكثرة ماله ، وكل ذلك حب لأسباب الظلم وهو مذموم . قال سليمان وابن مسعود رضي الله عنهما : من رضى بأمر وإن غاب عنه كان كمن شهده قال تعالى ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ قيل لا ترضوا بأعمالهم فإن كنت في القوة بحيث لا ترداد حبالهم بذلك فلا بأس بالأخذ . وقد حكى عن بعض عباد البصرة أنه كان يأخذ أموالا ويفرقها فقيل له : ألا تخاف أن تحبهم ؟ فقال : لو أخذ رجل يدي وأدخلني الجنة ثم عصى ربه ما أحبه قلبي ، لأن الذي سخره للأخذ يدي هو الذي أبغضه لأجله شكرا له على تصغيره إياه . وبهذا تبين أخذ المال الآن منهم وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذور ومذموم لأنه لا ينفك عن هذه القوائل .

مسألة : إن قال قائل : إذا جاز أخذ ماله وتفرقة فهل يجوز أن يسرق ماله أو تخفي وديعته وتسكرو وتفرق على الناس ؟ فنقول : ذلك غير جائز لأنه ربما يكون له مالك معين وهو على عزم أن يرده عليه ، وليس هذا كما لو بعته إليك ؛ فإن العاقل لا يظن به أنه يتصدق بما لم يعلم مالكة فيدل تسليمه على أنه لا يعرف مالكة فإن كان بمن يشك عليه مثله فلا يجوز أن يقبل منه المال مالم يعرف ذلك ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ملكه قد حصل له بشراء في ذمته ؟ فإن اليد دلالة على الملك . فهذا لاسبيل إليه بل لو وجد لقطة وظهر أن صاحبها جندى واحتمل أن تكون له بشراء في الذمة أو غيره وجب الرد عليه . فإذا لا يجوز سرقة ما لهم ولا من أودع عنده . ولا يجوز إنكار وديعتهم ويجب الحد على سارق ما لهم إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكا لهم فعند ذلك يسقط الحد بالدعوى .

(١) حديث « اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا فيحبه قلبي » أخرجه ابن مردويه في التفسير من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وأبو موسى المدني في كتاب : تصحيح السير والأيام مرسلأ وأسانيده كلها ضعيفة .

مسألة : المعاملة معهم حرام لأن أكثر ما لهم حرام فما يؤخذ عوضاً فهو حرام ، فإن أدى الثمن من موضع يعلم حله فيبقى النظر فيما سلم إليهم ، فإن علم أنهم يعصون الله به كبيع الديباج منهم وهو يعلم أنهم يلبسونه فذلك حرام كبيع العنب من الحار ، وإنما الخلاف في الصحة وإن أمكن ذلك وأمكن أن يلبسها نساءه فهو شبهة مكروهة ، هذا فيما يعصى في عينه من الأموال . وفي معناه بيع الفرس منهم ، لاسيما في وقت ركوبهم إلى قتال المسلمين أو جباية أموالهم فإن ذلك إغاة لهم بفرسه وهي محظورة . فأما بيع الدراهم والدنانير منهم وما يجري مجراها مما لا يعصى في عينه بل يتوصل بها فهو مكروه لما فيه من إغاتهم على الظلم لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب وسائر الأسباب ، وهذه الكراهة جارية في الإهداء إليهم وفي العمل لهم من غير أجره حتى في تعليمهم وتعليم أولادهم الكفاية والترسل والحساب ، وأما تعليم القرآن فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة فإن ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله ، ولو انتصب وكيلا لهم يشتري لهم في الأسواق من غير جعل أو أجره فهو مكروه من حيث الإغاة ، وإن اشترى لهم ما يعلم أنهم يقصدون به المعصية كالغلام والديباج للعرش واللبس والفرس للركوب إلى الظلم والقتل فذلك حرام . فهما ظهر قصد المعصية بالمتاع حصل التحريم ومهما لم يظهر واحتمل بحكم الحال ودلاليتها عليه حصلت الكراهة .

مسألة : الأسواق التي بنوها بالمسال الحرام تحرم التجارة فيها ولا يجوز سكنها ، فإن سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعي لم يحرم كسبه وكان عاصيا بسكنها ، والناس أن يشتروا منهم ، ولكن لو وجدوا سوقا أخرى فالأولى الشراء منها فإن ذلك إغاة لسكنهم وتكثير لكراه حوائثهم ، وكذلك معاملة السوق التي لاخراج لهم عليها أحب من معاملة سوق لهم عليها خراج ، وقد بالغ قوم حتى تحرزوا من معاملة الفلاحين وأصحاب الأراضى التي لهم عليها الخراج فإنهم ربما يصرفون ما يأخذون إلى الخراج فيحصل به الإغاة ، وهذا غلو في الدين وخرج على المسلمين فإن الخراج قد عم الأراضى ولاغنى بالناس عن ارتفاق الأرض ولا معنى للنفع منه ، ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لا يطلب خراجها . وذلك مما يطول ويتداعى إلى حسم باب المعاش .

مسألة : معاملة قضائهم وعمالهم وخدمهم حرام كعاملتهم بل أشد . أما القضاة فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثرون جمعهم ويغرون الخلق يزنهم فإنهم على زى العلماء ويحتلطون بهم يأخذون من أموالهم والطباع مجبولة على التشبه والاقتران بدوى الجاه والحشمة . فهم سبب انقياد الخلق إليهم . وأما الخدم والحشم فأكثر أموالهم من الغصب الصريح ولا يقع في أيديهم مال مصلحة وميراث وجزية ولا وجه حلال حتى تضعف الشبهة باختلاط الحلال بمالهم . قال طاوس : لا أشهد عندهم وإن تحققت لأنى أخاف تعديهم على من شهدت عليه . وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفا من إنكارهم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما يمالئ قزأها أمراءها »^(١) ، وإنما ذكر القراء لأنهم كانوا هم العلماء وإنما كان عليهم بالقرآن ومعانيه المفهومة بالسنة . وما وراء ذلك من العلوم فهي محدثة بعدهم . وقد قال سفيان : لا تتخالط السلطان ولا من يخالطه . وقال : صاحب القلم وصاحب الدواة وصاحب القرباس وصاحب الليطة بعضهم شركاء بعض . وقد صدق فإن رسول الله

(١) حديث « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما يمالئ قزأها أمراءها » أخرجه أبو عمرو الداني في كتاب الفتن من رواية الحسن مرسل ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ثلى وابن عمر بلفظ « ما يعظم أبرارها لحارها ويداهن خيارها شرارها » وإسنادها ضعيف .

صلى الله عليه وسلم لعن في الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر ^(١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه « آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » ^(٢) وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) وقال ابن سيرين : لا تحمل للسلطان كتابا حتى تعلم ما فيه ، وامتنع سفيان رحمه الله من مناولة الخليفة في زمانه دواة بين يديه وقال : حتى أعلم ما تكتب بها فكل من حو اليهم من خدمهم وأتباعهم ظلمة مثلهم يجب بغضهم في الله جميعا . روى عن عثمان بن زائدة أنه سأله رجل من الجند وقال : أين الطريق ؟ فسكت وأظهر الصمم وخاف أن يكون متوجها إلى ظلم فيكون هو يارشاده إلى الطريق معينا . وهذه المبالغة لم تنقل عن السلف مع الفساق من التجار والحماكة والحجامين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف مع غلبة الكذب والفسق عليهم ، بل مع الكفار من أهل الذمة ، وإنما هذا في الظلمة خاصة الآكلين لأموال اليتامى والمساكين والمواطنين على إيذاء المسلمين الذين تعاونوا على طمس رسوم الشريعة وشعائرها . وهذا لأن المعصية تنقسم إلى لازمة ومتعدية ، والفسق لازم لا يتعدى ، وكذا الكفر وهو جنابة على حق الله تعالى وحسابه على الله وأمام معصية الولاية بالظلم وهو متعد فإنيما يغلف أمرهم لذلك وبقدر عموم الظلم وعموم التعدى يزدادون عند الله مقتا فيجب أن يزداد منهم اجتنابا ومن معاملتهم احترازا فقد قال صلى الله عليه وسلم ، يقال للشرطي دع سوطك وادخل النار ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر » ^(٥) ، فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف ومن لم يعرف فعلامته القباء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة . فمن روى على تلك الهيئة تعين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن لأنه الذي جنى على نفسه إذ تزيأ بهم ، ومساواة الزى تدل على مساواة القلب ولا يتجان إلا مجنون ولا يتشبه بالفساق إلا فاسق ، نعم الفاسق قد يلتبس بأهل الصلاح فأما الصالح فليس له أن يتشبه بأهل الفساد لأن ذلك تكثير لسوادهم وإنما نزل قوله تعالى ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ في قوم من المسلمين كانوا يكثرون جماعة المشركين بالمخالطة ، وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى يوشع ابن نون إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم ، فقال : ما بال الأخيار ؟ قال : لأنهم لا يفيضون لغضبى فكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم . وبهذا يتبين أن بعض الظلمة والغضب لله عليهم واجب ، وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لعن علماء بني إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم » ^(٦) .

(١) حديث « أن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم لعن في الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس قال الترمذى حديث غريب . (٢) حديث ابن مسعود « آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للنسائي دون قوله « وشاهداه » ولأبي داود لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه » قال الترمذى وصححه وابن ماجه وشاهديه . (٣) حديث جابر لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه » أخرجه مسلم من حديثه ، وأما حديث عمر فأشار إليه الترمذى بقوله وفي الباب ولابن ماجه من حديثه « إن آخر ما أزلت آية الربا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يفسرها فدعوا الربا والرية » وهو من رواية ابن المسيب عنه والجمهور على أنه لم يسمع منه . (٤) حديث « يقال للشرطي دع سوطك وادخل النار » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث « من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبي أمامة « يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأذناب البقر ... الحديث » ولمسلم من حديث أبي هريرة « يوشك أن طالت بك مدة أن ترى قوما في أيديهم مثل أذناب البقر » وفي رواية له صفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر ... الحديث .

(٦) حديث ابن مسعود « لعن الله علماء بني إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي : نهتهم علماءهم فلم يتهبوا فجاءهم في مجالسهم وواكلهم وشاربهم فغضب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم » لفظ الترمذى وقال حسن غريب .

مسألة : المواضع التي بناها الظلة كالتناظر والرباطات والمساجد والسقايات ينبغي أن يحتاط فيها وينظر أما القنطرة فيجوز العبور عليها للحاجة ، والورع الاحتراز ما أمكن وإن وجد عنه معدلاً تأكد الورع . وإنما يجوزنا العبور وإن وجد معدلاً لأنه إذا لم يعرف الأعيان مالكا كان حكمها أن ترصد للخيرات وهذا خير ، فأما إذا عرف أن الآجر والحجر قد نقل من دار معلومة أو مقبرة أو مسجد معين فهذا لا يحل العبور عليه أصلاً إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير ، ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذي يعرفه . وأما المسجد فإن بني في أرض مفضوبة أو بخشب منصوب من مسجد آخر أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلاً ولا للجمعة بل لو وقف الإمام فيه فليصل هو خلف الإمام وليقف خارج المسجد فإن الصلاة في الأرض المفضوبة تسقط الفرض وتعمد في حق الاقتداء ، فلذلك يجوزنا للقتدى الاقتداء بمن صلى في الأرض المفضوبة وإن عصي صاحبه بالوقوف في الغصب . وإن كان من مال لا يعرف مالكة فالورع العدول إلى مسجد آخر إن وجد فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة والجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذي بناه ولو على بعد وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين . ومهما كان في المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم فلا عذر لمن يصلي فيه مع اتساع المسجد ، أغنى في الورع ، قيل لأحمد بن حنبل : ما حجتك في ترك الخروج إلى الصلاة في جماعة ونحن بالعسكر ؟ فقال . حجتى أن الحسن وإبراهيم التيمي خافا أن يفتنهما الحجاج وأنا أخاف أن أفتن أيضاً . وأما الخلق والتجسيص فلا يمنع من الدخول لأنه غير منتفع به في الصلاة وإنما هو زينة والأولى أنه لا ينظر إليه . وأما البوارى التي فرشوها فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها وإلا فبعد أن أرصدت لمصلحة عامة جاز اقتراشها ، ولكن الورع العدول عنها فإنها محل شبهة . وأما السقايات لحكمها ما ذكرناه وليس عن الورع الوضوء والشرب منها والدخول إليها إذا كان يخاف فوات الصلاة فيتوضأ وكذا مصانع طريق مكة . وأما الرباطات والمدارس فإن كانت رقة الأرض مفضوبة أو الآجر منقولا من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقه فلا رخصة للدخول فيه وإن التبس المالك فقد أرصد لجهة من الخير ، والورع اجتنابه ولكن لا يلزم الفسق بدخوله . وهذه الأبنية إن أرصدت من خدم السلاطين فالأمر فيها أشد إذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة إلى المصالح ولأن الحرام أغلب على أموالهم إذ ليس لهم أخذ مال المصالح وإنما يجوز ذلك للولاء وأرباب الأمر .

مسألة : الأرض المفضوبة إذا جعلت شارعا لم يحز أن يتخطى فيه ألبتة وإن لم يكن له مالك معين جاز ، والورع العدول إن أمكن ، فإن كان الشارع مباحا وفوقه سابات جاز العبور وجاز الجلوس تحت السابات على وجه لا يحتاج فيه إلى السقف كما يقع في الشارع لشغل ، فإذا انتفع بالسقف في دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام لأن السقف لا يراد إلا لذلك ، وهكذا حكم من يدخل مسجدا أو أرضا مناحة سقف أحوط بغصب فإنه بمجرد التخطى لا يكون منتفعا بالحيطان والسقف إلا إذا كان له فائدة في الحيطان والسقف لحر أو برد تستر عن بصر أو غيره فذلك حرام لأنه انتفاع بالحرام إذالم يحرم الجلوس على الغصب لما فيه من الماسة بل الانتفاع ، والأرض تراد للاستقرار عليها والسقف للاستغلال به فلا فرق بينهما .

الباب السابع

في مسائل متفرقة يكثر ميسر الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى

مسألة : سئل عن خادم الصوفية يخرج إلى السوق ويجمع طعاما أو تقدا ويشتري به طعاما فن الذي يحل له أن يأكل منه ؟ وهل يختص بالصوفية أم لا ؟ فقلت : أما الصوفية فلا شبهة في حقهم إذا أكلوه وأما غيرهم فيحل لهم إذا أكلوه برضا الخادم ولكن لا يخلو عن شبهة ، أما الحل فلأن ما يعطى خادم الصوفية إنما يعطى بسبب الصوفية وله أن يطعم غير العيال إذ يبعد أن يقال لم يخرج عن ملك المعطى ولا يتسلط الخادم على الشراء به التصرف فيه ؟ لأن ذلك مصير إلى أن المعاطاة لا تكفى وهو ضعيف ، ثم لا صائر إليه في الصدقات والهدايا ، ويعد أن يقال زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله في الخانقاه إذ لا خلاف أن له يطعم منه من يقدم بعدم ولو ماتوا كلهم أو واحد منهم لا يجب صرف نصيبه إلى وارثه ، ولا يمكن أن يقال إنه وقع لجهة التصوف ولا يتعين له مستحق لأن إزالة الملك إلى الجهة لا توجب تسليط الآحاد على التصرف فإن الداخلين فيه لا ينحصرون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة ، وإنما يتصرف فيه الولاة ، والخادم لا يجوز له أن يقتصب نائبا عن الجهة فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه وإنما يطعم الصوفية بوفاء شرط التصوف والمروءة فإن منعهم عنه منعه عن أن يظهر نفسه في معرض التكفل بهم حتى ينقطع وقفه كما ينقطع عن مات عياله .

مسألة : سئل عن مال أوصى به للصوفية فن الذي يجوز أن يصرف إليه ؟ فقلت : التصوف أمر باطن لا يطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفى ، والضابط الكلى أن كل من هو بصفة إذا نزل في خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكرا عندهم فهو داخل في غنارهم . والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات الصلاح والفقر وزى الصوفية وأن لا يكون مشغلا بحرفة وأن يكون مخالطا لهم بطريق المساكنة في الخانقاه . ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم وبعضها ينجبر بالبعض فالفسق يمنع الاستحقاق لأن الصوفى بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة ، فالذى يظهر فسقه وإن كان على زهيم لا يستحق ما أوصى به للصوفية ولنا نعتبر فيه الصغائر . وأما الحرفة والاشتغال بالكسب فإنه يمنع هذا الاستحقاق فالدهقان والعامل والتاجر والصانع في حانوته أو داره والأجير الذى يخدم بأجرة كل هؤلاء لا يستحقون ما أوصى به للصوفية ولا ينجبر هذا بالزى والمخالطة ، فأما الوراقة والخيطة وما يقرب منهما مما يليق بالصوفية تعاطيا ، فإذا تعاطاها لافى حانوت ولا على جهة اكتساب وحرفة فذلك لا يمنع الاستحقاق وكان ذلك ينجبر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات ، وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة فلا تمنع ، وأما الوعظ والتدريس فلا ينافى اسم التصوف إذا وجدت بقية الخصال من الزى والمساكنة والفقر إذ لا يتناقض أن يقال صوفى مقرى وصوفى واعظ وصوفى عالم أو مدرس ، ويتناقض أن يقال صوفى تاجر وصوفى عامل ، وأما الفقر فإن زال بغنى مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفية ، وإن كان له مال ولا ينفى دخله بخرجه لم يطل حقه ، وكذا إذا كان له مال قاصر عن وجوب الزكاة وإن لم يكن له خرج وهذه أمور لا دليل لها إلا العادات . وأما المخالطة لهم ومساكنتهم فلها أثر ولكن من لا يخالطهم وهو فى داره أو فى مسجد على زهيم ومتخلق بأخلاقهم فهو شريك فى سهمهم وكان ترك المخالطة يجبرها ملازمة الزى فإن لم يكن على زهيم ووجد فيه بقية الصفات

فلا يستحق إلا إذا كان مساكنا لهم في الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية . فالخالطة والري ينوب كل واحد منهما عن الآخر . والفقيه الذي ليس على زيهب هذا حكمه فإن كان خارجا لم يعد صوفيا وإن كان ساكنا معهم ووجدت بقية الصفات لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم . وأما لبس المرقعة من يد شيخ من مشايخهم فلا يشترط ذلك في الاستحقاق ، وعدمه لا يضره مع وجود الشرائط المذكورة . وأما المتأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلا يخرج بذلك عن جملتهم .

مسألة : ما وقف على رباط الصوفية وسكانه فالأمر فيه أوسع مما أوصى لهم به لأن معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم ؛ فلغير الصوفي أن يأكل معهم برضاهم على مائدتهم مرة أو مرتين فإن أمر الأطلعة مبناه على التسامح حتى جاز الانفراد بها في الفنائم المشتركة ، وللقوال أن يأكل معهم في دعوتهم من ذلك الوقف وكان ذلك من مصالح معاشهم ، وما أوصى به للصوفية لا يجوز أن يصرف إلى قوال الصوفية بخلاف الوقف ، وكذلك من أحضره من العمال والتجار والقضاة والفقهاء ممن لهم غرض في استمالة قلوبهم يحل لهم الأكل برضاهم ، فإن الواقف لا يقف إلا معتقدا فيه ماجرت به عادات الصوفية فينزل على العرف ولكن ليس هذا على الدوام ، فلا يجوز لمن ليس صوفيا أن يسكن معهم على الدوام ويأكل وإن رضوا به إذ ليس لهم تغيير شرط الواقف بمشاركة غير جنسهم . وأما الفقيه إذا كان على زيهب وأخلاقهم فله النزول عليهم ، وكونه فقيها لا ينافي كونه صوفيا ، والجهل ليس بشرط في التصوف عند من يعرف التصوف ، ولا يلتفت إلى خرافات بعض الحق بقلوبهم : إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب . وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة في كتاب العلم ، وأن الحجاب هو العلم المذموم دون المحمود ، وذكرنا المحمود والمذموم وشرحهما . وأما الفقيه إذا لم يكن على زيهب وأخلاقهم فلمنعه من النزول عليهم فإن رضوا بنزوله فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية فكان عدم الزى تجبره المساكنة ولكن برضا أهل الزى ، وهذه أمور تشهد لها العادات وفيها أمور متقابلة لا يخفى أطرافها في النقي والإثبات ومتشابهة أوساطها فنحترز في مواضع الاشتباه فقد استبرأ لدينه كما نبهنا عليه في أبواب الشبهات .

مسألة : سئل عن الفرق بين الرشوة والهدية مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا ولا يخلو عن غرض وقد حرمت إحداها دون الأخرى . فقلت : باذل المال لا يبذله قط إلا لغرض ، ولكن الغرض إما آجل كالثواب وإما عاجل ، والعاجل إما مال وإما فعل وإعانة على مقصود معين وإما تقرب إلى قلب المهدي إليه بطلب محبته إما المحبة في عينها وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراها فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة .

الأول : ما غرضه الثواب في الآخرة وذلك إما أن يكون لكون المصروف إليه محتاجا أو عالما أو منتسبا بنسب ديني أو صالحا في نفسه متدينا . فما علم الآخذ أنه يعطاه لحاجته لا يحل له أخذه إن لم يكن محتاجا ، وما علم أنه يعطاه لشرف نسبه لا يحل له إن علم أنه كاذب في دعوى النسب ، وما يعطى لعلمه فلا يحل له أن يأخذه إلا أن يكون في العلم كما ينتقده المعطى ، فإن كان خيل إليه كالا في العلم حتى بعثه بذلك على التقرب ولم يكن كاملا لم يحل له ، وما يعطى لدينه وصلاحه لا يحل له أن يأخذه إن كان فاسقا في الباطن فسقا لو علمه المعطى ما أعطاه . وقلما يكون الصالح بحيث لو انكشف باطنه لبقيت القلوب مائلة إليه وإنما ستر الله الجليل هو الذي يحبب الخلق إلى الخلق . وكان المتورعون يوكون في الشراء من لا يعرف أنه وكيلهم حتى لا يتساعخوا في المبيع خيفة من أن يكون ذلك أكلا بالدين فإن ذلك خطر والتقي خفي لا كالمعلم والنسب والفقر فينبغي أن يحتنب الأخذ بالدين ما أمكن .

القسم الثاني : ما يقصد به في العاجل غرض معين كالفقير يهdy إلى الغنى طمعا في خلعتة فهذه هبة بشرط الثواب لا ينجي حكمها وإنما تحل عند الوفاء بالثواب المطموع فيه وعند وجود شروط العقود .

الثالث : أن يكون المراد إعانة بفعل معين كالححتاج إلى السلطان يهdy إلى وكيل السلطان وخاصته ومن له مكانة عنده فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال ؛ فليست في ذلك العمل الذي هو الثواب فإن كان حراما كالسعى في تنجيز إدرار حرام أو ظلم لإنسان أو غيره حرم الأخذ ، وإن كان واجبا كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه أو شهادة متعينة فيحرم عليه ما يأخذه وهي الرشوة التي لا يشك في تحريمها ، وإن كان مباحا لا واجبا ولا حراما وكان فيه تعب بحيث لو عرف لجاز الاستئجار عليه فما يأخذه حلال مهما وفي الغرض ، وهو جار مجرى الجمالة كقوله أوصل هذه القصة إلى يد فلان أو يد السلطان ولك دينار وكان بحيث يحتاج إلى تعب وعمل متقوم ، أو قال اقترح على فلان أن يعينني في غرض كذا أو ينعم علي بكذا وافترق في تنجيز غرضه إلى كلام طويل ، فذلك جعل كما يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدي القاضي فليس بحرام إذا كان لا يسعى في حرام ، وإن كان مقصود يحصل بكلمة لا تعب فيها ولكن تلك الكلمة من ذي الجاه أو تلك الفعلة من ذي الجاه تفيد كقوله للبواب لا تغلق دونه باب السلطان أو كوضعه قصة بين يدي السلطان فقط ، فهذا حرام لأنه عوض من الجاه ، ولم يثبت في الشرع جواز ذلك بل ثبت ما يدل على النهي عنه - كما سيأتى في هدايا الملوك - وإذا كان لا يجوز العوض عن إسقاط الشفعة والرد بالعيب ودخول الأغصان في هواء الملك وجملة من الأغراض مع كونها مقصودة فكيف يؤخذ عن الجاه ؟ ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينه بها على دواء ينفرد بمعرفته كواحد ينفرد بالعلم بنبت يقطع البواسير أو غيره فلا يذكره إلا بعوض فإن عمله بالتلفظ به غير متقوم كحبة من سمسم فلا يجوز أخذ العوض عليه ولا على غيره ، إذ ليس ينتقل عمله إلى غيره وإنما يحصل لغيره مثل عمله ويبقى هو عالما به ، ودون هذا : الحاذق في الصناعة كالصيقلي مثلا الذي يزيل اعوجاج السيف أو المرأة بدقة واحدة لحسن معرفته بموضع الخلل ، ولخذه يصابته فقد يزيد بدقة واحدة مال كثير في قيمة السيف والمرأة فهذا لا أرى بأسا بأخذ الأجرة عليه ، لأن مثل هذه الصناعات يتعب الرجل في تعلمها ليكتسب بها ويخفف عن نفسه كثرة العمل .

الرابع : ما يقصد به المحبة وجلبها من قبل المهدي إليه لا لغرض معين ولكن طلبا للاستئناس وتأكيده للصحة وتوددا إلى القلوب فذلك مقصود للعقلاء ومندوب إليه في الشرع قال صلى الله عليه وسلم « تهادوا تحابوا »^(١) ، وعلى الجملة فلا يقصد الإنسان في الغالب أيضا محبة غيره لعين المحبة بل لفائدة في محبته ولكن إذا لم تتعين تلك الفائدة ولم يمتثل في نفسه غرض معين يبعثه في الحال أو المال سمي ذلك هدية وحل أخذها .

الخامس : أن يطلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبته لا لمحبة ولا للأنس به من حيث إنه أنس فقط بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض له ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها وكان لولا جاهه وحشمته لكان لا يهdy إليه ، فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه فإن فيه مشابهة الرشوة ولكنها هدية في ظاهرها ، فإن كان جاهه بولاية تولاهها من قضاء أو عمل أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية حتى ولاية الأوقاف مثلا ، وكان لولا تلك الولاية لكان لا يهdy إليه فهذه رشوة هرخت في معرض الهدية إذ القصد

الباب السابع : في مسائل متفرقة

(١) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة ، وضعه ابن عدى .

بها في الحال طلب التقرب واكتساب المحبة ولكن الأمر ينحصر في جنسه إذ ما يمكن التوصل إليه بالآيات لا يخفى وآية أنه لا ينبغي المحبة أنه لو ولى في الحال غيره لسلم المال إلى ذلك الغير ، فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة واختلفوا في كونه حراما ، والمعنى فيه متعارضا فإنه دائر بين الهدية المحضة وبين الرشوة المبذولة في مقابلة جاه في غرض معين ، وإذا تعارضت المشابهة القياسية وعصدت الأخبار والآثار أحدهما تعين الميل إليه ، وقد دلت الأخبار على تشديد الأمر في ذلك قال صلى الله عليه وسلم « يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة يقتل البريء . لتوعظ به العامة » (١) ، وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن السحت فقال : يقضى الرجل الحاجة فتهدي له الهدية ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لا تعب فيها أو تبرع بها لاعلى قصد أجره ، فلا يجوز أن يأخذ بعده شيئا في معرض العوض ، شفع مسروق شفاعته فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب وردها وقال : لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكلم فيما بقي منها . وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال : سحت . وأخذ عمر رضي الله عنه ربح مال القراض الذي أخذه ولناه من بيت المال وقال : إنما أعطيتا لمكانكما مني إذ علم أنهما أعطيا لأجل جاء الولاية . وأهدت امرأة أبي عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خلوقا فكافأتهما بجوهر فأخذه عمر رضي الله عنه فباعه وأعطاهما ثمن خلوقها ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين . وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما : هدايا الملوك غلول . ولما رد عمر بن عبد العزيز الهدية قيل له « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية فقال : كان ذلك له هدية وهو لنا رشوة » (٢) ، أي كان يتقرب إليه لنبوته لالولايته ونحن إنما نعطي للولاية . وأعظم من ذلك كله ما روى أبو حميد الساعدي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا على صدقات الأزدي فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك ببعض ماله وقال : هذا لكم وهذا لي هدية ، فقال عليه السلام : ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ، ثم قال : مالي أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لي هدية ألا جلست في بيت أمه ليهدي له والذي نفسي بيده لا يأخذ منكم أحد شيئا بغير حقه إلا أتى الله يحمله فلا يأتين أحدكم يوم القيامة بيعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأيت بينا يابض لإبطيه ، ثم قال : اللهم هل بلغت (٣) ، وإذا ثبتت هذه التشديدات فالقاضي والولي ينبغي أن يقدر نفسه في بيت أمه وأبيه فما كان يعطى بعد العزل وهو في بيت أمه يجوز له أن يأخذه في ولايته ، وما يعلم أنه ، إنما يعطاه لولايته لحرام أخذه ، وما أشكل عليه في هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولا ؟ فهو شبهة فليجتنبه .

تم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومنه وحسن توفيقه والله أعلم

(١) حديث « يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة ، يقتل البريء . لتوعظ به العامة » لم أقف له على أصل . (٢) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية . أخرجه البخاري من حديث عائشة . (٣) حديث أبي حميد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا إلى صدقات الأزدي فلما جاء قاله : هذا مالكم وهذا هدية لي . الحديث متفق عليه .

كتاب آداب الألفة والاخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولا وامتثانا . وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا . ونزع الغل من صدورهم فغللوا في الدنيا أصدقاء وأخذانا . وفي الآخرة رفقاء وخلانا .
والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولاً وفعلًا وعدلاً وإحساناً .
أما بعد : فإن التحاب في الله تعالى والاخوة في دينه من أفضل القربات ، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجارى العادات . ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الاخوة عن شوائب الكدورات وزغاث الشيطان ، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلي وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى ، ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب في ثلاثة أبواب (الباب الأول) في فضيلة الألفة والاخوة في الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها . (الباب الثاني) في حقوق الصحبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها . (الباب الثالث) في حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من قد بلى بهذه الأسباب .

الباب الأول : في فضيلة الألفة والاخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والاخوة

أعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق ثمرة سوء الخلق . لحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباعد والتحاسد والتدابر ، ومهما كان المشر محمداً كانت الثمرة محمودة . وحسن الخلق لا يتحقق في الدين فضيلته وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق »^(١) ، وقال أسامة بن شريك : قلنا يا رسول الله ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فقال : خلق حسن^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بعثت لأتمم محاسن الإخلاق^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما حسن الله خلق امرئ وخلفه فيقطع النار^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق ،

كتاب آداب الصحبة

الباب الأول : في فضيلة الألفة والاخوة

(١) حديث « أول ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح الإسناد وقد تقدم . (٢) حديث أسامة بن شريك : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح . (٣) حديث « بشت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه أحمد والبيهقي ، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن » رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وقال : حسن صحيح . (٥) حديث « ما حسن الله خلق امرئ وخلفه فيقطع النار » أخرجه ابن عدي والطبراني في مكارم الأخلاق وفي الأوسط ، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة . قال ابن عدي : في إسناده بعض التسكرة .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك ^(١) ، ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الالفه وانقطاع الوحشة ومهما طاب الثمر طابت الثمرة ، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الالفه سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقتنع ، قال الله تعالى مظهرا عظيم منته على الخلق بنعمة الالفه ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ وقال ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ أي بالالفه ، ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال عز من قائل ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - إلى - لعلمكم تهتدون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « لئن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم في الثناء على الاخوة في الدين « من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعاه ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا ^(٥) » وقال عليه السلام في الترغيب في الاخوة في الله « من آخى أخا في الله رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله ^(٦) » ، وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ، وجوهم كالقمر ليلة البدر ، يفرح الناس وهم لا يفرحون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال : هم المتحابون في الله تعالى ^(٧) » ، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وقال فيه « لئن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور وجوهم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء ، فقالوا ، يا رسول الله صفهم لنا ؛ فقال : هم المتحابون في الله والمتجالسون في الله »

(١) حديث « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق » قال : وما حسن الخلق ؟ قال « تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك » رواه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه . (٢) حديث « لئن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » رواه الطبراني في معارج الأئمة من حديث جابر بسند ضعيف .

(٣) حديث « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد ، والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه . (٤) حديث « من أراد الله به خيرا رزقه أخا صالحا لمن نسي ذكره وإن ذكر أعاه » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف أن ذلك في الأمير . ورواه أبو داود من حديث عائشة « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق لمن أسي ذكره وإن ذكر أعاه ... الحديث » ضعفه ابن عدي ، ولأبي عبد الرحمن السلمي في آداب الصحة من حديث علي « من سعادة المرء أن يكون لخوانه صالحين » . (٥) حديث « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى » الحديث رواه السلمي في آداب الصحة ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب ، وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات . (٦) حديث « من آخى أخا في الله عز وجل رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوة من حديث أنس « ما أحدث عبد أخا في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة » واصفاده ضعيف . (٧) حديث قال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله فقال : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تنصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم في حديث طويل : أن أبا إدريس قال : قلت والله إني لأحك في الله قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن المتحابين بجلال الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، وهو عند الترمذي من رواية أبي مسلم الخولاني عن معاذ بلفظ « المتحابون في جلال لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » قال حديث حسن صحيح ، ولأحمد من حديث أبي مالك الأشعري « أن الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ... الحديث » وفيه « تحابوا في الله وتصافوا به يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فتجعل وجوههم نوراً ويأبهم ورأ يفرح الناس يوم القيامة ولا يفرحون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه .

والمزاورون في الله ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ماتحباب اثنان الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه ^(٢) » ، ويقال : إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة . قال عز وجل ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول حقت محبتي للذين يتزاورون من أجل وحقت محبتي للذين يتحابون من أجل وحقت محبتي للذين يتقاضون من أجل وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجل ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مازار رجل رجلا في الله شوقا إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلقه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن رجلا زار أخاه في الله ، فأرصد الله له ملكا فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخي فلانا ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه ؟ قال : لا ، قال : فيمنعة له عندك ؟ قال : لا ، قال : فم ؟ قال أحبه في الله قال . فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة ^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ^(٨) » ، فهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله . وبروي أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء : أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة وأما انقطاعك إلى فقد تعززت بي ولكن هل عادت في عدوا أهل البيت في وليا ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل لفاجر على مئة فترزقه مني حبة ^(٩) » ، ويروي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام ، لو أنك عبدتني بعبادة أهل السماوات والأرض وحب في الله ليس وبغض في الله ليس ما أغني عنك ذلك شيئا ، وقال عيسى عليه السلام : تحيوا إلى الله يبغض أهل المعاصي وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم واتمسوا رضا الله بسخطهم ، قالوا : ياروح الله فن نجالس ؟ قال : جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد في عملكم كلامه ومن يرعبكم في الآخرة عمله . وروي في الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى إلى موسى

(١) حديث أبي هريرة « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ... الحديث » أخرجه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات . (٢) حديث « ماتحباب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه » أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال : صحيح الإسناد .

(٣) حديث « إن الله يقول : حقت محبتي للذين يتزاورون من أجل ، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجل ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عبسة وحديث عبادة بن الصامت ، ورواه الحاكم وصححه . (٤) حديث « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » أخرجه مسلم . (٥) حديث أبي هريرة « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله لإمام عادل : الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم . (٦) حديث « مازار رجل رجلا في الله شوقا إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلقه طبت وطابت لك الجنة » أخرجه ابن عدى من حديث أنس دون قوله « شوقا إليه ورغبة في لقائه » ولترمذى وابن ماجه من حديث أبي هريرة « من عاد صريضا أوزار أخاه في الله ناداه مناد من السماء طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة منزلا » قال الترمذى : غريب . (٧) حديث « إن رجلا زار أخاه في الله فأرصد الله له ملكا فقال : أين تريد ؟ قال أحبه في الله » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٨) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » رواه أحمد من حديث البراء بن عازب ، وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه . والخرائط في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٩) حديث « اللهم لا تجعل لفاجر على مئة ... الحديث » تقدم في الكتاب الذي قبله .

عليه السلام . يا ابن عمران كن يقظانا وارث لنفسك لإخواننا وكل خدن وصاحب لا يوازر كل مسرق فهو لك عدو وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال : يا داود مالى أراك متبذرا وحيدا ؟ قال : إلهى قليت الخلق من أجلك ، فقال : يا داود كن يقظانا وارث لنفسك أخذانا وكل خدن لا يوافقك على مسرق فلا تصاحبه فإنه لك عدو يقمى قلبك وياعدك منى . وفى أخبار داود عليه السلام أنه قال : يارب كيف لى أن يحبنى الناس كلهم وأسلم فيما بينى وبينك ؟ قال : خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بينى وبينك . وفى بعضها : خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنيمة المفرقون بين الإخوان ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إن الله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول : اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألفت بين قلوب عبادك الصالحين ^(٢) ، وقال أيضا ، ما أحدث عبد أخافى الله إلا أحدث له درجة فى الجنة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، المتحاربون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة يشرفون على أهل الجنة يرضى عنهم لاهل الجنة كما ترضى الشمس لاهل الدنيا فيقول أهل الجنة : انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله فيرضى عنهم لاهل الجنة كما ترضى الشمس ، عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم : المتحاربون فى الله ^(٤) .

الآثار : قال على رضى الله عنه : عليكم بالإخوان فإنهم عدة فى الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار (فالتنا من شافعين ولا صديق حميم) وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما : والله لو صمت النهار لا أفطره وقت الليل لا أنامه وأنفقت مالى غلقا غلقا فى سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعنى ذلك شيئا . وقال ابن السكيت عند موته : اللهم إنك تعلم أنى إذا كنت أعصيتك كنت أحب من يطيعك فأجعل ذلك قرينة لى إليك . وقال الحسن - على ضده - يا ابن آدم لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة فى بعض الأعمال أو كلها لا ينفع وقال الفضيل فى بعض كلامه : هاه ! تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن فى داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ بأى عمل عملته ؟ بأى شهوة تركتها ؟ بأى غيظ كظمته ؟ بأى رحم قاطع وصلتها ؟ بأى زلة لأخيك غفرتها ؟ بأى قريب باعدته فى الله ؟ بأى بعيد قاربته فى الله ؟ ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : هل عملت لى عملا قط ؟ فقال : إلهى إنى صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت ، فقال : إن الصلاة لك برهان والصوم جنة والصدقة ظل والزكاة نور فأى عمل عملت لى قال موسى إلهى دلتنى على عمل هو لك ؟ قال : يا موسى هل واليت لى ولما قط ؟ وهل عادت فى عدوا قط ؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب . وقال الحسن رضى الله عنه : مصارمه الفاسق قربان إلى الله وقال رجل لمحمد بن واسع : انى لأحبك فى الله ، فقال : أحببك الذى أحببتى له . ثم حوّل وجهه وقال : اللهم انى

(١) حديث « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والمصنوع من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . (٢) حديث « إن الله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول : اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألفت بين قلوب عبادك الصالحين » رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث معاذ بن جبل والرباض بن سارية بسند ضعيف . (٣) حديث « ما أحدث عبد أخافى الله تعالى إلا أحدث الله له درجة فى الجنة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخوان من حديث أنس وقد تقدم . (٤) حديث « المتحاربون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة ... الحديث » رواه الحسكج الترمذى فى النوادر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

أعوذ بك أن أحب فيك وأنت لى مبغض . ودخل رجل على داود الطائي فقال له : ما حاجتك ؟ فقال : زيارتك ، فقال : أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت ، ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لى : من أنت فتزار ؟ أمن الزهاد أنت ؟ لا والله ، أمن العبادات ؟ لا والله أمن الصالحين أنت ؟ لا والله . ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول : كنت فى الشبهة فاسقا فلما شئت صرت مرائيا والله للمرائى شر من الفاسق وقال عمر رضى الله عنه : إذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك . وقال بجاهد : المتحابون فى الله إذا التقوا فكشروا بعضهم إلى بعض تحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس . وقال الفضيل : نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

بيان معنى الأخوة فى الله وتمييزها من الأخوة فى الدنيا

اعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله غامض وينكشف الغطاء عنه نمانذ كره : وهو أن الصحة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق ، كالصحة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع فى المكتب أو فى المدرسة أو فى السوق أو على باب السلطان أوفى الأسفار ، وإلى ما ينشأ اختيارا ويقصد ، وهو الذى نريد بيانه إذ الأخوة فى الدين واقعة فى هذا القسم لا محالة إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها . والصحة عبارة عن المجالسة والمجازرة . وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته ، والذى يجب فإما أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود ، وذلك المقصود إما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها وإما أن يكون متعلقا بالآخرة وإما أن يكون متعلقا بالله تعالى فهذه أربعة أقسام :

أما القسم الأول وهو حبك الإنسان لذاته فذلك ممكن وهو أن يكون فى ذاته محبوبا عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له ، فإن كل جميل لذيد فى حق من أدرك جماله وكل لذيد محبوب . واللذة تتبع الاستحسان والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع ، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة أعنى حسن الخلقة وإما أن يكون هو الصورة الباطنة أعنى كمال العقل وحسن الأخلاق ، ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة ويتبع كمال العقل غزارة العلم ، وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم ، وكل مستحسن فستلذ به ومحبوب ، بل فى اتلاف القلوب أمر أغض من هذا فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحظة فى صورة ولا حسن فى خلق وخلق ولكن لمناسبة توجب الألفة والموافقة فإن شبه الشيء يجذب إليه بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » (١) ، فالتناكر نتيجة التباين والائتلاف نتيجة التناصب الذى عبر عنه بالتعارف . وفى بعض الألفاظ « الأرواح جنود مجندة تلتقى فتتشام فى الهواء » (٢) وقد كنى بعض العلماء عن هذا بأن قال : إن الله تعالى خلق الأرواح ففلق بعضها فلقا وأطافها حول العرش فأى روحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا تواصلتا فى الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » (٣) ، وروى « أن امرأة بمكة كانت تضحك

(١) حديث « الأرواح جنود مجندة فا تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة والبخارى تعليقا من حديث عائشة . (٢) حديث « الأرواح تلتقى فتتشام فى الهواء » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف من حديث علق « إن الأرواح فى الهواء جند مجندة تلتقى فتتشام ... الحديث » . (٣) حديث « إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ « تلتقى » وقال « أحدم » وبه ابن لهيعة عن دراج (٢١ - لحياء علوم الدين - ٢)

النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدينة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فأضحكتها ، فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبها ، فقالت : صدق الله ورسوله ^(١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجندة ... الحديث » ، والحق في هذا أن المشاهدة والتجربة تشهد للائتناف عند التناسب والتناسب في الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا أمر مفهوم . وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، وغاية هذيان المنجم أن يقول ، إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تليثه فهذا نظر الموافقة والمودة فتقتضي التناسق والتواء ، وإذا كان على مقابلته أو تريعه اقتضى التباغض والعداوة . فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجارى سنة الله في خلق السموات والأرض لكن الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب ، فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر فما أوتينا من العلم إلا قليلا ، ويكفي في التصديق بذلك التجربة والمشاهدة فقد ورد الخبر به قال صلى الله عليه وسلم « لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقا دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد لجاء حتى يجلس إليه ^(٢) » ، وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به وكان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر ، وإن أجناس الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة ، قال فرأى يوما غرابا مع حمامة فعجب من ذلك فقال : اتفقا وليس من شكل واحد ، ثم طارا فإذا هما أعرجان فقال : من ههنا اتفقا ؛ ولذلك قال بعض الحكماء : كل إنسان يأنس إلى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بد أن يفترقا ، وهذا معنى خفي تفتن له الشعراء حتى قال قائلهم :

وقائل كيف تفارقتما فقلت قولاً فيه إنصاف

لم يلك من شكلي ففارقته والناس أشكال وألأف

فقد ظهر من هذا أن الإنسان قد يجب لذاته لا لفائدة تتال منه في حال أو مآل بل لمجرد المجانسة والمدة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية . ويدخل في هذا القسم الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة فإن الصور الجميلة مستلذة في عينا وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحرارة وإلى الماء الجاري والخضرة من غير غرض سوى عينا . وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، ويتصور ذلك عن لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموما كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها . وإن لم يتصل به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم « إذ الحب إما محمود وإما مذموم وإما مباح لا يحمده ولا يذمه .

القسم الثاني : أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب ، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة . ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب ولذلك أحب الناس الذهب

(١) حديث : أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدينة فدخلت على عائشة فذكرت حديث « الأرواح جنود مجندة » أخرجه الحسن بن سفيان في مستدركه بالقصة بسند حسن ، وحديث عائشة عند البخاري تعليقاً مختصراً أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن مسعود ، وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل ، ولم يخرج له ولمه في المستدرك .

والفضة ولا غرض فيهما إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله أو جاهه ويحب خواصه لتحسين حاله عنده وتمهيد أمره في قلبه ، فالتوصل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا كحب التلبذ لاستاذته فهو أيضا خارج عن الحب لله فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فحجبه العلم ، فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله بل لينال به الجاه والمال والقبول ، عند الخلق فحجبه الجاه والقبول ، والعلم وسيلة إليه والاستاذ وسيلة إلى العلم ، فليس في شيء من ذلك حب لله إذ لا يتصور كل ذلك عن لا يؤمن بالله تعالى أصلا . ثم ينقسم هذا أيضا إلى مذموم ومباح فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحيازة أموال اليتامى وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره كان الحب مذموما ، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل إليه فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها .

القسم الثالث : أن يحبه لالذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعا إلى حظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة فهذا أيضا ظاهر لا غموض فيه ، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة فهذا من جملة المحبين في الله ، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء ، إذ قال عيسى صلى الله عليه وسلم من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء . ولا يتم التعليم إلا بتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال ، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذي هو سبب ترقيه إلى رتبة التعظيم في ملكوت السماء فهو محب في الله ، بل الذي يتصدق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيئ لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقربا إلى الله فأحب طباعا لحسن صنعته في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله ، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله ، بل يزيد على هذا ونقول : إذا أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكسب بيته وطبخ طعامه ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله ، بل يزيد عليه ونقول : إذا أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله فهو محب في الله . فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفائتهم جماعة من أولى الثروة وكان المواسي جميعا من المتحايين في الله ، بل يزيد عليه ونقول : من نكح امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان يصون بها دينه أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدنيوية فهو محب في الله . ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فم امرأته ^(١) بل نقول : كل من استهتر بحب الله وحبه رضاه وحبه لقائه في الدار الآخرة فإذا أحب غيره كان محبا في الله لأنه لا يتصور أن يحب شيئا إلا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عز وجل ، بل أزيد على هذا وأقول : إذا اجتمع في قلبه محبتان محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد المعنيان جميعا حتى صلح لأن يتوصل به إلى الله وإلى الدنيا فإذا أحبه لصلاحه للأمرين فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المال فأحبه من حيث إن في طبعه طلب الراحة في الدنيا

(١) حديث « الأجر في الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فم امرأته » تقدم .

والسعادة في الآخرة فهو وسيله إليهما فهو محب في الله ، وليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظا ألبته إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة ومن ذلك قولهم ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ وقال عيسى عليه السلام في دعائه : اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسوئ لي صديق ولا تجعل مصيبتى لديني ولا تجعل الدنيا أكبر همى فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا ، ولم يقل : ولا تجعل الدنيا أصلا من همى ، بل قال : لا تجعلها أكبر همى . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه : اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ^(١) ، وقال : اللهم عافني من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(٢) ، وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة منافضا لحب الله تعالى لحب السلامة والضحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون منافضا لحب الله ؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداها أقرب من الأخرى فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا ولا يحبها اليوم ؟ وإنما يحبها غدا لأن الغد سيصير حالا راهنة فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة أيضا ، إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها وهي التي احترز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها وإلى ما لا يضاد وهي التي لم يمتنعوا منها كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك ، فما يضاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبها أعني أن يكرهه بقله لا بطبعه ، كما يكره التناول من طعام لا يذبل ملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعته يده أو حزت رقبتة لا بمعنى أن الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتهي بطبعه ولا يستلذه لو أكله فإن ذلك محال ، ولكن على معنى أنه يزجره عقله عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به . والمقصود من هذا أنه لو أحب أستاذه لأنه يواسيه ويعله أو تليذه لأنه يتعلم منه ويخدمه وأحدهما حظ عاجل والآخر أجل لكان في زمرة المتحابين في الله ، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلا أو تعذر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه فالقدر الذي ينقص بسبب فقدده هو الله تعالى ، وله على ذلك القدر ثواب الحب في الله وليس بمستكر أن يشتد حبك لإنسان بجملة أغراض ترتبط لك به فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب ، فليس حبك الذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة ، فإذا زيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل في جملة الحب لله . وحده هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده فهو محب في الله ، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة فتلك الزيادة من الحب في الله فذلك وإن دق فهو عزيز . قال الجريري : تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتى رق الدين وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء وفي الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة .

القسم الرابع : أن يحب لله وفي الله لالينال منه علما أو عملا أو يتوسل به إلى أمر وراه ذاته وهذا أعلى الدرجات وهو أدقها وأغضاها ، وهذا القسم أيضا ممكن فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد ، فمن أحب انسانا حبا شديدا أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه ، حتى قال بقية بن الوليد : إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه ؛ وهو كما قال : ويشهد له التجربة في أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء ولذلك يحفظ

(١) حديث « اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس في الحديث الطويل في دعائه صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الليل وقد تقدم . (٢) حديث « اللهم عافني من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة » أخرجه أحمد من حديث بكر بن أبي أرفطة نحوه بسند جيد .

ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهته ويحب منزله ومحلته وجيرانه حتى قال مجنون بنى عامر :

أمر على الديار ديار للى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فإذن المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدى من ذات المحبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولو من بعد ؛ ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة فأصل المحبة لا يكتفى فيه ويكون اتساع الحب في تعديده من المحبوب إلى ما يكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوى وغلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى إلى حد الاستهتار فيتعدى إلى كل موجود سواء ، فإن كل موجود سواء أثر من آثار قدرته ومن أحب إنسانا أحب صنعته وخطه وجميع أفعاله ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال : إنه قريب العهد بربنا ^(١) وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من نعيمه ، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته ، وتارة لأناته لا لأمر آخر وهو أدق ضرب المحبة وأعلاها - وسيأتى تحقيقها في كتاب المحبة من ربيع المنجيات إن شاء الله تعالى - وكيفما اتفق حب الله فإذا قوى تعدى إلى كل متعلق به ضربا من التعلق حتى يتعدى إلى ما هو في نفسه مؤلم مكروه ولكن فرط الحب يضعف الإحساس بالألم والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلاام يغمر إدراك الألم ، وذلك كالفرح بضربة من المحبوب أو قرصة فيها نوع معاناة فإن قوة المحبة تثير فرحا يغمر إدراك الألم فيه وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا لانفرق بين البلاء والنعمة فإن الكل من الله ولا نفرح إلا بما فيه رضاه حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله بمعصية الله . وقال سمنون :

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاخترنى

وسيأتى تحقيق ذلك في كتاب المحبة . والمقصود أن حب الله إذ قوى أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بآداب الشرع . وما من محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخرة جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلا إلى العالم العابد ، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته وهذا الميل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم أنه لا يصيبه منهما خير ولا شر في الدنيا ولا في الآخرة ، فذلك الميل هو حب في الله والله من غير حظ فإنه إنما يحب لأن الله يحبه ولأنه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر ، فإذا قوى حمل على الموالاة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل ، ولو كان الحب مقصورا على حظ ينال من المحبوب في الحال أو المآل لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه ، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين ، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم في واحد منهم ويفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله لأنهم خواص عباد الله

(١) حديث : كان إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال أنها قريب عهد بربها . أخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس ، وأبو داود في المراسيل ، والبيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة دون قوله « وأكرمها ... الخ » وقال : إنه غير محفوظ ، وحديث أبي هريرة في الباكورة عند بقية أصحاب السنن دون : مسح عينيه بها وما بعده ، وقال الترمذي حسن صحيح .

ومن أحب ملكاً أو شخصاً جليلاً أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس وقد يغلب بحيث لا يبق للنفس حظ إلا فيها هو حظ المحبوب ، وعنه عبر قول من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وقول من قال : وما لجرح إذا أرضاكم ألم ؟ وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو في ثلثه أو في عشره فقادير الأموال موازين المحبة إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب يترك في مقابلته ؛ فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يسك لنفسه شيئاً مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلاً ولا مالا فسلم ابنته التي هي قرّة عينه وبذل جميع ماله . قال ابن عمر رضي الله عنهما « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فقرأه عن الله السلام وقال له : يا رسول الله ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال ؟ فقال : أنفق ماله على قبل الفتح ، قال : فأقره من الله السلام وقل له يقول لك ربك أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط ؟ قال : فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وقال : يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك السلام من الله ويقول أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط ؟ قال : فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال : أعلى ربي أسخط أنا عن ربي راض ^(١) . فحصل من هذا أن كل من أحب عالماً أو عبداً أو أحب شخصاً راغباً في علم أو في خير فإنما أحبه في الله والله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه ، فهذا شرح الحب في الله ودرجاته وبهذا يتضح البغض في الله ولكن نزيد بياناً .

بيان البغض في الله

اعلم أن كل من يحب في الله لابد أن يبغض في الله فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحسوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله وعمقت عند الله ، ومن أحب بسبب فالضرورة يبغض لضده وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحب والبغض في العادات ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين في القلب ، وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال الحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة وفي المخالفة والموافقة فإذا ظهر في الفعل سمي موالاته ومعاذة ، ولذلك قال الله تعالى : هل واليت في وليا وهل عاديت في عدوا ؟ كما نقاه ، وهذا واضح في حق من لم يظهر لك إلا طاعاته تقدر على أن تحبه أو لم يظهر لك إلا فسقه وجوره وأخلاقه السيئة فتقدر على أن تبغضه ، وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصي فإنك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان ؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة والموالاتة والمعاداة وأقول ذلك غير متناقض في حق الله تعالى كما لا يتناقض في الحظوظ البشرية ؛ فإنه مهما اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه ، فمن زوجة حسناء فاجرة أو ولد ذكي خدوم ولكنه فاسق فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه ويكون معه على حالة بين حالتين ، إذ لو فرض له ثلاثة أولاد أحدهم ذكي بار والآخر بليد عاق والآخر بليد بار أو ذكي عاق فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة بحسب تفاوت خصائصهم ، فكذلك ينبغي أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ومن غلبت

(١) حديث ابن عمر : بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال فنزل جبريل فقرأه من ربه السلام . الحديث . أخرجه ابن حبان والعقيلي في الضعفاء ، قال الذهبي في الميزان : هو كذب .

عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب ، وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب والإعراض والإقبال والصحة والقطيعة وسائر الأفعال الصادرة منه .

* فإن قلت : كل مسلم فإسلامه طاعة منه فكيف أبغضه مع الإسلام ؟ فأقول : تحبه لإسلامه وتبغضه لمعصيته وتكون معه على حالة لو قسيتها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما وتلك التفرقة حب للإسلام وقضاء لحقه وقدر الجناية على حق الله والطاعة له كالجناية على حاكم والطاعة لك . فمن وافقك على غرض وخالفك في آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه ، ولا تبالي في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك على جميع أغراضك ، ولا تبالي في إهانته مبالغتك في إهانته من خالفك في جميع أغراضك . ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية وتارة إلى طرف المجاملة والإكرام عند غلبة الموافقة ؛ فهكذا ينبغي أن يكون فيمن يعطيه الله تعالى ويعصيه ويتعرض لرضاه مرة ولسخطه أخرى .

* فإن قلت : فيأذا يمكن إظهار البغض ؟ فأقول أما في القول فكيف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى . وأما في الفعل فبقطع السعي في إعانته مرة وبالسعي في إساءته وإفساد مآربه أخرى . وبغض هذا أشد من بغض وهي بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه . أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متقدم عليها ولا يصير عليها فالأولى فيه السر والإغماض . أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فإن كان بمن تأكدت بينك وبينه مودة وصحبة وأخوة فله حكم آخر - وسيأتي وفيه خلاف بين العلماء - وأما إذا لم تتأكد أخوة وصحبة فلا بد من إظهار أثر البغض إما في الإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه وإما في الاستخفاف وتغليظ القول عليه . وهذا أشد من الإعراض وهو بحسب غلظ المعصية وخفتها ، وكذلك في الفعل أيضا رتبتان ؛ إحداها : قطع المعونة والرفق والنصرة عنه وهو أقل الدرجات ، والأخرى : السعي في إفساد أغراضه عليه كفعل الأعداء المبغضين ، وهذا لا بد منه ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية . أما ما لا يؤثر فيه فلا ، مثاله رجل عصي الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكان مغبوطا بها بالمال والجمال والجاه إلا أن ذلك لا يؤثر في منعه من شرب الخمر ولا في بعث وتحريض عليه ، فإذا قدرت على إعانته لستم له غرضه ومقصوده وقدرت على تشويشة ليفوته غرضه فليس لك السعي في تشويشه . أما الإعانة فلو تركتها لإظهارا للغضب عليه في فسقه فلا بأس ، وليس يجب تركها إذ ربما يكون لك نية في أن تتلطف بإعانته وإظهار الشفقة عليه ليعتقد مودتك ويقبل نصحتك فهذا حسن ، وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه فذلك ليس بممنوع بل هو الأحسن إن كانت معصيته بالجناية على حاكم أو حق من يتعلق بك . وفيه نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ إذ تكلم مسطح بن أثانة في واقعة الإفك ^(١) خلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقته - وقد كان يواسيه بالمال - فنزلت الآية مع عظم معصية مسطح ، وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإطالة اللسان في مثل عائشة رضي الله عنها ، إلا أن الصديق رضي الله عنه كان كالجنى عليه في نفسه بتلك الواقعة والعفو عن ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين . وإنما يحسن الإحسان إلى من ظلمك ، فأما من ظلم غيرك وعصى الله به فلا يحسن إحسانك إليه لأن في الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم

(١) حديث : كلام مسطح في الإفك وهجر أبي بكر له حتى نزلت : ولا يأتل أولوا الفضل منكم . الآية . متفق عليه من حديث عائشة .

وحق المظلوم أولى بالمرعاة وتقوية قلبه بالإعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن في حثك العفو والصفح وطرق السلف قد اختلفت في إظهار البغض مع أهل المعاصي وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والمبتدعة وكل من عصى الله بمعصية متعددة منه إلى غيره ، فأما من عصى الله في نفسه فمنهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم ، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة . فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكابر في أدنى كلمة ، حتى هجر يحيى بن معين لقوله : إني لا أسأل أحدا شيئا ولو حمل السلطان إلى شيئا لأخذته . وهجر الحارث المحاسبي في تصنيفه في الرد على المعتزلة وقال : إنك لا بد تورد أولا شبهتهم وتحمل الناس على التفكير فيها ثم ترد عليهم ، وهجر أبانور في تأويله قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته ^(١) » ، وهذا أمر يختلف باختلاف النية وتختلف النية باختلاف الحال ، فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطراب الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أورت هذا تساهلا في المعادة والبغض وله وجه ولكن قد تلبس به المداينة فأكثر البواعث على الإغضاء عن المعاصي المداينة ومراعاة القلوب والخوف من وحشتها ونفارها ، وقد يلبس الشيطان ذلك على الغبي الآخر بأنه ينظر بعين الرحمة ومحك ذلك أن ينظر إليه بعين الرحمة إن جنى على خاص حقه ويقول إنه قد سخر له والقدر لا ينفع منه الخذر ، وكيف لا يفعله وقد كتب عليه فثل هذا قد تصح له نية في الإغضاء عن الجناية على حق الله وإن كان يغتاظ عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهذا مداهن مغرور بمكيدة من مكابدة الشيطان فليتببه له .

* فإن قلت : فأقل الدرجات في إظهار البغض الحجر والإعراض وقطع الرفق والإعانة فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه ؟ فأقول : لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والإيجاب فإننا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ما كانوا يهجرون بالسكية بل كانوا منقسمين فيهم إلى من يغلظ القول عليه ويظهر البغض له ، وإلى من يعرض عنه ولا يتعرض له ، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتباعد . فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته ، ومقتضى الأحوال في هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون في رتبة الفضائل ولا تنتهي إلى التحريم والإيجاب فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى وأصل الحب وذلك قد لا يتعدى من المحبوب إلى غيره وإنما المتعدى لإفراط الحب واستيلاؤه ، وذلك لا يدخل في الفتوى وتحت ظاهر التكليف في حق عوام الخلق أصلا .

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم

* فإن قلت : إظهار البغض والعداوة بالفعل إن لم يكن واجبا فلا شك أنه مندوب إليه والعصاة والفساق على مراتب مختلفة فكيف ينال الفضل بمعاملتهم وهل يسلك بجميعهم مسلكا واحدا أم لا ؟ فأعلم أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يخلو إما أن يكون مخالفا في عقده أو في عمله ، والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر والمبتدع إما داع إلى بدعته أو ساكت والساكت إما بعجزه أو باختياره : فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة :

الأول : الكفر ؛ فالكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل والإرقاق وليس بعد هذين إهانة ، وأما الذي فإنه لا يجوز إرداؤه إلا بالإعراض عنه والتحقيق له بالاضطرار إلى أضييق الطرق وبتترك المفاتحة بالسلام ، فإذا قال :

(١) حديث «إن الله خلق آدم على صورته» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

السلام عليك ، قلت : وعليك . والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته وأما الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهي ما يقوى منها إلى حد التحريم قال الله تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم « المسلم والمشرک لا تترأى نارهما »^(١) ، وقال عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوئى وعدوكم أولياء ﴾ الآية .

الثاني : المبتدع الذى يدعو إلى بدعته . فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذى لأنه لا يقتر بحجة ولا يسامح بعقد ذمة وإن كان ممن لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لاحالة ولكن الأمر فى الإنكار عليه أشد منه على الكافر لأن شر الكافر غير متعد ، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون إلى قوله إذ لا يدعى لنفسه الإسلام واعتقاد الحق . أما المبتدع الذى يدعو إلى البدعة ويرغم أن ما يدعو إليه حق فهو سبب لغواية الخلق فشره متعد ، فالاستحباب فى إظهار بغضه ومعاداته والانتطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه يبدعته وتغيير الناس عنه أشد ، وإن سلم فى خوة فلا بأس برد جوابه ، وإن علمت أن الإعراض عنه والسكوت عن جوابه يقبح فى نفسه بدعته ويؤثر فى زجره فترك الجواب أولى لأن جواب الإسلام وإن كان واجبا فيسقط بأذى غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الإنسان فى الحمام أو فى قضاء حاجته وغرض الزجر أهم من هذه الأغراض ، وإن كان فى ملا فترك الجواب أول تغييرا للناس عنه وتقييحا لبدعته فى أعينهم وكذلك الأولى كف الإحسان إليه والإعانة له لاسيما فيما يظهر للخلق قال عليه السلام « من اتهم صاحب بدعة ملائكة الله قلبه أمنا وإيماننا ومن أهان صاحب بدعة أمنا الله يوم الفرع الأكبر ومن ألان له وأكرمه أولقيه ببشر فتد استخف بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم »^(٢) .

الثالث : المبتدع العاصى الذى لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون فالأولى أن لا يقام بالتغليظ والإهانة بل يتلطف به فى النصيح فإن قلوب العوام سريعة القلب ، فإن لم ينفع النصيح وكان فى الإعراض عنه تقييح لبدعته فى عينه تأكد الاستحباب فى الإعراض ، وإن علم أن ذلك لا يؤثر فيه لجود طبعه ورسوخ عقده فى قلبه فالإعراض أولى لأن البدعة إذا لم يبالغ فى تقييحها شاعت بين الخلق وعم فسادها . وأما العاصى بفعله وعمله لابعثاده فلا يخلو إما أن يتكبر بحيث يتأذى به غيره كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والتضريب بين الناس والمشى بالنميمة وأمثاله . أو كان مما لا يقتصر عليه ويؤذى غيره وذلك ينقسم إلى ما يدعو غيره إلى الفساد كصاحب الماخور الذى يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد أو لا يدعو غيره إلى فعله كالذى يشرب ويرزى ، وهذا الذى لا يدعو غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة ، وكل واحد فإما أن يكون مصرا عليه أو غير مصر ، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من بعض ولانسلك بالكل مسلكا واحدا .

(القسم الأول) وهو أشدها : ما يتضرر به الناس كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة فهؤلاء الأولى الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانبساط عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيها يرجع إلى إبداء الخلق . ثم هؤلاء

(١) حديث « المؤمن والمشرک لا تترأى نارهما » رواه أبو داود والترمذى من حديث جرير « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله ولم ؟ قال « لا تترأى نارهما » ورواه النسائى مرسلًا وقال البخارى : الصحيح أنه مرسل (٢) حديث « من اتهم صاحب بدعة ملائكة الله قلبه أمنا وإيماننا ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والهروى فى ذم الكلام من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

ينقسمون إلى من يظلم في الدماء وإلى من يظلم في الأموال وإلى من يظلم في الأعراض وبعضها أشد من بعض فالاستحباب في إهانتهم والإعراض عنهم مؤكد جدا ومهما كان يتوقع من الإهانة زجرا لهم أو لغيرهم كان الأمر فيه أكد وأشد . (الثاني) صاحب الماخور الذي يهيئ أسباب الفساد ويسهل طريقه على الخلق فهذا لا يؤذى الخلق في دنياهم ولكن يختلس بفعله دينهم ، وإن كان وفق رضاهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب ولكن من حيث إنه متعمد على الجملة إلى غيره فهو شديد ، وهذا أيضا يقتضي الإهانة والإعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعا من الزجر له أو لغيره . (الثالث) الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة محظور يخصه فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يتمتع به منه ولو بالضرب والاستخفاف فإن النهي عن المنكر واجب ، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع ، فأما الأعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه ، فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة ، والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فعند هذا يقال ، الأعمال بالنيات إذ في الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع وفي العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفتي فيه القلب فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضده إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ بإظهار العلو والإدلال بالصلاح ، وقد يكون رفيقه عن مداهنة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشته ونفرته في جاء أموال بظن قريب أو بعيد وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة وكل راغب في أعمال الدين مجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال ، والقلب هو المفتي فيه وقد يصيب الحق في اجتهاده وقد يخطئ وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظان أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة . وسيأتي بيان هذه الدقائق في كتاب الغرور من ربيع المهلكات . ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روى أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعود ، فقال واحد من الصحابة . لعنه الله ما أكثر ما يشرب ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك »^(١) ، أو لفظا هذا معناه وكان هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ .

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلم أنه لا يصلح للصحة كل إنسان . قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر أحداً من يخال »^(٢) ، ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشتري تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحة إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول إلى المقصود فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط . ويطلب من الصحة فوائد دينية ودنيوية : أما الدنيوية فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا . وأما الدينية فيجتمع فيها أيضا أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصنا به عن إبداء من يشوش القلب ويصد عن العبادة ، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تبذير الأوقات

(١) حديث « ان شارب خمر ضرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وفيه « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث « المرء على دين خليله .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح ان شاء الله .

في طلب القوت ، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال ، ومنها التبرك بمجرد الدعاء ، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة فقد قال السلف : استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل في شفاعة أخيك . وروى في غريب التفسير في قوله تعالى ﴿ ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ قال يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم . ويقال إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه ؛ ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والآفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد ؛ فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطا لا تحصل إلا بها ، ونحن نفصلها : أما على الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا . أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة اللاحق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طال . قال على رضي الله عنه :

فلا تصحب أبا الجهل وإياك وإياه فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه
والقلب على القلب دليل حين يلقاه

كيف واللاحق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري ولذلك قال الشاعر :

إني لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتربه جنون

فالعقل فن واحد وطريقه أدرى فأرصدوا الجنون فنون

ولذلك قيل : مقاطعة اللاحق قربان إلى الله . وقال الثوري : النظر إلى وجه اللاحق خطيئة مكتوبة ، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهم . وأما حسن الخلق فلا بد منه إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في صحبته . وأما الفاسق المصغر على الفسق فلا فائدة في صحبته لأن من يخاف الله لا يصير على كبيرة ومن لا يخاف الله لا يؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض . وقال تعالى ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ وقال ﴿ واتبع سبيلا من أناب إلى ﴾ وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق . وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدى شؤمها إليه فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته ؟ وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب الدين في الصديق فيا رواء سعيد بن المسيب قال : عليك يا أخوان الصديق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء . وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يحينك ما يغلبك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشي الله فلا تصحب الفاجر فتسلم من فجوره ولا تطعه على شرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى . وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة الطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك ، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها ، اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك ، اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولت ما أمرا أمرك وإن تنازعتا آثرك ؛ فكانه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائما بجميعها . قال ابن أكرم : قال المأمون فأبن هذا ؟ فقل له : أتدري لم أوصاه بذلك ؟ قال

لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحدا . وقال بعض الأدباء : لا تصحب من الناس إلا من يكرم شرك ويستر عيبك فيكون معك في النوائب ويؤثرك بالرغائب وينشر حسناتك ويطوى سيئاتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك . وقال على رضى الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب زمان صدعك شئت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين : رجل تعلم منه شيئا في أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه شيئا في أمر دينه فيقبل منك والثالث فاهرب منه وقال بعضهم : الناس أربعة : فواحد حلوا كله فلا يشيع منه . وآخر مر كله فلا يؤكل منه ، وآخر فيه حموضة تخذ من هذا قبل أن يأخذ منك ، وآخر فيه ملوحة تخذ منه وقت الحاجة فقط . وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : لا تصحب خمسة : الكذاب فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ، والاحق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك . والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه ، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة ، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها ، فقيل : وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ثم لا ينالها . وقال الجنيد : لأن يصحبني فاسق حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبني قارىء سيء الخلق . وقال ابن أبي الحواري : قال لى أستاذى أبو سليمان : يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين : رجلا ترتفق به في أمر دينك ، أو رجلا تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك ، والاشتغال بغير هذين خلق كبير . وقال سهل بن عبد الله اجتنب محبة ثلاثة من أصناف الناس : الجبارة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين . واعلم أن هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحة ، والمحيط ما ذكرناه من ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها فليس ما يشترط للصحة في مقاصد الدنيا مشروطا للصحة في الآخرة والأخوة كما قال بشر : الإخوان ثلاثة : أخ لآخرتك وأخ لدنياك وأخ لتأنس به . وقبلما تجتمع هذه المقاصد في واحد بل تتفرق على جمع فتتفرق الشروط فيهم لا محالة . وقد قال المأمون : الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط : ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذى لا تأنس فيه ولا نفع . وقد قيل : مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات ، فمنها ماله ظل وليس له ثمر وهو مثل الذى ينتفع به في الدنيا دون الآخرة فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال ، ومنها ماله ثمر وليس له ظل وهو مثل الذى يصلح للآخرة دون الدنيا ، ومنها ماله ثمر وظل جميعا ، ومنها ما ليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثياب ولا تطعم فيهما ولا شراب ، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب ، كما قال تعالى ﴿ يدعون لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى وبئس العشير ﴾ وقال الشاعر .

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستوون كما لا يستوى الشجر
هذا له ثمر حلوا مذاقته وذاك ليس له طعم ولا ثمر

فإذا لم يجد رفيقا يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به . قال أبو ذر رضى الله عنه : الوحدة خير من الجليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة ، ويروى مرفوعا . وأما الديانة وعدم الفسق فقد قال الله تعالى ﴿ واتبع سبيل من أناب الى ﴾ ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها . قال سعيد بن المسيب : لا تنظروا الى الظلمة فتجهد أعمالكم الصالحة بل هؤلاء لاسلامه في مخالطتهم وانما

السلامة في الانقطاع عنهم . قال الله تعالى ﴿ ولذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ أى سلامة والألف بدل من الماء ، ومعناه إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا ، فهذا ما أردنا أن نذكره من معاني الأخوة وشروطها وفوائدها فلنرجع في ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بحقوقها . وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والافتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه ، فجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص وجمالة الزاهد ترهد في الدنيا فلذلك تكره صحة طلاب الدنيا ويستحب صحة الراغبين في الآخرة . قال على عليه السلام : أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : مأوقعي في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه . وقال لقمان : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن القلوب لتتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر .

الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضى النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحق النكاح - كما سبق ذكره في كتاب آداب النكاح - فكذا عقد الأخوة ، فلاخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : في المال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى (١) » ، وإنما شبههما باليدين لابل يد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد فكذا الأخوان إنما تم أخوتهم ما إذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضى المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار . والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب .

أدناها : أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم توجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة . الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن : كان أحدهم يشق لإزاره بينه وبين أخيه .

الثالثة : وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضا ، كما روى أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين الثوري فبادر السياف ليكون هو أول مقتول فقبل له في ذلك فقال : أحببت أن أؤثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة ، فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعمد بعد في الباطن وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لاوقع لها في العقل والدين ، فقد قال ميمون بن مهران : من رضى من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور . وأما الدرجة الدنيا فليست أيضا مرضية عند ذوى الدين ، روى أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل

الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة

(١) حديث « مثل الأخوين مثل اليدين .. الحديث » تقدم في الباب قبله .

كان قد آخاه فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف فقال خذ ألفين فأعرض عنه وقال آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعى الأخوة في الله وتقول هذا ، ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي أن لا تعامله في الدنيا قال أبو حازم : إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنيائك وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة .

وأما الرتبة العليا : فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال : فعلى ، لأنه أضافه إلى نفسه . وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائبا ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته فأخبرت الجارية مولاهما فقال : إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سرورا بما فعل . وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال : إني أريد أن أواخيك في الله فقال : أتدرى ماحق الإخاء ؟ قال : عرفني ، قال : أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني ، قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ؟ قال : فاذهب عني . وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال لا . قال فلستم ياخوان . ودخل قوم على الحسن رضي الله عنه فقالوا : يا أبا سعيد أصليت ؟ قال : نعم ، قالوا : فإن أهل السوق لم يصلوا بعد ، قال : ومن يأخذ دينه من أهل السوق ؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم ! قاله كالمتعجب منه . وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال : إني أريد أن أرافقك ، فقال له إبراهيم : على أن أكون أملك لشيتك منك : قال : لا ، قال : أعجبنى صدقك ، قال : فكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه وكان لا يصحب إلا من يوافقه وصحبه رجل شراك فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شراك وجعلها في القصعة وردها إلى صاحب الهدية ، فلما جاء رفيقه قال : أين الشراك ؟ قال : ذلك الثريد الذي أكلته إيش كان ؟ قال : كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة . قال : إسمح يسمح لك . وأعطى مرة حمارا كان لرفيقه - بغير إذنه - رجلا رآه راجلا فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك . قال ابن عمر رضي الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : أخي فلان أحوج مني إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة . وروى أن مسروقا اذنان دينا ثقيل وكان على أخيه خيشمة دين قال : فذهب مسروق ففقد دين خيشمة وهو لا يعلم وذهب خيشمة ففقد دين مسروق وهو لا يعلم ولما أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فيما ^(١) فأآثره بما آثره به ، وكأنه قبله ثم آثره به وذلك مساواة البداية لإيثار والإيثار أفضل من المساواة . وقال أبو سليمان الداراني : لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقلتها له . وقال أيضا : إني لألقم اللقمة آخا من إخواني فأجد طعمها في حلق . كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء قال علي رضي الله تعالى عنه : لعشرون درهما أعطيا أخى في الله أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . وقال أيضا : لأن أصنع صاعا من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إلى من أن أعترق رقبة . واقتداء الكل في الإيثار برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتني منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم إلى صاحبه ، فقال له : يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم مني فقال : ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من النهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه ^(٢) ، فأشار بهذا إلى أن الإيثار

(١) حديث « لما أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبد الرحمن بارك الله فيما » رواه البخاري من حديث أنس . (٢) حديث « أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتني منها سواكين =

هو القيام بحق الله في الصعبة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر يغتسل عندها فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعل فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : ما اصطحب اثنين قط إلا كان أحدهما إلى الله أرفقهما بصاحبه^(٢) ، وروى أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائبا فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل فقال له مالك : كف يدك حتى يحجىء صاحب البيت : فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل ، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقا فدخل الحسن وقال : يامويلك هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضا حتى ظهرت أنت وأصحابك . وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة كيف وقد قال الله تعالى ﴿ أو صديقكم ﴾ وقال ﴿ أو ماملكتكم مفاتيحه ﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض له التصرف كما يريد ، وكان أخوه يتخرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية ولإذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء .

الحق الثاني : في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهذه أيضا لها درجات كما للمواساة بالمال فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنّة : قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى فإن لم يقضها فكبر عليه وقرأ هذه الآية ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية ، فقال : ما هذا ؟ قال : لما أسديته إلى ! فقال : خذ مالك عافاك الله ، إذ سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى . قال جعفر بن محمد : إنى لا تسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردمهم فيستغنوا عني : هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء ؟ وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمسحونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ، هل لكم ملح ، هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها حيث لا يعرفه أخوه . وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها . قال ميمون ابن مهران : من لم تلتفت بصداقته لم تضرك عداوته . وقال صلى الله عليه وسلم : ألا وإن الله أوفى في أرضه وهي القلوب فأحب الأوفى إلى الله تعالى أصفاه وأصلها وأرقها ، أصفاه من الذنوب وأصلها في الدين وأرقها على الإخوان^(٣) ، وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتخفيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل

= أحدهما معوج والآخر مستقيم إلى صاحبه ... الحديث « لم أقف له على أصل (١) حديث « ستر حذيفة للنبي صلى الله عليه وسلم بثوب حتى اغتسل ثم ستره صلى الله عليه وسلم لحذيفة حتى اغتسل » لم أجده أيضا (٢) حديث « ما اصطحب اثنين قط إلا كان أحدهما إلى الله أرفقهما بصاحبه » تقدم في الباب قبله بلفظ « أحدهما جبا لصاحبه » .

(٣) حديث « إن الله أوفى في أرضه وهي القلوب فأحب الأوفى إلى الله أصفاه وأصلها » أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الحولاني إلا أنه قال « أئنيها وأرقها » وإسناده جيد .

تقوم بحاجته كأنك لاتدرى أنك قت بها ، ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها بل تتفاد منه بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره . ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد . كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأنّ أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة . وقال الحسن : من شيع أخاه في الله بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة . وفي الأثر : ما زار رجل أخاً في الله شوقاً إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة ^(١) ، وقال عطاء : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم . وروى ابن عمر أن عمر كان يلتفت يمينا وشمالا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال : أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه فقال : إذا أحببت أحداً فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فإن كان مريضاً عدته وإن كان مشغولاً أصنته ^(٢) ، وفي رواية : وعن اسم جدّه وعشيرته . وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه : تلك معرفة التوكي . وقيل لابن عباس : من أحب الناس إليك ؟ قال : جليسي ، وقال : ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة له إلى فعلت ما مكافأته من الدنيا . وقال سعيد بن العاص : لجليسي على ثلاث : إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى ﴿ رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى الشفقة والإكرام . ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيقه أو بحضور في مسرة دونه بل يتغنض لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه .

الحق الثالث : في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى

أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، وليسكت عن أسرار التي بثها إليه ولا يبثها إلى غيره ألبتة ولا إلى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن ، وأن يسكت عن القدح في إجابته وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبك من بلغك . وقال أنس : كان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بشيء يكرهه ^(٣) ، والتأذي يحصل أولاً من المبلغ ثم من القائل ، نعم لا ينبغي أن يخفى ما يسمع من الثناء عليه فإن السرور به أولاً يحصل من المبلغ للبدح ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد . وبالجمل فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر معروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت فإذا ذاك لا يبالي بكرأته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر .

أما ذكر مساوية وعبوبه ومساوى أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم ويرجرك عنه أمران : أحدهما : أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً فهتف على نفسك ما تراه من أخيك

(١) حديث « ما زار رجل أخاً في .. الحديث » تقدم في الباب قبله . (٢) حديث ابن عمر « إذا أحببت أحداً فأسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته .. الحديث » أخرجه البخاري في معارج الأخلاق والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه الترمذي من حديث يزيد بن نامة وقال غريب ، ولا يعرف يزيد بن نامة سماع من النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) حديث أنس « كان لا يواجه أحداً بشيء يكرهه » أخرجه أبو داود والترمذي في المعاني والنسائي في اليوم والليلة بسند ضعيف .

وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستقله بخصلة واحدة مذمومة فأى الرجال المهذب ؟ وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك فليس حقتك عليه بأكثر من حق الله عليك .

والأمر الثاني : أنك تعلم أنك لو طلبت منزلها عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلا فإما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساو فإذا غلبت المحاسن المساوى فهو الغاية والمنتهى ، فالمؤمن الكريم أبدا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، وأما المنافق اللئيم فإنه أبدا يلاحظ المساوى والعيوب . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات . وقال الفضيل : الفتوة العفو عن زلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام : استعينوا بالله من جار السوء الذى إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره ^(١) ، وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ويمكن تقييده أيضا . روى أن رجلا أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه فقال عليه السلام : أنت بالأمس تثنى عليه واليوم تذمه ؟ فقال : والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما علمت فيه وأغضبني اليوم فقلت أقبح ما علمت فيه فقال عليه السلام : إن من البيان لسحرا ^(٢) ، وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر ، ولذلك قال في خبر آخر : البذاء والبيان شعبتان من النفاق ^(٣) ، وفي الحديث الآخر : إن الله يكره لكم البيان كل البيان ، وكذلك قال الشافعى رحمه الله : ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ولا أحد يعصى الله ولا يطيعه . فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل وإذا جعل مثل هذا عدلا في حق الله فبأن تراه عدلا في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى . وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إسائة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منبى عنه أيضا ، وحده أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن . فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فلا يمكنك أن لا تعلمه وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن ، وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى تفرسا وهو الذى يستند إلى علامة فإن ذلك يحرك الظن تحريكا ضروريا لا يقدر على دفعه ، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه حتى يصدر منه فعل له وجهان ، فيحكمك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأدنى من غير علامة تخصه به ، وذلك جناية عليه بالباطن وذلك حرام في حق كل مؤمن . إذ قال صلى الله عليه وسلم : إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ^(٥) ، وسوء الظن

(١) حديث « استعينوا بالله من جار السوء الذى إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره » أخرجه البخارى في التاريخ من حديث أبى هريرة بسند ضعيف والنسائى من حديث أبى هريرة وأبى سعيد بسند صحيح « تموزوا بأفة من جار السوء في دار المقام » . (٢) حديث أن رجلا أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه ... الحديث « وفيه » فقال صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحرا ... أخرجه الطبرانى في الأوسط والحاكم في المستدرک من حديث أبى بكر إلا أنه ذكر المدح والذم في مجلس واحد لا يؤمن ورواه الحاكم من حديث ابن عباس أطول منه بسند ضعيف أيضا .

(٣) حديث « البذاء والبيان شعبتان من النفاق » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبى أمامة بسند ضعيف . (٤) حديث « إن الله حرم من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء » أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله « وعرضه » ورجاله ثقات إلا أن أبى على النيسابورى قال : ليس هذا عندى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم لأنما هو عندى من كلام ابن عباس . ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر ، وسلم من حديث أبى هريرة « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . (٥) حديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

يدعو إلى التجسس والتجسس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تجسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا »^(١) ، والتجسس في تطلع الأخبار والتجسس بالمراقبة بالعين . فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين . ويكفيك تفنيها على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجليل أن الله تعالى وصف به في الدعاء فقيل : يا من أظهر الجليل وستر القبيح . والمرضى عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستار العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العيبد فكيف لا تتجاوز أنت عن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك ؟ وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين : كيف تصنعون إذا رأيتم أحاكم نائما وقد كشف الريح ثوبه عنه ؟ قالوا : نستره ونغطي ، قال : بل تكشفون عورته ! قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ فقال : أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها . واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وأقل درجات الاخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوى والعيوب ، ولو ظهر له منه فقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه فما أبعد له إذا كان ينتظر منه مالا يضمره له ولا يعزم عليه لأجله ، وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال (ويل للمطففين الذين إذا اكتبوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون) وكل من يلتبس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية . ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء الدفين في الباطن وهو الحقد والحسن فإن الحقوق الحسود يملأ باطنه بالخبث ولكن يحبس في باطنه ويخفيه ولا يبدية مهما لم يجد له مجالا وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء وبتشرح الباطن بخبثه الدفين . ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى ، قال بعض الحكماء : ظاهر العتاب خير من مسكون الحقد ، ولا يزيد لطف الحقوق إلا وحشة منه ، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فأيمانه ضعيف وأمره مخطر وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله . وقد روى عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال : كنت باليمن ولي جار يهودي يخبرني عن التوراة فقدم على اليهودي من سفر فقلت إن الله قد بعث فينا نبيا فدعانا إلى الإسلام فأسلنا وقد أنزل علينا كتابا مصدقا للتوراة ، فقال اليهودي صدقت ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به ، إنا نجد نعتة ونعت أمتة في التوراة : إنه لا يحل لامرئ أن يخرج من عتبة بابه وفي قلبه سخيمة على أخيه المسلم . ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذبا فليس الصدق واجبا في كل مقام ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن . هذه حقيقة الاخوة وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مرأيا وخارجا عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كعرفته بنفسه من غير فرق وقد قال عليه السلام « من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة »^(٢) ، وفي خبر آخر « فكأنما أحيا مودة »^(٣) . وقال عليه السلام « إذا حدث الرجل بمحدث ثم التفت فهو أمانة »^(٤) ، وقال « المجالس بالأمانة

(١) حديث « لا تجسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو بعض الحديث الذي قبله . (٢) حديث « من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال « يوم القيامة » ولم يقل « في الدنيا » ولمسلم من حديث أبي هريرة « من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » وللقين من حديث ابن عمر « من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . (٣) حديث « فكأنما أحيا مودة من قبرها » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم من حديث عقبة بن عامر « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا مودة » زاد الحاكم « من قبرها » وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « إذا حدث الرجل بمحدث ثم التفت فهو أمانة » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث جابر وقال حسن .

إلا ثلاثة مجالس : مجلس يسفك فيه دم حرام ومجلس يستحل فيه فرج حرام ومجلس يستحل فيه مال من غير حله ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره ^(٢) ، قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك السر ؟ قال : أنا قبره . وقد قيل : صدور الأحرار قبور الأسرار . وقيل : إن قلب الأحق في فيه ولسان العاقل في قلبه ، أى لا يستطيع الأحق إخفاء ما في نفسه فيديه من حيث لا يدري به . فمن هذا يجب مقاطعة الحق والتوقى عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم . وقد قيل لآخر . كيف تحفظ السر ؟ قال : أجدد الخبر وأحلف للمستخير . وقال آخر : أستره واستر أنى أستره وعبر عنه ابن المعتز فقال :
ومستودعى سرا تبوأ كتمه . فأودعته صدرى فصار له قبرا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه :

وما السر فى صدرى كشاور بقبره لأنى أرى المقبور ينتظر النشر
ولكنى أنسا حتى كأتى بما كان منه لم أخط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بينى وبينه عن السر والأحشاء لم تعلم سرا

وأفشى بعضهم سرا له إلى أخيه ثم قال له . حفظت ؟ فقال : بل نسيت . وكان أبو سعيد الثورى يقول : إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيرا وكتم سره فاصحبه . وقيل لأبي يزيد : من تصحب من الناس ؟ قال : من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك كما يستره الله . وقال ذو النون : لاخير فى صحبة من لا يجب أن يراك إلا معصوما ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها . وقد قال بعض الحكماء . لا تصحب من يتغير عليك عند أربع : عند غضبه ورضاه ، وعند طمعه وهواه . بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتا على اختلاف هذه الأحوال ولذلك قيل :

وترى الكريم إذا تصرم وصله يخفى القبيح ويظهر الإحسانا
وترى اللئيم إذا تقضى وصله يخفى الجميل ويظهر البهتان

وقال العباس لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل - يعنى عمر رضى الله عنه - يقدمك على الأشياخ فاحفظ عنى خمسا : لا تفشين له سرا ولا تغتابن عنده أحدا ولا تجرين عليه كذبا ، ولا تعصين له أمرا ، ولا يطلعن منك على خيانة فقال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف . ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة فى كل ما يتكلم به أخوك قال ابن عباس : لا تمار سفها فيؤذيك ولا حليما فيقلبك . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ^(٣) » هذا مع أن تركه مبطلا واجب ، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل وإنما الأجر على قدر النصب . وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع فإن التقاطع

(١) حديث « المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه
(٢) حديث « إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة لا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره » أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية أبي بكر بن حزم مرسلًا والمحكم وصححه من حديث ابن عباس « أنكم تجالسون بينكم بالأمانة » .
(٣) حديث « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ... الحديث » تقدم فى العلم .

يقع أولا بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان . وقال عليه السلام « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله بحسب المراء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ^(١) » ، وأشد الاحتقار المماراة فإن من رد على غيره كلامه فقد نسب إلى الجهل والحق أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيجاش . وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن تمارى فغضب وقال : ذروا المراء لقلة خيره وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان ^(٢) » ، وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته . وقال عبد الله ابن الحسن إياك وبمارة الرجال فإنك لن تعدم مكر حلیم أو مفاجأة لئيم . وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظم به منهم وكثرة المماراة توجب التضييع والقطيعة وتورث العداوة وقد قال الحسن : لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل . وعلى الجملة فلا باعث على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحق والجهل ولا معنى للمعاداة إلا هذا فكيف تضامته الأخوة والمصافاة ؟ فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تمار أخاك ولا تمارزه ولا تعده موعدا فتخلفه ^(٣) » ، وقد قال عليه السلام « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق ^(٤) » ، والمماراة مضادة لحسن الخلق . وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حد لم يروا السؤال أصلا . وقالوا : إذا قلت لأخيك قم فقال إلى أين ؟ فلا تصحبه بل قالوا ينبغى أن يقوم ولا يسأل . وقال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب فأقول : أعطني من مالك شيئا ، فكان يلقي إلي كيسه فأخذ منه ما أريد ، لحيته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء . فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة لإخائه من قلبي . وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالا فقال : ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإخاء . وأعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة . قال أبو عثمان الحيري موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم ، وهو كما قال .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق

فإن الأخوة كما تقتضى السكوت عن المكاره تقتضى أيضا النطق بالحجاب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم ، والسكوت معناه كف الأذى فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقد في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه ، وكذا جملة أحواله التي يكرها ينبغى أن يظهر بلسانه وأفعاله كراحتها ، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغى أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها . فعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء وقد

(١) حديث « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس وقد تقدم بعضه قل هذا بسبعة أحاديث (٢) حديث أبي أمامة « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن تمارى فغضب وقال ذروا المراء لقلة خيره فإن نفعه قليل فإنه يهيج العداوة بين الإخوان » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة وأبي الدرداء ووائل وأنس دون ما بهد قوله « لقلة خيره » ومن هنا إلى آخر الحديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة فقط واسنادهما ضعيف .

(٣) حديث ابن عباس « لا تمار أخاك ولا تمارزه ولا تعده موعدا فتخلفه » أخرجه الترمذي وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه يعنى من حديث ليث بن أبي سليم وضعفه الجمهور . (٤) حديث « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه أبو يعلى الموصلي والطبراني في كبارم الأخلاق وابن عدى في الكامل وضعفه الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة .

قال عليه السلام « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره ^(١) » ، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فإن عرف أنك تحبه أحببك بالطبع لا محالة ، فإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف . والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحجوب في الدين ولذلك علم فيه الطريق فقال « تهادوا تحابوا ^(٢) » ، ومن ذلك أن يدعو به بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره . قال عمر رضي الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولا ، وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه . ومن ذلك أن تثني عليه بماتعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعتة وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثني عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك يحض الحسد ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقاك بل على نيته وإن لم يتم ذلك . قال علي رضي الله عنه : من لم يحمدا أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنعة . وأعظم من ذلك تأثيرا في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض لحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيك المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة . وإنما شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخوين باليدين تفصل إحداهما الأخرى لينصر أحدهما الآخر وينوب عنه ^(٣) . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يغذله ولا يثله ^(٤) » ، وهذا من الائتلاف والخذلان فإن إهماله لتزريق عرضه كإهماله لتزريق لحمه . فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحرك الشفقة والحماية للدفع عنك لا وتمزق الاعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال « أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » والملك الذي يمثله في المنام ما تطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة يمثّل الغيبة بأكل لحوم الميتة ، حتى إن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فإنه يغتاب الناس لأن ذلك الملك في تمثيله يراعى المشاركة والمناسبة بين الشيء وبين مثاله في المعنى الذي يجري من المثال مجرى الروح ؛ لا في ظاهر الصور . فإذا حبا الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنّت المتعنتين واجب في عقدا الأخوة . وقد قال مجاهد : لا تذكر أخاك في غيبته إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك . فإذا لك فيه معياران ؛ أحدهما : أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضرا ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك ؟ فينبغي أن تعامل المتعرض لعرضه به . والثاني : أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره ؛ فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بمسمع منه ومرأى ؟ فينبغي أن يكون في مغيبه كذلك فقد قال بعضهم : ما ذكر أخ لي بغيب إلا تصورته جالسا فقلت فيه ما يجب أن يسمعه لو حضر : وقال آخر : ما ذكر أخ لي إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في . وهذا من صدق الإسلام وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه . وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان في فدان فوق أحدهما يحك جسمه فوق الآخر ؛ فبكى وقال : هكذا الإخوان في الله يعملان لله فإذا وقف أحدهما واقفه الآخر . وبالموافقة يتم الإخلاص ومن لم يكن مخلصا في إخائه فهو منافق . والإخلاص استواء الغيب والشهادة

(١) حديث « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والحاكم من حديث المقدم بن مديكرب . (٢) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة وقد تقدم غير مرة .

(٣) حديث « تشبيه الأخوين باليدين » تقدم في الباب قبله . (٤) حديث « المسلم أخو المسلم » تقدم في أثناء حديث قبله بسبعة أحاديث .

واللسان والقلب والسر والعلانية والجماعة والخلوة والاختلاف ، والتفاوت في شيء من ذلك مما ذقة في المودة وهو دخل في الدين ووليجه في طريق المؤمنين ، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فلا تقطع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق . ولذلك قال عليه السلام « أبا هر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة صاحبك تكن مؤمناً »^(١) ، فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة والإسلام جزاء الجوار ؟ فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحبة . فإن الصحبة تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام والجوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم . ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال : فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا ، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائده تركه وتحذيره بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبه على عيوبه وتقبح القبيح في عينه وتحسن الحسن ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن مرآة المؤمن »^(٢) ، أى يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة . وقال الشافعي رضي الله عنه : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . وقيل لمسر : أتحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال : إن نصحتني فيما بيني وبينه فنعيم وإن قرعني بين الملأ فلا . وقد صدق ، فإن النصيح على الملأ فضيحة والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سرا ، وقد يدفع كتاب عمله محتوماً إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة ، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب محتوماً ليقراه ، وأما أهل المقتفينادون على رموس الأسماء وتستنطق جوارحهم بفضائهم فيزدادون بذلك خزيًا وافتضاحًا ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر . فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء . فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن . وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

* فإن قلت : فإذا كان في النصيح ذكر العيوب ففيه إيحاء للقلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة ؟ فاعلم أن الإيحاء إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استئالة القلوب ، أعنى قلوب العقلاء ، وأما الحق فلا يلتفت إليهم فإن من ينهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك ، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حقك ! والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه

(١) حديث « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً » أخرجه الترمذي وابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة بالنظر الأول فقط وقال الترمذي « مؤمناً » قال « وأحب الناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » وقال ابن ماجه « مؤمناً » قال الدارقطني والحديث ثابت ورواه القضاة في مسند الشهاب بلفظ المصنف .

(٢) حديث « المؤمن مرآة المؤمن » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

يستهدى ذلك من إخوانه ويقول : رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه ، ولذلك قال عمر لسلمان وقد قدم عليه : ما الذى بلغك عنى مما تكره ؟ فاستغنى ، فألح عليه فقال : بلغنى أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل وبلغنى أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة ، فقال عمر رضى الله عنه : أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما ؟ فقال : لا . وكتب حذيفة المرعشى إلى يوسف بن أسباط : بلغنى أنك بعث دينك بحبتين : وقفت على صاحب لبن فقلت : بكم هذا ؟ فقال : بسدس ، فقلت له : لا ... بشمن ! فقال : هو لك ، وكان يعرفك . اكشف عن رأسك قناع الغافلين وانتبه عن رقدة الموتى واعلم أن من قرأ القرآن ولم يستغن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين ، وقد وصف الله تعالى الكاذبين بيفضهم للناصحين إذ قال ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ وهذا فى عيب هو غافل عنه فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره إن كان يخفيه ، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف فى النصيح بالتعريض مرة وبالتصریح أخرى إلى حد لا يؤدى إلى الإيحاء ، فإن علمت أن النصيح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى ، وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك فى دينه أو دنياه ، أما ما يتعلق بتقصيره فى حثك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامى عنه ، والتعرض لذلك ليس من النصيح فى شيء ، نعم إن كان بحيث يؤدى استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب فى السر خير من القطيعة والتعريض به خير من التصریح والمكاتبة خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل ، إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمرعاتك إياه وقيامك بحقه واحتمالك تقصيره لا الاستعانة به والاسترفاق منه . قال أبو بكر الكتانى : صحبت رجل وكان على قلبى ثقيلا فوهبت له يوما شيئا على أن يزول ما فى قلبى فلم يزول ، فأخذت بيده يوما إلى البيت وقلت له : ضع رجلك على خدى ، فأبى ، فقلت : لا بد ، ففعل ، فزال ذلك من قلبى . وقال أبو على الرباطى : صحبت عبد الله الرازى وكان يدخل البادية فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا فقلت بل أنت فقال وعليك الطاعة فقلت نعم فأخذ غلالة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فإذا قلت له أخطئى قال ألسنت قلت أنت الأمير ؟ فعليك الطاعة فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسى إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عنى المطر فكنت أول مع نفسى ليتنى مت ولم أقل أنت الأمير .

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات

وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية أو فى حثك بتقصيره فى الأخوة . أما ما يكون فى الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف فى نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله . فإن لم تقدر وبقي مصرا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين فى إدامة حق مؤدته أو مقاطعته . فذهب أبو ذر رضى الله عنه إلى الانقطاع وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته ، ورأى ذلك من مقتضى الحب فى الله والبغض فى الله . وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه ؛ فقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى . وقال إبراهيم النخعى لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا . وقال أيضا : لا تتحدثوا الناس بزلة العالم فإن العالم يزول الزلة ثم يتركها . وفى الخبر : اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته ^(١) ، وفى حديث عمر وقد سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال :

(١) حديث « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته » رواه البوصى فى المعجم وابن عدى فى الكامل من حديث عمرو بن الزنى وضعفاء .

ما فعل أخى ؟ قال : ذلك أخو الشيطان قال : مه ، قال : إنه قارف الكبار حتى وقع في الخمر . قال : إذا أردت الخروج فأذن فكتب عند خروجه إليه . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ الآية ، ثم عاقبه تحت ذلك وعذله . فلما قرأ الكتاب بكى وقال : صدق الله ونصح لي عمر قتات ورجع . وحكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال : إني قد اعتلكت فإن شئت أن لا تنقد على صحبتي لله فافعل ، فقال : ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبدا ، ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه ، فطوى أربعين يوما في كلها يسأله عن هواه فكان يقول : القلب مقيم على حاله . وما زال هو ينحل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزالا وضرا . وكذلك حكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره ، فقال : أحوج ما كان إلى في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه . وروى في الإسرائيليات أن أخوين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشتري من المصر لحما بدرهم فرأى بغيا عند اللحام فرمقها وعشقها واجتذبا إلى خلوة وواقعها ، ثم أقام عندهما ثلاثا واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنائنه . قال : فافتقده أخوه واهتم بشأته فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتقته وجعل يقبله ويلتزمه وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحياؤه منه فقال : قم يا أخى فقد علمت شأنك وقصتك وما كنت قط أحب إلى ولا أعز من ساعتك هذه ، فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه . فهذه طريقة قوم وهى اللطف وأفق من طريقة أبى ذر رضى الله عنه ، وطريقته أحسن وأسلم .

« فإن قلت : ولم قلت هذا اللطف وأفق من مقارن هذه المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء لأن الحكم إذا ثبت بعلّة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلّة عقد الأخوة التعاون في الدين ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية فأقول : أما كونه اللطف فلما فيه من الرفق والاستئالة والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع طمعه عن الصحبة أصر واستمر . وأما كونه أفقه فمن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انعدمت تأكد الحق ووجب الوفاء ووجب العقد ، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره وفقير الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها في دينه فينبغى أن يراقب ويراعى ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التي ألمت به . فالأخوة عدة للتألمات وحوادث الزمان وهذا من أشد التوائب ، والفاجر إذا صحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه ومدامته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياء منه . قال جعفر بن سليمان : مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلى نشاطي في العبادة وفارقتي الكسل وعملت عليه أسبوعاً وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لحمة كالجمعة النسب والقريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية ، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في عشيرته ﴿ فإن عصوك فقل إني برى عما تعملون ﴾ ولم يقل إني برى منكم مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب . وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى وأخوة الدين أؤكد من أخوة القرابة . ولذلك قيل للحكيم : أيما أحب إليك أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقاً لي . وكان الحسن يقول : كم من أخ لم تلده أمك ؟ ولذلك قيل :

القرابة تحتاج إلى مودة والمودة لا تحتاج إلى قرابة وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم مائة من قطعها قطعها الله . فإذا الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب . وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق فإنه لم يتقدم له حق فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لا ينبغي أن يقطع بل يجامل . والدليل عليه أن ترك المؤاخاة والصحة ابتداء ليس مذموما ولا مكروها بل قال قائلون : الانفراد أولى ؛ فأما قطع الأخوة عن دوامها فنهى عنه ومذموم في نفسه ونسبته إلى تركها ابتداء كنسبة الطلاق إلى ترك النكاح ، والطلاق أبغض إلى الله تعالى من ترك النكاح قال صلى الله عليه وسلم : شرار عباد الله المشاءون بالنسيئة المفرقون بين الأحبة ^(١) ، وقال بعض السلف في ستر زلات الإخوان : ود الشيطان أن يلقى على أخيك مثل هذا حتى تهجره وتقطعوه ، فإذا اتقيتم من حجة عدوكم . وهذا لأن التفريق بين الأحياء من محاب الشيطان كما أن مفارقة العصيان من محابه ؛ فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني ، وإلى هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة إذ قال : مه ، وزبره وقال : لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك ^(٢) ، فهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء لأن مخالطة الفساق محذورة ، ومفارقة الأحياء والإخوان أيضا محذورة ، وليس من سلم عن معارضة غيره كالذي لم يسلم وفي الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى وفي الدوام تعارضا فكان الوفاء بحق الأخوة أولى ، هذا كله في زلته في دينه .

أما زلته في حقه بما يوجب إباحته فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال بل كل ما يحتمل تنزيهه على وجه حسن ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستبطل لوجه أخيك سبعين عذرا ؛ فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ، فنقول لقلبك : ما أقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله ، فأنت المعيب لا أخوك ، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تغضب إن قدرت ، ولكن ذلك لا يمكن وقد قال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . فلا تكن حارا ولا شيطانا ، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطانا إن لم تقبل . قال الاحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم المفوة . وقال آخر : ما شتمت أحدا قط : لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له أو لثيم فلا أجعل عرضي له عرضا ثم تمثل وقال : وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللثيم تكرما

وقد قيل :

خذ من خليلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر من معا تبة الخليل على الغير

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبا كان أو صادقا فاقبل عذره . قال عليه السلام : من اعتذر إليك أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل لثم صاحب المكس ^(٣) ، وقال عليه السلام : المؤمن سريع الغضب سريع الرضا ^(٤) ، فلم يصفه بأنه

(١) حديث : شرار عباد الله المشاءون بالنسيئة المفرقون بين الأحبة ، رواه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بسند ضعيف

(٢) حديث : لا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيك ، رواه البخاري من حديث أبي هريرة ويهدم في الباب قبله .

(٣) حديث : من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل لثم صاحب مكس ، أخرجه ابن ماجه وأبو داود في المراسيل من حديث جودان واختلف في صحته وجهله أبو حاتم وباقي رجاله ثقات ورواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف .

(٤) حديث : المؤمن سريع الغضب سريع الرضا ، لم أجده هكذا ولا ترمذى وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري « إلا أن بني آدم خلقوا على طبقات شتى . . . الحديث » وفيه : ومنهم سريع التي تترك تلك تلك »

لا يغضب . وكذلك قال الله تعالى ﴿ والكاذمين الغيظ ﴾ ولم يقل والفاقرين الغيظ ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يجرح الإنسان فلا يتألم ، بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويحتمل ، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب ، ولا يمكن قلمه ولكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه ، فإنه يقتضى التشقى والانتقام والمكافأة ، وترك العمل بمقتضاه ممكن ، وقد قال الشاعر :

ولست بمستبق أخا لا تله على شعث أى الرجال المهذب ؟

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى : إذا واخيت أحدا في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه ، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول ، قال : لخبرته فوجدته كذلك . وقال بعضهم : الصبر على مفضل الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبه خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقعة . وينبغى أن لا يبالغ في البغضة عند الوقعة . قال تعالى ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ وقال عليه السلام « أحب حبيبتك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما (١) » ، وقال عمر رضى الله عنه : لا يكن حبك لكفا ولا بغيضك تلفا : وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك .

الحق السادس

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يجبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك (٢) » ، وفي لفظ آخر « يقول الله تعالى بك أبدا يا عبيدى (٣) » ، وفي الحديث « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه (٤) » ، وفي الحديث « دعوة الرجل لأخته في ظهر الغيب لا ترد (٥) » ، وكان أبو الدرداء يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودى أسميهم بأسمائهم . وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد بحزنك مهمم بما قدمت وما صرت إليه ، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى ، وكأن الأخ الصالح يقتدى بالملائكة ، إذ جاء في الخبر « إذا مات العبد قال الناس : ما خلفت ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ (٦) » ، يفرحون له بما قدم ويسألون عنه ويشفقون عليه ، ويقال : من بلغه موت أخيه فترحم عليه واستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب (٧) » ، وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال . وقال بعض السلف الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول : هذه

(١) حديث « أحب حبيبتك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال غريب قلت رجاله ثقات رجاله مسلم لسكن الراوى تردد في رفعه .

(٢) حديث « إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك بمثل ذلك » أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء .
(٣) حديث « الدعاء للأخ بظهر الغيب » وفيه « يقول الله بك أبدا يا عبيدى » لم أجده هذا اللفظ (٤) حديث « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » لم أجده بهذا اللفظ ولأبى داود والترمذى وضعفه من حديث عبد الله بن عمرو « لن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لنائب » (٥) حديث « دعوة الأخ لأخيه في الغيب لا ترد » أخرجه الدارقطنى في الملل من حديث أبى الدرداء وهو عند مسلم إلا أنه قال « مستجابة » مكان « لا ترد » (٦) حديث « إذا مات العبد قال الناس ما خلفت وقالت الملائكة ما قدم » أخرجه البيهقى في الشعب من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٧) حديث « مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد . . الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى في مستند الفردوس من حديث أبى هريرة قال انتهى في الميزان أنه خبر منكر جدا .

هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان . قال : فيفرح بذلك كما يفرح الحى بالهدية .

الحق السابع : الوفاء والإخلاص

ومعنى الوفاء : الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للأخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى ، ولذلك قال عليه السلام « في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله » ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ^(١) ، وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة ، ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجزا دخلت عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين ^(٢) » ، فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به ، حتى الكلب الذى على باب داره ينبغى أن يميز في القلب عن سائر الكلاب ، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شئت به الشيطان ، فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخين في الله ومتحابين فيه فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما قال الله تعالى ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ وقال مخبرا عن يوسف ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ ويقال متواخى اثنان في الله فترق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما . وكان بشرى يقول : إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه . وذلك لأن الإخوان مسلاة للهموم وعون على الدين . ولذلك قال ابن المبارك : ألد الأشياء مجالسة الإخوان والانتقال إلى كفاية ، والمودة الدائمة هى التى تكون فى الله ، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض . ومن ثمرات المودة فى الله أن لا تكون مع حسد فى دين ودنيا وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته ؟ وبه وصف الله تعالى المحبين فى الله تعالى فقال ﴿ ولا يحسدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ﴾ ووجود الحاجة هو الحسد . ومن الوفاء أن لا يتغير حاله فى التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم . قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الحشن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بنى لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك وإن استغثت عنه لم يطمع فيك وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقال بعض الحكماء : إذا ولى أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير . وحكى الربيع : أن الشافعى رحمه الله أخى رجلا ببغداد ثم إن أخاه ولى السيدين فتغير له عما كان عليه ، فكتب إليه الشافعى بهذه الأبيات :

أذهب فودك من فؤادى طالق أبدا وليس طلاق ذات البين
فإن أروعيت فإنها تطليقة ويدوم ودك لى على ثنتين
وإن امتنعت شفعتها بمثلها فتكون تطليقتين فى حيضين
وإذا الثلاث أتتك منى بته لم تغن عنك ولاية السيدين

(١) حديث « سبعة يظلمهم الله فى ظله ... الحديث » تقدم غير مرة .

(٢) حديث « لأكرامه صلى الله عليه وسلم لعجزا دخلت عليه ، وقوله لأنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان » أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة .

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأَخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعي رضي الله عنه أخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول ما يقيمنى بمصر غيره ؛ فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله تعالى فقال :

مرض الحبيب فعدته فرضت من حذرى عليه
وأق الحبيب يعودنى فبرئت من نظرى إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفرض أمر حلقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه : إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئذ إليه ؛ فقال الشافعي : سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطى ؟ فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطى مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن كان البويطى أفضل وأقرب إلى الزهد والورع . فنصح الشافعي لله وللسلمين وترك المداينة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى . فلما توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه ودرس كتب مالك رحمه الله ، وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله . وآثر البويطى الزهد والخول ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف كتاب الآم ، الذى ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنفه البويطى ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره . والمقصود أن الوفاء بالحجة من تمامها النصح لله . قال الاحنف : الإخاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للأفات فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير . ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة ، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجدت مصيبات الزمان جميعها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وأشد ابن عيينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلوبى . ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لاسيما من يظهر أولا أنه يحب لصديقه - كيلا يتهم - ثم يلقي الكلام عرضا وينقل عن الصديق ما يوغر القلب فذلك من دقائق الحيل في التضريب ومن لم يحتز منه لم تدم مودته أصلا . قال واحد الحكم : قد جئت خاطبا لمودتك ، قال : إن جعلت مهرها ثلاثا فعلت ، قال : وما هى ؟ قال : لا تسمع على بلاغة ولا تخالفنى في أمر ولا توطئنى عشوة . ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه . قال الشافعي رحمه الله : إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفقه عن أن يحمله شيئا من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاء ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركا بدعائه واستئناسا بلقائه واستعانة به على دينه وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته . قال بعضهم : من اقتضى من إخوانه ما لا يقضونه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم مثل ما يقضونه فقد آثمهم ، ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم . وقال بعض الحكماء : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه في قدره تعب وآثمهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلوا وتامم التخفيف بطى بساط التكليف

حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه . وقال الجنيد : ماتواخي اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لعلته في أحدهما . وقال على عليه السلام : شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار . وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : المؤمن أخو المؤمن لا يغتتمه ولا يحتشمه . وقال الجنيد : صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة - كل طبقة ثلاثون رجلا - حارثا المحاسبي وطبقته ، وحسنا المسوحى وطبقته ، وسريا السقطي وطبقته ، وابن الكريبي وطبقته ، فما تواخى اثنان في الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لعلته في أحدهما . وقيل لبعضهم : من نصحب ؟ قال : من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول : أثقل إخواني على من يتكاف لي وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي . وقال بعض الصوفية : لا تعاشر من الناس إلا من لا يزيد عنده ببر ولا تنقص عنده بإثم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء ، وإنا قال هذا لأن به يتخلص عن التكلف والتحفظ . وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده . وقال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب ومع أبناء الآخرة بالعلم ومع العارفين كيف شئت ! وقال آخر : لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه . وقال هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس وليس الأمر كذلك بل ينبغي أن يواخي كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه ، إذ به يكون مواخيا في الله وإلا كانت مواخاته لحظوظ نفسه فقط . ولذلك قال رجل للجنيد : قد عز الإخوان في هذا الزمان أين أخ لي في الله ؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثا ، فلما أكثر قال له الجنيد : إن أردت أخا يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل ، وإن أردت أخا في الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندي جماعة أعرفهم لك . فسكت الرجل . واعلم أن الناس ثلاثة : رجل تنتفع بصحبته ، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرره ولكن لا تنتفع به . ورجل لا تقدر أيضا على أن تنفعه وتتضرر به وهو الأحق أو السيء الخلق فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه ، فأما الثاني فلا تجتنبه لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به ، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إن أطيقت فما أكثر إخوانك أي إن واسيتهم واحتملت منهم ولم تحسدهم . وقد قال بعضهم : صحبت الناس خمسين سنة فموقع بيني وبينهم خلاف فإني كنت معهم على نفسي ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه . ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يعترض في نوافل العبادات . كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان : إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم ، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر ، وإن نام الليل كله لم يقل له قم ؟ وإن صلى الليل كله لم يقل له : نم ، وتستوى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان لأن ذلك إن تفاوت حرك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة . وقد قيل : من سقطت كلفته دامت ألفتة من خفت مؤنته دامت مودته . وقال بعض الصحابة : إن الله لعن المتكلفين وقال صلى الله عليه وسلم « أنا وأمتي برآء من التكلف »^(١) ، وقال بعضهم : إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به^(٢) إذا أكل عنده ، ودخل الحلاء ، وصلى . ونام . فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال : بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويجامعها ، لأن البيت يتخذ للاستخفاء في الأمور الخس ،

(١) حديث « أنا وأمتي برآء من التكلف » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث الزبير بن العوام « إلا إلى برئء من التكلف وصالحو أمتي » وإسناده ضيف (٢) حديث « إذا صنع الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به . الحديث » لم أجده أصلا .

وإلا فالمساجد أرواح لقلوب المتعبدين ، فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط . وقول العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه : مرحبا وأهلا وسهلا ، أى لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان ، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا ، ولك عندنا سهولة في ذلك كله ، أى لا يشتد علينا شيء مما تريد . ولا يتم التخفيف وترك التكاف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسمى الظن بنفسه فإذا رآهم خيرا من نفسه فعند ذلك يكون هو خيرا منهم وقال أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خير مني ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلى على نفسه فهو خير مني وقد قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له »^(١) ، فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والسكال في رؤية الفضل للأخ . ولذلك قال سفيان : إذا قيل لك ياشر الناس فضبت فأنت شر الناس أى ينبغي أن تكون معتقدا ذلك في نفسك أبدا . وسيأتى وجه ذلك في كتاب الكبر والعجب . وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للإخوان أبيات :

تذلل لمن إن تذلل له يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يرا ل على الأصدقاء يرى الفضل له
وقال آخر : كم صديق عرفته بصديق صار أخطى من الصديق العتيق
ورفيق رأيته في طريق صار عندي هو الصديق الحقيقي

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم . قال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم »^(٢) ، ومن تمة الانبساط وترك التكاف أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده ويقبل إشاراتهم فقد قال تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وينبغي أن لا يخفى عنهم شيئا من أسرارهم كما روى أن يعقوب ابن أخي معروف قال : جاء أسود بن سالم إلى عمي معروف وكان مواخيا له فقال : إن بشر بن الحرث يحب مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافهك بذلك وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتد بها إلا أنه يشترط فيها شروطا : لا يجب أن يشتهر بذلك ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقة فإنه يكره كثرة الالتقاء ، فقال معروف : أما أنا لو أخيت أحدا لم أحب مفارقتة ليلا ولا نهارا ولزرتة في كل وقت وآثرته على نفسي في كل حال ، ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة ، ثم قال فيها . وقد أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فشاركه في العلم^(٣) وقاسمه في البدن^(٤) وأنكحه أفضل بناته وأجهن إليه وخصه بذلك لمؤاخاته^(٥) وأنا

(١) حديث « المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » تقدم الشطر الأول منه في الباب قبله وأما الشطر الثاني فرواه ابن عدى في السكامل من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في أثناء حديث « لاتنابروا » في هذا الباب (٣) حديث « أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وشاركه في العلم » أخرجه النسائي في الخصائص من سننه الكبرى من حديث علي قال « جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب ... الحديث » وفيه « فأيسكم يابى على أن يكون أخى وصاحبي ووارثي فلم يبق عليه أحد فقامت إليه » وفيه « حتى إذا كان في الثالثة ضرب بيده على يدي » وله ولعناكم من حديث ابن عباس « أن عليا كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لئن لأخوه ووليه ووارثه ... الحديث » وكل ما ورد في أخوته ضعيف لا يصح منه شيء ، ولترمذى من حديث ابن عمر « وائت أخى في الدنيا والآخرة » ولعناكم من حديث ابن عباس « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وقال صحيح الإسناد وقال ابن حبان لأصل له وقال ابن طاهر أنه موضوع ولترمذى من حديث علي « أنا دار الحكمة وعلي بابها » وقال غريب (٤) حديث « مقاسمته عليا للبدن » أخرجه مسلم في حديث جابر الطويل « ثم أعطى عليا فنحر ماعير وأشركه في هديه » (٥) حديث « أنه أنكح عليا أفضل بناته وأجهن إليه » هذا معلوم مشهور في الصحيحين من حديث علي « لما أردت أن أبني بفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم واعدت رجلا صواغا ... الحديث » ولعناكم من حديث =

أشهدك أني قد عقدت له أخوة بيني وبينه وعقدت لإخاءه في الله لرسالتك ولمسألتك على أن لا يزورني إن كره ذلك ولكنني أزوره متى أحبيت ، ومره أن يلقاني في مواضع نلتقي بها ، ومره أن لا يخفى علي شيئا من شأنه وأن يطلقني على جميع أحواله ، فأخبر ابن سالم بشرا بذلك فرضي وسر به . فهذا جامع حقوق الصحبة وقد أجملناه مرة وفصلناه أخرى ، ولا يتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

أما البصر فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك وتنظر إلى محاسنهم وتتعاى عن عيوبهم ولا تنصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يعطى كل من جلس إليه نصيبا من وجهه وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسأله وتوجهه للجالس إليه ^(١) وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة ، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعبجا عما يحدثونه به ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء منهم بفعله وتوقيرا له عليه السلام .

وأما السمع فبأن تسمع كلامه مثلثا بسامعه ومصداقا به ومظهرا للاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فإن أرمقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما سكرهون .

وأما اللسان فقد ذكرنا حقوقه فإن القول فيه يطول ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون .

وأما اليدين فأن لا يقبضما عن معاوئتهم في كل ما يتعاطى باليد .

وأما الرجلان فأن يمشي بهما وراهم مشى الأنبا لا مشى المتبوعين ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بعودهم ويقعد متواضعا حيث يقعد . ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة وفي ضمنها نوع من الأجنبة والتكلف فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسالك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها ، ومن كان نظره إلى صحة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم ، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهرا وباطنا وزين باطنه بالحب لله ولخلقه وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فإنها أعلى أنواع الخدمة لله إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة .

= أم أيمن « زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة عليها ... الحديث » وقال صحيح الاسناد وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة « يا فاطمة أما ترين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين . . الحديث » (١) حديث « كان يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه ... الحديث » أخرجه الترمذي في المعاجل من حديث علي في أثناء حديث فيه « يعطى كل جلسائه نصيبه لا يحب جلسيه أن أحدا أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يرد إلا بها أو بميسور من القول » ثم قال « مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة » وفيه « يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه » وللترمذي من حديث عبادة بن حارث بن جزء « مرأت أحدنا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال غريب .

خاتمة لهذا الباب

نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق
ملتقطة من كلام بعض الحكماء

إن أردت حسن العشرة فائق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم ، وتوقير من غير كبر ، وتواضع في غير مذلة . وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلما طرفي قصد الأمور ذم . ولا تنظر في عظميتك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشييك أصابعك والعبث بلحيتك وغاتمك وتخليل أسنانك وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصافك وتنخمك وطرده الباب من وجهك وكثرة التقطى والثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها ، وليكن مجلسك هاديا وحديثك منظوما مرتبا واصغ إلى الكلام الحسن من حديثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته ، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك ، ولا تصنع تصنع المرأة في التزين ولا تبدل تبدل العبد وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن ، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلا هنت عندهم وإن كان كثيرا لم تبلغ قط رضاهم ، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك ، وإذا خاضعت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيدك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تبحث على ركبتك ، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفقا بالصبي وكلمه بما يشتهي مالم يكن معصية ، ولا يحملنك لطمه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقا عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تعش وزلة لا تقال ، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع ، وأن تحي بالسلام من قرب منك عند الجلوس .

ولا تجلس على الطريق ، فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياح لموضع البصاق ، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى .

ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الالفاظ والإعراب في الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم - وإن ظهرت لك المودة - وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده ، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدرح في الملك والتعرض للحر .

ولا تجالس العامة ، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم . وإياك أن تمازح ليديا أو غير لييب فإن الليب يحقد عليك والسفيه يجترئ عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الودويشين فقه الفقيه ويجترئ

السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمتته المتقون ، وهو يمت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة ويورث الذللة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب . وقد قيل : لا يكون المزاح إلا من سخط أو بطر . ومن بلى في مجلس بمزاح أو لفظ فليذكر الله عند قيامه قال النبي صلى الله عليه وسلم « من جلس في مجلس فكثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » (١) .

الباب الثالث : في حق المسلم والرحم والجوار والمالك

وكيفية المعاشرة مع من يدل بهذه الأسباب

اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة . وكل مخالط ففي مخالطته أدب والآداب على قدر حقه وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة . والرابطه إما القرابة وهي أخصها أو أخوة الإسلام وهي أعمها ، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة ، وإما الجوار ، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس ، وإما الصداقة أو الأخوة .

ولكل واحد من هذه الروابط درجات . فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم أكد ، وللحرم حق ولكن حق الوالدين أكد . وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البلدى في بلاد الغربية يجرى مجرى القريب في الوطن لاختصاصه بحق الجوار في البلد . وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة . وللمعارف درجات فليس حق الذي عرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسماع بل أكد منه والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط . وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها كحق الصحبة في الدرس والمكتب أكد من حق صحبة السفر . وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة فإن ازدادت صارت محبة فإن ازدادت صارت خلة ، والخليل أقرب من الحبيب ؛ فالمحبة ما تتمكن من حبة القلب والخللة ما تتخلل سر القلب ؛ فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلا ، وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتحرية فأما كون الخللة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخللة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » (٢) ، إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرا وباطنا ويستوعبه ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله وقد منعته الخللة عن الاشتراك فيه مع أنه اتخذ عليا رضي الله عنه أخا فقال « على منى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة » (٣) ، فعدل بعلى عن النبوة كما عدل بأبي بكر عن الخللة ، فشارك أبا بكر عليا رضي الله عنهما في الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخللة وأهليته لها لو كان للشركة في الخللة مجال ، فإنه نبه عليه بقوله « لاتخذت أبا بكر خليلا ، وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله وخليله ، وقد روى أنه صعد المنبر يوما مستبشرا فرحا فقال « إن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، فأنا حبيب الله وأنا خليل الله تعالى » (٤) ، فإذا ليس قبل

(١) حديث « من جلس في مجلس فكثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وصححه .

الباب الثالث : في حقوق المسلم والرحم والجوار

(٢) حديث « لو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري

(٣) حديث « على منى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٤) حديث « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا .. » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ،

دون قوله « فأنا حبيب الله وأنا خليل الله »

المعرفة رابطة ولا بعد الخلطة درجة ، وما سواهما من الدرجات بينهما . وقد ذكرنا حق الصلابة والأخوة ويدخل فيهما ما وراءهما من المحبة والخلطة ، وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة ، حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس والمال ، كما أثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكما أثره طلحة بيده إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز صلى الله عليه وسلم ، فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام وحق الرحم وحق الوالدين ، وحق الجوار ، وحق الملك - أعني ملك اليمين - فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح .

حقوق المسلم

هي : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتحييه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ماتحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك^(١) ورد جميع ذلك في أخبار وآثار . وقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لذنوبهم ، وأن تدعو لمحبهم وأن تحب تائبهم »^(٢) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى (رحماء بينهم) قال : يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم ، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال : اللهم أهده وتب عليه واغفر له عثرته . ومنها أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر أعضائه بالحي والسهر »^(٣) ، وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »^(٤) ، ومنها أن لا يؤذى أحدا من المسلمين بفعل ولا قول ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل : « فإن لم تقدر فدفع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك »^(٦) ، وقال أيضا : « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم أتدرون من المسلم ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ، قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : من هجر السوء واجتنبه »^(٨) ، وقال رجل يارسول الله ما الإسلام

الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم

- (١) هو أن يسلم عليه إذا لقيه فذكر عمر خصال . أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض . واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، ونشيت العاطس » وفي رواية لسلم « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته تسلم عليه » وزاد « وإذا استنصحك فانصح له » وللترمذي وابن ماجه من حديث علي « للمسلم على المسلم ست » فذكر منها « يحب له ما يحب لنفسه » وقال « وينصح له إذا غاب أو شهد » ولأحمد من حديث معاذ « وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك » وفي الصحيحين من حديث البراء : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع فذكر منها « وإبرار القسم ونصر المظلوم » (٢) حديث أنس « أربع من حقوق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لذنوبهم ، وأن تدعو لمحبهم وأن تحب تائبهم » ذكره صاحب الفردوس ولم أجده لساندا (٣) حديث النعمان بن بشير « مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد ... الحديث » متفق عليه (٤) حديث أبي موسى « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه (٥) حديث « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٦) حديث « فإن لم تقدر فدفع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك » متفق عليه من حديث أبي ذر (٧) حديث « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث أبي موسى (٨) حديث « أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم » قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه الطبراني والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد « ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمجاهد من

قال : أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك ، وقال مجاهد : يسلم على أهل النار الجرب فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده ، فينادى : يا فلان : هل يؤذيك هذا ؟ فيقول : نعم ، فيقول : هذا بما كنت تؤذى المؤمنين . وقال صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين ^(١) ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه ؟ يا رسول الله ، علني شيئا أنتفع به . قال : اعزل الأذى عن طريق المسلمين ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ، ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يحل لمسلم أن يئثر إلى أخيه بنظرة تؤذيه ، وقال : لا يحل لمسلم أن يروع مسلما ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يكره أذى المؤمنين ^(٥) ، وقال الربيع ابن خثيم : الناس رجلان ، مؤمن فلا تؤذيه ، وجاهل فلا تجاهله . ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فإن الله لا يحب كل مختال فخور . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ^(٦) ، ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ وعن ابن أبي أوفى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشی مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ^(٧) ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . قال صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة قتات ^(٨) ، وقال الخليل بن أحمد : من ثم لك نعم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك : ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال أبو أيوب الأنصاري : قال صلى الله عليه وسلم : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام ^(٩) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم من أقال مسلما عشرته أقاله الله يوم القيامة ^(١٠) ، قال عكرمة قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب ، بعفوك عن إخوانك رفعت ذكرك في الدارين . قالت عائشة رضي الله عنها : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله ^(١١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما عفا رجل عن مظلة إلا زاده الله بها عزا . وقال

= جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ، ورواه ابن ماجه مقتصرا على « المؤمن والمهاجر » والحاكم من حديث أنس وقال : على شرط مسلم ، والمهاجر من هجر السوء ؛ ولأحمد بإسناد صحيح من حديث عمر بن عبسة : قال رجل يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك ^(١) حديث « لقد رأيت رجلا في الجنة يتقلب في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ^(٢) حديث أبي هريرة : يا رسول الله ، علني شيئا أنتفع به ، قال : اعزل الأذى عن طريق المسلمين ^(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة : قلت يا نبي الله . . . فذكره ^(٤) حديث « من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له بها حسنة ، ومن كتب الله له بها حسنة أوجب له بها الجنة » رواه أحمد من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف ^(٥) حديث « لا يحل لمسلم أن ينظر إلى أخيه بنظر يؤذيه » أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسل بسند ضعيف ، وفي البر والصلة له من زيادات الحسين المروزي حمزة بن عبد الله بن أبي سمى وهو الصواب ^(٦) حديث « إن الله تعالى يكره أذى المؤمنين » أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسل بإسناد جيد ^(٧) حديث « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن حجاز ورجاله رجال الصحيح ^(٨) حديث ابن أبي أوفى : كان لا يأنف ولا يتكبر أن يمشی مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ، أخرجه النسائي بإسناد صحيح ، والحاكم وقال : على شرط الشيخين .

(٨) حديث « لا يدخل الجنة قتات » متفق عليه من حديث أبي أيوب ^(٩) « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث .. الحديث » متفق عليه ^(١٠) حديث « من أقال مسلما عشرته أقاله الله يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم ، وقد تقدم ^(١١) حديث عائشة : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط ، إلا أن تصاب حرمة الله فينتقم لله . متفق عليه بلفظ : إلا أن تنتهك .

صلى الله عليه وسلم « ما نقص مال من صدقة وما زاد الله رجلا بعفو إلا عزاً وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله »^(١) ، ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل . روى علي بن الحسين على أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله »^(٢) ، وعنه بإسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر »^(٣) ، قال أبو هريرة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ولم تكن ترى ركبتة غارجة عن ركبة جليسه ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه »^(٤) ، ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف . قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاستئذان ثلاث فالأولى يستصتتون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون »^(٥) ، ومنها أن يخالف الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب طريقتة فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والامى بالفقه والعبي بالبيان آذى وتأذى . ومنها أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان . قال جابر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله لإكرام ذى الشبهة المسلم »^(٧) ، ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن ، وقال جابر « قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم فقال صلى الله عليه وسلم : مه فأين الكبير »^(٨) ، وفى الخبر « ما وقر شاب شيخاً إلا قبض الله له فى سنة من يوقره »^(٩) ، وهذه بشارة بدوام الحياة فليتنبه لها فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً وتفيض اللثام فيضا وتفيض الكرام غيضا ويحترئ الصغير على الكبير والثلثم على الكريم »^(١٠) ، « والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(١١) . « كان صلى الله عليه وسلم يقدم من السفر فيلتقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه

(١) حديث « ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده « اصنع المعروف إلى أهله ، فإن لم تصب أهله فأنت أهله » ذكره الدارقطني فى اللؤلؤ وهو ضعيف ، ورواه القضاعى فى مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده « اصنع المعروف إلى كل بر وفاجر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، والخطابى فى تاريخ الطالبين ، وعند أبو نعيم فى الحلية دون قوله « واصطناع ... إلى آخره » وقال الطبرانى « التحجب » (٤) حديث أبي هريرة : « كان لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن . ولأبى داود والترمذى وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث أبي هريرة « الاستئذان ثلاث ! فالأولى يستصتتون ، والثانية يستصلحون ، والثالثة يأذنون أو يردون » أخرجه الدارقطني فى الأفراد بسند ضعيف . وفى الصحيحين من حديث أبي موسى « الاستئذان ثلاث ! فإن أذن لك ولا فارجع . (٦) حديث جابر « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا » رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف ، وهو عند أبى داود ، والبخارى فى الأدب من حديث عبد الله بن عمرو بسند حسن (٧) حديث « من إجلال الله لإكرام ذى الشبهة المسلم » أخرجه أبو داود من حديث أبي موسى الأشعرى بإسناد حسن (٨) حديث جابر : « قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام غلام ليتكلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : مه فأين الكبير ؟ » أخرجه الحاكم وصححه (٩) حديث « ما وقر شاب شيخاً إلا قبض الله له فى سنة من يوقره » أخرجه الترمذى من حديث أنس بلفظ « ما أكرم ، ومن يكرمه » وقال حديث غريب . وفى بعض النسخ حسن ، وفيه أبو الرجال وهو ضعيف (١٠) حديث « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً ... الحديث » رواه الحراطينى فى مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن مسعود . وإسنادهما ضعيف (١١) حديث التلطف بالصبيان أخرجه البزار من حديث أنس : « كان من أفسك للناس مع صبي ، وقد تقدم فى النكاح . وفى الصحيحين « يا أبا عمير ما قبل النعير » وغير ذلك

ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم^(١) ، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض : حلتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه وحملك أنت وراعه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراعه ، وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوه بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول : لا تزرموا الصبي بوله فيدعه حتى يقضى بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أهله فيه اثلا يروا أنه تأذى ببوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده^(٢) ، ومنها أن يكون مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه رفيقا . قال صلى الله عليه وسلم : أتدرون على من حرم النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : على اللين الهين السهل القريب^(٣) ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب السهل الطلق الوجه^(٤) ، وقال بعضهم : يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، فقال : إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام^(٥) ، وقال عبد الله بن عمر : إن البر شيء هين ؛ وجه طليق وكلام لين وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ؛ فقال أعرابي : لمن هى يا رسول الله ؟ قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام^(٧) ، وقال معاذ بن جبل : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وخفض الجناح^(٨) ، وقال أنس رضى الله عنه : عرضت لنبي الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت : لى معك حاجة ؛ وكان معه ناس من أصحابه ، فقال : اجلسى فى أى نواحى السكك شئت أجلس إليك ، ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها^(٩) ، وقال وهب بن منبه : إن رجلا من بنى إسرائيل صام سبعين سنة يفطر فى كل سبعة أيام ، فسأل الله تعالى أنه يريه كيف يغوى الشيطان الناس ؟ فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال : لو اطلعت على خطيئتي وذنبى

- (١) حديث : كان يقدم من السفر فتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمرهم فيرفعون إليه . . . الحديث . رواه مسلم من حديث عبد الله بن جعفر : كان إذا قدم من سفر تلقى بيا . قال : فيلقى فى وبالحسن ، وقال : خجل أحدنا بين يديه والآخر خلفه وفى رواية : تلقى بصبيان أهل بيته وأنه قدم من سفر فسبق إلى يديه ثم جىء بأحد ابني فاطمة فأردف خلفه . وفى الصحيحين أن عبد الله بن جعفر قال لابن الزبير : أتذكر إذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس ؟ قال : نعم خجلنا وتركك ، لفظ مسلم . وقال البخارى : أن ابن الزبير قال لابن جعفر ، فأنه أعلم (٢) حديث : كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوه بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه فى حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه . . . الحديث . رواه مسلم من حديث عائشة كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحسبهم فأتى بصبي فبال عليه فدعا بماء فأقبحه بوله ولم يذله . وأصله متفق عليه . وفى رواية لأحمد : فیدعو لهم ، وفيه « صبوا عليه الماء صبا وللدارقى : بال ابن الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذه أخذا غنيا . . . الحديث ، وفيه الحجاج بن أرطاة ضعيف ولأحمد بن منيع من حديث حسن بن على عن امرأة منهم : يئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقيا على ظهره يلعب صبيا ذبال ، فقامت لتأخذه وتضربه فقال : « دعيه ، اتنوى بكوز من ماء . . . الحديث » وإسناده صحيح (٣) حديث « أتدرون على من حرم النار ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال على الهين اللين السهل القريب » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود ولم يقل « اللين » وذكرها الحارثى من رواية محمد بن أبى معيقب عن أمه قال الترمذى حسن غريب (٤) حديث أبى هريرة « أن الله يحب السهل الطلق » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان بإسناد ضعيف ورواه من رواية مورق المجلى مرسل (٥) حديث « أن من واجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » أخرجه ابن أبى شبة فى مصنفه والطبرانى والحارثى فى مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث هاشم بن يزيد بإسناد جيد (٦) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة . . . الحديث » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وهم فى الزكاة (٧) حديث « أن فى الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها . . . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث على وقال حديث غريب . قلت وهو ضعيف (٨) حديث « معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه الحارثى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى كتاب الزهد وأبو نعيم فى الحلية ولم يقل البيهقى « وخفض الجناح » وإسناده ضعيف (٩) حديث أنس « عرضت أنس « عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت لى معك حاجة فقال اجلسى فى أى نواحى السكك شئت أجلس إليك . . . الحديث » رواه مسلم

يبنى وبين ربى لكان خيرا الى من هذا الأمر الذى طلبته ، فأرسل الله إليه ملكا فقال له : إن الله أرسلني إليك وهو يقول لك : إن كلامك هذا الذى تكلمت به أحب إلى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح الله بصرك فانظر ، فظرفا إذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب فقال : أى رب من ينجو من هذا ؟ قال : الورع اللين . ومنها أن لا يعد مسلما بوعده إلا وفى به قال صلى الله عليه وسلم « العدة عطية ^(١) » وقال « العدة دين ^(٢) » ، وقال « ثلاث فى المنافق : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ^(٣) » ، وقال « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى ^(٤) » ، وذكر ذلك ومنها أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتى إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه قال صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام ^(٥) » ، وقال عليه السلام « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ^(٧) » ، قال الحسن : أوحى الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال وقال : فيهن جماع الأمر لك ولولدك ، واحدة لى واحدة لك واحدة بينى وبينك واحدة بينك وبين الخلق ، فأما التى لى : تعبدنى ولا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك : فعملك أجزيك به أفقر ماتكون إليه ، وأما التى بينى وبينك : فعليك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين الناس فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال : أى رب أى عبادك أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه . ومنها أن يزيد فى توقيير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم . روى أن عائشة رضى الله عنها كانت فى سفر فنزلت منزلا فوضعت طعامها ، فجاء سائل فقالت عائشة : ناولوا هذا المسكين قرصا ، ثم مر رجل على دابة فقالت : ادعوه إلى الطعام . فقيل لها : تعطين المسكين وتدعين هذا الغنى ؟ فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لا بد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل ، هذا المسكين يرضى بقرص وقبيح بنا أن نعطي هذا الغنى على هذه الهيئة قرصا . وروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ ؛ فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكانا فتعد على الباب فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فالتقاء إليه وقال له : اجلس على هذا فأخذه جرير ووضع على وجهه وجعل يقبله ويبكى ، ثم لفه ورمى به إلى النبی صلى الله عليه وسلم وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ؛ أكرمك الله كما أكرمتنى ، فظفر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا ثم قال « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ^(٨) » ، وكذلك كل من له عليه حق قديم

(١) حديث « العدة عطية » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ثابت بن أشيم بسند ضعيف (٢) حديث « العدة دين » رواه الطبرانى فى معجميه الأوسط والأوسط والأمن من حديث على وابن مسعود بسند فيه جهالة ورواه أبو داود فى المراسيل (٣) حديث « ثلاث فى المنافق : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه (٤) حديث « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى » رواه البخارى من حديث أبى هريرة وأسنده متفق عليه ولفظ مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وهذا ليس فى البخارى (٥) حديث « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقع البخارى عليه (٦) حديث « من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص نحوه والخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظه (٧) حديث « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تسكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تسكن مسلما » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف والمعروف أنه قاله لأبى هريرة وقد تقدم (٨) حديث « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وفى أوله قصة فى قدوم جرير بن عبد الله أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وتقدم فى الزكاة مختصرا .

فليكرمه . روى أن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه ثم قال لها مرحبا بأبي ثم أجلسها على الرداء ثم قال لها اشفعي تشفعى وسلي تعطى فقالت : قومي فقال : أما حقى وحق بنى هاشم فهو ذلك ؛ فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحقتنا يا رسول الله . ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانه بخين ^(١) ، فبيع ذلك من عثمان بن عفان رضى الله عنه بمائة ألف درهم ، ولربما أتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فينزعها ويضعها تحت الذى يجلس إليه فإن أبى عزم عليه حتى يفعل ^(٢) ، ومنها أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلا . قال صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى قال : إصلاح ذات البين وفساد ذات البين هي الحالقة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة لإصلاح ذات البين ^(٤) » ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس رضى الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما الذى أضحكك ؟ قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يارب خذلى مظلتي من هذا ، فقال الله تعالى : رد على أخيك مظلته . فقال : يارب لم يبق لي من حسناتي شيء ، فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء ؟ فقال : يارب فليحمل عني من أوزاري . ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال : فيقول الله تعالى - أى للتظلم - ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ لآلى نبى هذا أو لآلى صديق أو لآلى شهيد ؟ قال الله تعالى : هذا لمن أعطى الثمن قال : يارب ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه ، قال : بماذا يارب ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال : يارب قد عفوت عنه ، فيقول الله تعالى : خذيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة ^(٥) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ^(٦) ، وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه قال صلى الله عليه وسلم : « كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب ^(٧) » . فإن الحرب خدعة أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما أو يكذب لامرأته ليرضيها ، ومنها أن يستر عورات المسلمين كلهم قال صلى الله عليه وسلم : « من ستر على مسلم ستره الله

(١) حديث « إن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه .. الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي الطفيل مختصرا في بسط رداءه لها دون ما بعده

(٢) حديث « نزع صلى الله عليه وسلم وسادته ووضعها تحت الذى يجلس إليه » أخرجه أحد من حديث ابن عمرو « أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فألقى إليه وسادة من آدم حشوها ليف .. الحديث » وإسناده صحيح والطبراني من حديث سلمان « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكئ على وسادة فألقاه إلى .. الحديث » وسنده ضعيف قال صاحب الميزان هذا خبر ساقط

(٣) حديث « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة » رواه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبي الرداء (٤) حديث « أفضل الصدقة لإصلاح ذات البين » أخرجه الطبراني في الكبير والخراطى في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقى ضعفه الجمهور .

(٥) حديث أنس « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر يا رسول الله بأبى وأمى ما الذى أضحكك ؟ قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذلى مظلتي من هذا ... الحديث » أخرجه الخراطى في مكارم الأخلاق والحاكم وقال صحيح الإسناد وكذا أبو يعلى الموصلى أخرجه بطول وضعفه البخارى وابن حبان

(٦) حديث « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا » متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط

(٧) حديث « كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب .. الحديث » أخرجه الخراطى في مكارم الأخلاق من حديث النواس بن سيمان وفيه انقطاع وضعف ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة .

تعالى في الدنيا والآخرة ^(١) ، وقال « لا يستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة » ^(٢) ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم لما أخبره « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » ^(٤) ، فإذاً على المسلم أن يستر عورة نفسه حتى لإسلامه واجب عليه كحق لإسلام غيره . قال أبو بكر رضي الله عنه : لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله . وروى أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلا وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس : رأيتم لو أن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين ؟ قالوا : إنما أنت إمام ، فقال على رضي الله عنه : ليس ذلك لك ، إذا يقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ، ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم ، فقال القوم مقاتلهم الأولى ، فقال على رضي الله عنه : مثل مقاتله الأولى . وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان مترددا في أن الوالي هل له أن يقضي بعله في حدود الله ؟ فلذلك راجعهم في معرض التقدير لا في معرض الإخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفا بإخباره ، ومال رأي على إلى أنه ليس له ذلك . وهذان أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أحشأ الزنا ، وقد نيط بأربعة من العدول - يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالمرود في المكحلة - وهذا قط لا يتفق . وإن عله القاضي تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه . فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات . ثم انظر إلى كشف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه ؟ فخرجوا أن لا نحرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر : ففي الحديث « إن الله إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى » ^(٥) ، وعن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال : خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة فيبينان نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال : أتدرى بيت من هذا ؟ قلت : لا ، فقال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فأتري ؟ قلت : أرى أنا قد أتيننا ما هنا الله عنه قال الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم وهذا يدل على وجوب الستر وترك التبصع وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية « لأنك إن تلعبت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » ^(٦) ، وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع عورته ومن يتبع عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته » ^(٧) ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى

(١) حديث « من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وللشيعين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٢) حديث « لا يستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم من حديث أبي هريرة أيضا (٣) حديث أبي سعيد الخدري « لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة » رواه الطبراني في الأوسط والصنير والخرائط في مكارم الأخلاق واللفظ له بسند ضعيف (٤) حديث « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » رواه أبو داود والنسائي من حديث نعيم بن هزال والحاكم من حديث هزال نفسه وقال صحيح الإسناد ونعيم مختلف في صحبته (٥) حديث « لأن الله إذا ستر على عبده عورة في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه في الآخرة .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث على « من أذنب ذنبا في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فإله أكرم من أن يرجع في شيء قد عفا عنه ومن أذنب ذنبا في الدنيا فعوقب عليه فإله أعدل من أن يثني العقوبة على عبده » أفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولمسلم من حديث أبي هريرة « لا ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره يوم القيامة » (٦) حديث « لأنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » قاله لمعاوية أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث معاوية (٧) حديث « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد ولترمذي من حديث ابن عمر وحسنه .

ما أخذته ولا دعوت له أحدا حتى يكون معي غيري . وقال بعضهم : كنت قاعدا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذ جاءه رجل بآخر ، فقال : هذا نشوان ، فقال عبد الله بن مسعود : استكبهوه فاستكبهوه فوجدته نشوانا لحبسه حتى ذهب سكره ، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ثم قال للجلاد : اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه لجلده وعليه قباء أو مرط : فلما فرغ قال للذي جاء به : ما أنت منه ؟ قال : عمه ، قال عبد الله : ما أدبت فأحسنت الأدب ولا سترت الحرمة ! إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه وإن الله عفو يحب العفو ثم قرأ ﴿ وليعفوا وليصْفحوا ﴾ ثم قال : إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه ، فقالوا : يا رسول الله كأنك كرهت قطعه ، فقال : وما ينبغي ! لا تكفروا عونا للشياطين على أخيك ؟ فقالوا : ألا عفوت عنه ؟ فقال : إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حد أن يقيمه إن الله عفو يحب العفو وقرأ ﴿ وليعفوا وليصْفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ ^(١) ، وفي رواية فكأنما سفي في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لشدة تغيره وروى أن عمر رضي الله عنه كان يحس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى فأتوه عليه فوجدوه عنده امرأة وعنده خمر ، فقال : يا عدو الله أظننت أن الله يترك وأنت على مصيئته ؟ فقال : وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاثا قال الله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست وقال الله تعالى ﴿ وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وقد تسورت على وقد قال الله تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوت غير بيوتكم ﴾ الآية وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام ، فقال عمر رضي الله عنه : هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عني لأعود إلى مثلها أبدا فعفا عنه وخرج وتركه . وقال رجل لعبد الله بن عمر : يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعته يقول : إن الله ليدين منه المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول : نعم يا رب ، حتى إذا قرره بذنوبه فرأى في نفسه أنه قد هلك قال له : يا عبدى إني لم أسترها عليك في الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسنة . وأما الكافرون والمنافقون ﴿ فتقول الآشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : كل أمتي معاني إلا المجاهرين ^(٣) ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل السوء سرا ثم يخبر به وقال صلى الله عليه وسلم : من استمع خبر قوم وهو له كارهون صب في أذنه الآنك يوم القيامة ^(٤) ، ومنها أن يتقى مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن العيبة فإنهم إذا عصوا الله بذكروه وكان هو السبب فيه كان شريكا قال الله تعالى ﴿ ولا نسبوا الذي يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : كيف ترون من يسب أبويه فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال : نعم يسب أبوى غيره فيسبون أبويه ^(٥) ، وقد روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نساءه فزبه رجل فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا فلان هذه زوجتي صفية فقال :

(١) حديث ابن مسعود « إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد واخر اطل في مكارم الأخلاق : فكأنما سفي في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد .. الحديث (٢) حديث ابن عمر « إن الله عز وجل ليدين المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس فيقول أتعرف ذنب كذا .. الحديث عليه (٣) حديث « كل أمتي معاني إلا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث « من استمع من قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة » رواه البخاري من حديث ابن عباس مرفوعا وموقوفا عليه وعلى أبي هريرة أيضاً . (٥) حديث « كيف ترون من سب أبويه فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو نحوه .

يارسول الله من كنت أظن فيه فإن لم أكن أظن فيك ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ^(١) ، وزاد في رواية : « إنى خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا وكانا رجلين فقال : على رسلكما إنها صفة ^(٢) ... الحديث ، وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان : وقال عمر رضى الله عنه : من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن . ومر رجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال : يا أمير المؤمنين ، إنها امرأتى فقال : هلاحيث لا يراك أحد من الناس ؟ ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه قال صلى الله عليه وسلم : « إنى أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندى فاشفعوا لتؤجروا ويقضى الله على يدي نبيي ما أحب ^(٣) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اشفعوا إلى لتؤجروا إلى أريد الأمر وأؤخره كي تشفعوا إلى فتؤجروا ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان قيل وكيف ذلك ؟ قال : الشفاعة يحقن بها الدم وتجربها المنفعة إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخر ^(٤) » وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كآنى أنظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه تسيل على لحيته ، فقال صلى الله عليه وسلم للعباس : ألا تعجب من شدة حب مغيث لبريرة وشدة بغضها له ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو راجعته فإنه أبو ولدك ، فقالت : يارسول الله أنا أمرنى فافعل ؟ فقال : لا إنما أنا شافع ^(٥) » ومنها أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصالحه عند السلام قال صلى الله عليه وسلم : « من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه حتى يبدأ بالسلام ^(٦) » ، وقال بعضهم : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ارجع فقل السلام عليكم أدخل ^(٧) » ، وروى جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته ^(٨) » ، وقال أنس رضى الله عنه خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لى : « يا أنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك وسلم على من لقيته من أمتى تكثر حسناتك وإذا دخلت منزلك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك ^(٩) » ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المؤمنان فتصالحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسع وستون لأحسنهما بشرا » وقال تعالى ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وقال عليه السلام : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم ؟ قالوا . بلى يارسول الله ،

(١) حديث أنس : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم لحدى نساءه فرب به رجل فدعاه فقال يا فلان هذه زوجتى فلا ... الحديث » وفيه « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » رواه مسلم (٢) حديث : « إنى خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا وقال على رسلكما إنها صفة » متفق عليه من حديث صفة (٣) حديث : « إنى أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندى فاشفعوا لتؤجروا ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى موسى نحوه (٤) حديث : « ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان .. الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له فى الكبير من حديث سمرة بن جندب ضعيف (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس : « أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كآنى أنظر إليه خلفها يبكي ... الحديث » رواه البخارى (٦) حديث : « من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى اليوم واليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين (٧) حديث : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال صلى الله عليه وسلم : « ارجع فقل السلام عليكم أدخل » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة (٨) حديث جابر : « إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وفيه ضعف . (٩) حديث أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لى : « يا أنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك وسلم على من لقيته من أمتى تكثر حسناتك وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقى فى الشعب واستاده ضعيف والترمذى وصححه « إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك »

قال : أفشوا السلام بينكم ^(١) ، وقال أيضا : إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم ولا يسلم عليه ^(٣) ، وقال عليه السلام : يسلم الراكب على المشاة وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم ^(٤) ، وقال قتادة : كانت تحية من كان قلمكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام وهي تحية أهل الجنة . وكان أبو مسلم الخولاني يمر على قوم فلا يسلم عليهم ويقول : ما يمنعني إلا أني أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة . والمصافحة أيضا سنة مع السلام وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فقال عليه السلام : عشر حسنات ، فجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله فقال عشرون حسنة ، فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : ثلاثون ^(٥) ، وكان أنس رضي الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم ^(٦) ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك . وروى عبد الحميد ابن بهرام : أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام ، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية ^(٧) . فقال عليه السلام : لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا قفتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه ^(٨) ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصافحوا أهل الذمة ولا تبدءوهم بالسلام فإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطرق .

قالت عائشة رضي الله عنها : إن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت بل عليكم السام واللغة فقال عليه السلام : يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء ، قالت عائشة : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : فقد قلت عليكم ^(٩) ، وقال عليه السلام : يسلم الراكب على المشاة والمشاة على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير ^(١٠) ، وقال عليه السلام : لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف ^(١١) ، قال أبو عيسى إسناده ضعيف .

وقال عليه السلام : إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم فلا يست

(١) حديث « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث « إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة ولم يسنده ولده في المسند (٣) حديث : الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه . لم أنفله على أسل (٤) حديث « يسلم الراكب على المشاة وإذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم » رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم مرسل ولأبي داود من حديث علي « يجزى عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « يسلم الراكب على المشاة ... الحديث » وسيأتي في بقية الباب (٥) حديث : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال سلام عليك فقال صلى الله عليه وسلم : عشر حسنات ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عمران ابن حصين قال الترمذي حسن غريب وقال البيهقي في الشعب إسناده حسن (٦) حديث أنس : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعه متفق عليه (٧) حديث عبد الحميد بن بهرام : أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فألقى بيده بالتسليم وأشار عبد الحميد بيده أخرجه الترمذي من رواية عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وقال حسن وابن ماجه من رواية ابن أبي حنبل عن شهر ورواه أبو داود وقال أحمد لا بأس به (٨) حديث « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ... الحديث » رواه مسلم من حديث أبي هريرة

(٩) حديث عائشة : إن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك ... الحديث « متفق عليه (١٠) حديث « يسلم الراكب على المشاة والمشاة على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير » متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل مسلم « والصغير على الكبير » (١١) حديث « لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال إسناده ضعيف

الأولى بأحق من الأخيرة^(١) ، وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المؤمنان فتصالحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسعة وستون لأحسنهما بشرا^(٢) » ، وقال عمر رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إذا التقى المسلمان وسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصالحا نزلت بينهما مائة رحمة للبادئ تسعون وللصافح عشرة^(٣) » ، وقال الحسن : المصافحة تزيد في الود . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تمام نحياتكم المصافحة^(٤) » ، وقال عليه السلام « قبله المسلم أخاه المصافحة^(٥) » ، ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركا به وتوقيرا له . وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم^(٦) ، وعن كعب بن مالك قال : لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده^(٧) ، وروى أن أعرابيا قال : يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك قال : فأذن له ففعل^(٨) ، ولقي أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصالحه وقبل يده وتنحيا يبيكان وعن البراء بن عازب رضي الله عنه : أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومد يده إليه فصالحه فقال : يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المسلمين إذا التقيا فتصالحا تحات ذنوبهما^(٩) » ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه مائة خير منهم وأطيب - أو قال وأفضل -^(١٠) » ، والانعناء عند السلام منهى عنه قال أنس رضي الله عنه : قلنا يا رسول الله أينحن بعضنا لبعض ؟ قال « لا » ، قال : فيقبل بعضنا بعضا ؟ قال « لا » ، قال : فيصافح بعضنا بعضا ؟ قال « نعم^(١١) » ، والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر^(١٢) ، وقال أبو ذر رضي الله عنه : ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحي ، وطلبتني يوما فلم أكن في البيت فلما أخبرت جئت وهو على سرير فالتزمني فكانت أجود وأجود^(١٣) .

(١) حديث « إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بداله أن يجلس فليجلس » ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أنس « إذا التقى المسلمان فتصالحا قسمت بينهما سبعون رحمة ... الحديث » أخرجه الخرائطي بسند ضعيف والطيبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « مائة رحمة وتسعون لأحسنهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسألة لأخيه » وفيه الحسن بن كثير بن يحيى بن أبي كثير مجهول (٣) حديث عمر بن الخطاب « إذا التقى المسلمان فسلم كل واحد على صاحبه وتصالحا نزلت بينهما مائة رحمة ... الحديث » أخرجه البزار في مسنده والخرائط في مكارم الأخلاق والفظ له والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر (٤) حديث أبي هريرة « تمام نحياتكم بينكم المصافحة » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة وضعفه (٥) حديث « قبله المسلم أخاه المصافحة » أخرجه الخرائطي وابن عدي من حديث أنس وقال غير محفوظ (٦) حديث ابن عمر : قبلنا يد رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه أبو داود بسند حسن (٧) حديث كعب بن مالك : « لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده » أخرجه أبو بكر بن المرقى في كتاب الرخصة في تهليل اليد . بسند ضعيف (٨) حديث : أن أعرابيا قال يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل . أخرجه الحاكم من حديث بريدة إلا أنه قال « رجليك » موضع « يدك » وقال صحيح الإسناد . (٩) حديث البراء بن عازب : أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ومد يده إليه فصالحه ... الحديث . رواه الخرائطي بسند ضعيف وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصرا « بامن مسلمين يلتقيان فتصالحان لا يغفر لهما قبل أن يتفرقا » قال الترمذي حسن غريب من حديث أبي إسحق عن البراء (١٠) حديث « إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه مائة خير منهم وأطيب » أخرجه الخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعا وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفا عليه بسند صحيح (١١) حديث أنس : قلنا يا رسول الله أينحن بعضنا لبعض ؟ قال « لا » الحديث . أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي (١٢) حديث : « الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر » أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت : قدم زيد بن حارثة ... الحديث » وفيه « فاعتقه وقبله » وقال حسن غريب (١٣) حديث أبي ذر : ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحي ... الحديث . أخرجه أبو داود وفيه رجل من عزة لم يسم وسمه البيهقي في الشعب عبد الله

والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت ^(١) وأخذ عمر يفرز زيد حتى رفعه وقال : هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد .

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام قال أنس : ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك ^(٢) وروى أنه عليه السلام قال مرة : « إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم » ^(٣) ، وقال عليه السلام : من سره أن يمثل له الرجاى قياما فليتبوأ مقعده من النار ^(٤) ، وقال عليه السلام : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا ^(٥) ، وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهى . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أخذ القوم بمجالسهم فإن دعا أحد أعاء فأوسع له فليأته فإنما هي كرامة أكرمه بها أخوه فإن لم يوسع له فليتنظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه » ^(٦) ، وروى أنه سلم رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فلم يجب ^(٧) فيكره السلام على من يقضى حاجته ، ويكره أن يقول ابتداء : عليك السلام ، فإنه قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : « إن عليك السلام تحية الموتى ، قالها ثلاثا ، ثم قال : إذا لقي أحدكم أخاه فليقل السلام عليكم ورحمة الله » ^(٨) ، ويستحب للدخول إذا سلم ولم يجد مجلسا أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد إذا قبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها وأما الثاني فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة . أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا ^(١٠) ، وسالت أم هانئ على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ؟ ، فقيل له : أم هانئ فقال عليه السلام : « مرحبا بأم هانئ » ^(١١) .

ومنها أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ويرد عنه ويناضل دونه وينصره فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام . روى أبو الدرداء : أن رجلا نال من رجل - ند رسول الله صلى الله عليه وسلم -

- (١) حديث : أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت . تقدم في العلم
- (٢) حديث أنس : ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك . أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح . (٣) حديث : « إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال « كما يقوم الأعاجم » وفيه أبو العديس مجهول (٤) حديث : من سره أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث معاوية وقال حسن
- (٥) حديث : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا » متفق عليه من حديث ابن عمر
- (٦) حديث : « إذا أخذ القوم بمجالسهم فإن دعا رجل أخاه فأوسع - يعنى له - فليجلس فإنه كرامة من الله عز وجل ... الحديث » أخرجه البهوتى في معجم الصحابة من حديث ابن شعبة ورجاله ثقات وابن شعبة هذا ذكره أبو موسى المدينى في ذيله في الصحابة وقد رواه الطبرانى في الكبير من رواية مصعب بن شيبة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر منه ، وشيعة بن جبيرة والدمصور ليست له حجة (٧) حديث : أن رجلا سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فلم يجب . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر بلفظ : فلم يرد عليه (٨) حديث : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليك السلام فقال « إن عليك السلام تحية الميت ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى في اليوم واللييلة من حديث ابن جري الهيمى وهو صاحب القصة قال الترمذى حسن صحيح (٩) حديث : كان صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد إذا قبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها .. الحديث . متفق عليه من حديث أبي واقد الليثى
- (١٠) حديث : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث البراء بن عازب (١١) حديث : سالت أم هانئ على النبي صلى الله عليه وسلم فقال « مرحبا بأم هانئ » أخرجه مسلم من حديث أم هانئ

عليه وسلم فرد عنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »^(٢) ، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره أذله الله بها في الدنيا والآخرة ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة »^(٣) ، وقال عليه السلام « من حرم عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله تعالى له ملكاً يحميه يوم القيامة من النار »^(٤) ، وقال جابر وأبو طلحة : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتهك فيه عرصه ويستحل حرمة إلا أنصره الله في موطن يحب فيه نصره وما من امرئ خذل مسلماً في موطن ينتهك فيه حرمة إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته »^(٥) .

ومنها تسميت العاطس . قال عليه الصلاة والسلام في العاطس « يقول . الحمد لله على كل حال ، ويقول الذي يشمته : يرحمكم الله ، ويرد عليه العاطس فيقول : يهديكم الله ويصلح بالكم »^(٦) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا يقول « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين ، فإذا قال ذلك فليقل من عنده : يرحمك الله فإذا قالوا ذلك فليقل : يغفر الله لي ولكم »^(٧) ، وسمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطساً ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يشمت العاطس المسلم إذا عطس ثلاثاً فإنا نضع عاتساً ثلثاً فلعطس أخرى فقال « إنك مزكوم »^(٩) ، وقال أبو هريرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس غضض صوته واستتر بثوبه أو يده »^(١٠) . وروى : خمر وجهه . وقال أبو موسى الأشعري : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول « يهديكم الله »^(١١) . وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه : أن رجلاً عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ربنا ويرضى والحمد لله على كل حال ،

(١) حديث أبي الدرداء « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار » أخرجه الترمذي وحسنه (٢) حديث « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » أخرجه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بنحوه والخراطي في مكارم الأخلاق وهو عند الطبراني بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء وفيها شهر بن حوشب (٣) حديث أنس « من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها في الدنيا والآخرة ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصرًا على ما ذكره منه وإسناده ضعيف

(٤) حديث « من حرم عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكاً يحميه يوم القيامة من النار » أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن أنس بنحوه بسند ضعيف (٥) حديث جابر وأبي طلحة « ما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتهك فيه من عرصه ويستحل حرمة ... الحديث » أخرجه أبو داود مع تقديم وتأخير واختلف في إسناده (٦) حديث « يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذي يشمته يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم » أخرجه البخاري وأبو داود من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري « على كل حال » (٧) حديث أبي مسعود « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين .. الحديث » أخرجه النسائي في اليوم والليلة وقال حديث منكر ورواه أيضاً أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبد الله واختلف في إسناده

(٨) حديث : سمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطساً ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت » متفق عليه من حديث أنس (٩) حديث « سمتوا المسلم إذا عطس ثلاثاً فإنا نضع عاتساً ثلثاً فلعطس أخرى فقال « إنك مزكوم » أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث أبي هريرة : كان إذا عطس غضض صوته وستر بثوبه أو يده . أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وفي رواية لأبي نعيم في اليوم والليلة « خمر وجهه وقاه » (١١) حديث أبي موسى : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول « يهديكم الله » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صاحب الكلمات ؟ » فقال : أنا يا رسول الله ما أردت بهن إلا خيرا ، فقال لقد رأيت اثني عشر ملكا كلهم يبتدرونها أيهم يكتبها ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من محض عنده فسبق إلى الحمد لم يشترك خاصرته ^(٢) » وقال عليه السلام : العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه ، فإذا قال : هاها ، فإن الشيطان يضحك من جوفه ^(٣) ، وقال إبراهيم النخعي : إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله . وقال الحسن : يحمده الله في نفسه . وقال كعب : قال موسى عليه السلام يا رب أقرب أنت فأنا جليك أم بعيد فأنا ديك ؟ فقال : أنا جليس من ذكرني فقال : فإننا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها كالجنابة والغائط ، فقال : اذكرني على كل حال .

ومنها أنه إذا بلى بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه قال بعضهم : خالص المؤمن خالصة وخالق الفاجر مخالفة فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر . وقال أبو الدرداء : إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلغهم وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره قال الله تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ قال ابن عباس في معنى قوله ﴿ ويدبرون بالحسنة السيئة ﴾ أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة . وقال في قوله تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ قال بالرغبة والرغبة والحياء والمداراة . وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، فلما دخل ألان له القول حتى أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له ، لما دخل قلت الذي قلت ، ثم أئنت له القول فقال : يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء خشفه ^(٤) ، وفي الخبر : ما وقى الرجل به عرضه فهو له صدقة ^(٥) .

وفي الآثار . خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب . وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا .

ومنها أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم أحيني مسكينا وأمتي مسكينا واحشرنى في زمرة المساكين ^(٦) » وقال كعب الأحبار . كان سليمان عليه السلام في ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكينا جلس إليه وقال : مسكين جالس مسكينا . وقيل ما كان من كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له يا مسكين . وقال كعب الأحبار : ما في القرآن من ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهو في التوراة « يا أيها المساكين » وقال عبادة بن الصامت . إن للنار سبعة أبواب ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين وقال الفضيل : بلغني أن نبيا من الأنبياء قال : يارب كيف لي أن أعلم رضاك عني ؟ فقال . انظر كيف رضا المساكين عنك . وقال عليه الصلاة والسلام « إياكم ومجالسة الموتى ، قيل ومن الموتى يا رسول الله ؟ قال : الأغنياء ^(٧) » وقال موسى : إلهي أين أبغيتك ؟ قال عند المكسرة قلوبهم . وقال صلى الله عليه وسلم ، لا تقبطن فاجرا

(١) حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة : أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ... الحديث « أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وإسناده جيد
(٢) حديث « من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشترك خاصرته » أخرجه الطبراني في الأوسط وفي الدعاء من حديث علي بن سعيد
(٣) حديث « العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله « العطاس من الله » فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم واليلة وقال البخاري « لأن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ... الحديث »
(٤) حديث عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ... الحديث » متفق عليه
(٥) حديث « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة » أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث جابر وضعفه
(٦) حديث « اللهم أحيني مسكينا وأمتي مسكينا واحشرنى في زمرة المساكين » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أنس بن مالك والترمذي من حديث عائشة وقال غريب
(٧) حديث « إياكم ومجالسة الموتى وما الموتى ؟ قال الأغنياء » أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصححه وإسناده من حديث عائشة « إياكم ومجالسة الاغنياء »

بنعمة فإنك لا تدري إلى ما يصير بعد الموت فإن من ورائه طالبا حيثاً^(١) ، وأما اليتيم فقال صلى الله عليه وسلم « من ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة ألبتة »^(٢) ، وقال عليه السلام « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وهو يشير بأصبعيه »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من وضع يده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه »^(٥) .

ومنها النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن يحب للمؤمن كما يحب لنفسه »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى فيه شيئاً فليمطه عنه »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أولم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين »^(٩) ، وقال عليه السلام « من فرج عن مؤمن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة »^(١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقيل كيف ينصره ظالماً ؟ قال « يمنع من الظلم »^(١١) ، وقال عليه السلام « إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن أو أن يفرج عنه غماً أو يقضى عنه ديناً أو يطعمه من جوع »^(١٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من حمى مؤمناً من منافق يعتنه بعث الله إليه ملكاً يوم القيامة يحمى لحمه من نار جهنم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر لعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من البر الإيمان بالله والتفجع لعباد الله »^(١٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يهتم للمسلمين فليس منهم »^(١٤) ، وقال معروف الكرخي ، من قال كل يوم ، اللهم أرحم أمة محمد كتبته الله من الأبدال - وفي رواية

(١) حديث « لا تنظن فاجراً بنعمة ... الحديث » رواه البخاري في التاريخ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٢) حديث « من ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة ألبتة » أخرجه أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمر وفيه على بن زيد بن جندب متسكلم فيه . (٣) حديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « من وضع يده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة » أخرجه أحمد والطبراني بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة دون قوله « ترحماً » ولا بن حبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى « من مسح يده على رأس يتيم رحمه له ... الحديث » . (٥) حديث « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه ضعف . (٦) حديث « المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه » تقدم بلفظ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ولم أره بهذا اللفظ . (٧) حديث « إن أحدكم مرآة أخيه ... الحديث » رواه أبو داود والترمذي وقد تقدم . (٨) حديث « من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره » أخرجه البخاري في التاريخ والطبراني والحرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسل . (٩) حديث « من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أولم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين » أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس « لأن يعنى أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته - وأشار بأصبعه - أفضل من أن يعتكف في مسجدك هذا شهرين » والطبراني في الأوسط « من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكافه عشر سنين » وكلاهما ضعيف . (١٠) حديث « من فرج عن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة » أخرجه الحرائطي في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من حديث أنس بلفظ « من أغاث مظلوماً » . (١١) حديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

(١٢) حديث « إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن ... الحديث » أخرجه الطبراني في المعجم والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (١٣) حديث « خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر بعباد الله ... الحديث » ذكره صاحب الزردوس من حديث علي ولم يستدله ولده في مسنده . (١٤) حديث « من لم يهتم للمسلمين فليس منهم » أخرجه الحاكم من حديث حذيفة والطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر وكلاهما ضعيف .

أخرى - اللهم أصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد - كل يوم ثلاث مرات - كتبه الله من الأبدال ، وبكى على بن الفضيل يوماً ف قيل له ما يبكيك ؟ قال : أبكى على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى وسئل عن ظله ولم تكن له حجة .

ومنها أن يعود مرضاهم فالمعرفة والإسلام كافيان في إثبات هذا الحق ونيل فضله . وأدب العائذخفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وخض البصر عن عورات الموضع . وعند الاستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول : أنا ، إذا قيل له : من ؟ ولا يقول ، يا غلام ، ولكن يحمد ويسبح وقال صلى الله عليه وسلم ، تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده ويسأله كيف هو وتسام تحياتكم المصافحة ، وقال صلى الله عليه وسلم « من عاد مريضاً قعد في مخارف الجنة حتى إذا قام وكل به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى الليل ^(١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا عاد الرجل المريض غاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوات منزلاً في الجنة ^(٣) » ، وقال عليه السلام « إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال : انظرا ماذا يقول لعواده ؟ فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : لعبدي على إن توفيته إن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدل له لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وإن أكفر عنه سيئاته ^(٤) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يصب منه ^(٥) » ، وقال عثمان رضي الله عنه مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شرماتجده ، فأها مراراً ^(٦) » ودخل صلى الله عليه وسلم على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض فقال له « قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك أو صبراً على بليتك أو خروجاً من الدنيا إلى رحمتك فإنك ستعطي إحداهن ^(٧) » ، ويستحب للعليل أيضاً أن يقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا شكا أحدكم بطنه فليسال امرأته شيئاً من صداقها ويشترى به عسلاً ويشربه بماء السماء فيجتمع له الهنيء والمرى والشفاء

(١) حديث « من عاد مريضاً قعد في مخارف الجنة ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن والحاكم من حديث علي « من أتى أخاه المسلم عائداً مضى في خرافة الجنة حتى يجلس فإذا جلس عمرته الرحمة فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي ولن كان مساء ... الحديث » لفظ ابن ماجه وصححه الحاكم وحسنه الترمذي والمسلم من حديث ثوبان « من عاد مريضاً لم يزل في خرافة الجنة . » (٢) حديث « إذا عاد الرجل المريض غاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه » أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث جابر وقال « انفس فيها » قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر ، وذكره مالك في الموطأ بلافا بلفظ « قرت فيه » ورواه الواقدي بلفظ « استقر فيها » وللطبراني في الصغير من حديث أنس « فإذا قعد عنده عمرته الرحمة » وله في الأوسط من حديث كعب بن مالك وعمر بن حزم « استنقع فيها » . (٣) حديث « إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوات منزلاً في الجنة » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة لا أنه قال « ناداه مناد » قال الترمذي غريب قلت فيه عيسى بن سنان القسطل ضعفه الجمهور . (٤) حديث « إذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال انظرا ما يقوله لعواده الحديث » أخرجه مالك في الموطأ مرسل من حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبد البر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري وفيه عباد بن كثر التقي ضعيف الحديث والبيهقي من حديث أبي هريرة قال الله تعالى « إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عواده أطلقته من أسارى ثم أبدله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » وإسناده جيد : (٥) حديث « من برداة به خيراً يصب منه » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٦) حديث عثمان : مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الواحد الصمد ... الحديث » أخرجه ابن السني في اليوم والليلة والطبراني والبيهقي في الأدعية من حديث عثمان بن عفان بإسناد حسن . (٧) حديث : دخل علي بن أبي طالب وهو مريض فقال « قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يشتكي ولم يسم علياً . وروى البيهقي في الدعوات من حديث عائشة : أن جبريل علما للنبي صلى الله عليه وسلم وقال إن الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكلمات .

والمبارك . وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار ، قلت : بلى يا رسول الله قال « يقول لا إله إلا الله يحيي ويميت وهو حي لا يموت سبحانه الله رب العباد والبلاد والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال . الله أكبر كبيرا إن كبرياء ربنا وجلاله وقدرته بكل مكان . اللهم إن أنت أمرضتني لتقبض روحي في مرضي هذا فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنى وباعدني من النار كما باعدت أوليائك الذين سبقت لهم منك الحسنى ^(١) » ، وروى أنه قال عليه السلام « عيادة المريض بعد ثلاث فواق ناقة ^(٢) » وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : عيادة المريض مرة سنة فما ازدادت فنافلة ، وقال بعضهم : عيادة المريض بعد ثلاث . وقال عليه السلام « أغبوا في العيادة وأربعوا فيها ^(٣) » وجملة أدب المريض حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر والفرع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء ..

ومنها أن يشيع جنازتهم قال صلى الله عليه وسلم « من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان ^(٤) » ، وفي الخبر « القيراط مثل أحد ^(٥) » ، ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وشمعه ابن عمر قال : لقد فرطنا إلى الآن في قرارات كثيرة . والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإننا راتمون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لاعتق له . وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول : والله لا تقزع عيني حتى أعلم إلى ما صرت ولا والله لا أعلم ما دمت حيا . وقال الأعمش : كنا نشهد الجنائز فلاندرى لمن نعزى لحزن القوم كلهم ؟ ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت فقال لو ترحمون أنفسكم لكان أولى ! إنه نجا من أهوال ثلاث : وجه ملك الموت قد رأى ، ومرارة الموت قد ذاق ، وخوف الخاتمة قد أمن . وقال صلى الله عليه وسلم « يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله ^(٦) » .

ومنها أن يزور قبورهم والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب قال صلى الله عليه وسلم « ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضح منه ^(٧) » وقال عمر رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقنى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فبكي وبكينا ، فقال « ما يبكيكم ؟ قلنا : بكينا لبكائك . قال « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فأبى على فأدركني ما يدرك الولد من الرقة ^(٨) » ، وكان عمر رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبطل لحيته ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد ^(٩) » وقال مجاهد . أول

(١) حديث أبي هريرة « ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار » أخرجه ابن أبي الدنيا في الدعاء وفي المرس والسكفات . (٢) حديث « عيادة المريض فواق ناقة » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس باسناد فيه جهالة . (٣) حديث « أغبوا في العيادة وأربعوا » رواه ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر وزاد « إلا أن يكون مثوبا » وإسناده ضعيف . (٤) حديث من تبع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة . (٥) حديث « القيراط مثل جبل أحد » أخرجه مسلم من حديث ثوبان وأبي هريرة وأسلمه متفق عليه . (٦) حديث « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد » أخرجه مسلم من حديث أنس . (٧) حديث « ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضح منه » أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي حسن غريب . (٨) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقنى المقابر فجلس إلى قبر ... الحديث في زيارته قبر أمه . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً وأحمد من حديث بريدة وفيه : فقام إليه عمر فتدأ بالأب والأمية يقول يا رسول الله مالك ... الحديث . (٩) حديث عثمان بن عفان « إن القبر أول منازل الآخرة ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده

ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة . فهذا ما أعددت لك فأعددت لي ؟ وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع في قبري . كان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكرونني معادي وإن قمت عنهم لم يفتابوني . وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم . وقال صلى الله عليه وسلم : ما من ليلة إلا وينادي مناد : يا أهل القبور من تغطون ؟ قالوا : نغط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلي ويذكرون الله ولا نذكره ^(١) ، وقال سفيان من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرا فكان إذا وجد في قلبه قساسة دخل فيه فاضطجع فيه ومكث ساعة ثم قال (رب ارجعون لعلی أعمل صالحا فيما تركت) ثم يقول : ياربيع قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لا ترجع . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى وقال يا ميمون هذه قبور آبائي بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم أماتراهم صرعى قد خلت بهم المثلث وأصاب الهوام من أبدانهم ؟ ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله ؟ وآداب المعزى خفض الجناح وإظهار الحزن وقلة الحديث وترك التبسم .

وآداب تشييع الجنازة لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكير في الموت والاستعداد له وأن يمشى أمام الجنازة بقربها والإسراع بالجنازة سنة ^(٢) فهذه جملة آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق . والجملة الجامعة فيه أن لا تستصغر منهم أحدا حيا كان أو ميتا فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك ؟ فإنه وإن كان فاسقا فلعله يتختم لك بمثل حاله ويتختم له بالصلاح ؟ ولا تنتظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها . ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله . ولا تبذل لهم دينك لتتال من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذى هو خير . ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في المعادة ويذهب دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكرا في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة وتنتظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم لحسبهم جهنم يصلونها ، فإلك تحقد عليهم ولا تسكن إليهم في مودتهم لك وثنائهم عليك في وجهك وحسن بشرهم لك فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحدا وربما لا تجده . ولا تشك إليهم أحوالك فيسلكك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به ؟ ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الدل ولا تتال الغرض . ولا تعمل عليهم تكبرا لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء . وإذا سألت أخا منهم حاجة ففضاها فهو أخ مستفاد وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدوا تطول عليك مقاساته . ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك ، وليكن وعظك عرضا واسترسالا من غير تنصيب على الشخص . ومهما رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذى سخرهم لك واستعد بالله أن يكلك إليهم . وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شرا أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستعد بالله من شرم . ولا تشغل نفسك بالمسكافة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله . ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعى .

(١) حديث « ما من ليلة إلا ينادى مناد يا أهل القبور من تغطون ؟ فيقولون : نغط أهل المساجد ... الحديث لم أجده أصلا .

(٢) حديث : الإسراع بالجنازة . متفق عليه من حديث أبي هريرة « أسرعوا بالجنازة ... الحديث » .

واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موصفا في قلوبهم فآله المحب والمبغض إلى القلوب وكن فيهم سمعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بحقهم صموتا عن باطلهم . واحذر صحة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقيير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ، يقتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون ، يغرون الإخوان على الإخوان بالنميمة والبهتان ، فصحة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحق لا يؤمنون في حقهم ولا يرجون في ملقهم ، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب ، يقطعون بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون ، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم ، ولا تعول على مودة من لم تخبره حق الخبرة ، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدة فتحتاج إليه ، فإن رضيته في الأحوال فاتخذة أبالك إن كان كبيرا أو ابنا لك إن كان صغيرا أو أخاك إن كان مثلك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق .

حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام . فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم : الجيران ثلاثة : جاره حق واحد ، وجاره حقان ، وجاره ثلاثة حقوق ، فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذوالرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك ^(١) ، فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ^(٢) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أول خصمين يوم القيامة جاران ^(٦) ، وقال عليه الصلاة والسلام : إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيت ^(٧) ، ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : إن لى جارا يؤذيني ويشتمنى ويضيق على فقال اذهب فإن هو عصى الله فيك فاطع الله فيه . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم ، هي فى النار ^(٨) . وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (اصبر) ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة (اطرَح متاعك فى الطريق) قال : لجعل الناس يمزون به ويقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره قال فجعلوا يقولون : لعنه الله ، فجاءه جاره فقال له رد متاعك فوالله لا أعود ^(٩)

-
- (١) حديث « الجيران ثلاثة جاره له حق وجاره له حقان وجاره ثلاثة حقوق ... الحديث » أخرجه الحسن بن سفيان والبراز فى مسندهما وأبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية من حديث جابر وابن عدى من حديث عبد الله بن عمر وكلاهما ضعيف .
(٢) حديث « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما » تقدم (٣) حديث « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر (٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديث أبى شريح (٥) حديث « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » أخرجه البخارى من حديث أبى شريح أيضا .
(٦) حديث « أول خصمين يوم القيامة جاران » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عتبة بن عامر بسند ضعيف .
(٧) حديث « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيت » لم أجده أصلا (٨) حديث : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال اصبر ثم قال له فى الثالثة - أو الرابعة - اطرَح متاعك على الطريق ... الحديث .
أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

وروى الزهري : أنَّ رجلاً أتى النبي عليه السلام لجعل يشكو جاره فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادى على باب المسجد « ألا إن أربعين داراً جاراً »^(١) ، قال الزهري : أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأوماً إلى أربع جهات . وقال عليه السلام « اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس ، فيمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها . ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله . وشؤمها ضيقه وسوء جوار أهله . ويمن الفرس ذله وحسن خلقه ، وشؤمها صعوبته وسوء خلقه »^(٢) .

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى ، فإن الجار أيضاً قد كف أذاه فليس في ذلك قضاء حق ، ولا يكفي احتمال الأذى بل لابد من الرفق وإسداء الخبر والمعروف ، إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة فيقول : يا رب سل هذا لم تمنني معروفه وسد بابي دوني ؟

وبلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داره في دين ركهو كان يجلس في ظل داره ، فقال : ماقت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها بعدما دفع إليه ثمن الدار وقال : لا تبعها .

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره ، فقبل له : لو اقتنيت هراً ؟ فقال : أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم مالا أحب لنفسي .

وجملة حق الجار : أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصفيح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستتر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرخته إذا نابتة نائمة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويفض بصره عن حرمة ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يحمله من أمر دينه ودينه . هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عديته ، وإن مات تبعته جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيت به ، ولا تستعمل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذ به بقتار قدرك إلا أن تعرف له منها ، ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من

(١) حديث الزهري « ألا إن أربعين داراً جاراً » أخرجه أبو داود في المراسل ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال « أربعون ذراعاً » وكلاماً ضعيفاً (٢) حديث « اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » وفي رواية له « إن يك من الشؤم شيء حقاً » وله من حديث سهل بن سعد « إن كان في الفرس والمرأة والمسكن » وللترمذي من حديث حكيم ابن معاوية « لا شؤم وقد يكون اليمن في الدار والمرأة والفرس » ورواه ابن ماجه فسماه محمد بن معاوية والطبراني من حديث أسماء بنت عميس : قالت يا رسول الله ما سوء الدار ؟ قال « ضيق ساحتها ونخب جيرانها » قيل فما سوء الدابة ؟ قال « منعها ظهرها وسوء خلقها » قيل فما سوء المرأة ؟ قال « عقم رحمها وسوء خلقها » وكلاماً ضعيفاً ورويناه في كتاب الخيل للديلمطي من رواية سالم بن عبد الله مرسلاً « إذا كان الفرس ضروباً فهو مشؤم وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجها قبل زواجها نحت إلى الزوج الأول فهي مشؤمة وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع فيها الأذان والإقامة فهي مشؤمة » ولسانه ضعيف ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه .

رحمه الله ^(١) ، هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلم شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي ، حتى قال ذلك مرارا فقال له كم تقول هذا ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجوار حتى خشينا أنه سيورثه ^(٢) . وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأسا أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك ، وقال أبو ذر رضي الله عنه . أو صاني خليل صلى الله عليه وسلم وقال : إذا طبخت قدرا فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها ^(٣) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : قلت يا رسول الله إن لي جارين أحدهما مقبل على بابه والآخر ناه ببابه عني ، وربما كان الذي عندي لا يسمعهما ، فأيهما أعظم حقا ؟ فقال : المقبل عليك ببابه ^(٤) . ورأى الصديق ولده عبد الرحمن وهو يناصي جارا له ، فقال لا تناص جارك ، فإن هذا يبتى والناس يذهبون . وقال الحسن بن عيسى التيسابوري : سألت عبد الله بن المبارك فقلت : الرجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى إليه أمرا والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله يرى . وأكره أن أدعه فيجد على جاري ، فكيف أصنع ؟ قال : إن غلامك لعله أن يحدث حدثا يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه ، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث ، فتكون قد أرضيت جارك وأدبتة على ذلك الحدث ، وهذا تلطف في الجمع بين الحقين .

وقالت عائشة رضي الله عنها : خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب : صدق الحديث ، وصدق الناس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم للجار ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » ^(٥) ، قال صلى الله عليه وسلم « إن من سعادة المرأة المسلم : المسكن الواسع ، والجار الصالح والمركب الهنيء » ^(٦) ، وقال عبد الله : قال رجل : يا رسول الله ، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ، قال : إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهن يقولون قد أسأت فقد أسأت ^(٧) . وقال جابر رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه ^(٨) . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبى ^(٩) . وقال

(١) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أتمدرون ماحق الجار ؟ إن استعان بك أعتته وإن استقرضك أقرضته . الحديث » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدى في الكامل وهو ضعيف . (٢) حديث مجاهد « كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلم شاة فقال يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي . الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب . (٣) حديث أبي ذر : أو صاني خليل صلى الله عليه وسلم « إذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها » رواه مسلم . (٤) حديث عائشة : قلت يا رسول الله إن لي جارين ... الحديث ، رواه البخاري . (٥) حديث أبي هريرة « يالساه المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » رواه البخاري . (٦) حديث « إن من سعادة المرأة المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء » رواه أحمد من حديث نافع بن عبد الحارث وسعد بن أبي وقاص ، وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد . (٧) حديث عبد الله : قال رجل يا رسول الله كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ؟ قال « إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت » رواه أحمد والطبراني وعبد الله هو ابن مسعود ، وإسناده جيد .

(٨) حديث جابر « من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه » أخرجه ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار ، وقال : صحيح الإسناد ، وهو عند الخرائطي في مكارم الأخلاق بلفظ المصنف ، ولابن ماجه من حديث ابن عباس « من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره » ورجاله رجال الصحيح . (٩) حديث أبي هريرة : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبى . رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا ، وهو متفق عليه بلفظ « لا يمنع أحكم جاره أن يضرب خنبة في حائطه » رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة .

ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يمتنع أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره ، وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : ما لي أراكم عنها معرضين ، والله لأرمينها بين أكثافكم . وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيراً عسله ، قيل : وما عسله ؟ قال : يحميه إلى جيرانه ^(١) » .

حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا الرحمن وهذه الرحم شققن لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بقتة ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه ^(٣) » ، وفي رواية أخرى « من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليقتق الله وليصل رحمه » ، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ قال « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه . وآمرهم بالمعروف ونهائهم عن المنكر ^(٤) » ، وقال أبو ذر رضى الله عنه « أوصاني خليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنَّ الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمسكافي ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها ^(٦) » ، وقال عليه السلام « إنَّ أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون فجاراً ، فتتمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم ^(٧) » ، وقال زيد بن اسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد الفساء البيض والنوق الأدم فمليك بنى مدلج ، فقال عليه السلام « إنَّ الله قد منعني من بنى مدلج بصلاتهم الرحم ^(٨) » ، وقالت أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما : قدمت على أمي ، فقلت : يا رسول الله ، إنَّ أمي قدمت على وهي مشركة أفأصلها ؟ قال « نعم ^(٩) » . وفي رواية : أفأعطيها ؟ قال « نعم صليها » . وقال عليه السلام « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان ^(١٠) » ، ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بمخاط كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ^(١١) قال :

(١) حديث « من أراد الله به خيراً عسله » رواه أحمد من حديث أبي عتبة الخولاني ، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الزهد من حديث عمرو بن الحنف . زاد الخرائطي : قيل وما عسله ؟ قال « حبه إلى جيرانه » وقال البيهقي « يفتح له عملاً صالحاً قبل موته حتى يرضى عنه من حوله » وإسناده جيد .

(٢) حديث « يقول الله أنا الرحمن وهذه الرحم ... الحديث » متفق عليه من حديث عائشة . (٣) حديث « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليقتق الله وليصل رحمه » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « فليقتق الله » وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي بإسناد جيد . (٤) حديث : أى الناس أفضل فقال « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه » رواه أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب بإسناد حسن . (٥) حديث أبي ذر : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصلة الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا ، رواه أحمد وابن جابر وصححه . (٦) حديث « لن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمسكافي ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو ، وهو عند البخاري دون قوله « الرحم معلقة بالعرش » فرواها مسلم من حديث عائشة . (٧) حديث « أعجل الطاعات ثواباً صلة الرحم ... الحديث » أخرجه ابن جابر من حديث أبي بكر ، والخرائطى في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف . (٨) حديث زيد بن أسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فمليك بنى مدلج ؟ فقال « لن الله منعني من بنى مدلج بصلاتهم الرحم » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، وزاد « وطعنهم في إلبات الإبل » وهو مرسل صحيح الإسناد . (٩) حديث أسماء بنت أبي بكر : قدمت على أمي فقلت : يا رسول الله ، قدمت على أمي وهي مشركة أفأصلها ؟ قال « نعم صليها » متفق عليه . (١٠) حديث « الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة » أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سلمان ابن عامر الضبي . (١١) حديث : لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بمخاط كان يعجبه عملاً بقوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ... الحديث أخرجه البخاري وقد تقدم .

يارسول الله ، هو في سبيل الله والفقراء والمساكين فقال عليه السلام « وجب اجرک علی الله قسمه فی أقاربک ، وقال عليه السلام « أفضل الصدقة علی ذی الرحم الکاشح ^(١) ، وهو فی معنى قوله « أفضل الفضائل أن تصل من قطعک ، وتعطى من حرمتک ، وتصنع عن ظلمک ^(٢) » ، وروى أن عمر رضی الله عنه كتب إلى عماله : مروا الأقارب أن يتزاووا ولا يتجاووا ، وإنما قال ذلك لأن التجاور یورث التراحم علی الحقوق ، وربما یورث الوحشة وقطيعة الرحم .

حقوق الوالدين والولد

لا یغنی أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فیتضاعف تأكد الحق فیها . وقد قال صلی الله علیه وسلم « إن یجزی ولد والده حتى یجده مملوکا فیشتریه فیمتقه ^(٣) » ، وقد قال صلی الله علیه وسلم « بر الوالدین أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد فی سبیل الله ^(٤) » ، وقد قال صلی الله علیه وسلم « من أصبح مرضیا لأبویه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، ومن أمسى فثقل ذلك ، وإن کان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما . ومن أصبح مسخطا لأبویه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ، ومن أمسى مثل ذلك ، وإن کان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما ^(٥) » ، وقال صلی الله علیه وسلم « إن الجنة یوجد ریحها من مسيرة خمسمائة عام ، ولا یجد ریحها عاق ولا قاطع رحم ^(٦) » ، وقال صلی الله علیه وسلم « بر أمک وأباك وأختک وأحاک ، ثم أدناک فأدناک ^(٧) » .

ویروی أن الله تعالى قال لموسى علیه السلام : یاموسى ، إنه من بر والديه وعقنی کتبتہ بارا ، ومن برنی وعق والديه کتبتہ عاقا .

وقیل : لما دخل یعقوب علی یوسف علیهما السلام لم یقم له : فأوحى الله إلیه : أتتعظم أن تقوم لأبیك ، وعزتی وجلالی لأخرجت من صلبک نبیا .

وقال صلی الله علیه وسلم « ما علی أحد إذا أراد أن یتصدق بصدقة أن یجعلها لوالديه إذا كانا مسلمین فیسكون لوالديه أجرها ویكون له مثل أجورهما من غیر أن ینقص من أجورهما شیء ^(٨) » ، وقال مالک بن ربيعة : بیننا نحن

(١) حدیث « أفضل الصدقة علی ذی الرحم الکاشح » أخرجه أحمد والطبرانی من حدیث أنى أبوب ، رفیه المجاج بن أرطاة ورواه البیهقی من حدیث أم کلثوم بنت عقبة (٢) حدیث « أفضل الفضائل أن تصل من قطعک ... الحدیث » أخرجه أحمد من حدیث ما ذن أس بسند ضعیف والطبرانی نحوه من حدیث أبى أمامه وقد تقدم (٣) حدیث « إن یجزی ولد والده حتى یجده مملوکا فیشتریه فیمتقه » أخرجه مسلم من حدیث أبى هريرة (٤) حدیث « بر الوالدین أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد » لم أجده هكذا . وروی أبو یعلی والطبرانی فی الصنیر والأوسط من حدیث أس : أنى رجل رسول الله صلی الله علیه وسلم فقال : أنى أشتهى الجهاد ولا أقدر علیه . قال : « هل بقى من والدیک أحد ؟ » قال : أئى . قال « قابل الله فی برها ، فإذا فمکت ذلك فأنت حاج ومعتز ومجاهد » وإسناده حسن (٥) حدیث « من أصبح مرضیا لأبویه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ... الحدیث » أخرجه البیهقی فی الشعب من حدیث ابن عباس ولا یصح .

(٦) حدیث « إن الجنة یوجد ریحها من مسيرة خمسمائة عام ولا یجد ریحها عاق ولا قاطع رحم » أخرجه الطبرانی فی الصنیر من حدیث أبى هريرة دون ذکر القاطع ، وهى فی الأوسط من حدیث جابر ، إلا أنه قال « من مسيرة ألف عام » وإسنادهما ضعیف . (٧) حدیث « بر أمک وأباك وأختک وأحاک ثم أدناک أدناک » أخرجه النسائی من حدیث طارق الخاربی ، وأخرجه أحمد والحاكم من حدیث أبى رمتة ، ولأبى داود نحوه من حدیث کلین بن منقعه عن جده ، وله وللترمذی والحاكم وصحیحه من حدیث بهز بن حکیم عن أبیه عن جده : من أثر ؟ قال : « أمک ، ثم أمک ، ثم أمک » ، ثم أباک ثم الأقرب فالأقرب ، وفی الصحیحین من حدیث أبى هريرة : قاله رجل : من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال « أمک ثم أمک ثم أمک ثم أبوک » لفظه - لم .

(٨) حدیث « ما علی أحد إذا أراد أن یتصدق بصدقة أن یجعلها لوالديه إذا كانا مسلمین ... الحدیث » أخرجه الطبرانی فی الأوسط من حدیث عمرو بن شعیب عن أبیه عن جده بسند ضعیف - دون قوله « إذا كانا مسلمین » .

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل يبق على من برّ أبوى شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى الأب » ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « بر الوالدة على الولد ضعفان » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « دعوة الوالدة أسرع إجابة . قيل : يا رسول الله ، ولم ذاك ؟ قال : هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط » ^(٤) .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله من أبر ؟ فقال : « بر والديك » فقال : ليس لي والدان ، فقال : « بر ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقا ، كذلك لولدك عليك حق » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله والدا أعان ولده على برّه » ^(٦) ، أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال صلى الله عليه وسلم « ساووا بين أولادكم فى العطية » ، وقد قيل : ولدك ربحاتك تشمها سبعا وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك ، وقال أنس رضى الله عنه : قال النبي صلى الله عليه وسلم « الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى ؛ فإذا بلغ ست سنين أدب ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ؛ ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلتكم وانكحتك ، أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة » ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » ^(٨) .

وقال عليه الصلاة والسلام « كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه » ^(٩) ، وقال قتادة : إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل عنه مثل الخيط ثم يغسل رأسه ويحلق بعد .

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده ، فقال : هل دعوت عليه ؟ قال : نعم . قال : أنت أفسدته .

ويستحب الرفق بالولد : رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن ، فقال : إنلى

(١) حديث مالك بن ربيعة . بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه رجل من بني سلمة فقال هل بقى على من برّ أبوى شيء ... الحديث « أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) حديث « بر الوالدة على الولد ضعفان » غريب بهذا اللفظ وقد تقدم قبل هذا بثلاثة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث أبي هريرة وهو معنى هذا الحديث . (٤) حديث دعوة الوالدة أسرع إجابة .. الحديث « لم أقف له على أصل . (٥) حديث : قال رجل يا رسول الله من أبر ؟ قال « بر والديك » فقال ليس لي والدان فقال « ولدك فكما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق » أخرجه أبو عمر النوفلى فى كتاب معاشر الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله « فكما أن لوالديك » الخ وهذه القصة رواها الطبرانى من حديث ابن عمر قال الدارقطنى فى الملل ان الأسح وقه على ابن عمر . (٦) حديث « رحم الله والدا أعان ولده على برّه » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث على بن أبى طالب وابن عمر بسند ضعيف ورواه النوفلى من رواية الشعبي مرسل .

(٧) حديث أنس : الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلتكم وانكحتك أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الضحايا والعقيقة إلا أنه قال « وأدبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة ولم يذكر الصوم » وفى أسناده من لم يسم . (٨) حديث « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وحديث عائشة وضعفها .

(٩) حديث « كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه » أخرجه أصحاب السنن من حديث سمرة قال الترمذى حسن صحيح .

عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ! فقال عليه الصلاة والسلام « إن من لا يرحم لا يرحم »^(١) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اغسل وجه أسامة ، فجعلت اغسله وأنا أنفة ، فضرب يدى ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية »^(٢) ، وتعر الحسن - والنبي صلى الله عليه وسلم على منبره - فنزل لحمله وقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾^(٣) وقال عبدالله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالتاس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر ! فقال « إن ابنى قد ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته »^(٤) ، وفى ذلك فوائد : إحداها القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا ، وفيه الرفق بالولد والبر ، وتعليم لامته . وقال صلى الله عليه وسلم « ريح الولد من ريح الجنة »^(٥) .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس ، فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ، ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسما ظليلة ، وبهم نصول على كل جلية ؛ فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، ينعوك ودهم ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا ، فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك ؛ فقال له معاوية : الله أنت يا أحنف ، لقد دخلت على وأنا مملوء غضبا وغيظا على يزيد . فلما خرج الأحنف من عنده رضى عن يزيد وبعث إليه بما تقي ألف درهم وما تقي ثوب ؛ فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقاسمه إياها على الشطر .

فهذه هى الأخبار الدالة على تأكيد حق الوالدين وكيفية القيام بحقوقهما تعرف بما ذكرناه فى حق الأخوة ؛ فإن هذه الرابطة أكد من الأخوة بل يزيد ههنا أمران (أحدهما) أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة فى الشبهات وإن لم تجب فى الحرام المحض ، حتى إذا كانا يتنصنان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم . وكذلك ليس لك أن تسافر فى مباح أو نافلة إلا بإذنهما ، والمبادرة إلى الحج الذى هو فرض الإسلام نفل ، لأنه على التأخير . والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن فى بلدك من يعلمك ، وذلك كمن يسلم ابتداء فى بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين .

قال أبو سعيد الخدرى : هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد ، فقال عليه السلام « هل باليمن أبواك » قال : نعم ، قال « هل أذن لك ؟ » قال : لا ، فقال عليه السلام « فارجع إلى أبويك »

(١) حديث : رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن فقال إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال « من لا يرحم لا يرحم » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة . (٢) حديث عائشة : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اغسل وجه أسامة » فجعلت اغسله وأنا أنفة ؛ فضرب يدى ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية » لم أجده هكذا ولا أحد من حديث عائشة : أن أسامة عثر بعثة الباب فدى فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصممه ويقول « لو كان أسامة جارية لحببها ولكسوتها حتى أنفقا » وإسناده صحيح . (٣) حديث : عثر الحسن وهو على منبره صلى الله عليه وسلم فنزل لحمله وقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة فى الحسن والحسين ما يعميان ويمنران قال الترمذى حسن غريب . (٤) حديث عبدالله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه . رواه النسائى من رواية عبد الله بن شداد عن أبيه وقال فيه الحسن أو الحسين على الفك ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين . (٥) حديث « ريح الولد من ريح الجنة » أخرجه الطبرانى فى الصغير والأوسط وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه منديل بن على ضعيف .

فأستأذنها ، فإن فعلا فجاهد ، وإلا فبرهما ما استطعت ، فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد (١) . وجاء آخر إليه صلى الله عليه وسلم ليستشيره في الغزو فقال « ألك والدة ؟ » قال : نعم . قال « فالزمها فإن الجنة عند رجلها (٢) » . وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال : ماجئتك حتى أبكيك والدي ، فقال « ارجع إليهما فأضحكما كما أبكيتهما (٣) » .

وقال صلى الله عليه وسلم « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد عن ولده (٤) » .

وقال عليه السلام « إذا استصعبت على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه (٥) » .

حقوق المملوك

اعلم أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه في آداب النكاح ، فأما ملك اليمين فهو أيضا يقتضى حقوقا في المعاشرة لا بد من مراعاتها ، فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتهم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء للملكهم إياكم (٦) » ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق (٧) » ، وقال عليه السلام « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا غائن ولا سيء الملكة (٨) » ، وقال عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كم لعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدري : هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم « باليمن أبواك ؟ » قال : نعم ... الحديث . أخرجه أحمد وابن حبان دون قوله « ما استطعت » الخ . (٢) حديث : جاء آخر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستشير في النزول فقال « ألك والدة ؟ » فقال : نعم ، قال فالزمها فإن الجنة تحت قدميها » أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جهم : أن جهم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الحاكم صحيح الإسناد . (٣) حديث : جاء آخر فقال : ماجئتك حتى أبكيك والدي فقال « ارجع إليهما فأضحكما كما أبكيتهما » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة ورواه أبو داود في المراسيل من رواية سعيد بن عمرو ابن العاص مرسلًا ووصله صاحب مسند الفردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص وإسناده ضعيف . (٥) حديث « إذا استصعب على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب بسند ضعيف نحوه . (٦) حديث : كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون ... الحديث » الخ وهو مفرق في عدة أحاديث فروى أبو داود من حديث علي : كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » وفي الصحيحين من حديث أنس : كان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ولها من حديث أبي ذر « أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلظهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » لفظ رواية مسلم وفي رواية لأبي داود « من يلايكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لا يلايكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى » وإسناده صحيح . (٧) حديث « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٨) حديث « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا غائن ولا سيء الملكة » أخرجه أحمد مجوعا والترمذي مفرقا وابن ماجه مقتصرًا على « سيء الملكة » من حديث أبي بكر وليس عند أحد منهم متكبر وزاد أحمد والترمذي البخيل والمنان وهو ضعيف وحسن الترمذي أحد طريقه .

ثم قال : اعف عنه في كل يوم سبعين مرة ^(١) ، وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العوالى في كل يوم سبت ، فإذا وجد عبدا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه . ويروى على أبي هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلामه يسعى خلفه فقال له : يا عبد الله احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك فحملة ثم قال : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا مامشى خلفه . وقالت جارية لأبي الدرداء : إني سمعتك منذ سنة فما عمل فيك شيئا فقال : لم فعلت ذلك ؟ فقالت : أردت الراحة منك ، فقال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله . وقال الزهري : متى قلت للمملوك أخزأك الله فهو حر . وقيل للأحنف بن قيس من تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم ، فيل فما بلغ من حله ؟ قال : بينما هو جالس في داره إذا أتمته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعفره فسات ، فدهشت الجارية ، فقال : ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق فقال لها : أنت حرة لا بأس عليك . وكان عون ابن عبد الله إذا عصاه غلامه قال : ما أشبهك بمولاك ؟ مولاك يعصى مولاه وأنت تعصى مولاك ، فأغضبه يوما فقال : إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر . وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون ؛ فقال : يا جارية أحرقتني ، قالت : يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى قال : وما قال الله تعالى ؟ قالت : قال ﴿ والكاذمين الغيظ ﴾ قال : قد كظمت غيظي ، قالت ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد عفوت عنك ، قالت : زد فإن الله تعالى يقول ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال : أنت حرة لوجه الله تعالى . وقال ابن المنكدر : إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضرب عبدا له لجمل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ، فلم يعفه فسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صياح العبد فانطلق إليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمسك يده فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعفه فلما رأيته أمسكت يدك ، قال : فإنه حر لوجه الله يارسول الله ، فقال : لو لم تفعل لسفعت وجهك النار ^(٢) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : العبد إذا نصح لسيدته وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين ^(٣) ، ولما اعتق أبو رافع بكى وقال : كان لي أجران فذهب أحدهما . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشيد ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيدته ، وعفيف متعفف ذو عيال ، وأول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط وذنوثة لا يعطى حق الله وفقير نفور ^(٤) ، وعن أبي مسعود الأنصاري قال : بينا أنا أضرب غلاما لي إذ سمعت صوتا من خلني : اعلم يا أبا مسعود ، مرتين فالتفت فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فألقيت السوط من يدي فقال : والله أنه أقدر عليك منك على هذا ^(٥) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الخلو فإنه أطيب لنفسه ^(٦) ، رواه معاذ

(١) حديث ابن عمر : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال يارسول الله كم تنفو عن الخادم ؟ فسمعت ثم قال : اعف عنه كل يوم سبعين مرة . أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث ابن المنكدر : أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضرب عبدا له لجمل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ؛ فسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صياح العبد... الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد مسندا وفي رواية لمسلم في حديث أبي مسعود الآتي ذكره : لجمل يقول : أعوذ بالله . قال لجمل يضربه فقال : أعوذ برسول الله فتركه ، وفي رواية له : فقلت هو حر لوجه الله ، فقال : أما لأنك لو لم تفعل لفحنتك النار « أو : لمستك النار » (٣) حديث : إذا نصح العبد لسيدته وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين « متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث : عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار : فأول ثلاثة يدخلون الجنة : الشيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيدته .. الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة (٥) حديث أبي مسعود الأنصاري : بينا أنا أضرب غلاما لي سمعت صوتا من خلني : اعلم يا مسعود « مرتين ... الحديث . رواه مسلم . (٦) حديث معاذ : إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الخلو فإنه أطيب لنفسه أخرجه الطبراني في الأوسط والخراشي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل كل معه فإن لم يفعل فليناوله لقمة ^(١) » وفي رواية « إذا كنى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ؛ فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه فليجلسه وليأكل كل معه ، فإن لم يفعل فليناوله أو ليأخذ أكلة فليروغها - وأشار بيده - وليضعها في يده وليقل كل هذه ودخل على سلمان رجل وهو يعجن فقال : يا أبا عبد الله ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجتمع عليه عملين . وقال صلى الله عليه وسلم ، من كانت عنده جارية فسانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران ^(٢) » . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ^(٣) » .

لجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء وأن يعفو عن زلته ويتفكر عند غضبه عليه بهفوته أو بجنائته في معاصيه وجنائته على حق الله تعالى وتقصيره في طاعته مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته . وروى فضالة بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لا يستل عنهم : رجل فارق الجماعة ، ورجل عصي إمامه فمات عاصيا فلا يسأل عنها ، وأمراة غاب عنها زوجها وقد كفها مؤنة الدنيا فتيرجت بعده فلا يسأل عنها . وثلاثة لا يسأل عنهم رجل ينزع الله رداءه ورداؤه الكبرياء ولمزازه العز ، ورجل في شك من الله ، وقنوط من رحمة الله ^(٤) » .

تم كتاب آداب الصلحة والمعاشره مع أصناف الخلق .

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف همهم إلى مؤانسته ، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته ، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته ، وحقر في قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجارى فكرته فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى في خلوته ، واستوحش بذلك عن الانس بالإنس وإن كان من أخص خاصته والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحبه سادة الحق وأئمة .

أما بعد : فإن للناس اختلافا كثيرا في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى ، ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إلى إليها ، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه في كتاب الصلحة من فضيلة المخالطة والمواخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثر من اختيار الاستيحاش والخلوة ، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم . ويحصل ذلك برسم باين (الباب الأول) في نقل المذاهب والحجج فيها (الباب الثاني) في كشف الغطاء عن الحق بمصر الفوائد والغوائل .

(١) حديث أبي هريرة « وليأكل كل معه فإن أبى فليناول » وفي رواية « إذا كنى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ... الحديث » متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطى باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر « علاجه » وهذه اللفظة عند البخارى (٢) حديث « من كانت عنده جارية فسانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران » متفق عليه من حديث أبي موسى . (٣) حديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٤) حديث فضالة بن هيب « ثلاثة لا يسأل عنهم : رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا ... الحديث » أخرجه الطبراني وصححه .

الباب الأول في نقل المذاهب والآقاويل

وذكر حجج الفريقين في ذلك

أما المذاهب فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين. فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة : سفيان الثوري ، وإبراهيم بن آدم ، وداود الطائي ، وفضيل بن عياض ، وسليمان الخواص ، ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ، وبشر الحافي

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار اسرف والإخوان والتألف والتجيب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ومال إلى هذا : سعيد بن المسيب ، والشعبي ، وابن أبي ليلى ، وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشرح ، وشرية بن عبد الله ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة . والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين ، وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل . فلتنقل الآن مطلقات تلك الكلمات لتبين المذاهب فيها ، وما هو مقرون بذكر العلة نوره عند التعرض للغوائل والفوائد ، فنقول ؛ قد روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : خذوا بحظكم من العزلة . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة . وقال الفضيل : كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا . وقيل : اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً . وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي : عظمي ؛ قال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفتر من الناس فرارك من الأسد . وقال الحسن رحمه الله : كلمات أحفظهن من التوراة ؛ قنع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حراً ، وترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلاً فتمتع طويلاً . وقال وهيب ابن الورد . بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت والعاشق في عزلة الناس . وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ؟ - وقد كان لزم البيت - فقال : كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا ؛ كنت أجالس الناس ولا أكلمهم . وقال سفيان الثوري : هذا وقت السكوت وملازمة البيوت . وقال بعضهم : كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فكش معنا سبعة لانسع له كلاماً ؛ فقلنا له : يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا ، فأنشأ يقول :

قليل الهم لا ولد يموت ولا أمر يحاذره يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علماً فغايته التفرد والسكوت

وقال إبراهيم النخعي لرجل تفقه ثم اعتزل ، وكذا قال الربيع بن خثيم . وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها ، وكان يقول : لا يتهياً للسر أن يحبر كل عذرله . وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرغت لنا ؟ فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى وقال الفضيل : إنني لأجد للرجل عند يدي : إذا لقيني أن لا يسلم علي ، وإذا مرضت أن لا يعودني . وقال أنس بن مالك الداراني . بينا الربيع ابن خثيم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه ، فجعل يمسح الدم ويقول : لقد وعظت ياربيع ، فقام ودخل داره فاجلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته . وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لزميا يوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتیان المدينة لجمعة ولا غير هاتين مآتا بالعقيق . وقال يوسف بن أسباط : سمعت سفيان الثوري يقول ، والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة وقال بشر بن عبد الله : أقل من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة ، فإن تكن

فضيحة كان من يعرفك قليلا . ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له . ألك حاجة ؟ قال : نعم ، قال : وما هي ؟ قال : أن لا تراني ولا أراك ولا تعرفني . وقال رجل لسهل : أريد أن أصحبك ، فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر ؟ قال : الله قال : فليصحبه الآن . وقيل للفضيل : إن عليا ابنك يقول لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يرونني ؛ فبكي الفضيل وقال : يا ويح على أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يرونني ؟ وقال الفضيل أيضا : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا ترى . فهذه أقاويل المسائلين إلى العزلة .

ذكر حجج المسائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

احتج هؤلاء بقوله تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ الآية وبقوله تعالى ﴿ فآلف بين قلوبكم ﴾ أمئن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف ؛ لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة . والمراد بالآلفة نزع الغوائل من الصدور وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات ، والعزلة لا تنافي ذلك .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ألف مألوف ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف »^(١) ، وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتنع بسببه المؤلف ، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن غلط ألف وألف ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلبا للسلامة من غيره .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « من فارق الجماعة شبرا خلع ربة الإسلام من عنقه » ، وقال « من فارق الجماعة فمات فميتته جاهلية »^(٢) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام داج فقد خلع ربة الإسلام من عنقه »^(٣) ، وهذا ضعيف لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة فالخروج عليهم بغى ، وذلك مخالفة بالرأى وخروج عليهم وذلك محذور لا يضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر ، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة .

واحتجوا بنهي صلى الله عليه وسلم عن الهجر فوق ثلاث إذ قال « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار »^(٤) ، وقال عليه السلام « لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة »^(٥) ، وقال « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه »^(٦) ، قالوا والعزلة هجرة بالكلية . وهذا ضعيف لأن المراد به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة ، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضب . مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين ؛ أحدهما : أن يرى فيه إصلاحا للمهجور في الزيادة . الثاني . أن يرى لنفسه سلامة فيه .

كتاب العزلة

الباب الأول : في نقل المذاهب والحجج فيها

- (١) حديث « المؤمن ألف مألوف ... الحديث » تقدم في الباب الأول من آداب الصحة . (٢) حديث « من ترك الجماعة فمات فميتته جاهلية » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام . (٣) حديث « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام داج فقد خلع ربة الإسلام » أخرجه الطبراني والمطالبي في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيده (٤) حديث « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح . (٥) حديث « لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة » مطلق عليه من حديث أسد دون قوله « والسابق بالصلح » زاد فيه الطبراني « والذي يبدأ بالصلح يسبق إلى الجنة » . (٦) حديث « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه » أخرجه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حدر بن أبي حدر واساده صحيح .

والنبي وإن كان عاما فهو محمول على ماوراء الموضوعين الخصوصيين بدليل ما روى عن عائشة رضي الله عنها . أن النبي صلى الله عليه وسلم هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر^(١) . وروى عن عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا وصعد إلى غرفة له وهي خزانته فلبث تسعا وعشرين يوما ؛ فلما نزل قيل له : إنك كنت فيها تسعا وعشرين ، فقال : الشهر قد يكون تسعا وعشرين^(٢) ، وروت عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام إلا أن يكون ممن لا تؤمن بوائقه^(٣) ، فهذا صريح في التخصيص وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال : هجران الأحق قرابة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت إذ الحماقة لا ينتظر علاجها . وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلا حتى مات ؛ فقال : هذا شيء قدم تقدم فيه قوم ؛ سعد بن أبي وقاص كان مهاجرا لعمار بن ياسر حتى مات ، وعثمان بن عفان كان مهاجرا لعبد الرحمن بن عوف وعائشة كانت مهاجرة لحفصة . وكان طاوس مهاجرا لوهب بن منبه حتى ماتا . وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة . واحتجوا بما روى : أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم في بعض مواطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاما^(٤) ، والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسلام بدليل ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء ؛ فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته في أهله ستين عاما ألا تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة اغزوا في سبيل الله فإنه من قاتل في سبيل الله فوأتى ناقة أدخله الله الجنة^(٥) .

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة ولما يأك والشعاب وعليكم بالعامية والجماعة والمساجد^(٦) ، وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام الغنم ، وسيأتي بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة .

ذكر حجج المسائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوني ﴾ الآية ثم قال تعالى ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴾ إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة . وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا لدعوتهم إلى الدين . وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر . قلت : لأنما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنه صالح . (٢) حديث عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا ... الحديث . متفق عليه . (٣) حديث عائشة . لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لا يؤمن بوائقه أخرجه ابن عدى وقال غريب المتن والإسناد وحديث عائشة عند أبي داود دون الاستثناء بإسناد صحيح . (٤) حديث : أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تفعل . الحديث . أخرجه البيهقي من حديث عمار ابن سلامة قال ابن عبد البر يقولون إن حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في معجمه التابعين . (٥) حديث أبي هريرة : غزونا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء غزيرة فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ... الحديث . أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم إلا أن الترمذي قال سبعين عاما . (٦) حديث معاذ بن جبل : الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية ، أخرجه أحمد والطبراني ورجاله ثقات إلا أن فيه انتظاعا .

إلا هجرهم وإنما الكلام في مخالطة المسلمين وما فيها من البركة لما روى أنه قيل : يا رسول الله الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يتطهر منها الناس ؟ فقال « بل من هذه المطاهر التماساً لبركة أيدي المسلمين »^(١) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها ؛ فإذا التمر المنقع في حياض الآدم وقد مغته الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون ، فاستسقى منه وقال « اسقوني » فقال العباس : إن هذا الميذ شراب قد مغث وخيض بالأيدي أولاً آتاك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر في البيت ؟ فقال « اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس ألتس بركة أيدي المسلمين » فشرب منه^(٢) فإذا كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم ؟

واحتجوا أيضاً بقول موسى عليه السلام ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ وأنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم وقال تعالى في أصحاب الكهف ﴿ وإذا اعتزلتموه وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أمرهم بالعزلة . وقد اعتزل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم قريشاً لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة^(٣) ، ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلمته . وهذا أيضاً اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار . وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار ، وإنما انظر في العزلة من المسلمين .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عامر الجهني لما قال : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال « ليس عليك بيتك وأمسك عليك لسانك وآبك على خطيئتك »^(٤) ، وروى أنه قيل له صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ قال « مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى » قيل : ثم من ؟ قال « رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبدربه ويدع الناس من شره »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي »^(٦) ،

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر ، فأما قوله لعبد الله بن عامر فلا يمكن تنزيهه إلا على ما عرفه صلى الله عليه وسلم بنور النبوة من حاله ، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة ، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك ، ورب شخص تكون سلامته في العزلة لائق المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد ،

(١) حديث : قيل له صلى الله عليه وسلم الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يطهر منها الناس ؟ فقال « بل من هذه المطاهر ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف (٢) حديث : لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم يمشي منها فإذا التمر المنقع في حياض الآدم قد مغته الناس بأيديهم ... الحديث . وفيه فقال « اسقوني من هذا الذي يمشي منه الناس » رواه الأزرقي في تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طلوس مرسل نحوه . (٣) حديث : اعتزل صلى الله عليه وسلم قريشاً لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى الحبشة ... الحديث . رواه موسى بن عقبة في المنازى ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب مرسل ، ورواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام مرسل أيضاً ، ووصله من رواية أبي سلمة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بني هاشم في الشعب ، وذكر موسى بن عقبة أن أبا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ، ومنازى موسى بن عقبة أصبح المنازى وذكر موسى بن عقبة أيضاً أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة ، ولأبي داود من حديث أبي موسى : أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن ننتقل إلى أرض النجاشي . قال البيهقي وإسناده صحيح ولا أحد من حديث ابن مسعود : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي . وروى ابن إسحق بإسناده جيد ومن طريقه البيهقي في الدلائل من حديث أم سلمة : إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالتفتوا بيلاده ... الحديث (٤) حديث : سأله عقبة بن عامر : يا رسول الله ما النجاة ؟ فقال : ليسمك بيتك ... الحديث « أخرجه الترمذي من حديث عقبة وقال حسن (٥) حديث : أى الناس أفضل ؟ فقال « مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله . قيل : ثم من ؟ قال : رجل معتزل ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري (٦) حديث « إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص .

وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل . وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الذي يخالط الناس ويصبر على أذىهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذىهم » (١) ، وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام « رجل معتزل يعبد ربه ويدع الناس من شره » فهذا إشارة إلى شرير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته . وقوله « إن الله يحب التقى الخفي » إشارة إلى إيثار الخول وتوقى الشهرة . وذلك لا يتعلق بالعزلة فكيف من راحب معتزل تعرفه كافة الناس ؟ وكيف من مخالط خامل لا ذكر له ولا شهرة ؟ فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة .

واحتجوا بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا أنبئكم بخير الناس » قالوا : بلى يا رسول الله ، فأشار بيده نحو المغرب وقال « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده ؟ » وأشار بيده نحو الحجاز وقال « رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس » (٢) ، فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها من الجانبين فلا بد من كشف الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقاييس بعضها ببعض ليتبين الحق فيها .

الباب الثاني : في فوائد العزلة وغوائلها

وكشف الحق في فضلها

اعلم أن اختلاف الناس في هذا يضاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة . وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده ، فكذلك القول فيما نحن فيه . فأنذكر أولا فوائد العزلة وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودينية . والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم ، وإلى التخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة ، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء . وأما الدينية فتقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة ؛ كتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة ، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطمعه في الناس وطمع الناس فيه وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذى بسوء خلق الجليس في مرآته أو سوء ظنه أو نيمته أو محاسدته أو التأذى بثقله وتشويه خلقته . وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلنحصرها في ست فوائد .

الفائدة الأولى

التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض ، فإن ذلك يستدعي فراغا ولا فراغ مع المخالطة ، فالعزلة وسيلة إليه . ولهذا قال بعض الحكماء : لا يتم أحد من الخلوة إلا بالتسكك بكتاب الله تعالى . والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله الذي يذكرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله

(١) حديث : الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذىهم « أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي الصحابي قال شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد (٢) حديث : ألا أنبئكم بخير الناس ؟ قالوا : بلى ، قال : فأشار بيده نحو المغرب وقال « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه » الحديث أخرجه الطبراني من حديث أم مبهر إلا أنه قال : نحو المشرق ، بدل : المغرب ، وفيه ابن مسحق رواه بالعمدة والترمذي والنسائي نحوه مختصرا من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن .

بذكر الله . ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينزل إليه حتى قوى فيه نور النبوة (١) فكان الخلق لا يحبونه عن الله فكان يبدنه مع الخلق وبقلبه مقبلا على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليفه . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله فقال : « لو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله » (٢) « ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً والإقبال على الله سراً إلا قوة النبوة فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك ، ولا يبعد أن تنتهى درجة بعض الأولياء إليه . فقد نقل عن الجنيد أنه قال : أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أنى أكلهم . وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبق لغيره فيه مقسع وذلك غير منكر ، ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس يبدنه وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبه . بل الذى دهاه لم يشوش عليه أمراً من أمور دنياه فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه . وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة . ولذلك قيل لبعض الحكماء : ما الذى أرادوا بالخلة واختيار العزلة ؟ فقال : يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة . وقيل لبعض الرهبان : ما أصبرك على الوحدة ؟ فقال : ما أنا وحدي أنا جالس على الوحدانية . وإذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيته صليت . . . وقيل لبعض الحكماء : إلى أى شيء أفضى بكم الزهد والخلة ؟ فقال : إلى الأناجى بالله . وقال سفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم ابن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له : يا إبراهيم تركت خراسان ؟ فقال : ماتت . بالعيش إلا ههنا أفر بدينى من شاهر إلى شاهر ، فمن يرانى يقول موسوس أو حال أو ملاح . وقيل لغزوان الرقاشى : هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك ؟ قال : إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي . وقيل للحسن يا أبا سعيد : ههنا رجل لم تره قط جالساً إلا وحده خلف سارية . فقال الحسن : إذا رأيتهم فأخبروني به ؛ فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن : هذا الرجل الذى أخبرناك به ؟ وأشاروا إليه ؛ فضى إليه الحسن وقال له . يا عبد الله أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال : أمر شغلنى عن الناس ، قال : فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل الذى يقال له الحسن فتجلس إليه ؟ فقال أمر شغلنى عن الناس . وعن الحسن : فقال له الحسن وما ذاك الشغل . يرحمك الله ؟ فقال : إني أصبح وأمسى بين نعمة وذنوب فرأيت أن أشغل نفسى بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنوب فقال له الحسن : أنت يا عبد الله أفقه عندي من الحسن فالزم ما أقت عليه . وقيل : بينا أويس القرنى جالساً إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأنس بك ، فقال أويس : ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره ؛ وقال الفضيل : إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت به وقلت أخلو ربى ، وإذا رأيت الصبح أدركنى استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئنى من يشغلنى عن ربى . وقال عبد الله بن زيد : طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : يناجى الله في الدنيا ويمجأه في الآخرة . وقال ذو النون المصرى : سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمنجاة ربه . وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قفل عليه وعمى

الباب الثانى : فى فوائد العزلة وغوائها

(١) حديث : كان صلى الله عليه وسلم فى أول أمره يتبتل فى جبل حراء وينزل إليه . متفق عليه من حديث عائشة نحوه : فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه . . . الحديث (٢) حديث : « لو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

قلبه وضيع عمره . وقال ابن المبارك : ما أحب حال من انقطع إلى الله تعالى ! ويروى عن بعض الصالحين أنه قال : بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعباد خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إلى تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت : سبحان الله تبخل على بالنظر إليك ؟ فقال : هذا إلى أقمت في هذا الجبل دهرًا طويلًا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمرى فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي ، فسكنه الله عن الاضطراب وألفه الوحدة والافتراق ، فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأول فأليك عنى فأني أعوذ من شرك رب العارفين وحبيب القانتين ، ثم صاح : واغمض من طول المكث في الدنيا ، ثم حوّل وجهه عنى ، ثم نفّض يديه وقال : إليك عنى يا دنيا لغيري فتزني وأهلك فغرى ، ثم قال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهم قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان ، وجمع ههنا في ذكره فلا شيء ألد عندهم من مناجاته . ثم مضى وهو يقول : قدوس قدوس . فإذا في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل .

وإني لأستغشى وما بي غشوة لعل خيالاً منك يلق خيالها
وأخرج من بين الجلوس لعلنى أحدث عنك النفس بالسرا خالها

ولذلك قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلق ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة . وقد قيل الاستئناس من علامات الإفلاس فإذا هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الذكر بالإنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة . فإن غاية العبادات وثمرتها المعاملات أن يموت الإنسان بحبا لله عارفاً بالله ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر . وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة .

الفائدة الثانية

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة : الغيبة والنفيمة ، والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا .

أما الغيبة فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربح المهلكات وجوها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجم منها إلا الصديقون . فإن عادة الناس كافة التضمض بأعراض الناس والتفكك بها والتفتل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة . فإن خالطتهم ووافقهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكنت كنت شريكاً ، والمستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة ، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشم .

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب - كما سيأتي بيانه في آخر هذا الرّبع - ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكنت عصي الله به ، وإن أنكرت تعرض لأنواع من الضرر إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاصي هي أكبر مما نهى عنه ابتداء . وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق . وقدم قام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً وقال : أيها الناس إنكم تفرمون هذه الآية

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها في غير موضعها وإن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب »^(١) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليسأل العبد حتى يقول له ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله لعبده حجته قال يارب رجوتك وخفت الناس »^(٢) ، وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق . ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر . وفي العزلة خلاص وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل :

وكم سقت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد . البغضة المنتصح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبا فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه ؛ فإذا سقط عليه يقول ياليتني تركته مائلا . نعم لو وجد أعوانا أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك .

وأما الرياء فهو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه . وكل من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا . وأقل ما يلزم فيه النفاق فإنك إن خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغضا إليهما جميعا ، وإن جاملتهما كنت من شرار الناس . وقال صلى الله عليه وسلم : « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »^(٣) ، وقال عليه السلام : « إن من شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »^(٤) ، وأقل ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة ، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك : كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه ، وهذا نفاق محض . قال سري : لو دخل أخ لي فسويت لحيتي بيدى لدخوله لخشيت أن أكتب في جريدة المنافقين . وكان الفضيل جالسا وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له : ما جاء بك؟ قال : المؤانسة يا أبا علي فقال : هي والله بالمواحشة أشبه هل تريد إلا أن تزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك؟ إما أن تقوم عني أو أقوم عنك . وقال بعض العلماء : ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لا يشعر به . ودخل طاووس على الخليفة هشام فقال : كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال : لم لم تخاطبني بأمر المؤمنين؟ فقال : لأن جميع المسلمين ما انفقوا على خلافتك فخشيت أن أكون كاذبا . فمن أمكنه أن يحتز هذا الاحتراز فليخالط الناس وإلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين . فقد كان السلف يتلاقون ويحتزون في قولهم كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي الجواب عنه . فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا . قال حاتم الأصم لحامد اللخاف : كيف أنت في نفسك؟ قال : سالم معافى : فكره حاتم جوابه وقال : يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة . وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت؟ قال أصبحت لأملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أHAذر وأصبحت مرتبها بعمل والخير كله في يد غيري ولا فقير أفقر مني

(١) حديث أبي بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها في غير موضعها ... الحديث . أخرجه أصحاب السنن . قال الترمذي : حسن صحيح . (٢) حديث . إن الله يسأل العبد حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر في الدنيا أن تنكره ... الحديث . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد . (٣) حديث « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « إن من شر الناس ذا الوجهين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو الذي قبله .

وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفى أرزاقنا ونلتظير آجالنا . وكان أبو الدرداء إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بخير إن نجوت من النار . وكان سفيان الثوري إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ يقول : أصبحت أشكر ذا إلى ذا وأذم ذا إلى ذا وأفر من ذا إلى ذا ، وقيل لأويس القرني : كيف أصبحت ؟ قال : كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدري أنه يصبح وإذا أصبح لا يدري أنه يمسي ؟ وقيل لمالك بن دينار كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد . وقيل لبعض الحكماء : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لأرضى حياتي لما في ولا نفسي لربي . وقيل للحكيم : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت آكل رزق ربي وأطيع عدوه إبليس . وقيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة . وقيل لحامد اللفاف : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أشتى عافية يوم إلى الليل ، فقيل له : ألسنت في عافية في كل الأيام ؟ فقال : العافية يوم لأعصى الله تعالى فيه . وقيل لرجل وهو يجود بنفسه : ما حالك ؟ فقال : وما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ويدخل قبرا موحشا بلا مؤنس وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة . وقيل لحسان ابن أبي سنان : ما حالك ؟ قال : ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب . وقال ابن سيرين لرجل : كيف حالك ؟ فقال : وما حال من عليه خمسمائة درهم دينا وهو معيل ؟ فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه وقال : خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك . ولم يكن عنده غيرها . ثم قال : والله لا أسأل أحدا عن حاله أبدا . وإنما فعل ذلك لأنه خشى أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرائيا منافقا . فقد كان سؤالهم عن أمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله وإن سألوا عن أمور الدنيا فمن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة . وقال بعضهم : إني لأعرف أقواما كانوا لا يتلاقون ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواما يتلاقون ويتساءلون حتى عن الدجاجة في البيت . ولو أنبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والتفاق ؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت ؟ ويقول الآخر كيف أنت ؟ فالسائل لا ينتظر الجواب والمستول يشتغل بالسؤال ولا يجيب ، وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف . ولعل القلوب لا تغلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال . قال الحسن : إنما كانوا يقولون السلام عليكم ، إذا سلمت والله القلوب ، وأما الآن : فكيف أصبحت عافاك الله ؟ كيف أنت أصلحك الله ؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لاكرامة فإن شاءوا غضبوا علينا ، وإن شاءوا لا . وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك : كيف أصبحت بدعة . وقال رجل لأبي بكر بن عياش : كيف أصبحت ؟ فاجابه . وقال دعونا من هذه البدعة . وقال : إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع ، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون ؟ ويلقاه عشية فيقول : كيف أمسيت ؟ والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والتفاق ، وكل ذلك مذموم ، بعضه محذور وبعضه مكروه . وفي العزلة الخلاص من ذلك ، فإن من لقي الخلق ولم يخالفهم بأخلاقهم مقتوه واستنقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودينه في الانتقام منهم .

وأما مسارقة الطبع بما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين ، فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منكرا عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له ،

ولأنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ويذعن الطبع لليليل لآليه أولسأدونه . ومهما طالت مشاهدته للكبار من غيره استحققر الصغائر من نفسه : ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر بمجالستهم في أن يستصغر ما عنده وتؤثر بمجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم . وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع من يقصر نظره على ملاحظه أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتزهر عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار : وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستهما للاقتداء . ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأذى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك . ويكنى في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته . وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ^(١) » ، ولأنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصور . ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة ، ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين ، فهذا معنى نزول الرحمة . والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي ، واللعنة هي البعد . ومبدأ البعد من الله هو المعاصي ، والإعراض عن الله بالإقبال على الخطوط العاجلة والشهوات الحاضرة لآعلى الوجه المشروع . ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب . ومبدأ سقوط الثقل وقوع الانس بها بكثرة السماع . إذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ؟ بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « مثل المجلس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشروه علق بك من ريحه ^(٢) » فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به . وقال « مثل المجلس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه » ولهذا أقول من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين ، إحداهما : أنها غيبة ، والثانية وهي أعظمهما . أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد ؟ ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام ، فكف من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتبالك على حب الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه قبجها ويزعم أن الصحابة رضى الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة ؟ وربما يستشهد عليه بقتال على ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة ، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ولوازمها من المعاصي . والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لاهفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكاييد الشيطان ، ولذلك وصف الله المرائين للشيطان فيها بقوله ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وضرب صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا وقال مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يستمع كمثل رجل أتى راعيا فقال له ياراعى اجررلى شاة من غنمك فقال اذهب لنجد خير شاة فيها فذهب

(١) حديث « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » ليس له أصل في الحديث المرفوع وإنما هو من قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزى في مقدمة صفة الصفوة .

(٢) حديث « مثل المجلس السوء كمثل الكير » الحديث « متفق عليه من حديث أبي موسى .

فأخذ بأذن كلب الغنم^(١) ، وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضا . وبما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضى إلى اعتقادهم كفره ، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كفرتهم عن تأخير الصوم ، مع أن صلاة واحدة يقتضى تركها الكفر عند قوم وحز الرقة عند قوم ، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سببه إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب . ولذلك لولبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها ، وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بها هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك . والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير ؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها ، فتفتطن لهذه الدقائق وفتر من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة . فإن وجدت جليسا يذكرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتممه ولا تستحقه فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن . وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء . ومهما فهمت هذه المعاني ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد بالعزلة أو التقرب إليه بالخلة . ولما كان أن تحكم مطلقا على العزلة أو الخلطة بأن إحدهما أولى إذ كل مفصل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ولا حق في المفصل إلا التفصيل .

الفائدة الثالثة

الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلبا تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات ، فالمعتزل عنهم في سلامة منها . قال عبدالله بن عمرو بن العاص : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها وقال : « إذا رأيت الناس مرحت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - ، قلت : فما تأمرني ؟ فقال : « الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بامر الخاصة ودع عنك أمر العامة »^(٢) ، روى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شاهر إلى شاهر »^(٣) ، وروى عبدالله بن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهر إلى شاهر ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروغ » قيل له : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي الله تعالى فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة » قالوا : وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج ؟ قال : « إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبو أن فعلى يدي زوجته وولده فإن لم يكن فعلى يدي قرابته » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يعيرونه بضيق اليد فيتكلف مالا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة »^(٤) ، وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يستغنى المتأهل عن

(١) حديث « مثل الذي يسلم الحكة ثم لا يحمل منها لا شر ما يسمع كمثل رجل آتى راعيا فقال يا راعي اجر لي شاة من غنمك ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٢) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص « إذا رأيت الناس مرحت عهودهم وخفت أماناتهم ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم واليلة بإسناد حسن . (٣) حديث أبي سعيد الخدري « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » رواه البخاري . (٤) حديث ابن مسعود « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهر إلى شاهر » تقدم في النكاح

المعيشة والمخالطة ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى ، ولست أقول : هذا أو أن ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ، ولأجله قال سفيان : والله لقد حلت العزلة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام المهرج قلت : وما المهرج ؟ قال : حين لا يأمن الرجل جليسه ، قلت : فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال : كف نفسك ويدك وادخل دارك ، قال : قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل على داري ؟ قال : فادخل بيتك ، قلت : فإن دخل على بيتي ؟ قال : فادخل مسجدك واصنع هكذا ، وقبض على الكوع ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وقال سعد - لما دعى إلى الخروج أيام معاوية - لا ... إلا أن تعطوني سيفاً له عينان بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه ، وقال : مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء فينبأهم كذلك يسرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم ؛ فقال بعضهم الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتأهوا وضلوا ، وقال بعضهم ذات الشمال فأخذوا فيها فتأهوا وضلوا ، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهب الريح وتبينت الطريق فسافروا . فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخاطبوا إلا بعد زوال الفتن . وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له : أين تريد ؟ فقال : العراق . فإذا معه طوامير وكتب ؛ فقال : هذه كتبهم ويبيعهم فقال : لا تنتظر إلى كتبهم ولا تأتهم ؛ فأبى ، فقال : إني أحدثك حديثاً ؛ جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يليها أحد منكم أبداً وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم ، فأبى أن يرجع ، فاعتنقه ابن عمرو بكى وقال : أستودعك الله من قتيل أو أسير (١) . وكان في الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلاً . وجلس طاوس في بيته فقيل له في ذلك فقال : فساد الزمان وحيث الأئمة . ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له : لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : رأيت مساجدكم لاهية وأسواقكم لاغية والفاحشة في فجاجكم عالية وفيها هناك عما أنتم فيه عافية . فإذا الحذر من الخصومات ، ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة .

الفائدة الرابعة : الخلاص من شر الناس

فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنيمة أو الكذب فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيستخذون ذلك ذخيرة عندهم يذكرونها لوقت تظهر فرصة للشر ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم ؟ : ما هما ؟ قال :

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال

ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بحمال

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسوء الظن به ويتوهم أنه يستعد

(١) حديث ابن مسعود : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام المهرج قلت : وما المهرج ؟ قال : حين لا يأمن الرجل جليسه ... الحديث « أخرجه أبو داود مختصراً والخطابي في العزلة بتمامه وفي إسناده عند الخطابي انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته . (٢) حديث ابن عمر : أنه لما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام ... الحديث . وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة . رواه الطبراني مقتصراً على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل : على مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه الزوار بنحوه ولمسنداً حسن .

لمعاداته ونصب المسكيدة عليه وتدسيس غائلة وراءه فالتاس مهما اشتد حرصهم على أمر (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم) وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها . قال المتنبي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عاداته فأصبح في ليل من الشك مظلم

وقد قيل : معاشره الأشرار تورث سوء الظن بالآبرار . وأنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه ومن يختلط به كثيرة : ولسنا نطول بتفصيلها ففيا ذكرناه إشارة إلى مجامعها ، وفي العزلة خلاص من جميعها . وإلى هذا أشار الأكثر من اختار العزلة . فقال أبو الدرداء : أخبر ثقله ، يروى مرفوعا . وقال الشاعر :

من حمد الناس ولم يبلهم ثم بلاهم ذم من يحمد
وصار بالوحدة مستأنسا يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضي الله عنه : في العزلة راحة من القرين السوء . وقيل لعبد الله بن الزبير : ألا تأتي المدينة ؟ فقال : ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة . وقال ابن السكك : كتب صاحب لنا ، أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لا دواء له ففتر منهم فرارك من الأسد . وكان بعض الأعراب يلزم شجرا ويقول : هو نديم فيه ثلاث خصال ، إن سمع مني لم ينم علي ، وإن تفلت في وجهه احتمل مني ، وإن عربت عليه لم يغضب ، فسمع الرشيد ذلك فقال : زهدني في الندماء ، وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر ف قيل له ذلك فقال : لم أر أسلم من وحدة ولا أوعظ من قبر ، ولا جليسا أمتع من دفتر ، وقال الحسن رضي الله عنه : أردت الحج فسمع ثابت الثاني بذلك - وكان أيضا من أولياء الله - فقال : بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك ، فقال له الحسن : ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا لئني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ماتمات عليه . وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة وهو بقاء السر على الدين والبروة والأخلاق والفقر وسائر العورات . وقد مدح الله سبحانه المتستري فقال (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) وقال الشاعر :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى في الدين والدنيا سترها ولا تبقى السلامة مع انكشافها . وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقا لاشوك فيه فالتاس اليوم شولا لا ورق فيه . إذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر . وقال سفيان بن عيينة : قال لي سفيان الثوري - في اليقظة في حياته وفي المنام بعد وفاته - أقلل من معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت : وقال بعضهم : جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده ، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته . فذهب أطرده فقال : دعه ياهذا هذا لا يضر ولا يؤذى وهو خير من جليس السوء . وقيل لبعضهم : ما حملك على أن تعتزل الناس ؟ قال : خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر . وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء . وقال أبو الدرداء : اتقوا الله واحذروا الناس فإنهم ماركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه . وقال بعضهم : أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك ، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع . وقال بعضهم : أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف .

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس . فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعبادة المريض وحضور الولائم والإملاكات ، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات ، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار فيقولون لهقت بحق فلان وقصرت في حقنا ، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قيل : من لم يعد مريضا في وقت العيادة اشتبهى موته خيفة من تخجيله إذا صح على تقصيره . ومن عهم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ، ولو خصص استوحشوا . وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا ؟ قال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء . وقال ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعي رحمه الله : أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام . وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الحثيئة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك . ومهما اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ، انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ^(١) ، وقال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء فلم أزل منغوما ، كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي فجالست الفقراء فاسترحت . وحكى أن المزني رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهره مارأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى ﴿ وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ ثم قال بلى أصبر وأرضى ، وكان فقيرا مقلا . فالذي هو في بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن . فإن من شاهد زينة الدنيا فإذا أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر - وهو أمر من الصبر - أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلك هلاكا مؤبدا ، أما في الدنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الدنيا تيسر له ، وأما في الآخرة فإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتفكرت إليه . ولذلك قال ابن الأعرابي :

إذا كان الذل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر

أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلا .

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحق ومقاساة حقهم وأخلاقهم ، فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر . قيل للأعمش : مم عمشت عيناك ؟ قال : من النظر إلى الثقلاء . ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال : في الخبر « إن من

(١) حديث « انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

سلب الله كريمتيه عوضه الله عنهما ما هو خير منهما ^(١) ، فما الذى عوضك ؟ فقال - فى معرض المطالبة - عوضنى الله منهما أنه كفى روية الثقلاء وأنت منهم . وقال ابن سيرين : سمعت رجلا يقول نظرت إلى ثقیل مرة فغشى على . وقال جالينوس : لكل شىء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلاء . وقال الشافعى رحمه الله : ما جالست ثقیلا إلا رجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أثقل على من الجانب الآخر .

وهذه الفوائد ماسوى الأولین متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضا تتعلق بالدين . فإن الإنسان مهما تأذى بروية ثقیل لم يأمن أن يغتابه وأن يستنكر ما هو صنع الله ، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو حاسدة أو نيممة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافاته . وكل ذلك يجر إلى فساد الدين وفى العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

آفات العزلة

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة . فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة ، وفوائده من آفات العزلة . فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعى إليها ما هى ، وهى التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاسيئاس والإيناس ، ونيل الثواب وإنالته فى القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها . فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهى سبع :

الفائدة الأولى : التعليم والتعلم

وقد ذكرنا فضلها فى كتاب العلم وهما أعظم العبادات فى الدنيا . ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضرورى فى الدنيا . فالحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة . وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل . وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الحسran . ولهذا قال النخعى وغيره : تفقه ثم اعتزل فمن اعتزل قبل التعلم فهو فى الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر فى هوس ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ، ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ويبطل عمله بحيث لا يدري ، ولا ينفك اعتقاده فى الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد . فالعلم هو أصل الدين فلاخير فى عزلة العوام والجهال ، أعنى من لا يحسن العبادات فى الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزم فيها . فثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلف يعالجه ، فالمرضى الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لاهماله مرضه . فلا تليق العزلة إلا بالعالم وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم . ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والاتباع فهو هلاك الدين . وقد ذكرنا وجه ذلك فى كتاب العلم .

وحكم فى العالم فى هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه . فإنه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه ، بل لا طالب إلا لكلام مزخرف . يستميل به العوام فى معرض الوعظ أو الجدل - معقد يتوصل به إلى إغرام الأقران ويتقرب به إلى السلطان ويستعمل فى معرض المنافسة والمباهاة ، وأقرب علم مرغوب فيه : المذهب ، ولا يطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال وتولى الولايات واجتلاب الأموال . فهؤلاء كلهم يقتضى الدين والحزم الاعتزال عنهم ،

(١) حديث « من سلب الله كريمتيه عوضه الله عنهما ما هو خير منهما » أخرجه الطبرانى بإسناد ضعيف من حديث جرير « من سلبت كريمتيه عوضته عنهما الجنة » وله وأحمد نحوه . من حديث أبى أمامة بسند حسن ، والبخارى من حديث أس « يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم سبر عوضته منهما الجنة » يريد عينيه .

فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبار الاعترال عنه وكتبان العلم منه ، وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف .

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بقول سفيان : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله ، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله . وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا ، وهم هلكت على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أوراغون عنها وزاهدون فيها ، وليس الخبر كالمعاينة . واعلم أن العلم الذي أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفته سير الأنبياء والصحابة ، فإن فيها التخريف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله فإن لم يؤثر في الحال أثر في المال .

وأما الكلام والفقہ المجرد - الذي يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات - المذهب منه والخلاف لا يرد الرغب فيه للناس إلى الله ، بل لا يزال متباديا في حرصه إلى آخر عمره . ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخص فيه ، إذ يرجي أن ينزجر به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا ، وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب . فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالا من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه ، وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الإدلال على الجهال والتكبر عليهم ، فأفة العلم الخيلاء ^(١) كما قال صلى الله عليه وسلم . ولذلك حكى عن بشر أنه دفن سبعة عشر قطرا من كتب الأحاديث التي سمعها ، وكان لا يتحدث ، ويقول : لقي أشتهى أن أحدث فلذلك لا أحدث ولو اشتيت أن لا أحدث لحديث ، ولذلك قال « حدثنا » باب من أبواب الدنيا ، وإذا قال الرجل « حدثنا » فإنما يقول أوسعوا لي . وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري : نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا ، قال : وفيماذا رغبتي ؟ قالت : في الحديث . ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا . فهذه آفات قد نهينا عليها في كتاب العلم ، والحزم الاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن ، بل الذي يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له إن كان غافلا في مثل هذا الزمان أن يتركه . فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال : دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال ، إخوان العلانية أعداء السر ، إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقبيا وإذا خرج كان عليك خطيبا ، أهل نفاق ونميمة وغل وخديعة ، فلا تغتر باجتماعهم عليك فاعرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلما إلى أوطارهم وأغراضهم وحمارا في حاجاتهم ، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك ، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لديك ، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم ، وتنتهض لهم سفيرا وقد كنت فقيها ، وتكون لهم تابعا خسيسا بعد أن كنت متبوعا رئيسا . ولذلك قيل : اعتزال العامة مروءة تامة . فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه ، وهو حق وصدق . فإنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة عن يتردد إليهم فكأنه يهدى تحفه إليهم ويرى حقه واجبا عليهم . وربما لا يختلف إليه مالم يتسكف برزق له على الإدرار . ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله ، فلا يزال مترددا إلى أبواب السلاطين ويقاسى الذل والشدة مقاساة الذليل

(١) حديث « آفة العلم الخيلاء » المعروف مارواه مطين في مسنده من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف « آفة العلم النسيان وآفة الحال الخيلاء » .

المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام ، ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتنعه ويستذله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه إن سوى بينهم مقتته الميزون ونسبوه إلى الحق وقلة التميز والقصور عن درك مصارفات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل ، وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بالسنة حداد وثاروا عليه ثوران الأسود والآساد ، فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم في العقبي . والعجب أنه مع هذا البلاء كله يعني نفسه بالباطيل ويدلها بجبل الغرور ويقول لها ، لا تفترى عن صنيعك فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ومذبة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشرة علم دين الله وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله ، وأموال السلاطين لا مال لك لها وهي مرصدة للمصالح وأي مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم ؟ فيهم يظهر الدين ويتقوى أهله . ولولم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام ، فتلحظهم أعين الجاهل ويستجرون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لأنارهم . ولذلك قيل : ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء . فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذي ليس له دواء ،

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع

أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة . وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة أن طلب موافقة الشرع فيه - كما ذكرناه في كتاب الكسب - فإن كان معه مال لو اكتفى به قانعا لأنفعه فالعزلة أفضل له إذا أنسدت طرق المكاسب في الأكثر إلى من المعاصي ، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة . فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاستغال بالنافلة ، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله ؛ أعنى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصرة لآعن أو هام وخيالات فاسدة .

وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بمحاجاتهم على سبيل الحسبة . ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة . ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية ، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره ألبتة .

الفائدة الثالثة : التأديب والتأدب

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسرا للنفس وقهرا للشهوات . وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة ، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تهذب أخلاقه ولم تدعن لحدود الشرع شهواته ، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كسرا لرعونة النفس واستمدادا من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهمهمهم إلى الله سبحانه . وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الخالية والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين ، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثير بالاستتباع والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الاتباع ، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر ، وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة : وذلك عما يحتاج إليه في بداية الإرادة : فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها بل المراد منها أن تتخذ

مركبا يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق ، فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها ، فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال في عضها ورفسها ورمحها ، وهي لعمري فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل في الهيمة الميتة ، وإنما ترد الدابة لفائدة تحصل من حياتها ، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل بالنوم والموت ، ولا ينبغي أن يقتنع به كالراهب الذي قيل له : ياراهب ، فقال : ما أبا راهب إنما أنا كلب عقور حبست نفسي حتى لا أعقر الناس : وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه ، فإن من قتل نفسه أيضا لم يعقر الناس ، بل ينبغي أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها . ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة . فأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولا والعزلة آخرها .

وأما التأديب فأنما نعى به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم ، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم ، وحاله حال المعلم وحكمه ، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن تخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبه العلم ، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبه العلم كثرة . فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخاوة بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم ، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل ، وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفي ولا إثبات .

الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيناس

وهو غرض من يحضر الولايم والدعوات ومواضع المعاشرة والانس ، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال . وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته ، أو على وجه مباح . وقد يستحب ذلك الأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالانس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى . وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتيسير دواعي النشاط في العبادة ، فإن القلوب إذا أكرهت عييت ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة انس يروح القلب فهي أولى ، إذ الوفاء في العبادة من حزم العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يمل حتى تملوا »^(١) ، وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح ؛ وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة وهذا عنى بقوله عليه السلام « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة : لدخلت بلادا لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ فلا يستغنى المعتزل إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة ساعة فليجهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته فقد قال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحداكم من يخالل^(٢) ، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتمام إلى الرشيد ، ففي ذلك متنفس ومتروح للنفس ، فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة ، والراضى عن نفسه مغرور قطعا . فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة في حق بعض الأشخاص

(١) حديث « إن الله لا يمل حتى تملوا » تقدم . (٢) حديث « المرء على دين خليله » تقدم في آداب الصعجة .

فليتفقد فيه أحوال القلب وأحوال المجلس أولاً ثم ليجالس .

الفائدة الخامسة : في نيل الثواب وإنالته

أما النيل فبحضور الجنائز وعبادة المريض وحضور العيدين ، وأما حضور الجمعة فلا بد منه . وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا لحوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه ، وذلك لا يتفق إلا نادراً . وكذلك في حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم .

وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم فإنهم ينالون بذلك ثواباً ، وكذلك إذا كان من العلماء وإذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة ، وكان هو بالتسكين سبباً فيه فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتنا التي ذكرناها ، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة . فقد حكى عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعبادة المرضى وحضور الجنائز بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور ، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلال الجبال تفرغاً للعبادة وفراراً من الشواغل .

الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع ، فإنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه في الوحدة ، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة . فقد روى في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفاً في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة ، فأوحى الله إلى نبيه : قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقاً وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً ، قال : فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال : الآن قد بلغت رضا ربى ، فأوحى الله إلى نبيه قل له : إنك إن تبلغ رضاى حتى تخالط الناس وتصبر على أذامهم ، تخرج فدخل الأسواق وغالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه : الآن قد بلغ رضاى . فكم من معزول في بيته وباعثه الكبر وممانعه عن المحافل أن لا يوفق أو لا يقدم ، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأتقى لطراوة ذكره بين الناس ، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو غلط فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سقراً على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبد من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر ، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ، ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقبيلهم أيديهم على نسيل التبرك ، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يبغي إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زيارتهم له ، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال : وهل جئتني إلا لاترين لك وتزين لى . وعن حاتم الأصم أنه قال للامير الذى زاره : حاجتى أن لا أراك ولا ترائى . فمن ليس مشغولاً بنفسه بذكر الله فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس ، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام . والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه ، أحدها : أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه إذ كان على رضى الله عنه يحمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول :

لا ينقص الكامل من كماله ما جز من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود رضى الله عنهم يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول - وهو والى المدينة والحطب على رأسه - طرّفوا لأميركم . وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه ؛ فيقول له صاحبه : أعطنى أحمله فيقول : صاحب الشيء أحق بحمله (١) ، وكان الحسن بن علي رضى الله عنهما يمر بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقولون : هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول ﴿إن الله لا يحب المستكبرين﴾ الوجه الثانى : أن الذى شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يفتنون عنه من الله شيئا ؛ وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله وأسخط عليه وأسخط عليه الناس ، بل رضا الناس غاية لا تتال ، فرضا الله أولى بالطلب . وإذ ذلك قال الشافعى ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله ؟ ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما وفاز بالجنة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا - لشيء أمره به - فقال : يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس ، فالتفت إلى أصحابه وقال : لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين ؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه ، وأن أحدا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه . وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأى حال يرويه . وقال الشافعى رحمه الله : ليس من أحد إلا وله محب ومبغض فإذا كان هكذا فكأن مع أهل طاعة الله وقيل للحسن : يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتغنيتك بالسؤال ؛ فتبسم وقال للقائل : هون على نفسك فأنى حدثت نفسى بسكتى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت وما حدثت نفسى بالسلامة من الناس لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم . وقال موسى صلى الله عليه وسلم يارب احبس عني ألسنة الناس فقال : يا موسى هذا شيء لم أصطفه نفسى فكيف أفعله بك ؟ وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزيز : إن لم تطب نفسا بأنى أجعلك عسكاً فى أقواء الماضفين لم أكتبك عندى من المتواضعين . فإذا من حبس نفسه فى البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو فى عناء حاضر فى الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) فإذا لم تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرا وفكرا وعبادة وعلما بحيث لو خالطه الناس لصنعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته . فهذه غوائل خفية فى اختيار العزلة ينبغى أن تتق فانها مهلكات فى صور منجيات .

الفائدة السابعة : التجارب

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم . والعقل الغريزى ليس كافيا فى تفهم مصالح الدين والدنيا . وإنما تفيدها التجربة والممارسة ، ولا خير فى عزلة من لم تحنكه التجارب ؛ فالصبي إذا اعتزل بقى غمرا جاهلا بل ينبغى أن يشتغل بالتعلم ، ويحصل له فى مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك ، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة . ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه فى الخلوة ، فإن كل مجرب فى الخلاء يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبيثه وهذه الصفات مهلكات فى أنفسها يجب إمالتها وقهرها ولا يكتفى تسكينها بالتباعد عما يحركها . فقال القلب المشحون

(١) حديث : كان يشتري الشيء ويحمله إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطنى أحمله فيقول : صاحب المتاع أحق بحمله ، أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حمله السراويل الذى اشتراه .

بهذه الخبائث مثال دمل ممتلئ بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألم يتحرك أو يمسه غيره ، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه وأعتقد فقده ، ولكن لو حركة محرك أو أصابه مشرط حجام لا تفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المحتق إذا حبس عن الاسترسال ، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك . وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يحربون أنفسهم . فمن كان يستشعر في نفسه كبرا سعى في إماطته حتى كان بعضهم يحمل قرية ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق ليحرب نفسه بذلك ؛ فإن غوائل النفس ومكايد الشيطان خفية قل من يتفطن لها ولذلك حكى عن بعضهم أنه قال : أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أني كنت أصلها في الصف الأول ، ولكن تخلفت يوما بعدر فها وجدت موضعا في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر الناس إلى وقد سبقت إلى الصف الأول ، فعلبت أن جميع صلواتي التي كنت أصلها كانت مشوبة بالرياء مزوجة بلذة نظر الناس إلى ورؤيتهم ليأبى في زمرة السابقين إلى الخير . فالخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الخبائث وإظهارها . ولذلك قيل : السفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة . وستأتى غوائل هذه المعاني ودقائقها في ربيع المهلكات ، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير وبالعلم بها يزكو العمل القليل ، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل ، إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد للصلاة إلا أفضل من الصلاة ، فإننا نعلم أن ما يراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه ، وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » (١) ، فعنى تفصيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه (أحدها) ما ذكرناه (والثاني) عموم النفع لتعدى فائدته والعمل لا تعدى فائدته (والثالث) أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل ، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبته ، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم ، وهذا العلم غاية المريدين والعمل كالشرط له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ فالكلم الطيب هو هذا العلم ، والعمل كالحال الرافع له إلى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع . وهذا كلام معترض لا يليق بهذا الكلام . فلنرجع إلى المقصود فنقول : إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائب بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة ، ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ، وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال يابونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط . فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بالأحوال . وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل . هذا هو الحق الصراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر . وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال . والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل ، والعالم هو الذي يدرك الحق على ماهو عليه ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه ، وذلك مما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبدا ، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى . ولذلك سئل الصوفية عن الفقر فامن واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر ، وكل ذلك حق

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي تقدم في العلم .

بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه إذ الحق لا يكون إلا واحدا . ولذلك قال أبو عبدالله الجلاء - وقد سئل عن الفقر - فقال : اضرب بكبيك الحائط وقل رب الله فهو الفقر . وقال الجنيد : الفقير هو الذي لا يسأل أحدا ولا يعارض وإن عورض سكت . وقال سهل بن عبدالله : الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر . وقال آخر : هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك . وقال إبراهيم الخواص : هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى . والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان ، وذلك كله حق من وجه فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه . ولذلك لا نرى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما في التصوف أو يثنى عليه ، بل كل واحد منهم يدعى أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه ؛ لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم . ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف . ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال - بالنظر في الظل - فقال بعضهم هو في الصيف قدمان ، وحكى عن آخر أنه نصف قدم ، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام ، وحكى عن آخر أنه خمسة أقدام ، وآخر يرد عليه ؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم ، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه ببلد نفسه ، فصدق في قوله وأخطأ في تخطيطه صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده ، كما أن الصوفي لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه : والعالم بالزوال هو الذي يعرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول في بعضها لا يبقى ظل ، وفي بعضها يطول ، وفي بعضها يقصر فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة .

ه فإن قلت : فمن أثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم فما آدابها في العزلة ؟ فنقول : إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة . وأما آداب العزلة فلا تطول فينبغي للمعتزل أن يذوق بعزله كفش نفسه عن الناس أولا ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعا ؛ فهذه آداب نيته . ثم ليسكن في خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر ليحتج ثمرة العزلة ولينعم الناس عن أن يكثرُوا غشيانه وزيارته فيشوش أكثر وقته . وليكف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به ، فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب ، فوقع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض . وأحد مهمات المعتزل قطع الوسوس الصارفة عن ذكر الله . والأخبار ينابيع الوسوس وأصولها . وليقتنع باليسير من المعيشة وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم . وليكن صبرا على ما يلقاه من أذى الجيران وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة ، فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفا عن سيره إلى طريق الآخرة ، فإن السير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب ، وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأرضه ، وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفاسدات القلوب وطلب طرق التحصن منها . وكل ذلك يستدعي الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب في الحال . وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا ينتظر . وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية الساعات . ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا

وما الناس منهمكون فيه ، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدر لنفسه عمرا طويلا ، بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح ، فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخى الأجل . وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة . وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشه الوحدة بعد الموت . وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله عليه ورحمته ، كما قال الله تعالى في الشهداء ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر ، فالجهاد من جاهد نفسه وهواه ^(١) ، كما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم . والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يعنون جهاد النفس .

تم كتاب العزلة ، وبتلوه : كتاب آداب السفر ، والحمد لله وحده

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر ، واستخلص همهم لمشاهدة عجائب صنعه فى الحضر والسفر ، فأصبحوا راضين بمجارى القدر منزهين قلوبهم عن التلفت إلى متنزعات البصر إلا على سبيل الاعتبار بما يسبح فى مسارح النظر ومجارى الفكر ، فاستوى عندهم البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر . والصلاة على محمد سيد البشر وعلى وصحبه المقتفين لأئماره فى الأخلاق والسير وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه . والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والقلوات ، وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات . وأشرف السفيرين السفر الباطن . فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة ، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والاجداد ، لازم درجة القصور وقانع بمرتبة النقص ومستبدل بمسح فضاء ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ ظلمة السجن وضيق الحبس ، ولقد صدق القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه فى خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخفير ، فاقتضى غموض السبيل وفقد الخفير والدليل وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل ، اندرس مسالكه . فانقطع فيه الرفاق وخلا عن الطائفتين متنزعات الأنفس والملوك والآفاق . وإليه دعا الله سبحانه بقوله ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى ﴿ وإنكم لتتزون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ وبقوله سبحانه ﴿ وكأين

(١) حديث « الجاهد من جاهد نفسه وهواه » أخرجه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله « وهواه » وقد تدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .

من آية في السموات والأرض يمزون عليها وهم عنها معرضون ﴿ فن يسر له هذا السفر لم يزل في سيره متنزها في جنة عرضها السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقر في الوطن . وهو السفر الذي لا تضيق فيه المناهل والموارد ولا يضرب فيه التزاحم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائه وتتضاعف ثمراته وفوائده ؛ ففنايمه دائمة غير ممنوعة وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلا إذا بدا للمسافر فترة في سفره ووقفة في حركته فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا زاغوا أزاع الله قلوبهم وما الله بظلام للعبيد ، ولكنهم يظلمون أنفسهم ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان ربما سافر بظاهر بدنه في مدة مديدة فراسخ معدودة معتتبا بها تجارة الدنيا أو ذخيرة للآخرة ، فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكي سبيل الآخرة ، وكان له في سفره شروط وآداب إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان ، وإن واطب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بعالم الآخرة ، ونحن نذكر آدابه وشروطه في بابين إن شاء الله تعالى . (الباب الأول) في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان . (الباب الثاني) فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات .

الباب الأول

في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان :

الفصل الأول : في فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة ، وفيه فوائد وله آفات - كما ذكرناه في كتاب الصحة والعزلة . والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب . فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه ، وإما أن يكون له مقصد ومطلب .

والمهرب عنه إما أمر له نكاي في الأمور الدنيوية . كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد أو خوف سيئه فتنة أو خصومة أو غلاء سعر . وهو إما عام كما ذكرناه أو خاص كمن يقصد بأذية في بلدة فيهرب منها . ولما أمر له نكاي في الدين كمن ابتلى في بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصده عن التجرد لله ، فيؤثر الغربة والخول ويحتجب السعة والجاه ، أو كمن يدعى إلى بدعة قهرا أو إلى ولاية عمل لا تحمل مباشرته فيطلب الفرار منه .

وأما المطلوب فهو إما دنيوى كالمال والجاه أو ديني ، والديني إما علم وإما عمل .

والعلم إما علم من العلوم الدينية وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة ؛ وإما علم بآيات الأرض وعجائبها كسفر ذي القرنين وطوافه في نواحي الأرض .

والعمل إما عبادة وإما زيارة . والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد . والزيارة أيضا من القربات وقد يقصد بها مكان كسكة والمدينة وبيت المقدس . والثغور فإن الرباط بها قرينة . وقد يقصد بها الأولياء والعلماء وهم إما موق فتزار قبورهم ولما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة في الاقتداء بهم .

فهذه هي أقسام الأسفار ويخرج من هذه القسمة أقسام :

القسم الأول : السفر في طلب العلم ، وهو إما واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا . وذلك

العلم إما علم بأمور دينه أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه . وقد قال عليه السلام « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »^(١) ، وفي خبر آخر « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »^(٢) ، وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد . وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا . ورحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهرا في حديث بلغهم عن عبد الله أنيس الأنصاري يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه^(٣) وكل مذكور في العلم محصل له - من زمان الصحابة إلى زماننا هذا - لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله ، وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضا مهم فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه : ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها . وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخرج الله الحجب في السموات والأرض وإنما سمي السفر - سفرا - لأنه يسفر عن الأخلاق : ولذلك قال عمر رضي الله عنه للذي زكى عنده بعض اليهود : هل صحبتك في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه ؟ فقال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه . وكان بشر يقول : يا معشر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب ، وإذا طال مقامه في موضع تغير . وبالجملة فإن النفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خباثت أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة وامتخت بمشاق الغربة انكشفت غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها . وقد ذكرنا في كتاب العزلة فوائد المخاطلة والسفر بخاطلة مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق .

وأما آيات الله في أرضه في مشاهدتها فوائده للمستبصر ، ففيها قطع متجاورات وفيها الجبال والبراري والبحار وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد . وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وما أريد بالسمع السمع الظاهر - فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه - وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات . ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات . فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو لفظ وراء نطق المقال يشبه قول القائل - حكاية لكلام الوجد والحائط - قال الجدار للوجد : لم تشقني ؟ فقال : سل من يدقني ، ولم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي . وما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شهادات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها ، وأنواع شهادات لصانعها بالتقدس هي تسبيحها ، ولكن لا يفقهون تسبيحها - لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ومن ركا كلسان المقال

كتاب آداب السفر

الباب الأول . في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

(١) حديث « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب (٢) حديث « من سلك طريقا يلتمس فيه علما ... الحديث » رواه مسلم وتقدم في العلم (٣) حديث : رحل جابر ابن عبد الله من المدينة إلى مسيرة شهر في حديث بلغه عن عبد الله بن أنيس . أخرجه الخطيب في كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابي وقال البخاري في صحيحه : رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد ورواه أحمد إلا أنه قال إلى الشام وإسناده حسن ، ولأحمد أن أبا أيوب ركب إلى عقبة بن عامر إلى مصر في حديث ، وله أن عقبة بن عامر أتى سلمة بن مخلد وهو أمير مصر في حديث آخر وكلاهما منقطع .

إلى فصاحة لسان الحال - ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام محتصا بفهم منطق الطير ولما كان موسى عليه السلام محتصا بسماع كلام الله تعالى الذي يجب تقديسه عن مشابهة الحروف والأصوات . ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرات ، فماله وللتردد في الفلوات وله غنية في ملكوت السموات ؟ فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات . وهي إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات ، بل هي دائبة في الحركة على توالي الأوقات . فن الغرائب أن يدأب في الطواف بآحاد المساجد من أمرت الكعبة أن تطوف به ، ومن الغرائب أن يطوف في أكفاف الأرض من يطوف به أقطار السماء . ثم مادام المسافر مفتقرا إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد في المنزل الأول من منازل السائر إلى الله والمسافرين إلى حضرته ، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يفيض به المسير إلى متسع الفضاء ، ولا سبب لطول المقام في هذا المنزل إلا الجبن والقصور . ولذلك قال بعض أرباب القلوب : إن الناس ليقولون افتحوا أعينكم حتى تبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم حتى تبصروا ، وكل واحد من القولين حق إلا أن الأول خبر عن المنزل الأول القريب من الوطن ، والثاني خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التي لا يطوها إلا مخاطر بنفسه ؛ والمجاوز إليها ربما يتيه فيها سنين وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل ، وإلهالكون في التيه هم الأكثر من ركاب هذه الطريق ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق طلابه ، ومهما عظم المطلوب قل المساعد . ثم الذي يهلك أكثر من الذي يملك . ولا يتصدى لطلب الملك العاجز الجبان لعظيم الخطر وطول التعب :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك في الدين والدنيا إلا في حيز الخطر . وقد يسمى الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحدركما قيل :

تري الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله في الأرض .

فلنرجع إلى الغرض الذي كنا نقصده ولنبين القسم الثاني : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحج ، ويدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته . ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام « لاتشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ^(١) ، لأن ذلك في المساجد ، فإنها متماثلة بعد هذه المساجد ، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله .

وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات . والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء وبركة النظر إليهم

(١) حديث « لاتشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد ... الحديث » تقدم في الحج .

فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة . وفيه أيضا حركة للرغبة في الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم ؛ هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم كيف وبمجرد زيارة الإخوان في الله فيه فضل ؟ كما ذكرناه في كتاب الصحبة . وفي التوراة : سر أربعة أميال زر أخا في الله .

وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها . فالحديث ظاهر في أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة . وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب الحج .

ويدت المقدس أيضا له فضل كبير . خرج ابن عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ثم كر راجعا من الغد إلى المدينة . وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل : أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه ؛ أن لا تصرف نظرك عنه مادام مقيا فيه حتى يخرج منه ؛ وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك .

التسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشقش للدين . وذلك أيضا حسن فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين .

ومما يجب الهرب منه الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب ، والدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله ، فإن لم يتم فراغه فلا يتصور أن يشتغل بالدين . ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ؛ ولكن يتصور تخفيفها وتثقلها وقد نجا المخفون وهلك المشغلون . والحمد لله الذي لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء ، بل قبل الخف بفضلته وشمله بسعة رحمته . والخف هو الذي ليست الدنيا أكبر همه ، وذلك لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علاقته ، فلا يتم مقصوده إلا بالغربة والحنول وقطع العلائق التي لا بد عنها حتى يروض نفسه مدة مديدة . ثم ربما يمدّه الله بمعونته فينعم عليه بما يقوى به يقينه ويطمئن به قلبه فيستوى عنده الحضر والسفر ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها فلا يصده شيء منها عما هو بصده من ذكر الله ، وذلك مما يعز وجوده جدا بل الغالب على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للخلق والخالق ، وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء والأولياء ، والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضا . ومثال تفاوتات القوة الباطنة فيه كتفاوتات القوة الظاهرة في الأعضاء ، فرب رجل قوى ذى مرة سوى شديد الأعصاب محكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلا ، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلا قليلا لم يقدر عليه ، ولكن الممارسة والجهد يزيد في قوته زيادة ما وإن كان ذلك لا يبلغه درجته فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال . وقد كان من عادة السلف رضي الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن . وقال سفيان الثوري : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف على المشتهرين ؟ هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف في موضع تحول إلى غيره . وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثوري وقد علق قلته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : بلغني عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها ، فقلت له : وتفعل هذا ؟ قال : نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لدينك وأقل لهماك وهذا هرب من غلاء السعر . وكان سرى السقطي يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا . وقد كان الخواص لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يوما . وكان من المتوكلين ويرى الإقامة اعتمادا على الأسباب قادحا في التوكل . وسيأتي أسرار

الاعتماد على الأسباب في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

القسم الرابع : السفر هرباً عما يقدح في البدن كالطاعون ، أو في المال كعلاء السر أو مايجرى مجراه . ولا حرج في ذلك بل ربما يجب الفرار في بعض المواضع ، وربما يستحب في بعض بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد واستحبابه ، ولكن يستثنى منه الطاعون فلا ينبغي أن يفتر منه لورود النهي فيه . قال أسامة بن زيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الوجع - أو السقم - رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقي بعد في الأرض منه ^(١) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فناء أمتي بالطعن والطاعون فقلت : هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون ؟ قال : غدة كعدة البعير تأخذهم في مراقبهم ، المسلم الميت منه شهيد والمقيم عليه المحتسب كالمربط في سبيل الله ، والفاز منه كالفاز من الزحف ^(٢) » وعن مكحول عن أم أيمن قالت . أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ، لا تشرك بالله شيئاً وإن عذبت أو حرقت وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هو لك فأخرج منه . ولا تترك الصلاة عدداً فإن من ترك الصلاة عدداً فقد برئت ذمة الله منه ، وإياك والخمر فإنها مفتاح كل شر : وإياك والمعصية فإنها تسخط الله ، ولا تفر من الزحف ، وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فائت بهم ، أنفق من طولك على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم أخفهم بالله ^(٣) » فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهي عنه وكذلك القدوم عليه . وسيأتى شرح ذلك في كتاب التوكل .

فهذه أقسام الأسفار وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم وإلى محمود وإلى مباح . والمذموم ينقسم إلى حرام كإتيان العبد وسفر العاق ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون . والمحمود ينقسم إلى واجب كالحج وطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم . ومن هذه الأسباب تدبين النية في السفر فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية . ولتكن نيته الآخرة في جميع أسفاره ، وذلك ظاهر في الواجب والمندوب ؛ ومحال في المكروه والمحذور .

وأما للمباح فرجعه إلى النية . فهما كان قصده بطلب المال مثلاً التعفف عن السؤال ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة . ولو خرج إلى الحج وباعته الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ^(٤) » فقوله صلى الله عليه وسلم الأعمال بالنيات عام في الواجبات والمندوبات والمباحات دون المحظورات فإن النية لا تؤثر في إخراجها عن كونها من المحظورات : وقد قال بعض السلف : إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته . فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها ونقص من آخرته أضعافه ؛ وفرق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله . ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفتنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له .

وأما النظر في أن السفر هو الأفضل أو الإقامة ، فذلك يضاهي النظر في أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ؟

(١) حديث أسامة بن زيد « إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ... الحديث » متفق عليه والاعظم لمسلم .

(٢) حديث عائشة « إن فناء أمتي بالطعن والطاعون ... الحديث » رواه أحمد وابن عبد البر في التمهيد بإسناد جيد .

(٣) حديث أم أيمن : أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أهله « لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار » أخرجه البيهقي وقال فيه لمؤسسه .

(٤) حديث « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم .

وقد ذكر منهاجه في كتاب العزلة فليفهم هذا منه فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الأكثرين . والافضل في هذا ما هو الاعون على الدين : ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الانس بذكر الله تعالى ، والانس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر . ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما . والسفر هو المعين على التعلم في الابتداء . والإقامة هي المعينة على العمل بالعلم في الانتهاء . وأما السياحة في الأرض على الدوام فن المشوشات للقلب إلا في حق الأقوياء ، فإن المسافر وماله لعل قلق إلا ما وفي الله ، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله ، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده في إقامته . وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر ، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع . ثم الشغل بالخط والترحال مشوش لجميع الأحوال ، فلا ينبغي أن يسافر المرید إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته وتستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته ، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالكون أولى به ، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار - لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال ولم يحصل لهم انس بالله تعالى وبذكره في الخلوة وكانوا بطلان غير محترفين ولا مشغولين - قد ألقوا البطالة واستثقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب واستلنوا جانب السؤال والكدية ، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد ، واستسخرروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم واستخفوا عقولهم وأديانهم : من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال لتعلا بكثرة الاتباع ، فلم يكن لهم في الخانقاهات حكم ناقد ، ولا تأديب للمريدين نافع ، ولا حجر عليهم قاهر ، فبسوا المرقعات واتخذوا في الخانقاهات متزهات ، وربما تلقفوا ألفاظا مزخرفة من أهل الطامات ، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في خرقتهم وفي سياحتهم وفي لفظهم وعبارتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيرا ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة ، ويتوهمون أن المشاركة في الظاهر توجب المساهمة في الحقائق وهيئات ! فما أغر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم ؟ فهؤلاء بغضاء الله فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ . ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ ، إلا من سافر لحج أو عمرة في غير رياء ولا سمعة ، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدى به في علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن . والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل ، لأن العلوم لم تدرس بعد ، والعالم وإن كان عالم سوء فلنما فساد في سيرته لافي علمه ، فيبقى عالما غير عامل بعلمه ، والعمل غير العلم . وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ماسوى الله . وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح . ومهما فسد العمل فات الأصل . وفي أسفار هؤلاء نظر للفقهاء من حيث إنه إتعاب للنفس بلا فائدة ، وقد يقال إن ذلك ممنوع . ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإن حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة ، وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفس المتحركين لهذه الحظوظ أيضا خسيسة ، ولا بأس بإتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه ، فهو المتأذى والمتلذذ . والفتوى تقتضى تشتيت العوام في المباحات التي لا نفع فيها ولا ضرر : فالساجون في غير مهم في الدين والدنيا بل لمحض التفرج في البلاد كالبهائم المترددة في الصحارى فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم ولم يلبسوا على الخاق حالهم ، وإنما عصيانهم في التلبيس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية ، لأن الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه مع صفات أخر

وراء الصلاح ، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين ، وأكل الحرام من الكبائر فلا تبقى معه العدالة والصلاح ، ولو تصوّر صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وفقه يهودى . وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر في دينه على القدر الذى يحصل به العدالة . وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعظامهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان مأكلوه سمّاً ، وأغنى به إذا كان المعطى بحيث لو عرف بواطن أحوالهم وأعظامهم : فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الدعوى ، ومن زعم أنه علوى وهو كاذب وأعطاه مسلم مالا لحبه أهل البيت ولو علم أنه كاذب لم يعطه شيئاً فأخذه على ذلك حرام ، وكذلك الصوفي . ولهذا احتز المحتاطون عن الأكل بالدين فإن المبالغ في الاحتياط لدينه لا ينفك في باطنه عن عورات لو انكشفت للراغب في مواساته لفترت رغبته عن المواساة . فلا جرم كانوا لا يشترطون شيئاً بأنفسهم مخافة أن يسامحوا لأجل دينهم فيكونوا قد أكلوا بالدين . وكانوا يولكون من يشتري لهم ويشترطون على الوكيل أن لا يظهر أنه لمن يشتري . نعم إنما يحل أخذ ما يعطى لأجل الدين إذا كان الأخذ بحيث لو علم المعطى من باطنه ما يعلمه الله تعالى لم يقتض ذلك فتوراً في رأيه فيه ، والعاقل المنصف يعلم من نفسه أن ذلك ممتنع أو عزيز ؛ والمغرور الجاهل بنفسه أخرى بأن يكون جاهلاً بأمر دينه : فإن أقرب الأشياء إلى قلبه قلبه فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ؟ ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لا محالة أن لا يأكل إلا من كسبه ليأمن من هذه الغائلة ، أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعاً أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنع ذلك عن مواساته . فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره فليصرح له ، وليقل إنك إن كنت تعطينى لما تعتقده في من الدين فلست مستحقاً لذلك ، ولو كشف الله تعالى سترى لم ترفى بعين التوقير ، بل اعتقدت أبى شر الخلق أو من شرارهم ، فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ ، فإنه ربما يرضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه . ولكن ههنا مكيدة للنفس بيئة ومخادعة فليستفطن لها ، وهو أنه قد يقول ذلك مظهرًا أنه متشبه بالصالحين في ذمهم نفوسهم واستحقاقهم لها ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء ، فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء ، فكم من ذام نفسه وهو لها مادح بعين ذمه ، فذم النفس في الخلوة مع النفس هو المحمود . وأما الذم في الملاء فهو عين الرياء إلا إذا أوردته إيراداً يحصل للمستمع يقيناً بأنه مقترف للذنوب ومعتزف بها . وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ويمكن تليسه بقرائن الأحوال . والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن مخادعته لله عز وجل أو مخادعته لنفسه محال ، فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك . فهذا هو القول في أقسام السفر ونية المسافر وفضيلته .

الفصل الثانى

في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهى أحد عشر آدبا

الأول : أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون واعداد النفقة لمن تلزمه نفقته . وبرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه . قال ابن عمر رضى الله عنهما من كرم الرجل طيب زاده في سفره . ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام وإظهار مكارم الأخلاق في السفر ، فإنه يخرج خبايا الباطن . ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر : وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر . ولذلك

قيل : إذا أتى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه . والسفر من أسباب الضجر ، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق ، وإلا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق .

وقد قيل ثلاثة لا يلامون على الضجر : الصائم والمريض والمسافر ، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكارى ومعاونة الرفقة بكل ممكن والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإعانة بركوب أو زاد أو توقف لأجله . وتتمام ذلك مع الرفقاء بمزاج ومطابقة في بعض الأوقات من غير غش ولا معصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه .

الثاني : أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده ، فالرفيق ثم الطريق . وليكن رفيقه بمن يعينه على الدين فيذكره إذا نسي ويعينه ويساعده إذا ذكر ، فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أن يسافر الرجل وحده ^(١) وقال : « الثلاثة نفر » ^(٢) وقال أيضا : « إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمرؤا أحدهم ^(٣) ، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون : هذا أميرنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) . وليؤمروا أحسنهم أخلاقا وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة . وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر ، ولا نظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في الكثرة . وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ومهما كان المدبر واحدا انتظم أمر التدبير . وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر ، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمر البلد . وأمير خاص كرب الدار . وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالتأخير . فلهذا وجب التأخير ليجمع شتات الآراء . ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم وأن يجعل نفسه وقاية لهم ، كما نقل عن عبد الله المروزي أنه صحبه أبو علي الرباطي فقال : على أن تكون أنت الأمير أو أنا ، فقال : بل أنت ، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي ظهره فأمرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كساء ، يمنع عنه المطر فكلم قال له عبد الله : لا تفعل ، يقول ، ألم تقل إن الإمارة مسئلة لي ؟ فلا تتحكم على ولا ترجع عن قولك : حتى قال أبو علي : وددت أني مت ولم أقل له أنت الأمير ، فهكذا ينبغي أن يكون الأمير . وقد قال صلى الله عليه وسلم ، خير الأصحاب أربعة ^(٥) ، وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد أن يكون له فائدة ، والذي ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحدا فيبقى في السفر بلا رفيق ، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق ، ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرجل واحدا ، فلا يخلو أيضا عن الخطر وعن ضيق الصدر . فإذا زاد ما دون الأربعة لا يفي بالمقصود ، وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة فلا ينعقد بينهم التوافق ، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ، ومن يستغنى عنه لا تنصرف الهمة إليه فلا تتم المرافقة معه . نعم في كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف

(١) حديث : انتهى عن أن يسافر الرجل وحده . أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخاري بلفظ « لو يعلم الناس ما في الوحدة ما سار راكب بليل وحده » . (٢) حديث « الثلاثة نفر » رويناه من حديث علي في وصيته المشهورة وهو حديث موضوع والمعروف « الثلاثة ركب » رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٣) حديث « إذا كنتم ثلاثة فأمرؤا أحدهم » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن . (٤) حديث : كانوا يفعلون ذلك ويقولون هو أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه الزوار والحاكم عن عمر أنه قال : إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرؤا عليكم أحدهم ذا أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين . (٥) حديث « خير الأصحاب أربعة » أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عباس قال الترمذي حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

ولكن الأربعة خير للرفقة الخاصة لا للرفقة العامة . وكمن رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يخاطب إلى آخر الطريق للاستغناء عنه .

الثالث : أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء : وليدع عند الوداع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله ، فلما أردت أن أفارقه شيعني وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، قال لقمان إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ^(١) ، وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة ^(٢) ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ودع رجلاً قال : زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير حيث توجهت ^(٣) ، فهذا دعاء المقيم للودع . وقال موسى بن وردان : أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته . فقال ألا أعلبك يا ابن أخي شيئاً علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الوداع ، فقلت بلى قال قل : أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه ^(٤) ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أريد سفراً فأوصني فقال له : في حفظ الله وفي كنفه زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث كنت أو أينما كنت ^(٥) ، شك فيه الراوى .

وينبغي إذا استودع الله تعالى ما يخلفه أن يستودع الجمع ولا يخص . فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال له الرجل : أحدثك عنه يا أمير المؤمنين بأمر ، إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعني على هذه الحالة ؟ فقلت : أستودع الله ما في بطنك ، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت ، فجلسنا نتحدث فإذا نار على قبرها فقلت للقوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه النار من قبر فلانة تراها كل ليلة ، فقلت : والله إنها كانت لصوامة قوامة ، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا فإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب ، فقيل لي إن هذه وديعتك ولو كنت استودعت أمه لوجدتها ، فقال عمر رضي الله عنه : هو أشبه بك من الغراب بالغراب .

الرابع : أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة كما وصفناها في كتاب الصلاة . ووقت الخروج يصلي لأجل السفر ، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فألى أى الثلاثة أدفعها ؟ إلى ابني أم أخى أم أبى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلين في بيته إذا شد عليه ثياب سفره ، يقرأ فيهن بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول : اللهم إني أتقرب بهن إليك فأخلفني بهن في أهلى ومالى فهى خليفته في أهله وماله وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله ^(٦) .

(١) حديث ابن عمر : قال لقمان إن الله إذا استودع شيئاً حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك . أخرجه النسائي في اليوم واليلة ورواه أبو داود مختصراً وإسناده جيد . (٢) حديث زيد بن أرقم : « إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة » أخرجه الخرائطى في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف . (٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : كان إذا ودع رجلاً قال زدك الله التقوى . رواه الخرائطى في مكارم الأخلاق والحاملى في الدعاء وفيه ابن لمبة . (٤) حديث أبي هريرة : أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه . أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة بإسناد حسن . (٥) حديث أنس : « في حفظ الله وفي كنفه زدك الله التقوى ... الحديث » يخدم في الحج الباب الثانى . (٦) حديث أنس : أن رجلاً قال لى نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فألى أى الثلاثة أدفعها ؟ إلى أبى أم أخى أم امرأتى فقال : « ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات ... الحديث » أخرجه الخرائطى في مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف .

الخامس : إذا حصل على باب الدار فليقل : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على ، فإذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك اللهم زدني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت . وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه . فإذا ركب الدابة فليقل : بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون . فإذا استوت الدابة تحته فليقل ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور .

السادس : أن يرحل عن المنزل بكرة . روى جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وقال : اللهم بارك لأمتي في بكورها ^(١) . ويستحب أن يبتدئ بالخروج يوم الخميس ، فقد روى عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قلنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس ^(٢) . وروى أنس : أنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم السبت ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية بعثها أول النهار ^(٣) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها ^(٤) ، وقال عبد الله بن عباس : إذا كان لك إلى رجل حاجة فاطلبها منه نهاراً ولا تطلبها ليلاً واطلبها بكرة ، فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، اللهم بارك لأمتي في بكورها ^(٥) .

ولا ينبغي أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصياً بترك الجمعة ، واليوم منسوب إليها - فكان أوله من أسباب وجوبها . والتشجيع للوداع مستحب وهو سنة قال صلى الله عليه وسلم « لأن أشيع مجاهداني سبيل الله فأكتنفه على رحلة غدوة أو زوطة أحب إلى الدنيا وما فيها » ^(٦) .

السابع : أن لا ينزل حتى يحمي النهار فهي السنة ويكون أكثر سيره بالليل . قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار » ^(٧) ، ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أظللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه اصرف عني شر شرارهم . فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ثم ليقل : اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق . فإذا جن عليه الليل فليقل : يا أرض اربني وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما دبك عليك أعوذ بالله

(١) حديث جابر : أنه صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال « اللهم بارك لأمتي في بكورها » رواه الخرائطي وفي السنن الأربعة من حديث صخر العامري « اللهم بارك لأمتي في بكورها » قال الترمذي حديث حسن . (٢) حديث كعب بن مالك : قلنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس والسبت . أخرجه البزار مقتصراً على يوم خميسها والخرائطى مقتصراً على يوم السبت وكلاهما ضعيف . (٣) حديث : كان إذا بعث سرية بعثها أول النهار . أخرجه الأربعة من حديث صخر العامري وحسنه الترمذي . (٤) حديث أبي هريرة « اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها » أخرجه ابن ماجه والخرائطى في مكارم الأخلاق واللفظ له وقال ابن ماجه « يوم الخميس » وكلا الإسنادين ضعيف . (٥) حديث ابن عباس : إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلبها إليه نهاراً ... الحديث . أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرائطى في مكارم الأخلاق واللفظ له واستاده ضعيف . (٦) حديث « لأن أشيع مجاهداً في سبيل الله فأكتنفه على رحلة غدوة أو زوطة أحب إلى من الدنيا وما فيها » رواه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس . (٧) حديث « عليكم بالدجلة .. الحديث . تقدم » في الباب الثاني من الحج .

من شر كل أسد وأسد وحية وعقرب ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد ﴿ وله ماسكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ ومهما علا شرفا من الأرض في وقت السير فينبغي أن يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال ، ومهما هبط سبج ومهما خاف الوحشة في سفره قال : سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

الثامن : أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفردا خارج القافلة - لأنه ربما يقتال أو ينقطع - ويكون بالليل متحفظا عند النوم . كان صلى الله عليه وسلم إذا نام في ابتداء الليل في السفر اقترب ذراعيه وإن نام في آخر الليل نصب ذراعيه نصبا وجعل رأسه في كفه ^(١) . والغرض من ذلك أن لا يستقل في النوم فتطلع الشمس وهو نائم لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره .

والمستحب بالليل أن يتناوب الرفقاء في الحراسة فإذا نام واحد حرس آخر ^(٢) فهذه السنة . ومهما قصد عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي وشهد الله وسور الإخلاص والمعوذتين . وليقل : بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ما شاء الله لا يأتي بالخيرات إلا الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولادون الله ملجأ ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحى القيوم الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكفنا بركك الذى لا يرام اللهم ارحنا بقدرتك علينا فلاتم لك وانت ثقتنا ورجاؤنا اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين .

التاسع : أن يرفق بالدابة إن كان راكبا فلا يحملها مالا تطيق . ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه ، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة : وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي ^(٣) ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وغشية يروحها بذلك ^(٤) فهو سنة وفيه آثار عن السلف .

وكان بعض السلف يكتري بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة . ثم كان ينزل ليكون بذلك محسنا إلى الدابة فيوضع في ميزان حسناته لاني ميزان حسنات المسكاري . ومن آذى بهيمة بضرب أو حمل مالا تطيق طوبى به يوم القيامة إذ في كل كبد حرام أجر . قال أبو الدرداء رضى الله عنه لبعير له عند الموت : أيها البعير لا تخافنى إلى ربك فإنى لم أك أحملك فوق طاقتك . وفي النزول ساعة صدقتان ، إحداهما : ترويح الدابة : والثانية : إدخال السرور على قلب المسكاري . وفيه فائدة أخرى وهى رياضة البدن وتحريك الرجلين . والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب . وينبغي أن يقرر مع المسكاري ما يحمله عليها شيئا شيئا ويعرضه عليه ، ويستأجر الدابة بعقد صحيح لثلاثين يوما نزاع يؤذى القلب ويحمل على الزيادة في الكلام ، فما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد . فليحترز عن كثرة الكلام واللجاج مع المسكاري ، فلا ينبغي أن يحمل فوق المشروط شيئا وإن خف . فإن القليل يجر الكثير ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال رجل لابن المبارك وهو على دابة : احمل لى هذه الرقعة إلى فلان ، فقال : حتى استأذن المسكاري فإنى لم أشرطه على هذه الرقعة . فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن

(١) حديث : كان إذا نام في ابتداء الليل في السفر اقترب ذراعيه ... الحديث « تقدم في الحج . (٢) حديث تناوب الرفقاء في الحراسة . تقدم في الحج في الباب الثاني . (٣) حديث « لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي » تقدم في الباب الثالث من الحج . (٤) حديث : أنزل عن الدابة غدوة وغشية : تقدم فيه .

سلك طريق الورع ؟

العاشر : ينبغي أن يستصحب ستة أشياء . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا سافر حمل معه خمسة أشياء . المرأة والمكحلة والمقراض والسواك والمشط ^(١) ، وفي رواية أخرى عنها ، ستة أشياء : المرأة والقارورة والمقراض والسواك والمكحلة والمشط . وقالت أم سعد الأنصارية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفارقه في السفر المرأة والمكحلة ^(٢) وقال صهيب قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « عليكم بالإيمد عند مضجعتكم فإنه مما يزيد في البصر وينبت الشعر » ^(٣) ، وروى أنه كان يكتحل ثلاثاً ثلاثاً ، وفي رواية : أنه اكتحل لليمنى ثلاثاً ولليسرى ثنتين ^(٤) وقد زاد الصوفية الركوة والحبل . وقال بعض الصوفية : إذالم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل على نقصان دينه . وإنما زادوا هذا لما رأوه من الاحتياط في طهارة الماء وغسل الثياب ، فالركوة لحفظ الماء الطاهر ، والحبل لتجفيف الثوب المغسول ولنزع الماء من الآبار . وكان الأقولون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء . ولا يبالون بالوضوء من الغدران ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها حتى توضع عمر رضي الله عنه من ماء في جرة نصرانية . وكانوا يكتفون بالأرض والجبال عن الحبل فيفرشون الثياب المغسولة عليها . فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة ، وإنما البدعة المذمومة ما تضاد السنن الثابتة ، وأما ما يعين على الاحتياط في الدين فستحسن .

وقد ذكرنا أحكام المبالغة في الطهارات في كتاب الطهارة . وأن المتجرد لأمر الدين لا ينبغي أن يؤثر طريق الرخصة بل يحتاط في الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه .

وقيل كان الخواص من المتوكلين وكان لا يفارقه أربعة أشياء في السفر والحضر : الركوة والحبل والإبرة بخيوطها والمقراض ، وكان يقول : هذه ليست من الدنيا .

الحادي عشر : في آداب الرجوع من السفر : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ^(٥) ، وإذا أشرف على مدينته فليقل : اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً . ثم ليرسل إلى أهله من يبشرهم بقدمه كيلاً يقدم عليهم بغتة فيرى ما يكرهه ، ولا ينبغي له أن يطرقهم ليلاً ^(٦) فقد ورد النهي عنه . وكان صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت ^(٧) وإذا دخل قال : توباً توباً لربنا أوباً أوباً لا يغادر علينا حوباً ^(٨) .

(١) حديث عائشة : كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرأة والمكحلة والمدرى والسواك والمشط . وفي رواية : ستة أشياء . أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه والخرائط في مكارم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث أم سعد الأنصارية : كان لا يفارقه في السفر المرأة والمكحلة . رواه الخرائطي واسناده ضعيف .

(٣) حديث صهيب : عليكم بالإيمد عند مضجعتكم فإنه يزيد في البصر وينبت الشعر . أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف وهو عند الترمذي وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس وصححه ابن عبد البر وقال الخطابي صحيح الإسناد .

(٤) حديث : كان يكتحل لليمنى ثلاثاً ولليسرى ثنتين . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين .

(٥) حديث : كان إذا قفل من حج أو غزو أو غيره يكبر ... الحديث تقدم في الحج . (٦) حديث : النهي عن طرق الأهل ليلاً . تقدم .

(٧) حديث : كان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين . تقدم . (٨) حديث : كان إذا دخل قال : توباً توباً لربنا أوباً أوباً لا يغادر علينا حوباً . أخرجه ابن السني في اليوم واليلة والمالك من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين .

وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنة . فقد روى : أنه إن لم يجد شيئاً فليضع في مخلاته حجراً (١) وكان هذا مبالغة في الاستحاثات على هذه المكرمة لأن الأعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به ، فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكركم بما يستصحب في الطريق لهم فهذه جملة من الآداب الظاهرة

وأما الآداب الباطنة : ففي الفصل الأول بيان جملة منها . وجملة أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر . ومهما وجد قلبه متغيراً إلى نقصان فيقف ولا ينبغي أن يجاوز همه منزله بل ينزل حيث ينزل قلبه وينوي في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ويحتد أن يستفيد من كل واحد منهم أدباً أو كلمة لينتفع بها ، لا ليحكي ذلك ويظهر أنه لقي المشايخ . ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك . ولا يجالس في مدة الإقامة إلا الفقراء الصادقين . وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حد الصياغة إلا إذا شق على أخيه مفارقتها . وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة . ولا يشغل نفسه بالعشرة فإن ذلك يقطع بركة سفره . وكلما دخل بلد لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله ، وإن كان في بيته فلا يدق عليه بابه ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج ، فإذا خرج تقدم إليه بأدب فسلم عليه ، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله ، فإن سأله أجاب بقدر السؤال ، ولا يسأله عن مسألة مالم يستأذن أولاً . وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأصحابها ولا ذكر أصدقائه فيها ، وليذكر مشايخها وفقراءها . ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين بل يتفقدتها في كل قرية وبلدة . ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من يقدر على إزالتها . ويلزم في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره . وإذا كلفه إنسان فليترك الذكر وليجبه مادام يحدثه ثم ليرجع إلى ما كان عليه . فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها فالبركة في مخالفة النفس . وإذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغي له أن يسافر تبرماً بالخدمة فذلك كفران نعمة . ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان عليه في الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع إذ لو كان لحق لظهر أثره . قال رجل لأبي عثمان المغربي : خرج فلان مسافراً ، فقال : السفر غربة والغربة ذلة وليس للمؤمن أن يذل نفسه ، وأشار به إلى أن من ليس له في السفر زيادة دين فقد أذل نفسه وإلا فعز الدين لا ينال إلا بذلة الغربة . فليكن سفر المرید من وطن هوام ومراحه وطبعه حتى يعز في هذه الغربة ولا يذل فإن من اتبع هوام في سفره ذل لا محالة إما عاجلاً وإما آجلاً .

الباب الثاني : فيما لا بد للمسافر من تعلمه

من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

أعلم أن المسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يتزود لمدنيه ولآخرته .

أما زاد الدنيا : فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة . فإن خرج متوكلاً من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره في قافلة أو بين قرى متصلة . وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب فإن كان من يصبر على الجوع - أسبوعاً أو عشرة مثلاً - أو يقدر على أن يكتفي بالحشيش فله ذلك . وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش فخرجه من غير زاد معصية فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة ولهذا سر سيأتي في كتاب التوكل .

(١) حديث لطراق أهل عند القدم ولو بحجر . أخرجه الدارقطني من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية ، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو والحبل ونزع الماء من البئر ، ولو جب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء في فيه . فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح في التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه . وستأتى حقيقة التوكل في موضعها فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين .

وأما زاد الآخرة : فهو العلم الذى يحتاج إليه في طهارته وصومه وصلاته وعبادته فلا بد وأن يتزود منه ، إذ السفر تارة يخفف عنه أمورا فيحتاج إلى معرفة القدر الذى يخففه السفر كالقصر والجمع والفطر ، وتارة يشدد عليه أمورا كان مستغنيا عنها في الحضر كالعلم بالقبلة وأوقات الصلوات ، فإنه في البلد يكتفى بغيره من محارب المساجد وأذان المؤذنين وفي السفر قد يحتاج إلى أن يتعزف بنفسه . فإذا ما يفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : العلم برخص السفر

والسفر يفيد في الطهارة رخصتين : مسح الخفين والتيمم ، وفي صلاة الفرض رخصتين : القصر والجمع ، وفي التفل رخصتين : أداؤه على الرحلة وأداؤه ماشيا ، وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر . فهذه سبع رخص . الرخصة الأولى : المسح على الخفين ، قال صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفرنا أن لا نزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن ^(١) فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافرا ، أو يوما وليلة إن كان مقيما ولكن بخمسة شروط :

الأول : أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها في الخف لم يجوز له المسح عند الشافعى رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسها .

الثاني : أن يكون الخف قويا يمكن المشى فيه ، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن منعلا إذا العادة جارية بالتردد فيه في المنازل لأن فيه قوة على الجملة ، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه وكذا الجرموق الضعيف . الثالث : أن لا يكون في موضع فرض الغسل خرق ، فإن تخرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجوز المسح عليه . وللشافعى قول قديم إنه يجوز ما دام يستمسك على الرجل ، وهو مذهب مالك رضى الله عنه . ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه وتعذر الخرز في السفر في كل وقت . والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساترا لا تبدو بشرة القدم من خلاله ، وكذا المشقوق الذى يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك فلا يعتبر إلا أن يكون ساترا إلى مافوق الكعبين كيفما كان . فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقي باللفافة لم يجوز المسح عليه .

الرابع : أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه ، فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء ، فإن اقتصر على غسل القدمين جاز .

الخامس : أن يمسح على الموضع المحاذى لمحل فرض الغسل لا على الساق ، وأقله ما يسمى مسحا على ظهر القدم

الباب الثانى : فيما لا بد للمسافر من تعلمه

(١) حديث صفوان بن عسال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفرنا أن لا نزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن . أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه والنسائى في الكبرى وابن خزيمة وابن حبان .

من الخف . وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه ، والأولى أن يخرج من شبه الخلاف وأكمله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار (١) كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووصفه : أن يبل اليدين ويضع رءوس أصابع اليمنى من يده على رءوس أصابع اليمنى من رجله ويمسح به أن يمسح أصابعه إلى جهة نفسه ، ويضع رءوس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ويمرهما إلى رأس القدم . ومهما مسح مقيما ثم سافر أو مسافرا ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة . وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف ، فلو لبس الخف في الحضر ومسح في الحضر ثم خرج وأحدث في السفر وقت الزوال مثلا مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلي إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجله ويعيد لبس الخف ، ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث . ولو أحدث بعد لبس الخف في الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث . فأما إذا مسح في الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين .

ويستحب لكل من يريد لبس الخف في حضر أو سفر أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذرا من حية أو عقرب أو شوكة . فقد روى عن أبي أمامة أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفيه فلبس أحدهما ؛ فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » (٢) .

الرخصة الثانية : التيمم بالتراب بدلا عن الماء عند العذر ؛ إنما يتعذر الماء بأن يكون بعيدا عن المنزل بعدا لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث ، وهو البعد الذي لا يعتاده أهل المنزل - في ترددهم لقضاء الحاجة - التردد إليه . وكذا إن نزل على الماء عدو أو سبع فيجوز التيمم وإن كان الماء قريبا . وكذا إن احتاج إليه لعطشه في يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم . وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقاته فلا يجوز له الوضوء ، ويلزمه بذله إما بضمن أو بغير ثمن ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرقعة أو لحوم أو لبيل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم بل عليه أن يجتزى بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقعة . ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله لما فيه من المنة . وإن بيع بضمن المثل لزمه الشراء وإن بيع بغير ثمن لم يلزمه . فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جاز الوصول إليه بالطلب ، وذلك بالتردد حوالى المنزل وتفتيش الرحل وطلب البقايا من الأواني والمطاهر . فإن نسي الماء في رحله أو نسي بئرا بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره في الطلب . وإن علم أنه سيجد الماء في آخر الوقت فالأولى أن يصلي بالتيمم في أول الوقت فإن العمر لا يوثق به . وأول الوقت رضوان الله .

تيمم ابن عمر رضي الله عنهما فليل له : أتتيمم وجدران المدينة تنظر إليك ؟ فقال : أو أبقى إلى أن أدخلها ؟ ومهما وجد الماء بعد الشروع في الصلاة لم تبطل صلاته ولم يلزمه الوضوء . وإذا وجده قبل الشروع في الصلاة لزمه الوضوء .

ومهما طلب فلم يجد فليقتصد صعيدا طيبا عليه تراب يثور منه غبار ، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما

(١) حديث : مسح صلى الله عليه وسلم على الخف وأسفله . أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث المنيرة وهكذا ضعفه البخاري وأبو زرعة . (٢) حديث أبي أمامة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » رواه الطبراني ، وفيه من لا يعرف .

ضربة فيمسح بها وجهه ، ويضرب ضربة أخرى - بعد نزع الخاتم - ويفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى ، وكيفية التلطف فيه ما ذكرناه في كتاب الطهارة فلا نعيده .

ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يتنفل ماشاء بذلك التيمم . وإن أراد الجمع بين فريضتين فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية ، فلا يصلي فريضتين إلا بتيممين . ولا ينبغي أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها ؛ فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم . ولينو عند مسح الوجه : استباحة الصلاة . ولو وجد من الماء ما يكفي لبعض طهارته فيستعمله ثم ليتيمم بعده تيمماً تاماً .

الرخصة الثالثة : في الصلاة المفروضة ، القصر : وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة : (الأول) أن يؤديها في أوقاتها فلو صارت قضاء فلا ظهر لزوم الإتمام (الثاني) أي ينوي القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام ، ولو شك في أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام . (الثالث) أي لا يقتدى بمقيم ولا بمسافر متم ، فإن فعل لزمه الإتمام بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام ، وإن يمتنع بعده أنه مسافر لأن شعار المسافر لا يخفى فليكن متحققاً عند النية ، وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا بعد أن عرف أنه مسافر - لم يضره ذلك ، لأن النيات لا يطلع عليها . وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح .

وحد السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال فلا بد من معرفته . والسفر هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم ، فالهائم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذي لا يقصد موضعاً معيناً ، ولا يصير مسافراً ما لم يفارق عمران البلد ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التي يخرج أهل البلدة إليها للتنزه . وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحيطة دون التي ليست بمحطة . ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه ما لم يجاوز عمران ، وإن لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص إذ صار مسافراً بالانزعاج والخروج منه .

وأما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة : (الأول) الوصول إلى عمران من البلد الذي عزم على الإقامة به . (الثاني) العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعداً إما في بلد أو في صحراء . (الثالث) صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده ، وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازاً ولكنه يتعوق عليه ويتأخر فله أن يترخص وإن طالبت المدة - على أقبيس القولين - لأنه مزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب ، ولا فرق بين أن يكون هذا الشغل قتالاً أو غيره ، ولابن أن تطول المدة أو تقصر ، ولابن أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاؤه ثلاثة أيام أو لغيره ؛ إذ ترخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصر في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد ^(١) . وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه ؛ إذ لا معنى للتقدير ثمانية عشر يوماً . والظاهر أن قصره كان لكونه مسافراً لالكونه غازياً مقاتلاً هذا معنى القصر .

وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين : كل مرحلة ثمانية فراسخ ، وكل فرسخ ثلاثة أميال ، وكل ميل

(١) حديث : قصره صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد . أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين في قصة الفتح : فأقام بمكة ثمانية عشر ليلة لا يصلي إلا ركعتين . والبخاري من حديث ابن عباس : أقام بمكة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة . ولأبي داود : سبعة عشر . بتقديم السين وفي رواية له : خمسة عشر .

أربعة آلاف خطوة ، وكل خطوة ثلاثة أقدام .

ومعنى المباح أن لا يكون عاقا لوالديه هاربا منها ، ولا هاربا من ماله ، ولا تكون المرأة هاربة من زوجها ، ولا أن يكون من عليه الدين هاربا من المستحق مع اليسار ، ولا يكون متوجها في قطع طريق ، أو قتل إنسان ، أو طلب لإدراج حرام من سلطان ظالم ، أو سعى بالفساد بين المسلمين .

وبالجملة فلا يسافر الإنسان إلا في غرض ، والغرض هو المحرك . فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراما ولولا ذلك الغرض لكان لا ينبعث لسفره فسفره معصية ولا يجوز فيه الترخيص . وأما الفسق في السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة . بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة ولو كان له باعثن أحدهما مباح والآخر محظور ، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحذور لكان المباح مستقلا بتحريكه ولكان لا محالة يسافر لأجله فله الترخيص . والمتصوفة الطوافون في البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة في ترخصهم خلاف ، والمختار أن لهم الترخيص .

الرخصة الرابعة ، الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء في وقتيهما ؛ فذلك أيضا جائز في كل سفر طويل مباح ، وفي جوازه في السفر القصير قولان . ثم إن قدم العصر إلى الظهر فليجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقيم ، وعند الفراغ يقيم العصر ، ويجدد التيمم أولا إن كان فرضه التيمم ، ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة ، فإن قدم العصر لم يجز ، وإن نوى الجمع عند التحرم بصلاة العصر جاز عند المزن ، وله وجه في القياس إذ لا مستند لإيجاب تقديم النية بل الشرع يجوز الجمع وهذا جمع ، وإنما الرخصة في العصر فتكفي النية فيها ، وأما الظهر فجاء على القانون . ثم إذا فرغ من الصلاتين فينبغي أن يجمع بين سنن الصلاتين ؛ أما العصر فلا سنة بعدها ولكن السنة التي بعد الظهر يصلحها بعد الفراغ من العصر إما راكبا أو مقيا ، لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لانقطعت الموالاة وهي واجبة - على وجه - ولو أراد أن يقيم الأربع المسنونة قبل الظهر والأربع المسنونة قبل العصر فليجمع بينهما قبل الفريضتين فيصلى سنة الظهر أولا ثم سنة العصر ، ثم فريضة الظهر ثم فريضة العصر ، ثم سنة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الفرض : ولا ينبغي أن يهمل التوافل في السفر فافوته من بوابها أكثر مما يناله من الربح ؛ لاسيما وقد خفف الشرع عليه وجوز له أداءها على الراحلة كي لا يتعوق عن الرفقة بسببها . وإن أخر الظهر إلى العصر فيجوز على هذا الترتيب ولا يبالى بوقوع راتبة الظهر بعد العصر في الوقت المكروه لأن ماله سبب لا يكره في هذا الوقت ، وكذلك يفعل في المغرب والعشاء والوتر . وإذا قدم أو أخر فبعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويحتم الجميع بالوتر . وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جميعا فهو نية الجمع ؛ لأنه إنما يخاف من هذه النية إما بنية الترك أو بنية التأخير عن وقت العصر ، وذلك حرام والعزم عليه حرام . وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصيا ، لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها . ويحتمل أن يقال إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها ، ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركا في السفر بين الصلاتين ، ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل الغروب . ولذلك ينقدح أن لا تشترط الموالاة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر ، أما إذا قدم العصر على الظهر لم يجز لأن ما بعد الفراغ من الظهر هو الذي جعل وقتا للعصر ، إذ يبعد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيرها . وعذر المطر يجوز للجمع كعذر السفر . وترك الجمعة أيضا من رخص السفر وهي متعلقة أيضا بفرائض الصلوات . ولو نوى

الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر في الحضر فعليه أداء العصر ، وما مضى إنما كان مجزئاً بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر .

الرخصة الخامسة : التنفل راكباً ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته ^(١) وأوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة . وليس على المتنفل الراكب في الركوع والسجود إلا الإيماء . وينبغي أن يجعل بحجوده أخفض من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة . فإن كان في مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه .

وأما استقبال القبلة فلا يجب إلا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها ، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة . فليكن في جميع صلاته إما مستقبلاً للقبلة أو متوجهاً في صوب الطريق لتسكون له جهة يثبت فيها ، فلو حرف دابته عن الطريق قصداً بطلت صلاته إلا إذا حرفها إلى القبلة . ولو حرفها ناسياً وقصر الزمان لم تبطل صلاته ، وإن طال ففيه خلاف وإن جمحت به الدابة فأنحرفت لم تبطل صلاته - لأن ذلك مما يكثر وقوعه - وليس عليه سجود سهو إذ الجماع غير منسوب إليه ، بخلاف ما لو حرف ناسياً فإنه يسجد للسهو بالإيماء .

الرخصة السادسة : التنفل للماشي جائز في السفر ويومي بالركوع والسجود ، ولا يقعد للشهادة لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة وحكمه حكم الراكب ؛ لكن ينبغي أن يتحرم بالصلاة مستقبلاً للقبلة ؛ لأن الانحراف في لحظة لا عسر عليه فيه بخلاف الراكب فإن في تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر ؛ وربما تكررت الصلاة فيطول عليه ذلك . ولا ينبغي أن يمشي في نجاسة رطبة عمداً ؛ فإن فعل بطلت صلاته بخلاف ما لو طشت دابة الراكب نجاسة . وليس عليه أن يشوش المشي على نفسه بالاحتراز من النجاسات التي لا تخلو الطريق عنها غالباً . وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكباً أو ماشياً كما ذكرناه في التنفل .

الرخصة السابعة : الفطر ، وهو في الصوم . فللمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقياً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم . وإن أصبح مسافراً صائماً ثم أقام فعليه الإتمام . وإن أقام مفطر فليس عليه الإمساك بقية النهار . وإن أصبح مسافراً على عزم الصوم لم يلزمه بل له أن يفطر إذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر . والقصر أفضل من الإتمام للخروج عن شبهة الخلاف ، ولأنه ليس في عهدة القضاء بخلاف المفطر فإنه في عهدة القضاء وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى في ذمته ، إلا إذا كان الصوم يضر به فالإفطار أفضل .

فهذه سبع رخص تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل وهي القصر والفطر والمسح ثلاثة أيام . وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلاً كان أو قصيراً وهما سقوط الجمعة وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم . وأما صلاة النافلة ماشياً وراكباً ففيه خلاف والأصح جوازه في القصير . والجمع بين الصلاتين فيه خلاف والأظهر اختصاصه بالطويل . وأما صلاة الفرض راكباً وماشياً للخوف فلا تتعلق بالسفر ، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة في الحال بالتيمم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها .

* فإن قلت . فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك فاعلم أنه إن كان عازماً على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكباً وماشياً لم يلزمه علم شروط الترخص في ذلك ، لأن الترخص ليس بواجب عليه . وأما علم رخصة التيمم فيلزمه لأن فقد الماء ليس إليه ، إلا أن يسافر على شاطئ نهر

(١) حديث : كان يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحلة . متفق عليه من حديث ابن عمر .

يوثق ببقاء مائه ، أو يكون معه في الطريق عالم يقدر على استفتائه عند الحاجة ، فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة .
لما إذا كان يظن عدم المساء ولم يكن معه فيلزمه التعلم لاحالة .

• فإن قلت : التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم يجب وربما لا يجب ؟ فأقول : من بينه وبين الكعبة مسافة لا تقطع إلا في سنة ؛ فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر . ويلزمه تعلم المناسك لاحالة إذا كان يظن أنه لا يجد في الطريق من يتعلم منه ؛ لأن الأصل الحياة واستمرارها . وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب . وكل ما يتوقع وجوبه توقعا ظاهرا على الظن وله شرط لا يتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لاحالة ، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته . فلا يحل إذن للمسافر أن ينشئ السفر مالم يتعلم هذا القدر من علم التيمم . وإن كان عازما على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضا القدر الذي ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص ؛ فإنه إذا لم يعلم القدر الجائز لرخصة السفر لم يمكنه الاقتصار عليه .

• فإن قلت : إنه إن لم يتعلم كيفية التنفل راكبا وماشيا ماذا يضره وغايته إن صلى أن تكون صلاته فاسدة ؟ وهي غير واجبة فكيف يكون علمها واجبا ؟ فأقول : من الواجب أن لا يصلّي النفل على نعت الفساد ، فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام ، فعليه أن يتعلم ما يحترز به عن النافلة الفاسدة حذرا عن الوقوع في المحظورات . فهذا بيان علم ماخفف عن المسافر في سفره .

القسم الثاني : ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر

وهو علم القبلة والأوقات : وذلك أيضا واجب في الحضر ، ولكن في الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه يغنيه عن طلب القبلة ومؤذن يراعي الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت .

والمسافر قد تشبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت فلا بد له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت . أما أدلة القبلة فهي ثلاثة أقسام : أرضية ، كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار . وهوائية ، كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها وصباها ودبورها . وسماوية ، وهي النجوم .

فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد ، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل أو شماله أو ورائه أو قدامه ، فليعلم ذلك وليفهمه . وكذلك الرياح قد تدل في بعض البلاد فليفهم ذلك . ولستأنقدر على استقصاء ذلك إذ لكل بلد وإقليم حكم آخر .
وأما السماوية فأدلتها تنقسم إلى نهائية وإلى ليلية .

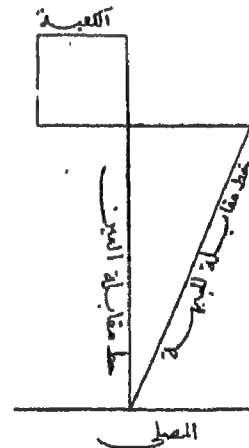
أما النهارية : فالشمس ، فلا بد أن يراعى قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه ، أي بين الحاجبين ؟ أو على العين اليمنى ؟ أو اليسرى ؟ أو تميل إلى الجبين ميلا أكثر من ذلك ؟ فإن الشمس لا تعدو في البلاد الشمالية هذه المواق . فإذا حفظ ذلك فهم عرف الزوال بدليله الذي سنذكره عرف القبلة به . وكذلك يراعى مواقع الشمس منه وقت العصر . فإنه في هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة . وهذا أيضا لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤه

وأما القبلة وقت المغرب فإنها تدرك بموضع الغروب . وذلك بأن يحفظ أن الشمس تغرب عن يمين المستقبل ، أو هي مائلة إلى وجهه ، أو قفاه . وبالشفق أيضا تعرف القبلة للعشاء الأخيرة .

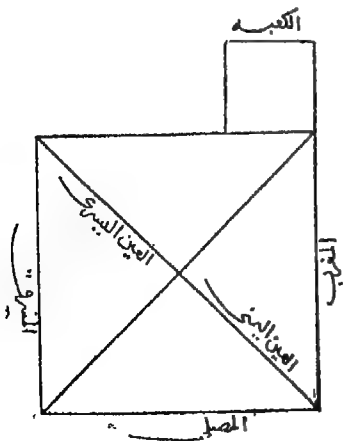
وبشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح . فكأن الشمس تدل على القبلة في الصلوات الخمس ، ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف . فإن المشرق والمغرب كثيرة وإن كانت محصورة في جهتين ، فلا بد من تعلم ذلك أيضا . ولكن قد يصلى المغرب والعشاء بعد غيوبة الشفق فلا يمكن أن يستدل على القبلة به . فعليه أن يراعى موضع القطب . وهو الكوكب الذى يقال له : الجدى : فإنه كوكب كالثابت لا تظهر حركته عن موضعه ، وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل ، أو على منكب اليمين من ظهره ، أو منكب الأيسر في البلاد الشمالية من مكة . وفي البلاد الجنوبية كاليمين وما والاها فيقع في مقابلة المستقبل ؛ فيتعلم ذلك ، وما عرفه في بلده فليقول عليه في الطريق كله إلا إذا طال السفر ، فإن المسافة إذا بعدت اختلف موقع الشمس وموقع القطب وموقع المشرق والمغرب ، إلا أن ينتهى في أثناء سفره إلى بلاد فينبغى أن يسأل أهل البصرة . أو يراقب هذه الكواكب وهو مستقبل محراب جامع البلد حتى يتضح له ذلك . فهما تعلم هذه الأدلة فله أن يقول عليها . فإن بان له أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغى أن يقضى . وإن انحراف عن حقيقة محاذاة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء .

وقد أورد الفقهاء خلافا في أن المطلوب جهة الكعبة أو عيناها ، وأشكل معنى ذلك على قوم إذ قالوا : إن قلنا إن المطلوب العين فمتى يتصور هذا مع بعد الديار ؟ وإن قلنا : إن المطلوب الجهة فالواقف في المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج يبدنه عن موازاة الكعبة لا خلاف في أنه لا تصح صلاته . وقد طولوا في تأويل معنى الخلاف في الجهة والعين . ولا بد أولا من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة .

فمعنى مقابلة العين : أن يقف موقفا لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لاتصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان (وهذه صورته والخط الخارج من موقف المصلى يقدر أنه خارج من بين عينيه) وهذه صورة مقابلة العين :



وأما مقابلة الجهة . فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجى من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط ، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة . فلو مد هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من يمينها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق ، فيخرج



عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة - كالخط الذى كتبنا عليه مقابلة الجهة - فإنه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلا لجهة الكعبة لا لعيناها .

وحدت تلك الجهة ما يقع بين خطين يتوهمهما الواقف مستقبلا لجهة خارجين من العينين ، فيلتقى طرفاهما في داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة ، فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل في الجهة . وسعة ما بين الخطين تزايد بطول الخطين وبالبعد عن الكعبة (وهذه صورته) :

فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول . الذى يصح عندنا فى الفتوى أن المطلوب العين إن كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها ، وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيكفى استقبال الجهة .
فأما طلب العين عند المشاهدة فيجمع عليه . وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضى الله عنهم والقياس .
أما الكتاب : فقوله تعالى ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أى نحوه . ومن قابل جهة الكعبة يقال قد ولى وجهه شطرها .

وأما السنة : فما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل المدينة « ما بين المغرب والمشرق قبلة ^(١) » . والمغرب يقع على يمين أهل المدينة والمشرق على يسارهم . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما يقع بينهما قبلة ومساحة الكعبة لا تقي بما بين المشرق والمغرب وإنما يفي بذلك جهتها . وروى هذا اللفظ أيضا عن عمر وابنه رضى الله عنهما .

وأما فعل الصحابة رضى الله عنهم : فما روى أن مسجد قباء كانوا فى صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين لبيت المقدس مستدبرين الكعبة - لأن المدينة بينهما - فقيل لهم : الآن قد حوّلت القبلة إلى الكعبة . فاستداروا فى أثناء الصلاة من غير طلب دلالة ^(٢) ولم ينكر عليهم . وسمى مسجدهم « ذا القبليتين » ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها ؛ فكيف أدركوا ذلك على البديهة فى أثناء الصلاة وفى ظلمة الليل ؟ ويدل أيضا من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالى مكة وفى سائر بلاد الإسلام ولم يحضروا قط مهندسا عند تسوية المحارب ، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر الهندسى .

وأما القياس : فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال وبناء المساجد فى جميع أقطار الأرض ، ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها ، بل ربما يزجر عن التعمق فى علمها فكيف ينبى أمر الشرع عليها ؟ فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة .

وأما دليل صحة الصورة التى صورناها : وهو حصر جهات العالم فى أربع جهات فقوله عليه السلام فى آداب قضاء الحاجة ، لا تستقبلوا بها القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا ^(٣) ، وقال . هذا بالمدينة - والمشرق على يسار المستقبل بها والمغرب على يمينه - فهى عن جهتين ورخص فى جهتين . وبمجموع ذلك أربع جهات . ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض فى ست أو سبع أو عشر . وكيفما كان فاحكم الباقى ؟ بل الجهات تثبت فى الاعتقادات بناء على خلق الإنسان ، وليس له إلا أربع جهات : قدام وخلف ويمين وشمال فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان فى ظاهر النظر أربعا . والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات فظهر أن المطلوب الجهة ، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أداة القبلة . فأما مقابلة العين فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء ، ومقدار درجات طولها وهو بعدها عن أول عمارة فى المشرق . ثم يعرف ذلك أيضا فى موقف المصلى ، ثم يقابل أحدهما بالآخر . ويحتاج فيه إلى آلات وأسباب طويلة ، والشرع غير مبنى عليها قطعا . فإذا قدر القدر الذى

(١) حديث : ما بين المشرق والمغرب قبلة . أخرجه الترمذى وصححه ، والنسائى وقال منكراً ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث : إن أهل قباء كانوا فى صلاة الصبح مستقبلين لبيت المقدس فقيل لهم ألا ان القبلة قد حوّلت إلى الكعبة فاستداروا ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث أنس واتفقا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف .

(٣) حديث : لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا . متفق عليه من حديث أبى أيوب .
(٣٤ - إحياء علوم الدين - ٢)

لا بد من تعلمه من أدلة القبلة : موقع المشرق والمغرب في الزوال ، وموقع الشمس وقت العصر . فهذا يسقط الوجوب .

* فإن قلت : فلو خرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يعصى ؟ فأقول : إن كان طريقه على قرى متصله فيها محاريب ، أو كان معه في الطريق بصير بأدلة القبلة موثقو بعدالته وبصيرته ويقدر على تقليده فلا يعصى . وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى . لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل عليه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره . فإن تعلم هذه الأدلة واستبهم عليه الأمر بنعيم مظلم . أوترك التعلم ولم يجد في الطريق من يقلده ، فعليه أن يصل في الوقت على حسب حاله ، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ . والأعمى ليس له إلا التقليد فليقلد من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهدا في القبلة ، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل يخبره بذلك في حضر أو سفر وليس للأعمى ولا للجاهل أن يسافر في قافلة ليس فيها من يعرف أدلة القبلة - حيث يحتاج إلى الاستدلال - كما ليس للعالم أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرع ، بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلم دينه ، وكذا إن لم يكن في البلد إلا فقيه فاسق فعليه الهجرة أيضا إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق ، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى - كما في الرواية - وإن كان معروفا بالفقه مستورا الحال في العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد من له عدالة ظاهرة لأن المسافر في البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين . فإن رآه لا يسأله للحريز أو ما يغلب عليه الإبريسم أو راكبا لفرس عليه مركب ذهب فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله ، فليطلب غيره . وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام أو يأخذ منه إدرازا أو صلة من غير أن يعلم أن الذي يأخذه من وجه حلال ، فكل ذلك فسق يقدح في العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة .

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها . فوقت الظهر يدخل بالزوال ، فإن كل شخص لابد أن يقع له في ابتداء النهار ظل مستطيل في جانب المغرب ، ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة في جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب . فليقم المسافر في موضع أو لينصب عودا مستقيما ، وليعلم على رأس الظل ، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه في النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر .

وطريقه في معرفة ذلك أن ينظر في البلد - وقت أذان المؤذن المعتمد - ظل قامته ، فإن كان مثلا ثلاثة أقدام بقدمه فمهما صار كذلك في السفر وأخذ في الزيادة صلى . فإن زاد عليه ستة أقدام ونصفا بقدمه دخل وقت العصر ، إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام ونصف بالتقريب . ثم ظل الزوال يزيد كل يوم إن كان سفره من أول الصيف . وإن كان من أول الشتاء فينقص كل يوم . وأحسن ما يعرف به ظل الزول الميزان فليستصحبه المسافر . وليتعلم اختلاف الظل به في كل وقت . وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان في السفر في موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر ، فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس بأن تصوير بين عينيه مثلا إن كانت كذلك في البلد .

وأما وقت المغرب فيدخل بالغروب ، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عنه ، فينبغي أن ينظر إلى جانب المشرق فمهما ظهر سواد في الأفق مرتفع من الأرض قدر ربح فقد دخل وقت المغرب .

وأما العشاء فيعرف بغيوبة الشفق - وهو الحمرة - فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها ، فإن ذلك يكون بعد غيوبة الحمرة .

وأما الصبح فيبدو في الأول مستطيلا كذنب السرحان فلا يحكم به إلى أن ينقضي زمان . ثم يظهر بياض

معارض لا يعسر إدراكه بالعين لظهوره ، فهذا أول الوقت . قال صلى الله عليه وسلم « ليس الصبح هكذا - وجمع بين كفيه - وإنما الصبح هكذا - ووضع إحدى سبائتيه على الأخرى وفتحهما - (١) » وأشار به إلى أنه معترض . وقد يستدل عليه بالنازل وذلك تقريب لتحقيق فيه ، بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضاً لأن قوما ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل ، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب . والذي ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمنزلتين وهذا تقريب ، ولكن لا اعتداد عليه فإن بعض المنازل تطلع معترضة منحرفة فيقصر زمان طلوعها ، وبعضها منتصبه فيطول زمان طلوعها ، ويختلف ذلك في البلد اختلافاً يطول ذكره . نعم تصلح المنازل لأن يعلم بها قرب وقت الصبح وبعده ، فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمنزلتين أصلاً . وعلى الجملة فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب ، وإذا بقي قريب من منزلتين يتحقق طلوع الصبح الصادق ، ويبقى بين الصبحين قدر ثلثي منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب ، وهو مبدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه . فمن وقت الشك ينبغي أن يترك الصائم السجود ، ويقدم القائم الوتر عليه ولا يصلي صلاة الصبح حتى تنقضي مدة الشك ، فإذا تحقق صلى . ولو أراد مرید أن يقدر على التحقيق وقتاً معيناً يشرب فيه متسحراً ويقوم عتيبه ويصلي الصبح متصلاً به لم يقدر على ذلك ، فليس معرفة ذلك في قوة البشر أصلاً ، بل لا بد من مهلة للتوقف والشك . ولا اعتداد إلا على العيان ، ولا اعتماد في العيان إلا على أن يصير الضوء منتشراً في العرض حتى تبدو مبادئ الصفرة . وقد غلط في هذا جمع من الناس كثير يصلون قبل الوقت . ويدل عليه ما روى أبو عيسى الترمذی في جامعه بإسناده عن طلق بن علي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر » (٢) ، وهذا صريح في رعاية الحرمة . قال أبو عيسى - وفي الباب عن عدی بن حاتم وأبي ذر وسمرة بن جندب - وهو حديث حسن غريب والعمل على هذا عند أهل العلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كلوا واشربوا مادام الضوء ساطعاً . قال صاحب الغريبين : أي مستطيلاً . فإذا لا ينبغي أن يعول إلا على ظهور الصفرة وكأنها مبادئ الحرمة . وإنما يحتاج المسافر إلى معرفة الأوقات لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه النزول ، أو قبل النوم حتى يستريح . فإن وطن نفسه على تأخير الصلاة إلى أن يتيقن فتسمح نفسه بفوات فضيلة أول الوقت ويتجشم كلفة النزول وكلفة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم علم الأوقات . فإن المشكل أوائل الأوقات لا أوساطها .

(١) حديث : ليس الصبح هكذا - وجمع كفه - وإنما الصبح هكذا - ووضع إحدى سبائتيه على الأخرى وفتحهما وأشار إلى أنه معترض - أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح مختصر دون الإشارة بالكف والسبابتين ، ولأحمد من حديث طلق بن علي « ليس الفجر المستطيل في الأفق لكنه المعترض الأحمر » وإسناده حسن . (٢) حديث طلق بن علي : كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر ، قال المصنف : رواه أبو عيسى الترمذی في جامعه وقال : حسن غريب وهو كما فكر ، ورواه أبو داود أيضاً .

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ، واسترق همهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته ، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته ، حتى أصبحوا من تذسم روح الوصال سكرى - وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى ، فلم يروا في الكونين شيئاً سواه ، ولم يذكروا في الدارين إلا إياه ، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم ، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم ، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ، ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه ، ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ، ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه . فته سماعهم ، وإليه استماعهم ، فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم ، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايتهم ، واستخلصهم من بين أصفياه وخصته . والصلاة على محمد المبعوث برسالته وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته ، وسلم كثيراً .

أما بعد : فإن القلوب والسرائر ، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر ، كما أخفى الماء تحت التراب والمدر ، ولا سبيل إلى استئارة خفاياها إلا بقوادح السماع ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع ، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو مساوئها ، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه . كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه ، فالسماع للقلب محك صادق ، ومعيان ناطق ، فلا يصل نفس السماع إليه ، إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه ، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع حتى أبدت بوارداتها مكائنها ، وكشفت بها عن مساوئها وأظهرت محاسنها ، وجب شرح القول في السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات ، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات ، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء في أنهما من المحظورات أو المباحات . ونحن نوضح ذلك في باين . (الباب الأول) في إباحة السماع . (الباب الثاني) في آداب السماع وآثاره في القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص . والرقص وتمزيق الثياب .

الباب الأول : في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه

اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويشمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ، ويشمر الوجد تحريك الاطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص . فلنبداً بحكم السماع وهو الأول : وتنقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه . ثم نذكر الدليل على إباحته ، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه .

فأما نقل المذاهب : فقد حكى القاضى أبو الطيب الطبرى عن الشافعى ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من

العلماء ألفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه .

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

وقال القاضي أبو الطيب : استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال : قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته ، وقال : وحكى عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن . وقال الشافعي رحمه الله : ويكره من جهة الخبز اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي ، ولا أحب اللعب بالشطرنج وأكره كل ما يلعب به الناس ؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة .

وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال : إذا اشترى جارية فوجدتها مغنية كان لهدمها . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابن سعد وحده .

وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة : سفيان الثوري وحاد وإبراهيم والشعبي وغيرهم . فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري .

ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع من جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم ، وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان ، وقال : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعون الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال : وكان لعطاء جاريثان يلحزان فكان لإخوانه يستمعون ليهما . قال : وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كانا لجنيد وسرى السقطي وذو النون يستمعون ؟ فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازوه وسمعه من هو خير مني ؟ فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع .

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال : فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها نزداد إلّا قلة ، حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء . ورأيت في بعض الكتب هذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبى وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره . قال : وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع . وحكى غير واحد أنه قال : اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر ابن داود وابن مجاهد في نظرائهم ، فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود : حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي ، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع : أما جدّي أحمد ابن بنت منيع فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الحُبَازة ، فقال ابن مجاهد لابن داود : دعني أنت من أبيك ، وقال لابن بنت منيع : دعني أنت من جدك أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام ؟ فقال : ابن داود لا ، قال : فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده ؟ قال : لا ، قال : فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور أيحرم عليه ؟ قال : أنا لم أفر لشيطان واحد فكيف

أقوى لشيطنين؟ قال : وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع ، وصنف فيه كتابا ورد فيه على منكريه ، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكريه .

وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له : ماتقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء . وحكى عن ممشاد الدينوري أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال : ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن . وحكى عن طاهر بن بلال الهمداني الوراق - وكان من أهل العلم - أنه قال : كنت معتكفا في جامع جذة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون في جانب منه قولا ويستمعون ، فأنكرت ذلك بقاى وقلت : في بيت من بيوت الله يقولون الشعر ؟ قال : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، فقلت في نفسي : ما كان ينبغي لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع وأبو بكر يقول ؟ فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا حق بحق - أوقال حق من حق - أنا أشك فيه .

وقال الجنيد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع ، عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين ، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا . وعن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع ف قيل له : أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا في الحسنات ولا في السيئات ، لأنه شبيه باللغو وقال الله تعالى ﴿ لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾

هذا مانقل من الأفاويل . ومن طلب الحق في التقليد فهما استقصى تعارضت عنده هذه الأفاويل فبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأفاويل بالتشهي ، وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة كما سنذكره .

بيان الدليل على إباحة السماع

اعلم أن قول القائل : السماع حرام ، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص . وأعني بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله . فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه ، وبقي فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات . ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ، ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم . ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا في إثبات هذا الغرض ، لكن نستفتح ونقول : قد دل النص والقياس جميعا على إباحته .

أما القياس : فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، فالوصف الأعم أنه صوت طيب . ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات .

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به ، وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك ،

وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ ، فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة ، وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة . ولشم الروائح الطيبة ، وهي في مقابلة اللتان المستكرهه . وللذوق الطعوم اللذيذة كالذسومة والحلاوة والخوضه ، وهي في مقابلة المرارة المستبشعة . وللبس لذة اللين والنعمومة والملاسة ، وهي في مقابلة الخشونة والضراصة . وللعقل لذة العلم والمعرفة ، وهي في مقابلة الجهل والبلادة .

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ، ومستكرهه كنهيق الخمير وغيرها . فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها ؟

أما النص : فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده إذ قال ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ فقل هو الصوت الحسن وفي الحديث « ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته »^(٢) ، وفي الحديث في معرض المدح لداود عليه السلام « أنه كان حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطير لسماع صوته ، وكان يحمل في مجلسه أربعائة جنازة وما يقرب منها في الأوقات »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم في مدح أبي موسى الأشعري « لقد أعطى مزاميرا من مزامير آل داود »^(٤) ، وقول الله تعالى ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال إنما أيسح ذلك بشرط أن يكون في القرآن للومه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن . وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعاني الصحيحة ؟ وإن من الشعر لحكمة . فهذا نظر في الصوت من حيث أنه طيب حسن .

الدرجة الثانية : النظر في الصوت الطيب الموزون ؛ فإن الوزن وراء الحسن فكم من صوت حسن خارج عن الوزن وكم من صوت موزون غير مستطاب . والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة : فإنها إما أن تخرج من جهاد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضييب والطلل وغيره ، وإما أن تخرج من خنجره حيوان ؛ وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور ؛ فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها . والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات ، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالخلقة . وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى باختراعها ؛ فنه تعلم الصناعات وبه قصدوا الاقتداء وشرح ذلك يطول . فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذهاب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور .

كتاب السماع والوجد

الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحته

(١) حديث : ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت « أخرجه الترمذى في الشمائل عن قتادة وزاد قوله « وكان نبياكم حسن الوجه حسن الصوت » ورويناه متصلًا في النيلانيات من رواية قتادة عن أنس ، والصواب الأول قاله الدارقطني ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن أبي طالب وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لى قينته » تقدم في كتاب تلاوة القرآن .

(٣) حديث : كان داود حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور ... الحديث . لم أجده أسلا . (٤) حديث « لقد أوتي مزاميرا من مزامير آل داود » قاله في مدح أبي موسى ؛ تقدم في تلاوة القرآن .

ولافرق بين خنجره وخنجره ولا بين جماد وحيوان . فينبغي أن يقاس على صوت العنديل الأصوات الخارجة من سائر الاجسام باختيار الآدمي كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والليل والدف وغيره .

ولا يستثنى من هذه إلا الملهى والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها ^(١) لا لذتها إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان . ولكن حرمت الخمر واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبل الاتباع كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع ، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسواتين ، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر ، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به ، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حرم للحرام ووقاية له وحظا ما ناعا حوله كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لكل ملك حمي وإن حمي الله محارمه ^(٢) »، فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل (إحداها) أنها تدعو إلى شرب الخمر فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر . (الثانية) أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشرب فهي سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . ولهذا العلة « نهى عن الانتباذ في المزفت والحتم والنقيير ^(٣) » ، وهي الآواني التي كانت مخصوصة بها . فنهى هذا أن مشاهدة صورتها تذكرها وهذه العلة تفارق الأولى إذ ليس فيها اعتبار لذة في الذكر إذ لا لذة في رؤية القنينة وأواني الشرب لكن من حيث التذكر بها ، فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيرا يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهي عن السماع لخصوص هذه العلة فيه . (الثالثة) الاجتماع عليها : لما أن صار من عادة أهل الفسق فيمنع من التشبه بهم ؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم . وبهذه العلة تقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة خوفا من التشبه بهم . وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة - وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين - وضربها عادة المخنثين ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو ، وبهذه العلة تقول لو اجتمع جماعة وزينوا مجلسا وأحضروا آلات الشرب وأقداحه ، وصبوا فيها السكنجين ، ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم ، فيأخذون من الساق ويشربون ويحيي بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم ، وإن كان المشروب مباحا في نفسه ، لأن في هذا تشبها بأهل الفساد ، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قزعا في بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ، ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر لاعتیاد أهل الصلاح ذلك فيهم . فهذه المعاني حرم الزمار العراقي والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها . وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبايين وكالطبل والقضيب ، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها

(١) حديث : المنع من الملهى والأوتار والمزامير . أخرجه البخاري من حديث أبي عامر وأبي مالك الأشعري « ليكون في أمي أقوام يستحلون الخمر والحريم والمأزف » صورته عند البخاري صورة تعليق ولقد كان ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والاسماعيلي . والمأزف : الملهى ؛ قاله الجوهري ، ولأحمد من حديث أبي أمامة « إن الله أمرني أن أحق المزامير والكبيارات - يعني البرابط - والمأزف » وله من حديث قيس بن سعد بن عباد « أن ربي حرم على الخمر والكوبة والقنين » وله في حديث لأبي أمامة باستحلالهم الخمر وضربهم بالدفوف . وكلها ضعيفة ، ولأبي الشيخ من حديث حماد « الاستماع إلى الملهى معصية ... الحديث » ولأبي داود من حديث ابن عمر : سمع منماراً فوضع أصبعه على أذنيه . قال أبو داود : وهو منكسر .

(٢) حديث « إن لكل ملك حمي وإن حمي الله محارمه » تقدم في كتاب الحلال والحرام

(٣) حديث : النهي عن الحتم والمزفت والنقيير . متفق عليه من حديث ابن عباس .

فلم يكن في معناها . فبقى على أصل الإباحة قياساً على أصوات الطيور وغيرها ، بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضاً . وبهذا يتبين أنه ليست العلة في تحريمها مجرد اللذة الطيبة ، بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد . قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر . كما سيأتي في العوارض المحترمة .

الدرجة الثالثة : الموزون والمفهوم ، وهو الشعر وذلك لا يخرج إلا من حجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوماً ، والكلام المفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام ، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع ؟ نعم ينظر فيما يفهم منه فإن كان فيه أمر محظور حرم ثبوته ونظمه وحرم التعلق به سواء كان بالحنان أو لم يكن ، والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال : الشعر كلام فحسنة حسن وقيحة قبيح . ومهما جاز لإنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز لإنشاده مع الألحان . فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحاً . ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظوراً لا تتضمنه الآحاد . ولا محظور ههنا وكيف ينكر لإنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ؟ وقال عليه السلام : إن من الشعر لحكمة ^(٢) ، وأنشدت عائشة رضي الله عنها :

ذهب الذين يعاش في أكنا ففهم وبقيت في خلف بجلد الأجر

وروى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما ، وكان بها وباء فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان بلال إذا أفلحت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها : فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ^(٣) ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

(١) حديث : إنشاد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ متفق عليه من حديث أبي هريرة : أن عمر مر بمحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ... الحديث ، ولمسلم من حديث عائشة إنشاد محسان : هجوت محمداً فأجبت عنه وهذا الله في ذاك الجزاء ... القصيدة وإنشاد محسان أيضاً : وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت غزوم ووالدك العبد وللبخاري إنشاد ابن رواحة :

وفينا رسول الله يشلو كتابه . وإذا انشق معروف من الفجر ساطع .. الأبيات (٢) حديث : « إن من الشعر لحكمة » رواه البخاري من حديث أبي بن كعب وهم في العلم . (٣) حديث عائشة في الصحيحين : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال ... الحديث . وفيه إنشاد أبي بكر :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردت يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت : هو في الصحيحين كما ذكر المصنف لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند مسلم .

هذا الحال لاحمال خير هذا - أبر - ربنا وأظهر

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة^(١)

وهذه في الصحيحين . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يتافح ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد حسان بروح القدس مانافح أوافاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) ، ولما أنشدته التابعة شعره قال له صلى الله عليه وسلم « لا يفضض الله فاك^(٣) ، وقالت عائشة رضى الله عنها « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم^(٤) ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول « هيه هيه ، ثم قال « إن كاد في شعره ليسلم^(٥) ، وعن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له في السفر . وإن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير^(٦) ، ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضى الله عنهم وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتسمون

(١) حديث : كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

هذا الحال لاحمال خير هذا أبر - ربنا - وأظهر

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال المصنف : والبيتان في الصحيحين . قلت : البيت الأول انقرد به البخارى في قصة الهجرة من رواية هروة مرسل وفيه البيت الثاني أيضاً إلا أنه قال « الأجر » بدل « العيش » تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي؛ قال ابن شهاب : ولم يبلتنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون :

لاهم لاخير لاخير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وليس البيت الثاني موزونا ، وفي الصحيحين أيضاً أنه قال في حفر الخندق بافظ « فبارك في الأنصار والمهاجرة » وفي رواية « فاخر » وفي رواية لمسلم « فأكرم » ولهما من حديث سهل بن سعد « فاغفر للمهاجرين والأنصار » .

(٢) حديث : كان يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يتافح ... الحديث . أخرجه البخارى تليقا ، وأبو داود والترمذى والحاكم متصلا من حديث عائشة ، قال الترمذى : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، وفي الصحيحين أنها قالت « إنه كان يتافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنه قال للتابعة لما أنشدته شعرا « لا يفضض الله فاك » رواه البهوى في معجم الصحابة ، وابن عبد البر في الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابغة واسمه قيس بن عبد الله قال : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم :

بلتنا السماء مجددا وجدودنا ولانا لندجو دوى ذلك مظهرا ... الأبيات

ورواه الزراري بلفظ « علونا الباد غفة وتكرما ... الأبيات » وفيه : فقال « أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك » ولحاكم من حديث خريم بن أوس : سمعت للعباس يقول : يا رسول الله ذنى أريد أن أمتدحك ، فقال « قل لا يفضض الله فاك » فقال العباس : من قبلها طبت في الغلال وفي . مستودع حيث يخصف الورق ... الأبيات

(٤) حديث عائشة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون الأشعار وهو يتبسم . أخرجه الترمذى من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة . (٥) حديث الترمذى : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول « هيه هيه ... الحديث » رواه مسلم . (٦) حديث أنس : كان يحدى لفي السفر وإن أنجشة كان يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال ... الحديث . رواه أبو داود الطيالسي واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك .

ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ . فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة .

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومهييج لما هو الغالب عليه . فأقول : لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً . فمن الأصوات ما يفرح ، ومنها ما يحزن ، ومنها ما ينوم ، ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس . ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر ، بل جار في الأوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده ؟ فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه . والجل مع بلادة طبعه يتأثر بالخداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة . ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولمه ، فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت الحامل والأحمال إذا سمعت منادى الخداء تمد أعناقها وتصفى إلى الحادى ناصية آذانها وتسرع في سيرها حتى تزعزع عليها أحمالها ومحاملها ، وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها . فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقى - رضى الله عنه قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خبائه ، فرأيت في الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ، ورأيت جمالا قدماء بين يدي البيت وقديقي منها جل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه ، فقال لي الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاي فإنه مكرم اضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر ، فعساه يحل القيد عني ، قال . فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد ، فقال : إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي ، فقلت . ماذا فعل ؟ فقال . إن له صوتاً طيباً وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجبال ، فحملها أحمالاً ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك ، قال : فأحببت أن أسمع صوته ، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي ، فما أظن أني سمعت قط صوتاً أطيّب منه . فإذا تأثير السماع في القلب محسوس . ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم ، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة . ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته . ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يحرم أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات لحكمه حكم ما في القلب .

قال أبو سليمان : السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه ، فالترنم بالكلمات المسجدة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع :

الأول : غناء الحجيج ، فإنهم أولاً يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء ، وذلك مباح لأنها أشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرانه إن كان ثم شوق حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلًا . وإذا كان الحج قرينة والشوق إليه محموداً كان التشويق إليه بكل ما يشوق محموداً . وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه

في الوعظ ويزينه بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه جاز لغيره ذلك على نظم الشعر ، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب ، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زادت وقعه ، فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير . وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار ، نعم إن قصد به تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالذي أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج ، فهذا يحرم عليه الخروج . فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع بكل كلام يشوق إلى الخروج فإن التشويق إلى الحرام حرام . وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالباً لم يحز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق .

الثاني : ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو . وذلك أيضاً مباح كالحاج ، ولكن ينبغي أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم ، لأن استثارة داعية الغزو - بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه - بالأشعار المشجعة . مثل قول المتنبي :

فإن لا تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتقاس الذل غير مكرم

وقوله أيضاً :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

وأمثال ذلك . وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة . وهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو . ومندوب إليه وقت يستحب فيه الغزو ، ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو .

الثالث : الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء ، والغرض منها التشجيع للنفس وللانصار وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ، وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس ، وذلك مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في قتال مندوب ، ومحذور في قتال المسلمين وأهل الذمة . وكل قتال محذور ، لأن تحريك الدواعي إلى المحذور محذور . وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما . ولذلك نقول : ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة فإن صوته مرقق يحزن يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال ، وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب ، فالألحان المرققة الحزينة تباين الألحان المحركة المشجعة فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحذور فهو بذلك مطيع .

الرابع : أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهيج الحزن والبكاء وملازمة الكتابة والحزن قسبان : محمود ومذموم .

فأما المذموم فكالحزن على ما فات قال الله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدارك له . فهذا الحزن لما كان مذموماً كان تحريكه بالنياحة مذموماً فلذلك ورد الهمي الصريح عن النياحة (١) .

وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه ، وبكاؤه على خطاياهم . والبكاء والتباكى

(١) حديث : انتهى عن النياحة . متفق عليه من حديث أم عطية : أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم في البيعة أن لا نتوح .

والحزن والتحازن على ذلك محمود وعليه بكاء آدم عليه السلام . وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التسمير للتدارك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محدودة إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب ، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكي ويحزن حتى كانت الجناز ترفع من مجالس نياحته . وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه : وذلك محمود لأن المفضي إلى المحمود محمود . وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرققة للقلب ولا أن يبكي ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه .

الخامس : السماع في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهيجاً له ، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الولية والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز . وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به . ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب فكل ما جاز السرور به جاز لإثارة السرور فيه . ويدل على هذا من النقل لإنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) .

طلع البدر علينا * من ثنيات الودع وجب الشكر علينا * مادعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود ، فأظهاره بالشعر والتغنيات والرقص والحركات أيضاً محمود . فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم حجلوا في سرور أصابهم ^(٢) - كما سيأتي في أحكام الرقص - وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به وفي كل سبب مباح من أسباب السرور . ويدل على هذا ما روى في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأله ^(٣) » فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو إشارة إلى طول مدة وقوفها . وروى البخاري ومسلم أيضاً في صحيحهما حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها : أن أبابكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان وتضربان والنبي صلى الله عليه وسلم متعش بثوبه فاتهرهما أبوبكر رضى الله عنه فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال « دعهما يا أبابكر فإنها أيام عيد » وقالت عائشة رضى الله عنها : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر رضى الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أمنا يا بني أرفدة ^(٤) » يعني من الأمن ومن حديث عمرو بن الحرث عن ابن شهاب نحوه وفيه : تغنيان وتضربان ^(٥) . وفي حديث أبي طاهر

(١) حديث . إنشاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلع البدر علينا من ثنيات الودع وجب الشكر علينا مادعا لله داع

أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث عائشة مفضلاً وليس فيه ذكر للدف والألحان . (٢) حديث : حجل جماعة من الصحابة في سرور أصابهم . أخرجه أبو داود من حديث علي وسيأتي في الباب الثاني . (٣) حديث عائشة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد ... الحديث . هو كما ذكره المصنف أيضاً في الصحيحين لكن قوله لأنه فيها من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخاري كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه .

(٤) حديث عائشة : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أمنا يا بني أرفدة » تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم ... إلى آخره . فرواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله « أمنا يا بني أرفدة » بل قال « دعهم يا عمر » زاد السائق « فإسماعيل بنو أرفدة » ولهما من حديث عائشة « دونكم بني أرفدة » وقد ذكره المصنف بعد هذا . (٥) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه « يتغنيان ويضربان » رواه مسلم وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب .

عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرى والحبيشة يلعبون بحراهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستترى بثوبه - أو بردائه - لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذى أنصرف ^(١) ، وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وكان يأتينى صواحب لى فكن يتقنعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسر لجيئتهن إلى فيلعبن معى ^(٢) وفى رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يوما « ما هذا ؟ » قالت : بناتى قال « فما هذا الذى أرى فى وسطهن ؟ » قالت : فرس قال « ما هذا الذى عليه ؟ » قالت : جناحان قال « فرس له جناحان » قالت : أو ما سمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة ؟ قالت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجمه . والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان فى اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صورته بدليل ما روى فى بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقايع . وقالت عائشة رضى الله عنها : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جارتان تغنيان بغناء بعث فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر رضى الله عنه فأنهزنى وقال : من مار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « دعهما » فلما غفل غمزتهما فخرجا ^(٣) . وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحرايب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قال « تشتهين تنظرين ، فقلت : نعم ، فأقامنى وراءه وخذى على خده ويقول « دونكم يابنى أرفدة » حتى إذا مللت قال « حسبك » قلت : نعم ، قال « فاذهبى » وفى صحيح مسلم : فوضعت رأسى على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذى انصرفت .

فهذه الأحاديث كلها فى الصحيحين وهو نص صريح فى أن الغناء واللعب ليس بحرام . وفيها دلالة على أنواع من الرخص (الاول) اللعب : ولا يخفى عادة الحبيشة فى الرقص واللعب . (والثانى) فعل ذلك فى المسجد (والثالث) قوله صلى الله عليه وسلم « دونكم يابنى أرفدة » وهذا أمر باللعب والتماس له فكيف يقدر كونه حراما ؟ (والرابع) منعه لآبى بكر وعمر رضى الله عنهما عن الإنكار والتغيير وتعليله بأنه يوم عيد أى هو وقت سرور ؟ وهذا من أسباب السرور (والخامس) وقوفه طويلا فى مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضى الله عنها . وفيه دليل على أن حسن الخلق فى تطيب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف فى الامتناع والمنع منه (والسادس) قوله صلى الله عليه وسلم ابتداء لعائشة « أتشتهين أن تنظرى ، ولم يكن ذلك عن اضطراب إلى مساعدة الأهل خوفا من غضب أو وحشة ، فإن الالتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور فيقدم محذور على محذور . فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه (والسابع) الرخصة فى الغناء والضرب بالدف من الجاريتين ، مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك (والثامن) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع ، ولو كان يضرب بالأوتار فى موضع لما جاوز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه . فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحریم صوت المزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة .

(١) حديث أبى طاهر عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرى والحبيشة يلعبون بحراهم ... الحديث . رواه مسلم أيضاً .

(٢) حديث عائشة : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وهو فى الصحيحين كما ذكر المصنف لكن مختصراً إلى قولها « فيلعبن معى » . وأما الرواية المطولة التى ذكرها المصنف بقوله : وفى رواية - فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح . (٣) حديث عائشة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جارتان تغنيان بغناء بعث ... الحديث . هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف ، والرواية التى هزأها لمسلم انفرد بها مسلم كما ذكر .

فهذه المقائيس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص والضرب بالدف واللعب بالدق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزواج في أوقات السرور كلها - قياساً على يوم العيد - فإنه وقت سرور ، وفي معناه يوم العرس والولية والعقيقة والختان ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح وهو كل ما يجوز به الفرح شرعاً ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضاً مظنة السماع .

السادس : سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهيجاً للعشق وتسلية للنفس . فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة ، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهيج الشوق . والشوق وإن كان ألماً ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال فإن الرجاء لذيق واليأس مؤلم ، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب للشيء المرجو . ففي هذا السماع تهيج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء المقدر في الوصال مع الإطنا ب وصف حسن المحبوب . وهذا حلال لأن كان المشتاق إليه عن يباح وصاله كمن يعشق زوجته أو سريته ، فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته في لقائها . فيحظى بالمشاهدة البصر ، وبالسماع الأذن ، ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب ، فتترادف أسباب اللذة . فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها (وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) وهذامنه . وكذلك إن غضبت منه جارية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال ، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده . إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء . وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ما تمثل في نفسه فهذا حرام لأنه يحرك للفكر في الأفعال المحظورة ، ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه . وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك : وذلك ممنوع في حقهم لماسفيه من الدماء الذين لا الأمر يرجع إلى نفس السماع . ولذلك سئل حكيم عن العشق فقال : دغان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيج السماع .

السابع : سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه ، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحببه ومورز ناد قلبه ، ومستخرج منه أحوالاً من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها . وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا مأخوذ من الوجود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالاً لم يكن يصادفها قبل السماع . ثم تكون تلك الأحوال أسباباً لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتقويه من الكدورات كما تنق النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها فالغرض إليها من جملة القربات لأم من جملة المعاصي والمباحات . وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقاً وفرحاً وحزناً وانقباضاً وانقباضاً . ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات . والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التناذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزينج ، وتعجب العنين من لذة المباشرة ، وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتساع أسباب الجاه ، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته ومعجائب صنعه . ولكل ذلك سبب واحد وهو أن اللذة نوع إدراك وإدراك يستدعي مدركاً ويستدعي قوة مدركة . فمن لم تكن قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق ؟ وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ؟ ولذة المقولات من فقد العقل ؟ وكذلك ذوق السماع

بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة في القلب ، فمن فقدما عدم لاحالة لذته ولعالك تقول : كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع محركا له ؟ فاعلم أن من عرف الله أحبه لاحالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته . والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا فلا معنى للعشق إلا المحبة مؤكدة مفرطة . ولذلك قالت العرب : إن محمدا قد عشق ربه . لما رأوه يتخلى للعبادة في جبل حراء . واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال . ولكن الجمال إن كان متناسبا الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر . وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب . ولفظ الجمال قد يستعار أيضاً لها فيقال : إن فلاناً حسن وجميل ولا تراد صورته . وإنما يعنى به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة ، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحساناً لها كما تحب الصورة الظاهرة . وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقا . وكمن من الغلاة في حب أرباب المذاهب كالشافعي ومالك وأبي حنيفة رضي الله عنهم ؟ حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم في نصرتهم وموالاتهم ويزيدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة . ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ؟ ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال . ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه . بل على التحقيق من لاخير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال في العالم ادرك بالعقول والأبصار والاسماع وسائر الحواس من مبتدأ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثريا إلى منتهى النثرى فهو ذرة من خزائن قدرته ولمعة من أنوار حضرة ، فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه ؟ وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حدًا يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلماً في حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته ؟ فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره واستتر عن الأبصار بإشراق نوره ، ولولا احتجابه بسبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرة ، ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهت العقول ودهشت القلوب وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء ، ولو ركب القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادئ أنوار تجليه دكا دكا ، فأني تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش . وسيأتي تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة . ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى ، إذ ليس في الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله . ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره . فمن عرف الشافعي مثلاً رحمه الله وعليه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه - لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية - فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ، ولا جاوزت محبته إلى غيره ، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله وبديع أفعاله فمن عرفها من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواه . ومن حد هذا العشق أنه لا يقبل الشراكة وكل ماسوى هذا العشق فهو قابل للشراكة ؛ إذ كل محبوب سواه يتصور له نظير إما في الوجود وإما في الإمكان . فأما هذا الجمال فلا يتصور له ثان لا في الإمكان ولا في الوجود . فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة . نعم الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس

ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الوقاع . فثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لفظة العشق والشوق والوصال والانس ، بل يجنب هذه الألفاظ والمعاني كما تجنب البهيمة النرجس والريحان وتخصص بالفت والحشيش وأوراق القضبان . فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه . والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة في أمثال هذه الألفاظ ، بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب يقطع بسببه نياط القلب . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فن خلق الأرض ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الجبال ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الغيم ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : إني لأسمع لله شأنا . ثم رى نفسه من الجبل فتقطع (١) . وهذا كأنه سمع ما دل على جلال الله تعالى وتما قدرته فطرب لذلك ووجد فرمى بنفسه من الوجد . وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى . قال بعضهم : رأيت مكتوبا في الإنجيل : غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا . أى شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا . فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته وقد ظهر على القطع بإباحته في بعض المواضع والتدب إليه في بعض المواضع .

* فإن قلت : فهل له حالة يحرم فيها ؟ فأقول إنه يحرم بخمسة عوارض : عارض في المسمع ، وعارض في آلة الإسماع ، وعارض في نظم الصوت ، وعارض في نفس المستمع أو في مواظبته ، وعارض في كون الشخص من عوام الخلق ، لأن أركان السماع هي المسمع والمستمع وآلة الإسماع . العارض الأول ، أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأمر الذي تخشى فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الفناء ، بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضا ، وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته .

فإن قلت : فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسب الباب أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف العنت . فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلا ؛ أحدهما : أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة . فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور ؟ والثاني : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يباح للصبيان بالفساء في عموم الحسم بل يتبع فيه الحال : وصوت المرأة دأثر بين هذين الأصلين فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيئتها ولا تدعو إلى سماع الصوت وليس تحريك النظر لشهوة الماسة كتحرريك السماع بل هو أشد . وصوت المرأة في غير الفناء ليس بعورة فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضى الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك . ولكن الفناء مزيد أثر في تحريك الشهوة . فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات . فينبغي أن يتبع مثار الفن ويقصر التحريم عليه . هذا هو الأفيص عندي ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضى الله عنها : إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه ، ولكن لم تكن

(١) حديث أبي هريرة : إن غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ فقالت : الله . . . الحديث . وفيه * ثم رى نفسه من الجبل فتقطع ، رواه ابن حبان .

الفتنة مخوفة عليه فلذلك لم يحترز . فإذا تختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شابا وشيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال . فإننا نقول : للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك ؛ لأن القبلة تدعو إلى الوقوع في الصوم وهو محظور ، والسمع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص . العارض الثاني : في الآلة ، بأن تكون من شعار أهل الشرف أو المخنثين وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة . فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة . وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف - وإن كان فيه الجلاجل - وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث : في نظم الصوت وهو الشعر فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم ، كما رتبته الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم ، فسماع ذلك حرام بالحن وغير الحن ، والمستمع شريك للقاتل . وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصف المرأة بين الرجال . وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز . فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك ^(١) فأما النسيب وهو التشبيه بوصف الحدود والاصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر . والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده باجن وغير الحن . وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته : فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه . ومن هذا وصفه فينبغي أن يحتنب السماع رأسا فإن من غلب عليه عنق نزل كل ما يسمعه عليه ؛ سوء كان اللفظ مناسبا له أو لم يكن ، إذا ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة ، فالذي يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلا ظلمة الكفر ، وبنضارة الخلد نور الإيمان ، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى ، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين ، وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفات المشوشة لدوام الانس بالله تعالى ، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكير ومهلة ، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ . كما روى عن بعض الشيوخ ، أنه مر في السوق فسمع واحدا يقول : الخيار عشرة بحبة ، فغلبه الوجد ، فسئل عن ذلك فقال : إذا كان الخيار عشرة بحبة فساقيمة الأشرار ؟ واجتاز بعضهم في السوق فسمع قائلا يقول : ياسعتر برى ، فغلبه الوجد فقليل له : على ماذا كان وجدك ؟ فقال : سمعته كأنه يقول اسع تر برى ، حتى إن العجمي قد يغلب عليه الوجد على الآيات المنظومة بلغة العرب فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان آخر . أنشد بعضهم :

« وما زارني في الليل إلا خياله »

فتواجد عليه رجل أعجمي . فسئل عن سبب وجده فقال ، إنه يقول : ما زاريم . وهو كما يقول فإن لفظ « زار » يدل في العجمية على المشرف على الهلاك ، فتوهم أنه يقول : كنا مشرفون على الهلاك ، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة .

والمحترق في حب الله تعالى وجده بحسب فهمه ، وفهمه بحسب تخيله وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد

(١) حديث : أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين . متفق عليه من حديث البراء : أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم أو هاجهم وجبريل معك »

الشاعر ولغته . فهذا الوجد حق وصدق . ومن استشعر خطر هلاك الآخرة فجدد بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه . فإذا لم يكن في تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة ، بل الذي غلب عشق مخلوق ينبغي أن يحتز من السماع بأى لفظ كان ، والذي غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعاني اللطيفة المتعلقة بمجاري همته الشريفة .

العارض الرابع : في المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه وكان في غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسمع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخذ والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتد بواعث الشر . وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه الذي هو حزب الله تعالى ، والقتال في القلب دائم جنود الشيطان وهي الشهوات ، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل ، إلا في قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية . وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لازعاجها فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشجيع سيوفها وأسئتها : والسمع مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص . فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به .

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوباً ، ولو غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظوراً . ولكنه أيسر في حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذ ديدنه وهجيره وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جنائية . وكأن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزوج والحبشة والنظر إلى لمبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعاً إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا القبيل اللعب بالشرطنج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة . ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لمافيه من ترويح القلب ، لإذاحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه فيشتغل في سائر الأوقات بالجد في الدنيا كالكسب والتجارة ، أو في الدين كالصلاة والقراءة . واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشهوته فما أقبح ذلك ! فيعود الحسن قبعا بسبب الكثرة فكل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام . فهذا المباح كسائر المباحات .

« فإن قلت : فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولاً بالإباحة إذ إطلاق القول في المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ ؟ فاعلم أن هذا غلط لأن الإطلاق إنما يتمتع لتفصيل ينشأ من عين مافيه النظر ، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق ، ألا ترى أنا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا ؟ قلنا : إنه حلال ، على الإطلاق مع أنه حرام على المحرور الذي يستضر به وإذا سئلنا عن الخمر قلنا : إنها حرام . مع أنها تحل لمن غص بلقمة أن يشربها مهما لم يجد غيرها ، ولكن هي من حيث إنها خمر حرام وإنما أباح لعارض الحاجة . والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لعارض الضرر ، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض ، والسمع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم وإنما تحريمه لعارض خارج

عن حقيقة ذاته . فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبأى بمن يخالف بعد ظهور الدليل .

وأما الشافعى رضى الله عنه فليس بتحريم الغناء من مذهبه أصلاً . وقد نص الشافعى وقال فى الرجل يتخذ صناعة : لا تجوز شهادته . وذلك لأنه من اللهو المكروه الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صناعة كان منسوباً إلى السفاهة وسقوط المروءة ، وإن لم يكن محرماً بين التحريم . فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ولا يأتى لأجله وإنما يعرف بأنه قد يطرأ فى الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ولم يبطل شهادته . واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان فى بيت عائشة رضى الله عنها ، وقال يونس بن عبد الأعلى : سألت الشافعى رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع فقال الشافعى . لا أعلم أحداً من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه فى الأوصاف ، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار فباح .

وحيث قال : إنه لو مكروه يشبه الباطل فقوله « لو ، صحيح . ولكن اللهو من حيث إنه لو ليس بحرام فلعلم الحبشة ورقصهم لو وقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ولا يكرهه . بل اللهو واللغو لا يؤخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه . فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه فى اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم . قال الله تعالى ﴿ لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مع أنه لا فائدة فيه لا يؤخذ فكيف يؤخذ به بالشعر والرقص ؟ وأما قوله « يشبه الباطل ، فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه ، بل لو قال : هو باطل صريحاً . لما دل على التحريم وإنما يدل على خلوه عن الفائدة ، فالباطل ما لا فائدة فيه . فقول الرجل لامرأته مثلاً : بعث نفسك منك ، وقولها : اشترى ، عقد باطل مهما كان القصد للعب والمطالبة وليس بحرام إلا إذا قصد به التلبيك المحقق منع الشرع منه . وأما قوله « مكروه ، فينزل بعض المواضع التى ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج وذكر أنى أكره لعب وتعليقه يدل عليه فإنه قال : ليس ذلك من عادة ذوى الدين والمروءة . فهذا يدل على التنزيه . ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضاً بل قد ترد الشهادة بالأكل فى السوق وما يحرم المروءة ، بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوى المروءة ، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة فتعليقه يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه . وهذا هو الظن أيضاً بغيره من كبار الأئمة . وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم .

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها

احتجوا بقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال ابن مسعود والحسن البصرى والنخعى رضى الله عنهم : إن لهو الحديث هو الغناء . وروى عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها ^(١) » ، فنقول : أما القينة فالمراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجلس الشرب . وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور ، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث ، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة . بدليل ما روى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة رضى الله عنها . وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالاً به ليضلل به عن سبيل الله

(١) حديث عائشة : إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها . أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف ، قال البيهقى

ليس بمحفوظ .

فهو حرام مذموم ، وليس النزاع فيه ، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى ، وهو المراد في الآية . ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المتأفقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر بقتله ، ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال . فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم . واحتجوا بقوله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الغناء بلغة حمير - يعني السمد - فقول : ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشتمل عليه .

* فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم ؟ فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ وأراد به شعراء الكفار . ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه .

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى »^(١) ، فقد جمع بين النياحة والغناء ؟ قلنا : لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه ، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مرفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يسك »^(٢) ، قلنا : هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق الخلقين ، فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان . بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح فالتجوز في موضع واحد نص في الإباحة ، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتزويل . أما الفعل فلا تأويل له ، إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط ، وما أيسح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود .

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته »^(٣) ، قلنا : فقوله « باطل » لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة وقد يسلم ذلك . على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام ، بل يباح بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث^(٤) ، فإنه يلحق به رابع وخامس فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ . وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأنه باطل .

(١) حديث جابر : كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى . لم أجده أصلا من حديث جابر ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج له في مستنده . (٢) حديث أبي أمامة : ما رنم أحد تغنيته بناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يسك . أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والطبراني في الكبير وهو ضعيف . (٣) حديث عقبة بن عامر « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته » أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب . (٤) حديث « لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

واحتجوا بقول عثمان رضى الله عنه : ما تغتبت ولا تمنيت ولا لمست ذكرى يميني مذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلنا : فليكن التمنى ومس الذكر باليمين حراما ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء فمن أين ثبت أن عثمان رضى الله عنه كان لا يترك إلا الحرام ؟

واحتجوا بقول ابن مسعود رضى الله عنه : الغناء ينبت في القلب النفاق - وزاد بعضهم - كما ينبت الماء البقل ^(١) ورفع بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غير صحيح . قالوا : ومروا على ابن عمر رضى الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال : ألا لا أسمع الله لكم ألا لا أسمع الله لكم . وعن نافع أنه قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق ؛ فلم يزل يقول : يا نافع أسمع ذلك ؟ حتى قلت : لا فأخرج أصبعيه وقال . هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع ^(٢) وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : الغناء رقية الزنا . وقال بعضهم : الغناء بائد من رواد الفجور . وقال يزيد بن الوليد : إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السكر ، فإن كنتم لابد فاعلين فليجئوه النساء فإن الغناء داعية الزنا . فنقول : قول ابن مسعود رضى الله عنه « ينبت النفاق » أراد به في حق المغنى ، فإنه في حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويرتج صوته عليه ، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه ، وذلك أيضاً لا يوجب تحريماً . فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل الممهلجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزروع وغير ذلك ينبت في القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله . فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط ، بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأميراً . ولذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مطيته . فهذا النفاق من المباحات . وأما قول ابن عمر رضى الله عنهما : ألا لا أسمع الله لكم . فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفث ، وظهر له من تخاليفهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرد اللهو ، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكراً بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام . وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال . وأما وضعه أصبعيه في أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعاً بذلك ولا أنكر عليه سماعه ، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن يزه سماعه في الحال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ويمتنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه . وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع أنه لم يمنع ابن عمر - لا يدل أيضاً على التحريم . بل يدل على أن الأولى تركه . ونحن نرى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال ، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر في القلب . فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه ^(٣) أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب ؟ فلعله صلى الله عليه وسلم كان في حالة كان صوت زمارة الراعى يشغله عن تلك الحالة كما يشغله العلم عن الصلاة . بل الحاجة إلى استئثار الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق ، وإن كان كمالاً بالإضافة إلى غيره . ولذلك قال الحصري : ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من

(١) حديث ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » قال المصنف والمرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم ، رواه أبو داود وهو في رواية ابن عبد ليس في رواية اللؤلؤى ورواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً . (٢) حديث نافع : كنت وابن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ... الحديث . ورفع أبو داود وقال هذا حديث منكسر (٣) حديث : خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كان عليه أعلام شغلت قلبه . تقدم في الصلاة .

يسمع منه ؟ إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم . فالأنبياء عليهم السلام على الدوام في لذة السمع والشهود فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة . وأما قول الفضيل : هو رقية الزنا . وكذلك ماعداه من الأقاويل القريبة منه . فهو منزل على سماع الفساق والمقتلين من الشبان . ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما القياس : فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار ، وقد سبق الفرق ، أويقال هو لهو ولعب ، وهو كذلك ولكن الدنيا كلها لهو ولعب . قال عمر رضي الله عنه لزوجه : إنما أنت لعبة في زاوية البيت . وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التي هي سبب وجود الولد . وكذلك المزح الذي لا يخش فيه حلال . نقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ، كما سيأتي تفصيله في كتاب « آفات اللسان » ، إن شاء الله ^(١) وأى لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج في لعبهم وقد ثبت بالنص إباحته ؟ على أني أقول : اللهم مروح القلب ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت وترويحها إعانة لها على الجدة ، فالمواظب على التفقة مثلا ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغي أن يتعطل في بعض الأوقات ، ولاجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات . فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجدة ، ولا يصبر على الجدة الحضر والحق المز إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام . فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال ، فينبغي أن يكون مباحا ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء فإذا اللهو على هذه النية يصير قربة ، هذا في حق من لا يترك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة ، فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه . نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه .

الباب الثاني : آثار السماع وآدابه

اعلم أن أول درجة السماع فهم المسموع وتنزيله على معنى يقع للستمع ، ثم يثمر الفهم الوجد ، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح . فلينظر في هذه المقامات الثلاثة .

المقام الأول : في الفهم ، وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع . وللستمع أربعة أحوال ، إحداها : أن يكون سماع بمجرد الطبع أى لاحظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنغات ، وهذا مباح وهو أخسر رتب السماع ، إذ الإبل شريكه له فيه وكذا سائر البهائم بل لا يستدعي هذا الذوق إلا الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة .

الحالة الثانية : أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معينا وإما غير معين ، وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات ويكون تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم ، وهذه الحالة أخس من أن تتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها .

الحالة الثالثة : أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرة والتعذر أخرى ، وهذا سماع المريدين لاسيا المتدئين ، فإنّ للمريد لاهجالة مرادا هو مقصده ، ومقصده معرفة الله سبحانه

(١) حديث مزاحه صلى الله عليه وسلم . يأتي في آفات اللسان كما قال المصنف .

ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسرو وكشف الغطاء ، وله في مقصده طريق هو سالكه ، ومعاملات هو مشار عليها ، وحالات تستقبله في معاملاته . فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصول أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو همول العبرات أو ترادف الحشرات أو طول الفراق أو عدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار فلا بد أن يوافق بعضها حال المريد في طلبه فيجرب ذلك مجرى القدرح الذي يورى زناد قلبه ، فتشتعل به نيرانه ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته ويكون له مجال رحب في تنزيل الألفاظ على أحواله . وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه ، بل لكل كلام وجوه ، ولكل ذى فهم في اقتباس المعنى منه حظوظ . ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن المستمع لا يباين فيها ذكر الفم والتحد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها . ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعاني من الآيات في حكايات أهل السماع ما يكشف عن ذلك . فقد حكى أن بعضهم سمع قائلاً يقول :

قال الرسول غدا تزور فقلت تعقل ما تقول

فاستفزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء : نونا . فيقول : قال الرسول غدا تزور ، حتى غشى عليه من شدة الفرح واللذة والسرور . فلما أفاق سئل عن وجدهم كان ؟ فقال : ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل يوم جمعة مرة »^(١) ، وحكى الرقي عن ابن الدراج أنه قال : كنت أنا وابن القوطى مارين على دجلة بين البصرة والابلّة فإذا بقصر حسن له منظره وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول :

كل يوم تتسلون ؟ غير هذا بك أحسن

فإذا شاب حسن تحت المنظرة ويده ركوة وعليه مرقعة يستمع فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك إلا أعدت على هذا البيت . فأعادت فكان الشاب يقول : هذا والله تلتونى مع الحق فى حالى ، فشبهت شقيقة ومات . قال : فقلنا قد استقبلنا فرض . فوقفنا ، فقال صاحب القصر للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالى قال ثم إن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه . فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر : اشهدكم أن كل شيء لى فى سبيل الله ، وكل جوارى أحرار ، وهذا القصر للسبيل . قال : ثم رى بثيابه واتزر بإزار وارتنى بأخر ومز على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم ، وهم يسمعون . فلم يسمع له بعد خبر . والمقصود أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب فى المعاملة وتأسفه على تقلب قلبه وميله عن سنن الحق ، فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له :

كل يوم تتسلون ؟ غير هذا بك أحسن

ومن كان سماعه من الله تعالى وحلى الله وفيه . فينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته . وإلا خطر له من السماع فى حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به . ففى سماع المريد المبتدى خطر إلا إذا

الباب الثانى : فى آداب السماع وآثاره

(١) حديث « إن أهل الجنة يزورون ربهم فى كل جمعة » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العسر بن مختلف فيه وقال الترمذى . لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال : وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعى شيئاً من هذا .

لم ينزل ما يسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى . ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه فلو سمعه في نفسه وهو يخاطب به ربه عز وجل فيضيف التلؤن إلى الله تعالى فيكفر ، وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير مزوج بتحقيق ، وقد يكون عن جهل ساقه إليه نوع من التحقيق ، وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه بل تقلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق ، فإنه تارة يبسط قلبه وتارة يقبضه وتارة يتوره وتارة يظلمه وتارة يقسيه وتارة يلينه وتارة يثبته على طاعته ويقويه عليها وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق ، وهذا كله من الله تعالى . ومن يصدر منه أحوال مختلفة في أوقات متقاربة فقد يقال له في العادة : إنه ذو بداوات وإنه متلؤن . ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوه إلى التلؤن في قبوله ورده وتقريبه وإبعاده وهذا هو المعنى . فسماع هذا كذلك في حق الله تعالى كفر محض بل ينبغي أن يعلم أنه سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون ويغير ولا يتغير بخلاف عباده . وذلك العلم يحصل للمريد باعتقاد تقليدي إيماني . ويحصل للعارف البصير بيقين كشفي حقيق . وذلك من أعاجيب أوصاف الربوبية وهو المغير من غير تغير ، ولا يتصور ذلك إلا في حق الله تعالى ، بل كل مغير سواء فلا يغير مالم يتغير . ومن أرباب الوجد من يغلّب عليه حال مثل السكر المدهش ، فيطلق لسانه بالعتاب مع الله تعالى ، ويستنكر اقتباره للقلوب ، وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت . فإنه المستصفي لقلوب الصديقين ، والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين ، فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجنابة متقدمة ، ولا أمد الأنبياء عليهم السلام بتوقيفه ونور هدايته لوسيلة سابقة ، ولكنه قال ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ فإن خطر ببالك أنه لم تختلف السابقة وهم في ربه العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لا تجاوز حد الأدب ﴿ فإنه لا يستل عما يفعل وهم يستلون ﴾ ولعمري تأدب اللسان والظاهر بما يقدر عليه الأكثرون . فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد بهذا الاختلاف الظاهر في التقريب والإبعاد والإشقاء والإسعاد مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم . ولهذا قال الخضر عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام : إنه الصفر الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء لأنه محزك لأسرار القلوب ومكامنهما ، ومشوش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر إلا بمن عصمه الله تعالى بنور هدايته ولطيف عصمته . ولذلك قال بعضهم : ليتنا نجونا من هذا السماع رأساً برأس . ففي هذا الفن من السماع خطر يريد على خطر السماع المحزك للشهوة ، فإن غاية ذلك معصية وغاية الخطأ ههنا كفر .

واعلم أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع فيغلب الوجد على مستمعين ليبت واحد وأحدهما مصيب في الفهم والآخر خاطئ ، أو كلاهما مصيبان وقد فهمهما معنيين مختلفين متضادين ، ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض . كما حكى عن عتبة الغلام أنه سمع رجلاً يقول :

سبحان جبار السما إن المحب لني عنا

فقال : صدقت . وسمعه رجل آخر فقال : كذبت . فقال بعض ذوى البصائر : أصابا جميعا وهو الحق فالتصديق كلام محب غير ممكن من المراد بل مصدود متعّب بالصّد والهجر . والتكذيب كلام مستأنس بالمحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به ، أو كلام محب غير مصدرّد عن مراده في الحال ولا مستشعر بخاطر

الصد في المآل . وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه . فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم .
وحكى عن أبي القاسم بن مروان - وكان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة -
لخضر دعوة وفيها إنسان يقول :

واقف في الماء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فقام القوم وتواجدوا ، فلما سكنوا سألمهم عن معنى ماوقع لهم من معنى البيت ، فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال
الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها ، فلم يقنعه ذلك فقالوا له : فماذا عندك فيه ؟ فقال : أن يكون في وسط
الأحوال ويكرم بالكرامات ولا يعطى منها ذرة . وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال ، والكرامات
والأحوال سوابقها ، والكرامات تسنح في مبادئها ، والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها . ولا فرق بين المعنى الذي
نهمه وبين ماذكروه إلا في تفاوت رتبة المتعطش إليه ، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها ،
فإن ممكن منها تعطش إلى ماوراءها ، فليس بين المعنيين اختلاف في الفهم بل الاختلاف بين الرتبين . وكان الشبلي
رحمه الله كثيرا مايتواجد على هذا البيت :

ودادكم هجر وجبكم قلى ووصلكم صرم وسلمكم حرب

ومذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة بعضها حق وبعضها باطل ، وأظهرها : أن يفهم هذا في الخلق بل في
الدنيا بأسرها بل في كل ماسوى الله تعالى . فإن الدنيا مكاراة خداعة قتالة لأربابها معادية لهم في الباطن ومظاهرة
صورة الردد فما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبدة (١) ، كما ورد في الخبر وكما قال الثعلبي في وصف الدنيا :

تنح عن الدنيا فلا تخطبها ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس يني مرجوها يخوفها ومكروها أما تأملت راجح
لقد قال فيها الواصفون فأكثروا وعندى لها وصف لعمري صالح
سلاف قصاراها زعاف ومركب شهى إذا استدلتته فهو جامع
وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوء قبائح

والمعنى الثاني . أن ينزله على نفسه في حق الله تعالى فإنه إذا تفكر فعرفته جهل إذ ماقدروا الله حق قدره . وطاعته
رياء إذ لا يتق الله حق تقاته ، وحبه معلول إذ لا يدع شهوة من شهواته في حبه . ومن أراد الله به خيرا بصره
بعبوب نفسه فيرى مصداق هذا البيت في نفسه ، وإن كان على المرتبة بالإضافة إلى الغافلين ، ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام « إني لأستغفر الله
في اليوم والليلة سبعين مرة » (٣) ، وإنما كان استغفاره عن أحوال هي درجات بعد بالإضافة إلى ما بعدها ، وإن
كانت قربا بالإضافة إلى ما قبلها ، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لانهاية له ، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير
متناه ، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال . والمعنى الثالث أن ينظر في مبادئ أحواله فيرتضيها ثم ينظر في
عوافها فيزدريها لاطلاعه على خفايا الغرور فيها ، فيرى ذلك من الله تعالى فيستمع البيت في حق الله تعالى شكاية
من القضاء والقدر وهذا كفر - كما سبق بيانه - وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان ، وذلك بقدر غزارة علم

(١) حديث « ما امتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبدة » أخرجه ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كسيرة
مرسلا . (٢) حديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » رواه مسلم وقد تقدم . (٣) حديث « إني لأستغفر الله
في اليوم والليلة سبعين مرة » تقدم في الباب الثاني من الأذكار .

المستمع وصفاء قلبه .

الحالة الرابعة : سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ماسوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن . وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه . ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى فكأنه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود . وفنى أيضا عن الشهود فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود . فالمستمر بالمرق لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذى به لذته ، فالسكران لاخبر له من سكره ، والمتلذذ لا خبر له من التذاذ ، وإنما خبره من المتلذذ به فقط . ومثاله العلم بالشئ : فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشئ فالعالم بالشئ مهمما ورد عليه العلم بالعلم بالشئ كان معرضا عن الشئ . ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوق وتطرأ أيضا في حق الخالق ، ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذى لا يثبت ولا يدوم ، وإن دام لم تطقه القوة البشرية ، فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا يهلك به نفسه .

كما روى عن أبي الحسن النورى أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت :

مازلت أنزل من وداذك منزلا تتحير الأبواب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه . فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف ، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجله ، حتى ورمت قدماء وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله . فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهي أعلى الدرجات لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهي بمنزلة بصفات البشرية وهونوع قصور ، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله ؛ أعنى أنه ينساها فلا يبقى له النفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدي والسكاكين . فيسمع لله وبالله وفي الله ومن الله وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص ، فلم يبق فيه منه شيء أصلا ، بل خمدت بالكلية بشريته وفنى التفاتة إلى صفات البشرية رأسا ، ولست أعنى بفنائها فناء جسده بل فناء قلبه ، ولست أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراهها سر الروح الذى هو من أمر الله عز وجل - عرفها من عرفها وجهلها من جهلها - ولذلك السروجود . وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر . ومثاله المرأة المجلوة إذ ليس لها لون في نفسها بل لونها لون الحاضر فيها ، وكذلك الزجاجة فإنها تحكى لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها . وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان ، ويعرب عن هذه الحقيقة - أعنى سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه - قول الشاعر :

رق الزجاج ورقن الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا مقام من مقامات علوم المسكشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال أنا الحق وحوله يندندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلولها فيها على ما يختلف فيهم عباراتهم وهو غلط محض يضاهى غلط من يحكم على المرأة بصورة الحرة إذ ظهر فيها لون الحرة مقابلها وإذا كان هذا لا غير لائق

بعلم المعاملة فلنرجع إلى الغرض ؛ فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم المجموعات .

المقام الثاني : بعد الفهم والتنزيل ؛ الوجد : وللتناس كلام طويل في حقيقة الوجد - أعنى الصوفية والحكماء الناظرين في وجه مناسبة السماع للأرواح - فلننقل من أقوالهم ألفاظاً ثم لنكشف عن الحقيقة فيه .

أما الصوفية فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع : إنه وارد حق جاء يزجج القلوب إلى الحق ، فن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس ترندق . فكأنه عبر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق وهو الذي يحده عند ورود وارد السماع إذ سمى السماع وارد حق . وقال أبو الحسين الدراج مخبراً عما وجدته في السماع : الوجد عبارة عما يوجد عند السماع ، وقال : جال في السماع في ميادين البهاء فأوجدني وجود الحق عند العطاء فسقاني بكأس الصفاء فأدكت به منازل الرضاء وأخرجني إلى رياض التنزه والمضاء . وقال الشبلي رحمه الله : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ؛ فن عرف الإشارة حل له استماع العبارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية . وقال بعضهم : السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال ويدرك برقة الطبع لورقه وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله . وقال عروبن عثمان المكي : لا يقع على كيفية الوجد عبارة لأنه سر الله عند عباده المؤمنين الموقنين وقال بعضهم : الوجد مكاشفات من الحق . وقال أبو سعيد بن الأعرابي : الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإيناس المفقود ، وهو فناؤك من حيث أنت ، وقال أيضاً : الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب فلما ذاقوه وسطع في قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب . وقال أيضاً : الذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب ؛ لأن النفس محجوبة بأسبابها فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصح القلب ورق وصفا ونجحت الموعظة فيه وحل من المناجاة في محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خالياً ؛ فذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كان معدوماً عنده . وقال أيضاً : الوجد ما يكون عند ذكر مزيج أو خوف مقلق أو توبيخ على زلة أو محادثة بلطفية أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب أو أسف على فائت أو ندم على ماض أو استجلاب إلى حال أو داع إلى واجب أو مناجاة بسر ، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن والغيب بالغيب والسر بالسر واستخراج مالك بما عليك مما سبق للسعي فيه فيكتب ذلك لك بعد كونه منك ، فيثبت لك قدم بلا قدم وذكر بلا ذكر ، إذ كان هو المبتدئ بالنعم والمتولى وإليه يرجع الأمر كله فهذا ظاهر علم الوجد وأقوال الصوفية من هذا الجنس في الوجد كثيرة .

وأما الحكماء فقال بعضهم : في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظهرت سرت وطربت إليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر . وقال بعضهم : نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأى واستجلاب العازب من الأفكار وحدة السكال من الأفهام والآراء حتى يشوب ما عذب وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ويمرح في كل رأى ونية ، فيصيب ولا يخطئ ويأتي ولا يبطئ . وقال آخر : كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلوم فالسماع يطرق القلب إلى العالم الروحاني . وقال بعضهم وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات فقال : ذلك عشق عقلي والعاشق العقلي لا يحتاج إلى أن يناغي معشوقه بالمنطق الجرمي بل يناغيه ويناجيه بالتبسم واللحظ والحركة اللطيفة بالحاجب والجفن والإشارة ، وهذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية ، وأما العاشق البهيمي فإنه يستعمل المنطق الجرمي ليعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه

الرائف . وقال آخر : من حزن فليسمع الألحان . فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها وإذا فرحت اشتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحزن بقدر قبول القابل وذلك بقدر صفائه ونقاؤه من الغش والدنس .

والأقاويل المقررة في السماع والوجد كثيرة ولا معنى للاستكثار من إيرادها ، فلنشغل بتفهم المعنى الذي الوجد عبارة عنه فنقول : إنه عبارة عن حالة يشمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين : فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهات ، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم بل هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض ، وهذه الأحوال يهيجها السماع ويقويها ؛ فإن ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته أو يطرق أو يسكن عن النظر والطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجدا ، وإن ظهر على الظاهر سمي وجدا إما ضعيفا وإما قويا ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده ، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه ؛ فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه ؛ وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك . وإلى معنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد : إنه مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ، ولا يبعد أن يكون السماع سببا لكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله ، فإن الكشف يحصل بأسباب : منها التنبيه والسماع منه ، ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورد ، ومنها صفاء القلب والسماع يؤثر في تصفية القلب والصفاء يسبب الكشف ، ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته ، كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله . وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملوكوت ، كما أن عمل البعير حمل الانتقال فبواسطة هذه الأسباب يكون سببا للكشف ، بل القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة ، وبالرؤيا إذا كان في المنام ، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة وذلك كما روى عن محمد بن مسروق البغدادي أنه قال : خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به إلا تعجبت من يشرب الماء

فسمعت قائلا يقول :

وفي جهنم ماء ما تجرعه خلق فأبقى له في الجوف أمعاء

قال : فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة . فانظر كيف أثر الغناء في تصفية قلبه حتى تمثل له حقيقة الحق في صفة جهنم في لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر ؟ .

وروى عن مسلم العباداني أنه قال ؟ قدم علينا صالح المري وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ومسلم الأسواري فنزلوا على الساحل ، قال : فهيات لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجأوا فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذ بقائل يقول رافعا صوته هذا البيت :

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيا غير نافع

قال : فصاح عتبة الغلام صيحة وخر مغشيا عليه وبكى القوم ، فرفعت الطعام وماذاقوا والله منه لقمة .

وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضاً بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة . وفي مثل هذه الحالة تتمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام إما على حقيقة صورتها وإما على مثال يحاكي صورتها بعض المحاكاة . وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرتين في صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق ^(١) وهو المراد بقوله تعالى ﴿ عليه شدة القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ﴾ إلى آخر هذه الآيات . وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب ، وقد يعبر عن ذلك الاطلاع بالتفريس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ^(٢) ، وقد حكى أن رجلاً من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول مامعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن ، فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية . فسأله ، فقال له معناه : أن تقطع الزنار الذى على وسطك تحت ثوبك . فقال : صدقت هذا معناه وأسلم ، وقال : الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق . وكما حكى عن إبراهيم الخواص قال : كنت ببغداد فى جماعة من الفقراء فى الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابي : يقع لى أنه يهودى ، فدكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال : أى شيء قال الشيخ فى ؟ فاحتشموه فألح عليهم فقالوا له : قال إنك يهودى ، قال : فجاءنى وأكب على يدي وقبل رأسى وأسلم ، وقال : نجد فى كتبنا أن الصديق لا تخطئ فراسته فقلت : أمتحن المسلمين فتأملتهم فقلت : إن كان فيهم صديق فى هذه الطائفة ؛ لأنهم يقولون حديثه سبحانه ويقرءون كلامه ؛ فلبست عليكم فلما اطلع على الشيخ وتفكرت فى علمت أنه صديق قال ، وصار الشاب من كبار الصوفية .

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » ^(٣) ، وإنما تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة فإنها مرعى الشيطان وجنده . ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفاء لم يطف الشيطان حول قلبه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وبقوله تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ والسماع سبب لصفاء القلب وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء .

وعلى هذا يدل ما روى أن ذا التون المصرى رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال ؛ فاستأذنه فى أن يقول لهم شيئاً . فأذن لهم فى ذلك فأنشأ يقول :

صغير هواك عذبنى فكيف به إذا اختسكا وانت جمعت فى قلبى
هوى قد كان مشتركاً أما ترى لى مكتتب إذا ضحك الخلى بكى

فقام ذو التون وسقط على وجهه ، ثم قام رجل آخر فقال ذو التون : الذى يراك حين تقوم . فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعا من ذى التون على قلبه . أنه متكلف متواجد ، فعرفه أن الذى يراه حين يقوم هو الخصم فى قيامه لغير الله تعالى ولو كان الرجل صادقاً لما جلس . فإذا قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى ما يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى ما لا يمكن العبارة عنه أصلاً ، ولعلك تستبعد حالة أو علماً لا تعلم حقيقته ولا يمكن التعبير عنه عن حقيقته ، فلا تستبعد ذلك فإنك تجد فى أحوالك القريبة لذلك شواهد.

(١) حديث : رأى جبريل عليه السلام مرتين فى صورته فأخبر أنه سد الأفق . متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حديث عريب .

(٣) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » تقدم فى الصوم .

أما العلم فكمن فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقاً بالحكم؟ وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس، فبدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه، وإدراكه الفرق علم يصادفه في قلبه بالذوق ولا يشك في أن لوقوعه في قلبه سبباً وله عند الله تعالى حقيقة؛ ولا يمكنه الإخبار عنه لاقصور في لسانه بل لدقة المعنى في نفسه عن أن تناله العبارة. وهذا مما قد تفتن له المواظبون على النظر في المشكلات.

وأما الحال فكمن إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضاً أو بسطاً ولا يعلم سببه، وقد يتفكر إنسان في شيء فيؤثر في نفسه أثراً فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يحس به، وقد تكون الحالة التي يحسها سروراً ثبت في نفسه بتفكيره في سبب موجب للسرور، أو حزناً فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيباً. وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة عن المقصود، بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون بعض، وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها - أعني التفرقة بين الموزون والمنزحف - فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده لمن لا ذوق له. وفي النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في السماع عن غناء مفهوم، وأما الأوتار وسائر النغبات التي ليست مفهومة فإنها تؤثر في النفس تأثيراً عجيباً ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه فهو عجيب، والذي اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهين وما أشبهه ليس يدري إلى ماذا يشترك؟ ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمراً ليس يدري ما هو؟ حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لاحب آدمي ولا حب الله تعالى. وهذا له سر وهو أن كل شوق فله ركنان:

أحدهما: صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه.

والثاني: معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه، فإن وجدت الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهراً، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها أورت ذلك دهشة وحيرة لا محالة.

ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق اللحم وغلبت عليه الشهوة لسكان يحس من نفسه بنار الشهوة ولكن لا يدري أنه يشترك إلى الوقاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء: فكذلك في نفسه الآدمي مناسبة مع العالم الأعلى والذات التي وعد بها في سدرة المنتهى والفراديس العليا؛ إلا أنه لم يتخيل من هذا الأمور إلا الصفات والأسماء، كالذي سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في المرأة ليعرف بالمقايسة، فالسماع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاستغفال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذي إليه حنيته واشتياقه بالطبع، فيتقاضاه قلبه أمراً ليس يدري ما هو؟ فيدهش ويتحير ويضطرب ويكون كالخنتق الذي لا يعرف طريق الخلاص فهذا، وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن المتصف بها أن يعبر عنها. فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره.

واعلم أيضاً أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلف ويسمى التواجد، وهذا التواجد المتكلف فنه مذموم

وهو الذى يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ، ومنه ما هو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ، فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء فى قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن ^(١) فإن هذه الأحوال قد تتكلف مبادئها ثم تتحقق أواخرها . وكيف لا يكون التكلف سببا فى أن يصير المتكلف فى الآخرة طبعاً ، وكل من يتعلم القرآن أو لا يحفظه تكلفاً ، ويقرؤه تكلفاً مع تمام التأمل وإحضار الذهن ؛ ثم يصير ذلك ديدناً للسان مطرداً حتى يجرى به لسانه فى الصلاة وغيرها وهو غافل ؛ فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها فى حال غفلته ؟ وكذلك الكاتب يكتب فى الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يده فيصير الكتب له طبعاً فيكتب أوراقاً كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر ؟ لجميع ما تحتمله النفس والجوارح من الصفات لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولاً ثم يصير بالعادة طبعاً ، وهو المراد بقول بعضهم : العادة طبيعة خامسة . فكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأس منها عند فقدانها ، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسمع وغيره ، فلقد شوه فى العادات من اشتى أن يعشق شخصاً ولم يكن يعشقه فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق المحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك فى قلبه رسوخاً خرج عن حد اختياره ، فاشتبه بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص . فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة ؛ إذا فقدانها الإنسان فينبغى أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم فى النفس وبالجلوس معهم فى السماع والدعاء والنصر إلى الله تعالى فى أن يرزقه تلك الحالة بأن يسر له أسبابها .

ومن أسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحسنين والمشتاقين والخاشعين . فمن جالس شخصاً سرت إليه صفاته من حيث لا يدري . ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب من يقربني إلى حبك ^(٢) ، فقد فزع عليه السلام إلى الدعاء فى طلب الحب . فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات وإلى أحوال وانقسامه إلى ما يمكن الإفصاح عنه وإلى ما لا يمكن ، وانقسامه إلى المتكلف وإلى المطبوع .

هـ فإن قلت : فما بال هؤلاء لا يظهر وجدهم عند سماع القرآن وهو كلام الله ويظهر عند الغناء وهو كلام الشعراء ؟ فلو كان ذلك حقاً من لطف الله تعالى ولم يكن باطلاً من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من الغناء ؟ فنقول : الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه ، وذلك يهيج بسماع القرآن أيضاً . وإنما الذى لا يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوق . ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثاقيقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ وكل ما يوجد عقيب السماع فى النفس فهو وجد . فالطمأنينة والافتشعار والخشية ولين القلب كل ذلك وجد . وقد قال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ فالوجل والخشوع وجد من قيسل الأحوال وإن لم يكن من قيسل المكاشفات . ولكن قد يصير سبباً للمكاشفات والتنبيهات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » ^(٣) .

(١) حديث : البكاء عند قراءة القرآن فإن لم تبكوا فبأكوا . تقدم فى تلاوة القرآن فى الباب الثانى . (٢) حديث : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك ... الحديث ، تقدم فى الدعوات . (٣) حديث : زينوا القرآن بأصواتكم ، تقدم فى تلاوة القرآن

وقال لأبي موسى الأشعري : لقد أوتى زممارا من زمير آل داود عليه السلام ^(١) .
وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن فكثيرة فقوله صلى الله عليه وسلم : شيبني هود وأخواتها ^(٢) ، خبر عن الوجد ، فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد . وروى أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال : « حسبك » وكانت عيناه تذرفان بالدموع ^(٣) .
وفي رواية أنه عليه السلام قرأ هذا الآية أو قرئ عنده ﴿ إن لدينا أنكالا وججيا وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ فصعق ^(٤) وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ فبكى ^(٥) وكان عليه السلام إذا مر بآية رحمة دعا واشتبش ^(٦) والاستبشار وجد . وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد بالقرآن فقال تعالى ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل ^(٧) .

وأما ما نقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين فكثير : فمنهم من صق ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات في غشيته . وروى أن زرارة بن أوفى - وكان من التابعين - كان يؤم الناس بالرقعة فقرأ ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ فصعق ومات في محرابه رحمه الله . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقرأ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ فصاح صيحة وخر مغشيا عليه لحمل إلى بيته ، فلم يزل مريضاً في بيته شهرا . وأبو جرير - من التابعين - قرأ عليه صالح المري فشقق ومات . وسمع الشافعي رحمه الله قارئا يقرأ ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فغشى عليه . وسمع علي بن الفضيل قارئا يقرأ ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ فسقط مغشيا عليه ، فقال الفضيل : شكر الله لك ما قد علمه منك . وكذلك نقل عن جماعة منهم .

وكذلك الصوفية : فقد كان الشبلي في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف إمام له فقرأ الإمام ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ فزعق الشبلي زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائصه ، وكان يقول : بمثل هذا يخاطب الأحباب ، يردد ذلك مرارا . وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي فرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه فقال لى : هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه ، فقلت : أفرم واعليه تلك الآية بعينها فقرئت فأفاق ، فقال : من أين قلت هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماء من أجل مخلوق فبمخلوق أبصر ، ولو كان عماء من أجل الحق ما أبصر بمخلوق ، فاستحسن ذلك . ويشير إلى ما قاله الجنيد قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال بعض الصوفية : كنت أقرأ ليلة هذه الآية ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ فجعلت أرددتها فإذاها تف يهتف بى :

(١) حديث : « لقد أوتى زممارا من زمير آل داود » قاله لأبي موسى تقدم فيه . (٢) حديث : « شيبني هود وأخواتها » أخرجه الترمذى من حديث أبي جحيفة وله وإسحاق من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذى حسن وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى (٣) حديث : « إن ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله ﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال : « حسبك » الحديث . متفق عليه من حديثه . (٤) حديث : « أنه قرئ عنده ﴾ ﴿ إن لدينا أنكالا وججيا وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ فصعق رواه ابن عدى . فى الكامل والبيهقى فى الشعب من طريقه من حديث أبي حرب بن أبى الأسود مرسل . (٥) حديث : « أنه قرأ ﴾ ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ فبكى . أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو . (٦) حديث : « كان إذا مر بآية رحمة دعا واشتبش » تقدم فى تلاوة القرآن دون قوله : « واستبشر » . (٧) حديث : « أنه كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى فى الشمائل من حديث عبد الله بن الشخير وقد تقدم . (٣٨ — لحياء علوم الدين — ٢)

كم تردد هذه الآية ؟ فقد قتلت أربعة من الجن مارفوعوا وروسهم إلى السماء منذ خلقوا . وقال أبو علي المغازلي للشبلي : ربما تطرق سمعى آية من كتاب الله تعالى فتجذبني إلى الإعراض عن الدنيا ثم أرجع إلى أحوالى وإلى الناس فلا أبقي على ذلك ، فقال : ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إليه فذلك عطف منه عليك ولطف منه بك ، وإذاردك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك فإنه لا يصلح لك إلا التبرى من الحول والقوة في التوجه إليه . وسمع رجل من أهل التصوف قارئاً يقرأ ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ فاستعادها من القارئ وقال : كم أقول لها ارجعى وليست ترجع ؟ وتواجد وزعق زعقة فخرجت روحه . وسمع بكر بن معاذ قارئاً يقرأ ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ الآية فاضطرب ثم صاح : ارحم من أنذرته ولم يقبل إليك بعد الإنذار بطاعتك ، ثم غشى عليه . وكان إبراهيم ابن آدم رحمه الله إذا سمع أحداً يقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد . وعن محمد بن صبيح قال : كان رجل يغتسل في الفرات فر به رجل على الشاطئ يقرأ ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات . وذكر أن سلمان الفارسي أبصر شاباً يقرأ فاتى على آية فافشعر جلده فأحبه سلمان وفقده ، فسأل عنه فقيل له : إنه مريض ، فأتاه يعودده فإذا هو في الموت ، فقال : يا عبد الله ! رأيت تلك التشعيرة التي كانت بي ؟ فإنها أتتني في أحسن صورة فأخبرتني أن الله قد غفر لي بها كل ذنب .

وبالجملة لا يخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلاً ﴿ مثله كمثل الذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها . قال جعفر الخلدی : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة فقال للجنيد : متى يستوى عند العبد حامده وذامه ؟ فقال بعض الشيوخ : إذا دخل السيارستان وقيد بقيدین ، فقال الجنيد : ليس هذا من شأنك ؟ ثم أقبل على الرجل وقال : إذا تحقق أنه مخلوق فشق الرجل شهقة ومات ،

* فإن قلت : فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئین ؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في حلق القراء للاحق المغنين ؟ وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارئاً لا قوالاً ؟ فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لاحتالة فاعلم أن الغناء أشد تهيجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه :

الوجه الأول : أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له ، فن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فن أين يناسب حاله قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) ؟ وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها ؟ وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه . والآيات إنما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف . نعم من يستولى عليه حالة غالبية قاهرة لم تبق فيه متسعاً لغيرها ومعه يتقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الالفاظ ، فقد يخرج وجده على كل مسموع كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم) حالة الموت المحوج إلى الوصية وأن كل إنسان لابد أن يخلف ماله وولده وهما محبوباه من الدنيا ، فيترك أحد المحبوبين للثاني ويهجرهما جميعاً فيغلب عليه الخوف والجزع أو يسمع ذكر الله في قوله (يوصيكم الله في أولادكم) فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده ، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته بأن تولى قسم موارثهم بنفسه نظراً لهم في حياتهم وموتهم فيقول : إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لنا فيبيع

منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشارا وسرورا ، أو يخطر له من قوله تعالى ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ تفضيل الذكر بكونه رجلا على الأنثى وأن الفضل في الآخرة لرجال لا نلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لا من الرجال تحقيقا ، فيخشى أن يحجب أو يؤخر في نعيم الآخرة كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا . فأمثال هذا قد يحرك الوجد ولكن لمن فيه وصفان (أحدهما) حالة غالبية مستغرقة قاهرة (والآخر) تفتن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة وذلك مما يعز ، فلاجل ذلك يفزع إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها . وروى أن أبا الحسين التوري كان مع جماعة في دعوى جرى بينهم مسألة في العلم وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم :

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت لئلا ودعرا صالحا وبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها وبكاهها ربما أرقني
ولقد أشكو فما أفهمها ولقد تشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

قال فما بقي أحد من القوم إلا قام وتواجد ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذي خاضوا فيه وإن كان العلم جدا وحقا .

الوجه الثاني : أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الاسماع والقلوب ، وكلما سمع أولا عظم أثره في القلوب ، وفي الكرة الثانية يضعف أثره ، وفي الثالثة يكاد يسقط أثره . ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان ، في يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك . ولو أبدل بيت آخر لتجدد له أثر في قلبه وإن كان معربا عن عين ذلك المعنى . ولكن كون النظم واللفظ غريبا بالإضافة إلى الأولى يحرك النفس وإن كان المعنى واحدا . وليس يقدر القارئ على أن يقرأ قرآنا غريبا في كل وقت ودعوة فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه وكله محفوظ متكرر . وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويكون فقال : كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا . ولا تظن أن قلب الصديق رضي الله عنه كان أفسى من قلوب الأجلاف من العرب وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثير به لما حصل له من الانس بكثرة استماعه ، إذ محال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكي ، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة ، ثم يرددها ويبكي ، ولا يفارق الأول الآخر إلا في كونه غريبا جديدا ؟ ولكل جديد لذة واسكل طارئ صدمة ، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة . ولذا هم عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقال : قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت أي يأنسوا به . ومن قدم حاجا فرأى البيت أولا يبكي وزعق وربما غشى عليه إذ وقع عليه بصره ، وقد يقيم بمكة شهرا ولا يحس من ذلك في نفسه بأثر ، فإذا المغنى يقدر على الآيات الغريبة في كل وقت ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة .

الوجه الثالث : أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأميرا في النفس فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون ، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات ، ولو زحف المغنى البيت الذي ينشده أو لحن فيه

أو مال عن حد تلك الطريقة في اللحن لاضطرب قلب المستمع وبطل جده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة . وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوش ، فالوزن إذن مؤثر فذلك طاب الشعر .

الوجه الرابع : أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والاستانات وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر المدود والوقف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها . وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل ، فقصره ومدّه والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة حرام أو مكروه . وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير وإن لم يكن مفهوما ، كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم ..

الوجه الخامس : أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات آخر موزونة خارج الخلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره ، لأن الوجد الضعيف لا يستتار إلا بسبب قوى ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ في التأثير ، وواجب أن يسان القرآن عن مثل هذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب ، والقرآن جد كله عند كافة الخلق ، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة بصورته صورة اللهو عند الخاصة ، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو ، بل ينبغي أن يوقر القرآن . فلا يقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن ، ولا في حال الجنابة . ولا على غير طهارة ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم ، فيعدل إلى الغناء الذي لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة ، ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرآن ليلة العرس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الدف في العرس فقال « أظهروا النكاح ولو بضرب الغربال »^(١) ، وأبلفظ هذا معناه ، وذلك جائز مع الشعر دون القرآن . ولذلك لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار فسمع إحداهن تقول : وفيما نبي يعلم ما في غد . على وجه الغناء ، فقال صلى الله عليه وسلم « دعى هذا وقولى ما كنت تقولين »^(٢) ، وهذه شهادة بالنبوة فزجرها عنها وردّها إلى الغناء الذي هو لهو ، لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة اللهو . فإذا يتعذر بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محركا للقلب فواجب في الاحترام العدول إلى الغناء عن القرآن كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوة إلى الغناء .

الوجه السادس . أن المغنى قد يغنى بيت لا يوافق حال السامع فيكرهه وينهاه عنه ويستدعى غيره فليس كل كلام موافقا لكل حال . فلو اجتمعوا في الدعوات على القارئ فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال ، فأيات الرحمة شفاء الخائف ، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن . وتفصيل ذلك مما يطول . فإذا لا يؤمن أن لا يوافق المقروه الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلا إلى دفعه . فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى . وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك ، وهذا ما يتقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن .

وهنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الاعتذار عن ذلك فقال : القرآن كلام الله وصفة من

(١) حديث : الأمر بضرب الدف في العرس . تقدم في النكاح . (٢) حديث : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يتن . الحديث . أخرجه البخاري من حديثها وقد تقدم في النكاح .

صفاته وهو حق لا تطيقه البشرية ، لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة . ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودهشت وتحيرت . والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق ، والشعر نسبته نسبة الحظوظ . فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الآيات من الإشارات واللطائف شاكل بعضها بعضا كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب لمشاكله المخلوق المخلوق . فدامت البشرية باقية ونحن بصفتنا وحظوظنا نتنعم بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة ، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود . وهذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره . وقد حكى عن أبي الحسن الدراج أنه قال قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه فلما دخلت الري كنت أسأل عنه فكل من سأله عنه قال . أيش تعمل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف . ثم قلت في نفسي : قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه . فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل ويده مصحف وهو يقرأ ، فإذا هو شيخ بهى حسن الوجه واللحية ، فسلمت عليه فأقبل على وقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من بغداد ، فقال : وما الذى جاء بك ؟ فقلت : قصدتك للسلام عليك ، فقال : لو أن في بعض هذه البلدان قال لك إنسان أقم عندنا حتى نشتري لك دارا أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجيء ؟ فقلت : ما امتحننى الله بشيء من ذلك ولو امتحننى ما كنت أدرى كيف أكون ؟ ثم قال لى : أتحسن أن تقول شيئا ؟ فقلت : نعم ، فقال : هات ! فأنشأت أقول :

رأيتك تبني دائما في قطيعي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

كأنى بكم والليت أفضل قولكم ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغنى

قال : فأطبق المصحف ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه ، حتى رحمته من كثرة بكائه ، ثم قال : يا بنى تلوم أهل الري يقولون يوسف زنديق ، هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ في المصحف لم تقطر من عيني قطرة ، وقد قامت القيامة على لهدن البيتين . فإذا القلوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن ، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع ، ولكونه مشاكلا للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر ، وأما القرآن فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهجه وهو لذلك معجز لا يدخل في قوة البشر لعدم مشاكلته لطبعه . وروى أن لإسرافيل - أستاذ ذى التون المصرى - دخل عليه رجل فرآه وهو ينكت في الأرض بأصبعه وترنم بيت فقال : هل تحسن أن ترنم بشيء ؟ فقال : لا ، قال : فأنت بلا قلب - إشارة إلى أن من له قلب وعرف طباعه علم أنه تحركه الآيات والنغمات تحريكا لا يصادف في غيرها فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره - وقد ذكرنا حكم المقام الأول في فهم المسموع وتنزيله ، وحكم المقام الثانى في الوجد الذى يصادف في القلب ، فلنذكر الآن أثر الوجد أعنى ما يترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره فنقول :

المقام الثالث من السماع

نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا وما يحمد من آثار الوجد وما يذم . فأما الآداب فهى خمس جل :
الأول : مراعاة الزمان والمكان والإخوان . قال الجنيد : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع : الزمان والمكان والإخوان . ومعناه أن الاشتغال به في وقت حضور طعام أو خصام أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه فهذا معنى مراعاة الزمان فيراعى حالة فراغ القلب له . وأما المكان : فقد يكون

شارعا مطروقا أو موضعا كره الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك . وأما الإخوان : فسيبه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهذا الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستقلا في المجلس واشتغل القلب به . وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته ، أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرأى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوشات . فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى في هذه الشروط نظر للمستمع .

الآداب الثاني : هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله يريدون يضرهم السماع فلا ينبغي أن يسمع في حضورهم فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر والمريد الذي يستضر بالسماع أحد ثلاثة :

أقلهم درجة . هو الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع ؛ فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه ، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع ، فليشتغل بذكر أو خدمة وإلا فهو تضييع لزمانه .

الثاني : هو الذي له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الخطوط والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ولم ينكسر بعد انكسارا تؤمن غوائله ، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصدّه عن الاستكمال .

الثالث : أن يكون قد انكسرت شهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل ؛ فإذا فتح له باب السماع نزل المسموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز فيكون ضرره من تلك الخطوط التي هي كفر أعظم من نفع السماع . قال سهل رحمه الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل . فلا يصلح السماع لمثل هذا ولأن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء ، ولأن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عبادته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه . فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه . قال الجنيد : رأيت إبليس في النوم فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشيء ؟ قال : نعم في وقتين ، وقت السماع ووقت النظر فإني أدخل عليهم به . فقال بعض الشيوخ : لو رأيته أنا لقلت له ما أحقك من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تظفر به ؟ فقال الجنيد : صدقت .

الآداب الثالث : أن يكون مصغيا إلى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى الجوانب ، متحرزا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد . مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره ، متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم . يل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الأطراف متحفظا عن التنحنح والتشاوب ، ويجلس مطرقا رأسه ، كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه ، متماسكا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراعاة ، ساكنا عن النطق في أثناء القول بكل ماعنه بد فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو معذور غير ملوم . ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه . ولا ينبغي أن يستديمه حياء من أن يقال انقطع وجده على القرب ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال هو قاسي القلب عديم الصفاء والركة .

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئا من الذكر يزعق فقال له الجنيد يوما ؛ إن فعلت ذلك مرة

أخرى لم تصبني فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء ولا يزرق ، فحكى أنه اختنق يوما لشدة ضبطه لنفسه فشقق قلبه وتلفت نفسه . وروى أن موسى عليه السلام قص في بني إسرائيل فزق واحد منهم ثوبه أو قميصه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له : مزق لي قلبك ولا تمزق ثوبك . قال أبو القاسم النصراباذي لأبي عمرو بن عبيد أنا أقول : إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوال يقول خيرا لهم من أن يقتابوا ؛ فقال أبو عمرو : الرياء في السماع وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر من أن تختاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك .

هـ فإن قلت : الأفضل هو الذي لا يحرك السماع ولا يؤثر في ظاهره أو الذي يظهر عليه ؟ فاعلم أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان ، وتارة يكون مع قوة الوجد في الباطن لكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال ، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا في الأحوال كلها فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال . فإن صاحب الوجد في غالب الأحوال لا يدوم وجده فمن هو في وجد دائم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود ؛ فهذا لا تغيره طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضي الله عنه : كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا ، معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديدا في حقنا طارئا علينا حتى تتأثر به . فإذا قوة الوجد تحرك وقوة العقل والتماسك تضبط الظاهر . وقد يغلب أحدهما الآخر إما الشدة قوته وإما الضعف ما يقابله ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظن أن الذي يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجد من الساكن باضطرابه ، بل رب ساكن أتم وجد من المضطرب . فقد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرك ففيل له في ذلك فقال ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر من السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل في الملكوت والجوارح متأدبة في الظاهر ساكنة . وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة : صحبت سهل بن عبد الله ستين سنة فما رأيت تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر أو القرآن ، فلما كان في آخر عمره قرأ رجل بين يديه ﴿ فاليرم لا يؤخذ منكم فدية ﴾ الآية فرأيت قد ارتعد وكاد يسقط ، فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك فقال : نعم يا حبيبي قد ضعفتنا . وكذلك سمع مرة قوله تعالى ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ فاضطرب فسأله ابن سالم - وكان من أصحابه - فقال : قد ضعفت . ففيل له : فإن كان هذا من مضعف فما قوة الحال فقال : أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله ، فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية . وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود . كما حكى عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال : حالي قبل الصلاة وبعدها واحدة ، لأنه كان مراعيًا للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى في كل حال . فكذلك يكون قبل السماع وبعده ، إذ يكون وجده دائما ، وعطشه متصلا ، وشربه مستمرا ، بحيث لا يؤثر السماع في زيادته . كما روى أن عباد الدينوري أشرف على جماعة فيهم قوال فسكنوا فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذني ما شغل همي ولا شغني بعض ما بي . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم . وفضل العلم أتم من فضل الوجد .

فإن قلت : فثل هذا لم يحضر السماع ؟ فاعلم أن من هؤلاء من ترك السماع في كبره وكان لا يحضر إلا نادرا لمساعدة أخ من الإخوان وإدخلا للسُرور على قلبه ؛ وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر ؛ فيتعلون منه ضبط الظاهر عن التكلف وإن لم يقدرُوا على الاقتداء به في صيرورته طبعًا

لهم . وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم نائين عنهم بقلوبهم وبواطنهم . كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضى الجلوس معهم . وبعضهم نقل عنه ترك السماع ويظن أنه كان سبب تركه استغناؤه عن السماع بما ذكرناه . وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحاني في السماع ولا كان من أهل اللهو ، فتركه لئلا يكون مشغولا بما لا يعنيه . وبعضهم تركه لفقد الإخوان . قيل لبعضهم لم لا تسمع ؟ فقال : ممن ومع من ؟

الأدب الرابع : أن لا يقنم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المראה ؛ لأن التباكى استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط . فكل سرور مباح فيجوز تحريكه . ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرفنون ^(١) هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات . وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك ؛ وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فتشاحوا في تربيتها فقال صلى الله عليه وسلم لعلي : أنت مني وأنا منك ، فحجل علي وقال لجعفر : أشبهت خلقي وخلقي ، فحجل وراء حجل علي وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا ، فحجل زيد وراء حجل جعفر ، ثم قال عليه السلام : هي لجعفر لأن خالتها تحته والخالة والدة ^(٢) ، وفي رواية أنه قال لعائشة رضي الله عنها : أتحيين أن تنظري إلى زفن الحبشة ، والزفن والحجل هو الرقص . وذلك يكون لفرح أو شوق فحكه حكم مهيجه ، إن كان فرحه محمودا والرقص يزيد ويؤكد فهو محمود ، وإن كان مباحا فهو مباح ، وإن كان مذموما فهو مذموم . نعم لا يليق اعتياد ذلك بمنصب الأكابر وأهل القدوة لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب ، وماله صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يحتذبه المقتدى به لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به .

وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المكروه إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس ، فيضطر إليه اضطراب المريض إلى الأنين ، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختياري ، فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة ، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لا يضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس . فكذلك الزعقة وتمزيق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم . فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحاد الغالب فقال : نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري . فراجع فيه واستبعد أن ينتهي إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع . ومعناه : أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحد في بعض الأشخاص .

« فإن قلت : فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع فإنهم يمزقونها قطعاً صغاراً ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرق ؟ فأعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات . فإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص ، ولا يكون ذلك تضييعاً لأنه تمزيق لغرض . وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار وذلك مقصود ، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح . ولكل

(١) حديث : نظرت عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرفنون . تقدم في الباب قبله .

(٢) حديث : اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة فقال لعلي : أنت مني وأنا منك ، فحجل وقال لجعفر : أشبهت خلقي وخلقي ، فحجل علي وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا ، فحجل ... الحديث أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد حسن وهو عند البخاري دون « فحجل » .

مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين ، ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاع . وإنما منعنا في السماع التزويق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبقى متنعفا به فهو تضییع محض لا يجوز بالاختيار .

الادب الخامس : موافقه القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحة . وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنجية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته . أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتزويق ؛ فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصحة والعشرة ، إذا المخالفة موحشة ولكل قوم رسم ، ولا بد من مخالقة الناس بأخلاقهم^(١) كما ورد في الخبر ، لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة والمجاملة وتطيب القلب بالمساعدة . وقول القائل : إن ذلك بدعة لم يكن في الصحابة ؟ فليس كل ما يحكم بإباحته منقولا عن الصحابة رضي الله عنهم ، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة ، ولم ينقل النهي عن شيء من هذا .

والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب بل كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال^(٢) كما رواه أنس رضي الله عنه . ولكن إذا لم يثبت فيه نهى عام فلا يرى به بأسا في البلاد التي جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام ، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام وتطيب القلب به . وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطيب القلب واصطلح عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها ، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهى لا يقبل التأويل ، ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستقل رقصه ، ولا يشوش عليهم أحوالهم إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح ، والمتواجد هو الذي يلوح للجميع منه أثر التكاف . ومن يقوم عن صدق لا تستقله الطباع فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محلك للصدق والتكلف .

سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال : صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أزداد .
فإن قلت : فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولهو ومخالف للدين فلا يراه ذو وجد في الدين إلا وينكره ؟

فاعلم أن الجد لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد رأى الحبشة يرفنون في المسجد وما أنكر ما كان في وقت لائق به وهو العيد ، ومن شخص لائق به وهم الحبشة . نعم نفرة الطباع عنه ، لأنه يرى غالباً مقرونا باللهو واللعب ، واللهو واللعب مباح ولكن للعوام من الزوج والحبشة ومن أشبههم . وهو مكروه لذوي المناصب لأنه لا يليق بهم ، وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذي المنصب فلا يجوز أن يوصف بالتحريم ، فن سأل فقيرا شيئا فأعطاه رغيفا كان ذلك طاعة مستحسنة ، ولو سأل ملكا فأعطاه رغيفا أو رغيفين لكان ذلك منكرا عند الناس كافة ، ومكتوبا في تواريخ الأخبار من جملة مساويه ويعير به أعقابا وأشياءه ، ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام لأنه من حيث إنه أعطى خبزا للفقير حسن . ومن حيث أنه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستحب ، فكذلك الراقص وما يجري مجراه من المباحات ، ومباحات العوام سيئات الأبرار ، وحسنات الأبرار

(١) حديث : مخالقة الناس بأخلاقهم . أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر « خالفوا الناس بأخلاقهم ... الحديث » قال صحيح على شرط الشيخين : (٢) حديث : كانوا لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال . كما رواه أنس تقدم في آداب الصحة .

سيئات المقرّبين ، ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب . وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه هو في نفسه لا تحريم فيه والله أعلم ، فقد خرج من جملة التفصيل السابق أن السماع قد يكون حراما محضا ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون مكروها ، وقد يكون مستحبا .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكنه يتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله .

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع : من ربيع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تستفتح الكتب إلا بحمده ، ولا تستمنح النعم إلا بواسطة كرمه ورفده ، والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبده ، وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده .

أما بعد : فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مدهانة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فنسعى في تلافى هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الدائرة ناهضا بأعبائها ومتشمرًا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إمامتها ، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها ، وهانحن نشرح عليه في أربعة أبواب . (الباب الأول) في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته ، (الباب الثاني) في أركانه وشروطه ، (الباب الثالث) في مجاريه وبيان المنكرات المألوفة في العادات (الباب الرابع) في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

الباب الأول : في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه : الآيات والأخبار والآثار

أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم

المفلحون ﴿ في الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى ﴿ ولتكن ﴾ أمر وظاهر الامر بالإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم أمرين بالمعروف بل قال ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون صم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة وقال تعالى ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ فلم يشهد لهم بالصالح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ﴾ فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذي هجر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية ، وقال تعالى ﴿ لعن الذي كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم لعنة بتركهم النهي عن المنكر ، وقال عز وجل ﴿ كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ وهذا يدل على فضيلة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس وقال تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجيناهم الذين يهتدون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء ويدل ذلك على الوجوب أيضا ، وقال تعالى ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين وقال تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان وقال تعالى ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ فبين أنهم أئمتوا بترك النهي وقال تعالى ﴿ فلو لا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ الآية فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ وذلك هو الامر بالمعروف للوالدين والأقربين وقال تعالى ﴿ لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ الآية والإصلاح نهى عن البغى وإعادة إلى الطاعة فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال ﴿ فقاتلوا التي تبغى حتى تقىء إلى أمر الله ﴾ وذلك هو النهي عن المنكر

وأما الاخبار : فمنها ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتقولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾^(١) لا يضركم من ضل إذا اعتديتم ﴿ وإن

كتاب الامر بالمعروف

الباب الأول : في وجوب الامر بالمعروف

(١) حديث أبي بكر : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتقولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ .. الحديث . أخرجه أصحاب السنن وهم في العلة .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعذبهم الله بعذاب من عنده » ، وروى عن أبي ثعلبة الخشني : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾^(١) فقال : « يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهو متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فطليك بنفسك ودع عنك العوام إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم للتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم » ، قيل : بل منهم يارسول الله . قال : « لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا تجدون عليه أعواناً » ، وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال : « إن هذا ليس زماناً إنما اليوم مقبولة ، ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون فلا يقبل منكم حينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم »^(٢) ، معناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم . وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « يا أيها الناس إن الله يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجى » ، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجى »^(٤) ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « إن الله تعالى ليسأل العبد مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال رب وثقت بك وفرقت من الناس »^(٥) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس على الطرقات » ، قالوا ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال : « فإذا أبيتم إلا ذلك فاعطوا الطريق حقها » ، قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : « غرض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله تعالى »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرين على أن ينكروه فلا ينكروه »^(٨) ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم ؟ » قالوا : « وإن ذلك لكائن يارسول الله قال : « نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » ، قالوا : وما أشد

(١) حديث أبي ثعلبة : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ . . . الحديث . أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه .

(٢) حديث : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف والترمذي من حديث حذيفة بن اليمان قال : « أو ليوشك أن يعذبكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » قال هذا حديث حسن . (٣) حديث : « يا أيها الناس إن الله سيجازيكم يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة بنظير « مهروا وانهوا » وهو عند ابن ماجه دون عزوه الى كلام الله تعالى وفي اسناده لين . (٤) حديث : « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجى » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس مقتصراً على الشطر الأول من حديث جابر بإسناد ضعيف ، وأما الشطر الأخير فرواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلاً أو مضعلاً ، ولا أدري من يحيى بن عطاء ؟ (٥) حديث : « إن الله تعالى ليسأل العبد مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره » . . . الحديث « أخرجه ابن ماجه وقد تقدم . (٦) حديث : « إياكم والجلوس على الطرقات » . . . الحديث « متفق عليه من حديث أبي سعيد (٧) حديث : « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمراً بمعروف . . . الحديث » تقدم في العلم .

(٨) حديث : « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يروا المنكر » . . . الحديث « أخرجه أحمد من حديث عدى بن عميرة وفيه من يسم والطبراني من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه .

منه يارسول الله ؟ « كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن منكر ؟ » قالوا : « وكان ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » قالوا : « وما أشد منه ؟ كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا ؟ » قالوا : « وكان ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » قالوا : « وما أشد منه ؟ قال : « كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ » قالوا : « وكان ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ؟ يقول الله تعالى في حلفت لأتحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران ^(١) ، وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ^(٢) » قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لامرئ أن يشهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له ^(٣) » ، وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ولا حضور الموضع التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره ، فإنه قال : « اللعنة تنزل على من حضر ، ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذارا بأنه عاجز . ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والمجامع وعجزهم عن التغيير ، وهذا يقتضى لزوم الهجر للخلق . ولهذا قال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله : ما ساح السواح وخلوا دورهم وأولادهم إلا بمثل ما نزل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والخير قد اندرس ، ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم ، ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعزيبهم وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلبون منه ؟ فرأوا أن مجاورة السباع وأكل البقول خير من مجاوره هؤلاء في نعيمهم ثم قرأ ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ قال : ففتر قوم فلو لا ما جعل الله جل ثناؤه في النبوة من السر لقلنا ما هم بأفضل من هؤلاء « فيما بلغنا أن الملائكة عليهم السلام لتلقاهم وتصافحهم ، والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتحييه ، ويسألها أين أمرت فتخبره ؟ وليس بنبي . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حضر معصية فكرها فكأنه غاب عنها ، ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها ^(٤) » ، ومعنى الحديث أن يحضر لحاجة أو يتفق جريان ذلك يديه . فأما الحضور قصدا فممنوع بدليل الحديث الأول . وقال ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى فيمسك التي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيه فإذا انقرضوا كان من بعدهم قوم يركبون ردوس المناير يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك لإسلام ^(٥) » .

(١) حديث أبي أمامة : كيف بكم إذا طغى لسائكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم قالوا وإن ذلك كائن يارسول الله قال « نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » قالوا وما أشد منه ؟ قال « كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله « كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف » ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصرًا على الأشعة الثلاثة الأولى وأجوبتها دون الآخرين وإسناده ضعيف .

(٢) حديث عكرمة عن ابن عباس « لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه » أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن . . (٣) حديث « لا ينبغي لامرئ أن يشهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد الحديث الذي قبله وروى الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد « لا تعصن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه » .

(٤) حديث أبي هريرة « من حضر معصية فكرها فكأنه غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها » رواه ابن عدى وفيه يحيى بن أبي سلمان قال البخارى منكر الحديث . (٥) حديث ابن مسعود « ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى ... الحديث » . روى مسلم نحوه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كان أهل قرية يعملون بالمعاصي وكان فيهم أربعة نفر يشكرون ما يعملون ، فقام أحدهم فقال : إنكم تعملون كذا وكذا فجعل ينههم ويخبرهم بقبائح ما يصنعون فجعلوا يردون عليه ولا يرفعون عن أعمالهم فسبهم فسبوه وقتلهم فغلبوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني وقتلتهم فغلبوني ثم ذهب ثم قام الآخر فنههم فلم يطيعوه فسبهم فسبوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني ولو قتلتهم لغلبوني . ثم ذهب ثم قام الثالث فنههم فلم يطيعوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ولو سببتهم لسبوني ولو قتلتهم لغلبوني . ثم ذهب ثم قام الرابع فقال اللهم إني لو نهيتهم لعصوني ولو سببتهم لسبوني ولو قتلتهم لغلبوني ثم ذهب قال ابن مسعود رضي الله عنه كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل بهم يا رسول الله قال « بهما ونهم وسكوتهم على معاصي الله تعالى ^(١) » وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوحى الله تبارك وتعالى إلى ملك من الملائكة أن أقلب مدينة كذا وكذا على أهلها فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال أقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط ^(٢) » وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء قالوا يا رسول الله كيف قال لم يكونوا يفضيئون لله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ^(٣) » وعن عروة عن أبيه قال قال موسى صلى الله عليه وسلم يارب أى عبادك أحب إليك قال الذى يتسرع إلى هواى كما يتسرع النسر إلى هواه والذى يكاف بعبادى الصالحين كما يكلف الصبي بالبدى والذى يغضب إذا أتيت محارمى كما يغضب النمل لنفسه فإن النمل إذا غضب لنفسه لم يبال قل الناس أم كثروا وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف وقال أبو ذر الغفارى : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم يا أبا بكر إن الله تعالى مجاهدني في الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يمشون على الأرض يباهى الله بهم ملائكة السماء وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ومن هم ؟ قال « الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر والمحجون في الله والمبغضون في الله » ثم قال « والذى نفسى بيده إن العبد منهم ليسكون في الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشهداء للغرفة منها ثلثائة ألف باب منها الياقوت والزمرد الأخضر على كل باب نور وإن الرجل منهم ليزوج بثلثائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين كلما التفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له : أتذكر يوم كذا وكذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ؟ كلما نظر إلى واحدة منهن ذكرت له مقاما أمر فيه بمعروف ونهى فيه عن منكر ^(٤) » وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت : يا رسول الله أى الشهداء أكرم على الله عز وجل ؟ قال « رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لا يجرى

(١) حديث ابن عباس : قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل : بهم يا رسول الله ؟ قال « بهما ونهم وسكوتهم على معاصي الله » أخرجه البخاري والطبراني بسند ضعيف . (٢) حديث جابر « أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن أقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وضعفه وقال المحفوظ من قول ملك بن دينار . (٣) حديث عائشة رضي الله عنها « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء » لم أوفى عليه مرفوعا وروى ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن عمر الصنعاني « أوحى الله إلى يوشع بن نون إلى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم قال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال أنهم لم ينضخوا لنضبي فسكانوا يؤاكلونهم ويباربونهم » . (٤) حديث أبي ذر : قال أبو بكر يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ قال « نعم يا أبا بكر إن الله تعالى مجاهدني في الأرض أفضل من الشهداء » فذكر الحديث وفيه فقال « هم الأمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ... الحديث » بطوله لم أقف له على أصل وهو منكر .

عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش ^(١) ، وقال الحسن البصري رحمه الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضل شهداء أمي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزله في الجنة بين حمزة وجعفر ^(٢) ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يبأس القوم قوم لا يأمرون بالقسط ويبأس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ^(٣) .

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يحل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم . وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه . وقال مالك بن دينار : كان خبر من أحبار بني إسرائيل يغشى الرجال والنساء منزله يعظمهم ويذكرهم بأيام الله عز وجل فرأى بعض بنيهم يوما وقد غمز بعض النساء فقال : مهلا يا بني مهلا ، وسقط من سريره فانقطع نخاعة وأسقطت امرأته وقتل بنوه في الجيش ، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه : أن أخبر فلانا الخبر أني لا أخرج من صلبك صديقا أبدا أما كان من غضبك لي إلا أن قلت : مهلا يا بني مهلا . وقال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم . وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام أني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال : يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ، قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم . وقال بلال بن سعد : إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أعلنت ولم تضر أضررت بالعامه ، وقال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك من قومك ؟ قال : حسنة . قال كعب : إن التوراة لتقول غير ذلك ؟ قال : وما تقول ؟ قال : تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه ، فقال : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم . وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال ثم قعد عنهم فقيل له : لو أتيتهم فلعلهم يحدون في أنفسهم ، فقال : أرهب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي ، وإن سكنت رهبت أن آثم . وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ويستتر عنه حتى لا يجري به شهد منه . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بالسنتكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ؛ فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس لجعل أعلاه أسفله . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : أيما عبد عمل في شيء من دينه بما أمر به أو نهى عنه وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها وتشوش الزمان فهو ممن قد قام لله في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه فقد جاء بما هو الغاية في حقه وقيل للفضيل : ألا تأمر وتنهى ؟ فقال : إن قوما أمروا ونهوا فكفروا وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصيبوا وقيل للثوري . ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقال : إذا انبثق البحر فن يقدر أن يسكره . فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) حديث أبي عبيدة : قلت يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله ؟ قال : رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ... الحديث . أخرجه البرار . مقتصر على هذا دون قوله « فإن لم يقتله ... إلى آخره » وهذه الزيادة منكروه وفيه أبو الحسن غير مشهور لا يعرف . (٢) حديث الحسن البصري مرسل « أفضل شهداء أمي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزله في الجنة بين حمزة وجعفر » لم أره من حديث الحسن ولا حاكم في المستدرک وصحح امتزاده من حديث جابر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب « ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » . (٣) حديث عمر « يبأس القوم قوم لا يأمرون بالقسط ويبأس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف وأما حديث عمر فأشار إليه أبو منصور الديلمي بقوله وفي الباب ورواه علي بن مبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسل .

المنكر واجب وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به . فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه :

الباب الثاني : في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

أعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة : المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب . فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه .

الركن الأول : المحتسب

وله شروط / وهو أن يكون مكلفا مسلما قادرا فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والعاجز ، ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مآذونين ، ويدخل فيه الفاسق والريق والمرأة . فلنذكر وجه اشتراط ما اشترطناه ووجه اطراح ما أطرخناه .

أما الشرط الأول : وهو التكليف : فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزمه أمر ، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب ، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل ، حتى إن الصبي المراهق للبلوغ المميز - وإن لم يكن مكلفا - فله إنكار المنكر وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهي ؛ وإذا فعل ذلك نال به ثوابا ولم يكن لاحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف . فإن هذه قرينة وهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف ؛ ولذلك اعتناء للعبد وآحاد الرعية . نعم في المنع بالفعل وإبطال المنكر نوع ولاية وسلطنة ولكنها تستفاد بمجرد الإيمان كقتل المشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته . فإن للصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستضر به فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر .

وأما الشرط الثاني : وهو الإيمان : فلا يخفى وجه اشتراطه لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدوله ؟

وأما الشرط الثالث : وهو العدالة : فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب ، وربما استدلوا فيه بالنكير الذي يرد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى ﴿ أأمرون الناس بالبر وتدنسون أنفسهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مرت ليلة أسرى بي يقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهي عن الشر ونأتيه ^(١) » وبما روى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى صلى الله عليه وسلم : عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني . وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للاهتمام ، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة ، والإصلاح ، زكاة عن نصاب الصلاح ، فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ وكل ما ذكره خيالات وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب وبرهانه هو أن نقول : هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي كلها ؟ فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع ثم حسم لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلا عن غيرهم ، والأنبياء عليهم السلام قد اختلفت في عصمتهم عن الخطايا . والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية وكذا جماعة من الأنبياء . ولهذا قال سعيد بن

الباب الثاني . في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

(١) حديث « مرت ليلة أسرى بي يقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار » الحديث . تقدم في العلم .

جبر : إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء ؛ لم يأمر أحد بشيء ، فأعجب ما لساك ذلك من سعيد بن جببر . وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغار حتى يجوز للابن الحرير أن يمنع من الزنا وشرب الخمر فنقول :

وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر ؛ فإن قالوا : لا ، خرقوا الإجماع إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يمنعوا من الغزوا ولا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده . فإن قالوا : نعم ، فنقول : شارب الخمر هل له المنع من القتل أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، قلنا . فما الفرق بينه وبين لابس الحرير ؟ إذ جاز له المنع من الخمر ، والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب كالشرب بالنسبة إلى لابس الحرير ؛ فلا فرق . وإن قالوا : نعم ، وفصلوا الأمر فيه بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عمادونه وإنما يمنع عما فوقه فهذا تحكم فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزاني من الشرب ؟ بل من أين يبعد أن يشرب وينع غلماناه وخدمته من الشرب ؟ ويقول يجب على الانتهاء والنهي فمن أين يلزم من العصيان بأحدهما أن أعصى الله تعالى بالثاني ؟ وإذا كان النهي واجبا على من أين يسقط وجوبه بإقدامي ؟ إذ يستحيل أن يقال يجب النهي عن شرب الخمر عليه مالم يشرب فإذا شرب سقط النهي .

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقول القائل الواجب على الوضوء والصلاة فأنا أتوضأ وإن لم أصل وأتسحر وإن لم أصوم لأن المستحب لي السجود والصوم جميعا ولكن يقال : أحدهما مرتب على الآخر ، فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويمه نفسه فليبدأ بنفسه ثم بمن يعول . والجواب أن التسخير يراد للصوم ولولا الصوم لما كان التسحر مستحبا ، وما يراد لغيره لا ينفك عن ذلك الغير ، وإصلاح الغير لا يراد لإصلاح النفس ، ولا إصلاح النفس لإصلاح الغير فالقول بترتب أحدهما على الآخر تحكم .

وأما الوضوء والصلاة فهو لازم فلا جرم أن من توضأ ولم يصل كان مؤذيا أمر الوضوء وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعا فليكن من ترك النهي والانتهاأ أكثر عقابا ممن نهى ولم ينته ، كيف والوضوء شرط لا يراد لنفسه ؟ بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة .

وأما الحسبة فليست شرطا في الانتهاء والانتهاأ فلا مشابة بينهما .

• فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقال إذا زنى الرجل بامرأة وهي مكرمة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها فأخذ الرجل يحتسب في أثناء الزنا ويقول : أنت مكرمة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير محرم ، وما أنا غير محرم لك فاسترى وجهك ، فهذا احتساب شنيع يستنكره قلب كل عاقل ويستشعنه كل طبع سليم ؟ فالجواب أن الحق قد يكون شنيعا وأن الباطل قد يكون مستحسنا بالطباع والمتبع الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات فإننا نقول : قوله لها في تلك الحالة ، لا تكشفي وجهك ، واجب أو مباح أو حرام ؟ فإن قلتم : إنه واجب فهو الغرض لأن الكشف معصية والنهي عن المعصية حق . وإن قلتم : إنه مباح ، فأذن له أن يقول ما هو مباح ؟ فما معنى قولكم ليس للفساق الحسبة ؟ وإن قلتم : إنه حرام ، فنقول ، وكان هذا واجبا فمن أين حرم بإقدامه على الزنا ؟ ومن الغريب أن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر .

وأما نفرة الطباع عنه واستنكارها له فهو لسببين :

أحدهما : أنه ترك الأهم واشتغل بما هو مهم . وكما أن الطباع تنفر عن ترك المهم إلى ما لا يعني فتتنفر عن ترك الأهم

والاشتغال بالمهم كما تنفر عن يتحرج عن تناول طعام مغصوب وهو مواظب على الربا ، وكما تنفر عن يتصاون عن الغيبة ويشهد بالزور لأن الشهادة بالزور الخش وأشد من الغيبة التي هي إخبار عن كائن يصدق فيه الخبر ، وهذا الاستبعاد في النفوس لا يدل على أن ترك الغيبة ليس بواجب ، وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم يزد بذلك عقوبته ، فكذلك ضرره في الآخرة من معصيته أكثر من ضرره من معصية غيره ، فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر في الطبع ، من حيث إنه ترك الأكثر لامن حيث إنه أتى بالأقل ، فمن غضب فرسه ولجام فرسه فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس نفرت عنه الطباع ويرى مسيئا ، إذ قد صدر منه طلب اللجام وهو غير منكر ، ولكن المنكر تركه لطلب الفرس بطلب اللجام فاشتد الإنكار عليه لتركه الأهم بما دونه ، فكذلك حبة الفاسق تستبعد من هذا الوجه وهذا لا يدل على أن حسبه من حيث إنها حبة مستنكرة .

الثاني : أن الحسبة تارة تكون بالنهي بالوعظ وتارة بالقهر ، ولا ينجع وعظ من لا يتعظ أولا ونحن نقول : من علم أن قوله لا يقبل في الحسبة لعلم الناس بنفسه فليس عليه الحسبة بالوعظ ؛ إذ لا فائدة في وعظه فالفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه ، ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام ، فأما إذا كانت الحسبة بالمنع فالمراد منه القهر وتسام القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعا ، وإذا كان فاسقا فإن قهر بالفعل فقد قهر بالحجة إذ يتوجه عليه أن يقال له : فأنت لم تقدم عليه ؟ فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهورا بالحجة وذلك لا يخرج الفعل عن كونه حقا كما أن يذب الظالم عن آحاد المسلمين ويهمل أباه وهو مظلوم معهم تنفر الطباع عنه ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقا . فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه لأنه لا يتعظ ؛ وإذا لم يكن عليه ذلك ، وعلم أنه يفضي إلى تطويل اللسان في عرضه بالإنكار فنقول : ليس له ذلك أيضا . فرجع الكلام إلى أن أحد نوعي الاحتساب وهو الوعظ قد بطل بالفسق وصارت العدالة مشروطة فيه : وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك فلا حرج على الفاسق في إراقة الخور وكسر الملاهي وغيرها إذا قدر ، وهذا غاية الإنصاف والكشف في المسألة وأما الآيات التي استدلوها بها فهو إنكار عليهم من حيث تركهم المعروف لا من حيث أمرهم . ولكن أمرهم دل على قوة عليهم وعقاب العالم أشد لأنه لا عذر له مع قوة عليه وقوله تعالى ﴿ لم تقولون مالا تفعلون ﴾ المراد به الوعد الكاذب وقوله عز وجل ﴿ وتنفسون أنفسكم ﴾ إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم لامن حيث إنهم أمروا غيرهم ولكن ذكر أمر الغير استدلالا به على عليهم وتأكيذا للحجة عليهم . وقوله « يا ابن مريم عظم نفسك ... الحديث » هو في الحسبة بالوعظ . وقد سلينا أن وعظ الفاسق ساقط الجدوى عند من يعرف فسقه . ثم قوله « فاستحي مني » لا يدل على تحريم وعظ الغير بل معناه استحي مني فلا تترك الأهم وتشتغل بالمهم كما يقال احفظ أباك ثم جارك وإلا فاستحي .

« فإن قيل . فليجز للكافر الذي أن يحتسب على المسلم إذا رآه يزن لأن قوله لا تزن حق في نفسه فحال أن يكون حراما عليه ، بل ينبغي أن يكون مباحا أو واجبا . قلنا : الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه فيمنع من حيث إنه تسلط وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سيلا . وأما مجرد قوله « لا تزن » ، فليس بمحرم عليه من حيث إنه نهى عن الزنا ولكن من حيث إنه إظهار دالة الاحتكام على المسلم ، وفيه إذلال للبحكم عليه ، والفاسق يستحق الإذلال ولكن لامن الكافر الذي هو أولى بالذل منه . فهذا وجه متعنا لإياه من الحسبة وإلا فلسنا نقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله : لا تزن ، من حيث إنه نهى بل نقول إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه إن رأينا خطاب الكافر

بفروع الدين وفيه نظر استوفينا في الفقهيات ولا يليق بغرضنا الآن .

الشرط الرابع : كونه مأذونا من جهة الإمام والوالى ، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للأحاد من الرعية الحسبة ، وهذا الاشتراط فاسد ؛ فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصي إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم ، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له . والمعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا : لا يجوز الأمر بالمعروف مالم يخرج الإمام المعصوم وهو الإمام الحق عندهم . وهؤلاء أحسن رتبة من أن يكلموا بل جوابهم أن يقال لهم - إذا جاءوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دمايتهم وأموالهم - إن نصرتكم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أبدى من ظلمكم نهي عن المنكر وطلبكم لحقكم من جملة المعروف وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق لأن الإمام الحق بعد لم يخرج .

* فإن قيل : في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه ، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقا فينبغي أن لا يثبت لأحاد الرعية إلا بتفويض من والى وصاحب الأمر ؟ فنقول : أما الكافر فمنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام ، والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة ، وما فيه من عز السلطنة والاحتكام لا يجوز إلى تفويض كعز التعليم والتعريف ، إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر بجهله لا يحتاج إلى إذن والى ، وفيه عز الإرشاد وعلى المعروف ذل التجهيل ، وذلك يكفي فيه مجرد الدين وكذلك النهي .

وشرح القول في هذا أن الحسبة لها خمس مراتب - كما سيأتى - (أولا) التعريف . (والثاني) الوعظ بالكلام اللطيف (والثالث) السب والتعنيف ، ولست أعنى بالسب الفحش بل أن يقول : يا جاهل ، يا أحمق ألتخاف الله ، وما يجرى هذا المجرى (والرابع) المنع بالقهر بطريق المباشرة ككسر الملاهي ، وإراقة الخمر ، واختطاف الثوب الحرير من لابسها ، واستلاب الثوب المنصوب منه ، وردة على صاحبه . (والخامس) التخويف والتهديد بالضرب ، ومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه كالمواظب على الغيبة والقذف فإن سلب لسانه غير ممكن ولكن يحمل على اختيار السكوت بالضرب . وهذا قد يجوز إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين ويجر ذلك إلى قتال وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة فإن فيها نظرا - سيأتى - أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام ؟ وأما التجهيل والتحقيق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجرى مجراه فهو كلام صدق ، والصدق مستحق بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر ^(١) كما ورد في الحديث فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه ؟ وكذلك كسر الملاهي وإراقة الخمر فإنه تعاطى ما يعرف كونه حقا من غير اجتهاد فلم يفتقر إلى الإمام . وأما جمع الأعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ففيه نظر - سيأتى - واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاية قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض ، بل كل من أمر بمعروف فإن كان والى راضيا به فذاك ، وإن كان ساخطا له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه . ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة .

كما روى أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل : إنما الخطبة بعد الصلاة ، فقال له مروان : أترك ذلك يا فلان ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى »

(١) حديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري .

منكم منكرأ فليذكره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن يستطع فيقلبه وذلك أضعف الإيمان (١) ، فلقد كانوا فهموا من هذه العمومات دخول السلاطين تحتها فكيف يحتاج إلى إذنهم ؟ وروى أنَّ المهدي لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله فلما أخذ في الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مرزوق فلبى بردائه ثم هزه وقال له : انظر ما تصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق من أتاه من البعد ، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ من جعل لك هذا ؟ فنظر في وجهه - وكان يعرفه لأنه من مواليهم - فقال : أعبدا لله ابن مرزوق ؟ قال : نعم ، فأخذ لحيه به إلى بغداد ففكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه في العامة ، فجعله في اصطبل الدواب ليسوس الدواب وضموأ إليه فرسا عضوضا سي* الخلق ليعقره الفرس قلين الله تعالى له الفرس ، قال : ثم صيره إلى بيت وأغلق عليه ، وأخذ المهدي المفتاح عنده فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل ، فأوذن به المهدي فقال له : من أخرجك ؟ فقال : الذي حبسني ، فضج المهدي وصاح وقال : ما تخاف أن أقتلك ؟ فرفع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول : لو كنت تملك حياة أومتا ؟ فما زال يحوسا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة . قال : وكان قد جعل على نفسه نذرا إن خلصه الله من أيديهم أن ينحر مائة بدنة فكان يعمل في ذلك حتى نحرها .

وروى عن حبان بن عبد الله قال : تنزه هرون الرشيد بالدوين ومعه رجل من بني هاشم وهو سليمان بن أبي جعفر فقال له هرون : قد كانت لك جارية تغني فتحسن لجننا بها ، قال : لجأت فغنت فلم يحمد غناءها ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : ليس هذا عودي ، فقال للخادم ، جئنا بعودها ، قال : لجأت بالعود فوافق شيخا يلقط النوى فقال : الطريق يا شيخ ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض ؛ فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربع فقال : احتفظ بهذا فإنه طلبة أمير المؤمنين ، فقال له صاحب الربع : ليس ببغداد أعبد من هذا فكيف يكون طلبة أمير المؤمنين ؟ فقال له : اسمع ما أقول لك ، ثم دخل على هرون فقال : إني مررت على شيخ يلقط النوى فقلت له : الطريق ، فرفع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض فكسره ؛ فاستشاط هرون وغضب واحترت عيناه فقال له سليمان بن أبي جعفر : ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين ؟ ابعث إلى صاحب الربع يضرب عنقه ويرم به في الدجلة ، فقال : لا ، ولكن نبعث إليه وتناظره أولا ؛ لجأت الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، قال : اركب ، قال : لا ، لجأت يمشي حتى وقف على باب القصر ، فقيل لهرون : قد جاء الشيخ ، فقال للتدماة أى شيء ترون ؟ ترفع ما قدأما من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر ؟ فقالوا له : نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلح ، فقاموا إلى مجلس ليس فيه منكر ثم أمر بالشيخ فأدخل - وفي كنه السكيس الذي فيه النوى - فقال له الخادم : أخرج هذا من كملك وادخل على أمير المؤمنين ، فقال : من هذا عشائي الليلة ، قال : نحن نعشيك . قال : لا حاجة لي في عشائكم ، فقال هرون للخادم : أى شيء تريد منه ؟ قال في كنه نوى قلت له أطرحه وادخل على أمير المؤمنين فقال : دعه لا يطرحه ، قال : فدخل وسلم وجلس ، فقال له هرون : يا شيخ ما حملك على ما صنعت ؟ قال : وأى شيء صنعت ؟ وجعل هرون يستحي أن يقول كسرت عودي ، فلما أكثر عليه قال : إني سمعت أباك وأجدادك يقرءون هذه الآية على المنبر ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ وأنا رأيت منكرا فغيرته ، فقال : فغيره . فوالله ما قال إلا هذا ، فلما خرج

(١) حديث : إن مروان خطب قبل الصلاة في العيد ... الحديث . وفيه حديث أبي سعيد مرقوعا « من رأى منكرا ... الحديث » رواه مسلم .

أعطى الخليفة رجلا بدرة وقال . اتبع الشيخ فإن رأيته يقول : قلت لأمير المؤمنين وقال لي ؛ فلا تعطه شيئا ؛ وإن رأيته لا يكلم أحدا فأعطه البدره . فلما خرج من القصر إذا هو بنواة في الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحدا فقال له : يقول لك أمير المؤمنين خذ هذه البدره ، فقال : قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها . ويروي أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة التي يعالج قلعها من الأرض وهو يقول :

أرى الدنيا لمن هي في يديه هومما كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ماأنت محتاج إليه

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال : حج المهدي سنة ست وستين ومائة فرأيته يرمى جمرة العقبة والناس يخبطون يميننا وشمالا بالسياط ، فوقفت فقلت : يا حسن الوجه حدثنا أيمن عن وائل عن قدامة بن عبد الله الكلبي قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك^(١) وما أنت يخبط الناس بين يديك يميننا وشمالا . فقال لرجل : من هذا ؟ قال : سفيان الثوري . فقال : يا سفيان لو كان المنصور ما احتملك على هذا ؟ فقال : لو أخبرك المنصور لقي لقصرت عما أنت فيه . قال : فقيل له إنه قال لك يا حسن الوجه ولم يقل لك يا أمير المؤمنين فقال : اطلبوه فطلب سفيان فاخفى وقد روى عن المأمون أنه بلغه أن رجلا محتسبا يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ولم يكن مأمورا من عنده بذلك فأمر بأن يدل عليه . فلما صار بين يديه قال له : إني بلغني أنك رأيت نفسك أهلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن أمر بك وكان المأمون جالسا على كرسي ينظر في كتاب أوقصة فأغفله فوقع منه فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به . فقال له المحتسب : ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ما شئت ؛ فلم يفهم المأمون مراده فقال ماذا تقول ؟ - حتى أعاده ثلاثا فلم يفهم - فقال : إما رفعت أو أذنت لي حتى أرفع . فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبله وخجل . ثم عاد وقال : لم تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا - أهل البيت - ونحن الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقال : صدقت يا أمير المؤمنين أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكن غير أنا أعوانك وأولياؤك فيه . ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ﴾ الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »^(٢) ، وقد مكنت في الأرض وهذا كتاب الله وسنة رسوله فإن انقذت لها شكرت لمن أعانك لحرمتهما . وإن استكبرت عنهما لم تنقذ لما لزمك منهما فإن الذي إليه أمرك ويبيده عزك وذلك قد شرط أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا فقل الآن ما شئت ؛ فأعجب المأمون بكلامه وسر به وقال : مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف . فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا . فاستمر الرجل على ذلك . ففي سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإذن

« فإن قيل : أفتثبت ولاية الحسبة للولد على الوالد والعبد على المولى والزوجة على الزوج والتلميذ على الأستاذ

(١) حديث قدامة بن عبد الله : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجمرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك « رواه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه ، وأما قوله في أوله : إن الثوري قال حج المهدي سنة ست وستين . فليس بصحيح فإن الثوري توفي سنة إحدى وستين . (٢) حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه من حديث أبي موسى وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة .

والرعية على الوالى مطلقا ، كما يثبت للوالد على الولد والسيد على العبد والزوج على الزوجة والاستاذ على التلميذ والسلطان على الرعية أو بينهما فرق ؟ فاعلم أن الذى نراه : أنه يثبت أصل الولاية ولكن بينهما فرق في التفصيل . ولنفرض ذلك في الولد مع الوالد فنقول : قد رتبنا للحسبة خمس مراتب ، وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين وهما : التعريف ثم الوعظ والنصح بالطف . وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد ولا بمباشرة الضرب وهما الرتبتان الأخيرتان وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدي إلى أذى الوالد وسخطه ؟ هذا فيه نظر ، وهو بأن يكسر مثلا عوده ويريق خمره ويحل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير ويرد إلى الملاك ما يجده في بيته من المال الحرام الذى غصبه أو سرقه أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين - إذا كان صاحبه معينا - ويطل الصور المنقوشة على حيطانه والمنقورة في خشب بيته ويكسر أواني الذهب والفضة ؛ فإن فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب بخلاف الضرب والسب ، ولكن الوالد يتأذى به ويسخط بسببه ، إلا أن فعل الولد حق ، وسخط الأب منشؤه حبه للباطل وللحرام والأظهر في القياس أنه يثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك ، ولا يبعد أن ينظر فيه إلى قبح المنكر وإلى مقدار الأذى والسخط . فإن كان المنكر فاحشا وسخطه عليه قريبا كإراقة خمر من لا يشتد غضبه فذلك ظاهر ، وإن كان المنكر قريبا والسخط شديدا كما لو كانت له آنية من بلور أو زجاج على صور حيوان وفي كسرهما خسران مال كثير ، فهذا مما يشتد فيه الغضب وليس تجرى هذه المعصية بجري الخمر وغيره فهذا كله مجال النظر .

* فإن قيل : ومن أين قلتم ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل ، والأمر بالمعروف في الكتاب والسنة ورد عاما من غير تخصيص ؟ وأما النهى عن التأنيب والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات ؟ فنقول : قد ورد في حق الأب على الخصوص ما يوجب الاستثناء من العموم إذ لا خلاف في أن الجلاد ليس له أن يقتل أباه في الزنا حدا ، ولا له أن يباشر إقامة الحد عليه ، بل لا يباشر قتل أبيه الكافر ، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص ولم يكن له أن يؤذيه في مقابله .

وقد ورد في ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع ^(١) فإذا لم يحز له إيذاؤه بعقوبة هي حق على جنابة سابقة فلا يجوز له إيذاؤه بعقوبة هي منع عن جنابة مستقبلة متوقعة بل أولى . وهذا الترتيب أيضاً ينبغى أن يجرى في العبد والزوجة مع السيد والزوج فهما قريان من الولد في لزوم الحق وإن كان ملك اليمن آكدم من ملك النكاح . ولكن في الخبر أنه « لوجاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ^(٢) ، وهذا يدل على تأكيد الحق أيضاً . وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها معه إلا التعريف والنصح : فأما الرتبة الثالثة ففيها نظر من حيث إن الهجوم على أخذ الأموال من خزائنه وردها إلى الملاك وعلى تحليل الخيوط من ثيابه الحرير وكسر آنية الخنور في بيته يكاد يفضى إلى خرق هيئته وإسقاط حشمته ، وذلك محظور ورد النهى عنه كما ورد النهى عن السكوت على المنكر ^(٣) فقد تعارض فيه أيضاً محذوران والأمر فيه موكول إلى اجتهاد منشؤه النظر في تفاحش المنكر ومقدار

(١) الأخبار الواردة : في أن الجلاد ليس له أن يجلد أباه في الزنا ولا أن يباشر إقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر وأنه لو قطع يده لم يلزم القصاص ، ثم قال وثبت بعضها بالإجماع . قلت : لم أجده إلا حديث « لا يقاد الوالد بالولد » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذى فيه اضطراب . (٢) حديث « لوجاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » تقدم في النكاح . (٣) حديث : النهى عن الإنكار على السلطان جهرة بحيث يؤدي إلى خرق هيئته . أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث هياض بن غنم الأشعري : من كانت عنده نصيحة لدى سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ يده فيخلل به فإن قبلها قبلها ولا كان قد أدى الذى عليه والذى له . قال : صحيح الأسناد والترمذى وحسنه من حديث أبي بكره « من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله في الأرض » .

ما يسقط من حشمته بسبب الهجوم عليه وذلك بما لا يمكن ضبطه . وأما التليذ والاستاذ فالأمر فيما بينهما أخف لأن المحترم هو الأستاذ المقيد للعلم من حيث الدين ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه . وروى أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده فقال : يعظه مالم يغضب فإن غضب سكت عنه .

الشرط الخامس : كونه قادراً ؛ ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسيبة إلا بقله إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها . وقال ابن مسعود رضي الله عنه جاهدوا الكفار بأيديكم فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفروا في وجوههم فافعلوا .

* واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروها يناله فذلك في معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكروها ولكن علم أن إنكاره لا ينفع فليتنف إلى معنيين ؛ أحدهما : عدم إفادة الإنكار امتناعاً ، والآخر : خوف مكروه . ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال (أحدهما) أن يجتمع المعنيان بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسيبة ، بل ربما تحرم في بعض المواضع . نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر ويعتزل في بيته حتى لا يشاهد ولا يخرج إلا لحاجة مهمة أو واجب ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة إلا إذا كان يهرق إلى الفساد أو يحمل على مساعدة السلاطين في الظلم والمنكرات ؛ فيلزمه الهجرة إن قدر عليها فإن الإكراه لا يكون عذراً في حق من يقدر على الهرب من الإكراه . (الحالة الثانية) أن ينتفي المعنيان جميعاً بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه فيجب عليه الإنكار وهذه هي القدرة المطلقة . (الحالة الثالثة) أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره لكنه لا يخاف مكروها فلا تجب عليه الحسيبة لعدم فائدتها ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين . (الحالة الرابعة) عكس هذه وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه ولكن يبطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرمى زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها ، ويريق الخمر ، أو يضرب العود الذي في يده ضربة محتطفة فيكسره في الحال ، ويتعطل عليه هذا المنكر ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه ، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب . ويدل عليه الخبر الذي أوردناه في فضل « كلبه حتى عند إمام جائر » ولا شك في أن ذلك مظنة الخوف . ويدل عليه أيضاً ما روى عن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه قال : سمعت من بعض الخلفاء كلاماً فأردت أن أنكر عليه وعلت أني أقتل ، ولم يمنعني القتل ولكن كان في ملائمة الناس نفثيت أن يعتريني التزين للخلق فأقتل من غير إخلاص في الفعل .

« فإن قيل : فما معنى قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ؟ قلنا : لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل ، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية وليس كذلك ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس التهلكة ذلك ، بل ترك النفقة في طاعة الله تعالى ؛ أي من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه . وقال البراء بن عازب : التهلكة هو أن يذنب الذنب ثم يقول لا يتاب علي . وقال أبو عبيدة : هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيراً حتى يهلك . وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز أيضاً له ذلك في الحسيبة ، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف أو العاجز فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة . وإنما جازله الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم جراءته واعتقادهم في سائر المسلمين قلة المبالة وحبهم للشهادة في سبيل الله فتكسر بذلك شوكتهم ؛ فكذلك يجوز للمحتسب بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب والقتل إذا كان لحسبته تأمير في رفع المنكر أو في كسر جاه الفاسق أو في

تقوية قلوب أهل الدين ، وأما إن رأى فاسقاً متعلباً وعنده سيف وبيده قدح ، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح وضرب رقبتة فهذا مما لأرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك . فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثراً وينفذه بنفسه ، فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له بل ينبغي أن يكون حراماً . وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة ، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه . فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقاءه فلا تجوز له الحسبة بل تحرم لأنه يحجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضي ذلك إلى منكر آخر ، وليس ذلك من القدرة في شيء . بل لو علم أنه لو احتسب لبطل ذلك المنكر ولكن كان ذلك سبباً لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الأفكار الاظهر ، لأن المقصود عدم مناكير الشرع مطلقاً لا من زيد أو عمرو ، وذلك بأن يكون مثلاً مع الإنسان شراب حلال - نجس بسبب وقوع نجاسة فيه - وعلم أنه لو أراقه لشرب صاحبه الخمر أو تشرب أولاده الخمر لإعوازهم الشراب الحلال فلا معنى لإراقة ذلك . ويحتمل أن يقال إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلاً للمنكر . وأما شرب الخمر فهو المعلوم فيه والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر ، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون . وليس ببعيد ، فإن هذه مسائل فقهية لا يمكن فيها الحكم إلا بظن ، ولا يبعد أن يفرق بين درجات المنكر المغير والمنكر الذي تفضي إليه الحسبة والتغيير ، فإنه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها وعلم أنه لو منعه من ذلك لذبح إنساناً واكله فلا معنى لهذه الحسبة . نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طريقه يحمله على أخذ ماله فذلك له وجه . فهذه دقائق واقعة في محل الاجتهاد وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله ولهذا الدقائق نقول : العاى ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة فأما ما يلزم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد فالعاى إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، وعن هذا يتأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالى ؛ إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلاً لها لقصور معرفته أو قصور ديانتته فيؤدى ذلك إلى وجوه من الخلل وسيأتى كشف الغطاء عن ذلك إن شاء الله

* فإن قيل : وحيث أطلقت العلم بأن يصيبه مكروه أو أنه لا تنفيد حسبته ؛ فلو كان بدل العلم ظن فما حكمة ؟ قلنا : الظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم إذ يرجح العلم اليقيني على الظن ويفرق بين العلم والظن في مواضع آخر ، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعاً أنه لا يفيد فإن كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد وهو مع ذلك لا يتوقع مكروها فقد اختلفوا في وجوبه ، والأظهر وجوبه إذ لا ضرر فيه وجدواه متوقعة ، وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضى الوجوب بكل حال ونحن إنما نستثنى عنه بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه أما بالإجماع أو بقياس ظاهر وهو أن الأمر ليس يراد لعينه بل للأمر ، فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه ، فأما إذا لم يكن يأس فينبغى أن لا يسقط الوجوب

• فإن قيل : فالمكروه الذى تتوقع إصابته إن لم يكن متيقناً ولا معلوماً بغالب الظن ولكن كان مشكوكاً فيه ، أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه ولكن احتمل أن يصاب بمكروه ، فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه أم يجب في كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه ؟ قلنا : إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب ، وإن غلب أنه لا يصاب وجب . ويجوز التجويز لا يسقط الوجوب فإن ذلك

يمكن في كل حسبة ، وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر ، فيحتمل أن يقال الأصل الوجوب بحكم العمومات وإنما يسقط بمكروه ، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقعا ، وهذا هو الأظهر . ويحتمل أن يقال : إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه أو ظن أنه لا ضرر عليه والأول أصح نظرا إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف .

• فإن قيل : فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجراءة فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريبا حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه ، والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما جعل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه ، فعلى ماذا التعويل ؟ قلنا : التعويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج ، فإن الجبن مرض وهو ضعف في القلب سببه قصور في القوة وتفريط ، والتهور إفراط في القوة وخروج عن الاعتدال بالزيادة وكلاهما نقصان ، وإنما الكمال في الاعتدال الذي يعبر عنه بالشجاعة . وكل واحد من الجبن والتهور يصدر تارة عن نقصان العقل . وتارة عن خلل في المزاج بتفريط أو إفراط ، فإن من اعتدل مزاجه في صفة الجبن والجراءة فقد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جرائمه جهله ، وقد لا يتفطن لمدارك دفع الشر فيكون سبب جبنه جهله ، وقد يكون عالما بحكم التجربة والممارسة بمدخل الشر ودوافعه ، ولكن يعمل الشر البعيد في تخذيله وتحليل قوته في الإقدام بسبب ضعف قلبه ما يفعله الشر القريب في حق الشجاع المعتدل الطبع . فلا التفات إلى الطرفين . وعلى الجبان أن يتكلف إزالة الجبن بإزالة علته وعلته جهل أو ضعف ، ويزول الجهل بالتجربة ، ويزول الضعف بممارسة الفعل المخوف منه تكلفا حتى يصير معتادا ، إذ المهتدي في المناظرة والوعظ مثلا قد يجبن عنه طبعه لضعفه فإذا مارس واعتاد فارتقه الضعف ، فإن صار ذلك ضروريا غير قابل للزوال بحكم استيلاء الضعف على القلب لحكم ذلك الضعيف يتبع حاله فيعذر كما يعذر المريض في التقاعد عن بعض الواجبات ، ولذلك قد نقول على رأى : لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الإسلام على من يغلب عليه الجبن في ركوب البحر ويجب على من لا يعظم خوفه . أنه فكذلك الأمر في وجوب الحسبة .

• فإن قيل : فالمكروه المتوقع ما حده ؟ فإن الإنسان قد يكره كربة وقد يكره ضربة وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا يتوقع منه نوع من الأذى وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان أو يقدح فيه في مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فاحد المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟ قلنا : هذا أيضا فيه نظر غامض وصورته منتشرة وبجاريه كثيرة ، ولكننا نجتهد في ضم نشره وحصر أقسامه .

فنقول : المكروه نقيض المطلوب ومطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور : أما في النفس فالعلم . وأما في البدن فالصحة والسلامة . وأما في المال فالثروة . وأما في قلوب الناس فقيام الجاه ؛ فإذا المطلوب العلم والصحة والثروة والجاه . ومعنى الجاه ملك قلوب الناس ، كما أن معنى الثروة ملك الدراهم لأن قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض ، كما أن ملك الدراهم وسيلة إلى بلوغ الأغراض . وسيأتى تحقيق معنى الجاه وسبب ميل الطبع إليه في ربع المهلكات . وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به . ويكره في هذه الأربعة أمران : أحدهما : زوال ما هو حاصل موجود . والآخر . امتناع ما هو متظر مفقود ؛ أعني اندفاع ما يتوقع وجوده . فلا ضرر إلا في فوات حاصل وزواله ، أو تعويق منتظر ، فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله والممكن حصوله كأنه حاصل وفوات إمكانه كأنه فوات حصوله : فرجع المكروه إلى قسمين : أحدهما : خوف امتناع المنتظر وهذا

لا ينبغي أن يكون مرخصاً في ترك الأمر بالمعروف أصلاً .

ولنذكر مثاله في المطالب الأربعة ؛ أما العلم : فمثاله تركه الحسبة على من يختص بأستاذه خوفاً من أن يقيح حاله عنده فيمتنع من تعليمه . وأما الصحة : فتركه الإنكار على الطبيب الذي يدخل عليه مثلاً وهو لا يس حريراً خوفاً من أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المنتظرة . وأما المال : فتركه الحسبة على السلطان وأصحابه وعلى من يواشيه من ماله خيفة من أن يقطع إداره في المستقبل ويترك مواساته . وأما الجاه : فتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة وجاه في المستقبل خيفة من أن لا يحصل له الجاه أو خيفة من أن يقيح حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية .

وهذا كله لا يسقط وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت ، وتسمية امتناع حصول الزيادات ضرراً مجاز . وإنما الضرر الحقيقي فوات حاصل ولا يستثنى من هذا شيء إلا ما تدعو إليه الحاجة ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر ، كما إذا كان محتاجاً إلى الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب ويعلم أن في تأخره شدة الضنا به وطول المرض وقد يفضى إلى الموت . وأعني بالعلم الظن الذي يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص في ترك الحسبة . وأما في العلم فمثل أن يكون جاهلاً بمهمات دينه ولم يجد إلا معلماً واحداً ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه لكون العالم مطيعاً له أو مستمعاً لقوله ، فإذا الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على المنكر محذور ، ولا يبعد أن يرجح أحدهما ويختلف ذلك بتفاحش المنكر وبشدة الحاجة إلى العلم لتعلقه بمهمات الدين . وأما في المال فمكن يعجز عن الكسب والسؤال وليس هو قوى النفس في التوكل ولا منفق عليه سوى شخص واحد ولو احتسب عليه قطع رزقه وافتقر في تحصيله إلى طلب إدرار حرام أو مات جوعاً فهذا أيضاً إذا اشتد الأمر فيه لم يبعد أن يرخص له في السكوت . وأما الجاه فهو أن يؤذيه شرير ولا يجد سبيلاً إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان ، ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص يلبس الحرير أو يشرب الخمر ، ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ووسيلة له فيمتنع عليه حصول الجاه ويدوم بسببه أذى الشرير . فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يبعد استئناؤها وإن كان الأمر فيها منوطاً بجهد المحتسب حتى يستفتى فيها قلبه ، ويزن أحد المحذورين بالآخر ، ويرجح بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع ، فإن رجح بموجب الدين سمى سكوته مداراة ، وإن رجح بموجب الهوى سمى سكوته مهادنة . وهذا أمر باطن لا يطلع عليه إلا بنظر دقيق ولكن الناقد بصير ، الحق على كل متدين فيه أن يراقب قلبه ويعلم أن الله مطلع على باعته وصارفه أنه الدين أو الهوى ، وستجد كل نفس ماعملت من سوء أو خير محضراً عند الله ولو في فلتة خاطر أو فلتة ناظر من غير ظلم وجور فما الله بظلام للعبيد .

وأما القسم الثاني ، وهو فوات الحاصل : فهو مكروه ومعتبر في جواز السكوت في الأمور الأربعة إلا العلم ، فإن فواته غير مخوف إلا بتقصير منه وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال ، وهذا أحد أسباب شرف العلم فإنه يدوم في الدنيا ويدوم ثوابه في الآخرة فلا انقطاع له أبد الآباد . وأما الصحة والسلامة ففواتهما بالضرب فكل من علم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به في الحسبة لم تلزمه الحسبة وإن كان يستحب له ذلك - كما سبق - وإذا فهم هذا في الإيلام بالضرب فهو في الجرح والقطع والقتل أظهر . وأما الثروة فهو بأن يعلم أنه تنهب داره ويخرب بيته وتسلب ثيابه ، فهذا أيضاً يسقط عنه الوجوب ويبقى

الاستحباب إذ لا بأس بأن يفدى دينه بديناه ولكل واحد من الضرب والنهب حد في القلة لا يكثر به كالحبة في المال واللطمة الخفيف ألما في الضرب وحد في الكثرة يتعين اعتباره ووسط يقع في محل الاشتباه والاجتهاد ، وعلى المتدين أن يجتهد في ذلك ويرجح جانب الدين ما أمكن . وأما الجاء ففواته بأن يضرب ضربا غير مؤلم أو بسبب على ملا من الناس أو يطرح منديله في رقبته ويدار به في البلد أو يسود وجهه ويطاف به ، وكل ذلك من غير ضرب مؤلم للبدن وهو فادح في الجاء ومؤلم للقلب . وهذا له درجات فالصواب أن يقسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة ، كالطواف به في البلد حاسرا حافيا فهذا يرخص له في السكوت لأن المروءة مأمور بحفظها في الشرع ، وهذا مؤلم للقلب ألما يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات دريهمات قليلة فهذه درجة . الثانية : ما يعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة ، فإن الخروج في ثياب فاخرة تجمل ، وكذلك الركوب للخيول . فلو علم أنه لو احتسب لكلف المشي في السوق في ثياب لا يعتاد هو مثلها . أو كلف المشي راجلا وعادته الركوب . فهذا من جملة المزايا . وليست المواظبة على حفظها محمودة . وحفظ المروءة محمود فلا ينبغي أن يسقط وجوب الحسبة بمثل هذا القدر . وفي معنى هذا ما لوخاف أن يتعرض له باللسان إما في حضرته بالتجهيل والتحميق والنسبة إلى الرياء والهتان . وأما في غيبته بأنواع الغيبة فهذا لا يسقط الوجوب إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التي ليس إليها كبير حاجة . ولو تركت الحسبة بلوم لأنهم أو باغتيال فاسق أو شتمه وتعنيفه أو سقوط الميزة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان المنكر هو الغيبة ، وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن المغتاب ولكن أضافه إليه وأدخله معه في الغيبة فتحرم هذه الحسبة لأنها سبب زيادة المعصية ، وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا تجب عليه الحسبة لأن غيبته أيضا معصية في حق المغتاب ، ولكن يستحب له ذلك ليفدى عرض المذكور بعرض نفسه على سبيل الإيثار . وقد دلت العمومات على تأكد وجوب الحسبة وعظم الخطر في السكوت عنها فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره ، والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها فأما مزايا الجاه والحسمة ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له . وأما امتناعه لخوف شيء من هذه المكاه في حق أولاده وأقاربه فهو في حقه دونه لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره ، ومن وجه الدين هو فوقه لأن له أن يسامح في حقوق نفسه وليس له المسامحة في حق غيره . فإذا ينبغي أن يمتنع فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية كالضرب والنهب فليس له هذه الحسبة لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر ، وإن كان يفوت لا بطريق المعصية فهو لإبناء المسلم أيضا وليس له ذلك إلا برضاهم . فإذا كان يؤدي ذلك إلى أذى قومه فليتركه وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان ولكنه يقصد أقاربه انتقاما منه بواسطته ، فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور . نعم إن كان لا ينالهم أذى في مال أو نفس ولكن ينالهم الأذى بالشم والسب فهذا فيه نظر ، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها ودرجات الكلام المحذور في نكايته في القلب وقدحه في العرض .

• فإن قيل : فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه وكان لا يمتنع عنه إلا بقتال ربما يؤدي إلى قتله فهل يقاتل عليه ؟ فإن قلتم : يقاتل ، فهو محال لأنه إهلاك نفس خوفا من إهلاك طرف وفي إهلاك النفس إهلاك الطرف أيضا ؟ قلنا : يذمه عنه ويقال له إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه بل الغرض حسم سبيل المنكر والمعصية ، وقتله في الحسبة ليس بمعصية وقطع طرف نفسه معصية . وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتي على قتله فإنه جائز لا على معنى

أنا نفدى درهما من مال مسلم بروح مسلم فإن ذلك محال ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية وقتله في الدفع عن المعصية ليس بمعصية وإنما المقصود دفع المعاصي .

• فإن قيل : فلو علمنا أنه لو خلا بنفسه لقطع طرف نفسه فينبغي أن نقتله في الحال حسبا لباب المعصية ؟ قلنا : ذلك لا يعلم يقينا ولا يجوز سفك دمه بتوهم معصية ولكننا إذا رأيناه في حال مباشرة القطع دفعناه ، فإن قاتلنا قاتلناه ولم نبال بما يأتي على روحه .

فإذا المعصية لها ثلاثة أحوال : (إحداهما) أن تكون متصرمة فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاية لا إلى الآحاد (الثانية) أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها كابسه الحرير وإمساكه العود والخمر ، فيبطل هذه المعصية واجب بكل ما يمكن ما لم تؤدي إلى معصية أخش منها أو مثلها ، وذلك يثبت للآحاد والرعية (الثالثة) أن يكون المنكر متوقعا كالذي يستعد بكفن المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعده لم يحضر الخمر ؛ فهذا مشكوك فيه إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح ، فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة وقد أقدم على السبب المؤدى إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار ، وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر لآيهن عند الدخول والخروج ، فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته فتجوز الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب ، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف في نفسه معصية وإن كان مقصد العاصي وراهه كما أن الخلوة بالأجنبية في نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية ، وتحصيل مظنة المعصية معصية ونعني بالمظنة ما يتعترض الإنسان به لوقوع المعصية غالبا بحيث لا يقدر على الانكشاف عنها ، فإذا هو على التحقيق حسبة على معصية راهنة لأعلى معصية منتظرة .

الركن الثاني : للحسبة مافيه الحسبة

وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكرا بغير اجتihad فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها :

الأول : كونه منكرا ، ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صيبا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنونا يزن بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه . وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس بل لوصادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه ، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون إذ معصية لأعاصي بها محال ، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة فلا تختص الحسبة بالكبار ، بل كشف العورة في الحام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبية كل ذلك من الصغائر ويجب النهي عنها وفي الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظر سيأتي في كتاب التوبة :

الشرط الثاني : أن يكون موجودا في الحال وهو احتراز أيضا عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقضى المنكر واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال ، كمن يعلم بقرينة حال أنه عازم على الشرب في ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ ، وإن أنكر عزمه عليه لم يحز وعظه أيضا فإن فيه إساءة ظن بالمسلم وربما صدق في قوله . وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق . وليتنبه للدقيقة التي ذكرناها وهو أن الخلوة بالأجنبية

معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء ومايجرى مجراه .

الشرط الثالث : أن يكون المنكر ظاهرا للمحتسب بغير تجسس . فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لايحوز أن يتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه . وقصة عمر وعبدالرحمن بن عوف فيه مشهورة - وقد أوردناها في كتاب آداب الصحبة - وكذلك ماروى أن عمر رضى الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه . فقال وماهى ؟ فقال قد قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست . وقال تعالى ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ وقد تسورت من السطح وقال ﴿ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتساموا على أهلها ﴾ وماسلمت . فتركة عمر وشرط عليه التوبة . ولذلك شاور عمر الصحابة رضى الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه ؟ فأشار على رضى الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفي فيه واحد . وقد أوردنا هذه الاخبار في بيان حق المسلم من كتاب آداب الصحبة فلا نعيدها .

❖ فإن قلت : فما حد الظهور والاستتار ؟ فاعلم أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه فلا يحوز الدخول عليه بغير إذنه لنعرف المعصية إلا أن يظهر في الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار . فن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملامى وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلبات المألوفة بينهم بحيث يسمعون أهل الشوارع فهذا إظهار موجب للحسبة . فإذا نجا يدرك مع تغل الحيطان صوت أو رائحة . فإذا فاحت روائح الخمر فإن احتمل أن يكون ذلك من الخمر المحترمة فلا يحوز قصدها بالإراقة . وإن علم بقرينة الحال أنها فاحت لتعاطيهم الشرب فهذا محتمل . والظاهر جواز الحسبة . وقد تسترقارورة الخمر في الكم وتحت الذيل وكذلك الملامى فإذا روى فاسق وتحت ذيله شيء لم يحز أن يكشف عنه مالم يظهر بعلامة خاصة . فإن فسقه لا يدل على أن الذى معه خمر . إذ الفاسق محتاج أيضا إلى الخل وغيره . فلا يحوز أن يستدل بإخفائه وأنه لو كان حلالا لما أخفاه لأن الأغراض في الإخفاء مما تكثر . وإن كانت الرائحة فائحة فهذا محل النظر . والظاهر أن له الاحتساب لأن هذه علامة تفيد الظن والظن كالعلم في أمثال هذه الأمور . وكذلك العود ربما يعرف بشكله إذا كان الثوب السائر له رقيقا . فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت وما ظهرت دلالاته فهو غير مستور بل هو مكشوف وقد أمرنا بأن نستر ماستر الله وننكر على من أبدى لناصفحته . والإبداء له درجات فتارة يدولنا بحاسة السمع . وتارة بحاسة الشم . وتارة بحاسة البصر . وتارة بحاسة اللمس ولا يمكن أن يخصص ذلك بحاسة البصر بل المراد العلم . وهذه الحواس أيضا تفيد العلم . فإذا نجا يحوز أن يكسر ماتحت الثوب إذا علم أنه خمر . وليس له أن يقول : أرني لأعلم مافيه . هذا تجسس . ومعنى التجسس طلب الأمارات المعرفة فالأمانة المعرفة إن حصلت وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها فأما طلب الأمانة المعرفة فلا رخصة فيه أصلا .

الشرط الرابع : أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهد فكل ماهو في محل الاجتهاد فلا حسبة . فليس الخفى أن ينكر على الشافعى أكله الضب والضبع ومتروك التسمية . ولا للشافعى أن ينكر على الخنفي شربه النبيذ الذى ليس بمسكر وتناوله ميراث ذوى الأرحام وجلسه في دار أخذها بشقعة الجوار إلى غير ذلك من مجارى الاجتهاد نعم لو رأى الشافعى شافعىا يشرب النبيذ وينكح بلاولى ويطأ زوجته فهذا في محل النظر والظاهر أن له الحسبة والإنكار إذ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أن المجتهد يحوز له أن يعمل بموجب اجتهد غيره . ولا أن

الذى أدى اجتهاده فى التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فينتقد من المذاهب أطيها عنده ، بل على كل مقلد اتباع مقلده فى كل تفصيل ، فإذا مخالفته للمقلد متفق على كونه منكرا بين المحصلين وهو عاص بالخالفه ، إلا أنه يلزم من هذا أمر أغض منه ، وهو أنه يجوز للحنفى أن يعترض على الشافعى إذا نكح بغير ولى بأن يقول له : الفعل فى نفسه حق ولكن لا فى حقه فأنت مبطل بالإقدام عليه مع اعتقادك أن الصواب مذهب الشافعى ، ومخالفة ما هو صواب عندك معصية فى حقه وإن كانت صوابا عند الله . وكذلك الشافعى يحتسب على الحنفى إذا شاركه فى أكل الضب ومترك التسمية وغيره ويقول له : لما أن تعتقد أن الشافعى أولى بالاتباع ثم تقدم عليه ، أو لا تعتقد ذلك فلا تقدم عليه ، لأنه على خلاف معتقدك . ثم ينجر هذا إلى أمر آخر من المحسوسات وهو أن يجمع الأصم مثلاً امرأة على قصد لزنا وعلم المحتسب أن هذه امرأته زوجته أبوه إياها فى صغره ، ولكنه ليس يدري وعجز عن تعريفه ذلك لصممه أو لكونه غير عارف بلغته ، فهو فى الإقدام مع اعتقاده أنها أجنبية عاص ومعاقب عليه فى الدار الآخرة . فينبغى أن يمنعها عنه مع أنها زوجته وهو بعيد من حيث إنه حلال فى علم الله قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلظه وجهله . ولا شك فى أنه لو علق طلاق زوجته على صفة فى قلب المحتسب مثلاً من مشيئة أو غضب أو غيره وقد وجدت الصفة فى قلبه وعجز عن تعريف الزوجين ذلك ، ولكن علم وقوع الطلاق فى الباطن فإذا رآه يجمعها فعليه المنع - أعنى باللسان - لأن ذلك زنا إلا أن الزانى غير عالم به والمحتسب عالم بأنها طأقت منه ثلاثاً ، وكونهما غير عاصيين لجهلهما بوجود الصفة لا يخرج الفعل عن كونه منكراً ولا يتقاع ذلك عن زنا المجنون وقد بينا أنه يمنع منه ، فإذا كان يمنع مما هو منكراً عند الله وإن لم يكن منكراً عند الفاعل ولا هو عاص به لعذر الجهل ، فيلزم من عكس هذا أن يقال : ما ليس بمنكر عند الله إنما هو منكر عند الفاعل لجهله لا يمنع منه ، وهذا هو الأظهر والعلم عند الله . فتحصل من هذا أن الحنفى لا يعترض على الشافعى فى النكاح بلا ولى ، وأن الشافعى يعترض على الشافعى فيه لكون المعترض عليه منكراً باتفاق المحتسب والمحتسب عليه . وهذه مسائل فقهية دقيقة والاحتمالات فيها متعارضة ، وإنما أفطينا فيها بحسب ما ترجع عندنا فى الحال . ولنا نقطع بخطأ ترجيح المخالف فيها إن رأى أنه لا يجرى الاحتساب إلا فى معلوم على القطع ، وقد ذهب إليه ذاهبون وقالوا : لاحسبة إلا فى مثل الخمر والخنزير وما يقطع بكونه حراماً ، ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر فى حق المجتهد ؛ إذ يبعد غاية البعد أن يجتهد فى القبلة ويعترف بظهور القبلة عنده فى جهة بالدلالات الظنية ثم يستدبرها ، ولا يمنع منه لأجل ظن غيره لأن الاستدبار هو الصواب . ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلد أن يختار من المذاهب ما أراد غير معتد به ولعله لا يصح ذهاب ذاهب إليه أصلاً ؛ فهذا مذهب لا يثبت وإن ثبت فلا يعتد به .

* فإن قلت : إذا كان لا يعترض على الحنفى فى النكاح بلا ولى لأنه يرى أنه حق فينبغى أن لا يعترض على المعتزلى فى قوله : إن الله لا يرى ؟ وقوله : وإن الخير من الله والشر ليس من الله ؟ وقوله : كلام الله مخلوق ؟ ولا على الحشوى فى قوله : إن الله تعالى جسم وله صورة وإنه مستقر على العرش ؟ بل لا ينبغى أن يعترض على الفيلسوفى فى قوله : الأجساد لا تبعث وإنما تبعث النفوس ؛ لأن هؤلاء أيضاً أدى اجتهادهم إلى ما قالوه وهم يظنون أن ذلك هو الحق . فإن قلت : بطلان مذهب هؤلاء ظاهر فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضاً ظاهر ، وكما ثبت بظواهر النصوص أن الله تعالى يرى والمعتزلى ينكرها بالتأويل فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفى كسألة النكاح بلا ولى ومسألة شفعة الجوار ونظائرها ؟ فاعلم أن المسائل تنقسم

إلى ما يتصور أن يقال فيه : كل مجتهد مصيب . وهى أحكام الأفعال فى الحل والحرمه وذلك هو الذى لا يعترض على المجتهدين فيه إذ لم يعلم خطوهم قطعاً بل ظناً ، وإلى ما لا يتصور أن يكون المصيب فيه إلا واحد كسأله الرؤية والقدر وقدم الكلام ونفى الصورة والجسمية والاستقرار عن الله تعالى ، فهذا مما يهمل خطأ المخطئ فيه قطعاً ولا يبقى لخطئه الذى هو جهل محض وجه . فإذا البدع كلها ينبغى أن تحسم أبوابها وتنكر على المبتدعين بدعهم وإن اعتقدوا أنها الحق ، كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ فى مظان الاجتهاد .

هـ فإن قلت : فهما اعترضتا على القدرى فى قوله : الشر ليس من الله ، اعترض عليك القدرى أيضاً فى قوله : الشر من الله ، وكذلك فى قوله : إن الله يرى ، وفى سائر المسائل . إذ المبتدع محق عند نفسه ، والمحق مبتدع عند المبتدع ، وكل يدعى أنه محق وينكر كونه مبتدعاً . فكيف يتم الاحتساب ؟ فاعلم أنا لأجل هذا التعارض نقول : ينظر إلى البلدة التى فيها أظهرت تلك البدعة ؛ فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنة فلهم الحسبة عليه بغير إذن السلطان ، وإن انقسم أهل البلد إلى أهل البدعة وأهل السنة وكان فى الاعتراض تحريك فتنة بالمقابلة فليس للأحاد الحسبة فى المذاهب إلا بنصب السلطان . فإذا رأى السلطان رأى الحق ونصره وأذن لواحد أن يزجر المبتدعة عن اظهار البدعة كان له ذلك وليس لغيره . فإن ما يكون بإذن السلطان لا يتقابل ، وما يكون من جهة الأحاد فيتقابل الأمر فيه . وعلى الجملة فالحسبة فى البدعة أهم من الحسبة فى كل المنكرات ، ولكن ينبغى أن يراعى فيها هذا التفصيل الذى ذكرناه كيلا يتقابل الأمر ولا ينجر إلى تحريك الفتنة . بل لو أذن السلطان مطلقاً فى منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق ، أو أن الله لا يرى ، أو أنه مستقر على العرش عماس له ، أو غير ذلك من البدع لتسلط الأحاد على المنع منه ولم يتقابل الأمر فيه وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط .

الركن الثالث : المحتسب عليه

وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه فى حقه منكراً ، وأقل ما يكتفى فى ذلك أن يكون إنساناً ، ولا يشترط كونه مكلفاً ، إذ بينا أن الصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ ، ولا يشترط كونه مميزاً إذ بينا أن المجنون لو كان يزنى بمجنونة أو يأتى بهيمة منعه منه . نعم من الأفعال ما لا يكون منكراً فى حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره . ولكننا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل فإن ذلك أيضاً مما يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح . وغرضنا الإشارة إلى الصفة التى بها يتبها توجه أصل الإنكار عليه لا ما بها يتبها للتفاصيل .

هـ فإن قلت : فاكثف بكونه حيواناً ولا تشترط كونه إنساناً ، فإن البهيمة لو كانت تفسد زرعاً لإنسان لكننا تمنعها منه كما تمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة ؟ فاعلم أن تسمية ذلك حسبة لاوجه لها ، إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله ، صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر ومنع المجنون عن الزنا وإتيان البهيمة لحق الله ، وكذا منع الصبي عن شرب الخمر . والإنسان إذا أتلف زرع غيره منع منه لحقين ، أحدهما : حق الله تعالى فإن فعله معصية ، والثانى : حق الملتف عليه ، فهما علتان تنفصل إحداهما عن الأخرى . فلو قطع طرف غيره بإذنه فقد وجدت المعصية وسقط حق المجنى عليه بإذنه فتثبت الحسبة والمنع بإحدى علتين . والبهيمة إذا أتلفت فقد عدمت المعصية ولكن ثبت المنع بإحدى علتين . ولكن فيه دقيقة وهو أننا لسنا نقصد بإخراج البهيمة منع البهيمة بل حفظ مال

المسلم ؛ إذ البهيمة لو أكلت ميتة أو شربت من لبناء فيه خمر أو ماء مشوب بخمر لم تمنعها منه ، بل يجوز إطعام كلاب الصيد الجيف والميتات ، ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقدرنا على حفظه بغير تعب وجب ذلك علينا حفظا للبال ، بل لو وقعت جرة لإنسان من علو وتحتها قارورة لغيره فتدفع الجرة لحفظ القارورة ، لالتمع الجرة من السقوط . فإننا لانقصد منع الجرة وحراستها من أن تصير كاسرة للقارورة ، ونمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة وشرب الخمر وكذا الصبي ، لاصيانة للبهيمة المائية أو الخمر المشروب : بل صيانة للمجنون عن شرب الخمر وتنزيهه من حيث إنه لإنسان محترم . فهذه لطائف دقيقة لا يتفطن لها إلا المحققون فلا ينبغي أن يغفل عنها ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه نظر ، إذ قد يتردد في معنهما من لبس الحرير وغير ذلك . وستعرض لما نشير إليه في الباب الثالث .

* فإن قلت : فكل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع لإنسان فهل يجب عليه إخراجها ؟ وكل من رأى مالا لمسلم أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه ؟ فإن قلتم : إن ذلك واجب فهذا تكليف شطط يؤدي إلى أن يصير الإنسان مسخرا لغيره طول عمره ؟ وإن قلتم ، لا يجب فلم يجب الاحتساب على من يغصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير ؟ فنقول : هذا بحث دقيق غامض . والقول الوجيز فيه أن نقول : مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان جاهه وجب عليه ذلك ، فذلك القدر واجب في حقوق المسلم بل هو أقل درجات الحقوق ، والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة وهذا أقل درجاتها وهو أولى بالإيجاب من رد السلام ، فإن الأذى في هذا أكثر من الأذى في ترك رد السلام ، بل لاختلاف في أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم وكان عند الشهادة لو تكلم بها لرجع الحق إليه وجب عليه ذلك وعصى بكتمان الشهادة ففي معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لاضرر على الدافع فيه ، فأما إن كان عليه تعب أو ضرر في مال أو جاه لم يلزمه السعي في ذلك ولكن إذا كان لا يتعب بتذنيه صاحب الزرع من نوم أو بإعلامه يلزمه ، فأهمال تعريفه وتذنيه كأهماله تعريف القاضي بالشهادة ، وذلك لارخصة فيه ، ولا يمكن أن يراعى فيه الأقل والأكثر حتى يقال إن كان لا يضيع من منفعة في مدة اشتغاله بإخراج البهائم إلا قدر درهم مثلا وصاحب الزرع يفوته مال كثير فيترجع جانبه لأن الدرهم الذي له هو يستحق حفظه كما يستحق صاحب الآلف حفظ الآلف ولا سبيل للصبر إلا ذلك ، فأما إذا كان فوات المال بطريق هو معصية كالغصب أو قتل عبد مملوك للغير ، فهذا يجب المنع منه وإن كان فيه تعب ما ، لأن المقصود حق الشرع ، والغرض دفع المعصية ، وعلى الإنسان أن يتعب نفسه في دفع المعاصي كما عليه أن يتعب نفسه في ترك المعاصي . والمعاصي كلها في تركها تعب وإنما الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس وهي غاية التعب . ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المحذورات التي يخافها المحتسب .

وقد اختلف الفقهاء في مسئلتين أقربان من غرضنا ، إحداهما : أن الالتقاط هل هو واجب واللقطة ضائعة ؟ والمالقط مائع من الضياع وساع في الحفظ ؟ والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال : إن كانت اللقطة في موضع لو تركها فيه لم تضع بل يلتقطها من يعرفها ، أو تترك كما لو كان في مسجد أو رباط يتعين من يدخله وكلهم أمناء فلا يلزمه الالتقاط ، وإن كانت في مضيعة ، نظر ، فإن كان عليه تعب في حفظها كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف واصطبل فلا يلزمه ذلك ؛ لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك . وحقه بسبب كونه إنسانا محترما ، والمالقط أيضا لإنسان وله حق في أن لا يتعب لأجل غيره كما لا يتعب غيره لأجله . فإن كانت ذهابا أو ثوبا أو شيئا لا ضرر عليه فيه إلا مجرد تعب

التعريف فهذا ينبغي أن يكون في محل الوجهين . فقايل يقول : التعريف والقيام بشرطه فيه تعب فلا سبيل إلى إلزامه ذلك إلا أن يتبرع فيلتزم طبقا للثواب . وقايل يقول : إن هذا القدر من التعب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين ؛ فينزل هذا منزلة تعب الشاهد في حضور مجلس الحكم فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى إلا أن يتبرع به ، فإذا كان مجلس القاضي في جواره لزمه الحضور وكان التعب بهذه الخطوات لا يعدّ تعباً في غرض إقامة الشهادة وأداء الأمانة ، وإن كان في الطرف الآخر من البلد وأجوج إلى الحضور في الهاجرة وشدة الحر فهذا قد يقع في محل الاجتهاد والنظر ، فإن الضرر الذي ينال الساعي في حفظ حق الغير له طرف في القلة لا يشك في أنه لا يبال به ، وطرف في الكثرة لا يشك في أنه لا يلزم احتماله ، ووسط يتجاذبه الطرفان ويكون أبداً في محل التشبه والنظر ، وهي من الشبهات المزممة التي ليس في مقدور البشر إزالتها ؛ إذ لا علة تفرق بين أجزائها المتقاربة ، ولكن المتق نظر فيها لنفسه ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، فهذا نهاية الكشف عن هذا الأصل .

الركن الرابع : نفس الاحتساب

وله درجات وآداب : أما الدرجات ، فأولها التعرف ، ثم التعريف ، ثم النهي ، ثم الوعظ والنصح ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغيرير باليد ، ثم التهديد بالضرب ، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شهر السلاح ، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود .

أما الدرجة الأولى : وهي التعرف ؛ ونعني طلب المعرفة بمرئيات المنكر وذلك منهى عنه - وهو التجسس الذي ذكرناه - فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل الزمار ، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره . نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانا يشرب الخمر في داره أو بأن في داره خمرأ أعدده للشرب ، فله إذ ذاك أن يدخل داره ولا يلزم الاستئذان ، ويكون تحطى ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر ككسر رأسه بالضرب لمنع مهما احتاج إليه . وإن أخبره عدلان أو عدل واحد - وبالمجلة كل من تقبل روايته لاشهادته - ففي جواز الهجوم على داره بقولهم ، فيه نظر واحتمال ، والأولى أن يمتنع لأن له حقاً في أن لا يتخطى داره بغير إذنه ، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين ؛ فهذا أولى ما يجعل مردداً فيه . وقد قيل إنه كان نقش خاتم لقمان : الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت .

الدرجة الثانية : التعريف ؛ فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله وإذا عرف أنه منكر تركه ، كالسوادى يصلح ولا يحسن الركوع والسجود ؛ فيعلم أن ذلك لجهله بأن هذه ليست بصلاة ولو رضى بأن لا يكون مصلياً لترك أصل الصلاة ، فيجب تعريفه بالالطف من غير عنف ؛ وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحق ، والتجهيل إيذاء وقلبا يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لاسيما بالشرع . ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نه على الخطأ والجهل ؟ وكيف يجتهد في مجاهدة الحق بعد معرفته خيفة من أن تتكشف عورة جهله ؟ والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية ؛ لأن الجهل قبح في صورة النفس وسواد في وجهه ، وصاحبه ملوم عليه ، وقبح السوأتين يرجع إلى صورة البدن ، والنفس أشرف من البدن وقبحها أشد من قبح البدن . ثم هو غير ملوم عليه لأنه خلقه لم يدخل تحت اختياره حصوله ، ولا في اختياره إزالته وتحسينه . والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم ، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله ، ويعظم إبتهاجه في نفسه بعلبه

ثم لذته عند ظهور جمال عليه غيره . وإذا كان التعريف كشفا للعورة مؤذيا للقلب فلا بد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق فنقول له : إن الإنسان لا يولد عالما ولقد كنا أيضا جاهلين بأمور الصلاة فعلنا العلماء ، ولعل قريتك خالية عن أهل العلم أو عالمها مقصر في شرح الصلاة وإيضاحها ، إنما شرط الصلاة الطمأنينة في الركوع والسجود . وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء ؛ فإن إيذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محذور ، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول ، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول على بالتحقيق . وأما إذا وقفت على خطأ في غير أمر الدين فلا ينبغي أن ترده عليه فإنه يستفيد منك علما ويصير لك عدوا ، إلا إذا علمت أنه يغتم العلم وذلك عزيز جدا .

الدرجة الثالثة : النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ؛ وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرا ، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا ، كالذي يواطىء على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه ، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين ؛ وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب ، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه إذ المسلمون كنفس واحدة ، وههنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة ، وهي أن العالم يرى - عند التعريف - عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل ؛ فربما يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل . فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه ؟ ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه وهو غاي في الجهل . وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة وغرور للشيطان يتدلى بحبله كل إنسان إلا من عرفه الله عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته ، فإن في الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين ، أحدهما : من جهة دالة العلم ، والآخر : من جهة دالة الاحتكام والسلطنة . وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه ، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفي ، وله محك ومعيار ينبغي أن يمتحن المحتسب به نفسه ، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه . فإن كانت الحسبة شاقة عليه ثقيلة على نفسه وهو يود أن يكنى بغيره فليحتسب فإن باعته هو الدين ، وإن كان اتعاط ذلك العاصي بوعظه وانزجاره برجره أحب إليه من اتعاطه بوعظ غيره فما هو إلا متبع هوى نفسه ومتوسل إلى إظهار جاه نفسه بواسطة حسبته فليثق بالله تعالى فيه وليحتسب أولا على نفسه . وعند هذا يقال له ما قيل لعيسى عليه السلام : يا ابن مريم عظم نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ولما فاستحي مني . وقيل لداود الطائي رحمه الله : أرايت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ فقال أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب .

الدرجة الرابعة : السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن ، وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ ولسنا نعنى بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ، ولا الكذب بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعتد من جملة الفحش ، كقوله : يافاسق يا أحمق يا جاهل ألا تخاف الله ، وكقوله : ياسوادي يا غبي وما يجري هذا المجرى . فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل ، ولولا حقه لما عصى الله تعالى بل كل من ليس

بكيس فهو أحق . والكيس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة حيث قال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . واللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(١) .

ولهذه الرتبة أدبان ؛ أحدهما : أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف . والثاني : أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه ؛ بل يقتصر على قدر الحاجة . فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغي أن يطلقه . بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته ، وإن علم أنه لو تكلم ضرب ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب ، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له .

الدرجة الخامسة : التغيير باليد ؛ وذلك ككسر الملاهي وإراقة الخمر وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه ودفعه عن الجلوس على مال الغير وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب وما يجرى مجراه ، ويتصور ذلك في بعض المعاصي دون بعض .

فأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها ، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة .

وفي هذه الدرجة أدبان ، أحدهما : أن لا يباشر بيده التغيير مالم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك ، فإذا أمكنه أن يكلفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره ، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه ، فإن في الوقوف على حد الكسر نوع عسر ، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه وتولاه من لاجر عليه في فعله .

الثاني : أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه ، وهو أن لا يأخذ بلحيته في الإخراج ، ولا برجله إذا قدر على جره بيده ؛ فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه ، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط ، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر . وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناس إصلاحه إلى تعب يساوى تعب الاستئناس من الخشب ابتداء . وفي إراقة الخمر يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلا ، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك ، وسقطت قيمة الظرف وتقومه بسبب الخمر إذ صار حائلا بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر ، ولو ستر الخمر يبدنه لكننا نقصد بدنه بالجرح والضرب لتوصل إلى إراقة الخمر فإذا نلنا حرمة ملكة في الظروف على حرمة نفسه . ولو كان الخمر في قوارير ضيقة الرأس ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها ، فهذا عذر . وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع في زمانه وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظفر الخمر ، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان .

* فإن قلت : فهلا جاز الكسر لأجل الزجر ؟ وهلا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر ؟ فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل ، والعقوبة تكون على الماضي ، والدفع على الحاضر الراهن . وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو إعدام المنكر ، فإذا زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على

(١) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس .

جريمة سابقة أو زجر عن لاحق . وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية . نعم الوالى له أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه وأقول : له أن يأمر بكسر الظروف التى فيها الخور زجرا . وقد فعل ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيداً للزجر (١) ولم يثبت نسخته ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفظام شديدة . فإذا رأى الوالى باجتهاده مثل الحاجة جاز له مثل ذلك . وإذا كان هذا منوطاً بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لأحاد الرعية .

* فإن قلت : فليجزر للسلطان زجر الناس عن المعاصى بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التى فيها يسيرون ويعصون وإحراق أموالهم التى بها يتوصلون إلى المعاصى ؟ فأعلم أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجاً عن سنن المصالح ولكننا لا نبشع المصالح بل نتبع فيها . وكسر ظروف الخور قد ثبت عند شدة الحاجة . وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخاً بل الحكم يزول بزوال العلة ويعود بعودها . وإنما جوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ومنعنا آحاد الرعية منه لخفاء وجه الاجتهاد فيه . بل نقول لو أريق الخور أولاً فلا يجوز كسر الأواني بعدها وإنما جاز كسرها تبعاً للخمر . فإذا خلت عنها فهو إتلاف مال إلا أن تكون ضاربة بالخمر لا تصلح إلا لها .

فكان الفعل المنقول عن العصر الأول كان مقروناً بمعينين ؛ أحدهما : شدة الحاجة إلى الزجر ، والآخر : تبعية الظروف للخمر التى هى مشغولة بها . وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما . ومعنى ثالث : وهو صدوره عن رأى صاحب الأمر لعل به شدة الحاجة إلى الزجر وهو أيضاً مؤثر فلا سبيل إلى إلغائه . فهذه تصرفات دقيقة فقهية يحتاج المحتسب لاحتسابها إلى معرفتها .

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف ؛ كقوله دع عنك هذا أولاً كسر رأسك أو لأضرب رقبتك أو لأمرن بك وما أشبهه ، وهذا ينبغي أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه . والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه ، كقوله لأنهن دارك أو لأضرب ولدك أو لأسين زوجتك وما يجرى مجراه ، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام ، وإن قاله من غير عزم فهو كذب . نعم إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال ، وله أن يزيد فى الوعيد على ما هو فى عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه . وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة فى مثل ذلك معتادة وهو معنى مبالغة الرجل فى إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين ، وذلك بما قد رخص فيه للحاجة وهذا فى معناه ، فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص . وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس أنه لا يقيح من الله أن يتوعد بما لا يفعل لأن الخلف فى الوعيد كرم ، وإنما يقيح أن يعد بما لا يفعل ، وهذا غير مرضى عندنا فإن الكلام القديم لا يتطرق إليه الخلف وعدا كان أو وعيدا ، وإنما يتصور هذا فى حق العباد ، وهو كذلك إذ الخلف فى الوعيد ليس بحرام .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ، وذلك جائز للأحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة فى الدفع ، فإذا اندفع المنكر فينبغى أن يكف . والقاضى قد يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس ، فإن أصر المحبوس وعلم القاضى قدرته على أداء الحق وكونه معانداً فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدرج كما يحتاج إليه . وكذلك المحتسب يراعى التدرج فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك ما لم تثر فتنة . كالوقبض فاسق مثلاً على امرأة أو كان يضرب بزمارة

(١) حديث : نكسر الظروف التى فيها الخور فى زمنه صلى الله عليه وسلم . أخرجه الترمذى من حديث أبى طلحة أنه قال : يابى الله أنى اشترت خيراً لأيتام فى حجرى قال « اهرق الخمر واكسر الدنان » وفيه لىث بن أبى سليم والأصح رواية السدى عن يحيى بن عباد عن أس أن أباً طلحة كان عنده قاله الترمذى .

معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له : خل عنها أو لارمينك . إن لم تخل عنها فله أن يرمى وينبغي أن لا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدريج . وكذلك يسلم سيفه ويقول اترك هذا المنكر أو لأضربنك . فكل ذلك دفع للنكر ودفعه واجب بكل ممكن . ولا فرق في ذلك بين ما يتعلق بخاص حق الله وما يتعلق بالآدميين .

وقالت المعتزلة : ما لا يتعلق بالآدميين فلا حسبة فيه إلا بالكلام أو بالضرب ولكن للإمام لا للأحاد .

الدرجة الثامنة : أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح . وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . . فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى إذن الإمام . فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد .

وقال آخرون : لا يحتاج إلى الإذن - وهو الأقيس - لأنه إذا جاز للأحاد الأمر بالمعروف وأوأهل درجاته تجر إلى ثوان والثواني إلى ثوان . وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب . والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف . ومتناه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه . ونحن نجوز للأحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قعاً لأهل الكفر . فكذلك قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لا بأس بقتله والمسلم إن قتل فهو شهيد . فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله . والمحتسب الحق إن قتل مظلوما فهو شهيد . وعلى الجملة فانتهاه الأمر إلى هذا من النواذر في الحسبة . فلا يغير به قانون القياس . بل يقال : كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبأنفسه وبأعوانه . فالمسألة إذن محتملة - كما ذكرناه - فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق .

باب آداب المحتسب

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات . ونذكر الآن جملها ومصادرها فنقول جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب : العلم . والورع . وحسن الخلق .

أما العلم : فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقتصر على حد الشرع فيه .

والورع : ليردعه عن مخالفة معلومة فما كل من علم عمل بعله . بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعا ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض . وليكن كلامه ووعظه مقبولا فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب ويورث ذلك جراءة عليه .

وأما حسن الخلق : فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه . والعلم والورع لا يكفيان فيه . فإن الغضب إذا حاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمع مالم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق . وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب . وبه يصير المحتسب على ما أصابه في دين الله . وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشت أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه . بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم .

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات . وإن فقدت لم يندفع المنكر . بل ربما كانت الحسبة أيضا منكراً لمجاورة حد الشرع فيها ودل على هذه الآداب قوله صلى الله عليه وسلم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهى عنه فقيه

فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه ^(١) ، وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيها مطلقا بل فيما يأمر به وينهى عنه وكذا الحلم . قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلك وقد قيل :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وأق مثله فإنما يرمى على عقله

ولسنا نغني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير متنوعا بالفسق ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس . فقد روى عن أنس رضي الله عنه قال : قلنا يارسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا تنهى عن المنكر حتى نجتنبه كله . فقال صلى الله عليه وسلم : بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانها عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله ^(٢) ، وأوصى بعض السلف بنيه فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى ، فإذا من آداب الحسبة توطئ النفس على الصبر . ولذلك قرن الله تعالى الصبر : بالأمر بالمعروف . فقال حاكيا عن لقمان ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ .

ومن الآداب تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداينة فقد روى عن بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئا من الغدد لسنوره فرأى على القصاب منكرا ، فدخل الدار أولا وأخرج السنور ، ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب : لا اعطيتك بعد هذا شيئا لسنورك ، فقال : ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك . وهو كما قال فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة ومن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالشاء عليه مطلقا لم تيسر له الحسبة . قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك بين قومك ؟ قال : حسنة ، قال : إن التوراة تقول ، إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه . فقال أبو مسلم : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم .

ويدل على وجوب الرفق ما استدل به المأمون إذ وعظه واعظ وعنف له في القول فقال : يارجل ارفق فقد بحث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى ﴿ فقولوا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ فليكن اقتداء المحتسب في الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم . فقد روى أبو أمامة : أن غلاما شابا أتى النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يانبي الله تأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قزوه ادن ، فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أتجبه لأملك ؟ ، فقال : لاجعلني الله فداك ، قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم أتجبه لابتلاك ؟ ، قال : لاجعلني الله فداك ، قال : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم أتجبه لأختك ؟ ^(٣) ، وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والحالة وهو يقول في كل واحد : لا ،

(١) حديث « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه ... الحديث » لم أجده هكذا ولا يهتق في الشعب من رواة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف » .

(٢) حديث أنس : قلنا يارسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا تنهى عن المنكر حتى نجتنبه كله ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانها عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله » أخرجه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه . (٣) حديث أبي أمامة : أن شابا قال : يارسول الله أئذن لي في الزنا فصاح الناس به ... الحديث . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

جعلني الله فداك . وهو صلى الله عليه وسلم يقول : كذلك الناس لا يحبونه ، وقالوا جميعا في حديثهما أعني ابن عوف والراوى الآخر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه ، فلم يكن شيء أبغض إليه منه يعنى من الزنا .

وقيل للفضيل بن عباض رحمه الله : إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال الفضيل : ما أخذ منهم إلا دون حقه ، ثم خلا به وعذله ووبخه فقال سفيان : يا أبا على إن لم تكن من الصالحين فأنا لنحب الصالحين . وقال حماد ابن سلمة : إن صلة بن أشيم مر عليه رنجل قد أسبل لزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال : دعوني أنا أكفيكم ، فقال : يا ابن أخي إن لي إليك حاجة قال : وما حاجتك يا عم ؟ قال : أحب أن ترفع من لزارك . فقال : نعم وكرامة ، فرفع لزاره فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدة لقال : لا ولا كرامة وشتمكم . وقال محمد بن زكريا الغلابي : شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله ، وإذا في طريقه غلام من قریش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس عليه يضربونه ، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس : تنحوا عن ابن أخي ، ثم قال : إلى يا ابن أخي ؛ فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ، ثم قال له : امض معي ، فضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه : بيته عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى وهم بالانصراف ؛ فقال الغلام : قد أمر أن تأتني ؛ فأدخله عليه فقال له . أما استحييت لنفسك ؟ أما استحييت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فائق الله وانزع عما أنت فيه فبكي الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال : عاهدت الله تعالى عهداً يسألني عنه يوم القيامة أني لأعود لشرب النبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب ، فقال : ادن مني ، فقبل رأسه وقال أحسنت يا بني فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث : وكان ذلك ببركة رفقته ثم قال : إن الناس يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكرا فعليكم بالرفق في جميع أموركم تتألون به ما تطلبون . وعن الفتح بن شخرف قال : تعلق رجل بامرأة وتعرض لها ويده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره ، وكان الرجل شديد البدن ؛ فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح في يده إذ مر بشر بن الحارث فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل فوقع الرجل على الأرض ؛ ومشى بشر فدنوا من الرجل وهو يترشح عرقا كثيرا ومضت المرأة لحالها فسألوه ما حالك ؟ فقال : ما أدري ؛ ولكن حاكني شيخ وقال لي : إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ما تعمل ؛ فضعفت لقوله قدمي وهبته هيبة شديدة ولا أدري من ذلك الرجل ؟ فقالوا له : هو بشر بن الحارث ، فقال : واسوأتاه كيف ينظر إلى بعد اليوم ؟ وحرم الرجل من يومه ومات يوم السابع ، فكذا كانت عادة أهل الدين في الحسبة . وقد نقلنا فيها آثاراً وأخباراً في باب البغض في الله والحب في الله من كتاب آداب الصحبة فلا نطول بالإعادة . فهذا تمام النظر في درجات الحسبة وآدابها والله الموفق بكرمه والحمد لله على جميع نعمه .

الباب الثالث : في المنكرات المألوفة في العادات

فتشير إلى جل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها واستقصائها

فمن ذلك منكرات المساجد

أعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة ، فإذا قلنا : هذا منكر مكروه . فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بجرام ، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له لأن الكراهة حكم في الشرع

يجب تبليغه إلى من لا يعرفه . وإذا قلنا منكر محذور ، أوقلنا منكر مطلقا ، فنريد به المحذور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظورا .

فما يشاهد كثيرا في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث فيجب النهي عنه إلا عند الحنفى الذى يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة ، إذ لا ينفع النهي معه . ومن رأى مسيئا في صلاته فسكت عليه فهو شريكه . هكذا ورد به الأثر - وفي الخبر ما يدل عليه ، إذ ورد في الغيبة أن المستمع شريك القائل ^(١) وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها ، أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو غمى فبكل ذلك تجب الحسبة فيه .

ومنها قراءة القرآن باللحن يجب النهي عنه ويجب تلقين الصحيح . فإن كان المعتكف في المسجد يضيع أكثر أوقاته في أمثال ذلك ويشغل به عن التطوع والذكر فليشتغل به ، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطوعه ، لأن هذا فرض وهو قرينة تعتدى فائدتها ، فهي أفضل من نافلة تقتصر عليه فائدتها . وإن كان ذلك يمنعه عن الورقة مثلا أو عن الكسب الذى هو طعمته ، فإن كان معه مقدار كفايته لزمه الاشتغال بذلك ولم يجوز له ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا ، وإن احتاج إلى الكسب لقوت يومه فهو عذر له فيسقط الوجوب عنه لعجزه . والذى يكثّر اللحن في القرآن إن كان قادرا على التعلم فليستع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به ، وإن كان لا يطاوعه اللسان فإن كان أكثر ما يقرؤه لحنًا فليتركه وليجتهد في تعلم الفاتحة وتصحيحها ، وإن كان الأكثر صحيحاً وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ ، ولكن ينبغى أن يخفض به الصوت حتى لا يسمع غيره . ولمنعه سرامنه أيضاً وجه ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها فلست أرى به بأساً والله أعلم .

ومنها تراسل المؤذنين في الأذان وتطويلهم بمدّ كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر في الحيعلتين ، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر ، بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات . فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها . فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها . وكذلك إذا كان للمسجد مؤذن واحد وهو يؤذن قبل الصبح فينبغى أن يمنع من الأذان بعد الصبح ، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح حتى لا يعول على أذانه في صلاة وترك سحور ، أو كان معه مؤذن آخر معروف الصوت يؤذن مع الصبح .

ومن المكروهات أيضا تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر في مسجد واحد في أوقات متعاقبة متقاربة ، إمام من واحد أو جماعة ، فإنه لا فائدة فيه ، إذا لم يبق في المسجد نائم ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى ينفه غيره فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف .

ومنها أن يكون الخطيب لابسا ثوب أسود يغلب عليه الإبريسم ، أو ممسكا لسيف مذهب فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وأما مجرد السواد فليس بمكروه لكنه ليس بمحبوب إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض . ومن قال إنه مكروه وبدعة أراد به أنه لم يكن معهودا في العصر الأول ، ولكن إذا لم يرد فيه نهى فلا ينبغى أن يسمى بدعة ومكروها ولكنه ترك للأحب .

الباب الثالث : في المنكرات المألوفة

(١) حديث « المتتاب والمستمع شريكان في الإثم » يهدم في الصوم .

ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة . فالقاص إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه ولا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد لإظهار الرد عليه ؛ إما للكفاة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواله فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدع . قال الله تعالى لنبيه ﴿ فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ ومهما كان كلامه مائلا إلى الإرجاء وتجرئة الناس على المعاصي ، وكان الناس يزدادون بكلامه جرأة وبعفو الله وبرحمته وثوقا يزيد بسببه رجائهم على خوفهم فهو منكر ، ويجب منعه عنه لأن فساد ذلك عظيم ، بل لو رجح خوفهم على رجائهم فذلك أليق وأقرب بطبع الخلق فإنهم إلى الخوف أحوج وإنما العدل تعديل الخوف والرجاء كما قال عمر رضى الله عنه : لو نادى مناد يوم القيامة ؛ ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نادى مناد ؛ ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، لحفت أن أكون أنا ذلك الرجل . ومهما كان الواعظ شابا متزينا للنساء في ثيابه وهيئته كثير الأشعار والإشارات والحركات وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه ، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح ، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله ، بل لا ينبغي أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكينة والوقار وزينة الصالحين ، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تماديا في الضلال . ويجب أن يضرب بين الرجال والنساء حائل يمنع من النظر فإن ذلك أيضاً مظنة الفساد ، والحدائق تشهد لهذه المنكرات ، ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة بهن فقد منعتن عائشة رضى الله عنها فقيل لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منعهن من الجماعات ، فقالت : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن بعده لممنعهن ^(١) وأما اجتياز المرأة في المسجد مستترة فلا تمنع منه إلا أن الأولى أن لا تتخذ المسجد مجازاً أصلاً . وقراءة القرآن بين يدي الوعاظ مع التدبيد والالخان على وجه يغير نظم القرآن ، ويجاوز حد التنزيل منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف .

ومنها الخلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات ، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه ، فهذه الأشياء منها ما هو محرم لكونه تليسا وكذبا ، كالكذابين من طريقة الأطباء وكأهل الشعبة والتليسات وكذا أرباب التعويذات في الأغلب يتوصلون إلى بيعها بتليسات على الصبيان والسودانية فهذا حرام في المسجد وخارج المسجد ويجب المنع منه . بل كل بيع فيه كذب وتلييس وإخفاء عيب على المشتري فهو حرام .

ومنها ما هو مباح خارج المسجد كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة ، فهذا في المسجد أيضا لا يحرم إلا بعارض وهو أن يضيق المحل على المصلين ويشوش عليهم صلاتهم ، فإن لم يكن شيء من ذلك فليس بحرام والأولى تركه ولكن شرط لإباحته أن يجري في أوقات نادرة وأيام معدودة ، فإن اتخذ المسجد دكانا على الدوام حرم ذلك ومنع منه . فمن المباحات ما يباح بشرط القلة فإن كثرت صار صغيرة . كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار فإن كان القليل من هذا لو فتح بابه خفيف منه أن ينجر إلى الكثير فيمنع منه ، وليكن هذا المنع إلى الوالى أو إلى القيم بمصالح المسجد من قبل الوالى لأنه لا يدرك ذلك بالاجتهاد ، وليس للأحاد المنع بما هو مباح في نفسه لخوفه أن ذلك يكثر .

(١) حديث عائشة : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن بعده لممنعهن المساجد . متفق عليه . (٤٣ — إحياء علوم الدين — ٢)

ومنها دخول المجانين والصبيان والسكران في المسجد ، ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لم يلعب ، ولا يحرم عليه اللعب في المسجد ولا السكوت على لعبه إلا إذا اتخذ المسجد ملعباً وصار ذلك معتاداً فيجب المنع منه ، فهذا مما يحل قليله دون كثيره ، ودليل حل قليله ما روى في الصحيحين « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقف لأجل عائشة رضى الله عنها حتى نظرت إلى الحبشة يزفون ويلعبون بالدرق والحراب يوم العيد في المسجد ، ولا شك في أن الحبشة لو اتخذوا المسجد ملعباً لمنعوا منه ، ولم ير ذلك على الندرة والقلة منكرأ حتى نظر إليه ، بل أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبصرهم عائشة تطيباً لقلوبها إذ قال دونكم « يابني أرفدة ، كما نقلناه في كتاب السماع . وأما المجانين فلا بأس بدخولهم المسجد إلا أن يخشى تلويثهم له ، أو شتمهم أو نطقهم بما هو فحش ، أو تعاطيهم لما هو منكر في صورته ككشف العورة وغيره . وأما المجنون الهادئ الساكن الذي قد علم بالعادة سكونه وسكوته فلا يجب إخراجه من المسجد . والسكران في معنى المجنون فإن خيف منه القذف - أعنى القىء - أو الإيذاء باللسان وجب إخراجه . وكذا لو كان مضطرب العقل فإنه يخاف ذلك منه ، وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح فهو منكر مكروه شديد الكراهة . وكيف لا ومن أكل الثوم والبصل (*) فقد ناه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حضور المساجد ؟ ولكن يحمل ذلك على الكراهة والأمر في الخمر أشد .

« فإن قال قائل : ينبغى أن يضرب السكران ويخرج من المسجد زجراً قلنا : لا ، بل ينبغى القعود في المسجد ويدعى إليه ويؤمر بترك الشرب مهما كان في الحال عاقلاً ، فأما ضربه للزجر فليس ذلك إلى الأحاد بل هو إلى الولاة وذلك عند إقراره أو شهادة شاهدين ، فاما مجرد الرائحة فلا . نعم إذا كان يمشى بين الناس متمايلاً بحيث يعرف سكره فيجوز ضربه في المسجد وغير المسجد منعاً له عن إظهار أثر السكر ، فإن إظهار أثر الفاحشة فاحشة والمعاصي يجب تركها ، وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها ، فإن كان مستتراً مخفياً لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه . والرائحة قد تفوح من غير شرب ، بالجلوس في موضع الخمر وبوصوله إلى الفم دون الابتلاع ، فلا ينبغى أن يعول عليه .

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المراجعة ، وإخفاء العيب . فن قال : اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأرجح فيها كذا وكان كاذباً فهو فاسق . وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه ، فإن سكنت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته . وكذا إذا علم به عيباً فيلزمه أن ينبه المشتري عليه وإلا كان راضياً بضياح مال أخيه المسلم وهو حرام وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالى حتى يغيره .

ومنها ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة ، ولكن ذلك في محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه . وكذا في الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الإنكار فيها فإنها مفسدة للعقود . وكذا في الربويات كلها وهي غالبه . وكذا سائر التصرفات الفاسدة .

ومنها بيع الملالى وبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الصبيان ، فذلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملالى وكذلك بيع الأواني المتخذة من الذهب والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير ، وقلانس

(*) هذا الحديث لم يخرج المراق وقد خرجه الشارح عن البخارى ومسلم وغيرهما

الذهب والحرير أعنى التي لا تصلح إلا للرجال . أو يعلم بعادة البلد أنه لا يلبسه إلا الرجال ، فكل ذلك منكر محظور وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبذلة المقصورة التي يلبس على الناس بقصارتها وابتذالها ويرغم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب . وكذلك تليس انخراق الثياب بالرفو وما يؤدي إلى الالتباس . وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التليسات وذلك يطول إحصاؤه . فليقتس بما ذكرناه مالم نذكره .

منكرات الشوارع

فمن المنكرات المعتادة فيها : وضع الاسطوانات ، وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة .. وغرس الأشجار ، وإخراج الرواشن والأجنحة ، ووضع الخشب وأحمال الجبوب والأطعمة على الطرق ، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضيق الطرق واستضرار المارة وإن لم يؤد إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت ، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه . وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب . وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة والمرعى هو الحاجة التي ترد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات .

ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدتها وضغطها بحيث لا تمزق ، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك . نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل . وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه . وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح في الطريق حذاء باب الحانوت ويلوث الطريق بالدم فإنه منكر يمنع منه ، بل حقه أن يتخذ في دكانه مذبحا فإن في ذلك تضيقا بالطريق وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة ، وبسبب استنقار الطباع للقاذورات : وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق ، وتبديد قشور البطيخ . أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات وكذلك إرسال الماء من الميازيب المنخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب . أو يضيق الطريق ، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن فأما ترك مياه المطر والأحوال والتلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر ، ولكن ليس يختص به شخص معين ، إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد ، والماء الذي يجتمع على الطريق من ميزاب معين ، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق ، إن كان من المطر فذلك حصة عامة فعلى الولاية تكليف الناس القيام بها ، وليس للأحاد فيها إلا الوعظ فقط وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذى الناس فيجب منعه منه ، وإن كان لا يؤذى إلا بتجديس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه ، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه ، بل يمنع صاحبه من أن ينাম على الطريق أو يقعد قعودا يضيق الطريق ، فكلبه أولى بالمنع .

منكرات الحمامات

منها الصورة التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعا لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليعدل إلى حمام آخر . فإن مشاهدة المنكر غير جائزة وبكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان .

ومنها كشف العورات والنظر إليها . ومن جعلتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنجية الوسخ بل من جعلتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها .

ومنها الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغيز الانخاذ والاعجاز ، فهذا مكروه إن كان مع حائل ولكن لا يكون محظورا إذا لم يخش من حركة الشهوة . وكذلك كشف العورة للحجام الذي من الفواحش . فإن المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدنها للذمية في الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال ؟

ومنها غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة ، وغسل الإزار والطاس النجس في الخوض وماؤه قليل ؛ فإنه منجس للباه ، إلا على مذهب مالك فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية ويجوز على الحنفية والشافعية وإن اجتمع مالكي وشافعي في الحمام فليس للشافعي منع المالكي من ذلك إلا بطريق الالتماس واللفظ ؛ وهو أن يقول له : إنا نحتاج أن نغسل اليد أولا ثم نغمسها في الماء ، وأما أنت فستغن عن إيدائي وتفويت الطهارة على ، وما يجري بجرى هذا ، فإن مظان الاجتهاد لا يمكن الحسبة فيها بالقهر .

ومنها أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزقة يزلق عليها الغافلون فهذا منكر ، ويجب قلعه وإزالته وينكر على الحامي إهماله فإنه يفضى إلى السقطة ؛ وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو انخلاعه وكذلك ترك الصدر والصابون المزلق على أرض الحمام منكر ؛ ومن فعل ذلك وخرج وتركه فزلق به لإنسان وانكسر عضو من أعضائه ، وكان ذلك في موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه فالضمان متردد بين الذي تركه وبين الحامي ، إذ حقه تنظيف الحمام ، والوجه لإيجاب الضمان على تاركة في اليوم الأول ، وعلى الحامي في اليوم الثاني إذ عادة تنظيف الحمام كل يوم معتادة ، والرجوع في مواقيت إعادة التنظيف إلى العادات ، فليعتبر بها . وفي الحمام أمور آخر مكروهة ذكرناها في كتاب الطهارة فليتنظر هناك .

منكرات الضيافة

فمنها فرش الحرير للرجال فهو حرام . وكذلك تبخير البخور في بحيرة فضة أو ذهب ، أو الشراب أو استعمال ماء الورد في أواني الفضة أو ما رءوسها من فضة .

ومنها إسدال الستور وعليها الصور .

ومنها سماع الأوتار أو سماع القينات .

ومنها اجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال مهما كان في الرجال شباب يخاف الفتنة منهم ، فكل ذلك محظور منكر يجب تغييره . ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج ، ومن لم يجز له الجلوس فلا رخصة له في الجلوس في مشاهدة المنكرات . وأما الصور التي على النمارق والزرابي المفروشة فليس منكرها . وكذلك على الأطباق والقصاع ، لا الأواني المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رءوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه . وفي المكحلة الصغيرة من الفضة خلاف ، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها . ومهما كان الطعام حراما ، أو كان الموضع منصوبا أو كانت الثياب المفروشة حراما فهو من أشد المنكرات ، فإن كان من فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور ، إذ لا يحل حضور مجالس الشرب وإن كان مع ترك الشرب ، ولا يجوز مجالسة الفاسق في حالة مباشرته للفسق ، وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك ، وأنه هل يجب بغضه في الله ومقاطعته كما ذكرناه في باب الحب والبغض في الله ؟ وكذلك إن كان فيهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز

الجلوس معه من غير ضروره . فإن كان الثوب على صبي غير بالغ فهذا في محل النظر . والصحيح أن ذلك منكرو ويجب نزع عنه إن كان يميزا لعموم قوله عليه السلام ، هذان حرام على ذكور أمتي ^(١) ، وكما يجب منع الصبي من شرب الخمر . لالكونه مكلفاً ، لكن لأنه يأنس به ، فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه . فكذلك شهوة التزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده ، فيكون ذلك بذرا للفساد يذر في صدره ، فتنبت منه شجرة من الشهوة راسخة يعسر قلبها بعد البلوغ . أما الصبي الذي لا يميز فيضعف معنى التحريم في حقه ولا يخلو عن احتمال والعلم عند الله فيه والمجنون في معنى الصبي الذي لا يميز ، نعم يحل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف . ولا أرى رخصة في تنقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلل الذهب فيها ، فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص فلا يجوز إلا الحاجة مهمة كاللفصد والحجامة والختان : والتزين بالحلل غير مهم بل في التقريط بتعليقه على الأذن وفي الخناق والأسورة كفاية عنه . فهذا وإن كان معتاداً فهو حرام والمنع منه واجب ، والاستئجار عليه غير صحيح ، والأجرة المأخوذة عليه حرام ؛ إلا أن يثبت من جهة النقل فيه رخصة ، ولم يبلغنا إلى الآن فيه رخصة .

ومنها أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته ، فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد ؛ فإن كان لا يقدر عليه لم يحز فإن كان المبتدع لا يتكلم بدعته فيجوز الحضور مع اظهار الكراهة عليه والاعراض عنه كما ذكرناه في باب البغض في الله . وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع التواذر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يحز الحضور وعند الحضور يجب الإنكار عليه ، وإن كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا خش فهو مباح - أعنى ما يقل منه - فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح . وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصد به التلبيس فليس من جملة المنكرات ، كقول الإنسان مثلاً : طلبتك اليوم مائة مرة ، وأعدت عليك الكلام ألف مرة ؛ وما يجري مجراه مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق فذلك لا يقدح في العدالة ولا ترد الشهادة به . وسيأتى حدامزاح المباح والكذب المباح في كتاب آفات اللسان من ربيع المهلكات .

ومنها الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر ، بل في المال منكران ؛ أحدهما . الإضاعة . والآخر : الإسراف . فالإضاعة : تفويت مال بلا فائدة يعتد بها كإحراق الثوب وتمزيقه ، وهدم البناء من غير غرض . والقاء المال في البحر ، وفي معناه صرف المال إلى النائحة والمطرب ، وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرمة شرعاً فصارت كالمعدومة .

وأما الإسراف : فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى النائحة والمطرب والمنكرات ، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة .

والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال فنقول : من لم يملك إلامائة دينار مثلاً ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لهم سواء فأنفق الجميع في .ولية فهو مسرف يجب منعه قال تعالى ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً ﴾ نزل هذا في رجل بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئاً لعياله فطولب بالنفقة فلم يقدر على شيء وقال تعالى ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴿ وكذلك قال عز وجل ﴾ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴿ فن يسرف هذا الإسراف ينكر عليه ويجب على القاضي أن يحجر عليه ؛ إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوة في التوكل صادقة ؛ فله أن يتفق جميع ماله في أبواب البر . ومن له عيال أو كان عاجزاً عن التوكل فليس له أن يتصدق

(١) حديث « هذا حرامان على ذكور أمتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي وقد تقدم في الباب الرابع من آداب الأكل .

بجميع ماله . وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضا إسراف محرم ، وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة ، ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة ، فكذا الدور ، وكذلك القول في التجميل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه ، ويصير إسرافا باعتبار حال الرجل وثروته : وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها . ففس بهذه المنكرات المجامع ومجالس القضاة ودواوين السلاطين ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية وخانات الاسواق فلا تخلو بقعة عن منكر مكروه أو محذور ، واستقصاء جميع المنكرات يستدعي استيعاب جميع تفاصيل الشرع أصولها وفروعها فلتقتصر على هذا القدر منها .

المنكرات العامة

اعلم أن كل قاعد في بيته - أينما كان - فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبادي ؟ ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق ، وواجب أن يكون في مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية وواجب على كل فقيه - فرع من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية - أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زادا يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فإن أكثرها مغصوب ، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلا عم الحرج الكافة أجمعين .

أما العالم فلتقصيره في الخروج . وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم .

وكل عامى عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره وإلا فهو شريك في الإثم . ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالما بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها . ولعمري الإثم على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر وهو بصناعتهم أليق : لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعاش فهم قد تقلدوا أمرا لا بد منه في صلاح الخلق . وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن العلماء هم ورثة الأنبياء . وللإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة ، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي . وكذا كل من تيقن أن في السوق منكرًا يجرى على الدوام أوفى وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالعود في البيت ، بل يلزمه الخروج ، فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محتز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج ، لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه ، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلاحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محلته ، ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السواد المكتشف ببلده ، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا إلى أقصى العالم ، فإن قام به الأذن سقط عن الأبعد وإلا حرج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا ، ولا يسقط الحرج مادام بقي على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعمله فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن يهمله أوردنه يشغبه عن تجزئة الاوقات في التفرجات النادرة والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه .

الباب الرابع : في أمر الأمراء والسلاطين ونهيم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوله التعريف ، وثانيه والوعظ ، وثالثه التخشين في القول ، ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة . والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتيان الأوليان وهما : التعريف والوعظ . وأما المنع بالقهر فليس ذلك لأحد الرعية مع السلطان ، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر ، وأما التخشين في القول كقوله : يا ظالم يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يحز ، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه . فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلهم بأن ذلك شهادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »^(٢) ، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال « قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم وتركه قوله الحق ماله من صديق »^(٣) ، ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر ، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار ، قدموا على ذلك . وموطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسبين لما يبدلون من مهجهم عند الله . وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيم عن المنكر مائقل علماء السلف ، وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام ، ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم .

فنها ماروى من إنكار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء . وذلك ماروى عن عروة رضي الله عنه قال : قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عدوانته : فقال : حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوماني الحجر فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : مارأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل سفه أعلامنا وشم أبائنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا - فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول قال فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى ، فلما مر الثانية غمزوه بهلها فعرفت ذلك في وجهه عليه السلام ثم مضى ، فر بهم الثالثة فغمزوه بهلها حتى وقف ثم قال « أتسمعون يا معشر قريش : أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » ، قال : فأطرق القوم حتى مامهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدّهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفوة بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف

الباب الرابع : في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيم عن المنكر

(١) حديث « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك » أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وتقدم في الباب قبله (٢) حديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » تقدم (٣) حديث : وصفه صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب بأنه قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم تركه قوله الحق ماله من صديق . أخرجه الترمذي بسند ضعيف مقتصر على آخر الحديث من حديث علي : رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرا تركه الحق ماله من صديق . وأما أول الحديث فرواه الطبراني إن عمر قال لكعب الأحبار كيف نجد نبي ؟ قال : أجد نعتك قرنا من حديد قال . وما قرن من حديد ؟ قال : أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لائم .

يا أبا القاسم راشدا فوالله ما كنت جهولا قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ؛ فينبأهم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا ؟ أنت الذى تقول كذا ؟ لما كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذى أقول ذلك ، قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع رداءه قال : وقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه دونه يقول - وهو يبكي - ويلكم أقتتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه وإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه ^(١) وفى رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلف ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أقتتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ^(٢) ؟ وروى أن معاوية رضى الله عنه حبس العطاء فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال له : يا معاوية إنه ليس من كذا ولا من كذا أبوك ولا من كذا أمك . قال : فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم : مكانكم ! وغاب عن أعينهم ساعة ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال : إن أبا مسلم كلنى بكلام أغضبني وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل » ^(٣) ، وإنى دخلت فاعتسلت وصدق أبو مسلم أنه ليس من كذا ولا من كذا أبى فلهوا إلى عطاءكم . وروى عن ضبة بن محسن العنزي قال كان علينا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه قال : فغاضني ذلك منه ، فقممت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ثم كتب إلى عمر يشكونى يقول : إن ضبة بن محسن العنزي يتعرض لى فى خطبتي . فكتب إليه عمر : أن أخصمه لى . قال : فأخصمني إليه فقدمت فضربت عليه الباب فخرج إلى فقال : من أنت ؟ فقلت . أنا ضبة فقال لى : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت . أما المرحب فىن الله ، وأما الأهل فلا أهل لى ولا مال ، فبماذا استحلت يا عمر إشخاصى من مصرى بلا ذنب أذنبته ولا شئ أتيتته ؟ فقال : ما الذى شجر بينك وبين عاملى ؟ قال : قلت الآن أخبرك به ، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاضني ذلك منه فقممت إليه فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ثم كتب إليك يشكونى . قال : فاندفع عمر رضى الله عنه باكياء وهو يقول أنت والله أوفى منه وأرشد ، فهل أنت غافر لى ذنبي يغفر الله لك ؟ قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين . قال : ثم اندفع باكياء وهو يقول : والله الليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليلىته ويومه ؟ قلت : نعم ، قال :

أما الليلة : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتيبعه أبو بكر ، فجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من أفعالك ، فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب

(١) حديث : عروة قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ... الحديث . أخرجه بطوله البخارى مختصرا وابن حبان بتمامه (٢) حديث عبد الله بن عمرو : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث رواه البخارى . (٣) حديث معاوية « الغضب من الشيطان » وفى أوله قصة رواه أبو نعيم فى الحلية وفيه من لأمره .

فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك . قال : ففى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت ؛ فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شئ من نزل بي قبلك ، قال : فدخل فلم يرفيه شيئاً فحمله فأدخله وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع فآلقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شئ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلان يضربن أبا بكر فى قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينة عليه والطمانينة لأبي بكر فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نركى فأتيته لآلوه نصحا فقلت : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم . فقال لى : أجاز فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ فبماذا أتألفهم ؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحى فوالله لو منعنى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاءتهم عليه ، قال : فقاتلنا عليه فكان والله رشيدا لأمر . فهذا يومه . ثم كتب إلى أبى موسى يلومه (١) .

وعن الأصمعى قال : دخل عطاء بن أبى رباح على عبد الملك بن مروان - وهو جالس على سريرته وحواليه الأشراف من كل بطن وذلك بمكة فى وقت حجه فى خلافته - فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له : يا أبا محمد ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين اتق الله فى حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة ، واتق الله فى أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله فى أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم . فقال له : أجل أفعل ، ثم نهض وقام . فقبض عليه عبد الملك فقال : يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟ فقال : مالى إلى مخلوق حاجة . ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ! وقد روى أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوما : قف على الباب فإذا مر بك رجل فأدخله على ليحدثنى . فوقف الحاجب على الباب مدة فتر به عطاء بن أبى رباح وهو لا يعرفه فقال له : يا شيخ أدخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك ؛ فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن عبد العزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال : السلام عليك يا وليد ! قال : فغضب الوليد على حاجبه وقال له : وبلك أمرتك أن تدخل إلى رجلا يحدثنى ويسامرنى فأدخلت إلى رجلا لم يرش أن يسمى بالاسم الذى اختاره الله لى . فقال له حاجبه : ما مرى أحد غيره ، ثم قال لعطاء : اجلس ، ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له : بلغنا أن فى جهنم واديا يقال له ههب أعده الله لكل إمام جائر فى حكمه . فصعق الوليد من قوله ، وكان جالسا بين يدي عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس مغشيا عليه ؛ فقال عمر لعطاء : قتلت أمير المؤمنين . فقبض عطاء على ذراع عمر ابن عبد العزيز فغمره غمرة شديدة وقال له : يا عمر إن الأمر جد جد ، ثم قام عطاء وانصرف . فبلغنا عن عمر بن

(١) حديث ضبة بن محسن : كان علينا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة وفيه من عمر أنه قال والله لآيلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بيومه وليته ؟ فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله رواه البيهقي فى دلائل النبوة بإسناد ضعيف هكذا وقصة الهجرة رواها البخارى من حديث عائشة بنير هذا السياق وافق عليها الشيخان من حديث أبى بكر بلفظ آخر ولها من حديثه قال : قلت لرسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما . وأما قتاله لأهل الردة فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبى بكر كيف تهاتل الناس . . الحديث .

عبد العزيز رحمه الله أنه قال : مكثت سنة أجد ألم غزته في ذراعي . وكان ابن أبي شيملة يوصف بالعقل والأدب ؛ فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك : تكلم ، قال : بم أتكلم وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله ؟ فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ومعاناة الردى فيها إلا من أَرْضَى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك ثم قال : لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالا نصب عيني ما عشت . ويروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه ، ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل ، فقال الحجاج مرحبا بأبي سعيد إلى إلى ، ثم دعا بكرسى فوضع إلى جنب سريره فقعده عليه ؛ فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر على بن أبي طالب رضي الله عنه فقال منه وقلنا منه مقاربة له وفرقا من شره ، والحسن ساكت عاض على إبهامه ؛ فقال : يا أبا سعيد مالي أراك ساكتا ؟ قال : ما عسيت أن أقول ؟ قال : أخبرني برأيك في أبي تراب ، قال : سمعت الله جل ذكره يقول ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ فعلى من هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النبي عليه السلام وخخته على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها . وأقول : إن كانت لعل هناة فالله حسبه والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا . فبسروجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتا خلفه وخرجنا . قال عامر الشعبي : فأخذت بيد الحسن فقلت : يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره ، فقال : إليك عني يا عامر ، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة . أتيت شيطاننا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت ، أو سكت فسلمت ؟ قال عامر : يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها ، قال الحسن : فذاك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة . قال : وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذي تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم ، قال ماحمك على هذا ؟ قال : ما أخذ الله على العلماء من الموائيق ﴿ ليبينه للناس ولا يكتُمونه ﴾ قال يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغني عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك . وحكى أن حطيطة الزيات جئ به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال : أنت حطيطة ؟ قال : نعم ، سل عما بدا لك ، فإني عاهدت الله - عند المقام - على ثلاث خصال : إن سئلت لأصدقن ، وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن . قال : فما تقول في ؟ قال : أقول إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة . قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياهم . قال : فقال الحجاج ، ضعوا عليه العذاب . قال : فأتته به العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبه قصبه حتى انتحلو لحمه فما سمعوه يقول شيئا . قال : فقيل للحجاج إنه في آخر رمق فقال : أخرجوه فارموا به في السوق . قال جعفر : فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له : حطيطة ألك حاجة ؟ قال : شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات ، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمه الله عليه . وروى أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقرأها لجعل يسألهم وجعل يكلم عامر الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علما ، ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ، ثم قال : هما هذان ، هذا رجل أهل الكوفة - يعني الشعبي - وهذا رجل

أهل البصرة - يعنى الحسن - فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعبى والحسن . فأقبل على الشعبى فقال : يا أبا عمرو إني أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمنى حقهم فأنا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغنى عن العصاة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه فى بيت المال ومن نيتى أن أردّه عليهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أنى قد قبضته على ذلك النحو فيكتب إلى أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا إنفاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة . فهل على فى هذا تبعة وفى أشباهه من الأمور والثبة فيها على ما ذكرت ؟ قال الشعبى . فقلت أصلىح الله الأمير إنما السلطان والديخطى . ويصيب ، قال . فسر بقولى وأعجب به ورأيت البشر فى وجهه وقال فله الحمد ، ثم أقبل على الحسن فقال : ماتقول يا أبا سعيد قال : قد سمعت قول الأمير يقول إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمنى حقهم والنصيحة لهم والتعهد لما يصلحهم ، وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة وإني سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة ^(١) ، ويقول : إني ربما قبضت من عطائهم لإرادة صلاحهم واستصلاحهم وأن يرجعوا إلى طاعتهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أنى قبضتها على ذلك النحو فيكتب إلى أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه ، وحق الله أزم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطاع ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقا لكتاب الله فخذ به وإن وجدته مخالفا لكتاب الله فانبذه ؛ يا ابن هبيرة اتق الله فإنه يرشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودينك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عملك ؛ يا ابن هبيرة إن الله لينعمك من يزيد ولا ينعمك يزيد من الله وإن أمر الله فوق كل أمر وإنه لا طاعة فى معصية الله وإني أحذرك بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين . فقال ابن هبيرة : أربيع على ظلمك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين ؛ فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإنما ولاء الله تعالى ما ولاء من أمر هذه الأمة لعله به وما يعلمه من فضله ونيته . فقال الحسن : يا ابن هبيرة ، الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله بالمرصاد ، يا ابن هبيرة : إنك إن تلق من ينصح لك فى دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلا يفرق ويمينك . فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه . قال الشعبى : فقلت يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتا معروفه وصلته فقال : إليك عنى يا عامر ، قال : فخرجت إلى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا فكان أهلا لما أدى إليه وكنا أهلا أن يفعل ذلك بنا . فمأريت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربى بين المقارف وما شهدنا مشهدا إلا برز علينا . وقال الله عز وجل وقلنا مقاربة لهم . قال عامر الشعبى : وأنا أعاهد الله أن لأشهد سلطانا بعد هذا المجلس فأحايه . ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبى بردة فقال له : ما تقول فى القدر ؟ فقال : جيرانك أهل القبور فتفكر فيهم فإن فيهم شغلا عن القدر .

وعن الشافعى رضى الله عنه قال : حدثنى عمى محمد بن على قال : إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور

(١) حديث الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة . رواه البئوى فى معجم الصحابة بإسناد لين وقد اتفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار .

وفيه ابن أبي ذؤيب ، وكان والى المدينة الحسن بن زيد قال : فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن ابن زيد ، فقال الحسن : يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب قال : فسأله ، فقال : ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب ؟ فقال : أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثير والأذى لهم . فقال أبو جعفر : قد سمعتم ، فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين سل عن الحسن بن زيد . فقال : يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد ؟ فقال : أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال : قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسأله عن نفسك . فقال : ما تقول في ؟ قال : تعفيني يا أمير المؤمنين ، قال : أسألك بالله إلا أخبرني . قال : تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرني ، قال : أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش . قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك ! قال : فقال ابن أبي ذؤيب يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر فأخذوا الحق وقسم بالسوية وأخذوا بأقفاء فارس والروم وأصغروا آنا فهم ، قال : غفل أبو جعفر فساء وخلى سبيله وقال : والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك ، فقال ابن أبي ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين إنني لأنصح لك من ابنك المهدي ، قال : فبلغنا ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له : يا أبا الحرث لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار ولكن ساء في قولك له ابنك المهدي ، فقال : يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدى كلنا كان في المهدي .

وعن الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته ، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد علي واستجلسني ثم قال لي : ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي ؟ قلت : وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاقباص منكم ، قال : فقلت فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئا مما أقول لك ، قال : وكيف أجعله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمت لك ؟ قال : قلت أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به ، قال : فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فأنهره المنصور وقال : هذا مجلس مشوبة لا مجلس عقوبة ^(١) فطابت نفسي وانبسطت في الكلام . فقلت : يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثما ويزداد الله بها سخطا عليه » ^(٢) ، يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة » ^(٣) ، يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله . إن الله هو الحق المبين . إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رموفا رحما مواسيا لهم بنفسه في ذات يده محمودا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق . وأن تكون بالقسط له فيهم قائما ولعوراتهم سائرا . لا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب . تبتج بالنعمة عندهم . وتبتئس بما أصابهم من سوء . يا أمير

(١) حديث : الأوزاعي مع المنصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة . والقصة بمجمعتها رواها ابن أبي الدنيا في كتاب مواعظ الخلفاء ورواها في مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد ، وفي إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح قال ابن عدي يحدث بما كبر وهو عندي من أهل الصدق وقد رأيت سرد الأحاديث المذكورة في الموعظة لندكر هل بعضها طريق غير هذا الطريق وليعرف صحابي كل حديث أو كونه مرسلأ فاولها (٢) حديث عطية بن بشر « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثما ويزداد الله بها سخطا عليه » (٣) حديث عطية بن ياسر « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة » أخرجه ابن أبي الدنيا في « مواعظ الخلفاء » أخرجه ابن أبي الدنيا في « ابن عدي في الكامل في ترجمة أحمد بن عبيد .

المؤمنين قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم - أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم - وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا انبعث منهم قتام وراء قتام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه ؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ، فأناه جبرائيل عليه السلام فقال له : يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعبا ^(١) ؟ فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه ؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فأناه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي فقال : اقتص مني ، فقال الأعرابي : قد أحللتك ؛ بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسي . فدعا له بخير ^(٢) يا أمير المؤمنين رضى نفسك لنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها » ^(٣) ، يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك . يا أمير المؤمنين أتدرى ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) قال الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك ، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن ؟ يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو ماتت سمخة على شاطئ الفرات ضيعة لحشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟ يا أمير المؤمنين أتدرى ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك (يادود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) قال الله تعالى في الزبور : يادود إذا قعد الحصان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلاح على صاحبه فأحوك عن نبوتك ثم لا تكون خلقتي ولا كرامة ، يادود إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل لعلهم بالرعاية ورقتهم بالسياسة ليحبروا والكسيري ويدلوا الهزبل على الكلاء والماء . يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشققن منه ، يا أمير المؤمنين حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصاري : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقبيا فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن وال يلى شيئا من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد فيحاسب فإن كان محسنا نجا

(١) حديث عروة بن رويم : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل وهروة ذكره ابن جبان في ثقات التابعين (٢) حديث حبيب بن مسلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فيه ، وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتص من نفسه . والحاكم من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه : طعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خاصرة أسيد بن حضير ، فقال أوجعتني قال اقتص .. الحديث . قال صحيح الإسناد (٣) حديث « لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي مضافا لم يذكر إسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ « لغاب » .

(١) حديث عبد الرحمن بن عمر : أن عمر استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة ... الحديث . وفيه مرفوعا « مامن والى يلى شيئا من أمور الناس إلا أتى الله يوم القيامة مموله يده إلى عنقه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من هذا الوجه ورواه الطبراني من رواية سويد بن عبد العزيز عن يسار بن أبي الحكم عن أبي وائل : أن عمر استعمل بشرين عاصم فذكر أخضر منه ، وأن بشرا سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم يذكر فيه : سلمان (٢) حديث « يا عباس يا عم النبي نفس تتجها خير من إمارة لأخصيها » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلا بنير إسناده ورواه البيهقي من حديث جابر متصلا ومن رواية ابن المنكدر مرسلا وقال هذا هو المحفوظ مرسلا (٣) حديث « يا عباس وياصفية ويافاطمة لا أغني عنكم من الله شيئا لى عملى ولكم عملكم » أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلا دون إسناده ورواه البخارى من حديث أبي هريرة متصلا دون قوله « لى عملى ولكم عملكم » (٤) حديث « شر الرعاة الحطمة » رواه مسلم من حديث عائذ بن عمرو المزنى متصلا وهو عند ابن أبي الدنيا من الأوزاعي معضلا كما ذكره المصنف . (٥) حديث : بلنى أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بنافىخ النار وضعت على النار تسمر ليوم القيامة ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا معضلا بنير إسناده .

الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين . يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الأكرام عند الله التقوى وأنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه . فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك . ثم نهضت فقال لي : إلى أين ؟ قلت : إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله ، فقال : قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه . وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسي ونعم الوكيل فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثل هذا فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة . قلت : أفعل إن شاء الله . قال محمد بن مصعب : فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال : أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا . وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك . وعن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أبحر فبينما هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له : أجب أمير المؤمنين ؛ فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور ؛ ما هذا الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ؛ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصرت على نفسي ففيا لي شغل شاغل ، فقال له : أنت آمن على نفسك فقال : الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت . فقال : ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي ؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجة معهم السلاح ، ثم سبحت نفسك فيها منهم وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق فلما رأيته هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك تجبي الأموال ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا ؟ فائتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهاجهم وكان أول من صاندتهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلات بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل ؛ فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم ؛ فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو

ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ؛ فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تتكسر ولا تنغير ؛ فما بقاء الإسلام وأهله على هذا ؛ ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهي إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف ؛ ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي : يا أهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينصف ؛ ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقد متها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه : مالك تبكي لأبكت عيناك ؟ فقال : أما إنني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالبواب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعي فإن بصرى لم يذهب نادوا في الناس : ألا لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه ؟ هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركون ورقته على شح نفسه في ملكه ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك ؛ فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة ؛ إن قلت اجمعها لولدى فقد أراك الله عبداً في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه فايرال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست الذي تعطى بل الله يعطى من يشاء ، وإن قلت : أجمع المال لأشيد سلطاني . فقد أراك الله عبداً فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أباد الله بكم ما أراد . وإن قلت أجمع المال . لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل ؟ قال : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضرته جوارحك ؟ فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ هل يغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا ؟ فبكي المنصور بكاء شديداً حتى نحب وارتفع صوته ثم قال . ياليتني لم أخلق ولم أك شيئاً ، ثم قال : كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أؤمن الناس إلا خائفاً ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين قال : ومن هم ؟ قال : العلماء ، قال : قد فروا مني ، قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على مظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشيء مما حل وطاب واقسه بالحق والعدل وأذا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك . فقال المنصور : اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل . وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلي بهم ثم قال للحرس : عليكم بالرجل إن لم تأتني به لأضربن عنقك ، واغتاز عليه غيظاً شديداً فخرج الحرس يطلب الرجل فيناب هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب فقعده حتى صلى ثم قال : ياذا الرجل أمتق الله ؟ قال : بلى ، قال : أما تعرفه ؟ قال : بلى ، قال : فانطلق معي إلى الأمير فقد آلى أن يقتلني إن لم آتته بك ، قال : ليس لي إلى ذلك من سبيل ، قال : يقتلني ، قال : لا ، قال : كيف ؟ قال : تحسن تقرأ ، قال : لا ، فأخرج من مزود كان معه رقاً مكتوباً فيه شيء فقال : خذه فاجعله في جيبيك فإن فيه دعاء الفرج ، قال : وما دعاء الفرج ؟ قال : لا يرزقه إلا الله ، قلت : رحمك الله قد أحسنت إلى فإن رأيت أن تخبرني ما هذا الدعاء وما فضله ؟ قال : من

دعابه مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحبت خطاياہ واستجيب دعاؤه وبسط له رزقه وأعطى أمله وأعین على عدوه وكتب عند الله صديقا ولايموت إلا شهيدا ، تقول . اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ماتحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لي من كل هم أمسية فيه فرجا ومخرجا . اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجه بما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وإنك المحسن إلى وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك تتودد إلى بنعمك وأتبغض إليك بالمعاصي ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك فعد بفضلك وإحسانك على إنك أنت التواب الرحيم . قال . فأخذته فصيرته في جيب ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إلى وتبسم ثم قال . وبلك وتحسن السحر ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمرى مع الشيخ فقال . هات الرق الذي أعطاك ، ثم جعل يبكي وقال . وقد نجوت ، وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف ، ثم قال . أتعرفه ؟ قلت . لا ، قال ذلك الخضر عليه السلام .

وعن أبي عمران الجوني قال : لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل يحجزهم بالجواز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر النسك والتقشف ، وكان مؤاخيا لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري فديما فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هرون إلى زيارته لينخلوا به ويحدثه فلم يزره ولم يعبا بموضعه ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هرون فكتب إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد ، يا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى وإخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أنى قد واخيتك مواحة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك وإنى منطو لك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التى قلديها الله لايتيك ولو حبوا لما أجد لك فى قلبى من المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه ما بق من إخوانى وإخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنأتى بما صرت إليه وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجواز السنية ما فرحت به نفسى وقرت به عينى وإنى استبطأتك فلم تأتني ، وقد كتبت لك كتابا شوقا منى إليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليه كتابى فالعجل العجل . فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشوتته فقال : على برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني . فقال : يا عباد خذ كتابى هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بنى ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري فإذا رأيت فالتق كتابى هذا إليه وع بسمك وقلبك جميع ما يقول فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرنى به . فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو فى المسجد . قال عباد : فأقبلت إلى المسجد فلما رآنى قام قائما وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير . قال عباد : فوعت الكلمة فى قلبى فخرجت ، فلما رآنى نزلت بباب المسجد قام يصلى ولم يكن وقت صلاة ، فربطت فرسى بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما رفع أحد إلى رأسه وردوا السلام على برؤوس الأصابع ، فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض على الجلوس وقد علانى من هيبتهم الرعدة (٤٥ — إحياء علوم الدين — ٧)

ومددت عيني إليهم فقلت إن المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب إليه . فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه ، فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً منه ظالم بيده . قال عباد : فأخذه بعضهم فخله كأنه خائف من فم حية تنهشه ، ثم فضه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته قال : اقبلوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقبل له : يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس نقي . فقال : اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجرى به ، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلي به ولا يبقى شيء منه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا . فقبل له : ما نكتب ؟ فقال اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان . أما بعد : فإني قد كتبت إليك أعزفك أني قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقلت موضعك فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقت في غير حقه وأنفدت في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إلى تشهدني على نفسك . أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وستودى الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك المؤلفة لقلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراامل والأيتام ؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعييتك ؟ فقد يا هرون مزرك وأعد للسائلة جواباً وللبلاء جلباباً ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزمت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيق القرآن ومجاسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً للظالمين إماماً ، ياهرون قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت سترآدون بابك وتشبهت بالحجة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ؟ يشربون الخمر ويضربون من يشربها ؟ ويذنون ويحدون الزاني ؟ ويسرقون ويقطعون السارق ؟ أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ أي الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لايفسكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأنى بك يا هرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك ، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة ، فاحفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيحة غاية ، فاتق الله ياهرون في رعييتك واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم ، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحد بعد واحد فمنهم من تزود زاداً نفعه ومنهم من خسر ديناه وآخرته ، وإني أحسبك ياهرون من خسر ديناه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام . قال عباد : فالتقي إلى الكتاب منشوراً غير مطوى ولا محتوم فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت : يا أهل الكوفة ، فأجابوني فقلت لهم : يا قوم من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله ؟ فأقبلوا إلى بالدنانير والدراهم ، فقلت : لا حاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية ، قال : فأتيت بذلك ونزعت ما كان على من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين ،

وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هرون حافيا راجلا ، فهاجأ بي من كان على باب الخليفة . ثم استؤذن لي فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام وقعد ، ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسل مالى وللدنيا مالى وللملك يزول عني سريعا ؟ ثم ألقيت الكتاب إليه منشورا كما دفع إلى . فأقبل هرون يقرؤه ودموعه تتحدر من عينيه ويقرأ ويشفق فقال لبعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد اجتأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيق عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره . فقال هرون : اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غرتموه والشقي من أهلكتموه ، وإن سفيان أمة وحده فأتروا سفيان وشأنه . ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله . فرحم الله عبدا نظر لنفسه واتق الله فيما يقدم عليه غدا من عمله فإنه عليه ينحاسب وبه يحازي والله ولي التوفيق .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل ، فخرج الناس ، وخرج يهلول المجنون فيمن خرج بالكثاسة والصبيان يؤذونه ويولعون به ؛ إذ أقبلت هوداج هرون فكف الصبيان عن الولوج به فلما جاء هرون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين فكشف هرون السجاف بيده عن وجهه فقال : لبيك يا بهلول فقال : يا أمير المؤمنين ؛ حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصورا من عرفة على ناقه له صباه ؛ لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك ^(١) وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك . قال : فبكى هرون حتى سقطت دموعه على الأرض ، ثم قال : يا بهلول زدنا رحمك الله قال : نعم يا أمير المؤمنين ، رجل آتاه الله مالا وجالا فأنتفخ من ماله وعف في جماله كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار . قال : أحسنت يا بهلول ، ودفع له جائزة : فقال : اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها ، قال : يا بهلول فإن كان عليك دين قضيناه ، قال : يا أمير المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لا يجوز . قال : يا بهلول فنجري عليك ما يقولك أو يقيمك ، قال : فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله فحال أن يذكرك وينساني . قال : فأقبل هرون السجاف ومضى .

وعن أبي العباس الهاشمي عن صالح بن المأمون قال : دخلت على الحرث المحاسبي رحمه الله فقلت له : يا أبا عبد الله هل حاسبت نفسك ؟ فقال : كان هذا مرة ، قلت له : فاليوم ؟ قال : أكأتم حالي ؟ إني لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضن بها أن تسمعها نفسي ولولا أن يغلبني فيها فرح ما أعلنت بها . ولقد كنت ليلة قاعدا في محرابي فإذا أنا بفتى حسن الوجه طيب الرائحة فسلم على ثم قعد بين يدي فقلت له من أنت ؟ فقال : أنا واحد من السياحين أقصد المتعبدين في محاربيهم ولا أرى لك اجتهدا فأى شيء عملك ؟ قال : قلت له ؛ كتمان المصائب واستجلاب القوائد ، قال : فصاح وقال : ما علمت أن أحدا بين جنبي المشرق والمغرب هذه صفته ؟ قال الحرث : فأردت أن أزيد عليه فقلت له : أما علمت أن أهل القلوب يخفون أحوالهم ويكتتمون أسرارهم ويسألون الله كتمان ذلك عليهم فن أين تعرفهم ؟ قال : فصاح صيحة غشى عليه منها فكث عندى يومين لا يعقل ، ثم أفاق وقد أحدث في ثيابه ، فعلمت إزاله عقله فأخرجت له

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامري : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصورا من عرفة على ناقه له صباه لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه دون قوله منصورا من عرفة وإنما قالوا : يرى الجرة ، وهو الصواب وقد تقدم في الباب الثاني .

ثوباً جديداً وقلت له : هذا كفى قد آثرتك به فاغتسل وأعد صلاتك فقال : هات الماء فاغتسل وصلى ثم التحف بالثوب وخرج فقلت له : أين تريد ؟ فقال لي : قم معي ، فلم يزل يمشي حتى دخل على المأمون فسلم عليه وقال : يا ظالم أنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم ، أستغفر الله من تقصيري فيك ، أما اتقى الله تعالى فيما قد ملكك ؟ وتكلم بكلام كثير ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون وقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل الصديقون قبلي فلم أجده لنفسى فيه حظاً فتملقت بموعظتك لعل أحققهم ، قال : فأمر بضرب عنقه ، فأخرج وأنا قاعد على الباب ملفوفاً في ذلك الثوب ومناد يتنادى : من ولى هذا فليأخذ ، قال الحرث : فاخبتأت عنه فأخذه أقوام غرباء فدفنوه وكنت معهم لأعلمهم بحاله . فأقمت في مسجد بالمقابر محزوناً على الفتى فغلبتني عيناي فإذا هوبين وصائف لم أر أحسن منهم وهو يقول : يا حارث أنت والله من الكاتمين الذين يخفون أحوالهم ويطيعون ربهم ، قلت : وما فعلوا ؟ قال الساعة يلقونك ، فنظرت إلى جماعة ركباًن فقلت : من أنتم ؟ قالوا : الكاتمون أحوالهم حرك هذا الفتى كلامك له فلم يكن في قلبه بما وصفت شيء فخرج للأمر والنهي وإن الله تعالى أنزله معنا وغضب لعبد .

وعن أحمد بن إبراهيم المقرئ قال : كان أبو الحسين النورى رجلاً قليل الفضول لا يسأل عمالاً يعنيه ولا يفتش عما لا يحتاج إليه ، وكان إذا رأى منكراً غيره ولو كان فيه تلفه ، فنزل ذات يوم إلى مشرعة تعرف بمشرعة الفحاميين يتطهر للصلاة إذ رأى زورقاً فيه ثلاثون ذناً مكتوب عليها بالقار د لطف ، فقرأه وأنكره لأنه لم يعلم في التجارات ولا في البيوع شيئاً يعبر عنه بلطف . فقال للملاح : إيش في هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك امض في شغلك ؟ فلما سمع النورى من الملاح هذا القول ازداد تعطشاً إلى معرفته فقال : أحب أن تخبرني إيش في هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك أنت والله صوفي فضولي ، هذا خمر للمعتضد يريد أن يتم به مجلسه ؟ فقال النورى : وهذا خمر ؟ قال : نعم ، فقال : أحب أن نعطيني ذلك المدري ، فاغتاط الملاح عليه وقال لغلامه : أعطه حتى انظر ما يصنع ، فلما صارت المدري في يده صعد إلى الزورق ولم يزل يكسرها ذناً حتى أتى على آخرها إلا ذناً واحداً ، والملاح يستغيث ، إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ ابن بشر أفلح فقبض على النورى وأشخصه إلى حضرة المعتضد - وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ولم يشك الناس في أنه سيقتله - قال أبو الحسين : فأدخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد ويده عمود يقبله فلما رآني قال : من أنت ؟ قلت : محتسب ، قال : ومن ولاك الحسبة ؟ قلت : الذي ولاك الإمامة ولاني الحسبة يا أمير المؤمنين ، قال : فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال : ما الذي حملك على ما صنعت ؟ فقلت : شفقة مني عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه . قال فأطرق مفكراً في كلامي ثم رفع رأسه إلى وقال : كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان ؟ فقلت : في تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن ، فقال : هات خبرني ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنني أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لي بذلك وغمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هبة الخلق عني فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدن فاستشعرت نفسي كبراً على أني أقدمت على مثلك ففنت ولو أقدمت عليه بالحال الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال ، فقال المعتضد : اذهب فقد أطلقنا يدك غير ما أحببت أن تغيره من المنكر . قال أبو الحسين فقلت : يا أمير المؤمنين بغض إلى التغيير لأنني كنت أغير عن الله تعالى وأنا الآن أغير عن شرطي فقال المعتضد : ما حاجتك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين تأمر بإخراجي سالماً فأمر له بذلك وخرج إلى البصرة ، فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد ، فأقام بالبصرة إلى توفى المعتضد ثم رجع إلى بغداد .

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكونهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله الثنية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليتها وأزال قساوتها . وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لافلحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال .

تم كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وهو الكتاب العاشر : من ربيع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه ، وأدب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذ صفيه وحبيبه ، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه ؛ وحرم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحرركات الجوارح ثمرات الخواطر ، والأعمال نتيجة الأخلاق والآداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنايعها ، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها ، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساوئها . ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه . ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يقض على ظاهره جمال الآداب النبوية ، ولقد كنت عزمت على أن أختم ربيع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لثلايشق على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب ، ثم رأيت كل كتاب من ربيع العادات قد أتى على جملة من الآداب فاستغفلت تكريرها وإعادتها ، فإن طلب الإعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة المعادات ، فرأيت أن أقصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه الماثورة عنه بالإسناد فأسردها بمجموعة فصلا فصلا محذوفة الأسانيد ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلام رتبة وأجلهم قدرا فكيف بمجموعها ؟ ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم الأخلاق والشيم ، ومنزعا عن آذان الجاحدين لنبوته صمام الصمم . والله تعالى ولي التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين في الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين فإنه دليل المتحيرين ومجيب دعوة المضطرين . ولندكر فيه أولا بيان تأديب الله تعالى لإياه بالقرآن ، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه ، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه ، ثم بيان كلامه وضحه ، ثم بيان أخلاقه وآدابه في الطعام ، ثم بيان أخلاقه وآدابه في اللباس ، ثم بيان عفوه مع القدرة ثم بيان إغضائه عما كان يكره ، ثم بيان سخاوته وجوده ، ثم بيان شجاعته وبأسه ، ثم بيان تواضعه ، ثم بيان صورته وخلقته ، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم .

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يرزقه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول في دعائه « اللهم حسن خلقي وخلقي »^(١) ، ويقول « اللهم جنبني منكرات الأخلاق »^(٢) ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عز وجل ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ فأنزل عليه القرآن وأدبه به فكان خلقه القرآن .

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن^(٣) .

ولنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ وقوله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذی القربى وينهى عن الفحشاء والمنکر والبغی ﴾ وقوله ﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ وقوله ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ وقوله ﴿ فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ وليعفوا وليصْفَحُوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ وقوله ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وقوله ﴿ والكاظمين الغیظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ ولما كسرت رباعيته وشج يوم أحد فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجهه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم »^(٤) ، فأنزل الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ تأديبا له على ذلك .

وأمثال هذه التآديبات في القرآن لا تحصر وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتم مكارم الأخلاق »^(٥) ، ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق بما أوردناه في كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق فلا نعيده ، ثم لما أكل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه ثم انظر إلى عظيم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى ؟ فهو الذى زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك فقال ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويغض سفسافها^(٦) قال على رضى الله عنه يا عجا لرجل مسلم يحميه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها عما تدل على سبيل النجاة . فقال له رجل : أسمعته من رسول الله

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

- (١) حديث : كان يقول في دعائه « اللهم حسن خلقي وخلقي » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة ولقظهما « اللهم أحسن خلقي فأحسن خلقي » وإسنادهما جيد وحديث ابن مسعود رواه ابن حبان (٢) حديث « اللهم جنبني منكرات الأخلاق » أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه واللفظ له من حديث ثعلبة بن مالك وقال الترمذي « اللهم اني أعوذ بك » (٣) حديث سعد بن هشام : دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن . رواه مسلم وروى الحاكم في قوله لهما لم يخرجاه . (٤) حديث : كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد ... الحديث ، في نزوله « ليس لك من الأمر شيء » أخرجه مسلم من حديث أنس وذكره البخاري تعليقا (٥) حديث « بعثت لأتم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أبي هريرة قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وقد تقدم في آداب الصحة . (٦) حديث « إن الله يحب معالي الأخلاق ويبغض سفاسفها » أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متصلا ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كرز مرسلًا ورواهما ثقات .

صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ فقال نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طي^(١) وقفت جارية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإنى بنت سيد قومي وإن أبى كان يحمى الدمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائي . فقال صلى الله عليه وسلم : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباهما كان يجب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق ، فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ؛ الله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال : « والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق »^(٢) ، وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال »^(٣) ، ومن ذلك حسن المعاشرة وكرم الصنيعة ولين الجانب وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وعيادة المريض المسلم برا كان أو فاجرا وتشجيع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت - مسلما كان أو كافرا - وتوقير ذى الشبهة المسلم وإجابة الطعام والدعاء عليه والعفو والإصلاح بين الناس والجود والكرم والسماحة والابتداء بالسلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والفناء والمعازف كلها وكل ذى وتر وكل ذى دخل والغابة والكذب والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة والنيمة وسوء ذات البين وقطيعه الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والبذخ والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة والبغى والعدوان والظلم . قال أنس رضى الله عنه . فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشا - أو قال عيبا ، أو قال شيئا - إلا حذرناه ونهاهنا عنه^(٤) . ويكفى من ذلك كله هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية وقال معاذ : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح ، وأنهاك أن تسب حكيما أو تكذب صادقا أو تطيع أثما أو تعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية^(٥) ، فهكذا أدب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار

فقال : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس^(٦) وأشجع الناس^(٧) وأعدل الناس^(٨) وأعف الناس لم تمس يده قط

(١) حديث على قوله : وإعجبا لرجل مسلم يميته أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ... الحديث . وفيه مرفوعا « لما أتى بسبايا طي^(١) وقفت جارية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عني ... الحديث أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف (٢) حديث معاذ « خف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ... الحديث » بطوله لم أقف له على أصل وينفى عنه حديث معاذ الآتى بعده بحديث (٣) حديث أنس : لم يدع صلى الله عليه وسلم نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها . لم أقف له على إسناد وهو صحيح من حيث الواقع (٤) حديث « يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد وقد تقدم في آداب الصحبة (٥) حديث : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس . أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عبد الرحمن بن أبزي : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحلم الناس ... الحديث . وهو مرسل . وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبد الله بن سلام في قصة اسلام زيد بن شعث من أجبار اليهود وقول زيد لعمر بن الخطاب : يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه الا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولا تزيد شدة الجهل عليه الا حلما فقد اختبرتهما .. الحديث ، (٦) الحديث : أنه كان أشجع الناس . متفق عليه من حديث أنس (٧) حديث : كان أعدل الناس . أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث على بن أبي طالب في الحديث الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم : لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه . وفيه :

يد امرأة لا يملك رقبها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ^(١) وكان أسخى الناس ^(٢) لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ^(٣) لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله ^(٤) لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ^(٥) ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأتته شيء ^(٦) وكان يخفف النمل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ^(٧) ويقطع اللحم معهن ^(٨) وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ^(٩) ويجيب دعوة العبد والحر ^(١٠) ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو نخذ أرنب ويكافئ عليها ^(١١)

= قد وسع الناس بسطه وخافه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء .. الحديث . وفيه من لم يسم ^(١) حديث : كان أعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقبها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : ما سمعت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها ^(٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم أسخى الناس . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس « فقلت على الناس بأربع . بالسقاء والشجاعة ... الحديث . ورجاله ثقات . وقال صاحب الميزان أنه منكر وفي الصحيحين من حديثه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس واقفاً عليه من حديث ابن عباس . وتقدم في الزكاة ^(٣) حديث : كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط وإن فضل ولم يجد من يعطيه وجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه . أخرجه أبو داود من حديث بلال في حديث طويل فيه : أهدى صاحب فذك رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركائب عليهن كسوة وطعام وبيع بلال ثيابه ووفاء دينه ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد وحده . وفيه : قال « فضل شيء » قلت : نعم ، دينار قال « انظر أن تريعي منها فلست بدخل على أحد من أهل حتى تريعي منها » فلم يأتنا أحد فأت في المسجد حتى أصبح وظل في المسجد اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكباً فاطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى الغداة دعاني فقال « ما فعل الذي قبلك ؟ » قلت : قد أراحك الله منه ؛ فكبر وحمد الله شفقاً من أن يترك الموت وعنده ذلك ثم اتبعته حتى جاء أزواجه ... الحديث . والبخاري من حديث ثقة بن الحارث : ذكرت وأنا في الصلاة فسكرت أن عسى ويبيت عندنا فأمرت بقسمته . ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسل : كان لا يقبل مالا عنده ولا يبيته ^(٤) حديث : كان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله . متفق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب وقد تقدم في الزكاة .

^(٥) حديث : كان لا يسأل شيئاً إلا أعطاه . أخرجه الطيالسي والدارقطني من حديث سهل بن سعد والبخاري من حديثه : في الرجل التقى سأل الشملة فقبل له سألته إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً .. الحديث . وللمسلم من حديث أنس : ما سئل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . وفي الصحيحين من حديث جابر : ما سئل شيئاً قط فقال : لا ^(٦) حديث : أنه كان يؤثر ما ادخر لبياله حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام . هذا معلوم ويدل عليه ما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة بعشرين صاعاً من طعام أخذ لأهله . وقال ابن ماجه بثلاثين صاعاً من شعير . وإسناده جيد والبخاري من حديث عائشة : توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين . وفي رواية البيهقي : بثلاثين صاعاً من شعير .

^(٧) حديث : وكان صلى الله عليه وسلم يخفف النمل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله . أخرجه أحمد من حديث عائشة : كان يخفف ثوبه ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته . ورجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ بلفظ : ويرقع الثوب . والبخاري من حديث عائشة : كان يكون في مهنة أهله .

^(٨) حديث : أنه كان يقطع اللحم . أخرجه أحمد من حديث عائشة : أرسل لنا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسكت وقطم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أوقالت - فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت . وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن ابن أبي بكر في أثناء حديث : وإيم الله مامن الثلاثين ومائة إلا حلز له رسول الله صلى الله عليه وسلم من سواد بطنها .

^(٩) حديث : كان من أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد . أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها ^(١٠) حديث : كان يجيب دعوة العبد والحر . أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس : كان يجيب دعوة المملوك . قال الحاكم صحيح الإسناد . قلت : بل ضعيف وللدارقطني في غرائب مالك وضعفه والمطيلبي في أسماء من روى عن مالك من حديث أبي هريرة : كان يجيب دعوة العبد إلى أي طعام دعى ويقول « لودعيت إلى كراع لأجبت » . وهذا يسموه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عند البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم وروى ابن سعد من رواية حمزة بن عبد الله بن عتبة : كان لا يدعوه أحر ولا أسود من الناس إلا أجابه ... الحديث . وهو مرسل ^(١١) حديث : كان يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو نخذ أرنب ويكافئ عليها أخرجه البخاري من حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها . وأما ذكر : جرعة اللبن ، ونخذ الأرنب . ففي الصحيحين من حديث أم الفضل : أنها أرسلت بقدح لبن إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف برفة فصر به . ولأحمد من =

ويأكلها ولا يأكل الصدقة ^(١) ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمساكين ^(٢) يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ^(٣) وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه . وعرض عليه الانتصار بالمشركون على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك ^(٤) وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحى بل وداه بمائة ناقة وإن أصحابه لحاجة إلى بغير واحد يتقون به ^(٥) وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ^(٦) ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد تمر أدون خبزا كله ^(٧) وإن وجد شواء كله وإن وجد خبز بر أو شعيرأ كله وإن وجد حلوا أو عسلا أكله وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطباً أكله ، لا يأكل متسكنا ^(٨) ولا على خوان ^(٩) منديله باطن قدميه ^(١٠) لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية ^(١١) حتى لقي الله تعالى إثرأه على نفسه لا فقرا ولا بخلا يحيب الوليمة ^(١٢)

== حديث عائشة : أهدت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا ... الحديث . وفي الصحيحين من حديث أنس : أن أباطلحة بعث بورك أرنب أو غنظها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبله ^(١) حديث : كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم ^(٢) حديث : كان لا يستكبر أن يعصى مع المسكين . أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن أبي أوفى بسند صحيح وقد تقدم في الباب الثاني من آداب الصحبة ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري وقال صحيح على شرط الشيخين ^(٣) حديث : كان يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . أخرجه الترمذى في المعجم من حديث هند ابن أبي هالة وفيه : وكان لا تنفضه الدنيا وما كان منها فإذا قعدى الحق لم يغمض نفسه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . وفيه من لم يسم ^(٤) حديث : وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركون على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أستنصر بمشرك . أخرجه مسلم من حديث عائشة : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان بحجرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فلما أدركه قال جئت لأبئك وأصيب معك فقال له : أتؤمن بالله ورسوله ، قال : لا . قال : فأرجع فلن أستعين بمشرك ... الحديث ^(٥) حديث : وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم فوداه بمائة ناقة . الحديث . متفق عليه من حديث سهل بن أبي حنيفة ورافع بن خديج والرجل الذي وجد مقتولا هو عبد الله ابن سهل الأنصاري .

(٦) حديث : كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع . متفق عليه من حديث جابر في قصة حفر الخندق وفيه : فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم شد على بطنه حجرا ، وأغرب ابن حبان فقال في صحيحه لأنما هو الحيز - بضم الحاء وآخره زاي - جمع حجرة وليس يحتاج على ذلك . ويرد على ذلك ما رواه الترمذى من حديث أبي طلحة : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفقنا عن بطونا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . ورجاله كلهم تقام ^(٧) حديث : كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد خبزا كله وإن وجد شعيرأ كله وإن وجد حلوا أو عسلا أكله وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطباً أكله . انتهى . هذا كله معروف من أخلاقه ففي الترمذى من حديث أم هانئ دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أعندك شيء ؟ قلت : لا ، إلا خبز يابس وخل فقال : هات . الحديث ، وقال حسن غريب وفي كتاب المعجم لأبي الحسن بن الضحاك بن المقرئ من رواية الأوزاعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبالي ما رددت به الجوع ، وهذا معضل ، وسلم من حديث جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم فقالوا : ما عندنا إلا خل ، فدعا به ... الحديث . وله من حديث أنس : رأيته مغميا يأكل تمرات والترمذى وصححه من حديث أم سلمة أنها قربت إليه جبنا مشويا فأكل منه ... الحديث . ولا يمشي من حديث عائشة : ماشع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا خبز بر حتى مضى لسبيله . لفظ مسلم وفي رواية له : ماشع من خبز شعير يومين متتابعين . والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث ابن عباس : كان أكثر خبزهم الشعير . ولا يمشي من حديث عائشة : كان يحب الخلواء والعسل . ولما من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبنا فدعا بماء فغمض . والنسائي من حديث عائشة كان يأكل الرطب بالبطيخ وإسناده صحيح ^(٨) حديث : أنه كان لا يأكل متسكنا . تقدم في آداب الأكل من الباب الأول ^(٩) حديث : أنه كان لا يأكل على خوان . تقدم في الباب المذكور ^(١٠) حديث : كان منديله باطن قدمه . لا أعرفه من فعله وإنما المعروف فيه ما رواه ابن ماجه من حديث جابر : كنا زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلا ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدا . وقد تقدم في الطهارة ^(١١) حديث : لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله . تقدم في جملة الأحاديث التي قبله ثلاثة أحاديث ^(١٢) حديث : كان يحيب الوليمة . هذا معروف وتقدم قوله « لودعيت إلى كراع لأجبت » وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس : أنه كان الرجل من أهل الموالي ليدع رسول الله =

ويعود المرضى ^(١) ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ^(٢) أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبير ^(٣) وأبلغهم في غير تطويل ^(٤) وأحسنهم بشرا ^(٥) لا يهوله شيء من أمور الدنيا ^(٦) ويلبس ما وجد فترة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس ^(٧) وخاتمه فضة ^(٨) يلبسه في خنصره الأيمن ^(٩) والأيسر ^(١٠) يردف خلفه عبده أو غيره ^(١١) يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمرا ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ويعود المرضى في أقصى المدينة ^(١٢) يحب الطيب ويكره الرائحة

صلى الله عليه وسلم بنصف الليل على خبز التمر فيجيب : ولسانه ضعيف (١) حديث : كان يعود المريض ويشهد الجنائز أخرجه الترمذي وضعفه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أنس ورواه الحاكم من حديث سهل بن حنيف ، وقال صحيح الإسناد وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى وشهوده للجنائز (٢) حديث : كان يمضي وحده بين أعدائه بلا حارس . أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية (والله يصمك من الناس) فأخرج رأسه من القبة فقال « انصرفوا فقد عصمتني الله » قال الترمذي غريب وقال الحاكم صحيح الإسناد .

(٣) حديث : كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم من غير كبير . رواه أبو الحسن بن الضحاك في العتائل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته صلى الله عليه وسلم : حين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المباشرة طليق الوجه - إلى أن قال - متواضع في غير ذلة - وفيه - ذائب الإطراق . وإسناده ضعيف وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه منها عند النسائي من حديث ابن أبي أوفى : كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمضي مع الأرملة والمسكين .. الحديث . وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء : جلس وجلسنا كان على رءوسنا الطير .. الحديث . ولأصحاب السنن من حديث أسامة بن شريك : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنهم على رءوسهم الطير (٤) حديث : كان أبلغ الناس من غير تطويل . أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : كان يحدث حديثا لوعده العاد لأحضا . ولها من حديثها : لم يكن يسرد الحديث كسردكم علقه البخاري ووصله مسلم زاد الترمذي : ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جالس إليه وله في العتائل من حديث ابن أبي هالة : يتكلم بمجامع الحكم فصل لافضول ولا تقصير (٥) حديث : كان أحسنهم بشرا . أخرجه الترمذي في العتائل من حديث علي بن أبي طالب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق ... الحديث وله في الجامع من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما رأيت أحدا كان أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت : وفيه ابن لهيعة .

(٦) حديث : كان لا يهوله شيء من أمور الدنيا . أخرجه أحمد من حديث عائشة : ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط لا ذوتني وفي لهظه : ما أعجب النبي صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذوتني . وفيه ابن لهيعة (٧) حديث : كان يلبس ما وجد فترة شملة ومرة حبرة ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : جاءت امرأة بردة - قال سهل : هل تدرون ما البردة ؟ هي الشملة مذسوج في حاشيتها وفيه : نفرج لنا وأنها لإزاره . الحديث ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في شملة قد عقد عليها . فيه الأحوص بن حكيم يخالف فيه وللشيعين من حديث أنس : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الحبرة . ولها من حديث المغيرة بن شعبة وعليه جبة من صوف (٨) حديث : خاتمه فضة . متفق عليه من حديث أنس : اتخذ خاتما من فضة (٩) حديث : لبسه الحاكم في خنصره الأيمن أخرجه مسلم من حديث أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة في يمينه . وللبخاري من حديثه : فإني لأرى بريقه في خنصره (١٠) حديث : تختمه في الأيسر أخرجه مسلم من حديث أنس : كان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في هذه - وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى -

(١١) حديث : لردافه خلفه عبده أو غيره : أردف صلى الله عليه وسلم ابن زيد من عرفة . كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة ، وأردفه مرة أخرى على حمار وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة وهو مولاه وابن مولاه ، وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة .

(١٢) حديث : كان يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمرا ومرة راجلا ومرة حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ، يعود المرضى في أقصى المدينة . ففي الصحيحين من حديث أنس : ركوبه صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة . ولمسلم من حديث جابر بن سمرة ركوبه القرس عريا حين الصرغ من جنازة ابن الدحداح ولمسلم من حديث سهل بن سعد : كان النبي صلى الله عليه وسلم فرس يقال له : الحنيف . ولها من حديث ابن عباس : طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير . ولها من حديث البراء : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على بقلته البيضاء يوم حنين . ولها من حديث أسامة : أنه صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على لكاف .. الحديث . ولها من حديث ابن عمر : كان يأتي قبا راكبا ومانيا . ولمسلم من حديثه في عيادته صلى الله عليه وسلم لسمد بن عبادة : فقام وقفا معه ونحن بضعة عصر ما علينا نال ولا خفاف ولا قلاص ولا قمص نغص في السباح ... الحديث .

الرديئة ^(١) ويجالس الفقراء ^(٢) ويؤاكل المساكين ^(٣) ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبرهم ^(٤) يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ^(٥) لا يجفو على أحد ^(٦) يقبل معذرة المعتذر إليه ^(٧) يمزح ولا يقول إلا حقا ^(٨) يضحك من غير قهقهة ^(٩) يرى اللعب المباح فلا ينكره ^(١٠) يسابق أهله ^(١١) وترفع الأصوات عليه فيصبر ^(١٢) وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها ^(١٣) وكان له عيد ولما لا يرتفع عليهم في

(١) حديث : كان يحب الطيب والرائحة الطيبة ويكره الروائح الرديئة . أخرجه النسائي من حديث أنس . حبيب إلى النساء والطيب وأبو داود والحاكم من حديث عائشة : أنها صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف غلغها وكان يعجبه الريح الطيبة . لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وابن عدى من حديث عائشة كان يكره أن يوجد منه إلا ريح طيبة . (٢) حديث : كان يجالس الفقراء . أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد : جلست في عصاية من ضغفاء المهاجرين ولأن بعضهم ليستر بعضا من العرى ... الحديث . وفيه : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطا ليعدل بنفسه فينا .. الحديث . وابن ماجه من حديث خباب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا ... الحديث في نزول قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يقدمون ربه ﴾ إسنادها حسن (٣) حديث : مؤاكلته للمساكين أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها . (٤) حديث : كان يكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبرهم . أخرجه الترمذي في المعاني من حديث علي الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم : وكان من سيرته إثارة أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين . وفيه . ويؤلفهم ولا يفرقهم ويكرم كريم كل قوم ويؤلفهم عليهم ... الحديث . وللطبراني من حديث جرير في قصة إسلامه . فأتى إلى كسائه ثم أقبل على أصحابه ثم قال إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه . وإسناده جيد ورواه الحاكم من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه نحوه وقال صحيح الإسناد (٥) حديث . كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس . كان يحمل العباس لجلال الوالد والوالدة . وله من حديث سعد بن وقاص . أنه أخرج عمه العباس وغيره من المسجد فقال له العباس تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن علينا فقال « ما أنا أخرجكم وأسكنه ولسكن الله أخرجكم وأسكنه » قال في الأول صحيح الإسناد وسكت عن الثاني وفيه مسلم الملائى ضيف . فأثر عليا لفضله بتقدم إسلامه وشهوده بدرا والله أعلم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد لا يقيمن في المسجد باب الأسد إلا باب أبي بكر . (٦) حديث . كان لا يجفو على أحد . رواه أبو داود والترمذي في المعاني والنسائي في اليوم والليلة من حديث أنس كان قلما يواجه رجلا يسمى يكرهه . وفيه ضعف ولا يقيمن من حديث أبي هريرة : أن رجلا استأذن عليه صلى الله عليه وسلم فقال « بش أخو العميرة فلما دخل ألان له القول ... الحديث »

(٧) حديث . يقبل معذرة المعتذر إليه . متفق عليه من حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه : طفق المختلفون يشتدرون إليه فقبل منهم ثلاثتهم ... الحديث . (٨) حديث : يمزح ولا يقول إلا حقا . أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند الترمذي بلفظ : قالوا انك تداعينا : قال « لى ولا أقول إلا حقا » وقال حسن . (٩) حديث : يضحك من غير قهقهة أخرجه الشيخان من حديث عائشة : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجعبا ضاحكا حتى أرى لهواة أنسا كان يتبسم . والترمذي من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسما . قال صحيح غريب وله في المعاني في حديث هند بن أبي هالة : جل ضحكه التبسم . (١٠) حديث : يرى اللعب المباح ولا يكرهه . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : في لعب الحبشة بين يديه في المسجد وقال لهم « دونكم يا بني أرفدة » وقد تقدم في كتاب السماع . (١١) حديث : مسابقته صلى الله عليه وسلم أهله . أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة : في مسابقته لها : وهدم في الباب الثالث من النسخ . (١٢) حديث : ترفع الأصوات عنده فيصبر . أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن الزبير : قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أسمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أسمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلاقي ؟ وقال عمر : ما أردت خلافتك . فتباريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تهللوا بين يدي الله ورسوله ﴾ . (١٣) حديث : وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها . أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث أم سلمة : كان عيشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اللين - أوقالت أكثر عيشنا - كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاح بالذابة ... الحديث . وفي رواية له : كانت لنا أعز سبع فكان الراعى يبلغ بهن مرة الحى ومرة أحدا ويروح بهن علينا وكانت لقاح بذى الحبل فيؤب ألبانهم بالليل ... الحديث . وفي إسنادها محمد بن عمر الواقدي ضعيف في الحديث ، وفي الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع : كانت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ترمى بذى فرد ... الحديث . ولأبي داود من حديث لقيط بن صبرة . لنا غنم مائة لا نريد أن تزيد فإذا ولد الراعى بهمة ذبحنا مكانها شاء ... الحديث

مأكل ولا ملبس^(١) ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه^(٢) يخرج إلى بساتين أصحابه^(٣) لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا للملكة يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا^(٤) قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقره وفي رعاية الغنم يتيا لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والقبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول^(٥) . وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يارب العالمين .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه

عما رواه أبو البحتري قال : ما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة^(٦) . وما لعن امرأة قط ولا غادما بلعنة^(٧) . وقيل له وهو في القتال : لو لعنتم يارسول الله فقال : إنما بعثت

(١) حديث : كان له عيد وإمام فلا يرفع عليهم في مأكل ولا ملبس . أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث سلمى قالت : كان خدم النبي صلى الله عليه وسلم أنا وخضرة ورثوى وميونة بنت سعد أعتقهن كلهن . وإسناده ضعيف ، وروى أيضا أن أبا بكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبد العزيز بأسماء خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر : بركة - أم أيمن - وزيد ابن حارثة وأبا كبشة وأمنة وشقران وسقينة وثوبان ورباحا وبسارا وأبا رافع وأنا موهبة ورافعا ، أعتقهم كلهم ، وفضالة ومدعما وكركرة . وروى أبو بكر بن الضحاك في الثمائل من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد ضعيف : كان صلى الله عليه وسلم يأكل مع خادمه . ومسلم من حديث أبي اليسر « أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون . الحديث » (٢) حديث : لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه . أخرجه الترمذي في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لأهله وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزأ بينه وبين الناس فرد ذلك بالخاصة على العامة ... الحديث . (٣) حديث : يخرج إلى بساتين أصحابه . تقدم في الباب الثالث من آداب الأكل (خروجه صلى الله عليه وسلم إلى بستان أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وغيرهما) .

(٤) حديث : لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا للملكة يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحدا . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : صر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما تقولون في هذا ؟ » قالوا : حري إن خطب أن ينسكح ... الحديث . وفيه : فر رجل من فقراء المسلمين فقال « ما تقولون في هذا ؟ » قالوا : حري إن خطب أن لا ينسكح ... الحديث . وفيه « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » . ومسلم من حديث أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل . (٥) حديث : قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحارى وفي فقر وفي رعاية الغنم لأب له ولا أم فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والقبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول . هذا كله معروف معلوم فروى الترمذي في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب في حديثه الطويل في صفته : وكان من سيرته في جزء الأمة ليثار أهل الفضل بإذنه وقسمه ... الحديث . وفيه : فسألته عن سيرته في جلسائه فقال كان دائم البشير سهل الخلق لين الجانب ... الحديث . وفيه : كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه . وفيه : قد ترك نفسه من ثلاث ؛ من المرأة والإكثار وما لا يعنيه ... الحديث . وقد تقدم بعضه ، وروى ابن مردويه من حديث ابن عباس في قوله (وما كنت تتلون من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب . وقد تقدم في العلم والبخاري من حديث ابن عباس قال : لذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقموا من فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم) وأحمد وابن حبان من حديث أم سلمة في قصة هجرة الحبشة : أن جعفرًا قال للنجاشي أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ... الحديث . ولأحمد من حديث أبي بن كعب : لما أتني صبراء ابن عشر سنين وأشهر فإذا كلام فوق رأسي ... الحديث والبخاري من حديث أبي هريرة : كنت أرعاها - أي النعم - على ترابط لأهل مكة ولأبي بكر بن علي وابن حبان من حديث حليمة : إنما نرجو كرامة الرضاة من والد المولود وكان يقيمها ... الحديث . وتقدم حديث « بعثت بكمم الأخلاق » (٦) حديث « ما شتم أحدا من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة » متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه « فأى المؤمنين لعنته شتته جلده فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة » وفي رواية « فاجعلها زكاة ورحمة » وفي رواية « فاجعلها له كفارة وقربة » وفي رواية « فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة » (٧) حديث : ما لعن امرأة ولا غادما قط . المعروف : ما ضرب . مكان ما لعن . كما هو متفق عليه من حديث عائشة والبخاري من حديث أنس : لم يكن خاشا ولا لعانا . وسيأتي الحديث الذي بعده في هذا المعنى =

رحمة ولم أبعث لعانا^(١) ، وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له^(٢) وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى ، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك^(٣) وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته^(٤) وقال أنس رضي الله عنه : والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه ، ولم فعلته ؟ ، ولألا منى نساؤه إلا قال : «دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدروا^(٥) ، قالوا : وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مضجعا ، إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض^(٦) وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال : محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزى بالسببة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام يأتزر على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه . وكذلك نعتة في الإنجيل . وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام^(٧) ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف^(٨) وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر^(٩) وكان إذا أتى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابهه ثم شد قبضته عليها^(١٠) وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله^(١١) وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال : ألك حاجة؟

(١) حديث « إنما بعث رحمة ولم أبعث لعانا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث : كان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعا له . أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة : قالوا يا رسول الله إن دوسا قد كسفت وأبت قاذع عليهم فقيل : هلكت دوس ، فقال « اللهم اهد دوسا وانت بهم » (٣) حديث : ما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب في سبيل الله وما انتقم من شيء صنع إليه إلا أن تنتهك حرمة الله ... الحديث . متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف وقد تهدم في الباب الثالث من آداب الصحبة (٤) حديث : ما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته أخرجه البخاري تعليقا من حديث أنس : إن كانت الأمة من أماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتقل به حيث شاءت ووصله ابن ماجه وقال : فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة فحاجتها . وقد تقدم وتقدم أيضاً من حديث ابن أبي أوفى : ولا يأنف ولا يستكبر أن يعيش مع الأرملة والمسكين حتى يقضى لها حاجتهما (٥) حديث أنس : والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه « لم فعلته ؟ » ولا لمني أحد من أهله إلا قال « دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدروا » أخرجه الشيخان من حديث أنس : ما قال لمني صنته ؟ « لم صنته » ولالني تركته « لم تركته : » وروى أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث له قال في : ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فتأبني عليه ، فإن تأبني أحد من أهله قال « دعوه فلو قدر شيء كان » وفي رواية له « كذا قضى » (٦) حديث : ما عاب مضجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض . لم أجده بهذا اللفظ المعروف . ما عاب طاماً . ويؤخذ من عموم حديث علي بن أبي طالب . ليس بلفظ ، إلى أن قال . ولا عياب رواء الترمذي في الدلائل والعلاني وأبو نعيم في دلائل النبوة ، وروى ابن أبي عاصم في كتاب السنة من حديث أنس . ما عابه عاب شيئا قط . وفي الصحيحين من حديث عمر . اضطجعه على حصير والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه . الحديث (٧) حديث : كان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام . أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث هند بن أبي هالة (٨) حديث : ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي بن أبي طالب وهو من حديث أنس كان إذا أتى الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف . ورواه الترمذي نحوه وقال غريب (٩) حديث : وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس الذي قبله : كان إذا استقبل الرجل فصاحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع . لفظ الترمذي وقال غريب .

(١٠) حديث : كان إذا أتى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابهه ثم شد قبضته . أخرجه أبو داود من حديث أبي نر : وسأله رجل من عترة هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصاحك إذا لقيتموه ؟ قال : ما لقيته قط إلا صاحني ... الحديث ، وفيه الرجل الذي من عترة ولم يسم وسماء البيهقي في الأدب عبد الله وروينا في اليوم الحديث لعلكم من حديث أبي هريرة قال : شبك يدي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وهو عند مسلم بلفظ : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده (١١) حديث : كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث علي في حديثه الطويل في صفة قال : على ذكر - بالتثنية -

فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته ^(١) وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك يديه عليهما شبه الحبة ^(٢) ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه ^(٣) لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس ^(٤) وما روى قط ما دارجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعاً لا يضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة ^(٥) وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع بمجلسه عليه ^(٦) وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته فإن أبي أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل ^(٧) وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه ^(٨) حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال الله تعالى ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لاتفضوا من حولك ﴾ ولقد كان يدعو أصحابه بكنامهم لإكرامهم واستماله لقلوبهم ^(٩) ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ^(١٠) ويكنى أيضاً النساء اللاتي هن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكنى ^(١١)

- (١) حديث : كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال « ألك حاجة ؟ » فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته لم أجده أصلاً (٢) حديث : كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك يديه عليهما شبه الحبة . أخرجه أبو داود والترمذي في المعجمين من حديث أبي سعيد الخدري : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المجلس احتج يديه وإسناده ضعيف والبخاري من حديث ابن عمر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقف الكعبة محتجاً يديه .
- (٣) حديث : لأنه لم يكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه . أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر : قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهري أصحابه فيجئ التريب فلا يدري أيهم هو ؟ حتى يسأل ... الحديث (٤) حديث : لأنه حينما انتهى به المجلس جالس . رواه الترمذي في المعجمين في حديث علي الطويل .
- (٥) حديث : ما روى قط ما دارجليه بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد إلا أن يكون المكان واسعاً لا يضيق فيه أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من حديث أنس وقال باطل والترمذي وابن ماجه لم ير مقدماً ركبته بين يدي جليس له ، زاد ابن ماجه قط ، وسنده ضعيف (٦) حديث . كان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع بمجلسه عليه . أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث أنس . دخل جرير بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه . فأخذ برذته فألقاه عليه فقال « اجلس علي يا جرير » الحديث وفيه « فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة . ولطبراني في الكبير من حديث جرير . فألقى إلى كساء . ولأبي نعيم في الحلية . فيسقط إلى رداءه .
- (٧) حديث كان يؤثر الداخل بالوسادة التي تكون تحته ... الحديث تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة .
- (٨) حديث . ما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة . أخرجه الترمذي في المعجمين في حديث علي الطويل وفيه . ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه . مجلسه مجلس حلم وخياء وصبر وأمانة .
- (٩) حديث . كان يدعو أصحابه بكنامهم لإكرامهم واستماله لقلوبهم . في الصحيحين في قصة النار من حديث أبي بكر . يا أبا بكر ما ظلك بائنين الله نائهما . ولما حكم من حديث ابن عباس . أنه قال لعمر يا أبا حفص أبصرت وجههم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر . أنه لأول يوم كنانتي فيه بأبي حفص . وقال صحيح على شرط مسلم وفي الصحيحين أنه قال لعل . قم يا أبا تراب ولما حكم من حديث رفاعة بن مالك : أن أبا حسن وجد منفا في بطنه فتخلقت عليه - يريد علياً - ولأبي يعلى الموصلي من حديث سعد ابن أبي وقاص فقال من هذا ؟ أبو اسحق ؟ فقلت . نعم ، ولما حكم من حديث ابن مسعود . أن النبي صلى الله عليه وسلم كناه أبا عبد الرحمن ولم يولد له . (١٠) حديث . كان يكنى من لم يكن له كنية وكان يدعى بما كناه به أخرجه الترمذي من حديث أنس . قال كنانتي صلى الله عليه وسلم بقله كنت أختليها - يعني أبا حمزة - قال حديث غريب وابن ماجه . أن عمر قال اصمبب ابن مالك تحكمتي وليس لك ولد ؟ قال كنانتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي يحيى . ولطبراني من حديث أبي بكر . تدليت بيكرة من الطائف فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم فأنت أبو بكر . (١١) حديث . كان يكنى النساء اللاتي هن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكنى . أخرجه الحاكم من حديث أم أيمن في قصة شربها بول النبي صلى الله عليه وسلم . فقال « يا أم أيمن قومي إلى تلك الفخارة . » الحديث « وابن ماجه من حديث عائشة . أنها قالت لنبى صلى الله عليه وسلم كل أزواجك كنيته غيري قال « فأنت أم عبد الله » والبخاري من حديث أم خالد . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها « يا أم خالد هذا سناء » وكانت صغيرة وفيه مولى للزبير لم يسم ولأبي داود بإسناد صحيح أنها قالت . يا رسول الله كل صواحبى لهن كنى قال « فاكنتي بابنك عبدة ابن الزبير » .

ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم ^(١) وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ^(٢) وكان أرف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ^(٣) ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات ^(٤) وكان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » ثم يقول « علبين جبريل عليه السلام » ^(٥) .

بيان كلامه وضحه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطلقا وأحلام كلاما ويقول ^(٦) :

أنا أفصح العرب ^(٧) وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم ^(٨) وكان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه كحزرات نظمن ^(٩) قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا كان كلامه نورا وأنتم تنثرون الكلام نثرا ^(١٠) قالوا : وكان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد ^(١١) وكان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه ^(١٢) وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة ^(١٣) وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير

(١) حديث . كان يكنى الصبيان . في الصحيحين من حديث أنس . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخ له صغير « يا أبا عمير ما فعل الصغير » . (٢) حديث . كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا . هذا من المعلوم ويدل عليه خبره صلى الله عليه وسلم أن بني آدم خيرهم بطيئ الغضب سريع النفي . رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري وقال حديث حسن وهو صلى الله عليه وسلم خير بني آدم وسيدهم وكان صلى الله عليه وسلم لا ينضب لنفسه ولا ينتصر لها . رواه الترمذي في المعالي من حديث هند ابن أبي هالة . (٣) حديث . كان أرف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس . هذا من المعلوم وروناه في الجزء الأول من فوائد أبي الدرداء من حديث علي في صفة النبي صلى الله عليه وسلم : كان أرحم الناس بالناس . الحديث بطوله . (٤) حديث : لم تكن ترفع في مجلسه الأصوات . أخرجه الترمذي في المعالي من حديث علي الطويل . (٥) حديث : كان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك » الحديث . أخرجه النسائي في اليوم واليلة والحاكم في المستدرک من حديث رافع ابن خديج وتقدم في الأذكار والدعوات . (٦) حديث : كان أفصح الناس منطلقا وأحلام كلاما . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في كتاب المعالي وابن الجوزي في الوفاء بإسناد ضعيف من حديث بريدة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفصح العرب وكان يتكلم بالسكلام لا يدرون ما هو حتى يخبرهم ؟

(٧) حديث « أنا أفصح العرب » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري : أنا أعرب العرب . وإسناده ضعيف والحاكم من حديث عمر قال : قلت يا رسول الله ما بالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ الحديث : وفي كتاب الرعد والمطر لابن أبي الدنيا في حديث مرسل : أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما رأيت أفصح منك ؟

(٨) حديث : إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وصححه : كلام أهل الجنة عربي (٩) حديث : كان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه كحزرات النظم أخرجه الطبراني من حديث أم عبد وكان منطلقه خرزات نظم ينحدرون حلو المنطق لأنزرا ولا هذر . وقد تقدم وسيأتي في حديث عائشة بعده : كان إذا تكلم تكلم نورا وفي الصحيحين من حديث عائشة : كان يحدثنا حديثا لو عدته العاد لأحصاه . (١٠) حديث عائشة : كان لا يسرد كسردكم هذا كان كلامه نورا وأنتم تنثرونه نثرا . اتفق الشيخان على أول الحديث وأما الجملتان الأخيرتان فرواه الخليل في قوله بإسناد منقطع .

(١١) حديث : كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد أخرجه عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع والمارقطني من حديث ابن عباس بإسناد جيد : أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصارا . وشطره الأول متفق عليه - كما سيأتي - قال البخاري بلقي في جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة في الأمر الواحد والامرين ونحو ذلك . ولحاكم من حديث عمر المتقدم : كانت لغة اسمعيل قد درست لجاء بها جبريل فحفظها . (١٢) حديث : كان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير كلام يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه . رواه الترمذي في المعالي من حديث هند بن أبي هالة وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : بعث بجوامع الكلم . ولأبي داود من حديث جابر : كان في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل . وفيه شيخ لم يسم وله ولترمذي من حديث عائشة : كان كلام النبي صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه . وقال الترمذي : يحفظه من جلس إليه وقال الترمذي في اليوم واليلة : يحفظه من سمعه وإسناده حسن . (١٣) حديث : كان جهير الصوت أحسن الناس نغمة . أخرجه الترمذي والنسائي في الكبير من حديث صفوان بن عسال قال :

كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر بيننا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوته جهوري : يا محمد فأجابته رسول الله صلى الله عليه وسلم =

حاجة (١) ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق (٢) ويعرض عن تكلم بغير جميل (٣) ويكفي عما اضطره الكلام إليه مما يكره (٤) وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده (٥) في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة (٦) ويقول : لا تضربوا القرآن بعرضه ببعض فإنه أنزل على وجوه (٧) ، وكان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخطا لنفسه بهم (٨) ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه (٩) وكان ضحك أصحابه عنده التبسيم اقتداء به وتوقيرا له (١٠) قالوا : ولقد جاءه أعرابي يوما وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي فإننا ننكر لونه فقال : دعوني فوالذي بعثه بالحق نبيا لأدعه حتى يتبسّم ، فقال : يا رسول الله بلغنا أن المسيح يعني الدجال يأتي الناس بالثرید وقد هلكوا جوعا أفقرى لي بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هرا لا أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شيعا آمنت بالله وكفرت به ؟ قالوا : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنین (١١) ، قالوا : وكان

= وسلم على نحو من صوته « هاؤم » الحديث . وقال أحد في مسنده : وأجابه نحو ما تكلم به ... الحديث ، وقد يؤخذ من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان جهورى الصوت ولم يكن يرفعه دائما ، وقد يقال لم يكن جهورى الصوت وإنما رفع صوته رفقا بالأعرابي حتى لا يكون صوته أرفع من صوته وهو الظاهر وللشيخين من حديث البراء : ما سمعت أحدا أحسن صوتا منه .

(١) حديث : كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة . أخرجه في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة .

(٢) حديث : لا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهني قريش وقالوا تكتب كل شيء ورسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال : اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق « رواه الحاكم وصححه . (٣) حديث : يعرض عن تكلم بغير جميل . أخرجه الترمذی في الشمائل من حديث علي الطويل : يتناقل عما لا يشتهي الحديث . (٤) حديث : يكفي عما اضطره الكلام بما يكره فن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لامرأة رفاعة « حتى تذوق عسلته ويذوق عسيلتك » رواه البخاری من حديث عائشة : ومن ذلك ما اتفقا عليه من حديثها في المرأة التي سألت عن الاغتسال من الحيض « خذي فرصة ممسكة فتطهري بها ... الحديث » . (٥) حديث : كان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث أخرجه الترمذی في الشمائل في حديث علي الطويل . (٦) حديث يعظ بالجد والنصيحة . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساءكم ... الحديث . (٧) حديث « لا تضربوا القرآن بعرضه ببعض وأنه أنزل على وجوه » أخرجه الطبرانی من حديث عبد الله بن عمرو بإسناد حسن « لأن القرآن يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض » وفي رواية للهروى في ذم السلام « إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض » وفي رواية له « أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض » وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب « لأن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » . (٨) حديث : كان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخطا لنفسه بهم أخرجه الترمذی من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي الصحيحين من حديث جرير : ولا رأيي إلا تبسم . والترمذی في الشمائل من حديث علي : يضحك مما تضحكون منه ويتعجب مما تعجبون منه . ومسلم من حديث جابر بن سمرة : كانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسّم .

(٩) حديث : ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه : متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود في قصة آخر من يخرج من النار وفي قصة الخبر الذي قال : لمن الله يضع السموات على أصبع . ومن حديث أبي هريرة في قصة الحجاج في رمضان وغير ذلك

(١٠) حديث : كان ضحك أصحابه عنده التبسيم اقتداء به وتوقيرا له . أخرجه الترمذی في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة في أثناء حديثه الطويل : جل ضحك التبسيم (١١) حديث : جاءه أعرابي يوما وهو متغير ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي ، فإننا ننكر لونه فقال : دعوني فوالذي بعثه بالحق نبيا لأدعه حتى يتبسّم . قال : يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثرید وقد هلكوا جوعا ... الحديث . وهو حديث منكر لم أقف له على أصل ويرده قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المنيرة بن شعبة المتفق عليه حين سأله : أنهم يقولون لمن معه جبل خبز ونهر ماء قال « هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية لمسلم . أنهم يقولون معه جبلا من خبز ولحم . الحديث . نعم في حديث حذيفة وأبي مسعود المتفق عليهما . لمن معه ماء ونارا الحديث ...

من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظيمة (١) وكان إذا سرورضى فهو أحسن الناس رضا فإن وعظ وعظ بمجد وإن غضب - وليس يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء وكذلك كان في أموره كلها (٢) وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول « اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وأرزقني اجتنابه وأعذني من أن يشتهه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (٣) » .

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد (٤) وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف (٥) والصف ما كثرت عليه الأيدي ، وكان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة (٦) » وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلئ إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد (٧) » ، وكان لا يأكل الخار ويقول « إنه غير ذى

(١) حديث : كان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه القرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظيمة . تقدم حديث عبد الله بن الحارث : ما رأيت أحدا أكثر تبسما منه . والطبراني في معارج الأئمة من حديث جابر : كان إذا نزل عليه الوحي قلت : نذير قوم ، فإذا سرى منه فأكثر الناس ضحكا . الحديث . ولأحمد من حديث علي أو الزبير : كان يخطب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك في وجهه وكأبه نذير قوم يصحبهم الأمر غدوة ، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبس ضاحكا حتى يرتفع عنه ورواه أبو يعل من حديث الزبير من غير شك وللحاكم من حديث جابر : كان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه واشتد غضبه . وهو عند مسلم باللفظ : كان إذا خطب (٢) حديث : كان إذا سرورضى فهو أحسن الناس رضا وإن وعظ وعظ بمجد وإن غضب - ولا يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء ، وكذلك كان في أموره كلها ، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضى فكأنما ملاحك الجدر وجهه ، ولإسناده ضعيف والمراد به المرأة توضع في الشمس فيرى ضوءها على الجدار ، ولأشبهين من حديث كعب بن مالك قال : وهو يرق وجهه من السرور . وفيه : وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قر وكنا نعرف ذلك منه . الحديث ، ومسلم : كان إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه . الحديث ، وقد تقدم والترمذي في المعالي في حديث هند بن أبي هالة : لا تغضب الدنيا وما كان منها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وقد تقدم (٣) حديث : كان يقول « اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وأرزقني اجتنابه وأعذني من أن يشتهه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » لم أقف لأوله على أصل ، وروى المستنفر في الدعوات من حديث أبي هريرة . كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول « اللهم انك سألتنا من أنفسنا مالا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يرضيك هنا » ومسلم من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل « اهدني لما اختلف فيه » إلى آخر الحديث

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

(٤) حديث : كان يأكل ما وجد تقدم (٥) حديث : كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أى كثرت عليه الأيدي أخرجه أبو يعل والطبراني في الأوسط وابن عدى في الكامل من حديث جابر بسند حسن : أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي . ولأبي يعل من حديث أنس : لم يجتمع له غذاء وعشاء خبز ولحم إلا على ضفف . ولإسناده ضعيف (٦) حديث : كان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة » أما التسمية فرواها النسائي من رواية : من خدم النبي صلى الله عليه وسلم ثمان سنين : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرب إليه طعاما يقول « بسم الله ... الحديث » ولإسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده (٧) حديث : كان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يفعل المصلئ إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » أخرجه عبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب مضافا : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل أحضر وقال « آكل كما يأكل العبد ... الحديث » وروى ابن الضحاك في المعالي من حديث أنس بسند ضعيف : كان إذا قعد على الطعام استوفى على ركبته = (٧٤ - - - - - لحياء علوم الدين - - - - - ٧٤)

بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً فأبردوه ^(١) « وكان يأكل بما يليه ^(٢) » ويأكل بأصابعه الثلاث ^(٣) وربما استعان بالرابطة ^(٤) ولم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان ^(٥) » وجاءه عثمان بن عفان رضى الله عنه بفالودج فأكل منه وقال « ما هذا يا عبد الله ؟ » قال : بأبي أنت وأمي نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار ثم نغليه ثم نأخذ بخ الحنطة إذا طحنت فنغليه على السمن والعسل في البرمة ، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتي كما ترى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الطعام طيب ^(٦) » وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ^(٧) وكان يأكل القثاء بالرطب ^(٨) وبالملح ^(٩) وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب ^(١٠) وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر ^(١١) وربما أكله

= اليسرى وأقام اليمنى ثم قال « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد » وروى أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بسند حسن من حديث أبي بن كعب : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشو على ركبتيه وكان لا يتكئ . أوردته في صفة أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبزار من حديث ابن عمر « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » ولأبي يعلى من حديث عائشة « آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وسندهما ضعيف (١) حديث : كان لا يأكل الحار ويقول « لأنه غير ذى بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم يوماً بطعام سخن فقال « ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم » ولأحمد بإسناد جيد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث خولة بنت قيس : قدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجد حرماً فقبضها . لفظ الطبراني والبيهقي وقال أحمد : فأحرقت أصابعه فقال : حس . والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « أبردوا الطعام فإن الطعام الحار غير ذى بركة » وله فيه وفي الصغير من حديثه أني بصحفة ثور فرفع يده منها وقال « إن الله لم يطعمنا ناراً » وكلاهما ضعيف (٢) حديث : كان يأكل مما يليه . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان من حديث عائشة وفي إسناده رجل لم يسم وسماء في رواية له وكذلك البيهقي في روايته في الشعب عبيد بن القاسم لسبب سفيان الثوري ، وقال البيهقي تفرد به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب ، ولأبي الشيخ من حديث عبد الله بن جعفر نحوه (٣) حديث : أكله بأصابعه الثلاث . أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك (٤) حديث : استمأنته بالرابطة . ورواه في الفيلانيات من حديث عامر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبد الله العمري هالك وفي مصنف ابن أبي شيبة من رواية الزهري مرسل : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بالخنس (٥) حديث : لم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف « لأننا كل بأصبع فإنه أكل الملوك ولا تأكل بأصبعين فإنه أكل الشياطين... الحديث » .

(٦) حديث : جاءه عثمان بن عفان بفالودج ... الحديث ، قلت : المعروف أن القدي صنع عثمان : الخبيص رواه البيهقي في الشعب من حديث ليث بن أبي سليم قال : إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان ، قدمت عليه غير تحمل التقي والعسل ... الحديث . وقال هذا منقطع وروى الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن سلام : أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غرارتان . وفيه : فإذا دقيق وسمن وعسل . وفيه : ثم قال لأصحابه كلوا هذا القدي تسميه فارس الخبيص . وأما خبر الفالودج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال : أول ما سمنا بالفالودج أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لن أمتك تفجع عليهم الأرض ويفاض عليهم من الدنيا حتى إنهم لياكلون الفالودج ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : وما الفالودج ؟ قال : يخطون السمن والعسل جميعاً . قال ابن الجوزي في الموضوعات هذا حديث باطل لا أصل له (٧) حديث : كان يأكل خبز الشعير غير منخول : أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد (٨) حديث : كان يأكل القثاء بالرطب . متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر (٩) حديث : كان يأكل القثاء بالملح . أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره ورواه ابن عدى وفيه عباد بن كثير متروك (١٠) حديث : كان أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والعنب . أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من رواية أمية بن زيد العبسي : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ . وروى أبو الشيخ وابن عدى في السكامل والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس : كانت يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره ويأكل الرطب بالبطيخ ؛ وكان أحب الفاكهة إليه . فيه يوسف ابن عطية الصفار يجمع على ضعفه وروى ابن عدى من حديث عائشة : كان أحب الفاكهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرطب والبطيخ . وله من حديث آخر لها . فإن خير الفاكهة العنب . وكلاهما ضعيف (١١) حديث . كان يأكل البطيخ بالخبز والسكر . أما أكل البطيخ بالخبز فلم أره وإنما وجدت أكل العنب بالخبز فيما رواه ابن عدى من حديث عائشة مرفوعاً « عليكم بالرازمة » قيل يا رسول الله وما الرازمة ؟ قال « أكل الخبز مع العنب . فإن خير الفاكهة العنب وخير الطعام الخبز » واستاده ضعيف . وأما أكل البطيخ بالسكر فإن أريد بالسكر نوع من التمر والرطب معصوم فهو الحديث الآتي بعده وإن أريد به السكر الذي هو الطابزد فلم أر له أصلاً إلا في حديث منكر معضل رواه أبو عمر النوفلي في كتاب البطيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين . أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل بطيخاً بسكر . وفيه موسى =

بالرطب ^(١) ويستعين باليدنين جميعاً ، وأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة ^(٢) وكان ربما أكل الغنبل خراطاً يرى زوانه على لحيته كحز اللؤلؤ ^(٣) وكان أكثر طعامه الماء والتمر ^(٤) وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطينيين ^(٥) وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول « هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل ^(٦) » وكان يأكل الثريد باللحم والقرع ^(٧) وكان يحب القرع ويقول « إنها شجرة أخى يونس عليه السلام ^(٨) » قالت عائشة رضي الله عنها وكان يقول « يا عائشة إذ طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء فإنه يشد قلب الحزين ^(٩) » وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد ^(١٠) وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتي به فيأكله ^(١١) وكان إذا أكل اللحم لم يطأطى رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعا ثم ينتهشه انتهاشاً ^(١٢) وكان يأكل الخبز والسمن ^(١٣) وكان يحب من الشاة الذراع والكف ، ومن القدر الدباء ومن الصباغ الخلل ومن التمر

= ابن ابراهيم المروزي كذبه يحيى بن معين (١) حديث . أكل البطيخ بالرطب أخرجه الترمذي والذهبي من حديث عائشة وحسنه الترمذي وابن ماجه من حديث سهل بن سعد . كان يأكل الرطب بالبطيخ . وهو عند الدارمي بلفظ . البطيخ بالرطب (٢) حديث . استعانت به باليدنين جميعاً فأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة . أما استعانت به يديه جميعاً فرواه أحمد من حديث عبد الله بن جعفر قال . آخر ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى يديه رطبات وفي الأخرى قناء يأكل من هذه وبعض من هذه . وتقدم حديث أنس في أكله يديه قبل هذا بثلاثة أحاديث وأما قصته مع الشاة فرويناها في فوائد أبي بكر الشافعي من حديث أنس بإسناد ضعيف .

(٣) حديث . ربما أكل الغنبل خراطاً ... الحديث . أخرجه ابن عدى في الكامل من حديث العباس والعقيلي في الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا مختصراً وكلاماً ضعيفاً . (٤) حديث . كان أكثر طعامه الماء والتمر . أخرجه البخاري من حديث عائشة . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شبعنا من الأسودين التمر والماء . (٥) حديث . كان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطينيين . أخرجه أحمد من رواية اسماعيل بن أبي خالد عن أبيه قال . دخلت على رجل وهو يجمع لبناً بشروقال . ادن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها الأطينيين ورجاله نقات ولهاهام لا يضر . (٦) حديث : كان أحب الطعام إليه اللحم ويقول « هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل » أخرجه أبو الشيخ من رواية ابن سمان قال : سمعت من علمائنا يقولون كان أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم ... الحديث . والترمذي في المعالم من حديث جابر : أتانا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا فذبحنا له شاة فقال « كأنتهم علموا أنا نحب اللحم » وإسناده صحيح وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف : سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم . (٧) حديث : كان يأكل الثريد باللحم والقرع أخرجه مسلم من حديث أنس . (٨) حديث : كان يحب القرع ويقول « إنها شجرة أخى يونس » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب القرع . وقال النسائي : الدباء ، وهو عند مسلم بلفظ : تعجبه وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي هريرة في قصة يونس : فللقطة في أصل شجرة ، وهي الدباء . (٩) حديث « يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد قلب الحزين . رويناه في فوائد أبي بكر الشافعي . (١٠) حديث : كان يأكل لحم الطير الذي يصاد . أخرجه الترمذي من حديث أنس قال : كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال « اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي هذا الطير » فجاء على فأكل معه ، قال حديث غريب قلت وله طرق كلها ضعيفة . وروى أبو داود والترمذي واستنبره من حديث سفيانة قال : أكلت مع النبي صلى الله عليه وسلم لحم حبارى . (١١) حديث : كان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له فيؤتي به فيأكله . قلت هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال من تبع الصيد غفل رواه أبو داود والنسائي والترمذي من حديث ابن عباس وقال : حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني « قد كانت قبل الله رسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد » فهو ضعيف جداً . (١٢) حديث : كان إذا أكل اللحم لم يطأطى رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعا ثم ينتهشه . أخرجه أبو داود من حديث صفوان بن أمية قال : كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ اللحم من العظم فقال « أدن اللحم من فيك فإنه أهنا وأمرأ » والترمذي من حديثه « انتهش اللحم نهشاً فإنه أهنا وأمرأ » وهو منقطع والذي قبله منقطع أيضاً ولشيوخين من حديث أبي هريرة : فتناولوا القرع فنهش منها نهشاً ... الحديث . (١٣) حديث : كان يأكل الخبز والسمن . متفق عليه من حديث أنس في قصة طويلة فيها : فأنت بذلك الخبز فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقت وعصرت أم سليم عكة فأدتمته ... الحديث . وفيه : ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم . وفي رواية ابن ماجه : فصنعت فيها شيئاً من سمن ولا يصح وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عمر : وددت أن عندى خبزة بيضاء من بر سمراء بلغة بسمن ... الحديث . قال أبو داود منكر .

العجوة ^(١) ودعا في العجوة بالبركة وقال « هي من الجنة وشفاء من السم والسحر » ^(٢) ، وكان يحب من البقول الهندباء والباذر وج والبقلة الحفقاء التي يقال لها الرجل ^(٣) : وكان يكره الكليتين لمكانهما من البقول ^(٤) وكان لا يأكل من الشاة سبعا : الذكر والأنثيين والثانة والمرارة والغدد والحيا والدم ، ويكره ذلك ^(٥) وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا السكرات ^(٦) وما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره ^(٧) وكان يعاف الضب والطحال ولا يجرهما ^(٨) وكان يلعق بأصابعه الصحيفة ويقول : آخر الطعام أكثر بركة ^(٩) : وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر ^(١٠) وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول : إنه لا يدرى في أى الطعام البركة ^(١١) :

(١) حديث : كان يحب من الشاة القراع والكتف ومن القدر الدباء ومن الصباغ الخل ومن التمر العجوة . وروى الشيخان من حديث أبي هريرة قال : وضعت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قطعة من ثريد ولحم فتناول القراع وكانت أحب الشاة إليه ... الحديث . وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس : كان أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتف . وإسناده ضعيف ومن حديث أبي هريرة : لم يكن يعجبه من الشاة إلا الكتف . وتقدم حديث أنس : كان يحب الدباء . قبل هذا بسة أحاديث ولأبي الشيخ من حديث أنس : كان أحب الطعام إليه الدباء . وله من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف : كان أحب الصباغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخل . وله بالإسناد المذكور : كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة .

(٢) حديث : دعا في العجوة بالبركة وقال « هي من الجنة وشفاء من السم والسحر » أخرجه الزوار والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن الأسود قال : كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد سدوس فأهدينا له تمرا . وفيه : حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذائى فقال « بارك الله في الجذائى وفي حقيقة خرج هذا منها ... الحديث » قال أبو موسى المديني : قيل هو تمر أحمر والترمذى والذائى وابن ماجه من حديث أبي هريرة « العجوة من الجنة وهي شفاء من السم » وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص « من أصبح بسبع تمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر » . (٣) حديث : كان يحب من البقول الهندباء والباذر وج والبقلة الحفقاء - التي يقال لها الرجل - أبو نعيم في الطب النبوى من حديث ابن عباس « عليكم بالهندباء فإنه ما يؤم ولا يقطر عليه قطرة من قطر الجنة » وله من حديث الحسن بن علي وأنس بن مالك نحوه وكلها ضعيفة وأما الباذر وج فلم أجد فيه حديثا وأما الرجل فروى أبو نعيم من رواية ثوير قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بالرجلة وفي رجله قرحة فداواها بها فبرئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بارك الله فيك أنبتى حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناء الصداغ » وهذا مرسل ضعيف

(٤) حديث : كان يكره الكليتين لمكانهما من البقول . رويناه في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبيد الله بن الشيخير من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحسن بن علي العدوى أحد الكذابين . (٥) حديث : كان لا يأكل من الشاة الذكر والأنثيين والثانة والمرارة والفدة والحيا والدم . أخرجه ابن عدى ومن طريقه البيهقي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ورواه البيهقي من رواية مجاهد مرسل . (٦) حديث : كان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا السكرات . أخرجه مالك في الموطأ عن الزهري عن سليمان بن يسار مرسل ووصله الجارقي في غرائب مالك عن الزهري عن أنس وفي الصحيحين من حديث جابر : أتى بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحا ... الحديث . وفيه : قال فأتى أناجى من لاناغى . ولمسلم من حديث أبي أيوب في قصة بعثه إليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال « لاني أكرهه من أجل ريحه » . (٧) حديث : ما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره . تقدم أول الحديث وفي الصحيحين من حديث ابن عمر في قصة الضب فقال « كلوا فإنه ليس بمجرم ولا بأس به ولست بكم من طعام قومي » (٨) حديث : كان يعاف الضب والطحال ولا يجرهما أما الضب ففي الصحيحين عن ابن عباس « لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه » ولها من حديث ابن عمر « أحلت لنا ميتتان ودمان » وفيه « أما الدمان : فالسكب والطحال » والبيهقي موقوفا على زيد بن ثابت « لاني لا أكل الطحال وما بي إليه حاجة إلا ليعلم أهلى أنه لا بأس به »

(٩) حديث : كان يلعق الصحيفة ويقول « آخر الطعام أكثر بركة » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر في حديث قال فيه : ولا ترفع القصعة حتى تلعقها - أو تلعقها - فإن آخر الطعام في البركة . ومسلم من حديث أنس : أمرنا أن نسلت الصحيفة وقال « إن أحدم لا يدرى أى طعامه يبارك له فيه ؟ » . (١٠) حديث . كان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر . أخرجه من حديث كعب بن مالك دون قوله حتى تحمر فلم أقف له على أصل . (١١) حديث كان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول « انه لا يدرى في أى أصابعه البركة » أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك . أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يمسح يده حتى يلعقها وله من حديث جابر . فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدرى في أى طعامه تكون البركة ؟ والبيهقي في الشعب من حديثه « لا يمسح أحدم يده بالمنديل حتى يلعق يده فإن الرجل لا يدرى في أى طعامه يبارك له فيه » .

وإذا فرغ قال « الحمد لله اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ^(١) » وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلًا جيدًا ثم يمسح بفضله الماء على وجهه ^(٢) وكان يشرب في ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات ^(٣) وكان يمس الماء مصا ولا يعب عبا ^(٤) وكان يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه ^(٥) فإن كان من على يساره أجل رتبة قال للذي على يمينه « السنة أن تعطى فإن أحببت آثرتهم ^(٦) » وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ ^(٧) وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه ^(٨) وأتى بإناء فيه غسل ولبن فأبى أن يشربه وقال « شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد ؟ ^(٩) » ثم قال صلى الله عليه وسلم « لا أحرمة ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله » وكان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاء عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب ^(١٠) وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب ^(١١) .

(١) حديث : وإذا فرغ قال « اللهم لك الحمد أطعمت وأشبعت وسقيت وأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه » أخرجه الطبراني من حديث الحارث بن الحارث بسند ضعيف وإيتبارى من حديث أبي أمامة : كان إذا فرغ من طعامه قال « الحمد لله الذي كفانا وآوانا غير مكفى ولا مكفور » وقال مرة « الحمد لله ربنا غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » (٢) حديث : كان إذا أكل الخبز والأهم خاصة غسل يديه غسلًا جيدًا ثم يمسح بفضله الماء على وجهه » أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف من أكل من هذه الأجر شيئاً فليشرب يده من ريع وضرة لا يؤذى من حذاه » (٣) حديث : كان يشرب في ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورجاله ثقات ومسلم من حديث أنس : كان إذا شرب بنفس ثلاثاً . (٤) حديث : كان يمس الماء مصا ولا يعب عبا . أخرجه البخاري والطبراني وابن عدى وابن قانع وابن منده وأبو نعيم في الصحابة من حديث بهز : كان يستاك عرضاً ويشرب مصا . والطبراني من حديث أم سلمة : كان لا يعب . ولأبي الشيخ من حديث ميمونة : لا يعب ولا يلهث . وكلها ضعيفة . (٥) حديث : كان يدفع فضل سؤره إلى من عن يمينه . متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث : استئذنه من على يمينه إذا كان من على يساره أجل رتبة . متفق عليه من حديث سهل بن سعد . (٧) حديث : شربه بنفس واحد . أخرجه أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف وللحاكم من حديث أبي قتادة وصححه « إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد » ولعل تأويل هذين الحديثين على ترك التنفس في الإناء والله أعلم . (٨) حديث : كان لا يتنفس في الإناء حتى ينحرف عنه . أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة « ولا يتنفس أحدكم في الإناء إذا شرب منه ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم ليتنفس » وقال حديث صحيح الإسناد .

(٩) حديث : أتى بإناء فيه غسل ولبن فأبى أن يشربه وقال « شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد ... الحديث » رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « شربتان في شربة » إلى آخره وسنده ضعيف . (١٠) حديث : كان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاء عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب » رواه الفيضان من حديث أبي سعيد : كان أشد حياء من العذراء في خيرها ... الحديث . وقد تقدم ، وأما كونه كان لا يسألهم طعاماً فإنه أراد أى طعام بعينه من حديث عائشة : أنه قال ذات يوم « يا عائشة هل عندكم شيء ؟ » قالت : فقلت ما عندنا شيء ؟ الحديث وفيه : فلما رجع قلت : أهديت لنا هدية ، قال « ماهو ؟ » قلت : حيس ، قال « هاتيه » وفي رواية « قريه » وفي رواية للنسائي « أصبح عندكم شيء تطعميني ؟ » ولأبي داود « هل عندكم طعام ؟ » والترمذي « أعندك غداء ؟ » وفي الصحيحين من حديث عائشة : فدعا بطعام فأبى فخبز وأدم من أدم البيت فقال « ألم أر برمة على النار فيها لحم ؟ .. الحديث » وفي رواية لمسلم « لو صنعت لنا من هذا اللحم ... الحديث » فليس في قصة بربرة إلا الاستفهام والرضا . والحكمة فيه بيان الحكم لا التفضي والله أعلم . ولأبي داود من حديث أم هانئ : جاءت الوليدة بإناء فيه شراب فتناوله فشرب منه . وإسناده حسن . (١١) حديث : وكان ربما قام فأخذ ما يأكل أو يشرب بنفسه . أخرجه أبو داود من حديث أم المنذر بنت قيس . دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ففصر ومعه على - وعلى ناقه - ولنا دوال معلقة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منها ... الحديث . وإسناده حسن والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث كبشة : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ففصر من في قرية معلقة قائماً ... الحديث .

كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك ^(١) وكان يعجبه الثياب الخضر ^(٢) وكان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب ^(٣) وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه ^(٤) وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق السكعين ويكون الأزار فوق ذلك إلى نصف الساق ^(٥) وكان قميصه مشدود الأزار وربما حل الأزار في الصلاة وغيرها ^(٦) وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها ^(٧) وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره ^(٨) وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول « إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » ^(٩) وكان له ثوبان

(١) حديث : كان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قيس أوجبة أو غير ذلك . أخرجه الشيخان من حديث عائشة . أنها أخرجت إزارا مما يصنع باليمن وكساء من هذه الملبدة فقالت في هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية : لمزارا غليظا . ولها من حديث أنس : كنت أمتى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجراني غليظ الخاشية ... الحديث . لفظ مسلم وقال البخاري برد نجراني . وابن ماجه بسند ضعيف من حديث ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قيصا قصير اليدن والطول . وأبو داود والترمذي وحسنه . والنسائي من حديث أم سلمة : كان أحب الثياب للرسول الله صلى الله عليه وسلم القميص . ولأبني داود من حديث أسماء بنت يزيد : كانت يد قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرسغ . وفيه شهر ابن حوشب مختلف فيه وتقدم قبل هذا الحديث حديث : الجبة والشملة والحبرة . (٢) حديث : كان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس « خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » قال الحاكم : صحيح الإسناد وله لأصحاب السنن من حديث سمرة « عليكم بهذه الثياب البياض فليلبسها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » انظر الحاكم وقال صحيح علي شرط الشيخين وقال الترمذي حسن صحيح .

(٣) حديث « كان يلبس القباء المحمو للحرب وغير الحرب » أخرجه الشيخان من حديث المسور بن مخرمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه أبنية من ديباج مزرر بالذهب ... الحديث . وليس في طرق الحديث لبسها إلا في طريق علقها البخاري قال : نفرج . وعليه قباء من ديباج مزررة بالذهب ... الحديث . الحديث . ليس من حديث جابر : لبس النبي صلى الله عليه وسلم يوماً قباء من ديباج أهدي له ثم نزع ... الحديث . (٤) حديث كان له قباء سندس فيلبسه ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أنس : أن أكيدر دومة أهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم جبة سندس أو ديباج قبل أن ينهى عن الحرير فلبسها . والحديث في الصحيحين وليس فيه أنه لبسها وقال فيه : وكان ينهى عن الحرير وعند الترمذي وصححه النسائي أنه لبسها ولو سكنه قال : بحجة ديباج منسوجة فيها الذهب (٥) حديث : كان ثيابه كلها مشمرة فوق السكبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق رواه أبو الفضل محمد بن طاهر في كتاب صفوة التصوف من حديث عبد الله بن يسر : كانت ثيابه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمزازه فوق السكبين وقيصه فوق ذلك ورداؤه فوق ذلك وإسناده ضعيف والحاكم وصححه من حديث ابن عباس : كان يلبس قيصاً فوق السكبين ... الحديث وهو عنده بلفظ : قيصاً قصير اليدين والطول وعمدهما والترمذي في المعالي من رواية الأشعث قال : سمعت عمتي تحدث عن عمها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وفيه : فإذا لمزازه إلى نصف ساقه ورواه النسائي وسمى الصحابي عبيد بن خالد واسم عمه الأشعث وهم بيت الأسود ولا يعرف (٦) حديث : كان قيصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها أبو داود والبيهقي والترمذي في المعالي من رواية معاوية بن قررة بن إياس عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في رهط من مزينة وبأبناؤه وإن قيصه لمطابق الأزرار . والبيهقي من رواية زيد بن أسلم قال : رأيت ابن عمر يصلي بمحاولة أزراره فسألته عن ذلك فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل . وفي اللؤلؤ للترمذي أنه سأله البخاري عن هذا الحديث فقال : أنا أتقي هذا المنيح كأن حديثه موضوع يعني زهير بن محمد رواه عن زيد بن أسلم قلت تابعه عليه الوليد بن مسلم عن زيد رواه ابن خزيمة في صحيحه ، والطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي محتبياً محلل الأزرار (٧) حديث : كان له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها أخرجه أبو داود والترمذي من حديث قيلة بنت مخرمة قالت : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه أسمال ملاءتين كانتا يزعفران قال الترمذي لا يعرفه إلا من عبد الله بن حسان . قلت ورواه موقوف وأبو داود من حديث قيس بن سعد فاغتسل ثم ناوله أبي سعد ملحفة مصبوغة زعفران أو ورس فاشتعل بها الحديث ورحاله تمات .

(٨) حديث : ربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره رواه ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ثابت بن العامت : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في بيتي عبد الأشهل وعليه كساء متلف به ... الحديث . وفي رواية البزار في كساء (٩) حديث : كان له كساء ملبد بلبسه ويقول « أنا عبد أليس كما يلبس العبد » أخرجه الشيخان من رواية أبي ردة قال : أخرجت النسا عائشة كساء ملبد

لجمعة خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة ^(١) وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ^(٢) وربما أم به الناس على الجنائز ^(٣) وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصقا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ ^(٤) وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدى ببعض الثوب مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه فيصلى كذلك ^(٥) ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة : بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود ؟ فقال «كسوته» فقالت ما رأيت شيئا قط كان أحسن من يياضك على سواده ^(٦) وقال أنس : وربما رأيته يصلى بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيه ^(٧) وكان يتختم ^(٨) وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء ^(٩) وكان يختم به على الكتف ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة ^(١٠) وكان يلبس القلانس تحت العمامة وبغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى ليلها ^(١١) وربما لم تكن العمامة فيشد العصاة

= وإزارا غليظا فقالت : في هذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبخاري من حديث عمر « أنما أنا عبد » ولعبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب السخيتاني مرفوعا معضلا « أنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة . مقصلا .

(١) حديث : كان له ثوبان لجمعة خاصة ... الحديث . أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد : فإذا انصرف طويتهما إلى مثله . ويرد حديث عائشة عند ابن ماجه : ما رأيته يسب أحدا ولا يطوى له ثوب .

(٢) حديث : ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره فقد طرفيه بين كتفيه . أخرجه الشيخان من حديث عمر في حديث اغتراله أهله : فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره . وللبخاري من رواية محمد بن المنكدر صلى بنا جابر في إزار قد عقده من قبل قفاه وثيابه موضوعه على المشجب وفي رواية له وهو يصلى في ثوب ملتصقا به ورداؤه موضوع وفيه : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلى هكذا (٣) حديث : ربما أم به الناس على الجنائز . لم أقف عليه (٤) حديث : ربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصقا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث معاوية قال : دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في ثوب واحد فقلت : يا أم حبيبة أبعث النبي صلى الله عليه وسلم في الثوب الواحد ؟ قالت : نعم ، وهو الذي كان فيه ما كان - تعني الجماع - ورواه الطبراني في الأوسط .

(٥) حديث : ربما كان يصلى بالليل ويرتدى ببعض الثوب مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه . أخرجه أبو داود من حديث عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في ثوب بعضه على . ولمسلم : كان يصلى من الليل وأنا إلى جنبه وأنا حاض وهو مرط بعضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبخاري في الأوسط من حديث أبي عبد الرحمن حاض عائشة : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة يصليان في ثوب واحد نصفه على النبي صلى الله عليه وسلم ونصفه على عائشة . وسنده ضعيف .

(٦) حديث : كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة : بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء ؟ ... الحديث . لم أقف عليه من حديث أم سلمة . ولمسلم من حديث عائشة : خرج النبي صلى الله عليه وسلم وعليه مرط مرط أسود . ولأبي داود والنسائي : صنعت للنبي صلى الله عليه وسلم بردة سوداء من صوف فلبسها ... الحديث . وزاد فيه ابن سعد في الطبقات : فذكرت يياض النبي صلى الله عليه وسلم وسوداها ورواه الحاكم بلفظ : جبة . وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث أنس . وربما رأيته يصلى بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيه . أخرجه البزار وأبو يعلى بلفظ : صلى بثوب واحد وقد خالف بين طرفيه . وللبزار : خرج في مرضه الذي مات فيه مرتديا بثوب قطن فضلى بالناس ولأسناده صحيح . وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت : صلى في شملة قد عقد عليها . وفي كامل ابن عدي : قد عقد عليها هكذا - وأشار سفيان إلى قفاه - وفي جزء الطبري : فقدها في عنقه ماعليه غيرها . ولأسناده ضعيف (٨) حديث : كان يتختم . أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر وأنس (٩) حديث : ربما خرج وفي خاتمه خيط مرط يتذكر به الشيء . أخرجه ابن عدي من حديث وائلة بسند ضعيف : كان إذا أراد الحاجة أوثق في خاتمه خيطا . وزاد الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث ابن عمر : ليذكره به . وسنده ضعيف .

(١٠) حديث : كان يختم به على الكتف ويقول « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » أخرجه الشيخان من حديث أنس : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى الروم قالوا : لهنم لا يقرءون إلا كتابا محتوما فاتخذ خاتما من فضة ... الحديث . والنسائي والترمذي في الثماني من حديث ابن عمر : اتخذ خاتما من فضة كان يختم به ولا يلبسه . وسنده صحيح وأما قوله « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » فلم أقف له على أصل . (١١) حديث : كان يلبس القلانس تحت العمامة وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى ليلها » أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قلنسوة بيضاء . ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث قلانس . قلنسوة بيضاء مضرية وقلنسوة برد حبرة وقلنسوة ذات آذان يلبسها في السفر وربما وضعها بين يديه إذا صلى =

على رأسه وعلى جبهته ^(١) وكانت له عمامة تسمى : السحاب ، فوهبها من على فربما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم : « أنا كم على في السحاب » ^(٢) ، وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ^(٣) ويقول : الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتي وأتجمل به في الناس ^(٤) ، وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره ^(٥) وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول : « ما من مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا الله إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واره حيا وميتا » ^(٦) ، وكان له فراش من آدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه ^(٧) وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل ثني طاقتين تحته ^(٨) وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره ^(٩) . وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه ، وكان اسم رايته : العقاب . واسم سيفه الذي يشهده بالحروب : ذو الفقار . وكان له سيف يقال له : الخدم . وآخر يقال له : الرسوب . وآخر يقال له : القضيبي . وكانت قبضة سيفه محلاة بالفضة ^(١٠) .

= وإسنادهما ضعيف ولأبي داود والترمذي من حديث ركاة « فرق ما بيننا وبين المشركين العمام على القلائس » قال الترمذي : غريب وليس إسناده بالقائم . (١) حديث : ربما لم تكن العمامة فيشد المصابة على رأسه وعلى جبهته . أخرجه من حديث ابن عباس صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر وقد عصب رأسه بمصابة دسما ... الحديث . (٢) حديث : كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على فربما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم : « أنا كم على في السحاب » أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جدا ولأبي نعيم في دلائل النبوة من حديث عمر في أثناء حديث : عمامته السحاب ... الحديث . (٣) حديث : كان إذا لبس ثوبا يلبسه من قبل ميامنه . أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ورجاله رجال الصحيح وقد اختلف في رفعه . (٤) حديث « الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتي وأتجمل به في الناس » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب . (٥) حديث : كان إذا نزع ثوبه خرج من مياسره . أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان إذا لبس شيئا من الثياب بدأ بالأيمن وإذا نزع بدأ باليسار . وله من حديث أنس : كان إذا ارتدى أو ترجل أو اتعل بدأ يمينه وإذا خلع بدأ بيساره . وسندهما ضعيف وهو في الانتحال في الصحيحين من حديث أبي هريرة من قوله لا من فعله . (٦) حديث : كان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول « ما من مسلم يكسو مسلما » . الحديث « أخرجه الحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب من حديث عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بثيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال « الحمد لله الذي كساني ما أتجمل به في حياتي وأوارى به عورتي » ثم قال « ما من مسلم يلبس ثوبا جديدا ... الحديث » دون ذكر : تصدقه صلى الله عليه وسلم بثيابه وهو عند الترمذي وابن ماجه ودوز ذكر لبس النبي صلى الله عليه وسلم لثيابه وهو أصح وقد تقدم قال البيهقي وهو غير قوي .

(٧) حديث : كان له فراش من آدم حشوه ليف ... الحديث . متفق عليه من حديث عائشة مقتصرا على هذا دون ذكر : عرضه وطوله . ولأبي الشيخ من حديث أم سلمة . كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم نحو ما يوضع الإنسان في قبره . وفيه : من لم يسم . (٨) حديث : كانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تفرش طاقتين تحته . أخرجه ابن سعد في الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة : دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية ... الحديث . ولأبي سعيد عنها : أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين ... الحديث وكلاما لا يصح والترمذي في المعاني من حديث حفصة : ومثلت ما كان فراشه ؟ قالت : مسح ثنيتين فينام عليه ... الحديث . وهو منقطع (٩) حديث : كان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره . متفق عليه من حديث عمر : في قصة اعتزال النبي صلى الله عليه وسلم نساءه . (١٠) حديث : كان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي يشهده بالحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له الخدم وآخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيبي وكان قبضة سيفه محلاة بالفضة . أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف قائمته من فضة وقيعته من فضة وكان يسمى ذا الفقار وكانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجعم وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول وكانت له حرب تسمى النبعة وكانت له مجن تسمى الدفن وكان له ترس أبيض يسمى موجزا وكان له فرس أدهم يسمى السكب وكان له سرج يسمى الداج المؤخر وكان له بئلة شبيهة يقال له الدليل وكانت له ناقة تسمى القصواء وكان له حمار يسمى مقفور وكان له بساط يسمى الكرو وكانت له عنزة تسمى الثمر وكانت لها ركوة تسمى الصادر وكانت له امرأة تسمى المرأة وكان له مقراض يسمى الجامع وكان له قضيب شوحط يسمى المشوق . وفيه على بن غررة الدمشقي نسب إلى وضع الحديث ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف : كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء تسمى العقاب . ورواه أبو الشيخ من حديث الحسن مرسل وله من حديث علي بن أبي طالب : كان اسم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذو الفقار . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم تنقل سيفه ذو الفقار يوم بدر =

وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة ^(١) وكان اسم قوسه : الكتوم . وجعبته الكافور ^(٢) وكان اسم ناقته : القصواء ، وهي التي يقال لها : العضباء - واسم بفلته : الدليل : وكان اسم حماره يعفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة ^(٣) وكان له مطهرة من نثار يتوضأ فيها ويشرب منها ^(٤) فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدفعون عنه فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم ويبتغون بذلك البركة .

بيان عفوه صلى الله عليه وسلم مع قدرته

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ^(٥) وأرغبهم في العفو مع القدرة حتى أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال : يا محمد والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل : فقال : ويحك فمن يعدل عليه بعدى ، فلما ولي قال : ردوه على رويدها ^(٦) ، روى جابر : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال فقال له رجل : يا رسول الله أعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ^(٧) : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرب فرأوا من المسلمين غزاة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : الله ، فقال : فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : من يمنعك مني ؟ فقال : كن خير آخذ قال : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله : فقال : لا ، غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك

= والحاكم من حديث علي في أثناء حديث وسيفه ذو الفقار وهو ضعيف ولا بن سعد في الطبقات من رواية مروان بن أبي سعيد ابن المولى مرسل قال : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاح بني قينقاع ثلاثة أسياف : سيف قلبي وسيف يدعى بئارا وسيف يدعى الخنث ، وكان عنده بعد ذلك الخنث ورسوب أصابهما من القمل وفي سنده الواقدي وذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه : أنه يقال إنه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ومعه سيفان يقال لأحدهما العضباء وشهد به بدرًا ولأبي داود والترمذي وقال حسن والنسائي وقال منكر من حديث أنس : كانت قبعة سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فضة . (١) حديث : كان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة لم أقف له على أصل : ولا بن سعد في الطبقات وأبي الشيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسل : كان في درع النبي صلى الله عليه وسلم حلقتان من فضة . (٢) حديث : كان اسم قوسه الكتوم وجعبته الكافور . لم أجد له أصلاً وقد تقدم في حديث ابن عباس : أنه كانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وقال ابن أبي خيثمة في تاريخه : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من سلاح بني قينقاع ثلاثة قسي : قوس اسمها الروحاء ، وقوس شوخط تدعى البيضاء ، وقوس صفراء تدعى الصفراء ؟ من سيع .

(٣) حديث : كان اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها العضباء واسم بفلته الدليل واسم حماره يعفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة . تقدم بعضه من حديث ابن عباس عند الطبراني ، والبخاري من حديث أنس : كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة يقال لها العضباء . ولمسلم من حديث جابر في حجة الوداع : ثم ركب القصواء والحاكم من حديث علي : ناقته القصواء وبفلته دليل وحماره عفير ... الحديث . ورويناه في فوائد ابن الدحداح فقال : حماره يعفور وفيه شاته بركة والبخاري من حديث معاذ : كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له : عفير ، ولا بن سعد في الطبقات من رواية إبراهيم بن عبد الله من ولد عتبة بن غزوان : كانت مناج رسول الله صلى الله عليه وسلم من النعم سبعا : بحجة وزمزم وسقيا وبركة ورشة وأطراف . وفي سنده الواقدي وله من رواية مكحول مرسل : كانت له شاة تسمى قر (٤) حديث : كانت له مطهرة من نثار يتوضأ منها ويشرب فيها : الحديث . لم أقف له على أصل .

بيان عفوه مع القدرة

(٥) حديث : كان أحلم الناس . تقدم (٦) حديث : أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه .. الحديث أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد (٧) حديث جابر : أنه كان يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال له رجل : يابني الله أعدل ... الحديث . رواه مسلم

ولأكون مع قوم يقتلونك ، غلى سبيله ، فجاء أصحابه فقال : جئكم من عند خير الناس ^(١) وروى أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ليأكل منها فجاء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت . أردت قتلك ؛ فقال : ما كان الله ليسلطك على ذلك : قالوا : أفلا تقتلها ؟ فقال : لا ^(٢) : وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحل العقد فوجد لذلك خفة وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط ^(٣) وقال على رضى الله عنه : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا الزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها : فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا أخرجى الكتاب فقالت : مامعى من كتاب فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنزعن الثياب ، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل على أنى كنت امرا ملصقا فى قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتدادا عن ديني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم : فقال عمر رضى الله عنه : دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ^(٤) : وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ؟ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه وقال : رحم الله أخى موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر ^(٥) : وكان صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأسلم الصدر ^(٦) .

بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه

كان رسول الله رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه ورضاه ^(٧) وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ^(٨) وكان لا يشافه أحد بما يكرهه دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم : لو قلتم لهذا أن يدع هذه ^(٩) : يعنى الصفرة . وبال أعرابي في المسجد بحضرته فهم به

(١) حديث : كان في حرب قرؤى في المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ... الحديث متفق عليه من حديث جابر بنحوه وهو في مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وسمى الرجل غورث بن الحارث .
(٢) حديث أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ... الحديث رواه مسلم وهو عند البخارى من حديث أبى هريرة .
(٣) حديث : سحره رجل من اليهود فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه ... الحديث . أخرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره في الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر .
(٤) حديث على : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد وقال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ » ... الحديث « متفق عليه » (٥) حديث : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود .
(٦) حديث « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث ابن مسعود وقال غريب من هذا الوجه .

بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما يكرهه

(٧) حديث : كان رقيق البشرة لطيف الظاهر يعرف في وجهه غضبه أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف رضاه وغضبه بوجهه ... الحديث . وقد تقدم .
(٨) حديث : كان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ... الحديث . وقد تقدم أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة بإسناد حسن .
(٩) حديث : كان لا يشافه أحد بما يكرهه . دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهه فلم يقل شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم « لو قلتم لهذا أن يدع هذه » يعنى الصفرة أخرجه أبو داود والترمذى في المعامل والنسائي في اليوم واليلة من حديث أنس وإسناده ضعيف .

الصحابه فقال صلى الله عليه وسلم « لا تزرموه » ، أى لا تقطعوا عليه البول ثم قال له « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القدر والبول والخلاء »^(١) ، وفى رواية « قزبوا ولا تنفروا » . وجاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له « أحسنت إليك » ، قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت ، قال : فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال « أحسنت إليك » ، قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابي شيء من ذلك فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى كذلك ؟ » ، فقال الأعرابي : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن مثلى ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقةي فإنى أرفق بها وأعلم فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قام الأرض فردها هونا حتى جاءت واستناخت وشدد عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار »^(٢) .

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأسخاهم وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئا^(٣) وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أرقبه ولا بعده مثله^(٤) وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه^(٥) وأن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وما سئل شيئا قط فقال لا^(٦) وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فصار دنانيرا حتى فرغ منها^(٧) وجاء رجل فسأله فقال « ما عندى شيء ولكن اتبع على فإذا جاء ما شيء قضيناه » فقال عمر : يا رسول الله ما لك فكفك الله ما لا تقدر عليه ففكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل : أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا ، فتبسم النبي صلى الله

(١) حديث : بال أعرابي فى المسجد بحضرته فقال صلى الله عليه وسلم « لا تزرموه ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس .

(٢) حديث : جاء أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « أحسنت إليك » فقال الأعرابي : لا ، ولا أجملت .. الحديث . بطوله أخرجه البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث : كان أجود الناس وأسخاهم وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة . أخرجه الشيخان من حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس . ولهما من حديث ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان . وفيه : فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة . (٤) حديث : كان على إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأجرأ الناس صدرا ... الحديث . رواه الترمذى وقال ليس له إسناد .

(٥) حديث : ما سئل شيئا قط على الإسلام إلا أعطاه ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث : ما سئل شيئا قط فقال : لا ، متفق عليه من حديث جابر . (٧) حديث : حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فصار دنانيرا حتى فرغ منها . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك فى الصمائل من حديث الحسن مرسل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال من البحرين ثمانون ألفا لم يقدم عليه مال أكثر منه ، لم يسأله يومئذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلا ولم يبط ساكنا فقال له العباس ... الحديث . وللبخارى تعليقاً من حديث أنس : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وفيه : فما كان يرى أحدا إلا أعطاه إذ جاءه العباس ... الحديث ووصله عمر بن محمد البحرى فى صحيحه .

عليه وسلم وعرف السرور في وجهه ^(١) ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاء لعمى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ^(٢) » .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أنجد الناس وأشجعهم ^(٣) قال علي رضي الله عنه : لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ^(٤) وقال أيضاً : كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ^(٥) قيل : وكان صلى الله عليه وسلم قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر الناس بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأساً ^(٦) وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو ^(٧) وقال عمران بن بن حصين : مالتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب ^(٨) وقالوا : كان قوى البطش ^(٩) ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب : » فما رأى يومئذ أحد كان أشد منه ^(١٠)

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعاً في علو منصبه ^(١١) قال ابن عامر : رأيت يرمى الجرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك ^(١٢) وكان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف ^(١٣) وكان يعود

(١) حديث : جاء رجل فسأله فقال « ما عندي شيء ولكن اتبع على فإذا جاءنا شيء قضينا » فقال عمر : يا رسول الله ما سألوك الله . . . الحديث أخرجه الترمذى في المعجمين من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة القروى لم يروه غير ابنه هرون .
(٢) حديث : لما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه . . . الحديث . أخرجه البخارى من حديث جابر بن مطعم .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث : كان أنجد الناس وأشجعهم . أخرجه الداريمى من حديث ابن عمر بسند صحيح : ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللشيخين من حديث أنس : كان أشجع الناس وأحسن الناس . . . الحديث
(٤) حديث على : لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم . . . الحديث . أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد جيد . (٥) حديث على أيضاً . كنا إذا حمى البأس ولقى القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . . الحديث . أخرجه النسائى بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء . (٦) حديث . كان قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر بالقتال تشمر . . . الحديث أخرجه أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض التميمى مرسلاً . (٧) حديث . كان الشجاع هو الذى يقرب منه في الحرب . . . الحديث . أخرجه مسلم من حديث البراء : والله إذا حمى الوطيس نتقى به وإن الشجاع منا الذى يخاض به . (٨) حديث عمران بن حصين . مالتى كتيبة إلا كان أول من يضرب . أخرجه أبو الشيخ أيضاً وفيه من لم أعرفه . (٩) حديث . كان قوى البطش . أخرجه أبو الشيخ أيضاً من رواية أبى جعفر معضلاً والمطهرى في الأوسط من حديث عبد الله بن عمرو « أعطيت قوة أربعين فى البطش والجماع » وسنده ضعيف . (١٠) حديث . لما غشيه المشركون نزل فجعل يقول « أنا النبي لا كذب . . . الحديث » متفق عليه من حديث البراء دون قوله . فما رأى أحد يومئذ أشد منه . وهذه الزيادة لأبى الشيخ وله من حديث على في قصة بدر . وكان من أشد الناس يومئذ بأساً .

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

(١١) حديث : كان أشد الناس تواضعاً في علو منصبه أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث أبى سعيد الخدرى في حديث طويل في صفته قال فيه : متواضع في غير مذلة . وإسناده ضعيف . (١٢) حديث : قال ابن عامر رأيت يرمى الجرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك . أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث قدامة بن عبد الله بن عمار قال الترمذى حسن صحيح وفي كتاب أبى الشيخ قدامة بن عبد الله بن عامر كذا ذكره المصنف . (١٣) حديث : كان يركب الحمار =

المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك ^(١) ويخفف النعل ويرقع الثوب وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم ^(٢) وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك ^(٣) وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ^(٤) وأتى صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيئته فقال له : هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ^(٥) وكان يجلس بين أصحابه محتلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدرى أيهم هو ؟ حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب فنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه ^(٦) وقالت له عائشة رضي الله عنها كل - جعلني الله فداك - متكئا فإنه أهون عليك قال : فأصغى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ثم قال : بل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ^(٧) : وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق بالله تعالى ^(٨) وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال : لييك ^(٩) : وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقا بهم وتواضعاهم ^(١٠) وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا ولا يجرهم إلا عن حرام ^(١١) .

بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم

وكان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ، ومع ذلك فلم يكن يمشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولربما اكتشفه الرجال الطويلان فيطولها فإذا فارقه نسا إلى الطول ونسب هو عليه السلام إلى الربعة ويقول صلى الله عليه وسلم : جعل الخير كله في الربعة ^(١٢) .

= موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف . متفق عليه من حديث أسامة بن زيد . (١) حديث : كان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك . أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصححه إسناده من حديث أنس وتقدم منقطعا . (٣) حديث : كان يخفف النعل ويرقع الثوب ويصنع في بيته مع أهله في حاجته . هو في السند من حديث عائشة وقد تقدم في أوائل آداب المديشة . (٣) حديث : كان أصحابه لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك : هو عند الترمذي من حديث أنس وصححه وتقدم في آداب الصحبة . (٤) حديث : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم . متفق عليه من حديث أنس وتقدم في آداب الصحبة . (٥) حديث : أتى برجل فأرعد من هيئته فقال « هون الله عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » أخرجه الحاكم من حديث جرير وقال صحيح على شرط الشيخين . (٦) حديث : كان يجلس مع أصحابه محتلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدرى أيهم هو ؟ ... الحديث . أخرجه أبو داود واللساني من حديث أبي هريرة وأبي ذر وقد تقدم . (٧) حديث : ثلاث عائشة كل - جعلني الله فداك - متكئا فإنه أهون عليك ... الحديث . أخرجه أبو الشيخ من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عنها بسند ضعيف . (٨) حديث : كان صلى الله عليه وسلم لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى أتى الله أخرجه البخاري من حديث أنس وتقدم في آداب الأكل . (٩) حديث : وكان صلى الله عليه وسلم لا يدعوه أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال « لييك » أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة وفيه حسين بن علوان منهم بالكذب وللعطرائي في الكبير بإسناد جيد من حديث محمد بن حاطب في أنباء حديث : أن أمة قالت يارسول الله فقال « لييك وسمديك » الحديث (١٠) حديث : كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم ... الحديث . أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث زيد بن ثابت دون ذكر : الشراب ، وفيه سليمان بن خازمة تفرد عنه الوليد بن أبي الوليد وذكره ابن حبان في الثقات . (١١) حديث : كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون قوله : ولا يجرهم إلا عن حرام .

بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم

(١٢) حديث : كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ... الحديث بطوله . أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة بزيادة وتضمن دون شعر أبي طالب الآتي ودون قوله : وربما جعل شعره =

وأما لونه فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض. والأزهر هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان ، ونعته عمه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل ^(١)

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة فقالوا : إنما كان المشرب منه بالحمرة مظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة والأزهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه . وكان عرقه صلى الله عليه وسلم في وجهه كاللؤلؤ أطيّب من المسك الأذفر .

وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنه ليس بالسبط ولا الجعد القلط وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل . وقيل : كان شعره يضرب منكبيه وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه . وربما جعله غداً أربعاً تخرج كل أذن من بين غديرتين . وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوائفه تتلألاً . وكان شبيه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة ، مازاد على ذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأنورهم لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته ، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث يقول :

أمين مصطفي للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان صلى الله عليه وسلم واسع الجبهة أزج الحاجبين سابغهما وكان أبلغ ما بين الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة ، وكانت عيناه فجلاوين أدعجهما وكان في عينيه تخرج من حمرة ، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها ، وكان أقي العرنيين - أى مستوى الأنف - وكان مفلج الأسنان - أى متفرقها - وكان إذا افترضا حاكاً افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألاً ، وكان من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم ، وكان سهل الخدين صلبهما ليس بالطويل الوح ولا المكثم ، كث اللحية ، وكان يعنى لحيته وبأخذه من شاربته ، وكان أحسن عباد الله عقلاً لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ، مظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهباً يتلألاً في بياض الفضة وفي حمرة الذهب ، وكان صلى الله عليه وسلم عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً كالمرأة في استوائها وكالقمر في بياضه موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره ، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان ، وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخماً الكراديس - أى رموس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين - وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس ، وكان عبل العضدين والذراعين طويل

= على أذنيه فتبدو سوائفه تتلألاً . ودون قوله : وربما كان واسع الجبهة - إلى قوله - وكان سهل الخدين وفيه صبيح بن عبد الله الفرغاني منكر الحديث قال الخطيب . وفي الصحيحين من حديث البراء : له شعر يبلغ شحمة أذنيه وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أم هانئ : قدم إلى مكة وله أربع غداثر والترمذي من حديث علي في صفته صلى الله عليه وسلم : أدمع العينين أهدب الأشفار ... الحديث . وقال ليس لمسانده بمشعل وله في المماثل من حديث ابن أبي هالة : أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوايغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره النضب . أقي العرنيين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية سهل الخدين ضليح الغم مفلج الأسنان ... الحديث

(١) حديث : نعته عمه أبو طالب فقال : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل .

ذكره ابن إسحاق في السيرة وفي المسند عن عائشة : أنها تملك بهذا البيت وأبو بكر يفضي فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه على بن زيد بن جعدان مختلف فيه . وأخرجه البخاري تعليقاً من حديث ابن عمر : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستسقى فما ينزل حتى يحيش كل ميزاب فأشده . وقد وصله بإسناد صحيح .

الزندان رحب الراحتين سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة ، كفه ألين من الخز ، كأن كفه كف عطار طيبا - مسها بطيب أو لم يمسه - يصلح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه ، وكان عبل ماتحت الإزار من الفخذين والساق ، وكان معتدل الخناق في السمن بدن في آخر زمانه وكان لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن .

وأما مشيه صلى الله عليه وسلم فكان يمشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صلب يخطو تكفيا ويمشى الهوينى .
بغير تبختر - والهوينى تقارب الخطأ - وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « أنا أشبه الناس بآدم صلى الله عليه وسلم وكان أبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بي خلقا وخاقا » ، وكان يقول : « إن لي عند ربى عشرة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد » ، وأنا الحاشى يحشر الله العباد على قدمى ، وأنا رسول الرحمة ورسول التوبة ورسول الملاحم والمقنى فقيت الناس جميعا وأنا قسم^(١) ، قال أبو البحرى والقسم الكامل الجامع ، والله أعلم .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم وتألفه أصناف الخلق وقوده لإياهم إلى طاعته مع ما يحكى من عجائب اجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تديراته في مصالح الخلق وعحسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية ، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى أن العربى القح كان يراه فيقول : والله ما هذا وجه كذاب فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده ؟ وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله ؛ إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتبعا ضعيفا مستضعفا ، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحى ؟ ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك ؟ فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية . وقد ظهر من آياته ومعجزاته مالا يستريب فيه محصل ، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل .

فقد خرق الله العادة على يده غير مرة ؛ إذ شق له القمر بمكة لما سأله قريش آية^(٢) وأطعم النفر الكثير في

(١) حديث : أن لي عند ربى عشرة أسماء ... الحديث . أخرجه ابن هدى من حديث على وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة بإسناد ضعيف ، وله ولأبي نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل : لي عند ربى عشرة أسماء . قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية . فذكرها بزيادة ونقص وذكر سيف بن وهب : أن أبا جعفر قال : إن الأسمن طه ويس . وإسناده ضعيف وفي الصحيحين من حديث جبير بن مطعم : لي أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الحاشى وأنا الماحى وأنا العاقب . ولمسلم من حديث أبي موسى : والمقنى ونبي التوبة ونبي الرحمة . ولأحمد من حديث حذيفة : ونبي الملاحم . وسنده صحيح .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

(٢) حديث : انشقاق القمر : متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس .

منزل جابر ^(١) وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق ^(٢) ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق ^(٣) وهو من أولاد المعز فوق العتود ، ومرة أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده ^(٤) ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بذت بشير في يدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم ^(٥) ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش ، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه ^(٦) وأهراق عليه السلام وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ، ومرة أخرى في بئر الحديبية لجاشتا بالماء ؛ فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء ^(٧) وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزود أربعائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربة البعير - وهو موضع بروكه - فزودهم كلهم منه وبقي منه فخبسه ^(٨) ورمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ^(٩) وأبطل الله تعالى الكهانة بمبعثه صلى الله عليه وسلم فعدمت وكان ظاهرة موجودة ^(١٠) وحن الجذع الذي كان يخطب إليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن ^(١١) ودعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه ^(١٢) وهذا مذكور في سورة يقرأ بها في جميع جوامع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة

(١) حديث : إطعام النفر الكثير في منزل جابر . متفق عليه من حديثه .

(٢) حديث : إطعامه النفر الكثير في منزل أبي طلحة . متفق عليه من حديث أنس .

(٣) حديث : إطعامه ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق . أخرجه الإسماعيلي في صحيحه ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة من حديث جابر وفيه أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة وهو عند البخاري دون ذكر العدد وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة وهم ألف . (٤) حديث : إطعامه أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده . أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه : حتى فعل ذلك ثمانين رجلا ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤرا . وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل : حتى أكل منه بضع وثمانون رجلا . وهو متفق عليه بلفظ : والقوم سبعون أو ثمانون رجلا .

(٥) حديث : إطعامه أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها ... الحديث . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحق حدثنا سعيد بن ميناء عن ابنة بدير بن سعد وإسناده جيد . (٦) حديث : تبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر وهم عطاش وتوضؤوا .. الحديث . متفق عليه من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط ولأبي نعيم من حديثه : خرج إلى قباء فأني من بعض بيوتهم بقدر صغير . وفيه : ثم قال « هلم إلى الشرب » قال أنس : بصري نبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القدح حتى رووا منه . وإسناده جيد ولا يزال واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس . كان في سفر فشكا أصحابه العطش فقال « اتقوا بقاء » فأقوه بإلقاء فيه ماء فوضع يده في الماء ينبع من بين أصابعه ... الحديث .

(٧) حديث : لأمره وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى في بئر الحديبية لجاشتا بالماء ... الحديث وأخرجه مسلم من حديث معاذ بقصة عين تبوك ومن حديث سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية وفيه : فإما دعا ولما بصق فيها لجاشت ... الحديث . وللبخاري من حديث البراء : أنه توضأ وصبه فيها . وفي الحديثين معا : أنهم كانوا أربعة عشر مائة وكذا عند البخاري من حديث البراء وكذلك عندهما من حديث جابر ، وقال البيهقي أنه الأصح ولهما من حديثه أيضا : ألف وخمسمائة . ولمسلم من حديث ابن أبي أوفى : ألف وثلثمائة (٨) حديث : أمر عمر أن يزود أربعائة راكب من تمر كان كربة البعير .. الحديث . أخرجه أحمد من حديث النعمان بن مقرن وحديث دكين بن سعيد بإسنادين صحيحين وأصل حديث دكين عند أبي داود مختصرا من غير بيان لعدد (٩) حديث : رمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ... الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع دون ذكر نزول الآية فرواه ابن مردويه في تفسيره من حديث جابر وابن عباس (١٠) حديث : لبطل الكهانة بمبعثه أخرجه الخرائطي من حديث مرداس بن قيس الدوسي قال : حضرت النبي صلى الله عليه وسلم وذكرت عنده الكهانة وما كان من تنييرها عند مخرجه .. الحديث . ولأبي نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس في استراق الجن السمع فيلقونه على أوليائهم : فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم دحروا بالنجوم وأصله عند البخاري بغير هذا السياق (١١) حديث : حنين الجذع أخرجه البخاري من حديث جابر وسهل بن سعد (١٢) حديث : دعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه ... الحديث أخرجه البخاري من حديث ابن عباس : لو أن اليهود تمنوا الموت لما أتوا ... الحديث . والبيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس لا يقولوا رجل منكم إلا غص بريقه فأت مكانه فأبوا أن يفعلوا ... الحديث . وإسناده ضعيف .

- جهرا - تعظيما للكية التي فيها .

وأخبر عليه السلام بالغيوب وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة ^(١) وبأن عمارا تقتله الفئة الباغية ^(٢) وأن الحسن يصلح الله به فئتين من المسلمين عظيمتين ^(٣) وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار ^(٤) فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف ألبتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بنحو ولا بجزر لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه . واتبعه سراقه بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض وأتبعه دغان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس ، وأنذره بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى ^(٥) فكان كذلك وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء البين وأخبر بمن قتله ^(٦) وخرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رءوسهم ولم يروه ^(٧) وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له ^(٨) وقال لنفر من أصحابه مجتمعين « أحذركم في النار ضرسه مثل أحد فاتوا كلهم على استقامة وارتد منهم واحد فقتل مرتدا ^(٩) » وقال لآخرين منهم : آخركم موتا في النار ؛ فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها فمات ^(١٠) ودعا شجرتين فأتاه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا . وكان عليه السلام نحو الربعة فإذا مشى مع الطوال طالمهم ^(١١) ودعا عليه السلام النصاري إلى المباهلة فامتنعوا فعرّفهم صلى الله عليه وسلم أهم إن فعلوا ذلك هلكوا فعلموا صحة قوله فامتنعوا ^(١٢) وأتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله عليه السلام لحيل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بغدة وهلك أربد بصاعقة أحرقته ^(١٣) وأخبر عليه السلام أنه يقتل

(١) حديث : أخبره بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة . متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . (٢) حديث : أخبره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية . أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة وأم سلمة والبخاري من حديث أبي سعيد .

(٣) حديث : أخبره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . أخرجه البخاري من حديث أبو بكر .

(٤) حديث : أخبره عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار . متفق عليه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد .

(٥) حديث : أتباع سراقه بن مالك له في قصة الهجرة فساخت قدما فرسه في الأرض . الحديث . متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق (٦) حديث : أخبره بمقتل الأسود العنسي ليلة قتل وهو بصنعاء البين ومن قتله . وهو مذكور في السير والذي قتله نيروز الديلمي وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « بيا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحى إلي في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فتأوتاهما كذايين يخرجان بدمي » فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء ... الحديث (٧) حديث : خرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رءوسهم ولم يروه . أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه : أنهم كانوا مائة . وكذلك رواه ابن إسحاق من حديث محمد بن كعب القرظي مرسل .

(٨) حديث : شكا إليه البعير وتذلل له . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن جعفر في أثناء حديث وفيه : فإنه شكا لي أنك تحببه وتدبه . وأول الحديث عند مسلم دون ذكر قصة البعير (٩) حديث : قال لنفر من أصحابه « أحذركم ضرسه في النار مثل أحد ... الحديث » ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة بنير لمساند في ترجمة الرجال بن هفيرة وهو الذي ارتد - وهو بالجيم - وذكره عبد الفتى - بالمهمله - وسبقه إلى ذلك الواقدي والمدايني والأول أصح وأكثر كما ذكره الدارقطني وابن ماكولا ووصله الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ : أحد هؤلاء النفر في النار . وفيه الواقدي من عبد الله بن نوح متروك (١٠) حديث : قال لآخرين منهم « آخركم موتا في النار » فسقط آخرهم موتا في نار فاحترق فيها فمات أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل من حديث ابن محذورة وفي رواية البيهقي : أن آخرهم موتا سمرة بن جندب ، لم يذكر أنه احترق ورواه البيهقي من حديث أبي هريرة نحوه ورواته ثقات وقال ابن عبد البر : إنه سقط في قدر مملوء ماء حارا فمات . روى ذلك بإسناد متصل إلا أن فيه داود بن المخبر وقد ضعفه الجمهور (١١) حديث : دعا شجرتين فأتاه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا . أخرجه أحمد من حديث علي بن مرة بسند صحيح (١٢) حديث : دعا النصاري إلى المباهلة وأخبر إن فعلوا ذلك هلكوا فامتنعوا أخرجه البخاري من حديث ابن عباس في أثناء حديث : ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجيئون مالا ولا أهلا (١٣) حديث : أتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله لحيل بينهما وبين ذلك .. الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس بطوله بسند لين .

أبي بن خلف الجمحي تخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته فيه ^(١) .

وأطعم عليه الصلاة والسلام السم فمات الذي أكله معه وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين ، وكله النواع المسموم ^(٢) .

وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجلا رجلا فلم يتعدوا واحدا منهم ذلك الموضع ^(٣) وأنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك ^(٤) وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مازوى له منها فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول المشرق : من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الاندلس وبلاد البربر ولم يتسعوا في الجنوب ولا في الشمال - كما أخبر صلى الله عليه وسلم سواء بسواء ^(٥) . وأخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحاقا به ^(٦) فكان كذلك . وأخبر نساءه بأن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يدا بالصدقة وأولهن لحوقا به رضى الله عنها ^(٧) .

ومسح ضرع شاة لالبن لها قدرت ^(٨) وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضى الله عنه . وفعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية . وندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه السلام بيده فكانت أصح عينيه وأحسنهما ^(٩) وتغل في عين على رضى الله عنه وهو أرمذ يوم خيبر فصيح من وقته وبعثه بالراية ^(١٠) وكانوا يسمعون تسليح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم ^(١١) وأصيب رجل بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم فسحقها بيده فبرأت من حينها ^(١٢) وقل زاد جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع ما بقى فاجتمع شيء يسير جدا فدعا فيه بالبركة ، ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء في العسكر إلا ملئ من ذلك ^(١٣) وحكى الحكم بن العاص بن وائل (*) مشيته

(١) حديث . إخباره أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي تخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية عروة بن الزبير مرسل (٢) حديث : أنه أطعم السم فمات الذي أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين ، وكله النواع المسموم . أخرجه أبو داود من حديث جابر في رواية له مرسل : أن الذي مات بشر بن البراء ، وفي الصحيحين من حديث أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها .. الحديث . وفيه : فماتت أعرفها في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حديث : إخباره صلى الله عليه وسلم يوم بدر بمصارع صناديد قريش .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٤) حديث : إخباره بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك . متفق عليه من حديث أم حرام (٥) حديث : زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مازوى له منها .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٦) حديث : إخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقا به . متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٧) حديث : أخبر نساءه أن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي الصحيحين : أن سودة كانت أولهن لحوقا به قال ابن الجوزي وهذا غلط من بعض الرواة بلا شك .

(٨) حديث : مسح ضرع شاة لالبن لها قدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود . أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود بإسناد جيد (٩) حديث : ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنهما . أخرجه أبو نعيم والبيهقي كلاما في دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان وهو الذي سقطت عينه في رواية للبيهقي : أنه كان ببدر . وفي رواية أبي نعيم : أنه كان بأحد : وفي إسناده اضطراب وكذا رواه البيهقي فيه من حديث أبي سعيد الخدري .

(١٠) حديث : تغل في عين على وهو أرمذ يوم خيبر فصيح من وقته وبعثه بالراية . متفق عليه من حديث علي ومن حديث سهل بن سعد أيضاً . (١١) حديث : كانوا يسمعون تسليح الطعام بين يديه . أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود .

(١٢) حديث : أصيب رجل بعض أصحابه فسحقها بيده فبرأت من حينها . أخرجه البخاري في قصة قتل أبي رافع

(١٣) حديث : قل زاد جيش معه فدعا بما بقى فاجتمع شيء يسير فدعا فيه بالبركة ... الحديث . متفق عليه من حديث سلمة

ابن الأكوع .

(*) قوله : الحكم بن العاص بن وائل هكذا في النسخ وصوابه كما في الشارح الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس اهـ مصححه .

عليه السلام مستهزما فقال صلى الله عليه وسلم : كذلك فكُن : فلم يزل يرتعس حتى مات ^(١) وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها : إن بها برصا - امتناعا من خطبته واعتذارا - ولم يكن بها برص فقال عليه السلام : فلتكن كذلك : ^(٢) فبرصت وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر . إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم ، وإنما اقتصرنا على المسنفين . ومن يستريب في انخراق العادة على يده ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواترا بل المتواتر هو القرآن فقط كمن يستريب في نجاعة على رضى الله عنه وسخاوة حاتم الطائي ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ولكن مجموع الوقائع يورث علما ضروريا ثم لا يتبارى في تواتر القرآن وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق : وليس لنبي معجزة باقية سواه صلى الله عليه وسلم إذ تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ بمائة بالآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم . وكان ينادى بين أظهرهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ^(٣) وقال ذلك تعجيزا لهم فمعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذرايعهم للسبي ، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقا وغربا قرنا بعد قرن وعصرا بعد عصر وقد انقضى اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يقدر أحد على معارضته .

فأعظم بغاوة من ينظر في أحواله ، ثم في أقواله ، ثم في أفعاله ، ثم في أخلاقه ، ثم في معجزاته ، ثم في استمرار شرعه إلى الآن ، ثم في انتشاره في أقطار العالم ، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه وبطئه ثم يتبارى بعد ذلك في صدقه .

وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه في كل ما ورد وصدر فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمته وسعة جوده .

(١) حديث : حكى الحكم بن الباص مشيئة مستهزما به فقال « كذلك فكُن » الحديث « أخرجه البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد وللاحكام في المستدرک من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الإسناد (٢) حديث : خطب امرأة فقال أبوها لن بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ولم يكن بها برص فقال « فلتكن كذلك » فبرصت المرأة . ذكرها ابن الجوزي في التلخيص وصماها جرة بنت الحرث بن عوف المزني وبعه على ذلك الديماطي

فهرس

لجنة النجاشي

من كتاب إحياء علوم الدين
لحجة الإسلام الإمام الغزالي

صحيفة	صحيفة
٤٢ الباب الثالث في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة	٢ كتاب آداب الأكل وهو الأول من ربيع العادات
٥٦ القسم الثاني من هذا الباب النظر في حقوق الزوج عليها	٣ الباب الأول فيما لا بد للنفر دمنه وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه
٦٠ كتاب آداب الكسب والمعاش وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات	القسم الأول في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي سبعة
٦١ الباب الأول في فضل الكسب والحث عليه	٥ القسم الثاني في آداب حالة الأكل
٦٤ الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع الخ وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع	٦ القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام
العقد الأول البيع	٧ الباب الثاني فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة
٦٨ العقد الثاني عقد الربا	٨ الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين
٦٩ العقد الثالث السلم	١٢ الباب الرابع في آداب الضيافة
٧٠ العقد الرابع الإجارة	١٨ فصل يجمع آداباً ومنهاى طبية وشرعية متفرقة
٧١ العقد الخامس القراض	٢١ كتاب آداب النكاح وهو الكتاب الثاني من ربيع العادات
٧٣ العقد السادس الشركة	٢١ الباب الأول في الترغيب في النكاح والترغيب عنه
٧٣ الباب الثالث في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة	الترغيب في النكاح
القسم الأول فيما يعم ضرره وهو أنواع	٢٤ ما جاء في الترهيب عن النكاح
٧٤ القسم الثاني ما يخص ضرره المعامل	٢٥ آفات النكاح وفوائده
٧٩ الباب الرابع في الإحسان في المعاملة	٢٦ الباب الثاني فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد
٨٣ الباب الخامس في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته	

صحيفة	صحيفة
١٤٢ الباب السادس فيما يحل من غناطة السلاطين	٨٨ كتاب الحلال والحرام
الظلة ويحرم وحكم غشيان مجالسهم	وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات
والدخول عليهم والإكرام لهم	٨٩ الباب الأول في فضيلة الحلال ومذمة
١٥٣ الباب السابع في مسائل متفرقة يكثرمسيس	الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته
الحاجة إليها قد سئل عنها في الفتاوى	وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه
١٥٧ كتاب آداب الألفة والأخوة	فضيلة الحلال ومذمة الحرام
والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق وهو	٩٢ أصناف الحلال ومداخله
الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني	القسم الأول الحرام لصفة في عينه الخ
وفيه ثلاثة أبواب	٩٣ القسم الثاني ما يحرم لحلال في جهة لإثبات
١٥٧ الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة	اليد عليه
وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها	٩٤ درجات الحلال والحرام
فضيلة الألفة والأخوة	٩٥ أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا
١٦١ بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من	٩٨ الباب الثاني في مراتب الشبهات ومنازلها
الأخوة في الدنيا	وتمييزها عن الحلال والحرام
١٦٦ بيان البعض في الله	٩٩ المنازل الأول الشك في السبب المحلل والمحرم
١٦٨ بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية	١٠٢ المنازل الثاني للشبهة شك مشدود الاختلاط
معاملتهم	١١٠ المنازل الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب المحلل
١٥٧ بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته	معصية
١٧٣ الباب الثاني في حقوق الأخوة والصحبة	١١٥ المنازل الرابع الاختلاف في الأدلة
الحق الأول في المال	١١٨ الباب الثالث في البحث والسؤال والمجزم
١٧٥ الحق الثاني في الإعانة بالنفس الخ	والإهمال ومظانها
١٧٦ الحق الثالث في اللسان بالسكوت الخ	المنازل الأول أحوال المالك
١٨٠ الحق الرابع على اللسان بالنطق	١٢١ المنازل الثاني ما يستند الشك فيه إلى سبب
١٨٣ الحق الخامس العفو عن الزلات والحقوات	المال لا في حال المالك
١٨٦ الحق السادس الدعاء للأخ في حياته الخ	١٢٧ الباب الرابع في كيفية خروج التائب عن
١٨٧ الحق السابع الوفاء والإخلاص	المظالم المالية وفيه نظران
١٨٨ الحق الثامن التخفيف وترك التكلف الخ	النظر الأول في كيفية التمييز والإخراج
١٩٢ خاتمة لهذا الباب نذكر فيها جملة الخ	١٣٠ النظر الثاني في المصرف
١٩٣ الباب الثالث في حق المسلم والرحم والجوار	١٣٥ الباب الخامس في إدارات السلاطين
والمالك وكيفية المعاشرة مع من يدلى بهذه	وما يحل منها وما يحرم وفيه نظران
الأسباب	١٣٥ النظر الأول في جهات الدخول للسلطان
١٩٤ حقوق المسلم	١٣٩ النظر الثاني من هذا الباب في قدر المأخوذ
٢١٢ حقوق الجوار	وصفة الآخذ

صحيفة	صحيفة
٢٤٥ الباب الأول في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائده وفيه فصلان الفصل الأول في فوائد السفر وفضله ونيته	٢١٥ حقوق الأقارب والرحم
٢٥١ الفصل الثاني في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدبا	٢١٦ حقوق الوالدين والولد
٢٥٧ الباب الثاني فيما لا بد للسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات الخ	٢١٩ حقوق المملوك
القسم الأول العلم برخص السفر	٢٢١ كتاب آداب العزلة
القسم الثاني ما يتجدد من الوظيفة الخ	وهو الكتاب السادس من ربيع العادات وفيه بابان
٢٦٣ كتاب آداب السماع والوجد	٣٢٢ 'باب الأول في نقل المذاهب والأويل
وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات وفيه بابان : الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه	وذكر حجج الفريقين في ذلك
٢٦٨ بيان الدليل على إباحة السماع	٢٢٣ ذكر حجج المائلين إلى المخالطة وجه ضعفها
٢٨٤ بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها	٢٢٤ ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة
٢٨٧ الباب الثاني في آثار السماع وآدابه وفيه مقامات ثلاث	٢٢٦ الباب الثاني في فوائد العزلة وغوائرها وكشف الحق في فضلها
٢٨٧ المقام الأول في الفهم	الفائدة الأولى التفرغ لعباده والفسك الخ
٢٩١ المقام الثاني بعد الفهم والتزبل الوجد	٢٢٨ الفائد الثانية التخص بالزلة عن الماصى التي يتعرض الإنسان لما الخ
٣٠١ المقام الثالث من السماع ذكر فيه آداب السماع ظاهره وباطنه الخ	٢٣٢ الفائدة الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس الخ
٣٠٦ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الكتاب التاسع من ربيع العادات الثاني وفيه أربعة أبواب	٢٣٣ الفائدة الرابعة الخلاص من شر الناس
٣٠٦ الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته	٢٣٥ الفائدة الخامسة أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس
٣١٢ الباب الثاني في أركان الأمر بالمعروف وشروطه ، وأركانه أربعة	٢٣٥ الفائدة السادسة الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحق ومقاساة حقهم وأخلاقهم الخ
الركن الأول المحتسب	٢٣٦ آفات العزلة المبينة على فوات فوائد المخالطة السبعة الآتية .
٣٢٤ الركن الثاني للحسبة ما فيه الحسبة	الفائدة الأولى التعليم والتعلم
٣٢٧ الركن الثالث المحتسب عليه	٢٣٨ الفائدة الثانية النفع والانتفاع
٣٢٩ الركن الرابع نفس الاحتساب	الفائدة الثالثة التأديب والتأدب
	٢٣٩ الفائدة الرابعة والاستئناس والإيناس
	٢٤٠ الفائدة الخامسة في فضل الثراب ولذاته
	الفائدة السادسة من فوائد المخالطة التواضع
	٢٤١ الفائدة السابعة التجارب
	٢٤٤ كتاب آداب السفر
	وهو الكتاب السابع من ربيع العادات وفيه بابان

صحيفة	صحيفة
٣٦٤ بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والنقطتها من الأخبار	٢٣٣ باب آداب المحتسب
٣٦٤ بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه	٢٣٥ الباب الثالث في المنكرات المألوفة في العادات منكرات المساجد
٢٧٧ بيان أخلاقه وآدابه في الطعام	٣٣٨ منكرات الأسواق
٢٧٤ بيان أخلاقه في اللباس	منكرات الشوارع
٢٧٧ بيان عنده صلى الله عليه وسلم مع القدرة	٢٣٩ منكرات الحمامات
٣٧٨ بيان لغضائه <small>عليه السلام</small> عما كان يكرهه	٣٤٠ منكرات الضيافة
٢٧٩ بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم	٣٤٢ المنكرات العامة
٣٨٠ بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم	٢٤٣ الباب الرابع في أمر الأمرام والسلطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر
بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم	٣٥٧ كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة وهو الكتاب العاشر من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين
١٨١ بيان صورته وخلقه صلى الله عليه وسلم	٣٥٨ بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً
٣٨٣ بيان معجزاته وآياته لدالة على صدقه	